الرافدين على الجلالين

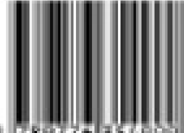
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثامن والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١).

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَاب النَّار إِلَّا مَلَائِكَة} أَيْ فَلَا يُطَاقُونَ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتهمْ} ذَلِكَ {إِلَّا فِتْنَة} ضَلَالًا {لِلَّذِينَ كَفَرُوا} بِأَنْ يَقُولُوا لِمَ كَانُوا تِسْعَة عَشَر {لِيَسْتَيْقِن} لِيَسْتَبِينَ {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب} أَيْ الْيَهُود صِدْق النَّبِيّ ﷺ فِي كَوْنهمْ تِسْعَة عَشَر الْمُوَافِق لِمَا فِي كِتَابهمْ {وَيَزْدَاد الَّذِينَ آمَنُوا} مِنْ أَهْل الْكِتَاب {إِيمَانًا} تَصْدِيقًا لِمُوَافَقَتِهِ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيّ ﷺ لِمَا فِي كِتَابهمْ {وَلَا يَرْتَاب الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب وَالْمُؤْمِنُونَ} مِنْ غَيْرهمْ فِي عَدَد الْمَلَائِكَة {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض} شَكّ بِالْمَدِينَةِ {وَالْكَافِرُونَ} بِمَكَّة {مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا} الْعَدَد {مَثَلًا} سَمَّوْهُ لِغَرَابَتِهِ بِذَلِكَ وَأُعْرِبَ حَالًا {كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل إِضْلَال مُنْكِر هَذَا الْعَدَد وَهَدَى مُصَدِّقه {يُضِلّ الله مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء وَمَا يَعْلَم جُنُود رَبّك} أَيْ الْمَلَائِكَة فِي قُوَّتهمْ وَأَعْوَانهمْ {إِلَّا هُوَ وَمَا هي} أي سقر {إلا ذكرى للبشر}.

كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢).

{كلا} استفتاح بمعنى ألا {والقمر}.

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣).

{والليل إذا} بفتح الذال {دبر} جاء بعد النهار وفي قراءة إذ أَدْبَرَ بِسُكُونِ الذَّال بَعْدهَا هَمْزَة أَيْ مَضَى.

وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤).

{وَالصُّبْح إذَا أَسْفَرَ} ظَهَرَ.

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥).

{إنَّهَا} أَيْ سَقَر {لَإِحْدَى الْكُبَر} الْبَلَايَا الْعِظَام.

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦).

{نَذِيرًا} حَال مِنْ إحْدَى وَذُكِّرَ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى العذاب {للبشر}.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧).

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ} بَدَل مِنْ الْبَشَر {أَنْ يَتَقَدَّم} إلَى الْخَيْر أَوْ الْجَنَّة بِالْإِيمَانِ {أَوْ يَتَأَخَّر} إلَى الشَّرّ أَوْ النَّار بِالْكُفْرِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن إسحاق؛ أنه قال: قال أبو جهل يومًا: يا معشر قريش! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} الآية.

ذكره السيوطي في "اللباب" (ص ٢٢٤). وهذا معضل.

* قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} [المدثر: ٣١]، أي:"وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ".

قال الطبري: يقول: "وما جعلنا خزَنة النار إلا ملائكة يقول لأبي جهل في قوله لقريش: أما يستطيع كلّ عشرة منكم أن تغلب منها واحدا؟ فمن ذا يغلب خزنة النار وهم الملائكة".

قال ابن زيد:"ما جعلناهم رجالا فيأخذ كلّ رجل رجلا كما قال هذا".

=

قال ابن كثير:"أي: زبانية غلاظا شدادا. وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً}، أي: شديدي الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون. وقد قيل: إن أبا الأشدين - واسمه: كَلَدَة بن أسيد بن خلف - قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجابا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: «وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مرارا، فلم يؤمن. قال: وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب».

قلت قلت قلت-ابن كثير-: ولا منافاة بين ما ذكراه".

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر: ٣١]، أي:"وما جعلنا ذلك العدد إلا اختبارًا للذين كفروا بالله".

قال الطبري: "يقول: وما جعلنا عدّة هؤلاء الخزنة إلا فتنة للذين كفروا بالله من مُشركي قريش، لتكذيبهم بذلك، وقول بعضهم لأصحابه: أنا أكفيكموهم".

قال الزجاج:"أَيْ: مِحْنَةً، لأن بعضهم قال بعضنا يكفي هؤلاء.

قال ابن كثير:"أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختبارًا منَّا للناس".

عن قتادة: "{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا}: إلا بلاء".

قال مجاهد:"جعلوا فتنة، قال أبو الأشدّ بن الجمحي: لا يبلغون رتوتي حتى أجهضهم عن جهنم".

عن الأزرق بن قيس، عن رجل، من بني تميم، قال: كنا عند أبي العوام فقرأ هذه الآية {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ٣٠]، فقال: "ما تقولون: أتسعة عشر ملكا أو

=

تسعة عشر ألف ملك؟ " فقلت أنا: بل تسعة عشر ألفا، قال: «ومن أين علمت ذلك؟» فقلت: لأن الله ﷻ يقول: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر: ٣١] فقال أبو العوام: «صدقت وبيد كل ملك منهم مرزبة من حديد لها شعبتان، فيضرب بها الضربة يهوي بها سبعين ألفا بين منكبي كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا».

قوله تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [المدثر: ٣١]، أي:"وليحصل اليقين للذين أُعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بأنَّ ما جاء في القرآن عن خزنة جهنم إنما هو حق من الله تعالى، حيث وافق ذلك كتبهم".

قال الطبري: يقول:"ليستيقن أهل التوراة والإنجيل حقيقة ما في كتبهم من الخبر عن عدّة خزَنة جهنم، إذ وافق ذلك ما أنزل الله في كتابه على محمد ﷺ".

قال الزجاج:"أي: يعلمون أن ما أَتى به النبي عليه السلام موَافِقًا لما في كتبهم".

قال ابن كثير:"أي: يعلمون أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله".

عن مجاهد، قوله: "{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، قال: يجدونه مكتوبا عندهم عدّة خزَنة أهل النار".

قال الضحاك:"عدّة خزَنة جهنم تسعة عشر في التوراة والإنجيل".

قال قتادة:"يصدّق القرآن الكتب التي كانت قبله فيها كلها، التوراة والإنجيل أن خزنة النار تسعة عشر".

قال قتادة:"ليستيقن أهل الكتاب حين وافق عدّة خزَنة النار ما في كتبهم".

قال ابن عباس:"وإنها في التوراة والإنجيل تسعة عشر، فأراد الله أن يستيقن أهل الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا".

وعن ابن زيد، قوله: "{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، أنك رسول الله".

=

=

قوله تعالى: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: ٣١]، أي:"ويزداد المؤمنون تصديقًا بالله ورسوله وعملا بشرعه".

قال مقاتل:"يعني: تصديقا ولا يشكوا في محمد- ﷺ- بما جاء به".

قال الطبري: يقول: "وليزداد الذين آمنوا بالله تصديقا إلى تصديقهم بالله وبرسوله بتصديقهم بعدّة خزنة جهنم".

قال الزجاج:"لأنهم كلَّمَا صَدقوا بما يَأتي في كتاب الله ﷻ زاد إيمانهم".

قال ابن كثير:"أي: إلى إيمانهم. بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ".

عن الرّبيع بن سليمان، قال: سمعتُ الشافعي يقول: "الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، ويَنقص بالمعصية. ثم تلا هذه الآية: {ويزداد الذين آمنوا إيمانًا} الآية".

قوله تعالى: {وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} [المدثر: ٣١]، أي:"ولا يشك في ذلك الذين أُعطوا الكتاب من اليهود والنصارى ولا المؤمنون بالله ورسوله".

قال الزجاج:"أيْ لَا يَشكون".

قال الطبري: "يقول: ولا يشك أهل التوراة والإنجيل في حقيقة ذلك، والمؤمنون بالله من أمة محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا} [المدثر: ٣١]، أي:"وليقول الذين في قلوبهم نفاق والكافرون: ما الذي أراده الله بهذا العدد المستغرب؟".

قال الطبري: "وليقول الذين في قلوبهم مرض النفاق، والكافرون بالله من مشركي قريش: {مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلا}".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟".

عن قتادة: "{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، أي: نفاق".

قال ابن زيد، في قوله: "{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلا}، يقول: حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [المدثر: ٣١]، أي:"بمثل ذلك الذي ذُكر يضلُّ الله من أراد إضلاله، ويهدي مَن أراد هدايته".

قال الطبري: يقول:"كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين في خبر الله عن عدّة خزنة جهنم، أيّ شيء أراد الله بهذا الخبر من المثل حتى يخوّفنا بذكر عدتهم، ويهتدي به المؤمنون، فازدادوا بتصديقهم إلى إيمانهم إيمانا {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ} مِنْ خَلْقِهِ فيخذله عن إصابة الحقّ {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} منهم، فيوفقه لإصابة الصواب".

قال ابن كثير:"أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة".

قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١]، أي:"وما يعلم عدد جنود ربك -ومنهم الملائكة- إلا الله وحده".

قال الطبري: "{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ} من كثرتهم {إلا هُوَ}، يعني: الله".

قال ابن كثير:"أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة ومن الفلاسفة اليونانيين. ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه

الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ}".

=

=

عن قتادة: "{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ}، أي: من كثرتهم".

قال عطاء: "يعني: من الملائكة الذين خَلَقهم لتعذيب أهل النار، لا يَعلم عِدّتهم إلا الله".

قال الزمخشري: "فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها".

قال السعدي: "فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب".

وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما. عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحُقَّ لها أن تَئط، ما فيها موضع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا، ولا تَلَذّذتم بالنساء على الفُرُشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ﷻ". فقال أبو ذر: والله لوددتُ أني شجرة تُعضد".

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك! ما عبدناك حَقَّ عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئًا".

عن حكيم بن حزام قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم: "هل تسمعون ما أسمع؟ " قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: "أسمع أطيط السماء وما تلام أن تَئطّ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو

=

=

ساجد".

قوله تعالى: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٣١]، أي:"وما النار إلا تذكرة وموعظة للناس".

قال الطبري: يقول: "وما النار التي وصفتها إلا تذكرة ذكر بها البشر، وهم بنو آدم".

قال السعدي:"أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصودا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه".

عن مجاهد، وقتادة، قوله: "{وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}، يعني: النار".

قال الزجاج:"جاء في التفسير أن النار في الدنيا تذكر بالنار في الآخرة".

قال الرازي: واعلم أنه تعالى إنما جعلهم ملائكة لوجوه:

أحدها: ليكونوا بخلاف جنس المعذبين، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة، ولذلك بعث الرسول المبعوث إلينا من جنسنا ليكون له رأفة ورحمة بنا.

وثانيها: أنهم أبعد الخلق عن معصية الله تعالى وأقواهم على الطاعات الشاقة.

وثالثها: أن قوتهم أعظم من قوة الجن والإنس.

- كل ما ورد (أصحاب النار) فالمراد أهلها الكفار الذين لا يخرجون منها إلا في هذا الموضع (أصحاب النار) أي: الملائكة الخزنة.

-**قال الرازي**: هذا العدد إنما صار سببا لفتنة الكفار من وجهين:

الأول: أن الكفار يستهزئون، يقولون: لم لم يكونوا عشرين، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود؟

الثاني: أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله إلى قيام القيامة؟

(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) اللام للتعليل، أي: ليتيقن أهل الكتاب من صدق

=

محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزلة.

-**قال الرازي**: إن قيل: ما وجه تأثير إنزال هذا المتشابه في استيقان أهل الكتاب؟

الجواب: من وجوه:

أحدها: أن هذا العدد لما كان موجودا في كتابهم، ثم إنه عليه السلام أخبر على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم، فظهر أن ذلك إنما حصل بسبب الوحي من السماء فالذين آمنوا بمحمد من أهل الكتاب يزدادون به إيمانا.

وثانيها: أن التوراة والإنجيل كانا محرفين، فأهل الكتاب كانوا يقرأون فيهما أن عدد الزبانية هو هذا القدر، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله قوي إيمانهم بذلك واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق.

(ويزداد الذين آمنوا إيمانا) أي: ويزداد المؤمنون تصديقا بالله ورسوله، بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم.

فزيادتهم إيمانهم من وجهين:

أولا: بما يهدون من صدق أخبار نبيهم محمد وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله.

الثاني: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.

-وقال البقاعي: (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بتصديق ما لم يعلموا وجه حكمته لا سيما مع افتتان غيرهم به وكثرة كلامهم فيه، فإن الإيمان بمثل ذلك يكون أعظم.

- وفي الآية أن الإيمان يزيد وينقص كما هو معتقد أهل السنة والجماعة:

كما قال تعالى (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم).

وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون).

=

وقال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا).

وقال تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا).

(ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) أي: ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيد لما قبله، لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك.

(وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي: ولأجل أن يكون ذلك سببا في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون (والكافرون) الجاحدون المكذبون، ليقولوا (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي: يقولون: ما الحكمة من ذكر هذا هاهنا؟

- قوله تعالى (وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي: المنافقين، وهذا قول أكثر المفسرين.

- **فإن قلت**: النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية، قلت: معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة.

- المرض أطلق في القرآن على ثلاثة معاني:

الأول: مرض النفاق، كما قال تعالى (في قلوبهم مرض) أي: نفاق.

الثاني: التحير وضعف الإيمان، كما قال تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة).

الثالث: مرض الشهوة والميل إلى النساء، كما قال تعالى (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا).

(كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة

=

=

الدامغة.

-**قال السعدي**: فمن هداه الله، جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه.

(وما يعلم جنود ربك) أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنما هم تسعة عشر فقط.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في كثرة عدد الملاكة:

قال في البيت المعمور: (... يدخله كل يوم سبعون ألف ملك). رواه مسلم

وقال: (إني لأسمع أطيط السماء، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم).

(وما هي إلا ذكرى للبشر) أي: ما هذه النار التي وضعها لكم الجبار إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا.

الضمير في قوله (وما هي) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى سقر، والمعنى وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر.

ورجحه الطبري، وأبو حيان، والبغوي. لأن الآيات تتحدث عن النار.

-**قال البغوي**: (وما هي) يعني سقر (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة وموعظة للناس.

والثاني: أنه عائد إلى هذه الآيات في وصف النار.

قوله تعالى: {كَلَّا وَالْقَمَرِ} [المدثر: ٣٢]، أي:"ليس الأمر كما ذكروا من التكذيب للرسول فيما جاء به، أقسم الله سبحانه بالقمر".

قال الطبري: يقول:"ليس القول كما يقول من زعم أنه يكفي أصحابَهُ المشركين خزنةُ جهنم حتى يجهضهم عنها، ثم أقسم ربنا تعالى فقال: {وَالْقَمَرِ..}".

(كلا) كلا بمعنى حقا، أو بمعنى (ألا) الاستفهامية.

=

قال الفراء (كلا) صلة للقسم، التقدير أي والقمر.

وقيل: المعنى حقا والقمر؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على (كلا).

وأجاز الطبري الوقف عليها، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم؛ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار. (والقمر) أقسم تعالى بالقمر.

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [المدثر: ٣٣]، أي:"وبالليل إذ ولى وذهب".

قال الطبري: **"**يقول: والليل إذ ولَّى ذاهبا".

عن قتادة: "{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}: إذ ولَّى".

وقال ابن عباس:"دبوره: إظلامه".

وقرئ: «إذا دَبَر».

قوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [المدثر: ٣٤]، أي:"وبالصبح إذا أضاء وانكشف".

قال الطبري: "والصبح إذا أضاء".

قال ابن كثير:**"**أي: أشرق".

عن قتادة: "{وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}: إذا أضاء وأقبل".

وفي الحديث (أسفروا بالفجر) ومنه قوله (وجوه يومئذ مسفرة) أي مضيئة.

أقسم تعالى بالقمر (والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر) لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته وعنايته بخلقه.

قوله تعالى: {إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ} [المدثر: ٣٥]، أي:"إن النار لإحدى العظائم".

قال الطبري: يقول:"إن جهنم لإحدى الأمور العظام".

قال ابن كثير:**"**أي: العظائم، يعني: النار".

=

قال الزجاج:"هذه «الهاء» كناية عَنِ «النَّارِ»، أَي: إنَّها لكبيرة فِي حَالِ الإِنذار".

عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وأبي رزين: "{إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ}، يعني: جهنم".

قال قتادة:"هي النار".

قال ابن زيد:"هذه النار".

أي: إن النار لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة.

وقيل: الضمير يعود على القيامة، واختاره ابن القيم.

وقيل: إنه عائد على عدة خزنة جهمك التسعة عشر.

والأرجح الأول، وقد جاء وصف النار بالكبرى في قوله تعالى (الذي يصلى النار الكبرى).

واختاره أبو حيان. فقال: الظاهر أن الضمير في (إنها) عائد على النار.

-**قال البغوي**: (إنها لإحدى الكبر) يعني أن سقر لإحدى الأمور العظام، وواحد الكبر: كبرى.

-قال البقاعي: (إنها) أي النار التي سقر دركة من دركاتها.

قوله تعالى: {نَذِيرًا لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٣٦]، أي:"إنذارًا وتخويفًا للناس".

قال الطبري: يقول:"إن النار لإحدى الكبر، نذيرا لبنى آدم".

قال الحسن: "والله ما أُنذر الناسُ بشيء أدهى منها، أو بداهية هي أدهى منها".

وروي عن أبي رزين، قوله:"{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ}، يقول الله: أنا لكم منها نذير فاتقوها".

وروي عن ابن زيد، في قوله: "{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ}، قال: الخلق. قال: بنو آدم، البشر. فقيل له: محمد النذير؟ قال: نعم ينذرهم".

أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم.

=

=

وقد أمر الله باتقائها في آيات كثيرة:

فقال تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة).

وقال تعالى (فأنذرتكم نارا تلظى).

وقال تعالى (والصبح إذا أسفر. إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر) قال الحسن البصري: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها.

وقال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) متفق عليه.

واتقاء النار يكون: بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه..

وأمر بالاستعاذة منها. كما قال (استعيذوا بالله من عذاب جهنم) متفق عليه.

وكان يقول في صلاته (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم) متفق عليه.

ومن صفات عباد الله الخوف منها، كما قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما).

- هناك أعمال تنجي من النار منها:

الإيمان بالله: قال تعالى (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار).

والصيام: قال (الصيام جنة يستجن به من النار) رواه أحمد.

وقال (من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا) متفق عليه.

والبكاء من خشية الله: قال (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي.

والاستجارة بالله من النار: كما قال (ما سأل أحد الله ثلاثا إلا قالت الجنة: اللهم

=

=

أدخله الجنة، ولا استجار رجل مسلم من النار ثلاثا إلا قالت النار: اللهم أجره مني).

قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [المدثر: ٣٧]، أي:"لمن أراد منكم أن يتقرَّب إلى ربه بفعل الطاعات، أو يتأخر بفعل المعاصي".

قال الطبري: يقول:"نذيرًا للبشر لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدّم في طاعة الله، أو يتأخر في معصية الله".

قال الزجاج:"أي: أن يتقدم فيما أمر به أو يتأخر، فقد أنذرتم".

قال ابن كثير:"أي: لمن شاء أن يقبل النّذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها".

قال ابن عباس:"من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها".

قال قتادة:"يتقدّم في طاعة الله، أو يتأخر في معصيته".

(لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها، فالمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه.

قال الطبري: يقول تعالى: نذيرا للبشر لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر في معصية الله.

- قال ابن عاشور: والمعنى: إنها نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الإيمان والخير لينتذر بها، ولمن شاء أن يتأخر عن الإيمان والخير فلا يرعوي بنذارتها لأن التقدم مشي إلى جهة الإمام فكأن المخاطب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإيمان وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه، وبعكسه التأخر.

- وفي هذا المسارعة إلى الخيرات كما في الحديث (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم.

=

=

وفي الحديث (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله) رواه مسلم.
(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥) نذيرا للبشر (٣٦) لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧)} [المدثر: ٣٢ - ٣٧].
أقسم - سبحانه - بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه، وحكمته، وعلمه، وعنايته بخلقه = ما هو معلوم بالمشاهدة.
وهو - سبحانه - أقسم بالسماء وما فيها مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس، والقمر، والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.
ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما، وجرمهما، ونورهما، وحركتهما على نهج واحد، لا ينيان، ولا يفتران، دائبين، ولا يقع في حركاتهما اختلاف بالبطء، والسرعة، والرجوع، والاستقامة، والانخفاض، والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكل حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر، كما أن له تأثيرا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.
وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مبادئها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما

=

=

قاله أولو الألباب قبلنا: {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١)} [آل عمران: ١٩١].

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير، عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء، وأحسنه، وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت إجاراتهم، ومداينا تهم، ومعاملاتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

وقد ذكر - سبحانه - ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها: قوله ﷻ: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج} [البقرة: ١٨٩].

والثانية: قوله ﷻ: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} الآية [يونس: ٥].

والثالثة: قوله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب} الآية [الإسراء: ١٢].

فلولا ما يحدثه الله - سبحانه - في آية الليل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم، والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال المعاملات.

فإن قيل: كان يمكن علم هذا بحركة الشمس، وبالأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس.

=

=

قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابا واختلافا، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه، فالحكمة الباهرة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل بذلك من الاستدلال به على وحدانيته، وكمال حكمته، وعلمه، وتدبيره. فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة، والملاحدة؛ القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير "القمر" مثلا، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائبا لا يتغير، مسير، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئا فشيئا، ثم عوده إليه كذلك، وذهاب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف = علم – قطعا – أنه مخلوق مربوب، مسخر تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء، وعلم أن الرب – سبحانه – لم يخلق هذا باطلا، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي إلى ضده، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويري المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه، كما يري عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس

=

=

تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره، كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله، ومبارد عباده تسحقه وتمحقه، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم، وكما أرى عباد الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرؤوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام.

وهذه سنته التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يري عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادته أراه تبريه منه، ومعاداته له؛ أحوج ما يكون إليه، {ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة} [الأنفال: ٤٢]، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"

ولو شاء - تعالى - لأبقى "القمر" على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغير في "الشمس"، ولو شاء لغيرهما معا، ولو شاء لأبقاهما معا على حالة واحدة، ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (٥٤)} [الأعراف: ٥٤].

وأما تأثير "القمر" في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع = فأمر ظاهر.

فصل: وأما إقسامه - سبحانه - بـ "الليل إذ أدبر" فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود

=

بالعيان، بينا الحيوان في سكون الليل وقد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"، فهو معاد جديد، أبدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب المواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظيم قدرته وحكمته.

فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيما لسلطان الليل والنهار، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معايشهم، ويتصرفون في أمورهم؛ والدنيا مظلمة عليهم؟! وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه؟! وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟! وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟! ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء؛ لراحة أبدانهم، وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته لما هدأوا، ولا قروا، ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنا ولباسا، كما جعل النهار ضياء ومعاشا.

ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحترق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور

=

والظلمة - على تضادهما - متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله - سبحانه - النهار سرمدا إلى يوم القيامة، أو الليل سرمدا إلى يوم القيامة؛ لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته - سبحانه - في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق:

ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد ، فيحدث المطر الذي به حياة الأرض، ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى، وحركات الطبائع.

وفي الصيف يحتدم الهواء، فتنضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجف وجه الأرض، فيتهيأ للعمل.

وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين.

ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة.

فـ "السنة الشمسية" مقدار سير الشمس من نقطة "الحمل" إلى مثلها، و"السنة القمرية" مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط، واشتراك الناس في العلم به.

وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما لما في ذلك من تمام الحكمة، ولطف التدبير؛ فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوءها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك، فجعل الله - سبحانه - طلوعها دولا بين الأرض؛ لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى

=

=

موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها.

واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربع وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمس عشرة ساعة، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة - مثلا - أو أكثر لاختل نظام العالم، وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام - أيضا - وتعطلت المصالح، ولو استويا دائما لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك من تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر - سبحانه - هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال تعالى: {وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨)} [يس: ٣٧، ٣٨].

وقال تعالى: {قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)} [فصلت: ٩ - ١٢].

وقال تعالى: {فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم (٩٦)} [الأنعام: ٩٦].

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما نشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين، وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته، واختياره، وعلمه بالمغيبات.

=

=

فصل: وأقسم - سبحانه - بهذه الأشياء الثلاثة - وهي: القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر - على المعاد؛ لما في المقسم به من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته، وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته؛ فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به رسله كلهم عنه.

فصرف - سبحانه - الآيات الدالة على صدقه وصدق رسله، ونوعها، وجعلها للفطر تارة، وللعقول تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلا كفورا، {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا (٣)} [الفرقان: ٣].

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه، واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المساكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين.

فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين، وأدخلتهم في جملة الهالكين:

الأولى: ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية: ترك إطعام المسكين الذي هو أهم مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص

=

=

للخالق، ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: {الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون (٧)} [الماعون: ٦، ٧]، وقال تعالى: {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون (٥٤)} [التوبة: ٥٤]، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله- ﷻ: {الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣)} [الأنفال: ٣]، وقال تعالى: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون (١٦)} [السجدة: ١٦].

وقرن - سبحانه - بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه؛ فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعلهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة، والرابعة: الخوض بالباطل، والتكذيب بالحق.

فاجتمع لهم: عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل، والتكذيب بالحق.

واجتمع لأصحاب اليمين: الإخلاص، والإحسان، والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم، وإحسانهم، ويقينهم، وكلامهم.

واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكا وتكذيبا، وبالكلام النافع خوضا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي: لم يكن لهم من يشفع فيهم، لا أن شفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية أن ذلك إليه لا إليهم. فالأول: عدله، والثاني: فضله.

فالأول: يوجب السعي، والطلب، والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك

=

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨).

{كُلّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة} مَرْهُونَة مَأْخُوذَة بِعَمَلِهَا فِي النَّار.

إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩).

{إِلَّا أَصْحَاب الْيَمِين} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَنَاجُونَ مِنْهَا كائنون.

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠).

{فِي جَنَّات يَتَسَاءَلُونَ} بَيْنهمْ.

عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١).

{عَنْ الْمُجْرِمِينَ} وَحَالهمْ وَيَقُولُونَ لَهُمْ بَعْد إخْرَاج الموحدين من النار.

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢).

{ما سلككم} أدخلكم {في سقر.

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣).

{قالوا لم نك من المصلين}.

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤).

{ولم نك نطعم المسكين}.

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥).

{وكنا نخوض} في الباطل {مع الخائضين}.

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦).

=

في مصالح دنياهم، بل أشد.

والثاني: يوجب الاستعانة، والتوكل، والتفويض، والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهله، ويوفقهم له. والله المستعان، وعليه التكلان.

{وَكُنَّا نُكَذِّب بِيَوْمِ الدِّين} الْبَعْث وَالْجَزَاء.

حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧).

{حَتَّى أَتَانَا الْيَقِين} الْمَوْت.

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨).

{فَمَا تَنْفَعهُمْ شَفَاعَة الشَّافِعِينَ} مِنْ الْمَلَائِكَة وَالْأَنْبِيَاء وَالصَّالِحِينَ وَالْمَعْنَى لَا شَفَاعَة لَهُمْ.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩).

{فَمَا} مُبْتَدَأ {لَهُمْ} خَبَره مُتَعَلِّق بِمَحْذُوفٍ انْتَقَلَ ضَمِيره إلَيْهِ {عَنْ التَّذْكِرَة مُعْرِضِينَ} حَال مِنْ الضَّمِير وَالْمَعْنَى أَيّ شَيْء حَصَلَ لَهُمْ فِي إعْرَاضهمْ عَنْ الِاتِّعَاظ.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠).

{كَأَنَّهُمْ حُمُر مُسْتَنْفِرَة} وَحْشِيَّة.

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١).

{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة} أَسَد أَيْ هَرَبَتْ مِنْهُ أشد الهرب.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢).

{بَلْ يُرِيد كُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَة} أَيْ مِنْ الله تَعَالَى بِاتِّبَاعِ النَّبِيّ كَمَا قَالُوا لَنْ نُؤْمِن لَك حَتَّى تُنَزِّل عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ.

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣).

{كَلَّا} رَدْع عَمَّا أَرَادُوهُ {بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَة} أَيْ عَذَابهَا.

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤).

{كَلَّا} اسْتِفْتَاح {إنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {تَذْكِرَة} عِظَة.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥).

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} قَرَأَهُ فَاتَّعَظَ بِهِ.

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦).

{وَمَا يَذْكُرُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {إِلَّا أَنْ يَشَاء الله هُوَ أَهْل التَّقْوَى} بِأَنْ يُتَّقَى {وَأَهْل الْمَغْفِرَة} بأن يغفر لمن اتقاه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي؛ قال: قالوا: لئن كان محمد صادقًا؛ فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار؛ فنزلت: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٤) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر: ٣٨]، أي:"كل نفس بما كسبت من أعمال الشر والسوء محبوسة مرهونة بكسبها، لا تُفَكُّ حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات".

قال الطبري: يقول:"كلّ نفس مأمورة منهية بما عملت من معصية الله في الدنيا، رهينة في جهنم".

قال ابن كثير:"أي: معتقلة بعملها يوم القيامة".

قال السعدي:"من أعمال السوء وأفعال الشر {رَهِينَةٌ} بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب".

قال ابن عباس:"يقول: مأخوذة بعملها".

قال الزجاج:"وكل نفْس رَهِينة بِعَمَلِهَا إما خَلَّصَهَا وإما أوبَقَهَا. والتخليص مع عملها بتفضل الله".

=

=

قولـه تعـالى: {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [المـدثر: ٣٩]، أي:"إلا المـسلمين المخلصين أصحاب اليمين الذين فكُّوا رقابهم بالطاعة".

قال الطبري: فإنهم غير مرتهنين".

قال السعدي:"فإنهم لم يرتهنوا".

قال مجاهد:"لا يحاسبون".

قال قتادة:"علَّق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين".

قال الضحاك:"كل نفس سبقت له كلمة العذاب يرتهنه الله في النار، لا يرتهن الله أحدا من أهل الجنة، ألم تسمع أنه قال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} -يقول: ليسوا رهينة {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُون}".

قال ابن زيد:"أصحابَ اليمين لا يرتهنون بذنوبهم، ولكن يغفرها الله لهم، وقرأ قول الله: {إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}، قال: لا يؤاخذهم الله بسيئ أعمالهم، ولكن يغفرها الله لهم، ويتجاوز عنهم كما وعدهم".

قال ابن عباس:"إن كان أحدهم سبقت له كلمة العذاب جُعلَ منزله في النار يكون فيها رهنا، وليس يرتهن أحد من أهل الجنة هم في جنات يتساءلون".

واختلف أهل التفسير في «أصحاب اليمين»، الذين ذكرهم الله في هذا الموضع، على قولين:

أحدهما: أنهم الملائكة. قاله ابن عباس.

الثاني: أنهم أطفال المسلمين. قاله علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:"أولاد المسلمين"، وفي رواية:"هم أطفال المسلمين"، وفي رواية:"هم الولدان".

قال الزجاج:"قيل أصحابُ اليمين الأطْفَالُ لأنهم لا يسألون، تفضل الله عليهم بأن أعطاهم الجنَّة".

=

=

وقال الحسن: "{إلّا أصْحابَ اليَمِينِ} هم المسلمون المُخلصون".
وقال الحسن:"هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم.
قال الطبري:"وإنما قال من قال: أصحاب اليمين في هذا الموضع: هم الولدان وأطفال المسلمين؛ ومن قال: هم الملائكة، لأن هؤلاء لم يكن لهم ذنوب، وقالوا: لم يكونوا ليسألوا المجرمين {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}، إلا إنهم لم يقترفوا في الدنيا مآثم، ولو كانوا اقترفوها وعرفوها لم يكونوا ليسألوهم عما سلكهم في سقر، لأن كلّ من دخل من بني آدم ممن بلغ حدّ التكليف، ولزِمه فرض الأمر والنهي، قد علم أن أحدا لا يعاقب إلا على المعصية".
قال الشوكاني (إلا أصحاب اليمين) فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم، واختلف في تعيينهم.
فقيل: هم الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين اختارهم الله لخدمته.
وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).
قوله تعالى: {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)} [المدثر: ٤٠ - ٤٢]، أي:"هم في جنات لا يُدْرَك وصفها، يسأل بعضهم بعضًا عن الكافرين الذين أجرموا في حق أنفسهم: ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟".
قال الطبري: يقول: "أصحاب اليمين في بساتين يتساءلون عن المجرمين الذين سلكوا في سقر، أيّ شيء سلككم في سقر؟".
قال ابن كثير:"أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات
=

قائلين لهم:
{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}".

قال السعدي:"أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟ فقال بعضهم لبعض: "هل أنتم مطلعون عليهم" فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}، أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟".

عن عمرو بن دينار قال: "سمعت عبد الله بن الزبير يقرأ: «في جنات يتساءلون عن المجرمين يا فلان ما سلككم في سقر»، قال عمرو: وأخبرني لقيط قال: سمعت ابن الزبير قال: سمعت عمر بن الخطاب يقرؤها كذلك".

عن معونة بن قُرّة -من طريق سلام- قال: "ما يَسُرّني بهذه الآية الدنيا وما فيها؛ قوله ﷻ: {ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}، ألا ترى أنه ليس فيهم خير".

أي: في جنات قد حصل لهم جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة.

- والجنات جمع جنة، والجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) أي البستان، وفي قوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

- وقوله تعالى (في جنات) أحيانا تأتي مفردة كقوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) وأحيانا تأتي مجموعة، فإفرادها باعتبار الجنس، وجمعها باعتبار النوع، لأن الجنة، وقد ذكر الله في آخر سورة الرحمن أربعة أنواع (ولمن خاف

=

مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) والأوليان أشرف.

(يتساءلون) أي: من تمام الراحة والطمأنينة أقبلوا يتساءلون فأفضت بهم المحادثة بالسؤال عن المجرمين.

(عن المجرمين) أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم:

(ما سلككم في سقر) أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟

- المقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل، والمعنى ما حبسكم في هذه الدركة من النار؟

-المجرم مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال.

قوله تعالى: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر: ٤٣]، أي:"قال المجرمون: لم نكن من المصلِّين في الدنيا".

قال الطبري: "قال المجرمون لهم: لم نك في الدنيا من المصلين لله".

قال ابن كثير:"أي: ما عبدنا ربنا".

قال السعدي: أي:"فلا إخلاص لهم للمعبود".

أي: لم نك من المصلين في الدنيا لرب العالمين.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة المفروضة، التي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وفرضت أول ما فرضت خمسين صلاة.

قوله تعالى: {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} [المدثر: ٤٤]، أي:"ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين".

قال السعدي:"ولا نفع لهم للخلق المحتاجين".

=

=

قال الطبري: "بخلا بما خوّلهم الله، ومنعا له من حقه".
قال ابن كثير: أي:"ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا".
أي: ولم نك نخرج الزكاة للفقراء المحتاجين بخلا بما آتاهم الله، والزكاة من أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو ٨٢ موضعا في القرآن الكريم.
-وهذان يجب أن يكونا محمولين على الصلاة الواجبة، والزكاة الواجبة لأن ما ليس بواجب، لا يجوز أن يعذبوا على تركه.
قوله تعالى: {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [المدثر: ٤٥]، أي:"وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغَواية والضلالة".
قال الطبري:"يقول: وكنا نخوض في الباطل وفيما يكرهه الله مع من يخوض فيه".
قال الزجاج:"أي: نَتّبِعُ الغاوِينَ".
قال ابن كثير:"أي: نتكلم فيما لا نعلم".
قال القشيري: أي:"نشرع في الباطل، ونكذّب بيوم الدين".
قال السعدي:"أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق".
عن قتادة: "{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ}، قال: كلما غوى غاوٍ غوى معه".
قال قتادة:"يقولون: كلما غوى غاو غوينا معه".
قال الزمخشري:"الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي".
أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحق، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون.
- قال ابن جزي: الخوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه.
- ومن هنا ينبغي للمسلم أن يحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال

=

=

والغيبة والنميمة ونحو ذلك.

قوله تعالى: {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المدثر: ٤٦]، أي:"وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء".

قال الطبري: "قالوا: وكنا نكذّب بيوم المجازاة والثواب والعذاب، ولا نصدّق بثواب ولا عقاب ولا حساب".

قال السعدي:"هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق".

أي: نكذب بيوم الدين وهو يوم الجزاء والمعاد.

- والدين يطلق على معنيين: الأول على الجزاء كقوله تعالى (مالك يوم الدين) وقوله تعالى (وإن الدين لواقع). ويطلق على العمل كقوله تعالى (لكم دينكم ولي الدين).

- قال ابن عاشور: فكأنهم قالوا: لأنا لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين ويصدقون الرسل وقد جمعها قوله تعالى في سورة البقرة (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون).

(تنبيه): استدل بهذه الآيات على تكليف الكفّار بفروع الشّريعة.

(تنبيهات): أولًا: لا خلاف بين العلماء في أن الكفار مكلَّفون بالإيمان، أي: مكلَّفون بأصول الشريعة، وأن تركهم لهذه الأصول يوجب تخليدهم في النار، كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

=

خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ).

ثانيًا: ولا خلاف بين العلماء في أن الكفار مكلَّفون. بالمعاملات كالبيع، والشراء، والرهن، والإجارة.

ثالثا: ولا خلاف بين العلماء في أن الكفار مكلَّفون بالعقوبات كالحدود والقصاص. وبعض العلماء يعبر عما سبق بقوله: أجمع العلماء على أن الكفار مخاطبون بخطاب الوضع مثل اعتبار جناياتهم سببا في وجوب عقوباتهم عليهم، ولذلك تقام عليهم الحدود عند تقرر أسبابها، كما يعتبر وقوع عقودهم على الأوضاع الشرعية سببا لترتب آثارها عليهم كالبيع، والنكاح، ونحوهما، كما يعتبر الإتلاف منهم سببا لوجوب الضمان عليهم. والسبب في تكليفهم بالمعاملات: أن المعاملات قصد بها الحياة الدنيا، فالكفار بها أنسب؛ لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. والسبب في تكليفهم بالعقوبات: أن العقوبات قصد بها الزجر عن ارتكاب أسبابها، والكفار أحق بالزجر وأوْلى به من المؤمنين.

رابعا: أن ما عدا ما ذكرنا من فروع الشريعة كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وإيقاع طلاقه، وعتقه، وظهاره، وإلزامه بالكفارات، ونحو ذلك، فقد اختلف العلماء هل الكفار مكلَّفون بها أو لا؟ أي: إذا أمر الشارع بفعل شيء أو نهى عن فعل شيء، واستعمل لفظا شاملًا وعاما، فهل يدخل الكفار في هذا الخطاب فيكونون مكلَّفين بما كلِّف به المؤمنون؟ اختلف في ذلك على مذاهب:

المذهب الأول: أنهم مكلَّفون بفروع الشريعة مطلقا، أي: بالأوامر والنواهي. ذهب إلى ذلك: الإمام مالك، وهو ظاهر مذهب الشافعي، وهو رواية عن الإمام أحمد، واختاره كثير من المالكية، والشافعية، والحنابلة، وعامة أهل الحديث، وبعض الحنفية كالكرخي، والجصاص، وهو مذهب أكثر المعتزلة. وهو الصحيح عندي؛ لما يلي من الأدلة: الدليل الأول: أنه لو لم يوجد في الكافر غير

=

فقد شرط العبادة وهما الشهادتان، فإن فقد شرط العبادة مع القدرة عليه لا يمنع من توجه الخطاب بها. يدل على ذلك: المحدَث فإنه فقد فيه شرط الصلاة، ولم يمنع ذلك من وجوب الصلاة عليه وإلزامه بها بسبب قدرته على تحصيل الشرط، كذلك الكافر فإنه قادر على تحصيل شرط العبادة وهو: الإيمان. بيان ذلك: أن المحدث – وهو في حال حدثه ونجاسته – يؤمر بالصلاة بشرط تقديم الوضوء، كذلك الكافر – وهو في حال كفره – يؤمر بالصلاة وغيرها من العبادات بشرط تقديم الشهادتين، ولا فرق بينهما، والجامع: أن كلًّا منهما لا يصح منه العمل وهو في حالته تلك: فإذا أمر المسلم بالصلاة – وهو محدث – فإنه يكون مأمورًا بالشيء الذي لا تتحقق صحة الصلاة إلا به وهو الطهارة من باب: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كذلك الكافر يؤمر بالصلاة والزكاة والصوم، وغيرها، ومعروف أنه لا تتحقق صحة الصلاِة وغيرها من العبادات إلا بتقديم الشهادتين، إذًا هو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ما اعترض به على ذلك الدليل: الاعتراض الأول: لا نُسَلِّمُ الحكم في المقيس عليه؛ حيث إن المسلم المحدث – وهو المقيس عليه – لا يؤمر بالصلاة مباشرة، بل إنه يؤمر بالوضوء، فإذا توضأ أمر بالصلاة، بدليل: أن المحدث – حال حدثه – لا يتصور أن يؤمر بالصلاة؛ لأنه حال حدثه لا يمكن أن يمتثل الصلاة، بل يكون عاجزًا عن إيقاعها؛ لذلك قلنا: إنه يؤمر بالوضوء والتطهر، فإذا تطهر أمر – حينئذٍ – بالصلاة. جوابه: يجاب عنه بأنا لو سلمنا لكم أن المحدث يؤمر بالوضوء، فإذا توضأ أمر بالصلاة: للزم كما ذلك أمران باطلان: أولهما: أن المحدث لو ترك الصلاة طول عمره، فإنه لا يعاقب على تركها، بل يعاقب على ترك الوضوء – فقط –؛ لأنه ليس مأمورًا بغيره، ثم إذا فعله أمر بالصلاة، وهذا باطل؛ لأنه خلاف الإجماع؛ حيث أجمع العلماء على أن المحدث لو ترك الصلاة فإنه يعاقب على

=

=

تـرك الـصلاة، ولا يعاقـب علـى تـرك الوضـوء. ثانيهمـا: أنـه يلـزم - علـى كـلام المعترض -: أن المحدث إذا توضأ لا يصح أمره بالصلاة بعد ذلك، بل يؤمر بعد الوضوء بتكبيرة الإحرام، فيشترط تقديمها، بل يؤمر بهمزة التكبيـرة، ثـم الكـاف، وهكـذا، وكـذلك الـسعي إلـى الجمعـة ينبغـي أن لا يتوجه الأمر بـه إلا بـالخطوة الأولى، ثم بالثانية وهكذا، وهذا لم يقـل بـه أحـد. الاعـتراض الثـاني: أن قياسـكم الكفر على الحـدث مـن المـسلم قيـاس فاسـد؛ لأنـه قيـاس مـع الفـارق، بيانـه: أن المعنى في الحدث لا ينافي فعل الصلاة، ولهذا تصح صلاة المتيمم وهو محدث، والكفر ينافي الصلاة بكل حال.

جوابـه: يجـاب عنـه بـأن قياسـنا الكفـر علـى الحـدث قيـاس صـحيح، وذلـك لأن الحدث ينافي فعل الصلاة مـع القـدرة علـى المـاء، ولا يمنـع توجـه الخطـاب إلـى المحدث وهو في تلك الحال، فكذلك الكفـر ينـافي فعـل الـصلاة، ولكـن لا يمنـع من توجه الخطاب إليه، وهـو في تلـك الحـال. الـدليل الثـاني: قولـه تعـالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا). وجـه الدلالـة: أن لفـظ " النـاس " اسم - جنس معرف بأل الاستغراقية، فيشمل جميـع النـاس، والكفـار مـن جملـة الناس، فيدخلون في هذا الخطـاب، ولا مانع من دخـولهم تحـت الخطـاب " لأنـه لـو وجـد مـانع لكـان إمـا عقليًـا، وإمـا شـرعيًا. ولا يوجـد مـانع عقلـي مـن دخـول الكافر؛ لأن المـانع العقلي هو: فقد الـتمكن مـن الفعـل، والكـافر يمكنـه أن يحـج بأن يقدم قبله الإيمان، كما أن المسلم المحدث يوصف بالتمكن من الـصلاة بـأن يقدم عليها الطهارة. ولا يوجد مانع شرعي " لأنه لـو وجـد لعرفنـاه عنـد الطلـب. الدليل الثالث: قوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَـمْ نَـكُ نُطْعِـمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّـا نَخُـوضُ مَـعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّـا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦). وجه الدلالة: أن الله تعالى أخبر عنهم أنهم إنمـا عـاقبهم

=

=

يوم القيامة، وسئلوا عما عاقبهم لأجله، فاعترفوا بأنهم عوقبوا على ترك إقامة الصلاة، وإطعام الطعام، فدل على أن الخطاب متوجه إليهم بالعبادات، وأنهم يعاقبون على تركها، فيعذبون على تركها جميعًا، فدل ذلك على تكليفهم. ما اعترض به على ذلك:

الاعتراض الأول قيل فيه: إن هذه حكاية قول الكفار، فلا يكون حُجَّة. جوابه: يجاب عنه بجوابين: الجواب الأول: أن الأمة أجمعت على أن الله تعالى ذكر ذلك في معرض التصديق لهم، وبه يحصل التحذير للمؤمنين من مواقعة ذلك. الجواب الثاني: أن الله تعالى لما حكى عن الكفار تعليلهم دخول النار بترك الصلاة: وجب أن يكون ذلك صدقًا. ولا يمكن أن يكون ذلك كذبًا؛ لأمور: الأمر الأول: أنه لو كان كذبا لا حصل تحذير المؤمنين من مواقعة ذلك. الأمر الثاني: أنه لو كان كذبًا لم يكن في رواية ذلك فائدة، وكلام الله متى أمكن حمله على ما هو أكثر فائدة وجب ذلك. الأمر الثالث: أنه لو كان كذبًا: لما صح أن يعطف عليه قوله تعالى: (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)، فهنا عطف عليه ما ثبت عليه العذاب – وهو التكذيب بيوم الدين – فثبت: أن الله عذَّبهم لأنهم تركوا فرعًا من فروع الشريعة وهي الصلاة، وإطعام الطعام، والخوض. الاعتراض الثاني: قوله: (لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ...) إلخ، معناه: لم نك ممن يعتقد الصلاة، وإطعام الطعام – وهو الزكاة – لتركهم المِلَّة والدخول في الإسلام، وعندنا يستحقون العقاب على ترك ذلك. جوابه: يجاب عنه بجوابين: الأول: هذا خلاف الظاهر؛ لأن الظاهر يقتضي تعلق العقاب بترك نفس الصلاة دون اعتقادها؛ حيث إن اللفظ حقيقة في فعل الصلاة، فمن حمل ذلك على الاعتقاد فقد عدل باللفظ عن الحقيقة إلى المجاز، وهذا لا يجوز إلا بقرينة. الجواب الثاني: أن العقوبة وجبت على ترك الاعتقاد بقوله تعالى: (وكنا نكذب بيوم الدين)، فلهذا يجب حمل

=

=

الصلاة والإطعام على مقتضاه الحقيقي، لئلا يكون هناك تكرار وإعادة. الاعتراض الثالث: يحتمل أن معنى قوله تعالى: (لم نك من المصلين) أي: لم نك من المؤمنين، لما روي أن النبي ﷺ قال: "نهيت عن قتل المصلين " أي: المؤمنين. جوابه: يجاب عنه: بأن هذا محتمل، لكن الظاهر لا يترك إلا بدليل، ولا دليل على أن المراد من المصلين: هم المؤمنون. الاعتراض الرابع: سلمنا لكم أن التعذيب على ترك الصلاة، فيجوز أن يكون قوله تعالى: (لم نك من المصلين) إخبارًا عن قوم كانوا أسلموا وارتدوا بعد إسلامهم، ولم يصلوا حال إسلامهم، لأن قوله: (لم نك من المصلين) لا يفيد أنهم لم يصلوا في جميع الزمان الماضي.

جوابه: يجاب عنه: بأن قوله تعالى: (لم نك من المصلين) هو جواب المجرمين المذكورين في قوله تعالى - قبل ذلك -: (يتسائلون عن المجرمين)، وذلك عام في كل مجرم مرتد وغير مرتد. الدليل الرابع - من أدلتنا على أن الكافر مكلَّف مطلقًا -: قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ). وجه الدلالة: أن هذا عام في حق المسلمين والكفار، فلا يخرج الكافر إلا بدليل، ولا يوجد دليل على ذلك، والكفر ليس برخصة مسقطة للخطاب عن الكافر. الدليل الخامس: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا). وجه الدلالة: أن هذا نص في مضاعفة عذاب من جمع بين هذه المحظورات، وهي الكفر، والقتل، والزنا، وهذا يدل على أن الزنا والقتل يدخلان فيه، فثبت كون ذلك محظورًا عليه، مما يقتضي أن الكافر مخاطب ومكلَّف بفروع الشريعة. الدليل السادس: قوله تعالى: (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢). وجه الدلالة: أن الله تعالى ذم - هنا - الكفار

=

=

لتركهم الصلاة، وهي من فروع الشريعة، مما يدل على أن الكفار مكلَّفون بالفروع. الاعتراض على ذلك: قال المعترض: إن المراد بذلك ترك الاعتقاد، دون الفروع.

جوابه: يجاب عنه بأن هذا لا يصح؛ لأنه قدم على التكذيب الصلاة، وهي فرع من فروع الشريعة، فدل ذلك على أن المراد الفعل دون الاعتقاد. الدليل السابع: قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧). وجه الدلالة: أن الله تعالى توعَّد المشركين على شركهم، وعلى ترك إيتاء الزكاة، فدل ذلك على أنهم مخاطبون بالإيمان، ومخاطبون بإيتاء الزكاة؛ لأنه لا يتوعد على ترك ما لا يجب على الإنسان، ولا يخاطب به، فدل ذلك على أن الكفار مكلَّفون بالفروع. الدليل الثامن: إن صلاح الخطاب للكفار في اللغة كصلاحه للمسلمين، فوجب أن يدخلوا تحته كما دخل المسلمون ولا فرق، فإذا قال تعالى: (يا بني آدم)، و (يا أولي الأبصار)، و (لله على الناس حج البيت)، و (أقيموا الصلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ)، فإنهم يدخلون حيث إنهم من جملة بني آدم، ومن أولي الأبصار، ومن الناس، فينتج أنهم مكلَّفون بالفروع. الدليل التاسع: أن الإجماع منعقد على أن الكافر معاقب على قتل الأنبياء، وتكذيب الرسُل، كما يعاقب على الكفر بالله تعالى. المذهب الثاني: أن الكفار غير مكلَّفين بفروع الشريعة مطلقا، أي: ليسوا بمخاطبين في الأوامر والنواهي. ذهب إلى ذلك الإمام أحمد في رواية عنه، وهو قول للإمام الشافعي، وهو مذهب ابن خويز منداد من المالكية، وهو اختيار أبي حامد الإسفراييني من الشافعية، وهو مذهب كثير من الحنفية. أدلة هذا المذهب:

الدليل الأول: أنه يستحيل من الكافر فعل الشرعيات عبادة وقربة في حال كفره، فإذا كلف – مع ذلك – بالشرعيات، فإن هذا تكليف بما لا يطاق، قياسًا على

=

=

المريض العاجز عن القيام لا يكلف أن يصلي قائمًا، وقياسًا على الحائض لا تكلف أن تصلي مع حيضها. جوابه: يجاب عنه بأن المستحيل هو: تكليف الكافر بفعل الشرعيات عبادة وقربة مع عدم استطاعته على فعلها، وهذا لم يكلف به. ولكن لا يستحيل تكليفه بفعل الفروع ما دام أنه باستطاعته فعلها، وذلك بأن يقدم الإيمان، ثم يفعل ما أمر به، قياسا على المحدث فقد كلف بالصلاة لا مع حدثه، ولكن بأن يقدم عليها الطهارة ثم يفعل الصلاة. أما قياسكم الكافر على العاجز عن القيام، وعلى الحائض فإنه قياس فاسد؛ لأنه قياس مع الفارق، وذلك لأن الحائض والعاجز لا يمكنهما إزالة الحيض والعجز بخلاف الكافر، فإنه يمكنه إزالة كفره بأن يشهد الشهادتين ثم يفعل الفروع. الدليل الثاني: أن النبي ﷺ قال لمعاذ – لما بعثه إلى اليمن –: "أدعهم إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأني رسول الله.، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم". وجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ أمر معاذًا أن يدعوهم أولًا إلى الإيمان، فلو كان الخطاب يتوجه إليهم بغير ذلك الأمر لأمره أن يدعوهم إليه. ويفهم من هذا: أنهم إن لم يمتثلوا لا يدعوهم إلى الصلاة ولا إلى الزكاة، وهذا يؤدي إلى أنهم غير مكلفين بها عند كفرهم؛ إذ لو كانوا مكلَّفين بها حال كفرهم كما هم مكلَّفون بها حال إسلامهم لأمرهم بها، وإن لم يجيبوه إلى الإيمان؛ لأنهم مكلَّفون بكل من الإيمان والفروع استقلالا. جوابه: يجاب عنه بجوابين: الجواب الأول: أن الحديث لو دلَّ على ما تقولون للزم منه أن يكون الحديث دالًا على أنه لا يؤمر الشخص بالزكاة إلا إذا أجابه إلى الصلاة، ويكون هناك ترتيب في الدعوة بين الصلاة والزكاة ولم يقل به أحد. وإنما الغرض من الحديث هو التسهيل في

=

=

الدعوة، ومراعاة أحسن الطرق فيها، ومعروف أن من شأن من لم يجب الداعي إلى الإيمان أنه لا يجيبه إلى غيره من الفروع، فتكون دعوته إلى الفروع عبثا. الجواب الثاني: أن الحديث دلَّ على أن الكافر غير مكلَّف مطلقا بطريق المفهوم المخالف، والآيات السابقة التي استدللنا بها على أن الكافر مكلَّف مطلقا دلَّت على ذلك بالمنطوق، والمفهوم لا يقوى على معارضة المنطوق. الدليل الثالث: أن النبي ﷺ لما دعا قيصر وكسرى وكتب إليهما في ذلك لم يدعهما إلا إلى التوحيد، ولم يدعهما إلى غيره؛ إذ لم يذكر في ذلك الكتاب الفروع الفقهية، فدلَّ ذلك على أنهم غير مكلَّفين بالفروع. جوابه: يجاب عنه: بأن ﷺ لم يذكر في كتابه شيئًا من التكاليف الفرعية؛ لأنه لا يصح فعل أيِّ عبادةٍ وهما في حالة الكفر، فدعاهما إلى ما يصح فعله وهو التوحيد. الدليل الرابع: لو صح تكليفهم بالفروع لصحت منهم إذا أدوها، لموافقة الأمر، ولكنها لا تصح منهم وهم على حالة الكفر. جوابه: يجاب عنه: بأن المحدث مأمور بالصلاة لكن بشرط الطهارة. فكذلك الكافر مأمور بالفروع لكن بشرط الإيمان، بيانه: أن المحدث مأمور بالشرط - وهو الطهارة - ومأمور بفعل الصلاة بعد حصول الشرط، فهو مأمور بهما في الحال، كذلك في مسألتنا إذا كان مأمورًا بالشرط ومأمورًا بالفعل بعد حصول الشرط: وجب أن يكون مأمورًا بهما، لأنه لا مانع من الأمر بهما في هذه الحال. الدليل الخامس: أن الكفر يمنع صحة العبادة، ويمنع قضائها في الثاني، فصار كالجنون. جوابه: يجاب عنه: بأن قياسكم الكفر على الجنون قياس فاسد؛ لأنه قياس مع الفارق؛ حيث إن الكافر عاقل يفهم الخطاب، أما المجنون فلا يدرك شيئًا من ذلك.

الدليل السادس: أن الصلاة لو وجبت على الكافر لوجبت عليه إما حال الكفر، أو بعده. والأول - وهو وجوبها حال الكفر - باطل؛ لأن الإتيان بالصلاة في حال

=

=

الكفر ممتنع، حيث يستحيل الجمع بين فعله للصلاة وبين كفره، فكيف يجب على الكافر ما يستحيل أن يمتثله؛ هذا ممتنع، والممتنع لا يؤمر به. وأما الثاني – وهو: وجوب قضاء الصلاة بعد الكفر، أي: بعد إسلامه – فهذا باطل – أيضا –، لإجماع العلماء على عدم أمر الكافر عندما يسلم بقضاء ما فاته من الصلاة في زمن كفره. جوابه: يجاب عنه: بأن المستحيل والممتنع هو تكليف الكافر بفعل الصلاة وغيرها من العبادات مع عدم قدرته على – فعلها، ولكن لا يمتنع تكليفه بفعل الصلاة بشرط تقديم الإيمان؛ لاستطاعته فعل ذلك. وأما عدم أمر الكافر عندما يسلم بقضاء ما فاته من الصلوات في زمن كفره، فقد أجمع العلماء عليه، لأمرين: أولهما: قوله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام: "أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله". فهنا جعل الإسلام مسقطا لما قد سلف، أي: يقطع ما قبله من أحكام الكفر حتى كأن الكافر بعد إسلامه لم يصدر منه معصية لله تعالى أصلًا، وفي هذا ملحظ للشارع قد اهتم به، وهو تيسير الدخول في الإسلام عليهم، وتحبيبه عندهم وتحسينه في أنظار الكفار، إذ أن الكافر لو أراد الإسلام – وهو شيخ كبير أو هو في منتصف العمر – وهو يعلم بأنه سيقضي ما فاته من العبادات من صلاة وصيام وزكاة لنفر عن الدخول في الإسلام، ولكن إذا علم أنه إذا أسلم فإنه لا يطالب بشيء من ذلك سهل عليه الدخول فيه. أما حقوق الآدميين فلا يسقطها الإسلام؛ تحقيقا للعدل العام. ثانيهما: أنه كان يسلم عند ﷺ الجم الغفير من الكفار، ولم ينقل إلينا أنه أمر أحدًا بأن يقضي ما فاته من صلاة ونحوها من العبادات. المذهب الثالث: أن الكفار مكلَّفون ومخاطبون بالنواهي، دون الأوامر، أي: أنهم مكلَّفون بأن ينتهوا عن المنهي عنه مثل: الزنا، والقتل، والسرقة، ونحوها، فإن فعل أحد الكفار واحدًا

=

=

من تلك الأمور فإنه يعاقب كالمسلم، أما الأمور بها كالصلاة والصوم والزكاة والحج ونحوها، فلا يكلفون بها فلا يعاقبون على تركها. ذهب إلى ذلك بعض الحنفية، وهو رواية عن الإمام أحمد. أدلة هذا المذهب: الدليل الأول: أنه لا يمكن الجمع بين الإتيان بالمأمور به كالصلاة، وبين كفره، وقد سبق بيانه والجواب عنه. أما الانتهاء عن الشيء فإنه يمكن وهو في حالة كفره؛ حيث لا يشترط في الانتهاء عن المنهيات التقرب، بل يكتفى بالكف عنه، فجاز التكليف بالمنهيات، بخلاف المأمور بها فإنه يشترط فيها التقرب فلا تصح من الكافر.

جوابه: يجاب: بأن الفرق الذي ذكرتموه بين المأمور به، والمنهي عنه باطل. بيانه: أنه يقال لهم: إن عنيتم بقولكم: "إنه يمكنه الانتهاء عن المنهيات، ولا يمكنه الإتيان بالمأمورات ": أنه يتمكن من تركها من غير اعتبار النية، فهو أيضًا متمكن من فعل المأمورات من غير اعتبار النية. وإن عنيتم به: أنه متمكن من الانتهاء عن المنهيات لغرض امتثال قول الشارع، فهذا متعذر حال عدم الإيمان. فعلمنا من ذلك استواء المأمور والمنهي، من حيث إن الإتيان بهما من جهة الصورة لا يتوقف على الإيمان، وأن الإتيان بهما لغرض امتثال حكم الشارع يتوقف في كليهما على الإيمان. الدليل الثاني: أن العقوبات تقع عليهم في فعل المنهيات، دون ترك المأمورات، دلَّ على ذلك: أنهم يعاقبون على ترك الإيمان بالقتل، والسبي، وأخذ الجزية، ويحد في الزنا والقذف والسرقة، ولا يؤمر بقضاء شيء من العبادات إذا أسلم، وإن فعلها في كفره لم تصح منه. جوابه: يجاب عنه بأن يقال. أولًا: أما وقوع العقوبات عليهم وتمثيلكم على ذلك بأنه إذا ترك الإيمان يعاقب بالسبي، والقتل، وأخذ الجزية، وأنه يحد في الزنا، والقذف، والسرقة، فإن هذا ليس في محل النزاع؛ حيث إننا بيَّنا - فيما سبق - أن الكفار مخاطبون بالإيمان والعقوبات والمعاملات باتفاق العلماء.

=

=

ثانيًا: أما عدم وجوب قضاء شيء من العبادات إذا أسلم فقد بيَّنا - فيما سبق - أن سقوط القضاء عنهم كان لسببين: الأول: أن ﷺ لم يأمر من أسلم من الكفار بقضاء ما فاتهم مع كثرتهم. الثاني: قوله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)، وقوله ﷺ: "أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله". ثالثًا: أما عدم صحتها إذا فعلها في حال كفر: فلأن المانع من الصحة موجود، وهو الكفر، لكن يستطيع أن يزيل هذا المانع وذلك بالإيمان، فإذا فعلها بعد تقديم الإيمان تكون تلك الأفعال صحيحة، وسبق بيان ذلك. المذهب الرابع: أنهم مكلَّفون بالأوامر فقط، دون النواهي، حكى هذا المذهب الزركشي في " البحر المحيط "، ولم ينسبه إلى قائل، ولم أجد دليلًا عليه. جوابه: هذا ضعيف؛ لأمرين: الأول: أنه لا دليل على هذا التفريق، وما لا دليل عليه فلا يلتفت إليه. الثاني: أن هذا المذهب يرده ما حكيناه من الإجماع على أن خطاب الزواجر من الزنا والقذف يتوجه على الكافر والمسلم معًا. وترده - أيضًا - النصوص التي سقناها - في المذهب الأول - على أن الكافر مكلَّف مطلقا.

المذهب الخامس: أنهم مكلَّفون بالفروع جميعًا إلا الجهاد في سبيل الله، ذكر هذا المذهب إمام الحرمين في " النهاية "، والقرافي في "تنقيح الفصول "، والإسنوي في " التمهيد "، ولم ينسبوه إلى أحد. دليل هذا المذهب: استدل أصحاب هذا المذهب بما استدل به أصحاب المذهب الأول عى أن الكافر مخاطب بجميع الفروع، ولكنهم استثنوا الجهاد؟ لأنه يمتنع أن يقاتل الكفار أنفسهم. جوابه: يجاب عنه بأنه لا فائدة من هذا الاستثناء؛ لأنه لا يتصور الجهاد منه، ولو حصل بعد الإيمان لخرج عن محل النزاع. المذهب السادس: الفرق بين الكافر المرتد فيكلف بالفروع، وبين الكافر الأصلي فلا يكلف. حكى هذا المذهب عبد الوهاب المالكي في " الملخص "، والقرافي في " شرح تنقيح الفصول "، وابن

=

=

السبكي في " جمع الجوامع". دليل أصحاب هذا المذهب: أن الكافر المرتد ملتزم بأحكام الإسلام، ومنها قضاء ما فاته في الردة من العبادات، بخلاف الكافر الأصلي فإنه غير ملتزم. جوابه: يجاب عنه بأن العبادات وترك المحظورات لازمة للكافر مطلقا: "المرتد "، و " الأصلي " ولا فرق بينهما؛ لأن كلًّا منهما يطلق عليه اسم " كافر " لغة. وكذا الآيات السابقة التي ذكرناها في المذهب الأول لم تفرق بينهما، فهذا التفريق زيادة لا دليل عليها.

المذهب السابع: التفريق بين الكافر الحربي فلا يكلف، والكافر غير الحربي فيكلف. حكى هذا المذهب الزركشي في " البحر الحيط". دليل أصحاب هذا المذهب: أن غير الحربي ملتزم بأحكام الإسلام بعقد الذمة فله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. أما الكافر الحربي فنظرًا لكونه غير ملتزم، ولم يعقد معه عقد فإنه لم يلتزم بشيء فلا يكلف بالفروع. جوابه: يجاب عنه بأن الأدلة النقلية التي ذكرناها في المذهب الأول قد صرحت بأن الكافر مكلَّف مطلقًا، ولم تفرق بين الكافر الحربي، وغير الحربي، وهذا التفريق بينهما زيادة بدون دليل. المذهب الثامن: التوقف في المسألة. حكى هذا المذهب أبو حامد الإسفراييني عن أبي الحسن الأشعري، وحكاه سليم الرازي في " التقريب "، ولم ينسبه إلى أحد. دليل أصحاب هذا المذهب: أنه لم يصح دليل على تكليفهم، ولم يصح دليل على عدم تكليفهم فتوقفوا. جوابه: يجاب عنه بأنه لا داعي لهذا التوقف مع ما أثبتناه من الأدلة القوية على أن الكفار مكلَّفون بالفروع مطلقًا، وضعف أدلة المذاهب الأخرى. ثم إن التوقف لا يعتبر مذهبا يعمل به لذلك يسقط. ا. هـ من المهذب في أصول الفقه. والصحيح ما اختاره المصنف من أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام ومخاطبون بشروط صحتها ومخاطبون بالتخلي عن موانعها ، كل ذلك يخاطب به الكفار وهو مذهب جمهور الأصوليين ، بل هو مذهب

=

أغلب أهل العلم من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ونقل عن الإمامين الشافعي ومالك وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد، وهو قول جماعة من الحنفية منهم الكرخي والجصاص، واختاره ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وهو مذهب المعتزلة أيضا، والثمرة التطبيقية من هذه المسألة تكون في بعض الفروع منها: رجل عنده امرأة كتابية هل يجب عليه أن يأمرها بالحجاب الشرعي وهل هي مكلفة بذلك؟ ورجل اتهم زوجته الكتابية بالزنا هل تقع بينهم ملاعنة؟ رجل جاءه ضيف كتابي في نهار رمضان فأراد أن يقدم له شايا فهل له ذلك؟ فمن قال الكفار مخاطبون بفروع الشريعة فيجب عنده أن تؤمر الكتابية بالحجاب وتقع الملاعنة ولا يجوز تقديم الشاي، ومن قال أن الكفار غير مخاطبين فلا يجب عنده أن تؤمر الكتابية بالحجاب ولا تقع الملاعنة، ويجوز تقديم الشاي للكتابي في نهار رمضان.

قوله تعالى: {حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر: ٤٧]، أي:"حتى جاءنا الموت، ونحن في تلك الضلالات والمنكرات".

قال الطبري: "يقول: قالوا: حتى أتانا الموت الموقن به".

قال ابن كثير:"يعني: الموت. كقوله: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩] وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه»".

قال السعدي:"فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد {حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل".

قال الزمخشري:"الْيَقِينُ: الموت ومقدماته".

عن ابن عباس:: {حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}، قال: الموت".

=

عن سالم بن عبد الله بن عمر، في قوله تعالى: {حَتّى أتانا اليَقِينُ}، قال: اليقين: الموت".

وقال القشيري:"هو معاينة القيامة".

أي: حتى جاءنا الموت، كقوله تعالى: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين).

وسمى الموت يقينا، لأنه عند الموت يعاين المحتضر حقيقة ما كان يكذب به، من أمور الحياة الآخرة.. ومنه قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين).

روى أن أم العلاء الأنصارية، قالت: «لما قدم المهاجرون المدينة، اقترعت الأنصار على سكناهم، فصار لنا من المهاجرين، «عثمان بن مظعون» في السكنى، فمرض، ثم توفى، فجاه رسول الله فدخل، فقلت: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي أن قد أكرمك الله! فقال النبي: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقلت: لا، والله ما أدرى!! فقال النبي: «أما هو فقد أتاه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم»! فقول الرسول الكريم: «أما هو فقد أتاه اليقين من ربه، يشير إلى أن عثمان بن مظعون، هو الذي يعرف المصير الذي صار إليه، بعد أن مات، وكشف عن عينيه الغطاء.

قوله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)} [المدثر: ٤٨]

فما تنفعهم شفاعة الشافعين جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم؛ لأن الشفاعة إنما تكون لمن ارتضاه الله، وأذن لشفيعه أن يشفع له.

قال الطبري: "يقول: فما يشفع لهم الذين شفعهم الله في أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم، وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره مشفع بعض خلقه في بعض".

قال الزجاج:"يعني: الكفار وفي هذا دليل أن المؤمنين تنفعهم شفاعة بعضهم لِبَعْض".

=

=

قال ابن كثير:"أي: من كان متصفا بهذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالدا فيها".

قال السعدي:"لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم".

عن قتادة: "{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}، قال: تعلمن أن الله يشفع بعضهم في بعض".

عن قتادة: "{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}، تعلمن أن الله يشفع المؤمنين يوم القيامة. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "إنَّ مِنْ أُمَّتِي رَجُلا يُدْخِلُ اللهُ بِشَفاعَتِهِ الجَنَّةَ أكْثَرَ مِنْ بَنِي تَمِيم".

قال الحسن: "أكثر من ربيعة ومضر، كنا نحدَّث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته".

عن أبي قلابة، قال: "يدخل الله بشفاعة رجل من هذه الأمة الجنة مثل بني تميم، أو قال: أكثر من بني تميم، وقال الحسن: مثل ربيعة ومضر".

عن أنس بن مالك: "إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة والرجل".

أي: من كان متصفا بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلا، فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدا فيها كما قال تعالى (فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم) أي: قريب.

وقال تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) والمراد بالظالمين هنا الكافرين كما قال تعالى (والكافرون هم الظالمون). ففي يوم القيامة لا شفيع لهم، لأن من شرط الشفاعة أن يكون الله راضيا عن الشفع وعن المشفوع له.

=

=

(تنبيه): فإن قيل ما الجواب عن حديث شفاعة النبي في أبي طالب أن يخفف عنه العذاب؟

فالجواب: أن معنى المنفعة في الآية يختلف عن معنى المنفعة في الحديث، فالمنفعة المنفية في الآية، المراد بها الإخراج من النار، أما المنفعة المثبتة في الحديث، فالمراد بها منفعة أخرى، وهي التخفيف من العذاب.

وممن قال بهذا القول: ابن تيمية، وأحمد القرطبي، وابن كثير، وابن أبي العز.

قال ابن أبي العز: النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين).

قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة. (شرح الطحاوية).

قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} [المدثر: ٤٩]، أي:"فما لهؤلاء المشركين عن القرآن وما فيه من المواعظ منصرفين؟".

قال الطبري:"يقول: فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين، لا يستمعون لها فيتعظوا ويعتبروا".

قال ابن كثير:"أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك مما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين".

قال السعدي:"أي: صادين غافلين عنها".

عن قتادة: "{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}، أي: عن هذا القرآن".

أي: فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشادات.

قال ابن عاشور: (فما لهم عن التذكرة معرضين) تفريع للتعجيب من إصرارهم

=

على الإعراض عن ما فيه تذكرة على قوله: {وما هي إلا ذكرى للبشر)، وجيء باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضمير نحو: أن يقال: عنها معرضين، لئلا يختص الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن كما هو المناسب للإعراض قال تعالى: (إن هو إلا ذكر للعالمين).

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)} [المدثر: ٥٠ - ٥١]، أي:"كأنهم حمر وحشية شديدة النِّفار، فرَّت من أسد كاسر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فما لهؤلاء المشركين بالله عن التذكرة معرِضين، مولِّين عنها تولية الحُمُر المستنفرة {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة}".

قال ابن كثير:"أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه حُمُر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، أو: رام".

واختلف أهل التفسير في معنى «القسورة»، على أقوال:

أحدها: يعني: الرماة. قاله أبو موسى الأشعري، وابن عباس -في رواية عطاء عنه- ، وأبو موسى، ومجاهد، وعكرمة، ومقاتل، وحكاه ابن كثير عن الجمهور.

عن قتادة: "{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، قال: قسورة النبل".

قال قتادة:"هم الرماة القناص".

وقال قتادة:"النبل".

قال مجاهد:"عصبَة قناص من الرماة".

قال عكرمة:"القسورة: الرماة، فقال رجل لعكرِمة: هو الأسد بلسان الحبشة، فقال عكرِمة: اسم الأسد بلسان الحبشة عنبسة".

قال السعدي:"{كَأَنَّهُمْ} في نفرتهم الشديدة منها {حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ} أي: كأنهم

=

حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضا، فزاد عدوها، {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} أي: من صائد ورام يريدها، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق".

الثاني: يعني: رجال القَنْص. قاله ابن عباس-أيضا- ، وسعيد بن جبير.

وقال ابن عباس:"القسورة: الرجال الرماة، رجال القنص".

الثالث: هي عصب الرجال. رواه أبو حمزة عن ابن عباس.

عن أبي حمزة، قال: "سألت ابن عباس عن «القسورة»، فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب: الأسد، هي عصب الرجال".

وعن عباس بن عبد الرحمن مولى بني هاشم، قال: "سئل ابن عباس عن القسورة، قال: جمع الرجال، ألم تسمع ما قالت فلانة في الجاهلية:

يا بِنْتَ لُؤَيّ خَيْرَةً لخَيْرَه... أحْوَالُهُا في الحَيّ مِثلُ القَسْوَرَه"

قال الثعلبي:"وقال زيد بن أسلم: أي: من رجال أقوياء، وكلّ ضخم شديد عند العرب فهو: قسور وقسورة. قال لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا... أتانا الرجال العائذون القساور".

الرابع: أنها أصوات الرجال.- رواه عطاء عن ابن عباس-أيضا- ، وبه قال أبو متوكل.

عن ابن عباس: "{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، قال: «ركز الناس أصواتهم»، قال أبو كريب، قال سفيان: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} ".

قال أبو المتوكّل:"هو لغط القوم".

وروي عن ابن عباس، قال:"من حبال الصيادين".

الخامس: ظلمة الليل. قاله عكرمة.

قال الثعلبي:"وقيل: هي سواد أول الليل ولا يقال لسواد آخر الليل: قسورة".

السادس: أنه الأسد. قاله أبو هريرة ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبدالرحمن ، وهو

=

=

مروي عن ابن عباس -أيضا- ، وبه قال الزجاج.
عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: "{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، يقول: الأسد".
عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أنه سُئل عن قوله: "{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، قال: هو بالعربية: الأسد، وبالفارسية: شار -وفي رواية: «شير» - ، وبالنبطية: أريا -وفي رواية «أويا» - ، وبالحبشية: قسورة".
قال يحيى بن سلام: "«قسورة»: من أسماء الأسد بلغة قريش".
قال أبو عبيدة: "هو الأسد".
قال ابن قتيبة: "وكأنه من "القسر" وهو: القهر. والأسد يقهر السباع".
قال الثعلبي: "وقيل: هو فعولة من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع كلّها".
قال الزمخشري: "شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه، بحمر جدت في نفارها مما أفزعها. وفي تشبيههم بالحمر: مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين، كما في قوله كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفارًا وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل. ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدّة سيرها بالحمر، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص".
-قال القرطبي: (كأنهم) أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد.
(حمر مستنفرة) أي: كأنهم في نفارهم حمر وحش نفرت بعضها من بعض.
-قال ابن عطية: إثبات لجهالتهم لأن الحمر من جاهل الحيوان جدا.
- قال ابن عاشور: والحمر: جمع حمار، وهو الحمار الوحشي، وهو شديد النفار إذا أحس بصوت القانص وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس.
(فرت من قسورة) أي: هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع.

=

=

قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت كذلك هؤلاء المشركين إذا رأوا محمدا هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد.

-قال ابن عطية: (كأنهم حمر مستنفرة) إثبات لجهالتهم لأن الحمر من جاهل الحيوان جدا.

-قال ابن القيم: شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه وهذا من بديع القياس والتمثيل فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر وهي لا تعقل شيئا فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته.

- قال القرطبي: قال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القسورة، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان: القسورة: هم الرماة والصيادون.

- قال بعض العلماء: شبههم بالحمر النافرة مذمة لهم وتهجينا.

- قال صاحب "الكشاف": وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش، وإطرادها في العدو إذا خافت من شيء.

قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} [المدثر: ٥٢]، أي:"بل يطمع كل واحد من هؤلاء المشركين أن يُنزل الله عليه كتابًا من السماء منشورًا، كما أنزل على محمد ﷺ".

=

=

قال الطبري: يقول:"ما بهؤلاء المشركين في إعراضهم عن هذا القرآن أنهم لا يعلمون أنه من عند الله، ولكن كلّ رجل منهم يريد أن يؤتى كتابا من السماء ينزل عليه".

قال ابن كثير:"أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتابًا كما أنزل على النبي، كقوله: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]".

قال الزمخشري:" {صُحُفًا مُنَشَّرَةً} : قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها. أو كتبا كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتباعك. ونحوه قوله: {وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتابًا نَقْرَؤُهُ}، وقال: {وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتابًا فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِم} ... الآية وقيل: قالوا إن كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. وقيل: كانوا يقولون: بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوبا على رأسه ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك، وهذا من الصحف المنشرة بمعزل. إلا أن يراد بالصحف المنشرة: الكتابات الظاهرة المكشوفة".

قال الزجاج:"قيل كانوا يقولون: كان مَن أذنب من بني إسْرَائِيلَ يجد ذنبه مكتوبًا من غَدٍ عَلَى بَابِه فما بالنا لا نكون كذلك. وَقَدْ جَاءَ في القرآنِ تفْسِيرُ طَلَبِهِمْ في سورة بني إسرائيل في قوله: {وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه}".

قال السعدي:"ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار فـ {يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب

=

=

الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا".

عن مجاهد، قوله: "{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}، قال: إلى فلان من رب العالمين".

قال قتادة:"قد قال قائلون من الناس: يا محمد إن سرّك أن نتبعك فأتنا بكتاب خاصة إلى فلان وفلان، نؤمر فيه باتباعك، قال قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل".

أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتابا كما أنزل على النبي، والمنشرة: المفتوحة المقرؤة، أي لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها.

-**قال البغوي**: قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لرسول الله ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسوله نؤمر فيه باتباعك.

- وقال ابن جزي: ومعنى منتشرة: منشورة غير مطوية أي طرية كما كتبت لم تطو بعد، وذلك أنهم قالوا للرسول: لا نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر بتباعك.

قال تعالى عنهم (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله). وقال تعالى أيضا عنهم (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه).

- قال السعدي: وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، لأنهم جاءت البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا. كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).

قوله تعالى: {كَلَّا} [المدثر: ٥٣]، أي:"ليس الأمر كما زعموا".

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يزعمون من أنهم لو أوتوا صحفا منشَّرة صدّقوا".

قال مقاتل:"كَلَّا لا يؤمنون بالصحف التي أرادوها".

قال السمعاني:"أي: لا يؤتون هذه الصحف. وقيل: كلا أي: لو أوتوا هذه الصحف لم يؤمنوا".

قال الزمخشري:"ردعهم بقوله: {كَلَّا} عن تلك الإرادة، وزجرهم عن اقتراح الآيات".

قال السعدي:" {كَلا} أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز".

قوله تعالى: {بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} [المدثر: ٥٣]، أي:"بل الحقيقة أنهم لا يخافون الآخرة، ولا يصدِّقون بالبعث والجزاء".

قال الطبري:"يقول: لكنهم لا يخافون عقاب الله، ولا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب؛ فذلك الذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله، وهوّن عليهم ترك الاستماع لوحيه وتنزيله".

قال ابن كثير:"أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها".

قال الزمخشري:"فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف".

قال السمعاني:"أي: لو خافوا لم يطلبوا هذه الأشياء".

قال قتادة:"إنما أفسدهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة، ولا يخافونها، هو الذي أفسدهم".

و(كلا) كلمة ردع وزجر، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أتوا صحفا منشرة ما آمنوا.

(بل لا يخافون الآخرة) أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها، فلا يخافون ما فيها من الأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

=

=

قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ} [المدثر: ٥٤]، أي:"حقًّا أنَّ القرآن موعظة بليغة كافية لاتِّعاظهم".

قال الطبري: يعني:"ليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، ولكنه تذكرة من الله لخلقه، ذكرهم به".

قال السمعاني:"أي: القرآن عظة وعبرة".

عن قتادة، قوله: "{كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ}، أي: القرآن".

قال ابن كثير:"أي: حقا إن القرآن تذكرة".

قال الزمخشري:"يعنى: الذكر أو القرآن، تذكرة بليغة كافية، مبهم أمرها في الكفاية".

قال السعدي:"الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة".

قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} [المدثر: ٥٥]، أي:"فمن أراد الاتعاظ اتعظ بما فيه وانتفع بهداه".

قال الطبري: يقول:"فمن شاء من عباد الله الذين ذكرهم الله بهذا القرآن ذكره، فاتعظ فاستعمل ما فيه من أمر الله ونهيه".

قال السعدي:"لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل".

قال مقاتل:"يعنى: فهمه، يعنى: القرآن".

قوله تعالى: {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [المدثر: ٥٦]، أي:"وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى".

قال الطبري: يقول:"وما يذكرون هذا القرآن فيتعظون به، ويستعملون ما فيه، إلا أن يشاء الله أن يذكروه؛ لأنه لا أحد يقدر على شيء إلا بأن يشاء الله يقدره عليه، ويعطيه القدرة عليه".

=

سورة القيامة [1]

=

قال السمعاني:"أي: لا يعتبرون ولا يتعظون إلا بمشيئتي".

قال السعدي:"فإن مشيئته نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلا وجعل ذلك تابعا لمشيئته".

قوله تعالى: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر: ٥٦]، أي:"هو سبحانه أهلٌ لأن يُتقى ويطاع، وأهلٌ لأن يغفر لمن آمن به وأطاعه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: الله أهل أن يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه، ويُسارعوا إلى طاعته، وهو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها".

قال الزجاج:"أَي: هو أهل أَنْ يُتقَى عِقَابُه، وأهل أَنْ يُعمل بما يؤدي إلى مغفرته".

قال ابن كثير:"أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب".

عن قتادة، قوله: "{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}، قال: أهل أن تتقى محارمه، {وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}: أهل أن يغفر الذنوب".

قال قتادة:"ربنا محقوق أن تتقى محارمه، وهو أهل المغفرة يغفر الذنوب".

قال السعدي:"أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه".

[1] قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المفسرين وأهل التأويل".

=

وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".
وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.
وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".
* وآياتها أَربعون فى عدّ الكوفيّين، وتسع وثلاثون فى عدّ الباقين. وكلماتها مائة وتسع وتسعون. وحروفها ثلاثمائة واثنتان وخمسون. المختلف فيها آية: {لِتَعْجَلَ بِهِ} فواصل آياتها (يقراه).
* أسماء السورة:
تسمى «سورة القيامة» عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة بـ «سورة القيامة»، لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها، قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١]، ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور.
وتسمى «سورة لا أقسم بيوم القيامة» أو «لا أقسم» وردت هذه التسمية في عهد الصحابة-رضوان الله تعالى عليهم-، كما عند ابن عباس ، وابن زبير ، ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها به في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١].
* مقصود السّورة: بيان هَوْل القيامة، وهيبتها، وبيان إِثبات البعث، وتأْثير القيامة فى أَعيان العالم، وبيان جزاء الأَعمال، وآداب سماع الوَحْى، والوعد باللِّقاءِ والرّؤية، والخبر عن حال السَّكرة، والرّجوع إِلى بيان برهان القيامة، وتقرير القُدْرة على بعث الأَموات فى قوله: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى}.
* المتشابهات: قوله: {لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة} ثمّ أَعاد، فقال: {وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة} فيه ثلاثة أَقوال: أَحدها أَنَّه سبحانه أَقسم بهما، والثانى: لم يقسم بهما، والثَّالث: أَقسم بيوم القيامة، ولم يُقسم بالنَّفس. وقد ذكرنا بَسْطه فى التفسير.
قوله: {وَخَسَفَ القمر} وكرّره فى الآية الثَّانية {وَجُمِعَ الشمس والقمر}؛ لأَنَّ الأَوّل عبارة عن بياض العين بدليل قوله: {فَإِذَا بَرِقَ البصر وَخَسَفَ القمر}. وفيه

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١).

{لا} زائدة في الموضعين {أقسم بيوم القيامة}.

وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢).

{وَلَا أُقْسِم بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَة} الَّتِي تَلُوم نَفْسهَا وَإِنْ اجْتَهَدَتْ فِي الْإِحْسَان وَجَوَاب الْقَسَم مَحْذُوف أَيْ لَتُبْعَثُنَّ دَلَّ عليه.

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣).

{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَان} أَيْ الْكَافِر {أَلَّنْ نَجْمَع عِظَامه} للبعث والإحياء.

=

قول ثان – وهو قول الجمهور – أَنهما بمعنى واحد. وجاز تكراره لأَنَّه أَخبر عنه بغير الخبر الأَوّل. وقيل: الثانى وقع موقع الكناية؛ كقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ الله.... وتشتكي إِلَى الله.... والله يَسْمَعُ.... إِنَّ الله} فصرّح؛ تعظيما، وتفخيما، وتيمّنًا، قال تاج القرّاءِ: ويحتمل أَن يقال: أَراد بالأَوّل الشّمس؛ قياسًا على القمرين. ولهذا ذكَّر فقال: {وَجُمِعَ الشمس والقمر} أَى جُمِع القمران؛ فإِنَّ التَّثنية أُخت العطف. وهذه دقيقة.

قوله: {أَولى لَكَ فأَولى} كرّرها مرّتين، بل كرّرها أَربع مرّات؛ فإِنَّ قوله: {أَولى لَكَ} تمام فى الذمّ؛ بدليل قوله: {فأَولى لَهُم}؛ فإِنَّ جمهور المفسرين ذهبوا إِلى أَنَّه للتَّهديد. وإِنَّما كرّرها لأَنَّ المعنى: أَولى لك الموت، فأَولى لك العذاب فى القبر ثمّ أَولى أَهوالُ القيامة، فأَولى لك عذاب النَّار، نعوذ بالله منها. ا.هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٩٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤).

{بَلَى} نَجْمَعهَا {قَادِرِينَ} مَعَ جَمْعهَا {عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانه} وَهُوَ الْأَصَابِع أَيْ نُعِيد عِظَامهَا كَمَا كَانَتْ مَعَ صِغَرهَا فَكَيْفَ بِالْكَبِيرَةِ.

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥).

{بَلْ يُرِيد الْإِنْسَان لِيَفْجُر} اللَّام زَائِدَة وَنَصَبَهُ بِأَنْ مُقَدَّرَة أَيْ أَنْ يُكَذِّب {أَمَامه} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة دَلَّ عَلَيْهِ.

يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦).

{يَسْأَل أَيَّانَ} مَتَى {يَوْم الْقِيَامَة} سُؤَال اسْتِهْزَاء وتكذيب.

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧).

{فإذا برق البصر} بكسر الراء وفتحها دَهَشَ وَتَحَيَّرَ لِمَا رَأَى مِمَّا كَانَ يُكَذِّبهُ.

وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨).

{وخسف القمر} أظلم وذهب ضوؤه.

وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩).

{وَجُمِعَ الشَّمْس وَالْقَمَر} فَطَلَعَا مِنْ الْمَغْرِب أَوْ ذهب ضوؤهما وَذَلِكَ فِي يَوْم الْقِيَامَة.

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠).

{يَقُول الْإِنْسَان يَوْمئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرّ} الْفِرَار.

كَلَّا لَا وَزَرَ (١١).

{كَلَّا} رَدْع عَنْ طَلَب الْفِرَار {لَا وَزَر} لَا مَلْجَأ يَتَحَصَّن بِهِ.

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢).

{إلَى رَبّك يَوْمئِذٍ الْمُسْتَقَرّ} مُسْتَقَرّ الْخَلَائِق فَيُحَاسَبُونَ ويجازون.

يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣).

{يُنَبَّأ الْإِنْسَان يَوْمئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} بِأَوَّلِ عمله وآخره.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤).

{بل الإنسان على نفسه بصيرة} شاهد تنطلق جَوَارِحه بِعَمَلِهِ وَالْهَاء لِلْمُبَالَغَةِ فَلَا بُدّ مِنْ جزائه.

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥).

{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيره} جَمْع مَعْذِرَة عَلَى غَيْر قِيَاس أَيْ لَوْ جَاءَ بِكُلِّ مَعْذِرَة مَا قبلت منه[1].

---

(١) قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١].

عن المغيرة بن شعبة، قال: "يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم: موته".

عن أبي قبيس، قال: "شهدت جنازة فيها علقمة، فلما دفن، قال: أما هذا فقد قامت قيامته".

اختلف العلماء في «لا» المبتدأ بها في أول الكلام، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها صلة دخلت مجازًا، ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة، قاله ابن عباس، وابن جبير، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومثله قول الشاعر:

تَذكّرْت ليلى فاعْتَرَتني صَبابةٌ... وكاد ضمير القلْبِ لا يتَقطّع

أي: يتقطع، ودخل حرف «لا» صلة.

قال ابن قتيبة:"" «لا»: صلة، أريد بها تكذيب الكفار؛ لأنهم قالوا: لا قيامة".

قال مقاتل:"كان أهل الجاهلية، إذا أراد الرجل أن يقسم قال: «لا أقسم»".

عن سعيد بن جُبير: "{لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، قال: أقسم بيوم القيامة".

عن سعيد بن جبير:"{لا أُقْسِمُ}، قال: أقسم".

=

=

عن سعيد بن جبير، قال: "قال لي ابن عباس: ممن أنت؟ فقلت: من أهل العراق، فقال: أيهم؟ فقلت: من بني أسد، فقال: من حريبهم، أو ممن أنعم الله عليهم؟ فقلت: لا بل ممن أنعم الله عليهم، فقال لي: سل، فقلت: {لا أقسم بيوم القيامة}، فقال: يقسم ربك بما شاء من خلقه".

الثاني: أنها دخلت توكيدًا للكلام، كقوله: «لا والله»، وكقول امراء القيس:

فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ... لا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّى أَفِرْ

قاله أبو بكر بن عياش.

قال هشام الرفاعي: "سمعت أبا بكر بن عياش يقول: قوله: {لا أُقْسِمُ} توكيد للقسم كقوله: لا والله".

قال ابن كثير:"إن المقسم عليه إذا كان منتفيًا، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد؛ ولهذا قال تعالى: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}".

الثالث: أنها رد لكلام مضى من كلام المشركين في إنكار البعث، ثم ابتدأ القسم فقال: أقسم بيوم القيامة، فرقًا بين اليمين المستأنفة وبين اليمين تكون مجددًا، قاله الفراء.

قال الزجاج:"لا اختلاف بين الناس أن معناه: أقسِم بيوم القيامَةِ. واختلفوا في تفسير «لاَ».. وقال بعض النحويين: «لاَ» رَد لِكَلاَمِهِمْ، كَأنهم أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر كما ذَكَرْتُمْ أقسم بيوم القيامة، وقوله: {إنكم مَبْعوثونَ} دَلَّ على الجواب".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة، وجعل "لا" ردا لكلام قد كان تقدّمه من قوم، وجوابا لهم، لأن المعروف من كلام الناس في محاوراتهم إذا قال أحدهم: لا

=

=

والله، لا فعلت كذا، أنه يقصد بلا ردّ الكلام، وبقوله: والله، ابتداء يمين، وكذلك قولهم: لا أقسم بالله لا فعلت كذا؛ فإذا كان المعروف من معنى ذلك ما وصفنا، فالواجب أن يكون سائر ما جاء من نظائره جاريا مجراه، ما لم يخرج شيء من ذلك عن المعروف بما يجب التسليم له".

وقرأ الحسن: «لأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَة»، فجعلها لامًا دخلت على ما أُقسم إثباتًا للقسم، وهي قراءة ابن كثير.

والمقصود: إثبات المعاد، والردّ على منكري بعث الأجساد.

قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ٢]، أي:"وأقسم بالنفس المؤمنة التقية، التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات، وفعل الموبقات".

قال الصابوني:"وجوابُ القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ»".

وفي قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ٢]، وجهان:

أحدهما: أنه تعالى أقسم بالنفس اللوامة كما أقسم بيوم القيامة فيكونان قَسَمَيْن، قاله قتادة ،وهو المروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جُبَير.

قال قتادة: "أقسم بهما جميعا".

الثاني: أنه أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، قاله الحسن ، ويكون تقدير الكلام: أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة.

قال الحسن: "أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوّامة".

قال ابن كثير:"الصحيح أنه أقسم بهما جميعا".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله: «النفس اللوامة» -هاهنا-: على أقوال:

أحدها: معناه: ولا أقسم بالنفس التي تلوم على الخير والشرّ. قاله سعيد بن جبير ، وعكرمة.

عن سعيد بن جُبير، قال: "قلت لابن عباس: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}، قال:

=

=

هي النفس اللئوم".

عن سِماك: أنه سأل عِكْرِمة عن قوله: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا".

قال الزجاج: "النفس اللوامة تفسيرها أن كل نفسٍ تلوم صاحبها في الآخِرَةِ إن كان عَمِلَ شرًّا لَامَتْهُ نفسه وأن كان عمل خَيرًا لَامَتْهُ على ترك الاستكثار منه".

الثاني: أنها تلوم على ما فات وتندم. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد: "تندم على ما فات وتلوم عليه".

الثالث: أن اللوّامة: الفاجرة. وهذا مروي عن قتادة.

الرابع: أنها المذمومة. وهذا قول ابن عباس.

قال الطبري: "وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها، فمتقاربات المعاني، وأشبه القول في ذلك بظاهر التنزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشرّ وتندم على ما فات، والقرّاء كلهم مجمعون على قراءة هذه بفصل «لا» من أقسم".

قال قرة بن خالد، عن الحسن البصري في هذه الآية: "إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه".

وقال جُوَيْبر: "بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة".

قال القاشانيّ: (جمع بين القيامة والنفس اللوامة، في القسم بهما، تعظيمًا لشأنهما، وتناسبًا بينهما. إذ النفس اللوامة، هي المصدقة بها، المقرّة بوقوعها، المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبدًا في التقصير، والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت، لحرصها على الزيادة في الخير، وأعمال البر، تيقُّنًا بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت

=

=

وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانٍ).

قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)} [القيامة: ١ - ٢]، فقد تضمَّن هذا الإقسام ثبوتَ الجزاء، ومستَحَقَّ الجزاء، وذلك يتضمَّن إثبات: الرِّسَالةِ، والقرآنِ، والمَعَادِ.

وهو - سبحانه - يُقْسِم على هذه الأمور الثلاثة، ويقرِّرُها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها، وأمر رسوله ﷺ أن يُقْسِم عليها، كما:

١ - قال تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ} [يونس: ٥٣].

٢ - وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: ٣].

٣ - وقال تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧)} [التغابن: ٧].

وقد تقدَّم إقسامُه عليها في ثلاثة مواضعَ من كتابه لا رابع لها، يأمر رسوله ﷺ أن يُقْسِم على ما أقْسَمَ عليه هو - سبحانه - من: النُّبوَّةِ، والقرآنِ، والمَعَادِ.

فأقسم - سبحانه - لعباده، وأمَرَ أَصْدَق خَلْقِه أن يُقْسِم لهم، وأقام البراهين القطعيَّةَ على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

واختُلِفَ في "النَّفْسِ" المُقْسَم بها ههنا، هل هي خاصَّةٌ أو عامَّة؟ على قولين، بناءً على الأقوال الثلاثة في "اللوَّامة":

فقال ابن عباس: "كلُّ نفسٍ تَلُومُ نفسَها يوم القيامة؛ يَلُومُ المُحْسِنُ نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، ويَلومُ المُسِيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته".

واختاره الفرَّاء؛ قال: "ليس من نفسٍ، بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ، إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرًا قالت: هَلَّا ازددتُ؟ وإن كانت عملت سوءًا، قالت: ليتني لم

=

=

أفعل".

والقول الثاني: أنَّها خاصَّةٌ.

قال الحسن: "هي النَّفْسُ المؤمنة، فإنَّ المؤمن - واللهِ - لا تَرَاهُ إلا يَلُوم نفسه على كلِّ حالِهِ، لأنَّه يَسْتَقْصِرُها في كلِّ ما تفعل، فيندمُ ويلومُ نفسَهُ، وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا، لا يعاتبُ نفسَهُ".

والقول الثالث: أنَّها النَّفْس الكافرة وحدها، قاله: قتادة، ومقاتل؛ هي النَّفْس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرَّطَت في أمر الله.

قال شيخنا: "والأظهر أنَّ المرادَ نفسُ الإنسانِ مطلقًا، فإنَّ نفسَ كلِّ إنسانٍ لوَّامَةٌ، كما أقسم بجنس "النَّفْس" في قوله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)} [الشمس: ٧، ٨]، فإنَّه لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ أن يلوم نفسَه أو غيرَه على أمرٍ.

ثُمَّ هذا اللَّومُ قد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١)} [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: ٥٤]، فهذا اللَّومُ غير محمود.

وفي "الصحيحين" في قصة احتجاج آدم وموسى: "أَتَلُومني على أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ عليَّ قبل أن أُخْلَق؟ " قال: فحَجَّ آدمُ موسى ... الحديث.

فهو - سبحانه - يُقْسمُ على صفة "النَّفْس اللوَّامة" كقوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)} [العاديات: ٦]، وعلى جزائها كقوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)} [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وعلى تباين عملها كقوله: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)} [الليل: ٤]".

وكلُّ نفسٍ لوَّامةٌ، فالنَّفْسُ السعيدة تلوم على فعلِ الشَّرِّ، وتركِ الخير، فتبادر إلى

=

=

التوبة، والنَّفْسُ الشَّقِيَّةُ بالضدِّ من ذلك.

وجمع – سبحانه – في القَسَمَ بين: مَحَلِّ الجَزَاءِ وهو يوم القيامة، ومَحَلِّ الكَسْبِ وهو "النَّفْس اللوَّامة".

ونبَّهَ – سبحانه – بكونها "لوَّامَةً" على شِدَّة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يُعَرِّفُها الخيرَ والشَّرَّ، ويَدُلُّها عليه، ويرشدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه؛ فيجعلَها مريدةً للخير، مُؤْثِرةً له، كارهةً للشَّرِّ، مُجَانبةً له، لتَخْلُصَ من اللَّوم، أو من سوء عاقبة ما تلوم عليه.

ولأنَّها متلوِّمةٌ متردِّدةٌ لا تَثبُتُ على حالٍ واحدةٍ؛ فهي محتاجةٌ إلى من يُعَرِّفُها ما هو أنفع لها في مَعَاشِها ومَعَادِها فتُؤْثِرُهُ، وتَلُومُ نفسَها عليه إذا فاتها، فَتَتُوبُ منه إن كانت سعيدةً، ولتقوم عليها حُجَّةُ عَدْلِهِ، فيكون لَوْمُها في القيامة لنفسها عليه لَوْمًا بِحَقٍّ، قد أعذَر اللهُ خالقُها وفاطرُها إليها فيه.

ففي صفة "اللَّوْم" تنبيهٌ على ضرورتها إلى التصديق بالرِّسَالة والقرآن، وأنَّها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه أَلْبَتَّةَ.

ولمَّا كان يومُ مَعَادِها هو مَحَلُّ ظهور هذا اللَّوْم، وترتُّبِ أثره عليه قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ. ا.هـ

قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ} [القيامة: ٣].

قال الطبري: يقول:"أيظنّ ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟".

قوله تعالى: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة: ٤].

في هذه الآية وجهان من التفسير:

أحدهما: نقدر على تسوية بنانه كما كانت، وإن صغرت عظامها، ومن قدر على

=

=

جمع صغار العظام، كان على جمع كبارها أقدر، هذا قول الأخفش ، وابن قتيبة ، والزجاج.

قال الأخفش:"إنما هي عَلى تسويةِ بِنَانِه".

قال ابن قتيبة:"هذا ردّ من الله عليهم، وذلك أنهم ظنوا أن الله لا ينشر الموتى، ولا يقدر على جمع العظام البالية، فقال: بلى، فاعلموا أنّا نقدر على رد السّلاميات على صغرها، ونؤلّف بينها حتى يستوي البنان. ومن قدر على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر. ومثل هذا رجل قلت له: أتراك تقدر على أن تؤلّف هذا الحنظل في خيط؟ فيقول لك: نعم وبين الخردل".

قال ابن كثير:"الظاهر من الآية أن قوله: {قَادِرِينَ} حال من قوله: {نَجْمَعَ}، أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فتجعل بنانه – وهي أطراف أصابعه – مستوية".

الثاني: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا كخُفّ البعير، وحافر الحمار، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وبه قال الفراء ، والطبري ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال الطبري: يقول:"بلى قادرين على أعظم من ذلك، أن نسوي بنانه، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئا واحدا كخفّ البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه".

عن سعيد بن جُبير، قال: "قال لي ابن عباس: سل، فقلت: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}، قال: لو شاء لجعله خفا أو

=

=

حافرا".

عن ابن عباس، قوله: "{بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}، قال: أنا قادر على أن أجعل كفه مجمرة مثل خفّ البعير".

عن ابن عباس: "{قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}، قال: نجعله خفا أو حافرا".

قال عكرمة:"على أن نجعله مثل خفّ البعير، أو حافر الحمار".

عن مجاهد، قوله: "{عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}، رجليه، قال: كخفّ البعير فلا يعمل بهما شيئا".

قال الحسن:"جعلها يدا، وجعلها أصابع يقبضهنّ ويبسطهنّ، ولو شاء لجمعهنّ، فاتقيت الأرض بفيك، ولكن سوّاك خلقا حسنا. قال أبو رجاء: وسُئل عكرِمة فقال: لو شاء لجعلها كخفّ البعير".

قال الضحاك:"البنان: الأصابع، يقول: نحن قادرون على أن نجعل بنانه مثل خفّ البعير".

قال القرظي: "لو شاء لجعله خنزيرا حمارا".

قال قتادة:"لو شاء جعل بنانه مثل خفّ البعير، أو حافر الدابة".

قال قتادة:"قادر والله على أن يجعل بنانه كحافر الدابة، أو كخفّ البعير، ولو شاء لجعله كذلك، فإنما ينقي طعامه بفيه".

قال مقاتل:"يعني: على أن نلحق الأصابع بالراحة ونسويه حتى نجعله مثل خف البعير فلا ينتفع بها كما لا ينتفع البعير بها ما كان حيا، نزلت هذه الآية في عدي بن ربيعة والأخنس بن شريق".

عن غَيلان بن جرير، عن أصحابه، في قوله: "{بلى قادرين على أن نسوي بنانه}، قال: قادرين على أن نَجعلها مثل رُبع".

قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة: ٥].

=

قال الطبري: "ما يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه، ولكنه يريد أن يمضي أمامه قُدُما في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيء، ولا يتوب منها أبدا، ويسوّف التوبة".

وفي قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة: ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: يقدِّم الذنب ويؤخِّر التوبة، ويقول: سوف أتوب. سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير: "يقول: سوف أتوب سوف أتوب".

قَالَ الكلبي: "يكثر الذنوب، ويؤخر التوبة".

قال مقاتل: "يعني: تقديم المعصية وتأخير التوبة يوما بيوم يقول: سأتوب، حتى يموت على شر عمله، وقد أهلك أمامه.. يعني: عدي بن ربيعة".

قال الزجاج: "معناه أَنَه يُسوِّفُ بالتوبة، وُيقَدِّم الأعمال السيئَة".

الثاني: يمضي أمامه قدُمًا لا ينزع عن فجور، قاله الحسن ، وعكرمة ، والسدي.

عن السدي: "{بَلْ يُرِيدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ}، قال: قُدُمًا". وفي رواية: "يعني: لِيَظلم على قدر طاقته".

قال عكرمة: "قدما لا ينزع عن فجور".

قال الحسن: "قدما قدما في المعاصي".

قال الحسن: "لا تلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قدما، إلا من قد عصم الله".

قال مجاهد: "يمضي أمامه راكبا رأسه".

عن ابن عباس في قوله: "{بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، قال: يمضي قُدُمًا".

قال ابن أبي زمنين: "وهو المشرك؛ يعني: أنه يمضي على فجوره لا يعاتب نفسه حتى يلقى ربه".

قال الطبري: يقول:"ما يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه، ولكنه يريد أن يمضي أمامه قُدُما في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيء، ولا يتوب منها أبدا، ويسوّف التوبة".

الثالث: بل يريد أن يرتكب الآثام في الدنيا لقوة أمله، ولا يذكر الموت، قاله ابن عباس ، والضحاك.

قال الضحاك:"هو الأمل يؤمل الإنسان، أعيش وأصيب من الدنيا كذا، وأصيب كذا، ولا يذكر الموت".

عن ابن عباس قوله: "{بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحقّ بين يدي القيامة".

الرابع: بل يريد الإنسان الكافر ليكذب بيوم القيامة. قاله ابن عباس -في إحدى الروايات- ، وابن زيد. قال ابن كثير:"وهو الأظهر من المراد".

عن ابن عباس، قوله: "{بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، يقول: الكافر يكذّب بالحساب".

قال ابن زيد:"يكذّب بما أمامه يوم القيامة والحساب".

الخامس: بل يريد أن يكذب بما في الآخرة كما كذب بما في الدنيا، قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"إن الفجور: التكذيب، واستشهد بأن أعرابيًا قصد عمر بن الخطاب وشكا إليه نقب إبله ودبرها، وسأله أن يحمله على غيرها، فلم يحمله، فقال الأعرابي:

أقسم بالله أبو حفص عمر... ما مسّها من نقب ولا دبر

فاغفر له اللهمّ إن كان فجر

يعني: إن كان كذبني بما ذكرت.

=

قوله تعالى: {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ٦]، أي:"يسأل هذا الكافر مستبعدًا قيام الساعة: متى يكون يوم القيامة؟".

قال الطبري: يقول:"يسأل ابن آدم السائر دائبا في معصية الله قُدُما: متى يوم القيامة؟ تسويفا منه للتوبة".

قال مقاتل:"يعني: يسأل عدي متى يوم القيامة؟ تكذيبا بها".

قال ابن أبي زمنين:"متى يوم القيامة؛ أي: ليست بجائية يكذب بها".

قال ابن كثير:"وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} [سبأ: ٢٩، ٣٠]".

قال قتادة:"يقول: متى يوم القيامة، قال: وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من سُئل عن يوم القيامة فليقرأ هذه السورة".

عن ابن زيد:"{يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}: متى يكون ذلك، فقرأ: {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ـ قال: فكذلك يكون يوم القيامة".

قوله تعالى: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} [القيامة: ٧]، أي:"فإذا تحيَّر البصر ودُهش فزعًا مما رأى من أهوال يوم القيامة".

قال الحسن: "{فَإِذا بَرِقَ البَصَرُ}، يعني: يوم القيامة".

وفي قوله تعالى: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} [القيامة: ٧]، قراءتان:

إحداهما: «بَرَقَ»: بفتح الراء، وقرأ بها نافع وأبان عن عاصم، وفي تفسيرها وجهان:

الأول: يعني: خفت وانكسر عند الموت، قاله عبد الله بن أبي إسحاق.

الثاني: أي: شخص وفتح عينه عند معاينة ملك الموت ولم يطرف فزعًا، ذكره الفراء، وأنشد:

=

=

نعانى حنانة طُوبالةً... تُسَفُّ يَبِيسًا من العِشْرِقِ

فنفسَك فَانْعَ ولا تَنْعَنِي... وداوِ الْكُلُومَ ولا تَبْرَقِ

أي: ولا تفزع من هول الجراح.

عن قتادة، قوله: "{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ}، شخص البصر".

قال قتادة:"شَخَص البصر، فلا يَطرِفُ مما يَرى من العجائب مما كان يُكذّب به في الدنيا أنه غير كائن".

عن مجاهد، قوله: "{بَرِقَ الْبَصَرُ}، قال: عند الموت".

قال ابن عباس:"يعني: ببرق البصر: الموت، وبروق البصر: هي الساعة".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: يوم القيامة؛ أي: شخص لإجابة الداعي كقوله: {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} [إبراهيم: ٤٣]".

قال مقاتل:"يقول: إذا شخص البصر فلا يطرف مما يرى من العجائب «التي يراها مما كان يكفر بها في الدنيا أنه غير كائن".

قال الزجاج:"وَمَن قَرأ «بَرَقَ»، فهو من: بَرَقَ يَبْرُقُ. من: بَرِيق العَيْنَيْنِ".

القراءة الثانية: «بَرِقَ» بكسر الراء، وقرأ بها الباقون ، وفي تفسيرها وجوه:

أحدها: عشى عينيه البرق يوم القيامة، قاله أشهب العقيلي ، قال الأعشى:

وكنتُ أرى في وجه مَيّةَ لمحةً... فأبرِق مَغْشيًّا عليّ مكانيا.

الثاني: شق البصر، قاله أبو عبيدة ، وأنشد قول الكلابي:

لمّا أتاني ابن صبيح راغبا... أعطيته عيسا صهابا فبرق

الثالث: أي: حار وفزع من الموت ومن أمر القيامة وبرق ولمع. قاله ابن قتيبة ، والزجاج ، والنحاس.

قال الزجاج:"فمن قرأ «بَرِقَ»، فمعناه: فَزِعَ وَتَحَيَّرَ".

قال الزمخشري: أي:"تحير فزعا، وأصله من: برق الرجل، إذا نظر إلى البرق

=

فدهش بصره".

قال ابن قتيبة: "وأصل «البَرَق»: الدهش. يقال: برق الرجل يبرق برقا".

قال ابن كثير: "قال أبو عمرو بن العلاء: {بَرِقَ} بكسر الراء، أي: حار. وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: {لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء؛ من شدة الرعب".

قال ابن عطية:": المعنى متقارب في القراءتين".

وقرأ أبو السمال: «بلق»، إذا انفتح وانفرج. يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته: فتحته.

والمقصود تنبيه المستبعد للقيامة إلى معالم حدوثها: إنه انبهار الأبصار ولمعها وتحيّرها من شدة الشخوص للموت أو للبعث.

قوله تعالى: {وَخَسَفَ الْقَمَرُ} [القيامة: ٨]، أي:"وذهب نور القمر".

قال الطبري: "يقول: ذهب ضوء القمر".

قال السعدي: "أي: ذهب نوره وسلطانه".

قال أبو عبيدة:"وكسف القمر، واحد، ذهب ضوءه".

قال قتادة:"ذهب ضوءه فلا ضوء له".

قال الحسن:"هو ضوءه، يقول: ذهب ضوءه".

قال ابن كيسان: "ويحتمل أن يكون بمعنى: غاب، كقوله سبحانه: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [القصص: ٨١]".

قوله تعالى: {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [القيامة: ٩]، أي:"وجُمِع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء، فلا ضوء لواحد منهما".

قال الطبري: يقول:"وجمع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء، فلا ضوء لواحد منهما".

=

قال السعدي:"وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين".

قال الزجاج:"أي: جمِعَا فِي ذَهَابِ نُورِهما".

قال الثعلبي:"أسودين مكوّرين كأنهما ثوران عقيران".

قال الزمخشري: "حيث يطلعهما الله من المغرب".

عن مجاهد: "{وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، قال: كوّرا يوم القيامة".

قال ابن زيد:"جُمعا فرُمي بهما في الأرض".

عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار:"أنه تلا هذه الآية يوما: {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، قال: يجمعان يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى".

والمقصود: ذهب ضوؤهما جميعًا، فتجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال " الشمس و القمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة " قال الألباني في الصحيحة (١٢٤): و ليس المراد من الحديث ما تبادر إلى ذهن الحسن البصري أن الشمس و القمر في النار يعذبان فيها عقوبة لهما ، كلا فإن الله عز و جل لا يعذب من أطاعه من خلقه و من ذلك الشمس و القمر كما يشير إليه قول الله تبارك و تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات و من في الأرض ، و الشمس و القمر ، و النجوم والجبال والشجر و الدواب ، و كثير من الناس ، و كثير حق عليه العذاب).

فأخبر تعالى أن عذابه إنما يحق على غير من كان يسجد له تعالى في الدنيا ، كما قال الطحاوي ، وعليه فإلقاؤهما في النار يحتمل أمرين:

الأول: أنهما من وقود النار. قال الإسماعيلي: "لا يلزم من جعلهما في النار

=

=

تعذيبهما ، فإن لله في النار ملائكة و حجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذابا و آلة من آلات العذاب ، و ما شاء الله من ذلك فلا تكون هي معذبة".

والثاني: أنهما يلقيان فيها تبكيتا لعبادهما. قال الخطابي: "ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك ، و لكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلا".

قلت: و هذا هو الأقرب إلى لفظ الحديث و يؤيده أن في حديث أنس عند أبي يعلى -

كما في " الفتح " (٦ / ٢١٤): "ليراهما من عبدهما". و لم أرها في " مسنده " و الله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ} [القيامة: ١٠]، أي:"يقول الإنسان وقتها: أين المهرب من العذاب؟".

قال الطبري:"يقول الإنسان يوم يعاين أهوال يوم القيامة: أين المفرّ من هول هذا الذي قد نزل، ولا فرار".

قال ابن كثير:"أي: إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجأ أو موئل؟".

قال السعدي:"أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وأصابنا".

عن عبد الله بن خالد، قال: "قرأها ابن عباس: (أَيْنَ المَفِرُّ) بنصب الميم وكسر الفاء، قال: وقرأها يحيى بن وثّاب: {أَيْنَ المَفَرُّ} بنصب الميم والفاء".

قال الزجاج:"وَيُقْرَأُ «أَيْنَ الْمَفِرُّ» - بكسر الفاء - فمن فتح فهو بمعنى: أين الفِرَارُ. ومن كسر فعلى معنى: أين مكان الفِرار".

عن الأوزاعي، قال: "سمعتُ بلال بن سعد يقول في قوله تعالى: {ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت} [سبأ: ٥١]. قال: ذلك قوله تعالى: {يقول الإنسان يومئذ أين

=

=

المفر}".

قوله تعالى: {كَلَّا لَا وَزَرَ} [القيامة: ١١]، أي:"ليس الأمر كما تتمناه -أيها الإنسان- مِن طلب الفرار، لا ملجأ لك ولا منجى".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ليس هناك فرار ينفع صاحبه، لأنه لا ينجيه فِراره، ولا شيء يلجأ إليه من حصن ولا جبل ولا معقل، من أمر الله الذي قد حضر، وهو الوزر".

قال ابن كثير:"أي: لا نجاة. وهذه كقوله: {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} [الشورى: ٤٧]، أي: ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا {لا وَزَرَ}، أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه".

قال الزجاج:"الوَزَرُ-في كلام العَرَبِ-: الجَبَلُ الَّذِي يُلجأ إليه: هذا أصله، وَكُل ما التجأت إليه وَتَخَلَّصْتَ به فَهُوَ: وَزَرٌ".

عن ابن عباس، قوله: "{كَلا لا وَزَرَ}، يقول: لا حرز".

قال ابن عباس:"يعني: لا حصن، ولا ملجأ".

قال مجاهد:"لا ملجَأ ولا جبل".

قال قتادة:"لا جبل ولا حِرْز ولا منجى".

عن إبراهيم بن طريف، قال: "سمعت مُطَرِّف بن الشِّخِّير يقرأ: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، فلما أتى على: {كَلا لا وَزَرَ}، قال: هو الجبل، إن الناس إذا فرّوا قالوا عليك بالوَزَر".

عن أدهم، قال: "سمعت مُطَرِّفا يقول: {كَلا لا وَزَرَ}، قال: كلا لا جَبَل".

عن قتادة، والحسن: "{كَلا لا وَزَرَ}، قال: لا جبل".

قال الحسن:"كانت العرب تخيف بعضها بعضا، قال: كان الرجلان يكونان في ماشيتهما، فلا يشعران بشيء حتى تأتيهما الخيل، فيقول أحدهما لصاحبه، يا

=

=

فلان الوَزَر الوَزَر، الجَبَل الجَبَل".

قال الحسن:"كانت العرب في الجاهلية إذا خشوا عدوّا قالوا: عليكم الوزر: أي عليكم الجبل".

قال الضحاك:"يعني: الجبل بلغة حِمْير".

عن سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وأبي قلابة: "{كَلا لا وَزَرَ}، قال: لا حصن".

قال ابن زيد:"لا مُتَغَيَّب يُتَغيب فيه من ذلك الأمر، لا منجَى له منه".

والوزَرُ في لغة العرب: ما يُلجأُ إليه من حِصْنٍ أو جبل أو غيرهما. قال السدي: (كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لا وزَرَ يعصمكم يومئذ مني).

والمقصود: ليس يومئذ فرار ينفع صاحبه، ولا شيء يلجأ إليه من حصن ولا جبل ولا معقل.

قوله تعالى: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: ١٢].

وفي الآية وجهان:

أحدهما: إلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار، وهو الذي يقرّ جميع خلقه مقرّهم. قاله ابن زيد ، وبه قال الطبري.

قال ابن زيد:"أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقرأ قول الله: {وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}".

الثاني: معناه: إلى ربك المنتهى. وهذا قول قتادة ، والسدي.

قال ابن كثير:"أي: المرجع والمصير".

قال السعدي:"فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله".

=

=

قال الزمخشري: "مستقرّ العباد، أي: استقرارهم، يعني: أنهم لا يقدرون أن يستقرّوا إلى غيره وينصبوا إليه. أو إلى حكمه ترجع أمور العباد، لا يحكم فيها غيره، كقوله: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}، أو إلى ربك مستقرّهم، أي: موضع قرارهم من جنة أو نار، أي: مفوض ذلك إلى مشيئته، من شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار".

والمقصود: إلى ربك أيها الإنسان يومئذ المرجع والمنتهى والاستقرار، وهو الذي يقرّ جميع خلقه مقرهم.

قوله تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]

وقد اختلف أهل العلم في تفسير الآية على أقوال:

أحدها: بما قدَّم قبل موته، وما سنَّ من شيء فعُمِل به بعد موته، قاله ابن مسعود، وابن عباس.

قال ابن عباس:"ما عمل قبل موته، وما سَنّ فعُمِل به بعد موته".

عن ابن مسعود قال: "{بِمَا قَدَّمَ} من عمله، {وأَخَّرَ} من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ".

الثاني: ما قدم من معصية، وأخر من طاعة، قاله ابن عباس-أيضا-.

قال ابن عباس:"يقول: بما قدّم من المعصية، وأخّر من الطاعة، فينبأ بذلك".

الثالث: ينبأ بأوّل عمله وآخره.، قاله مجاهد ،وإبراهيم النخعي.

الرابع: بما قَدّم من طاعته، وأخَّر من حقوق الله. قاله قتادة.

وعن أبي صالح باذام، في قوله: {يُنَبَّأُ الإنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وأَخَّرَ}، قال: قَدّم مِن حسنة، أو أخّر من سُنَّة حسنة عُمِل بها بعده؛ عِلمًا عَلّمه، صدقة أَمَر بها".

قال النحاس:"من أحسن ما قيل فيه قول قتادة قال: بما قدّم من طاعة الله جلّ وعزّ وأخّر من حقّه ينبأ به كلّه".

=

=

الخامس: بما قدّم من خير أو شرّ مما عمله، وما أخَّر مما ترك عمله من طاعة الله. قاله ابن زيد.

وقال مجاهد:"بلّغنا: أنّ نفس المؤمن لا تَخرج حتى يُعرض عليه عَمَله؛ خيره وشرّه".

وقال الحسن:"يُنزِّل مَلَك الموت عليه عند الموت حَفظته، فيُعرَض عليه الخير والشر، فإذا رأى حسنة بَهَش وأَشرق، وإذا رأى سيئة غَضَّ وقَطَّب.

السادس: بما قدَّم من أمواله، وما خلَّف للورثة. قاله زيد بن أسلم.

السابع: بِما قَدَّمَ في أول عمره وما أَخَّرَ في آخر عمره. قاله عطاء.

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندنا، أن ذلك خبر من الله أن الإنسان ينبأ بكلّ ما قدّم أمامه مما عمل من خير أو شرّ في حياته، وأخَّر بعده من سنة حسنة أو سيئة مما قدّم وأخَّر، كذلك ما قدّم من عمل عمله من خير أو شرّ، وأخَّر بعده من عمل كان عليه فضيَّعه، فلم يعمله مما قدّم وأخَّر، ولم يخصص الله من ذلك بعضا دون بعض، فكلّ ذلك مما ينبأ به الإنسان يوم القيامة".

قال ابن كثير في الآية:"أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]".

عن سعيد بن أبي بكر بن أبي عثمان، قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا عثمان يقول: "خمس مصائب في الذنب أعظم من الذنب:

أوّلها: خذلان الله لعبده حتى عصاه ولو عصمه ما عصاه.

والثانية: أن سلبه حلية أوليائه وكساه لباس أعدائه.

والثالثة: أن أغلق عليه أبواب رحمته وفتح عليه أبواب عقوبته.

والرابعة: نظر إليه وهو يعصيه.

=

=

والخامسة: وقوفه بين يديه يعرض عليه ما قدّم وأخّر من قبائحه.

فهؤلاء المصائب الخمس في الذنب أعظم من الذنب".

والمقصود: يَخْبَرُ العبد يومئذ بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، مقطوعها ومستمرها، كما قال سبحانه: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} [القيامة: ١٤].

وفي الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أنه شاهد على نفسه بما تقدم به الحجة عليه، قاله أبو العالية ، وعطاء ، وابن زيد ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، ومنه قوله تعالى {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤].

قال أبو العالية وعطاء: "بل الإنسان على نفسه شاهد".

قال ابن زيد،: "هو شاهد على نفسه، وقرأ: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}".

قال السمعاني:"المعنى: هو لزوم الحجة عليه كما يلزم بالشهادة، وما من أحد إلا وله من نفسه على نفسه حجة".

الثاني: أن جوارحه شاهدة عليه بعمله، قاله عكرمة ، ومقاتل ، والكلبي. وهي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ومنه قوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥].

قال ابن عباس:"يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه".

قال قتادة:"شاهد عليها بعملها".

قال الزجاج:"فأعلم الله أن هذه الجوارح التي يتصرفون بها شواهد عليهم".

قال الطبري: يقول:"بل للإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه بعمله،

=

=

ويشهدون عليه به".

وقال ابن تغلب: "البصيرة والبينة والشاهد والدليل واحد".

الثالث: معناه: بصير بعيوب الناس غافل عن عيب نفسه فيما يستحقه لها وعليها من ثواب وعقاب. روي معناه عن قتادة.

قال قتادة:"إذا شئت والله رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم، غافلا عن ذنوبه؛ قال: وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوبا: يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك، ولا تبصر الجذع المعترض في عينك".

قوله تعالى: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: ١٥]، أي:"ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن إجرامه، فإنه لا ينفعه ذلك".

قال السعدي:"فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد، فيقر به، كما قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} . فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئا، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه: {فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}".

أي: بل الإنسان يعرف ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج، ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك، فعليه من يكذّب عذره، وجوارحه ستكون عليه شاهدة يوم الحساب.

وفي التنزيل:

١ - قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤].

٢ - وقال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: [ثم يلقى الثالث فيقول له مثل

=

=

ذلك، فيقول: يا رب آمنتُ بك وبكتابك وبرسلك، وصَلّيت وصُمْتُ وتَصَدَّقْتُ، ويُثْنّي بخير ما استطاع، قال: فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكَّر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطِقِي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه وذلك المنافق، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه].

قوله تعالى: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: ١٥]، في الآية جوه من التفسير:

أحدها: معناه: لو اعتذر يومئذ لم يقبل منه، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"شاهد على نفسه ولو اعتذر".

قال مجاهد:"ولو جادل عنها، فهو بصيرة عليها".

عن قتادة، قوله: "{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}، قال: ولو اعتذر". وفي رواية:"لو اعتذر يومئذ بباطل لم يَقبل اللهُ ذلك منه يوم القيامة".

عن الحسن: "{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}، لم تُقبل معاذيره".

وقال عطاء:"يعني: يَشهد عليه الشاهد، ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم يَنفعه".

قال ابن زيد:"معاذيرهم التي يعتذرون بها يوم القيامة فلا ينتفعون بها، قال: {يوم لا يؤذن لهم فيعتذرون}، ويوم يؤذن لهم فيعتذرون فلا تنفعهم ويعتذرون بالكذب".

عن عمران بن حدير، قال: "سألت عكرِمة، عن قوله: {بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}، قال: فسكت، فقلت له: إن الحسن يقول: ابن آدم عملك أولى بك، قال: صدق".

الثاني: أي: لو تجرد من ثيابه، رواه زرارة بن أوفى عن ابن عباس.

الثالث: لو أظهر حجته، قاله السدي ، وقال النابغة:

لديّ إذا ألقى البخيلُ معاذِرَه

=

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦).

تَعَالَى لِنَبِيِّهِ {لَا تُحَرِّك بِهِ} بِالْقُرْآنِ قَبْل فَرَاغ جِبْرِيل مِنْهُ {لِسَانك لِتَعْجَل بِهِ} خَوْف أَنْ يَنْفَلِت مِنْك.

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧).

{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعه} فِي صَدْرك {وَقُرْآنه} قِرَاءَتك إِيَّاهُ أَيْ جَرَيَانه عَلَى لِسَانك.

فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨).

{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ} عَلَيْك بِقِرَاءَةِ جِبْرِيل {فَاتَّبِعْ قُرْآنه} اسْتَمِعْ قِرَاءَته فَكَانَ ﷺ يَسْتَمِع ثُمَّ يَقْرَؤُهُ.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩).

=

قال الزجاج:"ولو أدلى بكل حُجةٍ عِنْدَهُ".

الرابع: معناه: ولو أرخى ستوره، و «الستر» -بلغة اليمن-: معذار، قاله الضحاك ، والسدي ، قال الشاعر:

ولكنّها ضَنّتْ بمنزلِ ساعةٍ... علينا وأطّت فوقها بالمعاذرِ

قال السدي:"ولو أرخى الستور، وأغلق الأبواب".

عن الضحاك:" {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}، قال: ستوره، أهل اليمن يسمون «الستر»: المعذار".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: ولو اعتذر لأن ذلك أشبه المعاني بظاهر التنزيل، وذلك أن الله جلّ ثناؤه أخبر عن الإنسان أن عليه شاهدًا من نفسه بقوله: {بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} فكان الذي هو أولى أن يتبع ذلك، ولو جادل عنها بالباطل، واعتذر بغير الحقّ، فشهادة نفسه عليه به أحقّ وأولى من اعتذاره بالباطل".

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانه} بِالتَّفْهِيمِ لَك وَالْمُنَاسَبَة بَيْن هَذِهِ الْآيَة وَمَا قَبْلهَا أَنَّ تِلْكَ تَضَمَّنَتْ الْإِعْرَاض عَنْ آيَات الله وَهَذِهِ تَضَمَّنَتْ الْمُبَادَرَة إلَيْهَا بِحِفْظِهَا.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠).

{كَلَّا} اسْتِفْتَاح بِمَعْنَى أَلَا {بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَة} الدُّنْيَا بِالْيَاءِ وَالتَّاء فِي الْفِعْلَيْنِ.

وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١).

{وَتَذَرُونَ الْآخِرَة} فَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢).

{وُجُوه يَوْمئِذٍ} أَيْ فِي يَوْم الْقِيَامَة {نَاضِرَة} حسنة مضيئة.

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣).

{إلَى رَبّهَا نَاظِرَة} أَيْ يَرَوْنَ الله سُبْحَانه وَتَعَالَى فِي الْآخِرَة.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤).

{وَوُجُوه يَوْمئِذٍ بَاسِرَة} كَالِحَة شَدِيدَة الْعُبُوس.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥).

{تَظُنّ} تُوقِن {أَنْ يُفْعَل بِهَا فَاقِرَة} دَاهِيَة عَظِيمَة تكسر فقار الظهر[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)}؛ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، فكان ذلك يعرف منه؛ فأنزل الله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)} أخذه {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)}؛ قال: إن علينا أن نجمعه في صدرك، وقرآنه: فتقرأه، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)}؛ قال: فإذا أنزلناه؛ =

=

فاستمع له {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)}: علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل؛ أطرق، فإذا ذهب؛ قرأه كما وعده الله تعالى.

أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩، ٥٠٤٤، ٧٥٢٤)، ومسلم (رقم ٤٤٨/ ١٤٧، ١٤٨).

وعنه -أيضًا-؛ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل القرآن عليه يعجل بقراءته؛ ليحفظه؛ فأنزل الله ﷻ: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...} إلى قوله: {قُرْآنَهُ}.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٨١ رقم ٦٥٦)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١١٦، ١١٧) من طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عنه به.

وسنده صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح.

وعن الشعبي في هذه الآية: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)}؛ قال: كان إذا نزل عليه الوحي عجل يتكلم به من حبه إياه؛ فنزل: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١١٧): ثنا ابن المثنى ثنا ربعي بن علية ثنا داود بن أبي هند عن الشعبي به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

* قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]، أي:"لا تحرك -أيها النبي- بالقرآن لسانك حين نزول الوحي؛ لأجل أن تتعجل بحفظه، مخافة أن يتفلَّت منك".

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -ﷻ-: {لا تحرك به لسانك لتعجل به}؛ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، فكان ذلك يعرف منه؛ فأنزل الله تعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦)} أخذه {إن علينا جمعه وقرآنه (١٧)}؛ قال: إن علينا أن نجمعه

=

=

في صدرك، وقرآنه: فتقرأه، {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨)}؛ قال: فإذا أنزلناه؛ فاستمع له {ثم إن علينا بيانه (١٩)}: علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل؛ أطرق، فإذا ذهب؛ قرأه كما وعده الله تعالى. أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩، ٥٠٤٤، ٧٥٢٤)، ومسلم (رقم ٤٤٨/ ١٤٧، ١٤٨).

قال ابن زيد:"لا تكلم بالذي أوحينا إليك حتى يقضى إليك وحيه، فإذا قضينا إليك وحيه، فتكلم به".

وفي قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن النبي -ﷺ- كان إذا نزل عليه القرآن حرك به لسان يستذكره. مخافة أن ينساه، وكان ناله منه شدة، فنهاه الله تعالى عن ذلك وقال: {إنّ علينا جَمْعَه وقرآنه}، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك.

وبه قال الطبري، قائلا:"وذلك أن قوله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} ينبئ أنه إنما نهى عن تحريك اللسان به متعجلا فيه قبل جمعه، ومعلوم أن دراسته للتذكر إنما كانت تكون من النبيّ ﷺ من بعد جمع الله له ما يدرس من ذلك".

قال ابن عباس:"كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، كان يحرّك به لسانه وشفتيه، فيشتدّ عليه، فكان يعرف ذلك فيه، فأنزل الله هذه الآية في «لا أقسم بيوم القيامة»: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}".

عن ابن عباس، أن النبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجَّل يريد حفظه، فقال الله تعالى ذكره: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، وقال ابن عباس: هكذا وحرّك شفتيه".

قال سعيد بن جبير:"كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن، فيحرِّك به لسانه، يستعجل به، فقال: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}".

=

=

عن سعيد بن جُبير، أن النبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجَّل به يريد حفظه؛ وقال يونس: يحرِّك شفتيه ليحفظه، فأنزل الله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}".

قال يحيى بن سلام:"كان النبي عليه السلام إذا نزل عليه الوحي يقرأه ويدئب فيه نفسه مخافة أن ينسى، فأنزل الله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦] نحن نحفظه عليك فلا تنسى".

قال الضحاك:"كان نبيّ الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي من القرآن حرّك به لسانه مخافة أن ينساه".

الثاني: أنه كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبه له وحلاوته في لسانه، فنهي عن ذلك حتى يجتمع، لأن بعضه مرتبط ببعض، قاله عامر الشعبي.

قال الشعبي:"كان إذا نزل عليه الوحي عَجِل يتكلم به من حبه إياه، فنزل: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}".

الثالث: أنه كان يُكثر تلاوة القرآن مخافة نسيانه، فقيل له: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} إن علينا أن نجمعه لك، ونقرئكه فلا تنسى. وهذا قول ابن عباس- أيضا- ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة.

قال ابن عباس:"كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}، إن علينا أن نجمعه لك، {وقرآنه}: أن نقرئك فلا تنسى".

قال الحسن:"كان رسول الله ﷺ يحرّك به لسانه ليستذكره، فقال الله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}، إنا سنحفظه عليك".

قال مجاهد:"كان يستذكر القرآن مخافة النسيان، فقال له: كفيناكه يا محمد".

قال قتادة:"كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فيكثر مخافة أن ينسى".

قال قتادة:"كان نبيّ الله ﷺ يحرّك به لسانه مخافة النسيان، فأنزل الله ما تسمع".

=

قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧]، أي:"إن علينا جَمْعه في صدرك، ثم أن تقرأه بلسانك متى شئت".

قال ابن قتيبة:"وإنما سمي قرآنا لأنه جمع السور وضمّها. ويكون القرآن مصدرًا كالقراءة: يقال: قرأت قراءة حسنة وقرآنا حَسَنًا. وقال الله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨]، أي: قراءة الفجر، يعني: صلاة الفجر. قال الشاعر في عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السّجُّودِ بِهِ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبِيحًا وقُرْآنا

أي: تسبيحًا وقراءة".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: إن علينا جمعه في قلبك لتقرأه بلسانك، قاله ابن عباس ، وبه قال الطبري ، وابن كثير.

عن ابن عباس: "{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ}، قال: في صدرك، {وَقُرآنَهُ}، قال: تقرؤه بعد".

عن ابن عباس: "{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} أن نجمعه لك، {وَقُرآنَهُ}: أن نُقرئك فلا تنسى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن علينا جمع هذا القرآن في صدرك يا محمد حتى نثبته فيه، {وُقرآنَهُ} يقول: وقرآنه حتى تقرأه بعد أن جمعناه في صدرك".

قال ابن كثير:": {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ}، أي: في صدرك، {وَقُرْآنَهُ}، أي: أن تقرأه".

قال الزمخشري:"وكان رسول الله ﷺ إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمها، مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن يتفلت منه، فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه، حتى يقضى إليه وحيه، ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى: لا تحرّك لسانك بقراءة الوحى ما دام جبريل

صلوات الله عليه يقرأ، {لِتَعْجَلَ بِهِ}: لتأخذه على عجلة، ولئلا يتفلت منك".
قال الزجاج:"أي: إِنَّ عَلَيْنَا أن نُقرِئَكَ فَلَا تَنْسَى، وعلينا تلاوته عليك".
الثاني: عيلنا حفظه وتأليفه على ما انزلناه، قاله قتادة. ومنه قول عمرو بن كلثوم:
ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أدْمَاءَ بِكْرٍ... هِجانِ اللَّوْنِ لمْ تَقرأ جَنِينا
يعني بقوله: «لَمْ تَقرأ» لم تضمّ رحما على ولد، ويقال للتي لم تلد: ما قرأت سلى قط.
عن قتادة: "{جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، قال: حفظه وتأليفه".
قال أبو عبيدة وابن قتيبة:"{إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، أي: تأليفه".
وقال ابن قتيبة:"أي: ضمَّه وجمْعَه".
الثالث: عيلنا أن نجمعه لك حتى تثبته في قلبك، قاله الضحاك.
قال الفراء:"أي: أن جبريل عليه السلام سيعيده عليك".
قال النحاس:"فيضمن الله جلّ وعزّ جمعه، فبهذا كفّر الفقهاء من زعم أنه قد بقي منه شيء لأنه ردّ على ظاهر التنزيل، وسئل سفيان بن عيينة: «كيف غيّرت التوراة والإنجيل وهما من عند الله؟ فقال: إن الله جلّ وعزّ وكل حفظهما إليهم، فقال جل ثناؤه: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ} [المائدة: ٤٤]، ولم يكل حفظ القرآن إلى أحد فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ} [الحجر: ٩]، وما حفظه لم يغيّر".
قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨]، أي:"فإذا قرأه عليك رسولنا جبريل فاستمِعْ لقراءته وأنصت له، ثم اقرأه كما أقرأك إياه".
وفي قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨]، وجوه من التفسير:
أحدها: فإذا بيّناه فاعمل بما فيه، قاله ابن عباس.
عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: "{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}، يقول: اعمل به".

=

الثاني: فإذا أنزلناه فاستمع قرآنه، وهذا مروي عن ابن عباس -أيضًا-.

قال ابن عباس:"فإذا أنزلناه إليك فاستمع له".

قال ابن كثير:"أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ، فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك".

الثالث: فإذا تلي عليك فاتبع ما فيه من الشرائع والأحكام، قاله قتادة ، والضحاك ، وهو مروي عن ابن عباس -في إحدى الروايات-.

قال ابن عباس:"يقول: إذا تلي عليك فاتبع ما فيه".

قال الضحاك:"يقول: اتبع ما فيه".

قال قتادة:"يقول: اتبع حلالَه، واجتنب حرامه".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: فإذا تُلي عليك فاعمل به من الأمر والنهي، واتبع ما أُمرت به فيه، لأنه قيل له: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ} في صدرك {وقُرآنَهُ} ودللنا على أن معنى قوله: {وقُرآنَهُ}: وقراءته، فقد بين ذلك عن معنى قوله: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩]، أي:"ثم إن علينا توضيح ما أشكل عليك فهمه من معانيه وأحكامه".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: بيان ما فيه من أحكام وحلال وحرام، قاله ابن عباس ، وقتادة.

قال ابن عباس:"يقول: حلاله وحرامه، فذلك بيانه".

قال قتادة:"بيان حلاله، واجتناب حرامه، ومعصيته وطاعته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثم إن علينا بيان ما فيه من حلاله وحرامه، وأحكامه لك مفصلة".

قال ابن كثير:"أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على

=

=

ما أردنا وشرعنا".

الثاني: علينا بيانه بلسانك إذا نزل به جبريل حتى تقرأه كما أقرأك، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"تبيانه بلسانك".

الثالث: علينا أن نجزي يوم القيامة بما فيه من وعد أو وعيد، قاله الحسن.

قوله تعالى: {كَلَّا} [القيامة: ٢٠]، أي:"ليس الأمر كما زعمتم -يا معشر المشركين- أن لا بعث ولا جزاء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لعباده المخاطبين بهذا القرآن المؤثرين زينة الحياة الدنيا على الآخرة: ليس الأمر كما تقولون أيها الناس من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم، ولا تجازون بأعمالكم".

قوله تعالى: {بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)} [القيامة: ٢٠ - ٢١]، أي:"بل أنتم قوم تحبون الدنيا وزينتها، وتتركون الآخرة ونعيمها".

قال الطبري: يقول: "لكن الذي دعاكم إلى قيل ذلك محبتكم الدنيا العاجلة، وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها، فأنتم تومنون بالعاجلة، وتكذّبون بالآجلة".

قال ابن كثير:"أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم: إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة".

قال قتادة:"اختار أكثر الناس العاجلة، إلا من رحم الله وعصم".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر {يحبون} {ويذرون} بالياء جميعا، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي {تحبون} {وتذرون} بالتاء.

قوله تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ -

=

=

[٢٣

وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة ناعمة، ترى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك.

قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} [القيامة: ٢٢]، أي:"وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة ناعمة".

وفي قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} [القيامة: ٢٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: حسنة، قاله الحسن ، ومجاهد-في رواية- ، وأبو صالح.

قال مقاتل:"يعنى: الحسن والبياض، ويعلوه النور".

قال الفراء:"مشرقة بالنعيم".

قال ابن قتيبة:"أي: مشرقة".

قال ابن كثير:" {نَاضِرَةٌ} من النضارة، أي: حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة".

قال أبو عبيدة:"يقال: نضر الله وجهك وقد نضّر وجهك".

قال مجاهد:"نُضرة الوجوه: حُسنها".

قال مجاهد:"الوجوه الحسنة".

قال مجاهد:"من السرور والنعيم والغبطة".

عن مجاهد: "{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}، قال: نضرة من النعيم".

وقال مجاهد:"ضاحكة إلى ربها ناظرة".

عن أبي صالح: "{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ}، قال: حَسنة".

عن الحسن البصري:"{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ}، يقول: حَسنة".

عن الحسن البصري:"النَّضْرة: الحُسن، نَظرتْ إلى ربّها فنَضَرتْ بنوره".

عن الحسين بن واقد: "{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}، من النعيم".

عن السدي:"{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ} مُضيئة".

=

=

قال محمد بن كعب القرظي:"نَضّر الله تلك الوجوه وحَسّنها للنظر إليه".

الثاني: مستبشرة، قاله مجاهد-أيضا-.

الثالث: ناعمة، قاله ابن عباس ، وابن زيد.

الرابع: مسرورة، قاله مجاهد- ، وعكرمة.

قوله تعالى: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، أي:"ترى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك".

وفي قوله تعالى: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: تنظر إلى ربها في القيامة، قاله الحسن ، وعكرمة ، وعطية العوفي.

قال ابن كثير:"أي: تراه عيانا".

قال الحسن:"تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق".

عن الحسين بن واقد:"{{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، قال: أخبرني يزيد النحوي، عن عكرِمة وإسماعيل بن أبي خالد، وأشياخ من أهل الكوفة، قال: تنظر إلى ربها نظرا".

قال عطية العوفي:"هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره محيط بهم، فذلك قوله: {لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ}".

الثاني: إلى ثواب ربها، قاله مجاهد ، وأبو صالح.

قال مجاهد:"تنتظر الثواب من ربها". وفي رواية:"تنتظر الثواب".

قال مجاهد:"تنتظر رزقه وفضله".

قال مجاهد:"تنتظر من ربها ما أمر لها".

قال مجاهد:"تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء".

عن منصور، عن مجاهد، قال: "كان أناس يقولون في حديث: «فيرون ربهم»، فقلت لمجاهد: إن ناسا يقولون إنه يرى، قال: يَرى ولا يراه شيء".

=

قال أبو صالح:"تنتظر الثواب".

قال الثعلبي:"وهذا تأويل مدخول لأنّ العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: نظرته، كما قال الله سبحانه: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ} هل ينظرون إلّا نار الله؟ و {ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً}، وإذا أردت به التفكّر والتدبير قالوا: نظرت فيه فأمّا إذا كان النظر مقرونا بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلّا بمعنى الرؤية والعيان".

قال الطبري:"الصواب: أن معنى ذلك: تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ:.. عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ أدْنى أهْلِ الجَنَّةِ مَنزلَةً، لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَيْ سَنَةٍ، قال: وإنَّ أفضَلَهُمْ مَنزلَةً لَمَن يَنْظُرُ فِي وَجْهِ اللهِ كُلَّ يَوْم مَرَّتَينِ ؛ قال: ثم تلا {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، قال: بالبياض والصفاء، قال: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، قال: تنظر كلّ يوم في وجه الله ﷻ".

قال الزجاج:"نُضِّرَت بِنَعِيمِ الجَنَّةِ والنَّظَرِ إلى رَبِّهَا".

قال ابن الجوزي:"ورؤية الله ﷻ حقّ لا شكّ فيها".

قال الأشعري:"وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله ﷻ يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى في قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، وقد بين معنى ذلك النبي ﷺ ودفع كل إشكال فيه بقوله للمؤمنين: «ترون ربكم عيانًا»".

قال ابن كثير:"وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة - وما في الصحيحين -: أن ناسا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب؟ " قالوا: لا. قال: "فإنكم تَرَون ربكم كذلك».

=

وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم تَرَون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا».

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "جَنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فِضَّة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رِدَاء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وفي أفراد مسلم، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «"إذا دخل أهلُ الجنة الجنة" قال: "يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ " قال: "فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة". ثم تلا هذه الآية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]».

وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «إن الله يَتَجلَّى للمؤمنين يضحك» - يعني: في عرصات القيامة - ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات.

قال ابن كثير: "ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مَوَاضِعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام.

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ {إِلَى} مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} فقال تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضا - فقد أبعد هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

=

=

يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} ؟ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ: ما حَجَب الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه عَزَّ وَجَلَّ. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة..".

قوله تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [القيامة: ٢٤]، أي:"ووجوه الأشقياء يوم القيامة عابسة كالحة".

قال ابن كثير:"هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة".

قال مقاتل:"يعني: متغيرة اللون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ووجوه يومئذ متغيرة الألوان، مسودة كالحة، يقال: بسرت وجهه أبسره بسًرا: إذا فعلت ذلك، وبسر وجهه فهو باسر بيِّن البسور".

قال ابن قتيبة:"أي: عابسةٌ مقطِّبةٌ".

قال الزجاج:" {بَاسِرَةٌ} كريهة مقطبة، قد أيقنت بأن العذاب نازل بها".

عن مجاهد، قوله: "{باسِرَةٌ}، قال: كاشرة".

عن قتادة: "{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ}، أي: كالحة".

عن قتادة، وابن زيد:"{باسِرَةٌ}، قال: عابسة".

قال الزجاج:" {بَاسِرَةٌ}: كريهة مقطبة، قد أيقنت بأن العذاب نازل بها".

قوله تعالى: {تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة: ٢٥]، أي:"تتوقع أن تنزل بها مصيبة عظيمة، تقصم فَقَار الظَّهْر".

قال مقاتل:"يقول: تعلم {أَنْ} يفعل بها شر".

قال الزجاج:"توقن أن يفعل بها داهية من العذاب".

قال ابن كثير:" {تَظُنُّ}، أي: تستيقن {أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}".

واختلف في معنى: «الفاقرة» على أقوال:

=

=

أحدها: أن الفاقرة: الداهية، قاله مجاهد ، وبه قال الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والطبري.

قال الفراء:"الفاقرة: الداهية، وَقَدْ جاءت أسماء القيامة، والعذاب بمعاني الدواهي وأسمائها".

قال أبو عبيدة:"الفاقرة: الداهية، وهو الوسم الذي يفقر على الأنف".

قال ابن قتيبة:"يقال: إنها من "فَقَار الظهر" كأنها تكسِره، تقول: فَقَرتُ الرجل؛ إذا كسرتَ فَقَارَه. كما تقول: رَأَسْتُه؛ إذا ضربتَ رأسَه؛ وبَطَنْتُه: إذا ضربتَ بطنَه. ويقال: رجل فقير وفَقِرٌ".

الثاني: الشر، قاله قتادة ، ومقاتل.

الثالث: الهلاك، قاله السدي.

الرابع: قاصِمة الظهر. قاله سعيد بن جبير.

الخامس: دخول النار، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"تظن أنها ستدخل النار، قال: تلك الفاقرة، وأصل الفاقرة: الوسم الذي يُفْقَر به على الأنف".

وفي كلام العرب: بسَرَ الرجل وجهه، أي: كَلَحَ، ويقال: عَبَسَ وبَسَرَ.

والمقصود: تكون وجوه الفجار يوم القيامة مسودة كالحة متغيرة الألوان من هول ما توقن أنها قادمة عليه.

والفاقرة: الداهية والأمر العظيم. أي: توقن وتعلم أنها هالكة خاسرة، وفي الداهية والشر العظيم مقحمة ماضية.

وقال ابن زيد: (تظن أنه ستدخل النار، قال: تلك الفاقرة، وأصل الفاقرة: الوسم الذي يفقر به على الأنف). وقال الأصمعي: (أصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم). فنعوذ بالله من حال ومستقبل الكفار

=

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦).

{كلا} بمعنى إلا {إلا بَلَغَتْ} النَّفْس {التَّرَاقِيَ} عِظَام الْحَلْق.

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧).

{وقيل} قال من حوله {من راق} يرقيه ليشفى.

وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨).

{وَظَنَّ} أَيْقَنَ مَنْ بَلَغَتْ نَفْسه ذَلِكَ {أَنَّهُ الفراق} فراق الدنيا.

وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩).

{وَالْتَفَّتْ السَّاق بِالسَّاقِ} أَيْ إحْدَى سَاقَيْهِ بِالْأُخْرَى عِنْد الْمَوْت أَوْ الْتَفَّتْ شِدَّة فِرَاق الدُّنْيَا بِشِدَّةِ إقْبَال الْآخِرَة.

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠).

=

والفجّار.

وفي التنزيل نحو ذلك:

١ - وقال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس: ٣٨ - ٤٢].

٢ - وقال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} -إلى قوله-: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الغاشية: ٢ - ١٠].

٣ - وقال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦].

قال ابن عباس: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفُرْقة).

{إِلَى رَبِّك يَوْمئِذٍ الْمَسَاق} أَيْ السَّوْق وَهَذَا يَدُلّ عَلَى الْعَامِل فِي إذَا وَالْمَعْنَى إذَا بَلَغَتْ النَّفْس الْحُلْقُوم تُسَاق إلَى حُكْم رَبّهَا.

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١).

{فَلَا صَدَّقَ} الْإِنْسَان {وَلَا صَلَّى} أَيْ لَمْ يُصَدِّق وَلَمْ يُصَلِّ.

وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢).

{وَلَكِنْ كَذَّبَ} بِالْقُرْآنِ {وَتَوَلَّى} عَنْ الْإِيمَان.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣).

{ثُمَّ ذَهَبَ إلَى أَهْله يَتَمَطَّى} يَتَبَخْتَر فِي مِشْيَته إعجابا.

أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤).

{أَوْلَى لَك} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغِيبَة وَالْكَلِمَة اسْم فِعْل وَاللَّام لِلتَّبْيِينِ أَيْ وَلِيّك مَا تَكْرَه {فَأَوْلَى} أَيْ فَهُوَ أَوْلَى بِك مِنْ غيرك.

ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥).

{ثُمَّ أَوْلَى لَك فَأَوْلَى} تَأْكِيد.

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦).

{أَيَحْسَبُ} يَظُنّ {الْإِنْسَان أَنْ يُتْرَك سُدًى} هَمَلًا لَا يُكَلَّف بِالشَّرَائِعِ لَا يَحْسَب ذَلِكَ.

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧).

{أَلَمْ يَكُ} أَيْ كَانَ {نُطْفَة مِنْ مَنِيّ يُمْنَى} بِالْيَاءِ وَالتَّاء تُصَبّ فِي الرَّحِم.

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨).

{ثُمَّ كَانَ} الْمَنِيّ {عَلَقَة فَخَلَقَ} الله مِنْهَا الإنسان {فسوى} عدل أعضاءه.

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩).

{فَجَعَلَ مِنْهُ} مِنْ الْمَنِيّ الَّذِي صَارَ عَلَقَة قِطْعَة دَم ثُمَّ مُضْغَة أَيْ قِطْعَة لَحْم {الزَّوْجَيْنِ} النَّوْعَيْنِ {الذَّكَر وَالْأُنْثَى} يَجْتَمِعَانِ تَارَة وَيَنْفَرِد كُلّ مِنْهُمَا عَنْ الْآخَر تَارَة.

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠).

{أَلَيْسَ ذَلِكَ} الْفَعَّال لِهَذِهِ الْأَشْيَاء {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} قَالَ ﷺ بلى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣)}؛ قال: هذا في أبي جهل متبخترًا.

أخرجه الطبري (٢٩/ ١٢٤) من طريق ابن وهب، عن ابن زيد به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: ابن زيد؛ متروك.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: قلت لابن عباس: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤)} قَالَهُ رسول الله ﷺ وأنزله الله ﷻ؟ قال: قاله رسول الله ثم أنزله الله.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٨٣ رقم ٦٥٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٣٦٢ رقم ١٢٢٩٨)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥١٠)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ٣٩٦) من طريق أبي عوانة عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد به.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

=

=

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٢): "رواه الطبراني ورجاله ثقات".
وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١٢٤) من طريق إسرائيل وسفيان الثوري كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد به مرسلًا لم يذكر ابن عباس.
قلنا: والوصل زيادة يجب قبولها، وأبو عوانة ثقة ثبت، ثم إن الطريق إلى سفيان الثوري عند الطبري فيها متروك وضعيف.
وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)} [المدثر: ٣٠] إلى قوله: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: ٣١]، فلما سمع أبو جهل بذلك؛ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أَسْمَعُ ابن أبي كبشة يخبركم: أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة، فيقول له: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)}، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١٠٠) بالسند المسلسل بالعوفيين.
وسنده ضعيف جدًا.
وعن قتادة؛ قال: في قوله: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)} وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: "أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى"، فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟! والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئًا؛ والله لأنا أعز من مشى بين جبليها.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛

=

=

كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٨٢) من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وأخرجه الطبري (٢٩/ ١٢٤) من طريق عبد الرزاق -هذا- في "تفسيره" (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥) - عن معمر، من قتادة به بنحوه.

* قوله تعالى: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} [القيامة: ٢٦].

عن ابن جريج: "{إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ}، قال: الحُلْقُوم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ليس الأمر كما يظنّ هؤلاء المشركون من أنهم لا يعاقبون على شركهم ومعصيتهم ربهم بل إذا بلغت نفس أحدهم التراقي عند مماته وحشرج بها".

قال الفراء: "يَقُولُ: إِذَا بلغت نَفْس الرجل عند الموت تراقيه".

قال أبو عبيدة: "صارت النفس من تراقيه".

قال ابن قتيبة: "يعني: النفس؛ أي: صارت النفس بين تراقيه".

قال الزجاج: "ذكرهم الله بصعوبة أول أيام الآخرة عند بلوغ النَّفْس التَّرْقوَة".

قال السعدي: "يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة".

قال ابن كثير: "التراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم".

وقال ابن زيد في قول الله: "{كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ}، قال: التراقي: نفسه".

عن بسر بن جحاش: أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: "قال الله تعالى: ابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا

=

بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟!".

وفي قوله تعالى: {كَلَّا} [القيامة: ٢٦]، وجهان:

أحدهما: أنها رَدْعٌ وتنبيه، والمعنى: ارْتَدِعُوا عما يؤدي إلى العذاب. قاله الطبري ، والزجاج.

قال الزمخشري: "{كَلَّا}: ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين".

قال مقاتل: "{كَلَّا} لا يؤمن بما ذكر في أمر القيامة".

الثاني: بمعنى: «حقا». أي: حقا إذا بلغت التراقي. ذكره ابن كثير.

قال ابن كثير: "إن جعلنا {كَلا} رداعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى: «حقا» فظاهر، أي: حقا إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]".

والتراقي: جمع تَرْقُوة، وهي العظام المكتنفة لِنُقْرَةِ النَّحر -بين ثُغرة النحر والعاتق-، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر، موضع الحَشرجة. وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود: تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} [القيامة: ٢٧]، أي: "وقال بعض الحاضرين لبعض: هل مِن راق يَرْقيه ويَشْفيه مما هو فيه؟".

وفي قوله تعالى: {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} [القيامة: ٢٧]، وجوه من التفسير:

=

أحدها: قال أَهْله: من راقٍ يرقيه بالرُّقى وأسماء الله الحسنى، قاله ابن عباس.
قال أبو عبيدة:"من يرقي".
قال ابن قتيبة:"أي: هل أحدٌ يرقِي؟".
قال عكرمة:"هل من راق يرقي".
قال السعدي:"أي: من يرقيه من الرقية لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له".
الثاني: هل من طبيب شاف، قاله أبو قلابة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، ومنه قول الشاعر:
هَلْ لِلفتَى مِنْ بنَاتِ الدَّهْرِ من وَاقِ؟... أمْ هَلْ لَهُ مِن حَمامِ المَوتِ مِنْ رَاقِ؟
عن الضحاك:"{وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ}، قال: هو الطبيب". وفي رواية:"هل من مداوٍ".
قال سهل:"أي: هل من طبيب يداوي؟".
قال الفراء:"وقال من حوله: من راق؟ من مداو؟ هَلْ من راق؟".
عن ابن زيد:"{وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ}، قال: أين الأطباء، والرُّقاة: من يرقيه من الموت".
قال قتادة:"أي: التمسوا له الأطباء فلم يُغْنوا عنه من قضاء الله شيئا".
قال الزجاج:"أي: من يشفي من هذه الحال، وهذا - والله أعلم - يقوله القائل عِنْدَ البأْسِ، أي: من يَقْدِرَ أَنْ يَرْقِيَ مِنَ الموْتِ".
قال ابن زيد:"يقول تعالى ذكره: وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به، وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئا".
عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -عليه السلام-: «إنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وإنّ مفاصله يسلّم بعضها على بعض يقول: عليك السلام تفارقني

=

=

وأفارقك إلى يوم القيامة».

الثالث: قالت الملائكة: من يصعد بها، ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب؟ قاله ابن عباس ، وبه قال أبو الجوزاء.

قال سهل:"من يصعد بروح الكافر إلى السماء".

قال سليمان التيمي:"هذا من قول الملائكة، يقول بعضهم لبعض: مَن يَرْقى بروحه فيَصعد بها؛ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

قال أبو العالية: "يختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيّهم يترقّى بروحه".

مسألة: من السلف: من حمل قوله: {راق} على أنه إخبار عن كلام الملك بعضهم لبعض، ومرادهم الذي يرقى بروحه منهم؛ وهذا مروي عن ابن عباس.

وروي أن المراد بذلك الراقي الذي يرقيه ويداويه؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضا وعكرمة.

وقيل: المراد به الطبيب؛ كما قاله ابن عباس وأبو قلابة والضحاك وقتادة.

ومنهم: من حمله على الراقي والطبيب، والعرب تسمي الطبيب راقيا، والراقي بالذكر طبيبا.

وذكر الراقي والطبيب المعالج عند الاحتضار من باب اليأس وأنه لا ينفع؛ ومن ذلك قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واقي ... أم هل له من حمام الموت من راقي؟ !

* حكم الرقية: الآية تحتمل المعنيين جميعا، وفيها على المعنى الثاني دليل على جواز التطبب ومشروعية الرقية عند المرض، وقد رقى النبي ﷺ ورقي، ولم يسترق لنفسه، وقد سمى النبي ﷺ الرقية نفعا، وحث على بذلها لمن كان عارفا بها ووجد أثرا على غيره منه، وقد روى مسلم؛ من حديث جابر؛ قال: نهى رسول

=

=

الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: (ما أرى بأسا، من استطاع منكم أن ينفع أخاه، فلينفعه).

ولا تجوز الرقية بالشرك وما لا يعرف لفظه ولا معناه، وقد روى عوف بن مالك مرفوعا: (اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك).

ولا يشرع أن ينصب الإنسان نفسه متفرغا للرقية كما يتفرغ المؤذن للأذان، والإمام للإمامة، ولم يكن السلف يفعلون ذلك، بل ولا يستحبونه، وهذا يورث تعلقا بالراقي، وضعفا في التعلق بكلام الله، وقد طلب رجل إلى سعد أبي وقاص أن يرقيه، فقال له سعد: أجعلتني نبيا؟ ! ارق نفسك.

ولم يكن السلف يضربون لمن يأتيهم من المرضى آجالا يتعاهدونهم بالزيارة لرقيتهم، وإن قبلوا ذلك على سبيل الاعتراض، لا على سبيل الانتصاب لذلك.

ولم يسترق النبي ﷺ لنفسه، وقد أذن لغيره أن يسترقي لغيره، وحث المحتاج على ذلك؛ كما في البخاري ومسلم؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة، فقال: (استرقوا لها؛ فإن بها النظرة").

وفرق بين طلب الإنسان الرقية لنفسه وبين طلبه لغيره من ولد وزوجة، وإنما فضل النبي ﷺ عدم طلب الرقية؛ لأن اعتاد ذلك ينافي التوكل.

ويشرع مع الرقية النفث على المريض؛ لما روت عائشة؛ أن النبي ﷺ كان ينفث في رقيته، وأصله في "الصحيحين"؛ وعندهما أيضا من حديث جابر.

وقد ثبت التفل في السنة؛ كما في "الصحيحين"، من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه قال: فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه، فضحك وقال: (وما أدراك أنها رقية؟ ! خذوها واضربوا لي بسهم).

=

=

وجاء التفل مع القراءة في أحاديث، وجاء التفل بدون القراءة، وجاءت القراءة بدون تفل ولا نفث ولا نفخ، ولكن لا يتبرك بريق أحد وحده بلا قراءة إلا النبي ﷺ.

وثمة فرق بين النفث والتفل والنفخ؛ فالنفث: ما كان الأصل فيه الهواء، والريق فيه تبع، وأما التفل: فما كان فيه إخراج الريق، والهواء فيه تبع، وأما النفخ: فهو إخراج الهواء بلا ريق.

وقد كره بعض السلف النفث والتفل في الرقية؛ كعكرمة وجماعة من العراقيين، وبعضهم يكره النفث، ويجيز النفخ؛ كالأسود؛ ولكن السنة صريحة في مشروعية ذلك.

*حكم التداوي من المرض: والآية دالة على جواز التداوي بالمباح من المرض بلا خلاف؛ وإنما الخلاف عندهم في التفاضل بين تركه وفعله:

وجمهور العلماء: على أن التداوي مباح.

وذهب الشافعية -وهو قول جماعة من أصحابنا أصحاب أحمد؛ كابن عقيل وأبي الفرج-: أنه مستحب، وقد سأل الصحابة النبي ﷺ عن التداوي؟ فقال: (تداووا؛ فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد؛ الهرم).

وجمهور الأصحاب: على أن ترك التداوي أفضل؛ وذلك لأنه أحفظ للتوكل على الله.

وتفاضل التداوي يعرف بالنظر إلى جهات متعددة؛ منها: النظر إلى المرض وطوله وقصره، وإمكان الشفاء أو اليأس منه.

ومنها: النظر إلى أثره على دين العبد؛ وذلك أن التداوي له أثر على توكل العبد وتعلقه بالله.

ومنها: النظر إلى الأثر المتعدي على غيره كالناس وأهله.

=

=

أما من جهة النظر إلى عين المرض: فمن الأمراض ما يرتفع بلا دواء وإن طال وقته، فهذا الصبر عليه أفضل، ومثله إن كان المرض غالبا أنه لا يشفى منه؛ فترك التداوي أفضل من طلبه، ما لم يفوت ترك التداوي مصلحة في دين العبد أو دنياه راجحة على قعوده.

وأما من جهة النظر إلى أثره على العبد: فذلك أنه كلما كان أثر تداويه على دينه ودين الناس أفضل، كان التداوي في حقه أفضل، وذلك كحال الرجل في الغزو الذي يمرض ولو ترك التداوي، للحق المسلمين بتركه ضر، فتداويه أولى وآكد، ومثله في العلم والإصلاح وحاجة الأهل والولد وتفرد المريض بقضائها.

ومن إذا ترك التداوي، تأثر في دينه وضعف؛ كأن يطول قعوده عن النوافل وقيام الليل والصدقة؛ فإن القلب يستوحش من قلة الطاعات إن طال وقت ترك العبد لها ولو كان معذورا؛ فهذا التداوي له أفضل.

وذهب بعض الحنابلة: إلى وجوب التداوي إن أمكن الشفاء.

وإيجاب التداوي ليس من قول السلف؛ وإنما هو لبعض الفقهاء المتأخرين.

* قوله تعالى: {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} [القيامة: ٢٨]، أي:"وأيقن المحتضر أنَّ الذي نزل به هو فراق الدنيا؛ لمعاينته ملائكة الموت".

قال الفراء:"علم أَنَّهُ الفراق".

قال سهل:"يقول: وعلم أنه الفراق للدنيا".

قال الزمخشري: "{وَظَنَّ} المحتضر أنّ هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة".

قال الزجاج:"أَيْ: وَأَيْقَنَ الذي تَبلغ روحه إلى تراقيه أنه مفارق للدنيا".

قال الطبري:"وأيقن الذي قد نزل ذلك به أنه فراق الدنيا والأهل والمال والولد".

=

=

قال قتادة:"أي: استيقن أنه الفراق".

قال الثعلبي:"فراق ليس يشبهه فراق قد انقطع الرجاء عن التلاق".

قال ابن زيد:"ليس أحد من خلق الله يدفع الموت، ولا ينكره، ولكن لا يدري يموت من ذلك المرض أو من غيره؟ فالـ«ظنّ» -كما هاهنا- هذا".

قوله تعالى: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة: ٢٩]، أي:"والتفت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته".

وفي قوله تعالى: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: اتصال الدنيا بالآخرة، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس: "{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}، قال: الدنيا بالآخرة شدّة".

قال ابن عباس:"يقول: آخر يوم من الدنيا، وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدّة بالشدة، إلا من رحم الله".

قال الحسن: "ساق الدنيا بالآخرة".

قال الضحاك:"ساق الدنيا بساق الآخرة". وفي رواية:"هما الدنيا والآخرة".

قال عطية:"الدنيا والآخرة".

قال قتادة:"أمر الدنيا بأمر الآخرة".

قال مجاهد:"آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة".

قال مجاهد:"التفّ أمر الدنيا بأمر الآخرة عند الموت".

قال ابن مجاهد: "هو أمر الدنيا والآخرة عند الموت".

قال ابن عباس:"يقول: والتفَّت الدنيا بالآخرة، وذلك ساق الدنيا والآخرة، ألم تسمع أنه يقول: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق}".

الثاني: الشدة بالشدة والبلاء بالبلاءِ، أي: تتابعت عليه الشدائد: شدة بعد مفارقة الوطن من الدنيا والأهل، وشدة القدوم على ربه، فالتقت آخر شدة الدنيا بأول

=

=

شدة الآخرة، قاله سعيد بن جبير ، عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة -في إحدى الروايات- ، وعطاء ، والسدي ، وروي نحوه عن ابن عباس ، ومنه قول الشاعر:

أَخُو الْحَرْبِ إنْ عَضَّتِ الْحَرْبُ عَضَّها... وَإنْ شَمَّرَتْ عنْ سَاقِها الْحَرْبُ شَمَّرا

قال أهل اللغة: "قيل للأمر الشديد: ساق؛ لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقيه، ثم قيل للأمر الشديد: ساق. ومنه قول دريد:

كَمِيشُ الإزار خارجٌ نِصفُ ساقِهِ... صَبُورٌ على العَزَّاءِ طَلاع أَنْجُدِ

أراد: أنه: مشمر جاد، ولم يرد خروج الساق بعينها".

قال المبرد -في هذه الآية- أي: "الشدة بالشدة، تقول العرب: قامت الحرب على ساق. أي: اشتدت".

قال ابن عباس:"آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة لشدة إلا من رحم الله".

قال قتادة:"الشدّة بالشدّة، ساق الدنيا بساق الآخرة".

قال سعيد بن جبير: "تتابعت عليه الشدائد".

قال السدي: "لا يخرج من كرب إلّا جاءه أشدّ منه".

قال الفراء:"أتاه أولُ شدة أمر الآخرة، وأشد آخر أمر الدنيا".

قال ابن عطاء: "اجتمع عليه شدّة مفارقة الوطن من الدنيا والأهل والولد وشدّة القدوم على ربّه لا يدري بماذا يقدم عليه لذلك قال عثمان بن عفان: ما رأيت منظرا إلّا والقبر أفضع منه لأنّه آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة".

قال السعدي:"أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه".

الثالث: التفَّت ساقا الميت إذا لفتا في الكفن، كما يُقال للمرأة إِذَا التصقت فخذاها: هِيَ لَفّاء. قاله الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وحكاه ابن زيد ، والفراء.

=

=

عن الحسن: "{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}، قال: لفُّهما في الكفن".

قال الحسن:"هما ساقاك إذا لفَّتا في. الكفن".

قال سهل:"قيل: هما ساقاك إذا التفتا في الكفن".

وقال زيد بن أسلم: "ساق الكفن بساق الميت".

الرابع: معناه: التفاف ساقي الميت عند الموت. قاله عامر الشعبي، وأبو مالك، وهو مروي عن الحسن -أيضا-.

قال أبو مالك:"التفَّت ساقاك عند الموت". وفي رواية:"ساقاه عند الموت".

قال أبو مالك:"هما ساقاه إذا ضمت إحداهما بالأخرى".

قال الحسن:"ساقا ابن آدم عند الموت".

وقال الحسن-في رواية-:"لفَّهما أمر الله".

قال قتادة:"أما رأيته إذا ضرب برجله رجله الأخرى".

قال الزجاج:"عند الموت تلتصق السَّاق بالسَّاقِ".

وحكى ابن قتيبة عن بعض المفسرين:"أن التفاف الساق بالساق عند الميثاق".

عن قتادة، عن الحسن: "ماتت رجلاه ولم تحملاه وكان عليهما جوّالا".

قال قتادة:"ماتت رجلاه فلا يحملانه إلى شيء، فقد كان عليهما جوّالا".

الخامس: معناه: يبس الساقين عند الموت. وهذا مروي عن أبي مالك-أيضا-، والسدي.

السادس: معناه: والتفّ أمر بأمر. قاله أبو عيسى.

السابع: أنه اجتمع أمران شديدان عليه: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"أهل الدنيا يجهزون الجسد، وأهل الآخرة يجهزون الروح".

قال الضحاك:"اجتمع عليه أمران، الناس يجهِّزون جسده، والملائكة يجهزون

=

=

روحه".

الثامن: عمل الدنيا بعمل الآخرة. قاله إسماعيل بن أبي خالد.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول من قال: معنى ذلك: والتفَّت ساق الدنيا بساق الآخرة، وذلك شدّة كرب الموت بشدة هول المطلع، والذي يدل على أن ذلك تأويله، قوله: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}، والعرب تقول لكلّ أمر اشتدّ: قد شمر عن ساقه، وكشف عن ساقه، ومنه قول الشاعر:

إذَا شَمَّرَتْ لَكَ عَنْ ساقها... فَرِنها رَبِيعُ وَلا تَسأَم

عني بقوله: {الْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ}، التصقت إحدى الشِّدّتين بالأخرى، كما يقال للمرأة إذا التصقت إحدى فخذيها بالأخرى: لفَّاء".

قوله تعالى: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٣٠]، أي:"إلى الله تعالى مساق العباد يوم القيامة: إما إلى الجنة وإما إلى النار".

قال الطبري:"يقول: إلى ربك يا محمد يوم التفاف الساق بالساق مساقه".

قال الثعلبي: أي:"المنتهى والمرجع تسوق الملائكة روحه حيث أمرهم الله سبحانه وتعالى".

قال الزمخشري:"أي: يساق إلى الله وإلى حكمه".

قال السعدي:"فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها".

قال ابن كثير:"أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله ﷻ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء الطويل. وقد قال الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦١، ٦٢]".

=

=

عن ابن عباس: {إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ}، قال:"مرجع العباد".
عن ابن جريج:"{إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ}، قال: في الآخرة.
قال ابن زيد:"لمّا التَفّت الآخرة بالدنيا كان المساق إلى الله.
حكي:"أن يعقوب عليه السلام لما أتاه البشير قال: ما أذن لي ما آتيك اليوم، إلا أن أقول هون الله عليك سكرة الموت".
والمساقُ: المصدر من ساق يسوق، وذلك أن الملائكة ترفع الروح فتسوقها عبر السماوات إلى السماء التي فيها الله تعالى. -هذا إن كان الميت من أهل الإيمان-. وأما الكافر أو الفاجر فتساق روحه إلى السماء الدنيا فقط ولا يفتح لها ثم يقول الله تعالى في الحالتين: [أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى] الحديث.
وفي التنزيل نحو ذلك: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦١ - ٦٢].
وفي سنن ابن ماجة -في احتضار الكافر- من حديث أبي هريرة مرفوعًا: [فيقال: لا مَرْحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث. ارجعي ذميمةً، فإنها لا تُفْتَحُ لكِ أبواب السَّماء، فيُرْسَلُ بها من السماء، ثم تصيرُ إلى القبر].
وأخرج الحاكم وابن ماجة وابن أبي عاصم بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [إذا كان أجَلُ أحدِكُم بأَرْض، أَوْ ثَبَتْهُ إليها الحاجةُ. (وفي رواية: أثبتَ الله له إليها حاجة) فإذا بلغ أقصى أثرِهِ، قبضَهُ الله سبحانه. فتقول الأرض يوم القيامة: ربّ! هذا ما استودعتني].
قوله تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة: ٣١]، أي:"فلا آمن الكافر بالرسول والقرآن، ولا أدَّى لله تعالى فرائض الصلاة".

=

قال الطبري: يقول:"فلم يصدّق بكتاب الله، ولم يصلّ له صلاة".

قال السعدي:"أي: لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره {وَلا صَلَّى}".

قال قتادة:"لا صدّق بكتاب الله، ولا صلى لله".

قال الزجاج:"يعنى به: أبو جهل بن هشام. وجاء في التفسير إنَّ لكل أُمَّةٍ فِرعَوْنًا، وإنَّ فِرْعَونَ هذه الأمَّةِ أَبو جَهْلِ بن هشام".

قال ابن كثير:"هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه، متوليا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [القيامة: ٣٢]، أي:"ولكن كذَّب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان".

قال الطبري: يقول:"ولكنه كذّب بكتاب الله، وتولى فأدبر عن طاعة الله".

قال السعدي:"{وَلَكِنْ كَذَّبَ} بالحق في مقابلة التصديق، {وَتَوَلَّى} عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه".

قال قتادة:"كذّب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله".

فهو إخبار عن الكافر كان في الدنيا مكذبًا بالحق معرضًا عن الإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: {ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} [القيامة: ٣٣]، أي:"ثم مضى إلى أهله يتبختر مختالا في مشيته".

وفي قوله تعالى: {يَتَمَطَّى} [القيامة: ٣٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يختال في نفسه، قاله ابن عباس.

الثاني: يتبختر في مشيته ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم.

قال زيد بن أسلم:"يتبختر، قال: هي مشية بني مخزوم".

=

قال مقاتل:"يقول يتبختر، وكذلك بنو المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومي إذا مشى أحدهم يختال في المشي".

عن إسماعيل بن أمية، عن مجاهد: "{ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى}، قال: رأى رجلا من قريش يمشي، فقال: هكذا كان يمشي كما يمشي هذا، كان يتبختر".

عن مجاهد، قوله: "{يَتَمَطَّى}، قال: أبو جهل".

قال ابن زيد:"هذا في أبي جهل متبخرا".

قال قتادة:"وهو أبو جهل بن هشام، كانت مِشيته".

قال الفراء: أي:"يتبختر، لأن الظهر هُوَ المَطَا، فيلوي ظهره تبخترًا، وهذه خاصة فِي أبي جهل".

قال الطبري: يقول:"ثم مضى إلى أهله منصرفا إليهم، يتبختر في مِشيته.. وإنما عُني بقوله: {يَتَمَطَّى} يلوي مطاه تبخترا، والمطا: هو الظهر، ومنه الخبر عن رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي المُطَيطَاءَ [وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارها على خيارها]»، وذلك أن يلقي الرجل بيديه ويتكفأ".

قال الزجاج:"معناه: يتبختر، مأخوذ من المَطَا وهو الظهر".

قال أبو عبيدة:"جاء يمشى المطيطا وهو أن يلقى بيديه ويتكفّأ".

قال ابن قتيبة:"إنما هو: مدُّ يدِه في المشي، إذا تبختر، يقال: مدَدتُ ومططتُ؛ بمعنى واحد".

الثالث: أي: جَذلا، أشرا بَطرا كسلانا، لا همة له ولا عمل، كما قال: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [المطففين: ٣٤]. وقال {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، أي: يرجع {بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: ١٣ - ١٥]. قاله ابن كثير.

قال النسفي: (وأصله يتمطط أي يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، فأبدلت الطاء

=

=

ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة).
قوله تعالى: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} [القيامة: ٣٤ - ٣٥]، أي:"هلاك لك فهلاك، ثم هلاك لك فهلاك".
قال ابن قتيبة:"تهدُّدٌ ووعيدٌ".
قال السعدي:"هذه كلمات وعيد، كررها لتكرير وعيده".
قال الطبري:"هذا وعيد من الله على وعيد لأبي جهل".
قال الزجاج:"معناه - والله أعلم - وَلِيَكَ المكروه يا أبا جهل، والعرب تقول: أولى لفلان إذا دعت عليه بالمكروه".
قال الزمخشري:"بمعنى: ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره".
قال ابن كثير:"وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩]. و كقوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [المرسلات: ٤٦]، وكقوله {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [الزمر: ١٥]، وكقوله {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت: ٤٠]. إلى غير ذلك".
قال الحسن البصري: "{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} إنّ أبا جهل قال للنبي: ما بين هذين الجبلين أحدٌ أعزّ مني، فاجهد أنت وربّك -يا محمد- جهدكما. فأنزل الله: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} وعيد بعد وعيد، فقَتله الله يوم بدر، وصيّره إلى جهنم".
عن قتادة: "{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، وعيد على وعيد، كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدوّ الله أبي جهل. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه فقال: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، فقال عدوّ الله أبو

=

=

جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئا، والله لأنا أعزّ من مشى بين جبليها".

قال قتادة:"أخذ النبيّ ﷺ بيده، يعني بيد أبي جهل، فقال: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، فقال: يا محمد، ما تستطيع أنت وربك فيّ شيئا، إني لأعزّ من مشى بين جبليها، فلما كان يوم بدر أشرف عليهم فقال: لا يُعبد الله بعد هذا اليوم، وضرب الله عنقه، وقتله شرّ قِتلة".

قال ابن زيد، في قوله: "{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}، قال: قال أبو جهل: إن محمدا ليوعدني، وأنا أعزّ أهل مكة والبطحاء، وقرأ: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}".

عن موسى بن أبي عائشة، قال: قلت لسعيد بن جُبير: أشيء قاله رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه، أم أمر أمره الله به؟ قال: بل قاله من قِبَل نفسه، ثم أنزل الله: {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}".

قال أبو نعيم: "سمعت عمر بن ذر، يقرأ هذه الآية {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} [القيامة: ٣٤]، فجعل يقول: يا رب ما هذا الوعيد".

عن عمر بن ذر، قال: {أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى} علينا تكرّر الوعيد، فلا، وعزّتك، ما نحتمل وعيد مَن هو دونك مِمَّن لا يَضرّ ولا ينفع ممن يشركنا في لذّة نومنا وطعامنا وشرابنا حتى نعلم ما لنا فيما وُعدنا،

اللهم، وهؤلاء الذين اغتنموا ظُلمة الليل وجاهدوك بما استَخفَوا به مِن غيرك، فإن كان في سابق العلم ألا يُحدثوا توبة فَأَقْدِمَنَّهم بأسوأ أعمالهم".

فهو تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، لذلك الكافر المتبختر.

و {أَوْلَى لَكَ} بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ولاء متكررًا مضاعفًا، فَكُرِّر للتأكيد. كأنه قيل: ويل لك فويل لك، ثم ويل لك فويل لك.

=

=

وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار. حكاه النسفي.

وقيل: المعنى بُعْدًا لك. فبعدًا في أمر دنياك، وبعدًا لك فبعدًا في أمر أخراك - حكاه الرازي عن القاضي. ثم قال: قال القفال: (هذا يحتمل وجوهًا: أحدها- أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر.

والثاني: أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه -يعني أبا جهل- فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه، فأنزل الله تعالى مثل ذلك.

والثالث: أن يكون ذلك أمرًا من الله لنبيّه بأن يقولها لعدو الله، فيكون المعنى: ثم ذهب إلى أهله يتمطى، فقل له يا محمد: أولى لك فأولى، أي احذر، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه).

وقيل: الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه. فالتقدير هنا: النار أولى لك. يعني: أنت أحق بها، وأهل لها - حكاه الزمخشري.

قلت: وكل ما سبق من وجوه الإعجاز البلاغي الذي يظهر وجوه الإعجاز القرآني، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]، أي:"أيظنُّ هذا الإنسان المنكر للبعث أن يُترك هَمَلا لا يُؤمر ولا يُنْهى، ولا يحاسب ولا يعاقب؟".

وفي قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]، وجهان من التفسير:

أحدها: يظن ألا يبعث، قاله السدي.

الثاني: يعني: لا يؤمر ولا ينهى، قاله مجاهد ، والشافعي ، وابن زيد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة.

=

=

قال السديّ: "الذي لا يفترض عليه عمل ولا يعمل".
قال ابن قتيبة:"أي يُهْمَلَ: فلا يؤمَر، ولا يُنهَى، ولا يُعاقَبَ. يقال: أسديتُ الشيء؛ إذا أهملته".
قال الزجاج:"أي: أن يترك غير مَأمورٍ وغير مَنْهِيٍّ".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أيظنّ هذا الإنسان الكافر بالله أن يترك هملا أن لا يؤمر ولا ينهى، ولا يتعبد بعبادة".
عن ابن عباس قوله: "{أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى}، يقول: هملا".
عن مجاهد، قوله: "{أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى}، قال: لا يُؤمر، ولا يُنْهى".
قال الزجاج:"أي: أن يترك غير مَأمورٍ وغير مَنْهِي".
قال أبو عبيدة:"يقال: أسديت حاجتي تركتها".
قال ابن قتيبة:"أي: يُهْمَلَ: فلا يؤمَر، ولا يُنهَى، ولا يُعاقَبَ، يقال: أسديتُ الشيء؛ إذا أهملته".
قال السعدي:"أي: معطلا، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حسبان باطل وظن بالله بغير ما يليق بحكمته".
قال ابن كثير:"الظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد".
قوله تعالى: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى} [القيامة: ٣٧]، أي:"ألم يك هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق ويصب في الأرحام".
قال الطبري: يقول: "ألم يك هذا المنكر قدرة الله على إحيائه من بعد مماته،
=

=

وإيجاده من بعد فنائه ماء قليلا في صلب الرجل من منيّ".

قال ابن كثير: "أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى يراق من الأصلاب في الأرحام".

قوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً} [القيامة: ٣٨]، أي: "ثم صار قطعة من دم جامد".

قال الطبري: يقول: "ثم كان دما من بعد ما كان نطفة، ثم علقة".

قال ابن كثير: "أي: فصار علقة، ثم مضغة".

قوله تعالى: {فَخَلَقَ فَسَوَّى} [القيامة: ٣٨]، أي: "فخلقه الله بقدرته وسوّى صورته في أحسن تقويم؟".

قال الطبري: يقول: "ثم سوّاه بشرًا سويا، ناطقا سميعا بصيرا".

قال ابن كثير: "ثم شُكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقا آخر سَويًا سليم الأعضاء".

قال السعدي: "{فَخَلَقَ} الله منها الحيوان وسواه، أي: أتقنه وأحكمه".

والآية فيها استدلال على الإعادة بالبدأة.

أي: ألم يكن الإنسان ماء مهينًا في قطرة تمنى في الرحم. والنطفة: الماء القليل، من نطفَ الماء: إذا قطرَ. و {يُمْنَى} أي يراق من الأصلاب فيصب في الأرحام.

قوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} [القيامة: ٣٩]، أي: "فجعل من هذا الإنسان الصنفين: الذكر والأنثى".

قال الطبري: يقول: "فجعل من هذا الإنسان بعدما سوّاه خلقا سويا أولادًا له، ذكورا وإناثا".

قال ابن كثير: أي: "ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره".

قال السدي: "إذا وقعت النطفة في الرحم [طارت في الجسد أربعون يوما] ، ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعون يوما، فإذا بلغ أن يخلق، بعث الله ملكا يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط في المضخة، ثم يعجنه

=

=

بها، ثم يصورها كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله تعالى، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد، دفن حيث أخذ ذلك التراب.

قوله تعالى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٤٠]، أي:"أليس ذلك الإله الخالق لهذه الأشياء بقادر على إعادة الخلق بعد فنائهم؟".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أليس الذي فعل ذلك فخلق هذا الإنسان من نطفة، ثم علقة حتى صيره إنسانا سويا، له أولاد ذكور وإناث، بقادر على أن يُحيي الموتى من مماتهم، فيوجدهم كما كانوا من قبل مماتهم، يقول: معلوم أن الذي قَدِر على خَلق الإنسان من نطفة من منيّ يمنى، حتى صيره بشرا سويًا، لا يُعجزه إحياء ميت من بعد مماته، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ ذلك قال: بلى".

قال السعدي:"الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} بلى إنه على كل شيء قدير".

قال ابن كثير:"أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]".

عن قتادة، قوله: "{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}، ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان إذا قرأها قال: سبحانك وبلَى".

عن موسى بن أبي عائشة عن آخر: "أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن، فإذا قرأ: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}، قال: سبحانك اللهم، فبلي. فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك".

عن ابن عباس:"أنه مر بهذه الآية: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}،

=

=

قال: سبحانك، قبلي".

عن إسماعيل بن أمية، قال: سمعت أعرابيا يقول: سمعت أبا هُرَيرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} فانتهى إلى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ فليقل: بلى. ومن قرأ: {وَالْمُرْسَلات} فبلغ {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}؟ فليقل: آمنا بالله". وفي إسناده ضعف.

قال النووي في آداب قراءة القرآن: "فصل في آداب تدعو الحاجة إليها منها: إذا قرأ قوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي) يستحب له أن يقول: ﷺ تسليما. ومنها: إذا قرأ: (أليس الله بأحكم الحاكمين) (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) يستحب أن يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: (فبأي حديث بعده يؤمنون) قال: آمنت بالله... وهذا كله مستحب أن يقوله القارئ في الصلاة وغيرها. اهـ باختصار.

وقال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: "يسن لكل من قرأ في الصلاة أو غيرها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله ، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ به من النار. وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه نزهه فقال: سبحانه وتعالى ، أو نحو ذلك ، ويستحب لكل من قرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) أن يقول: (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) ، وإذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال: (بلى أشهد) ، وإذا قرأ: (فبأي حديث بعده يؤمنون) قال: (آمنت بالله) ، وإذا قرأ: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قال: (لا نكذب بشيء من آيات ربنا) ، وإذا قرأ: (سبح اسم ربك الأعلى) قال: (سبحان ربي الأعلى) ، ويستحب هذا للإمام والمأموم والمنفرد؛ لأنه دعاء فهو مطلوب منهم كالتأمين ، وكذلك الحكم في

=

=

القراءة في غير الصلاة " انتهى من "فتاوى الشيخ ابن باز" (١١/ ٧٥).... وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٩): "لو قرأ القارئ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فله أن يقول: بلى، أو سبحانك فبلى، لأنه ورد فيه حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، ونص الإمام أحمد عليه، قال الإمام أحمد: إذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) في الصلاة وغير الصلاة قال: سبحانك فبلى، في فرض ونفل. وإذا قرأ: (أليس الله بأحكم الحاكمين) فيقول: سبحانك فبلى. وإذا قرأ: (أإله مع الله) يقول: لا إله إلا الله" اهـ باختصار وتصرف.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في لقاء الباب المفتوح (١١/ ٨١): سمعنا بعض المأمومين إذا قرأ الإمام قوله تعالى: (أليس الله بأحكم الحاكمين) يقول المأموم: بلى، فما صحة هذا؟

فأجاب: هذا صحيح، إذا قال الله تعالى: (أليس الله بأحكم الحاكمين) فقل: بلى، وكذلك مثل هذا الترتيب، يعني: إذا جاءنا مثل هذا الكلام نقول: بلى. (أليس الله بكاف عبده) الزمر/ ٣٦ تقول: بلى. (أليس الله بعزيز ذي انتقام) الزمر/ ٣٧ تقول: بلى. (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) تقول: بلى. لكن المأموم إذا كان يشغله هذا الكلام عن الاستماع إلى إمامه فلا يفعل، لكن إذا جاء في آخر الآية التي وقف عليها الإمام فإنه لا يشغله. فإذا قال: (أليس الله بأحكم الحاكمين) يقول: بلى ا. هـ

وقال العلامة الألباني في تمام المنة (ص١٨٦): صح منه قوله: "بلى" في آية (القيامة) رواه موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) قال: سبحانك فبلى فسألوه عن ذلك؟ فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

=

=

أخرجه أبو داود بسند صحيح عن الرجل وهو صحابي وجهالته لا تضركما هو معروف عند العلماء ولذلك خرجته في صحيح أبي داود (رقم٨٢٧).

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة (١) ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢)} [القيامة: ١ - ٢]، وقد تقدم ذكر هذين القسمين، ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسما عليه معينا، فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة، والنفس اللوامة، مقسما بهما، لكونهما من آياتنا، وأدلة ربوبيتنا.

ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعدما فرقها البلى.

ثم أخبر - سبحانه - عن قدرته على جمع بنانه وهي العظام الصغار، ونبه - بقدرته على جمع هذه العظام مع صغرها ودقتها - على قدرته على جمع غيرها من عظامه.

وعلى هذا فيكون - سبحانه - قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه، فأخبر عن فعله، فإنه لا يلزم من القدرة وقوع المقدور، والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه.

ودل على هذا الفعل المحذوف قوله: {بلى} ، فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي، فلهذا استغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر "البنان" لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه، فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه - مع دقتها وصغرها ولطافتها - فهو على

=

=

ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام قيل: إنا نجمع ونسوى أكثر منها تفرقا، وأدقها أجزاء، وأجزاء أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى: نحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه، ونجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير، وحافر الحمار، لا نفرق بينها، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال، والبسط، والقبض، والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس، وكثير من المفسرين.

والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفرقتها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو استدلال بقدرته - سبحانه - على جمع العظام التي فرقها ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له الترجيح من وجه: فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو أجري على نسق الكلام واطرد؛ ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني - ولعله قول جمهور المفسرين، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره - أنه استدلال بآية ظاهرة مشهودة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء - سبحانه - لسواها فجعلها صفحة واحدة كباطن الكف، ففاتت هذه المنافع والمصالح التي

=

=

حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد الموت.

ثم أخبر - سبحانه - عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده، وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة. فهذا لا يندم على ما مضى منه، ولا يقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد حال التائب المنيب.

ثم نبه - سبحانه - على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعادا لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: {ذلك رجع بعيد (٣)} [ق: ٣] أي: بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه؛ هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه.

قال ابن عباس: "يقدم الذنب، ويؤخر التوبة".

وقال قتادة، وعكرمة: "قدما قدما في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره".

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى: بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار: ابن قتيبة، وأبي إسحاق.

قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله تعالى: {يسأل أيان يوم القيامة (٦)} [القيامة: ٦].

ويرجح هذا القول لفظة "بل"؛ فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد للتكذيب به.

ويرجحه - أيضا - أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر.

وأيضا؛ فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد؛ فإنه - تعالى - قال:

=

=

{أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه (٣) بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤)}، فأنكر - سبحانه - عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه، ثم قرر قدرته على ذلك، ثم أنكر عليه إرادته التكذيب بيوم القيامة.

فالأول: حسبان منه أن الله لا يحييه بعد موته.

والثاني: تكذيب منه بيوم القيامة، وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته، فهو مريد للتكذيب به، ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال ﷻ: {يسأل أيان يوم القيامة (٦)} [القيامة: ٦].

فالأول: إرادة للتكذيب.

والثاني: نطق بالتكذيب وتكلم به.

وهذا قول قوي كما ترى، لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى، فإن لفظة "يفجر" إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل، فإن أصحاب هذا القول قالوا: تقديره: ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة.

والجواب: أن الأمر كذلك، لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلا، ويضمنه معنى فعل آخر، ويجري على المضمن أحكامه لفظا، وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار، ومن تدبر هذا وجده كثيرا في كلام الله تعالى.

فلفظة "يفجر" اقتضت "أمامه" بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظا، واقتضى ما تضمنته من الفعل ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى، والله أعلم.

=

=

ثم أخبر - سبحانه - عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال تعالى: {فإذا برق البصر (٧) وخسف القمر (٨) وجمع الشمس والقمر (٩) يقول الإنسان يومئذ أين المفر (١٠)} [القيامة: ٧ - ١٠]، فيبرق بصره، أي: يشخص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها. و"خسف القمر": ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله ﷺ، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة، فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله؛ كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق؛ إما ساقا الميت، وإما ساقا من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة.

فكيف ينكر هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه وعبوديته، فلا يترك سدى مهملا معطلا، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، فلا يجمع عليه ذلك؟

فما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع والضم، وقد افتتحت بالقسم بـ "يوم القيامة" الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، وبـ "النفس اللوامة" التي اجتمع فيها همومها، وعزومها، وإراداتها، واعتقاداتها.

وتضمنت ذكر المبدأ، والمعاد، والقيامة الصغرى والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام وجوههم إلى ناضرة منعمة، وباسرة معذبة.

وتضمنت وصف "الروح" بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان، فتجمع من

=

=

تفاريق البدن حتى تبلغ التراقي، ويقول الحاضرون: {من راق (٢٧)} ، أي: من يرقي من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي: التمسوا له من يرقيه، والرقية آخر الطب.

أو قيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

فعلى الأول؛ تكون من: رقى يرقي، كـ: رمى يرمي.

وعلى الثاني؛ من: رقي يرقى، كـ: شقي يشقى. ومصدره "الرقي"، ومصدر الأول "الرقية".

والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه ليس كل ميت يقول حاضروه: من يرقى بروحه؟ وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب، بخلاف التماس الرقية - وهي الدعاء - فإنه قل ما يخلو منه المحتضر.

الثاني: أن "الروح" إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال: من يرقى بها؟ وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله ﷻ.

الثالث: أن فاعل الرقية يمكن العلم به، فيحسن السؤال عنه، ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله - تعالى - فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و"من" إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

الرابع: أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة هممهم إلى فعل ما يقع بعد "من"، كقوله تعالى: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} [البقرة: ٢٤٥]، أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} [البقرة: ٢٥٥]، وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا، بخلاف فاعل الرقية فإنه يحسن فيه الأول.

=

=

الخامس: أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله - سبحانه - ما جرت به عادتهم بقوله، وحذف فاعل القول؛ لأنه ليس الغرض متعلقا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا: من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه.

السادس: أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال: من هو الراقي؟ ومن الراقي؟ لا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا، وفي الحديث: "من القائل كلمة كذا؟".

السابع: أن كلمة "من" إنما يسأل بها عن التعيين كما يقال: من ذا الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلا وقائلا فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بـ "من" تارة، وبـ "أي" تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة أو العذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فسألوا عن تعيين أحدهما؟

قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه، ولا إلى الكلمة بالعلم به.

الثامن: أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه، ويأس الحاضرين معه، وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه، ولا يخلص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة، والحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابا خارجة عن المقدور تستجلب [بـ] ـالرقى والدعوات، فقالوا: من راق؟ أي: من يرقي هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء.

=

=

التاسع: أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي: لا أحد يرقي من هذه العلة بعدما وصل صاحبها إلى هذه الحال، فهو استبعاد لنفع الرقية؛ لا طلب لوجود الراقي، كقوله تعالى: {قال من يحي العظام وهي رميم (٧٨)} [يس: ٧٨] أي: لا أحد يحييها وقد صارت إلى هذه الحال.

فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من "الرقي" ، وإن أريد بها الطلب استحال - أيضا - أن يكون منه، وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار، وحينئذ فنقول في:

الوجه العاشر: إنها إما أن يراد بها الطلب، أو الاستبعاد. والطلب: إما أن يراد به طلب الفعل، أو طلب التعيين. ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على "الرقي" لما بيناه، والله أعلم.

فصل: ومن أسرار هذه السورة أنه - سبحانه - جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن؛ فزين وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالنظر إليه، فلا أجمل لبواطنهم، ولا أنعم، ولا أحلى؛ من النظر إليه. ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه وتحسينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: {ولقاهم نضرة وسرورا (١١)} [الإنسان: ١١].

ونظيره قوله تعالى: {يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا} [الأعراف: ٢٦]؛ فهذا جمال الظاهر وزينته، ثم قال: {ولباس التقوى ذلك خير} ؛ فهذا جمال الباطن وزينته.

ونظيره قوله ﷻ: {إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦)} [الصافات: ٦]؛ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: {وحفظا من كل شيطان مارد (٧)} [الصافات: ٧]؛ فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف: {اخرج عليهن فلما رأينه

=

=

أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١) قالت فذلكن الذي لمتنني فيه}؛ فهذا جمال الظاهر، ثم وصفته بجمال باطنه وعفته فقالت: {ولقد راودته عن نفسه فاستعصم} [يوسف: ٣١ - ٣٢] فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا.

وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله تعالى: {إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (١١٩)} [طه: ١١٨، ١١٩]، فقابل بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ وهو حر الباطن، والضحى وهو حر الظاهر بالبروز للشمس.

وقريب من هذا قوله ﷻ: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} [البقرة: ١٩٧]؛ ذكر الزاد الظاهر الحسي ، والزاد الباطن المعنوي، فهذا زاد سفر الدنيا، وهذا زاد سفر الآخرة.

ويلم به قول هود: {وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم} [هود: ٥٢]؛ فالأول: القوة الظاهرة المنفصلة عنهم، والثاني: الباطنة المتصلة بهم.

ويشبهه قوله تعالى: {فما له من قوة ولا ناصر} [الطارق: ١٠]، فنفى عنه الدافعين: الدافع من نفسه وقواه ، والدافع من خارج، وهو الناصر.

فصل: ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب - تعالى - على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله تعالى: {بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤)} [القيامة: ٤]، فأخبر أنه تعالى قادر عليه ولم يفعله ولم يرده.

وأصرح من هذا قوله تعالى: {وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون (١٨)} [المؤمنون: ١٨]، وهذا - أيضا - على أحد القولين، أي: تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء.

=

=

وقال ابن عباس: "يريد أنه سيغيض فيذهب"، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم} [الأنعام: ٦٥]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: "أعوذ بوجهك"، ولكن قد ثبت عنه - ﷺ أنه لا بد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عاما، وهذا عذاب من تحت الأرجل، وروي عنه أنه كائن في الأمة قذف أيضا، وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله.

وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على ما لا يريده.

وقد صرح - سبحانه - بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا} [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} [السجدة: ١٣] ونظائره.

وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه يتبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة -مطلقا - خطأ، والله أعلم.

فصل: ومن أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأله عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله - تعالى - هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه؛ هذا أحدها.

=

=

والثاني: قوله تعالى: {وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (١١٣) فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما} [طه: ١١٣، ١١٤].

والثالث: قوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧)} [الأعلى: ٦، ٧]، فضمن لرسوله أنه لا ينسى ما أقرأه إياه، وهذا يتناول حال القراءة وما بعدها.

وقد ذم الله – سبحانه – في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى، وإيثاره على ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال، ومحبة العاجلة على الآجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه، وتوليه، وتركه الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة.

والرب – سبحانه – وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت "الروح" التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب – تعالى – لا يعاجله؛ بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئا بعد شيء، ويصرف له الآيات، ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمنى، ثم علقة، ثم خلقا سويا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره؛ بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهل، وتدريج، وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله تعالى: {وكان الإنسان عجولا (١١)} [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: {خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون (٣٧)} [الأنبياء: ٣٧].

=

=

فصل: ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب؛ فإن الله - سبحانه - أنكر على من حسب أنه يترك سدى: فلا يؤمر، ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب.

ولم ينف - سبحانه - ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه.

ثم استدل - سبحانه - على فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته؛ يأبى أن يتركه سدى، وأنه تنزه عن ذلك كما تنزه عن العبث، والعيب، والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، فجعل كمال ملكه، وكونه - سبحانه - الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه = مبطلا لذلك الظن الباطل، والحكم الكاذب.

وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك إليه كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك ونحو ذلك مما ينكره - سبحانه - على من حسبه أشد الإنكار، فدل على أن ذلك قبيح، ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس.

ولو كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك {ألم يك نطفة} [القيامة: ٣٧] إلى آخره، مما يدل على أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع،

=

=

وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم: أمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه.

وكذلك يستلزم إرسال رسله، وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر البعث كافرا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، المستحق لنعوت الكمال.

كما أن المعطل لكلامه، وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه، فإنه آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهي، ولا ترفع إليه الأيدي. ومعلوم أن هذا الذي أقر به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين، وإله المرسلين.

وكذلك إذا اعتبرت اسمه "الحي" وجدته مقتضيا لصفات كماله من علمه، وسمعه، وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء.

واسمه "القيوم" مقتض لتدبيره أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له.

فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه "الحي القيوم"، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه، وعطل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) (القيامة٧ - ٩) يسأل عن إعادة القمر في الفاصلتين؟

والجواب عنه أن ذلك لبيان أهوال القيامة وتعظيمها، والعرب تستعمل هذا فيما تقصد به التهويل والتعظيم، ومنه لا أري الموت يسبق الموت شئ نغص الموت

=

=

ذا الغنى والفقير فكررت المو ثلاث مرات تعظيمًا لأمره، كما قال تعال (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) (ص٦٧ – ٦٨) وقد اجتمع في آية القيامة قصد التعظيم ورعي الأسجاع فتأكد الحامل على التكرير، وإذا تكرر احد النيرين المراد اجتماعهما أغنى ن تكرر الآخر، وطلبت الفواصل منها ما يناسب فجاء على أتم وجه في البلاغة، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) (القيامة: ٣٤ – ٣٥) يسأل عن إعادة اللفظ وفائدة ذلك؟ ويستجر من ذلك استدعاء اشتقاق اللفظ ومعناه.

والجواب عن ذلك: والله أعلم: أنه لما تقدم وصف المجرم المكذب بقوله: (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى) (القيامة: ٣١ – ٣٣) – أي يختال في مشيته ويتبختر عضدًا لتكذيبه وإغناء بكفره – كان مظنة للتعريف بسوء عاقبته واستحقاقه العذاب فقيل:

(أولى لك فأولى)، فعدل بالكلام عن إخبار الغيبة إلى الخطاب تحكيمًا لاستحقاقه نيل الجزاء على فعله، وهو كلام يقال لمستوجب الامتحان، جار مجرى الدعاء

وقد جعله بعضهم مقلوبًا من قولك: ويل، فهو على هذا من الدعاء بالويل، وكأن قد قيل للمخاطب به أعظم الويل وأشده له، ويستجر التعجب الجاري من الدعاء، وكأن قد قيل في هذه الآية: الويل له ثم أشد الويل له، فأكد بتكرير اللفظ إشعارًا بالأهلية والاستحقاق كما قالوا: ويلا له ويلا ويلا. وعطف بثم المقتضية رتبة في المعطوف بها وضرب تهمم واعتناء ليكون الدعاء ثانيًا للمولي به تأكيدًا أبلغ من الأول، وذلك من معنى "ثم" وهو هنا قائم مقام مهلة الزمان ليبلغ عندها (معه) الغاية فيما قصد منه. ويبين المعنى المفهوم هنا من لفظة: (أولى) قوله

=

سورة الإنسان(١)

=

تعالى في سورة القتال: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) (محمد: ٢٠)، فلما ذكر سبحانه من حال المنافقين عند نزول سورة محكمة واضحة المقاصد ما ذكر مما يشهد بقبح ضمائرهم وسوء سرائرهم اتبعه بالدعاء عليهم فقال: (فَأَوْلَى لَهُمْ) (محمد: ٢٠)، كأن قد قال: فأشد الويل لهم. قال (سبحانه) لنبيه عليه السلام: (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ) (محمد: ٢١)، (قدرة سيبويه، رحمه الله: طاعة وقول معروف) أمثل، ونظير هذا الوارد في سورة القتال، وبيان مناسبة التحامة قوله تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا*إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) (الفرقان: ١١ - ١٢) إلى قوله: (وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) (الفرقان: ١٤)، ثم قال: (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) (الفرقان: ١٥)، فقوله: (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ....) الآية إلى آخرها مع ماقبله نظير قوله في القتال: (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ) مع من قبله. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٩٥-٤٩٦).

(١) السّورة مدنيّة كلّها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

وقيل مكيّة، قاله ابن عباس-أيضا-، وابن الزبير، ومقاتل، والكلبي، ويحيى بن سلام.

وقيل: أنّ فيها مكّيّا ومدنيّا. ثم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المكّيّ منها آية، وهي قوله ﷻ: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، وباقيها جميعه مدنيّ، قاله الحسن، وعكرمة.

=

=

والثاني: أنّ أوّلها مدنيّ إلى قوله ﷻ {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} [الإنسان: ٢٣]، ومن هذه الآية إلى آخرها مكّيّ، حكاه الماورديّ.

قال ابن عاشور:"الأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية: {يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان: ٨]، نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكينا ليلة، ويتيما أخرى، وأسيرا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيرا ما حملوا نزول الآية على مثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول".

* آياتها إِحدى وثلاثون. وكلماتها مائتان وأَربعون. وحروفها أَلْف وخمسون. وفواصل آياتها على الأَلِف.

* أسماء السورة:

تسمى «سورة الإنسان» سميت بذلك في المصاحف وكتب التفسير، وذلك لافتتاحها بذكر الإنسان وخلقه من عدم وخلق له جميع ما في الأرض من خيرات، قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١].

وتسمى «سورة هل أتى على الإنسان» وردت هذه التسمية في عهد الصحابة- رضوان الله تعالى عليهم-، كما عند ابن عباس ، وابن هريرة ، وابن الزبير ، قد وردت هذه التسمية عند الطبري ، وهي تسمية للسورة بأول آية افتتحت فيها.

وتسمى «سورة هل أتى» سميت بذلك اختصارا، وسماها بذلك جمع من المفسرين ، وهي تسمية للسورة بفاتحتها، ولم ترد عن النبي -ﷺ- فهي تسمية من اجتهاد علماء التفسير.

=

=

وتسمى «سورة الدهر» بهذه التسمية عنون لها ابن قتيبة، والماتريدي، وابن الجوزي، وغيرهم، ووجه تسميتها بذلك لوقوع: {مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤] فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

وتسمى «سورة الأبرار» سماها بذلك الطبرسي، وذكرها الألوسي في تفسيره والقاسمي، وتسمى «سورة الأبرار»، لأن فيها ذكر نعيم الأبرار.

وكذا تسمى «سورة الأمشاج» سماها بذلك الخفاجي، وذكرها الألوسي، والقاسمي في تفسيريهما، وذلك لوقوع لفظ «الأمشاج» فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.

* معظم مقصود السّورة: بيان مُدّة خِلقة آدم، وهداية الخَلْق بمصالحهم، وذكر ثواب الأَبرار، فى دار القرار، وذكر المِنّة على الرّسول ﷺ وأَمره بالصّبر، وقيام اللَّيل، والمِنَّة على الخَلْق بإِحكام خَلْقهم، وإِضافة كلِّيّة المشيئة إِلى الله، فى قوله: {يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

* المتشابهات: قوله: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ}، وبعده: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ} إِنَّما ذكر الأَوّل بلفظ المجهول؛ لأَنَّ المقصود ما يطاف به لا الطَّائفون. ولهذا قال: {بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ} ثمّ ذكر الطَّائفين، فقال: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}.

قوله: {مِزَاجُهَا كَافُورًا} وبعدها: {زَنْجَبِيلًا}؛ لأَنَّ الثَّانية غير الأُولى. وقيل: {كَافُورًا} اسم عَلَم لذلك الماءِ، واسم الثانى زنجبيل. وقيل اسمها: سلسبيل. قال ابن المبارك: معناه: سَلْ من الله إِليه سبيلًا. ويجوز أَن يكون اسمها زنجبيلًا، ثمّ ابتدأَ فقال: سلسبيلا. ويجوز أَن يكون اسمها هذه الجملة، كقوله: تأَبّط شرًّا، وشاب قرناها. ويجوز أَن يكو معنى تُسمّى: تُذكر، ثمّ قال الله: سل سبيلا، واتصاله فى المصحف لا يمنع هذا التأْويل؛ لكثرة أَمثاله فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١).

{هل} قد {أتى على الإنسان} آدم {حين من الدهر} أربعون سنة {لم يكن} فيه {شيئا مذكورا} كان فيه مصورا من طين لا يذكر أو المراد بالإنسان الجنس وبالحين مدة الحمل.

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢).

{إنا خلقنا الإنسان} الجنس {من نطفة أمشاج} أخلاط أي من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين {نبتليه} نختبره بالتكليف والجملة مستأنفة أو حال مقدرة أي مريدين ابتلاءه حين تأهله {فجعلناه} بسبب ذلك {سميعا بصيرا}.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣).

{إنا هديناه السبيل} بينا له طريق الهدى ببعث الرسل {إما شاكرا} أي مؤمنا {وإما كفورا} حالان من المفعول أي بينا له في حال شكره أو كفره المقدرة وإما لتفصيل الأحوال[٢].

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال النبي ﷺ: "سَلْ واسْتَفْهِم"، فقال: يا رسول الله! فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت مثل ما عملت به؛ إني لكائن معك في الجنة؟ قال: "نعم".

=

=

ثم قال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده؛ إنه ليُرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام".

ثم قال رسول الله ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله؛ كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده؛ كتبت له مئة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة"، فقال رجل: كيف يهلك بعد هذا يا رسول الله؟! فقال: "إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل ولو وضع على جبل لا يقله، فتقوم النعمة من نعم الله فيكاد أن يستنفذ ذلك كله؛ إلا أن يتطاول الله برحمته"، ونزلت هذه السورة: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)} إلى قوله: {وَمُلْكًا كَبِيرًا}، قال الحبشي: وإن عيني لتريان ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: "نعم"؛ فاستبكى حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: لقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٣٣٣، ٣٣٤ رقم ١٣٥٩٥) من طريق عفيف بن سالم عن أيوب بن عتبة عن عطاء عن ابن عمر به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ٤٢٠): "رواه الطبراني؛ وفيه أيوب بن عتبة وهو ضعيف".

وعن محمد بن مطرف؛ قال: حدثني الثقة: أن رجلًا أسود كان يسأل النبي ﷺ عن التسبيح والتهليل، فقال له عمر بن الخطاب: مه أكثرت على رسول الله ﷺ، فقال: "مه يا عمر! "، وأنزلت على رسول الله ﷺ: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ}، حتى إذا أتى على ذكر الجنة؛ زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: "مات شوقًا إلى الجنة".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢٨/ ٣٦٦) ونسبه لأحمد في "الزهد".

وسنده ضعيف؛ لإرساله، وجهالة المرسل.

=

=

وذكر السيوطي أن ابن وهب أخرج عن ابن زيد؛ أنه قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)} وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود، فلما بلغ صفة الجنان؛ زفر زفرة فخرجت نفسه، فقال رسول الله ﷺ: "أخرج نفسَ صاحِبِكم الشوقُ إلى الجنة". وهذا سند ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف ابن زيد؛ فإنه متروك.

وعن مجاهد؛ قال: لما صَدَرَ النبي ﷺ بالأسارى عن بدر؛ أنفق سبعة من المهاجرين على أسارى مشركي بدر، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، وأبو عبيدة بن الجراح؛ فأنزل الله فيهم تسع عشر آية {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)} إلى قوله: {تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨)}.

أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٧/ ١٩٧). وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن ابن جريج في الآية؛ قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك، كانوا يأسرونهم في الفداء؛ فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمر بالإصلاح لهم.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٧١)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٥) ونسبه لابن المنذر.

وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٧١) ونسبه لابن مردويه.

وعن عكرمة؛ قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد وقد أثر في جنبه؛ فبكى عمر، فقال له: "ما يبكيك؟ "، قال: ذكرت

=

=

كسرى وملكه وهرمز وملكه وصاحب الحبشة وملكه، وأنت رسول الله ﷺ عليك حصير من جريد؛ فقال رسول الله ﷺ: "أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة"؛ فأنزل الله ﷻ: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٧٧)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٥) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١]

قال السعدي: "ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها، فذكر أنه مر عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكورا".

قال الزجاج: "المعنى: ألم يأت عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ، - وقد كان شيئًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ تُرَابًا وَطِينًا إلى أن نفخ فيه الروح فلم يكن قبل نفخ الروح فيه شيئًا مَذْكُورا".

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه".

وفي قوله «هل»، وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى: «قد»، وتقدير الكلام: «قد أتى على الإنسان» الآية، على معنى الخبر، قاله الفراء، وأبو عبيدة، والزجاج، والطبري.

قال الفراء: "لأنك قد تقول: فهل وعظتك؟ فهل أعطيتك؟ تقرره بأنك قَدْ أعطيته ووعظته".

الثاني: أنها بمعنى الاستفهام، والتقدير: «أتى على الإنسان» الآية، على وجه الاستفهام، حكاه ابن عيسى.

=

=

وقال الزمخشري:"«هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة، والأصل: أهل، بدليل قوله: أهل رأونا بسفع القاع ذي الأكم، فالمعنى: أقد أتى؟ على التقرير والتقريب جميعا، أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب {حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ فيه شَيْئًا مَذْكُورًا}، أي كان شيئا منسيا غير مذكور".

وفي هذا «الإنسان»، قولان:

أحدهما: أنه آدم، قاله قتادة ، وسفيان ، وعكرمة ، والسدي ، وقيل:"إنه خلقه بعد خلق السموات والأرض، وما بينهما في آخر اليوم السادس وهو آخر يوم الجمعة".

قال السمعاني:"الْإِنْسَان: هُوَ آدم على قَول أَكثر الْمُفَسّرين".

قال قتادة:"الإنسان أتى عليه {حِينٌ مِنَ الدَّهْر لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}، قال: إنما خلق الإنسان -هاهنا- حديثا ما يعلم من خليفة الله خليقة كانت بعد إلا هذا الإنسان".

قال قتادة:"إنما خلق الإنسان -ها هنا- حديثا، ما يعلم من خليقة الله كانت بعد الإنسان".

قال قتادة:"كان آدم ﷺ آخر ما خلق من الخلق".

قال مقاتل:"يعني: به آدم لا يذكر، وذلك أن الله خلق السموات وأهلها، والأرض وما فيها من الجن قبل أن يخلق آدم- عليه السلام-، بواحد وعشرين ألف سنة وهي ثلاثة أسباع ، فكانوا لا يعرفون آدم، ولا يذكرونه وكان سكان الأرض من الجن زمانا ودهرا ثم إنهم عصوا الله- تعالى- وضر بعضهم بعضا فأرسل الله عليهم قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإبليس فيهم، وكان اسم إبليس الحارث أرسلهم الله على الجن فطردوهم حتى أخرجوهم من الأرض إلى الظلمة خلف الحجاب وهو جبل تغيب الشمس خلفه، وفي أصله، وفيما بين ذلك الجبل وبين

=

=

جبل قاف مسيرة سنة كلها ظلمة وماء قائم، ثم إن إبليس وجنده طهروا الأرض وعبدوه زمانا فلما أراد الله- تعالى- أن يخلق آدم- ﷺ-، أوحى إليهم أني جاعل في الأرض خليفة يعبدونني، ويطهرون لي
الأرض، فردوا إلى الله قوله، وإبليس منهم: فقالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها يعني من يعصي فيها، ويسفك الدماء كفعل الجن، لا أنهم علموا الغيب: ولكن قالوا ما عرفوا عن الجن الذين عصوا ربهم، وقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك، يعنى ونطهر لك الأرض، فأوحى الله إليهم أني أعلم ما لا تعلمون. ثم إن الله- تبارك وتعالى- قال- يا جبريل- ائتني بطين فهبط جبريل- عليه السلام- إلى الأرض فأخذ ترابا من تحت الكعبة وهو أديم الأرض وصب عليه الماء فتركه زمانا حتى أنتن الطين فصار فوقها طين حر، وأسفلها حمأة وذلك أن امرأ القيس بن عابس الكتمي، ومالك بن الضيف اليهودي اختصما بين يدي رسول الله- ﷺ- في أمر آدم- عليه السلام- وخلقه، فقال مالك بن الضيف: إنما نجد في التوراة أن الله خلق آدم حين خلق السموات والأرض، فأنزل الله- عز وجل- يكذب مالك بن الضيف اليهودي فقال: {هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ}، يعني: واحدا وعشرين ألف سنة، وهي ثلاثة أسباع، بعد خلق السموات والأرض {لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} يذكر".

الثاني: أنه كل إنسان، قاله ابن عباس ، وابن جريج.

قال الزمخشري:"المراد بـ «الإنسان»: جنس بنى آدم، بدليل قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ}".

قال النحاس:"الإنسان الأول عند أهل التفسير يراد به آدم -عليه السلام-، وقد يجوز أن يراد به الجنس".

قال الزجاج:"ويجوز أن يكون يعنى به جميع الناس، ويكون المعنى أنهم كانوا

=

=

نُطَفًا ثم عَلَقًا ثم مُضَغًا إلى أن صاروا شيئًا مَذْكُورًا".

وفي قوله تعالى: {حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ} [الإنسان: ١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف، قاله ابن عباس في رواية أبي صالح عنه.

الثاني: أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح، وهذا قول ابن عباس في رواية الضحاك.

الثالث: أن الحين المذكور ها هنا وقت غير مقدر وزمان غير محدود، قاله ابن عباس -أيضًا.

قال الزمخشري: أي:"طائفة من الزمن الطويل الممتد".

قال عكرمة: "إن من الحين حينا لا يدرك قال الله: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١]، والله ما يدري كم أتى عليه حتى خلقه الله".

وفي قوله: {لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١]، وجهان:

أحدهما: لم يكن شيئًا مذكورًا في الخلق، وإن كان عند الله شيئًا مذكورًا، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: أي: كان جسدًا مصوّرًا ترابًا وطينًا، لا يذكر ولا يعرف، ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورًا، قاله الفراء ، وقطرب ، وثعلب.

قال الفراء:"يريد: كَانَ شيئًا، ولم يكن مذكورًا. وذلك من حين خلقه الله من طين إلى أن نفخ فِيهِ الروح".

وقال مقاتل: "في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن

=

=

الإنسان شيئًا مذكورًا، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوانًا".

عن يزيد بن أبي زياد، أن عبد الله بن مسعود، سمع رجلا قرأ: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١]، فقال: «إي وعزتك، فجعلته سميعا بصيرا، وحيا وميتا».

عن الخليل بن مرة قال: "قرأ عمر بن الخطاب {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}، فرفع صوته، وقال: يا ليتها تمت". أراد: "ليت تلك الحالة تمت، وهي كونه شيئا غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف".

عن عمرو بن مهاجر، قال: "استأذن غَيلان على عمر بن عبد العزيز، فأَذِن له، فقال: ويحك، يا غَيلان، ما الذي بلغني عنك أنك تقول؟ قال: إنما أقول بقول الله: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا} إلى قوله: {إما شاكرًا وإما كفورًا}. قال عمر: تِمَّ السورة، ويحك! أما تسمع الله يقول: {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله} [الإنسان: ٣٠]؟! ويحك، يا غَيلان، أما تَعلم أنّ الله {جاعل في الأرض} إلى {العليم الحكيم} [البقرة: ٣٠ - ٣٢]؟! فقال غَيلان: يا أمير المؤمنين، لقد جئتُك جاهلًا فعَلَّمتَني، وضالًا فهَديتَني. قال: اخرج، ولا يبلغني أنك تَكلّم بشيء من هذا".

قال سيبويه: ({هَلْ} بمعنى قد). وقال الفرّاء: ("هل" تكون جَحْدًا، وتكونُ خَبَرًا، فهذا من الخبر). فهو كما تقول: هل أعطيتك؟ تُقَرِّره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟. وقيل: (هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى أتى). قلت: هَلْ -في لغة العرب- للاستفهام، وقد تُصرف مجازًا إلى معاني أخرى، والأنسب للسياق هنا التقرير. قال الشهاب: (أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرر بهِ من ينكر البعث).

وقد علم الله تعالى أن جواب القوم: نعم، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه.

=

=

فيقال لهم: فالذي أوجدهم بعد أن لم يكونوا، كيف يمتنع عليه إحياؤهم بعد موتهم؟ حكاه القاسمي.

قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} [الإنسان: ٢]، أي:"إنا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة".

وفي «النطفة»، قولان:

أحدهما: ماء الرجل وماء المرأة إذا اختلطا فهما نطفة، قاله السدي ، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: ماء مختلطا وهو ماء الرجل وماء المرأة فإذا اختلطا فذلك المشج".

قال الطبري:"إنا خلقنا ذرّية آدم من نطفة، يعني: من ماء الرجل وماء المرأة، والنطفة: كلّ ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قربة، أو غير لك، كما قال عبد الله بن رواحة:

هَلْ أنْتِ إلا نُطْفَةٌ في شَنَّه".

قال النحاس:"النطفة-عند العرب-: الماء القليل في وعاء".

الثاني: أن النطفة ماء الرجل، فإذا اختلط في الرحم وماء المرأة صارا أمشاجًا. حكاه الماوردي.

وفي معنى: «الأمشاج»، أقوال:

أحدها: أنه الأخلاط، وهو أن يختلط ماء الرجل بماء المرأة، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والربيع ، وبه قال أبو عبيدة ، والطبري ، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجِ... لَمْ يُكْسَ جِلْدًا في دَمٍ أمْشاجِ

ومنه قول الشاعر:

كأن الرّيش والفوقين منه... خلاف النّصل سيط به مشيج

=

=

قال الثعلبي:"يقال: مشجت هذا بهذا أي خلطته فهو ممشوج ومشج، مثل مخلوط وخليط".

قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وما اختلط سَمَّته العرب أمشاجًا".

عن عكرِمة: "{أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}، قال: ماء الرجل وماء المرأة يمشج أحدهما بالآخر".

قال عكرمة:"ماء الرجل وماء المرأة يختلطان".

قال ابن عباس:"ماء المرأة وماء الرجل يمشجان".

قال ابن عباس:"ماء المرأة وماء الرجل يختلطان".

قال الربيع:"إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة فهو أمشاج".

قال الحسن:"مُشج ماء المرأة مع ماء الرجل".

قال مجاهد:"خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة، وقد قال الله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى}".

قال مجاهد:"خلق من تارات ماء الرجل وماء المرأة".

الثاني: أن الأمشاج الألوان، قاله ابن عباس ، وعكرمة.

قال ابن عباس:"الأمشاج: خلق من ألوان، خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي النطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما، ثم أنشأه خلقا آخر فهو ذلك".

عن عكرِمة، في هذه الآية "{أمْشاجٍ}، قال: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما".

وقال مقاتل:"فماء الرجل غليظ أبيض فمنه العصب والعظم والقوة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة فمنها اللحم والدم والشعر والظفر، فيختلطان فذلك: الأمشاج".

=

=

روى سعيد عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ-:"ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما سبق أو علا فمنه يكون الشبه".

الثالث: عُني بذلك اختلاف ألوان النطفة. قاله ابن عباس أيضا ، ومجاهد.

عن ابن عباس: "{أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}، يقول: مختلفة الألوان".

قال مجاهد: "ألوان النطفة".

عن مجاهد: "{أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}، قال: ألوان النطفة؛ نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة حمراء وخضراء".

وقال مجاهد:"أيّ الماءين سبق أشبه عليه أعمامه وأخواله".

الرابع: أن الأمشاج: الأطوار، وهو أن الخلق يكون طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، ثم طورًا عظمًا، ثم يكسى العظم لحمًا، قاله قتادة.

قال قتادة:"أطوار الخلق، طورا نطفة، وطورا علقة، وطورا مضغة، وطورا عظاما، ثم كسى الله العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر، أنبت له الشعر".

قال قتادة:"الأمشاج: اختلط الماء والدم، ثم كان علقة، ثم كان مضغة".

الخامس: أن الأمشاج: العروق التي تكون في النطفة، قاله ابن مسعود ، ورواه أُسامة بن زيد عن أبيه. وبه قال زيد بن أسلم.

قال ابن مسعود:"أمشاجها: عروقها".

عن أُسامة بن زيد، عن أبيه، قال: "هي العروق التي تكون في النطفة".

السادس: أنه الأمشاج: الذي يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ومنه يكون الولد. وهذا مروي عن ابن عباس-أيضا-.

قال الطبري:"وأشبه هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى ذلك (مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) نطفة الرجل ونطفة المرأة، لأن الله وصف النطفة بأنها أمشاج، وهي إذا انتقلت فصارت علقة، فقد استحالت عن معنى النطفة فكيف تكون نطفة أمشاجا

=

=

وهي علقة؟ وأما الذين قالوا: إن نطفة الرجل بيضاء وحمراء، فإن المعروف من نطفة الرجل أنها سحراء على لون واحد، وهي بيضاء تضرب إلى الحمرة، وإذا كانت لونا واحدا لم تكن ألوانا مختلفة، وأحسب أن الذين قالوا: هي العروق التي في النطفة قصدوا هذا المعنى. وقد حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: «إنما خلق الإنسان من الشيء القليل من النطفة. ألا ترى أن الولد إذا أسكت ترى له مثل الرّير؟ وإنما خلق ابن آدم من مثل ذلك من النطفة أمشاج نبتليه»".

قوله تعالى: {نَبْتَلِيهِ} [الإنسان: ٢]، أي:"نختبره بالتكاليف الشرعية فيما بعد".

قال الطبري: أي:"نختبره".

قال السمعاني:"أي: نختبره ونمتحنه، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، ومعناها: فجعلناه سمعيا بصيرا نبتليه ونختبره".

عن أبي عثمان المغربي، قال: سئلت وأنا بمكة عن قوله تعالى: {أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ} فقلت: ابتلى الله تعالى الخلق بتسعة أمشاج: ثلاث مفتنات، وثلاث كافرات، وثلاث مؤمنات.

فأما الثلاث المفتنات: فسمعه، وبصره، ولسانه.

وأما الثلاث الكافرات: فنفسه، وهواه، وشيطانه.

وأما الثلاث المؤمنات: فعقله، وروحه، وملكه.

فإذا أيد الله تعالى العبد بالمعونة، سلّط العقل على القلب فملكه، واستأثرت النفس والهوى، فلم يجد إلى الحركة سبيلًا، فجالست النفس الروح وجالس الهوى العقل، وصارت كلمة الله هي العليا {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢]، أي:"فجعلناه من أجل ذلك ذا سمع وذا بصر؛ ليسمع الآيات، ويرى الدلائل".

=

=

قال الطبري: يقول:"فجعلناه ذا سمع يسمع به، وذا بصر يبصر به، إنعاما من الله على عباده بذلك، ورأفة منه لهم، وحجة له عليهم".

فقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ}.

بيان وتفصيل لبدء ذلكَ الإيجاد والكون بعد عدم. وقوله: {أَمْشَاجٍ} يعني أخلاط، واحدها مِشْج وَمَشِيج. ويقال: مشجْتُ هذا بهذا أي خلطته، فهو مَمْشُوج ومشيج، أي مَخلوط وخليط.

وقال أيضًا: ({إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} أطوار الخلق، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، وطورًا عظامًا، ثم كسى الله العظام لحمًا، ثم أنشأهُ خلقًا آخر، أنبت له الشعر).

والمقصود: خلق الله تعالى الإنسان من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، ثم نقله بعد ذلكَ من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولونٍ إلى لون.

وقوله: {نَبْتَلِيهِ}. هو سرّ وغاية الخلق. أي نختبره ونمتحنه، كما قال جل ثناؤه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢].

وقوله: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}. أي: فجعلنا له سمعًا وبصرًا يساعدانه على طاعة الله أو معصيته.

قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣]، أي:"إنا بينَّا له وعرَّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر، ليكون إما مؤمنًا شاكرًا، وإما كفورًا جاحدًا".

قال الطبري: يقول:"إنا بينا له طريق الجنة، وعرّفناه سبيله، إن شكر، أو كفر".

عن عكرمة:"{إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ}، قال: سبيل الهُدى".

عن عطية العَوفيّ، {إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ}، قال: الخير، والشّرّ".

عن مجاهد، قوله: "{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}، قال: الشقوة والسّعادة".

=

عن قتادة، قوله: "{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا} للنعم، {وَإِمَّا كَفُورًا} لها".
قال ابن زيد، في قوله: "{مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ...} إلى {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}، قال: ننظر أيّ شيء يصنع، أيّ الطريقين يسلك، وأيّ الأمرين يأخذ، قال: وهذا الاختبار".
وقال النسفي: (بيّنا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع).
وفي التنزيل نحو ذلك:
١ - قال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠].
٢ - وقال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧].
٣ - وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].
فهذه الهداية المذكورة في قوله جل ثناؤه: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} والآيات السابقة بعدها هداية الدلالة والإرشاد -هداية الرسل وإقامة حجة الله على عباده- وهي المرتبة الثانية من مراتب الهداية كما وردت في الكتاب والسنة. فمراتب الهداية:
أ - الهداية العامة لجميع الخلق لمصالحهم.
ب - هداية الدلالة والإرشاد.
ج - هداية التوفيق والإلهام.
د - الهداية إلى الجنة يوم القيامة.
فهداية السبيل هنا هي بيان طريق النجاة والسعادة في الدارين، وقد قام بذلكَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أكمل وجه.
ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [إنه لم يكن

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤).

{إنا أعتدنا} هيأنا {للكافرين سلاسل} يسحبون بها في النار {وأغلالا} في أعناقهم تشد فيها السلاسل {وسعيرا} نارا مسعرة أي مهيجة يعذبون بها .

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥).

{إن الأبرار} جمع بر أو بار وهم المطيعون {يشربون من كأس} هو إناء شرب الخمر وهي فيه والمراد من خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض {كان مزاجها} ما تمزج به {كافورا} .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦).

{عينا} بدل من كافورا فيها رائحته {يشرب بها} منها {عباد الله} أولياؤه {يفجرونها تفجيرا} يقودونها حيث شاءوا من منازلهم.

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧).

{يوفون بالنذر} في طاعة الله {ويخافون يوما كان شره مستطيرا} منتشرا

=

نبيّ قبلي إلا كان حقًا عليهِ أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم...] الحديث.

قال القرطبي: (وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة، نفيًا للمبالغة في الشكر، وإثباتًا لها في الكفر، لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة).

والمقصود: لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال: {شَاكِرًا}، ولما كان الكفر كثيرًا من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر قال {كَفُورًا} بصيغة المبالغة، والله تعالى أعلم.

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨).

{ويطعمون الطعام على حبه} أي الطعام وشهوتهم له {مسكينا} فقيرا {ويتيما} لا أب له {وأسيرا} يعني المحبوس بحق.

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩).

{إنما نطعمكم لوجه الله} لطلب ثوابه {لا نريد منكم جزاء ولا شكورا} شكرا فيه علة الإطعام وهل تكلموا بذلك أو علمه الله منهم فأثنى عليهم به قولان.

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠).

{إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا} تكلح الوجوه فيه أي كريه المنظر لشدته {قمطريرا} شديدا في ذلك.

فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١).

{فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم} أعطاهم {نضرة} حسنا وإضاءة في وجوههم {وسرورا}.

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢).

{وجزاهم بما صبروا} بصبرهم عن المعصية {جنة} أدخلوها {وحريرا} البسوه[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ} [الإنسان: ٤]، أي:"إنا أعتدنا للكافرين قيودًا من حديد تُشَدُّ بها أرجلهم".

قال الطبري: يقول:"إنا أعتدنا لمن كفر نعمتنا وخالف أمرنا سلاسل يُسْتَوْثَق بها منهم شدّا في الجحيم".

=

=

قال القشيري:"أي: هيّأنا لهم سلاسل يسحبون فيها".

قال القاسمي:"أي: ليقادوا بها ويستوثق بها منهم شدا في الجحيم".

قال القرطبي:"بين حال الفريقين، وأنه تعبد العقلاء وكلفهم ومكنهم مما أمرهم، فمن كفر فله العقاب، ومن وحد وشكر فله الثواب. والسلاسل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في «الحاقة»".

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر: «سلاسلا» منونا. الباقون بغير تنوين. ووقف قنبل وابن كثير وحمزة بغير ألف. الباقون بالألف.

قوله تعالى: {وَأَغْلَالًا} [الإنسان: ٤]، أي:"وأغلالا تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم".

قال الطبري: "يقول: وتشدّ بالأغلال فيها أيديهم إلى أعناقهم".

قال القشيري:"وأغلالا لأعناقهم يهانون بها".

قال القاسمي:"أي: لتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم".

عن التيمي -من طريق ابنه- قال: "لو أنّ غُلًّا مِن أغلال جهنم وُضِع على جبلٍ لَوَهَصَهُ حتى يبلغ الماء الأسود".

قوله تعالى: {وَسَعِيرًا} [الإنسان: ٤]، أي:"ونارًا يُحرقون بها".

قال الطبري: "يقول: ونارا تُسْعر عليهم فتتوقد".

قال القشيري:"نارا مستعرة".

قال القاسمي:"أي: نارا تسعر عليهم فتتوقد".

عن سعيد بن جبير، قال: "السعير: وادي من فيح في جهنم".

قال الزمخشري:"ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد".

عن جبير بن نُفير، عن أبي الدرداء كان يقول: (ارفعوا هذه الأيدي إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغَلَّ بالأغلال).

=

=

وقال الحسن: (إن الأغلال لم تجعل في أعناقِ أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالًا).

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامةِ أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقونَ من عُصَارةِ أهل النار، طينة الخبال].

قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} [الإنسان: ٥]

التفسير:

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين برّوا بطاعتهم ربهم في أداء فرائضه، واجتناب معاصيه، يشربون من كأس- وهو كل إناء كان فيه شراب- كان مزاج ما فيها من الشراب في طيب رائحتها كالكافور".

قال الفراء:"يُقال: إنها عين تسمى الكافور، وَقَدْ تكون كَانَ مزاجها كالكافور لطيب ريحه، فلا تكون حينئذ اسما".

قال ابن كثير:"قد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة".

قال قتادة:"قوم تمزج لهم بالكافور، وتختم لهم بالمسك".

عن مجاهد، قوله: "{مِزَاجُهَا كَافُورًا}، قال: تمزج".

قال عطاء: "الكافور: اسم لِعَيْنِ ماءٍ في الجنة".

قال الزجاج:"يجوز في اللغة أن يكونَ طَعْمُ الطيب فيها والكَافورِ، وجائز أن يمزج بالكافور فلا يكون في ذلك ضرر لأن أهل الجنة لا يمسهم فيما يأكلون ويشربون ضَررٌ ولا نَصَبٌ. و «الكأس» -في اللغة-: الإِناء إذا كان فيه الشرَابُ. فإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأسًا. قال الشاعر:

=

=

صَبَنْتِ الكأْسَ عَنَّا أُمَّ عمروٍ... وكانَ الكأْسُ مَجْراها اليَمِينا".
عن الحسن: "الْأَبْرارَ: هم الذين لا يؤذون الذرّ".
قال القشيري:"قيل: البرّ: الذي لا يضمر الشّرّ، ولا يؤذى الذّرّ".
قال سهل: "الأبرار: الذين تخلقوا بخلق من أخلاق العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة. قيل: فما أول شيء ينبغي من الأخلاق؟ فقال: احتمال المئونة، والرفق في كل شيء، والحذر أن لا يميل في رفعه إلى هواه في هذه الخصال اكتساب العقل. ثم لا بد من ثلاثة أخرى فيها اكتساب المعرفة واستعمال العلم والحلم والتواضع، ثم لا بد من ثلاثة أخرى فيها أحكام التعبد السكينة والوقار والإنصاف. وقال: من كان فيه ثلاث خصال لم يأكل التراب جسده، كف الأذى عن الناس، ثم احتمال أذاهم، ثم اصطناع المعروف معهم".
قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ} [الإنسان: ٦]، أي:"هذا الشراب الذي مزج من الكافور هو عين يشرب منها عباد الله".
قال الطبري: يقول: "كان مزاج الكأس التي يشرب بها هؤلاء الأبرار كالكافور في طيب رائحته من عين يشرب بها عباد الله الذين يدخلهم الجنة".
قال ابن كثير:"أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها".
قوله تعالى: {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان: ٦]، أي:"يتصرفون فيها، ويُجْرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلا".
قال الطبري: يقول: "يفجرون تلك العين التي يشربون بها كيف شاءوا وحيث شاءوا من منازلهم وقصورهم تفجيرا، ويعني بالتفجير: الإسالة والإجراء".
قال الزجاج:"معناه: تجري لهم تلك العين كما يحِبُّون".
قال الفراء:"أيها أحب الرجل من أهل الجنة فجرها لنفسه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا} [الإسراء: ٩٠]. وقال: {وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا} [الكهف: ٣٣]".

عن مجاهد، في قوله: "{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}، قال: يعدّلونها حيث شاءوا".

قال مجاهد:"يقودونها حيث شاءوا".

قال سفيان:"يصرفونها حيث شاءوا".

قال قتادة:"مستقيد ماؤها لهم يفجرونها حيث شاءوا".

عن الحسن البصري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة؛ عينان تَجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذَكر الله: {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}، والأخرى الزَّنجبيل، وعينان نَضّاختان من فوقُ، إحداهما التي ذَكر الله: {سَلْسَبِيلًا}، والأخرى التّسنيم».

وقد اختلف العلماء في معنى [الباء] في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن [الباء] بمعنى [من]، وهذا جائز في العربية، تقول العرب: شربت بماء كذا، أي من ماء كذا، وهو قول ابن عقيل، والسمعاني.

القول الثاني: أن الباء صلة، والمعنى: يشربها عباد الله، وهذا مستعمل في معاني الباء.

قال الفراء: ({يشرب بها} [الإنسان:٦]، ويشربها: سواء في المعنى).

القول الثالث: أن [الباء] على معناها الأصلي وهو الإلصاق.

وفي الآية أكثر من تأويل حسب إعراب {عَيْنًا}:

١ - قيل: يشربون عينًا. قال الزجاج: (المعنى من عين).

٢ - وقيل: {عَيْنًا} بدل من كافور. قال الفراء: (إن الكافور اسم لعين ماء في

=

=

الجنة).

٣ - وقيل: {عَيْنًا} بدل من كأس على الموضع.

٤ - وقيل: {عَيْنًا} حال من المضمر في مزاجها.

٥ - وقيل: نصب على المدح. قلت: وكل ما سبق يقتضيه الإعجاز لهذا القرآن العظيم. والمقصود: أن الأبرار يشربون في الجنةِ من عين نضاخة بشراب ممزوج بالكافور، وقد جمع بين التبريد والرائحةِ الطيبة واللذاذة الرائعة.

قوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} [الإنسان: ٧]، أي:"هؤلاء كانوا في الدنيا يوفون بما أوجبوا على أنفسهم من طاعة الله".

قال الفراء:"هَذِهِ من صفاتهم فِي الدنيا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، برّوا بوفائهم لله بالنذور التي كانوا ينذرونها في طاعة الله".

قال ابن كثير:"أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر".

قال القاسمي:"{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}: استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالا. كأنه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟".

عن مجاهد: "{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، قال: إذا نذروا في حق الله".

عن سفيان: "{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، قال: في غير معصية".

عن قتادة: "{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، قال: بطاعة الله، وبالصلاة، وبالحجّ، وبالعمرة".

قال قتادة:"كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة، والحجّ والعمرة، وما افترض عليهم، فسماهم الله بذلك الأبرار، فقال: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا

=

=

كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}".

عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يَعصي الله فلا يَعصِه".

قوله تعالى: {وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: ٧]، أي:"ويخافون عقاب الله في يوم القيامة الذي يكون ضرره خطيرًا، وشره فاشيًا منتشرًا على الناس، إلا مَن رحم الله".

قال الطبري: يقول:"ويخافون عقاب الله بتركهم الوفاء بما نذروا لله من برّ في يوم كان شرّه مستطيرا، ممتدّا طويلا فاشيا".

قال ابن كثير:"ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله".

قال الفراء: {شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}، أي:"ممتد البلاء، والعرب تَقُولُ: استطار الصدع فِي القارورة وشبهها، واستطال".

قال أبو عبيدة:"{شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}: فاشيا".

قال ابن قتيبة:"أي: فاشيًا منتشرًا. يقال: اسْتَطَار الحريقُ؛ إذا انتشر. واسْتَطَار الفجرُ: إذا انتشر الضوء".

عن ابن عباس: {كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}، قال: فاشيا".

قال قتادة:"استطار والله شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض".

قال مقاتل:"يعني: كان شرا فاشيا في أهل السموات والأرض، فانشقت السماء، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكورت الشمس والقمر فذهب ضوءهما وبدلت الأرض ونسفت الجبال، وغارت المياه، وتكسر كل شيء على الأرض من جبل أو بناء أو شجر، ففشى شر يوم القيامة فيها".

=

=

قال سهل: "البلايا والشدائد في الآخرة عامة، والسلامة منها خاص الخاص".

وفي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسول الله ﷺ قال: [مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطيعَ اللهَ فليُطِعْهُ، ومَنْ نذرَ أَنْ يعصي الله فلا يعصه].

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عمران بن حُصين عن النبي ﷺ قال: [النَّذْرُ نَذْران، فما كان من نَذْرٍ في طاعة الله فذلك لله، وفيه الوفاء. وما كان من نذر في معصية الله، فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه. ويكفّره ما يكفِّرُ اليمين].

قوله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨]، أي:"ويُطْعِمون الطعام مع حبهم له وحاجتهم إليه، فقيرًا عاجزًا عن الكسب لا يملك ما يكفيه ويسد حاجته، وطفلا مات أبوه وهو دون سن البلوغ ولا مال له، وأسيرًا أُسر في الحرب من المشركين وغيرهم".

قال الطبري: يقول:"كان هؤلاء الأبرار يطعمون الطعام على حبهم إياه، وشهوتهم له، {مِسْكينًا}، يعني: جلّ ثناؤه بقوله مسكينا: ذوي الحاجة الذين قد أذلتهم الحاجة، {ويَتِيمًا}: وهو الطفل الذي قد مات أبوه ولا شيء له، {وأسِيرًا}: وهو الحربيّ من أهل دار الحرب يُؤخذ قهرا بالغلبة، أو من أهل القبلة يُؤخذ فيُحبس بحقّ، فأثنى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرّبا بذلك إلى الله وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم".

قال القاسمي:"وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم. فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه. واليتيم مات من يعوله ويكتسب له، مع نهاية عجزه بصغره. والأسير لا يملك لنفسه نصرا ولا حيلة".

عن مجاهد: "{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ}، قال: وهم يشتهونه".

عن أبي العريان، قال: "سألت سليمان بن قيس أبا مقاتل بن سليمان، عن قوله: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا}، قال: على حبهم للطعام".

=

=

قال ابن كثير:"قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائدًا إلى الله ﷻ لدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]".

عن نافع قال: "مرض ابن عمر فاشتهى عنبا - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفية - يعني امرأته - فاشترت عنقودًا بدرهم، فاتبع الرسولَ السائل، فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل فقالت: والله إن عُدتَ لا تصيبُ منه خيرًا أبدًا. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به".

وفي الصحيح: "أفضل الصدقة أن تَصَدّقَ وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر".

واختلف أهل العلم في «الأسير» الذي ذكره الله في هذا الموضع، على أقوال:

أحدها: أنه المسجون من أهل القبلة. قاله مجاهد ، سعيد بن جبير ، وعطاء.

قال مجاهد:"الأسير: المسجون". وفي رواية: "المحبوس".

الثاني: أنه العبد، قاله عكرمة.

قال ابن كثير:"وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»".

الثالث: المرأة، قاله أبو حمزة الثمالي.

الرابع: أنه الأسير المشرك، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة

=

=

، وعكرمة ، وعطاء ، ومقاتل.

قال الجصاص:"وهذا القول أظهر لأن الأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركا".

قال ابن كثير:"ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء".

قال الحسن:"ما كان أسراهم إلا المشركين".

قال قتادة:"لقد أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك".

قال قتادة:"كان أسراهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحقّ أن تطعمه".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: الأسير من المشركين، كان رسول الله ﷺ يدفع الأسير إلى الرجل، فيقول: احبس هذا عندك. فيكون عنده الليلة والليلتين، فكانوا يؤثرون على أنفسهم أولئك الأسرى فأثنى الله عليهم بذلك".

قال سعيد بن جبير: "ثم نسخ أسير المشركين بالسيف" ، وقال غيره:"بل هو ثابت الحكم في الأسير بإطعامه، إلا أن يرى الإمام قتله".

قال هبة الله:"{وَيُطعِمونَ الطَعامَ عَلى حُبِّهِ مِسكينًا وَيَتيمًا} : هذا محكم في أهل القبلة، {وَأَسيرًا} هذا منسوخ بآية السيف وهو من غير أهل القبله وهم المشركون".

قال ابن الجوزي:"ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير المشرك. قال: وهذا منسوخ بآية السيف. وليس هذا القول بشيء، فإن في إطعام الأسير المشرك ثوابًا، وهذا محمول على صدقة التطوع. فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفَّار، ذكره القاضي أبو يعلى".

قال الزجاج:"الأسير، قيل: كان في ذلك الوقت من الكُفَّار، وقَدْ مُدِحَ من يطعم

=

=

الأسير وهو كافرٌ، فكيف بأَسَارَى المسلمين، وهذا يدل عَلَى أَنَ في إطعام أهل الحبوس ثوابًا جزيلا، وأَهْل الحبوس أُسَرَاء".

قال النحاس:"هو لأهل الحرب وللمسلمين، وهذا أولى بعموم الآية فلا يقع فيها خصوص إلا بدليل قاطع فيكون لمن كان في ذلك الوقت ولمن بعد".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم يطعمونهم فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له. وأما قول من قال: لم يكن لهم أسير يومئذ إلا أهل الشرك، فإن ذلك وإن كان كذلك، فلم يخصص بالخبر الموفون بالنذر يومئذ، وإنما هو خبر من الله عن كلّ من كانت هذه صفته يومئذ وبعده إلى يوم القيامة، وكذلك الأسير معنيّ به أسير المشركين والمسلمين يومئذ، وبعد ذلك إلى قيام الساعة".

والمقصود: وكذلكَ من صفات هؤلاء الأبرار التي برّوا بها أنهم يطعمون المحتاجين الطعام في حال مَحبّتهم وشهوتهم له.

وفي التنزيل نحو ذلك:

١ - قال تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة: ١٧٧].

٢ - وقال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُريرة قال: [أتى رسول الله ﷺ رَجُلٌ فقال: يا رسول الله! أيُّ الصَّدقة أعظَمُ؟ فقال: أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقر وتأمل الغنى] الحديث.

والمراد: أن خير الصدقة ما كان حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتكَ إليه، وهو مفهوم قوله ﷺ: (وأنتَ صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى).

=

=

وبعض المفسرين أعاد الضمير في قوله تعالى: {عَلَى حُبِّهِ} على الله ﷻ، أي على حبّ الله، والأول أرجح وأنسب للمعنى ولنظيره من الآيات والأحاديث كما سبق بيانه، واللهُ تعالى أعلم.

قوله تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ} [الإنسان: ٩]، أي:"ويقولون في أنفسهم: إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله، وطلب ثوابه".

قال الطبري:"يقولون: إنما نطعمكم إذا هم أطعموهم لوجه الله، يعنون طلب رضا الله، والقُربة إليه".

قال ابن كثير:"أي: رجاءَ ثواب الله ورضاه".

قوله تعالى: {لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: ٩]، أي:"لا نبتغي عوضًا ولا نقصد حمدًا ولا ثناءً منكم".

قال الطبري:"يقولون للذين يطعمونهم ذلك الطعام: لا نريد منكم أيها الناس على إطعامناكم ثوابا ولا شكورا".

قال ابن كثير:"أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس".

عن مجاهد: "{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا}، قال: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب".

قال سعيد بن جبير:"أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب".

والمقصود: إنما يطعم هؤلاء الأبرار الفقراء واليتامى والأسارى لوجه الله، فهم لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلكَ، علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم بذلك.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ١٠]، أي:"إنا نخاف من ربنا يومًا شديدًا تَعْبِس فيه الوجوه، وتتقطَّبُ الجباه مِن فظاعة أمره وشدة هوله".

قال الطبري: "ما نطعمكم طعاما نطلب منكم عوضا على إطعامناكم جزاء ولا شكورا، ولكنا نطعمكم رجاء منا أن يؤمننا ربنا من عقوبته في يوم شديد هوله، عظيم أمره، تعبِس فيه الوجوه من شدّة مكارهه، ويطول بلاء أهله، ويشتدّ".

قال ابن كثير:"أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن العبوس: الذي يعبس الوجوه من شره، والقمطرير: الشديد، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"العَبوس: الشرّ، والقَمْطَرير: الشديد".

قال أبو عبيدة:"{عَبُوسًا}: العبوس، و «القمطرير»: أشد ما يكون من الأيام وطوله في البلاء".

قال ابن قتيبة:"{يَوْمًا عَبُوسًا} أي: يومًا تَعْبِسُ فيه الوجوهُ. فجعل عبوسًا من صفة اليوم؛ كما قال: {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم: ١٨]؛ أراد: عاصف الريح. و {الْقَمْطَرِيرُ}: الصَّعب الشديد".

قال الفراء:"القمطرير: الشديد، يُقال: يوم قمطرير، ويوم قماطر، أنشدني بعضهم:

بَنِي عمِّنا، هَلْ تذكُرونَ بَلاءنا... علَيكُمْ إِذَا ما كَانَ يومٌ قُمَاطِرُ".

قال الزجاج:"العبوس: الذي يُعَبِّسُ الوُجُوهَ، وهذا مثل قوله: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

=

=

بَاسِرَةٌ}، و {قَمْطَرِيرًا}، يقال: يوم قمطرير ويؤم قُماطر إذا كان شَديدًا غليظًا، وجاء في التفسير أن قمطريرا معناه تَعْبسُ فَيجمعُ مَا بينَ العينين وهذا سائغ في اللغة. يقال: اقمَطَرتْ النَّاقَةُ إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وَرمَتْ بأنفها".

وقال الأخفش: القمطرير: أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء يقال: يوم قمطرير وقماطر إذا كان شديدا لكربها. قال الشاعر:

فَفِرُّوا إِذَا مَا الحَرْبُ ثَار غُبَارُهَا... ولَجَّ بِها اليَوْمَ العَبُوسُ القُمَاطِرُ".

وقال الكسائي: "يقال: اقمطر اليوم وازمهر اقمطرارا وازمهرارا، وهو القمطرير والزمهرير، ويوم مقمطر إذا كان صعبا شديدا، قال الهذلي:

بَنُو الحَرْبِ ارضْعنَا لَهُم مُقمطرَّةً... ومَنْ يُلقَ مِنَّا ذلِكَ اليَوْمَ يهْربِ".

الثاني: أن العبوس: الضيق، والقمطرير: الطويل، قاله ابن عباس ، قال الشاعر:

شديدًا عبوسًا قمطريرًا تخالهُ... تزول الضحى فيه قرون المناكب

قال ابن كثير:"وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها - قولُ ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

الثالث: أن العُبوس: العابس بالشفتين، والقمطرير: تقبيض الوَجه بالبُسُور، فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم، قاله مجاهد ، وأنشد ابن الأعرابي:

يَغْدو على الصّيْدِ يَعودُ مُنكَسِرْ... ويَقْمَطُّر ساعةً ويكْفَهِرّ

عن مجاهد:"{يَوْمًا} قال: يوم القيامة {عَبُوسًا} قال: العابس الشَّفتَيْن، {قَمْطَرِيرًا} قال: تُقبَض الوجوه بالبسور. وفي لفظ: انقباض ما بين عينيه ووجهه".

قال مجاهد:"يُقبِّض الوجه بالبسور.

وعن ابن عباس، في قوله: "{عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}، قال: يعبس الكافر يومئذ حتى

=

يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران".
قال ابن عباس:"القمطرير: المُقَبِّض بين عينيه".
قال ابن عباس:"يوم يقبِّض فيه الرجل ما بين عينيه ووجهه".
قال عكرمة:"القمطرير: ما يخرج من جباههم مثل القطران، فيسيل على وجوهم.
عن قابوس، عن أبيه، قال: سألت ابن عباس، عن قوله: "{قَمْطَرِيرًا}، قال: يُقَبِّض ما بين العينين".
عن قتادة:"{يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}، قال: يومًا تُقبض فيه الجباه من شِدّته".
قال قتادة:"عبست فيه الوجوه، وقبضت ما بين أعينها كراهية ذلك اليوم".
قال قتادة:"تُقبِّض فيه الجباه، وقوم يقولون: القمطرير: الشديد".
والعرب تقول اقمطَرّ اليوم فهو مُقْمَطِرّ إذا كان صعبًا شديدًا. ويوم عبوس أي تعبس فيهِ الوجوه من هوله وشدته. فيكون المعنى: إنا نخاف يومًا ذا عبوس –لكثرة عبوس الكفار فيه–، {قَمْطَرِيرًا} صعبًا شديد الأهوال.
قوله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ} [الإنسان: ١١]، أي:"فوقاهم الله من شدائد ذلك اليوم".
قال الطبري: يقول:"فدفع الله عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرون من شر اليوم العبوس القمطرير بما كانوا في الدنيا يعملون مما يرضي عنهم ربهم".
قال ابن كثير:"أي: آمنهم مما خافوا منه".
قوله تعالى: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١]، أي:"وأعطاهم حسنًا ونورًا في وجوههم، وبهجة وفرحًا في قلوبهم".
قال الطبري: يقول:"ولقَّاهم نضرة في وجوههم، وسرورا في قلوبهم".
قال الحسن:"نَضْرة في الوجوه، وسرورا في القلوب".

=

قال قتادة:"نضرة في وجوههم، وسرورا في قلوبهم".

قال ابن زيد:"نعمة وسرورا".

قال ابن كثير:" {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً}، أي: في وجوههم، {وَسُرُورًا}، أي: في قلوبهم، وهذه كقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمَر» ، وقالت عائشةُ: «دخل عَلَيّ رسول الله ﷺ مسرورا تَبرُقُ أَسَاريرُ وَجْهه»".

أي: فآمنهم الله بلطفه ورحمته من شدائد ذلك اليوم، ومنحهم حسنًا وبهاءً في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم. قال الحسن: ({وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} قال: نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب). فإن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه.

وفي التنزيل نحو ذلك: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} (عبس: ٣٨ - ٣٩).

وفي الصحيحين والمسند من حديث كعب بن مالك -حين تاب الله عليه بعد التخلف عن تبوك- قال: [فلما سَلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ.. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه كأنه قطعة قمر، حتى يُعْرَفَ ذلكَ منه].

قوله تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]، أي:"وأثابهم بصبرهم في الدنيا على الطاعة جنة عظيمة يأكلون منها ما شاؤوا، ويَلْبَسون فيها الحرير الناعم".

قال الطبري: يقول:"وأثابهم الله بما صبروا في الدنيا على طاعته، والعمل بما يرضيه عنهم جنة وحريرا".

قال ابن كثير:"أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونَوّلهم وبوّأهم {جَنَّةً وَحَرِيرًا}، أي:

=

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣).

{متكئين} حال من مرفوع أدخلوها المقدر {فيها على الأرائك} السرر في الحجال {لا يرون} لا يجدون حال ثانية {فيها شمسا ولا زمهريرا} لا حرا ولا بردا وقيل الزمهرير القمر فهي مضيئة من غير شمس ولا قمر.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤).

{ودانية} قريبة عطف على محل لا يرون أي غير رائين {عليهم} منهم {ظلالها} شجرها {وذللت قطوفها تذليلا} أدنيت ثمارها فينالها القائم والقاعد والمضطجع.

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥).

{ويطاف عليهم} فيها {بآنية من فضة وأكواب} أقداح بلا عرى {كانت

=

منزلا رحبا، وعيشا رَغَدًا ولباسًا حَسَنًا".

قال قتادة:"يقول: وجزاهم بما صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصيته ومحارمه، جنة وحريرا".

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الدّارَاني قال: "قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ} فلما بلغ القارئ إلى قوله: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} قال بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كَم قَتيل لشَهوةٍ وأسير... أفّ مِنْ مُشتَهِي خِلاف الجَميل
شَهوَاتُ الإنْسان تورثه الذُّل... وَتُلْقيه في البَلاء الطَّويل".

والمقصود: أورثهم سبحانهُ بصبرهم على إقامة الدين الحق خير منزل وأرغد عيش وأحسن لباس.

قواريرا}.

قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦).

{قوارير من فضة} أي أنها من فضة يرى باطنها من ظاهرها كالزجاج {قدروها} أي الطائفون {تقديرا} على قدر ري الشاربين من غير زيادة ولا نقص وذلك ألذ الشراب.

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧).

{ويسقون فيها كأسا} خمرا {كان مزاجها} ما تمزج به {زنجبيلا}.

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨).

{عينا} بدل من زنجبيلا {فيها تسمى سلسبيلا} يعنى أن ماءها كالزنجبيل الذى تستلذ به العرب سهل المساغ في الحلق.

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩).

{ويطوف عليهم ولدان مخلدون} بصفة الولدان لا يشيبون {إذا رأيتهم حسبتهم} لحسنهم وانتشارهم في الخدمة {لؤلؤا منثورا} من سلكه أو من صدفه وهو أحسن منه في غير ذلك.

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠).

{وإذا رأيت ثم} أي وجدت الرؤية منك في الجنة {رأيت} جواب إذا {نعيما} لا يوصف {وملكا كبيرا} واسعا لا غاية له.

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١).

{عاليهم} فوقهم فنصبه على الظرفية وهو خبر لمبتدأ بعد وفي قراءة بسكون الياء مبتدأ وما بعده خبر والضمير المتصل به للمعطوف عليهم {ثياب سندس}

حرير {خضر} بالرفع {وإستبرق} بالجر ما غلظ من الديباج فهو البطائن والسندس الظهائر وفي قراءة عكس ما ذكر فيهما وفي أخرى برفعهما وفي أخرى بجرهما {وحلوا أساور من فضة} وفي موضع من ذهب للإيذان بأنهم يحلون من النوعين معا ومفرقا {وسقاهم ربهم شرابا طهورا} مبالغة في طهارته ونظافته بخلاف خمر الدنيا.

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢).

{إن هذا} النعيم {كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا}[1].

---

(١) قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [الإنسان: ١٣]، أي:"متكئين فيها على الأسرَّة المزينة بفاخر الثياب والستور".

قال الطبري:"يقول: متكئين في الجنة على السُّرر في الحجال، وهي: الأرائك، واحدتها: أريكة".

قال ابن كثير:"الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع أو التمكن في الجلوس؟ والأرائك هي السُّرر تحت الحجال".

عن ابن عباس، قوله: "{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرَائِكِ}، يعني: الحِجال".

قال مجاهد:"السُّرُر في الحجال".

قال قتادة:"كنا نُحدَّث أنها الحجال فيها الأسرّة".

قوله تعالى: {لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: ١٣]، أي:"لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يرَوْن فيها شمسا فيؤذيهم حرّها، ولا زمهريرا، وهو البرد الشديد، فيؤذيهم بردها".

قال ابن كثير:"أي: ليس عندهم حَرّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سَرْمَدْيّ، {لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا} [الكهف: ١٠٨]".

=

قال مقاتل:"لا يصيبهم حر الشمس، ولا يصيبهم برد الزمهرير لأنه ليس فيها شتاء ولا صيف".

قال مجاهد:"الزمهرير: البرد المفظع".

قال قتادة:"يعلم أن شدّة الحرّ تؤذي، وشدّة القرّ تؤذي، فوقاهم الله أذاهما".

قال ابن مسعود: "الزمهرير: إنما هو لون من العذاب إن الله تعالى قال: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا}".

عن السُّدِّيّ، عن مرّة بن عبد الله:"قال في الزمهرير: إنه لون من العذاب، قال الله: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا}".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: "اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب، أكل بعضي بعضا، فنفسني، فأذن لها في كل عام بنفسين؛ فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم".

والمقصود: جزاهم ربهم جنة متكئين فيها على الأسرة التي عليها الكلل، ولا يرون حرَّ الشمس ولا برد الزمهرير، بل أعذب المناخ وأروع المجلس.

قوله تعالى: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا} [الإنسان: ١٤]، أي:"وقريبة منهم أشجار الجنة مظللة عليهم".

قال الطبري: يقول:"وقربت منهم ظلال أشجارها".

قال ابن كثير:"أي: قريبة إليهم أغصانها".

قال مقاتل:"يعني: ظلال الشجر".

قوله تعالى: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان:]، أي:"وسُهِّل لهم أَخْذُ ثمارها تسهيلا".

قال الطبري:"يقول: وذلل لهم اجتناء ثمر شجرها، كيف شاءوا قعودا وقياما ومتكئين".

=

قال ابن كثير: "أي: متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤] وقال تعالى {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢٣]".

قال ابن قتيبة: "«التَّذْلِيلُ» أيضًا: تسويةُ العُذوقِ. يقول أهل المدينة: ذُلِّلَ النخلُ؛ أي: سُويَ عُذُوقُه".

قال مجاهد: "إذا قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها، فذلك تذليلها".

قال سفيان: "يتناوله كيف شاء جالسا ومتكئا".

قال قتادة: "لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك".

قال ابن زيد: "الدانية: التي قد دنت عليهم ثمارها".

قال مجاهد: "أرض الجنة من وَرق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والوَرَق والثمر بين ذلك. فمن أكل منها قائما لم يؤذه، ومن أكل منها قاعدا لم يؤذه، ومن أكل منها مضطجعًا لم يؤذه".

والمقصود: ذُلِّل لهم اجتناءُ ثمر شجرها، فقد دنت منهم أغصانها، كما قال جل ثناؤه: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤]، وكما قال جلت عظمته: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢٣]. قال ابن زيد: (الدانية: التي قد دنت عليهم ثمارها). وقال ابن كثير: (أي متى تعاطاه دنا القِطفُ إليهِ وتَدلَّى من أعلى غُصنِه، كأنهُ سامعٌ طائع).

قوله تعالى: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ} [الإنسان: ١٥]، أي: "ويدور عليهم الخدم بأواني الطعام الفضيَّة".

قال الطبري: يقول: "ويطاف على هؤلاء الأبرار بآنية من الأواني التي يشربون

=

=

فيها شرابهم، هي من فضة كانت قواريرا، فجعلها فضة، وهي في صفاء القوارير، فلها بياض الفضة وصفاء الزجاج".

قال ابن كثير:"أي: يطوف عليهم الخَدَم بأواني الطعام، وهي من فضة".

قال قتادة:"أي: صفاء القوارير في بياض الفضة".

عن مجاهد: "{مِنْ فِضَّةٍ}، قال: فيها رقة القوارير في صفاء الفضة".

قال مجاهد:"صفاء القوارير وهي من فضة".

وقيل: "إنما قيل: ويطاف عليهم بآنية من فضة، ليدلّ بذلك على أن أرض الجنة فضة، لأن كل آنية تُتَّخذ، فإنما تُتَّخذ من تُرْبة الأرض التي فيها، فدلّ جلّ ثناؤه بوصفه الآنية متى يطاف بها على أهل الجنة أنها من فضة، ليعلم عباده أن تربة أرض الجنة فضة".

قوله تعالى: {وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا} [الإنسان: ١٥]، أي:"وأكواب الشراب من الزجاج".

قال الطبري: "يقول: ويطاف مع الأواني بجرار ضخام فيها الشراب، كانت هذه الأواني والأكواب قواريرا، فحولها الله فضة، وكل جرة ضخمة لا عروة لها فهي كوب".

قال ابن كثير: أي: "وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم".

قال مجاهد:"الأكواب: الأقداح".

عن مجاهد: "{وأَكْوَابٍ}، قال: ليس لها آذان".

قال السدي: "الأكواب: التي ليست لها آذان".

قال قتادة:"الأكواب: التي دون الأباريق ليس لها عُرًى".

قال ابن عباس:"الأكواب: الجرار من الفضة".

=

=

قال الحسن: "هي الأباريق التي يصبّ لهم منها".

قال الفراء:"الكوب: ما لا أذن لَهُ ولا عروة لَهُ. والأباريق: ذوات الآذان والعرا".

قال أبو عبيدة: واحدها: كوب. وهو الذي لا خرطوم له من الأباريق واسع الرأس".

قال ابن قتيبة:"«الأكواب»: الأباريق لا عُرى لها؛ ويقال: ولا خراطيمَ. واحدها: «كُوب»".

أي: وتدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشرب بآنيةٍ من فضة وكؤوس الفضة. والأكواب: جمع كوب. وهو كوز لا أذن له، أو إبريق لا عروة له.

قوله تعالى: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ} [الإنسان: ١٦]، أي:"زجاج من فضة".

قال السعدي:"أي: مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير".

قال الطبري: يقول:"«قَوَارِيرَا» في صفاء الصفاء من فضة الفضة من البياض".

قال الحسن:"صفاء القوارير في بياض الفضة".

قال الحسن:"بياض الفضة في صفاء القوارير".

عن مجاهد، قوله: "{قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال: صفاء القوارير وهي من فضة".

قال مجاهد:"على صفاء القوارير، وبياض الفضة".

عن أبي صالح، قوله: "{كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال: كان ترابها من فضة، قوله: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال: صفاء الزجاج في بياض الفضة".

عن قتادة: "{قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال: هي من فضة، وصفاؤها: صفاء القوارير في بياض الفضة".

قال قتادة:"لو احتاج أهل الباطل أن يعملوا إناء من فضة يرى ما فيه من خلفه،

=

=

كما يرى ما في القوارير ما قدروا عليه".

قال ابن عباس:"ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة".

قال ابن كثير: «القوارير» لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا".

قوله تعالى: {قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} [الإنسان: ١٦]، أي:"قدَّرها السقاة على مقدار ما يشتهي الشاربون لا تزيد ولا تنقص".

قال الطبري:"يقول: قدّروا تلك الآنية التي يُطاف عليهم بها تقديرا على قَدْر رِيِّهم لا تزيد ولا تنقص عن ذلك".

وفي قوله تعالى: {قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} [الإنسان: ١٦]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: على مقدار لا تزيد فتفيض، ولا تنقص فتغيض. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا تنقص ولا تفيض".

قال مجاهد:"ممتلئة لا تُهَراق، وليست بناقصة".

قال مجاهد:"لا تَترع فتُهراق، ولا ينقصون من مائها فتنقص فهي ملأى".

الثاني: على قدر ريهم وكفايتهم. قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن زيد.

قال الحسن:"قُدّرت لريّ القوم".

قال سعيد:"قدر ريِّهم".

عن قتادة:"{قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}، لريِّهم".

قال قتادة:"قدرت على ريّ القوم".

قال ابن زيد:"قدّروها لريهم على قدر شربهم أهل الجنة".

قال ابن كثير: أي: على قدر ريّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدّة لذلك،

=

=

مقدرة بحسب ريّ صاحبها.. وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة".

وقال السعدي:"ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذاتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم".

الثالث: قدّروها على قدر ملء الكف. وهذا قول ابن عباس ، والربيع بن انس.

وقال الضحاك: على قدر أكُفّ الخُدّام".

قال ابن كثير:"وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القَدْر والرّي".

قرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر: «قُدِّروها» برفع القاف، وكسر الدال، وتشديدها. وقرأ حميد، وعمرو بن دينار: «قَدَرُوها» بفتح القاف، والدال، وتخفيفها.

قال النسفي: (كان تامة، أي كونت فكانت قوارير بتكوين الله، نصب على الحال).

قوله تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا} [الإنسان: ١٧]، أي:"ويُسْقَى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا مملوءة خمرًا مزجت بالزنجبيل".

قال الطبري:"ويُسْقَى هؤلاء القوم الأبرار في الجنة كأسا، -وهي كلّ إناء كان فيه شراب- كان مزاج شراب الكأس التي يُسقون منها زنجبيلا".

قال ابن كثير:"أي: ويسقون - يعني الأبرار أيضا - في هذه الأكواب {كَأْسًا}، أي: خمرًا، {كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا} فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفًا، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم قوله: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ}".

وفي قوله تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا} [الإنسان: ١٧]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: تمزج بالزنجبيل، وهو مما تستطيبه العرب لأنه يحذو اللسان ويهضم المأكول، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن أبي نجيح.

قال مجاهد:"يأثُرُ لهم ما كانوا يشربون في الدنيا. زاد الحارث في حديثه: فَيُحَبِّبُهُ إليهم".

قال ابن قتيبة:"وأمَّا "الزنجبيل": فإن العرب تضرب به المثل وبالخمر ممتزِجَيْن".

الثاني: أن الزنجبيل اسم للعين التي فيها مزاج شراب الأبرار، قاله وقتادة.

قال قتادة:"رقيقة يشربها المقرّبون صِرْفا، وتمزج لسائل أهل الجنة".

الثالث: أن الزنجبيل طعم من طعوم الخمر يعقب الشرب منه لذة، حكاه ابن شجرة ، ومنه قول الشاعر:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ به... - إِذْ ذُقْتُه - وَسُلافَةَ الخَمْرِ

قوله تعالى: {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: ١٨]، أي:"يشربون مِن عينٍ في الجنة تسمى سلسبيلا؛ لسلامة شرابها وسهولة مساغه وطيبه".

قال الطبري:"عينا في الجنة تسمى سلسبيلا".

قال ابن كثير:"أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: ١٨]، على وجوه:

أحدها: أنه اسم لها، قاله عكرمة.

قال الفراء:"ذكروا أن السلسبيل اسم للعين، وذكر أَنَّهُ صفة للماء لسلسلته وعذوبته، ونرى أَنَّهُ لو كَانَ اسمًا للعين لكان ترك الإجراء فِيهِ أكثر، ولم نر أحدا من القراء ترك إجراءها وهو جائز فِي العربية".

الثاني: معناه: سلْ سبيلًا إليها، قاله علّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

=

وحكي ابن قتيبة: "أراد سَلْني سبيلا إليها يا محمدُ".

قال سهل: "نبه الله به عباده المؤمنين، ثم قال: سلوا ربكم السبيل إلى هذه العين".

حكي عن المسيب أنه قال: "هي عين يمين العرش من قصب من ياقوت".

الثالث: يعني: سلسلة الجرية، قاله مجاهد.

الرابع: سلسلة يصرفونها حيث شاءوا، قاله قتادة.

قال قتادة: "سلسة يصرفونها حيث شاءوا".

قال قتادة: "عينا سلسة مستقيدا ماؤها".

الخامس: أنها العين التي تمزج بها الخمر. قاله عطاء الخراساني.

السادس: أنها الحديدة الجري، قاله مجاهد -أيضًا- ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عَلَيْهِمُ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وقال مقاتل: تسيل عليهم من جنة عدن فتمر على كل جنة، ثم ترجع لهم الجنة كلها".

السابع: أنها تنسلّ في حلوقهم انسلالًا، قاله ابن عباس.

قال الزجاج: "سَلْسَبيل في اللغَةِ صفَة لما كان في غاية السلاسة، فكأنَّ العين - والله أعلم - سميت بصفتها".

قال الزمخشري: "سَلْسَبِيلًا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يعني: أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة. يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية. ودلت على غاية السلاسة".

قال الطبري: "الصواب من القول في ذلك عندي أن قوله: {تُسَمَّى سَلْسَبِيلا} صفة للعين، وصفت بالسلاسة في الحلق، وفي حال الجري، وانقيادها لأهل

=

الجنة يصرّفونها حيث شاءوا، كما قال مجاهد وقتادة؛ وإنما عني بقوله: {تُسَمَّى} : توصف، لإجماع أهل التأويل على أن قوله: {سَلْسَبِيلا} صفة لا اسم".

قال ابن كثير: "وهو كما قال ابن جرير".

قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)} [الإنسان: ١٩]

التفسير:

ويدور على هؤلاء الأبرار لخدمتهم غلمان دائمون على حالهم، إذا أبصرتهم ظننتهم -لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم- اللؤلؤ المفرَّق المضيء.

قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} [الإنسان: ١٩]، أي:"ويدور على هؤلاء الأبرار لخدمتهم غلمان دائمون على حالهم".

قال الطبري: "ويطوف على هؤلاء الأبرار ولدان، وهم الوصفاء، مخلَّدون".

قال النحاس:"أي: بما يحتاجون إليه".

وفي قوله تعالى: {مُخَلَّدُونَ} [الإنسان: ١٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: مخلدون لا يموتون، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ومنه قول امراء القيس:

وهَلْ ينعمَنْ إلا سعيدٌ مُخلدٌ... قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوْجالِ

قال مجاهد:"لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَكْبُرُونَ".

قال قتادة:"لا يموتون".

قال السجستاني:"مبقون ولدانا لا يهرمون ولا يتغيرون".

قال مقاتل: فأما الولدان، فهم الغلمان الذين لا يشيبون أبدا «مخلدون» يعني: لا يحتلمون، ولا يشيبون أبدا» هم على تلك الحال لا يختلفون «ولا يكبرون".

=

=

قال أبو عبيدة: "«مُخَلَّدُونَ»: من الخلد، أي: لا يهرمون يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون".

قال الفراء: "يُقال: إنهم عَلَى سن واحدة لا يتغيرون، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلّد، وإذا لم تذهب أسنانه عَنِ الكبر قيل أيضًا: إنه لمخلد".

قال الطبري: "وذُكر عن العرب أنها تقول للرجل إذا كبر وثبت سواد شعره: إنه لمخلَّد؛ كذلك إذا كبر وثبت أضراسه وأسنانه قيل: إنه لمخلد، يراد به أنه ثابت الحال، وهذا تصحيح لما قال قتادة من أن معناه: لا يموتون، لأنهم إذا ثبتوا على حال واحدة فلم يتغيروا بهرم ولا شيب ولا موت، فهم مخلَّدون".

الثاني: صغار لا يكبرون وشبابٌ لا يهرمون، قاله الضحاك ، والحسن.

قال ابن كثير: "أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن".

الثالث: أي: مُسَوَّرون، قاله ابن عباس ، قال الشاعر:

ومُخَلّداتٍ باللُّجَيْنِ كأنما... أعْجازُهنّ أقاوزُ الكُثْبانِ

قال الزجاج: "يقال: «مُخَلَّدُونَ»: محلَّون عليهم الحلَى، ويقال لجماعة الحلى: الخَلَدَة".

الرابع: أي: مقرّطون. حكاه الفراء ، والطبري.

قال ابن كثير: "ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُونَ في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير".

الخامس: أنهم مبقون أبدا على شكل الولدان وحدّ الوصافة، لا يتحوّلون عنه. قاله الزجاج ، وبه قال الزمخشري.

قال الزجاج: "وتأويل {مُخَلَّدُونَ}، أي: لا يجوز واحد منهم حَدَّ الوَصَافة أَبدًا، هو وصيف، والعرب تقول للرجل الذي لا يشيب: هو مُخَلَّدٌ".

=

=

وروي عن علي -رضي الله عنه- وعن الحسن:"أنهم أولاد أهل الدنيا: لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها".
عن سمرة بن جندب، رضي الله عنه،" أن رسول الله ﷺ سئل عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة»".
عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «أولاد المشركين خدم أهل الجنة».
عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة".
عن يزيد، قال: "قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم تكن لهم سيئات، فيعاقبوا بها، فيكونوا من أهل النار، ولم تكن لهم حسنات، فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة، هم خدم أهل الجنة».
قوله تعالى: {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} [الإنسان: ١٩]، أي:"إذا أبصرتهم ظننتهم -لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم- اللؤلؤ المفرَّق المضيء".
قال قتادة:"من كثرتهم وحُسنهم.
قال سفيان:"في كثرة اللؤلؤ وبياض اللؤلؤ".
قال مقاتل: أي:"في الحسن والبياض يعني في الكثرة، مثل اللؤلؤ المنثور الذي لا يتناهى عدده".
قال الزجاج:"أي: هم في حسن ألوأنهم وصفائها كاللؤلؤ المنثور".
قال السمعاني:"إنما شبه باللآلئ في الصفاء والحسن والكثرة. وذكر منثورا لأن اللؤلؤ المنثور في المجلس أحسن منه منظوما".
قال ابن كثير:"أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم،
=

وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤا منثورا. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن".

قال الزمخشري:"شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور.. وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه، لأنه أحسن وأكثر ماء".

وقيل: "إنما شبههم بالمنثور، لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون، لأنهن لا يمتهن بالخدمة".

قال قتاده، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: "ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه".

وعن المأمون: "أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ. فنظر إليه منثورا على ذلك البساط، فاستحسن المنظر وقال: لله درّ أبى نواس، وكأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغْرَى وكُبْرَى من فَواقِعِهَا... حَصباءُ دُرٍ عَلَى أَرْض من الذَّهَبِ".

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)} [الإنسان: ٢٠]

التفسير:

وإذا أبصرت أيَّ مكان في الجنة رأيت فيه نعيمًا لا يُدْركه الوصف، ومُلْكا عظيمًا واسعًا لا غاية له.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا} [الإنسان: ٢٠]، أي:"وإذا أبصرت أيَّ مكان في الجنة رأيت فيه نعيمًا لا يُدْركه الوصف".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا نظرت ببصرك يا محمد،

=

ورميت بطرفك فيما أعطيتُ هؤلاء الأبرار في الجنة من الكرامة. وعُني بقوله: {ثَمَّ} الجنة {رَأَيْتَ نَعِيمًا}، وذلك أن أدناهم منزلة من ينظر في مُلكه فيما قيل في مسيرة ألفي عام، يُرى أقصاه، كما يرى أدناه".

قال ابن كثير:"أي: وإذا رأيت يا محمد، {ثَمَّ}، أي: هناك، يعني: في الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، {رَأَيْتَ نَعِيمًا}".

قال مقاتل:"عني بالنعيم الذي هو فيه".

قوله تعالى: {وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠]، أي:"ومُلْكا عظيمًا واسعًا لا غاية له".

قال الطبري:"يقول: ورأيت مع النعيم الذي ترى لهم ثَمَّ مُلْكا كبيرا. وقيل: إن ذلك الملك الكبير: تسليم الملائكة عليهم، واستئذانهم عليهم".

قال ابن كثير:"أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطانًا باهرًا".

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه". قال ابن كثير: "فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى.

وقال سفيان: حدثني من سمع مجاهدا يقول: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}، قال: تسليم الملائكة".

عن مجاهد: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}، قال: عظيما: استئذان الملائكة عليهم، وقال بعضهم: لا يدخل الملائكة عليهم إلا بإذن".

قال سفيان:"بلغنا أنه تسليم الملائكة".

قال الأشجعي:"فسَّرها سفيان، قال: تستأذن الملائكة عليهم".

عن سفيان: "{وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}، قال استئذان الملائكة عليهم".

=

=

قال مقاتل: {وَمُلْكًا كَبِيرًا}: أي:"حين لا يدخل عليه رسول رب العزة إلا بإذن".
عن كعب الأحبار: "{وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ومُلْكًا كَبِيرًا}، قال: يُرسِل إليهم ربُّهم الملائكةَ، فتأتي فتستأذن عليهم".
عن الحسن البصري، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة الذي يَركب في ألف ألف مِن خَدَمه مِن الولدان المُخلّدين، على خيلٍ مِن ياقوت أحمر، لها أجنحة من ذهب، {وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ومُلْكًا كَبِيرًا}»".
قال القشيري:"وقيل: هو قوله: {لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها} [ق: ٣٥]، ويقال: أي لا زوال له".
قال السعدي:"فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [لمشجية ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس. وعنده من الزوجات. اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة. ثم علاوة ذلك وأعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه".
قوله تعالى: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)} [الإنسان: ٢١]
يعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من

=

=

الحرير الغليظ، ويُحَلَّون من الحليِّ بأساور من الفضة، وسقاهم ربهم فوق ذلك النعيم شرابًا لا رجس فيه ولا دنس.

قوله تعالى: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} [الإنسان: ٢١]، أي:"يعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ".

قال البيضاوي: أي: "يعلوهم ثياب الحرير الخضر ما رق منها وما غلظ".

قال الطبري:"فوق هؤلاء الأبرار ثياب {ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ}، و «السندس»: هو ما رقّ من الديباج، و «الإستبرق»: هو ما غَلُظ من الديباج".

قال السعدي:"أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج والإستبرق: ما رق منه".

قال ابن كثير:"أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس".

قال يحيى: "سمعت بعض أهل الكوفة يقول: هي بالفارسية: استبره".

قال الطبري:"وكان بعض أهل التأويل يتأوّل قوله: {عالِيَهُمْ}: فوق حِجَالهم المثبتة عليهم {ثِيَابُ سُنْدُسٍ}، وليس ذلك بالقول المدفوع، لأن ذلك إذا كان فوق حجالٍ هم فيها، فقد علاهم فهو عاليهم".

قال مقاتل:"وإنما قال {عاليهم}، لأن الذي يلي جسده حريرة بيضاء".

عن أبي الجَوْزاء أنه كان يقرأ: "{عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ}، قال: عَلَت الخُضرة، أكثر ثيابها الخُضرة".

قال عكرمة:"الإستبرق: الدِّيباج الغليظ".

قال الضحاك:"الإستبرق، الديباج الغليظ، وهو بلغة العجم استبره".

=

=

عن عبد الرحمن بن سابط قال: "يبعث الله إلى العبد من اهل الجنة بالكسوة فتعجبه، فيقول: لقد رأيت الجنان فما رأيت مثل هذه الكسوة قط! فيقول الرسول الذي جاء بالكسوة: إن ربك يأمر أن تهيئ لهذا العبد مثل هذه الكسوة ما شاء".

عن كعب قال: "لو إن ثوبا من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا، لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم".

عن سليم بن عامر قال:"إن الرجل من أهل الجنة يلبس الحلة من حلل اهل الجنة فيضعها بين أصبعيه، فما يرى منها شيء، وإنه يلبسها فيتعفر حتى تغطي قدميه، يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوبا... إن أدناها مثل شقيق النعمان، وأنه يلبس سبعين ثوبا يكاد إن يتوارى، وما يستطيع أحد في الدنيا يلبس سبعة أثواب ما يسعه عنقه".

وقرئ: «عَالِيهُمْ»، بتسكين الياء.

قوله تعالى: {وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ} [الإنسان: ٢١]، أي:"ويُحَلَّون من الحليّ بأساور من الفضة".

قال الطبري:"يقول: وحلاهم ربهم أساور، وهي جمع أسورة من فضة".

قال ابن كثير:"وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣]".

قال الزمخشري:"ذكر هاهنا أنّ أساورهم من فضة، وفي موضع آخر أنها من ذهب. قلت: هب أنه قيل: وحلوا أساور من ذهب ومن فضة، وهذا صحيح لا إشكال فيه، على أنهم يسوّرون بالجنسين: إما على المعاقبة،

وإما على الجمع، كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلي وتجمع بينها، وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب، وسوار من فضة".

قال سعيد بن جبير: "يُحَلّى كلُّ واحد منهم ثلاثةً من الأساور: واحدًا من فضّة،

=

=

وواحدًا من ذهب، ووحدًا من لؤلؤ ويواقيت".

عن عكرمة، قال: "إنّ أهل الجنة يحلون أسورة من ذهب ولؤلؤ وفضة، هي أخفُّ عليهم من كل شيء، إنما هي نور".

عن كعب الأحبار، قال:"إنّ لله ملَكًا -وفي لفظ: في الجنة ملَك-، لو شئت أن أُسَمِّيَه لَسَمَّيْتُه، يصوغ حُلِيَّ أهل الجنة مِن يوم خُلِق إلى أن تقوم الساعة، ولو أن حليًا منها أخرج لرَدَّ شعاع الشمس، وإن لأهل الجنة أكاليل مِن در، لو أنّ إكليلًا منها دلي من السماء الدنيا لذهب بضوء الشمس، كما تذهب الشمس بضوء القمر".

قوله تعالى: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١]، أي:"وسقاهم ربهم فوق ذلك النعيم شرابًا لا رجس فيه ولا دنس".

قال السعدي:"أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرا لما في بطونهم من كل أذى وقذى".

قال الطبري:"وسقى هؤلاء الأبرار ربُّهُم شرابا طهورا، ومن طهره أنه لا يصير بولا نجسا، ولكنه يصير رشحا من أبدانهم كرشح المسك".

قال ابن كثير:"ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}، أي: طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وَجَدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فَجَرت عليهم نضرةُ النعيم".

عن مجاهد، قوله: "{شَرَابًا طَهُورًا}، قال: ما ذكر الله من الأشربة".

قال القشيري:"الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المطهّر لغيره، فالشراب

=

=

يكون طهورا في الجنة- وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يحتاج فيها إلى التطهير. ولكنه- سبحانه- لمّا ذكر الشراب- وهو اليوم في الشاهد نجس- أخبر أنّ ذلك الشراب غدا طاهر، ومع ذلك مطهّر.. يقال: يطهّر صدورهم من الغلّ والغشّ، ولا يبقى لبعضهم مع بعض خصيمة ولا عداوة ولا دعوى ولا شاء. ويقال: يطهّر قلوبهم عن محبة الحور العين. ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من هؤلاء، فإذا هم بكاسات تلاقى أفواههم بغير أكفّ من غيب إلى عبد".

قال الزمخشري:"{شَرابًا طَهُورًا}: ليس برجس كخمر الدنيا، لأنّ كونها رجسا بالشرع لا بالعقل، وليست الدار دار تكليف. أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدى الوضرة، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها. أو لأنه لا يئول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك".

قال الفراء:"طهور ليس بنجس كما كَانَ فِي الدنيا مذكورًا بالنجاسة".

قال النحاس:"أي: طاهرا من الأقذار والأدناس والأوساخ".

قال سهل:"أي: طهرهم به من بقاء أدناس الدنيا".

وقال سهل: "نهى الله عباده عن نجاسة خمور الدنيا بما فرق بين الطاهر والطهور، وبين خمور الجنة وخمور الدنيا نجاسة، فإن خمور الدنيا نجسة تنجس شاربها بالآثام، وخمور الجنة طهور تطهر شاربها من كل دنس، وتصلحه لمجلس القدس ومشهد العز. وصلى سهل صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى: {وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَرابًا طَهُورًا} فجعل يحرك فاه كأنما يمص شيئًا، فلما فرغ من صلاته قيل له: أتشرب في الصلاة؟ فقال: والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأني عند شربه به ما فعلت ذلك".

=

=

عن إبراهيم التيمي: "{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}، قال: عرق يفيض من أعراضهم مثل ريح المسك".

عن إبراهيم التيمي، قال: "إن الرجل من أهل الجنة يقسَمُ له شهوة مئة رجل من أهل الدنيا، وأكلهم وهمتهم، فإذا أكل سقي شرابا طهورا، فيصير رشحا يخرج من جلده أطيب ريحًا من المسك الأذفر، ثم تعود شهوته".

عن أبي قِلابة: "إن أهل الجنة إذا أكلوا وشربوا ما شاءوا دَعَوا بالشراب الطهور فيشربونه، فتطهر بذلك بطونهم ويكون ما أكلوا وشربوا رَشْحا وريحَ مسك، فتضمر لذلك بطونهم".

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)} [الإنسان: ٢٢]

ويقال لهم: إن هذا أُعِدَّ لكم مقابل أعمالكم الصالحة، وكان عملكم في الدنيا عند الله مرضيًا مقبولا.

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً} [الإنسان: ٢٢]، أي:"ويقال لهم: إن هذا أُعِدَّ لكم مقابل أعمالكم الصالحة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يقال لهؤلاء الأبرار حينئذ: إن هذا الذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثوابا على ما كنتم في الدنيا تعملون من الصالحات".

قال ابن كثير:"أي: يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤] وكقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]".

قال السعدي:" {إِنَّ هَـذَا} الجزاء الجزيل والعطاء الجميل {كَانَ لَكُمْ جَزَاءً} على ما أسلفتموه من الأعمال".

=

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣).

{إِنَّا نَحْنُ} تَأْكِيد لِاسْمِ إنَّ أَوْ فَصْل {نزلنا عليك القرآن تنزيلا} خبر إن أي فصلناه ولم ننزله جملة واحدة.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤).

=

قوله تعالى: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: ٢٢]، أي:"وكان عملكم في الدنيا عند الله مرضيًا مقبولا".

قال الطبري:"يقول: كان عملكم فيها مشكورا، حمدكم عليه ربكم، ورضيه لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة عليه".

قال مقاتل:"يعني: شكر الله أعمالهم فأثابهم بها الجنة".

قال النسفي: أي" محمودًا مقبولًا مرضيًا عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا".

قال ابن كثير:"أي: جزاكم الله على القليل بالكثير".

قال القشيري:"وشكره لسعيهم تكثير الثواب على القليل من العمل- هذا على طريقة العلماء، وعند قوم شكرهم جزاؤهم على شكرهم، ويقال: شكره لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام".

عن معمر، عن قتادة، قال: "تلا قتادة: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}، قال: لقد شَكر الله سعيا قليلا".

عن قتادة، قوله: "{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}، غفر لهم الذنب، وشكر لهم الحسن".

قال الماتريدي في الآية:"جائز أن تكون هذه البشارة خرجت لأهلها في الدنيا، وجائز أن تكون لهم في الآخرة: أن هذا الذي أكرمتم به من الكرامات جزاء لعملكم وسعيكم في الدنيا".

{فاصبر لحكم ربك} عليك بتبليغ رسالته {ولا تطع منهم} أي الكفار {آثما أو كفورا} أي عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة قالا للنبي ﷺ ارجع عن هذا الأمر ويجوز أن يراد كل آثم وكافر أي لا تطع أحدهما أيا كان فيما دعاك إليه من إثم أو كفر.

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥).

{واذكر اسم ربك} في الصلاة {بكرة وأصيلا} يعني الفجر والظهر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦).

{ومن الليل فاسجد له} يعني المغرب والعشاء {وسبحه ليلا طويلا} صل التطوع فيه كما تقدم من ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧).

{إن هؤلاء يحبون العاجلة} الدنيا {ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} شديدا أي يوم القيامة لا يعملون له.

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨).

{نحن خلقناهم وشددنا} قوينا {أسرهم} أعضاءهم ومفاصلهم {وإذا شئنا بدلنا} جعلنا {أمثالهم} في الخلقة بدلا منهم بأن نهلكهم {تبديلا} تأكيد ووقعت إذا موقع إن نحو إن يشأ يذهبكم لأنه تعالى لم يشأ ذلك وإذا لما يقع.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩).

{إن هذه} السورة {تذكرة} عظة للخلق {فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} طريقا بالطاعة.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠).

{وما تشاءون} بالتاء والياء اتخاذ السبيل بالطاعة {إلا أن يشاء الله} ذلك

{إن الله كان عليما} بخلقه {حكيما} في فعله.

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١).

{يدخل من يشاء في رحمته} جنته وهم المؤمنون {والظالمين} ناصبه فعل مقدر أي أعد يفسر {أعد لهم عذابا أليما} مؤلما وهم الكافرون[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن قتادة: أنه بلغه: أن أبا جهل يقول: لئن رأيت محمدًا يصلي؛ لأطأن على عنقه؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٣٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١٣٨) عن معمر عن قتادة به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٥)، و"الدر المنثور" (٨/ ٣٧٨) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

* قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣)} [الإنسان: ٢٣]

التفسير:

إنا نحن نَزَّلْنا عليك -أيها الرسول- القرآن تنزيلا من عندنا؛ لتذكر الناس بما فيه من الوعد والوعيد والثواب والعقاب.

قال ابن عباس:"مُتفرِّقًا آية بعد آية، ولم يُنزله جملة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا نحن نزلنا عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ابتلاء منا واختبارا".

قال القشيري: أي:"في مدّة سنين".

قال البيضاوي: أي:"مفرقا منجما لحكمة اقتضته، وتكرير «الضمير» مع «أن» مزيد لاختصاص التنزيل به".

قال النسفي:"تكرير الضمير بعد إيقاعهم اسما لأن تأكيد على تأكيد بمعنى =

=

اختصاص الله بالتنزيل ليستقر في نفس النبي ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفرقًا إلا حكمة وصوابًا ومن الحكمة الأمر بالمصابرة".

قال الماتريدي:"قيل: فرقنا عليك القرآن تفريقا، والحكمة في التفريق ما ذكر في آية أخرى في القرآن، وهو قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}، فأخبر أن في التفريق تثبيتا؛ فيكون الناس له أوعى وأعرف بمواقع النوازل منه من أن ينزل جملة واحدة".

قال مكحول: "إن القرآن جزء من اثنين وسبعين جزءا من النبوة".

عن ربيعة، قال: "إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن وترك فيه موضعا للسنة، وسن الرسول ﷺ السنة وترك فيها موضعا للرأي".

قال النسفي: ({إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} تكرير الضمير بعد إيقاعه اسمًا لإنّ تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليستقر في نفس النبي ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيلهُ مفرقًا إلا حكمة وصوابًا ومن الحكمةِ الأمر بالمصابرة).

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الإنسان: ٢٤]، أي:"فاصبر لحكم ربك القدري واقبله، ولحكمه الديني فامض عليه".

قال الطبري:"يقول: اصبر لما امتحنك به ربك من فرائضه، وتبليغ رسالاته، والقيام بما ألزمك القيام به في تنزيله الذي أوحاه إليك".

قال البيضاوي:"بتأخير نصرك على كفار مكة وغيرهم".

قال القشيري: "أي: ارض بقضائه، واستسلم لحكمه".

قال ابن كثير:"أي: كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك، فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سَيُدَبرك بحسن تدبيره".

قال مقاتل:"يعني: حتى يحكم الله بينك وبين أهل مكة، ولا تشتم إذا شتمت،

=

=

ولا تغتظ إذا ضربت".

قال النسفي:"عليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذية وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة".

قال الماتريدي: "فيه أنه ابتلاه بما تكرهه نفسه، ويشتد عليها، حتى دعاه إلى الصبر؛ لأن المرء لا يدعى إلى الصبر على النعم واللذات، وإنما يدعى إليه إذا ابتلي بالمكاره البليّات، وقد صبر عليه السلام على المكاره؛ لأنه أمر بمضادة الجن والإنس؛ فانتصب لهم حتى آذوه كل الأذى، وهموا بقتله".

قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، أي:"ولا تطع من المشركين من كان منغمسًا في الشهوات أو مبالغًا في الكفر والضلال".

قال الطبري:"يقول: ولا تطع في معصية الله من مشركي قومك آثما يريد بركوبه معاصيه، أو كفورا: يعنى جحودا لنعمه عنده، وآلائه قِبَلَه، فهو يكفر به، ويعبد غيره. وقيل: إن الذي عني بهذا القول أبو جهل".

قال ابن كثير:"أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صَدّك عما أنزل إليك، بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس. فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه".

قال الماتريدي: "كأنه قال: ولا تطع من دعاك إلى ما تأثم فيه، أو يكون كفورا. أو لا تجب الآثم أو الكفور إلى ما يدعوك إليه".

قال القشيري: "وهذا أمر له بإفراد ربّه بطاعته".

قال البيضاوي:"أي: كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه، و «أو» للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار ما يدعونه إليه، فإن ترتب النهي على الوصفين مشعر بأنه لهما وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإثم والكفر. فإن

=

=

مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور".

عن الحسن: "{ولا تُطِعْ مِنهُمْ آثِمًا} وهو المُنافق أظهر الإسلام وقلبه على الشّرك، {أَوْ كَفُورًا} وهو المُشرك الجاحد".

عن ابن جريج:"{آثِمًا أَوْ كَفُورًا}، قال: كان أبو جهل يقول: لَئِن رأيتُ محمدًا يُصلِّي لأطأنّ على رقبته. فنَهاه أن يُطيعه".

قال ابن زيد:"الآثِم: المذنب الظالم والكفور، هذا كله واحد".

قال مقاتل:"{آثِمًا}: وهو الوليد ابن المغيرة بن هشام المخزومي قال: {أَوْ كَفُورًا}، «أو»: ها هنا صلة، و «الكفور»: هو عتبة بن ربيعة، وذلك أنهم خلوا به في دار الندوة، وفيهم عمرو ابن عمير ابن مسعود الثقفي، فقالوا: يا محمد، أخبرنا لم تركت دين آبائك وأجدادك؟ فقال الوليد بن المغيرة: إن طلبت مالا أعطيتك نصف مالي على أن تدع مقالتك هذه. وقال أبو البختري بن هشام: واللات والعزى إن ارتد عن دينه لأزوجنه ابنتي فإنها أحسن النساء، وأجملهن جمالا، وأفصحهن قولا وأبلغهن علما، وقد علمت العزى بذلك، فسكت النبي- ﷺ- عن ذلك فلم يجبهم شيئا. فقال ابن مسعود الثقفي: مالك لا تجيبنا إن كنت تخاف عذاب ربك وذمه أجرتك فضحك النبي- ﷺ- عند ذلك، وقبض ثوبه وقام عنهم، وقال: أصعب أقوال وأضعف أعمال، فأنزل الله- ﷻ-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} [الإنسان: ٢٣]، فيها تقديم، وتأخير، {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤] يعني: الوليد بن المغيرة وأبا البختري بن هشام. وقال في قول عمرو بن عمير بن مسعود الثقفي: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الجن: ٢٢] يعني: لا يؤمن من عذابه أحد، ولن أجد من دونه مهربا، {إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ} [الجن: ٢٣]، إلى آخر الآية".

=

=

قوله تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الإنسان: ٢٥]، أي:"وداوم على ذكر اسم ربك ودعائه في أول النهار وآخره".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَاذْكُرْ} يا محمد {اسْمَ رَبِّكَ} فادعه به بكرة في صلاة الصبح، وعشيا في صلاة الظهر والعصر".

قال السمعاني:"أي: بالغدو والعشي".

قال ابن كثير:"أي: أولَ النهار وآخره".

قال الماتريدي: "البكرة: تحتمل صلاة الصبح، والأصيل: يحتمل صلاة الظهر والعصر".

عن مجاهد:"{وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلًا}، يعني: قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

عن أبي العالية:"في قوله: {بكرة}، قال: صلاة الفجر، وقوله: {وأصيلا}، قال: صلاة العصر".

قال ابن زيد:"بكرة: صلاة الصبح، وأصيلا صلاة الظهر الأصيل".

عن قتادة:"{وسبحوه بكرة وأصيلا} [الأحزاب: ٤٢] قال: «صلاة الصبح وصلاة العصر»".

عن هلال بن يساف، قال: "كانت امرأة من همدان تسبح، وتحصيه بالحصى أو النوى، فقال لها عبد الله: ألا أدلك على خير مِن ذلك؟ تقولين: اللهُ أكبر كبيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا".

وفي بعض الغرائب من الأخبار:"أن النبي كان إذا صلى الغداة قال: «الله أكبر ثلاثا، وإذا صلى العصر قال: الله أكبر ثلاثا»".

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ} [الإنسان: ٢٦]، أي:"ومن الليل فاخضع لربك، وصَلِّ له".

=

=

قال الطبري:"يقول: ومن الليل فاسجد له في صلاتك".

قال السمعاني:"أي: صل له. وقيل: هو صلاة المغرب".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [الإنسان: ٢٦]، أي:"وتهجَّد له زمنًا طويلا فيه".

قال عطاء: "يريد أن صلاة الليل فريضة عليك يا محمد".

عن ابن عباس، قال:"كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة".

قال مجاهد: "كل سُبْحَةٍ في القرآن: صلاة".

قال الضحاك:"كل تسبيح في القرآن صلاة، إلا قوله: {سبحانك إني كنت من الظالمين}".

عن ابن عباس، قوله: "{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا}، يعني: الصلاة والتسبيح".

قال الطبري:"يقول: فسبحه ليلا طويلا يعني: أكثر الليل، كما قال جلّ ثناؤه: {قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}".

قال الثعلبي:"يعني: التطوّع".

قال السمعاني:"هو التطوع من بعد صلاة العشاء الأخيرة إلى الصبح، وهذا على الندب والاستحباب".

قال النحاس:"هو منسوخ بزوال فرض صلاة الليل، وقيل: هو على الندب وقيل: هو خاص للنبي ﷺ".

عن ابن زيد:"قوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا}، قال: كان هذا أوّل شيء فريضة. وقرأ: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ}، ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ...}، إلى قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...}، إلى آخر الآية، ثم قال: مُحِي هذا عن رسول الله ﷺ

=

=

وعن الناس، وجعله نافلة فقال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ}، قال: فجعلها نافلة".

قوله تعالى: {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)} [الإنسان: ٢٧]

التفسير:

إن هؤلاء المشركين يحبون الدنيا، وينشغلون بها، ويتركون خلف ظهورهم العمل للآخرة، ولما فيه نجاتهم في يوم عظيم الشدائد.

قوله تعالى: {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} [الإنسان: ٢٧]، أي:"إن هؤلاء المشركين يحبون الدنيا، وينشغلون بها".

قال القشيري:"أي: كفّار قريش".

قال الطبري:"إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا، يقول: يحبون البقاء فيها وتعجبهم زينتها".

قال مقاتل:"يعني: الدنيا، لا يهمهم شيء إلا أمر الدنيا الذهب والفضة والبناء والثياب والدواب".

قال النحاس:"أي: يحبون خير الدنيا".

قال الزمخشري:"يؤثرونها على الآخرة، كقوله: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}".

قال ابن كثير:"ثم قال: منكرًا على الكفار ومن أشبههم في حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: {إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ..}".

عن قتادة:"{كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ ويَذَرُونَ الآخِرَةَ}، قال: اختار أكثرُ الناس العاجلةَ، إلا مَن رَحِم الله وعَصَم".

روي عن قتادة في قوله:"{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ}.. قال:"من كانت الدنيا همّه

=

=

وسدمه وطلبته ونيته".

قوله تعالى: {وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} [الإنسان: ٢٧]، أي:"ويتركون خلف ظهورهم العمل للآخرة، ولما فيه نجاتهم في يوم عظيم الشدائد".

قال الطبري:"يقول: ويدعون خلف ظهورهم العمل للآخرة، وما لهم فيه النجاة من عذاب الله يومئذ".

قال ابن كثير:"يعني: يوم القيامة".

قال القشيري:"أي: لا يعملون ليوم القيامة".

عن سفيان: "{وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا}، قال: الآخرة".

قال السمعاني:"هو يوم القيامة، وتركهم له هو تركهم العمل والسعي له. وقوله: {ثقيلا} يجوز أن يكون سماه ثقيلا لشدة الهول والفزع فيه، ويجوز أن يكون سماه ثقيلا لفصل القضاء فيه بين العباد وعدله معهم، وهو في غاية الثقل عليهم إلا من تداركه الله بفضله".

قال الزمخشري:"{وَراءَهُمْ}: قدّامهم أو خلف ظهورهم لا يعبئون به، {يَوْمًا ثَقِيلًا} استعير الثقيل لشدّته وهو له، من الشيء الثقيل الباهظ لحامله. ونحوه: {ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ}".

قال مقاتل:"{وَرَاءَهُمْ} يعني: أمامهم، وكل شيء في القرآن «وراءهم»، يعني: أمامهم، {يَوْمًا ثَقِيلا}، لأنها تثقل على الكافرين إذا حشروا وإذا وقفوا وإذا حاسبوهم، وإذا جازوا الصراط فهي مقدار ثلاثمائة سنة

وأربعين سنة فأما المؤمن فإنه ييسر الله خروجه من قبره وإذا حشره وإذا حاسبه، وإذا جاز الصراط، فذلك قوله: {يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [المدثر: ١٠]".

قال النحاس:"وقيل: «وراء» بمعنى: «قدّام»، ومن يمنع من الأضداد يجيز هذا

=

لأن وراء مشتقّ من توارى فهو يقع لما بين يديك وما خلفك. وقيل: التقدير: ويذرون وراءهم عمل يوم ثقيل. أي: لا يعملون للآخرة".

قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)} [الإنسان: ٢٨]

التفسير:

نحن خلقناهم، وأحكمنا خلقهم، وإذا شئنا أهلكناهم، وجئنا بقوم مطيعين ممتثلين لأوامر ربهم.

قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ} [الإنسان: ٢٨]، أي:"نحن بقدرتنا أو جدناهم من العدم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: نَحْنُ خَلَقْنَا هؤلاء المشركين بالله المخالفين أمره ونهيه".

قال مقاتل:"في بطون أمهاتهم وهم نطفة".

قوله تعالى: {وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} [الإنسان: ٢٨]، أي:"وأحكمنا خلقهم".

وفي قوله تعالى: {وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} [الإنسان: ٢٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: مفاصلهم، قاله أبو هريرة ،قاله الحسن ، والربيع.

عن الربيع بن أنس، " {وشَدَدْنا أسْرَهُمْ} ، قال: مفاصلهم".

قال ابن زيد، سمعته - يعني: خلادا - يقول: سمعت أبا سعيد، وكان قرأ القرآن على أبي هريرة قال: ما قرأت القرآن إلا على أبي هريرة، هو أقرأني، وقال في هذه الآية: {وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} ، قال: هي المفاصل".

الثاني: يعني: خلقهم، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وبه قال الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، والطبري ، قال لبيد:

ساهم الوجه شديد أَسْرُهُ... مُغبَط الحارِكِ مَحبوكُ الكَفلُ

=

عـن ابـن عبـاس، قولـه: "{نَحْـنُ خَلَقْنَـاهُمْ وَشَـدَدْنَا أَسْـرَهُمْ}، يقـول: شـددنا خلقهم".

عن مجاهد، وقتادة: "{وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ}، قال: خَلْقهم".

قال الطبري: أي:"وشـددنا خلقهـم، وشـددنا خلقهـم، مـن قـولهم: قـد أُسِـر هـذا الرجل فأُحسِن أسره، بمعنى: قـد خلِقَ فأُحسِن خَلْقه.. ومنه قـول العامـة: خـذه بأسره: أي هو لك كله".

قال الفراء:"الأسر: الخَلْق. تَقُولُ: لقد أُسِر هَذَا الرجل أحسنُ الأسر، كقولك: خُلِقَ أَحْسَن الخَلْق".

قال ابن قتيبة:"يقال: امرأةٌ حسنةُ الأسْرِ؛ أي حسنة الخَلْقِ: كأنها أُسِرت، أي شُدَّتْ. وأصل هذا من «الإسار»، وهو: القِدُّ الذي يُشَدُّ به الأقْتَابُ. يقال: ما أحسَنَ ما أَسَرَ قَتَبَهُ! أي ما أحسن ما شَدَّه بالقِدِّ! وكذلك: امرأةٌ حسنة العَصَب، إذا كانت مُدْمَجَةَ الخَلْقِ: كأنها عُصِّبَتْ، أي شُدَّت".

الثالث: أن «الأسر»: القوة، قاله ابن زيد ، قال ابن أحمر في وصف فرس:

يمشي لأوظفةٍ شدادٍ أَسْرُها... صُمِّ السنابِك لاتقى بالجَدْجَدِ

قال الثعلبي: أي:"قوّينا وحكمنا".

الرابع: أنه موضع الحديث. حكاه النحاس.

الخامس: يعني: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. قاله الحسن.

وقال الزمخشري:"الأسر: الربط والتوثيق. ومنه: أسر الرجل إذا أوثق بالقدّ وهو الإسار. وفرس مأسور الخلق. وترس مأسور بالعقب. والمعنى: شددنا توصيل عظامهم بعضها ببعض، وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب. ومثله قولهم: جارية معصوبة الخلق ومجدولته".

السادس: يعني: أسرة الشباب وما خلق الله شيئا أحسن من الشباب، منور الوجه

=

=

أسود الشعر واللحية قوى البدن. قاله مقاتل.

السابع: -ما رواه عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه: قال: "{وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ}: قال: الشَّرْج".

قال الألوسي تعقيبًا على هذا القول: "وفسر بمجرى الفضلة، وشد ذلك، جعله بحيث إذا خرج الأذى انقبض، ولا يخفى أن هذا داخل في شدة الخلق وكونه موثقًا حسنًا".

قال النحاس:"ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن عباس ومجاهد وقتادة قالوا: «أسرهم خلقهم»، يكون من قولهم: ما أحسن أسر هذا الرجل أي خلقه ومن هذا أخذه بأسره أي بجملته وخلقته لم يبق منه شيئا".

قوله تعالى: {وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} [الإنسان: ٢٨]، أي:"وإذا شئنا أهلكناهم، وجئنا بقوم مطيعين ممتثلين لأوامر ربهم".

قال الطبري:"يقول: وإذا نحن شئنا أهلكنا هؤلاء وجئنا بآخرين سواهم من جنسهم أمثالهم من الخلق، مخالفين لهم في العمل".

وقال ابن كثير:"أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبَدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا. وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة".

قال ابن زيد:"بني آدم الذين خالفوا طاعة الله، قال: وأمثالهم من بني آدم".

وقال مقاتل: يعني" ذلك السواد [أي: سواد الشباب] والنور، بالبياض والضعف {تبديلا} من السواد حتى لا يبقى شيء منه إلا البياض".

قال ابن عباس-في رواية أبي صالح-: "يقول لو نشاء لاهلكناهم وجينا بأطوع لله منهم".

وروي الضحاك عن ابن عباس: "لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها".

قوله تعالى: {إِنَّ هَـذِهِ تَـذْكِرَةٌ} [الإنسان: ٢٩]، أي:"إن هذه السورة عظة

=

=

للعالمين".

قال الطبري:"يقول: إن هذه السورة تذكرة لمن تذكر واتعظ واعتبر".

قال قتادة:"إن هذه السورة تذكرة".

قال القشيري:"أي: القرآن تذكرة".

قال النحاس:"أي: هذه الأمثال والقصص".

وقال مقاتل: يعني:"إن هذا السواد والحسن والقبح تذكرة، يعني: عبرة".

قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [الإنسان: ٢٩]، أي:"فمن أراد الخير لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ بالإيمان والتقوى طريقًا يوصله إلى مغفرة الله ورضوانه".

قال الطبري:"يقول: فمن شاء أيها الناس اتخذ إلى رضا ربه بالعمل بطاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه".

قال الفراء:"وِجهة وطريقًا إلى الخير".

قال ابن كثير:"أي: طريقا ومسلكا، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، كقوله: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا} [النساء: ٣٩]".

قال النحاس:"أي: فمن شاء اتّخذ إلى رضاء ربه طريقا بطاعة الله ﷻ والانتهاء عن معاصيه".

وقال مقاتل: "يعني: فمن شاء اتخذ في هذه التذكرة، فيعتبر فيشكر الله ويوحده، ويتخذ طريقا إلى الجنة".

عن قتادة:"{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا}، بطاعة الله".

قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [الإنسان: ٣٠]، أي:"وما تريدون أمرًا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَما تَشاءُونَ} اتخاذ السبيل إلى ربكم أيها الناس {إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} ذلك لكم لأن الأمر إليه لا إليكم".

قال الزجاج:"أي: لستم تشاءون إلا بمشيئة الله".

قال ابن كثير:"أي: لا يقدر أحد أن يَهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا، {إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}".

قال النحاس:"{وَما تَشاؤُنَ} اتّخاذ السبيل إلا بأن يشاء الله ذلك، لأن المشيئة إليه".

وفي قراءة عبد الله: «وَما تَشاءُونَ إِلا مَا شَاءَ اللهُ»".

عن الربيع، قال: "سمعتُ الشافعي يقول: لأن يَلقى اللهَ العبدُ بكلِّ ذنب ما خلا الشّرك خيرٌ من أن يَلقاه بشيء من هذه الأهواء. وذلك أنه رأى قومًا يَتجادلون في القَدَر بين يديه، فقال الشافعي: في كتاب الله المشيئة دون خَلْقه، والمشيئة إرادة الله، يقول الله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} فأَعلم خَلْقه أنّ المشيئة له".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠]، أي:"إن الله كان عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه".

قال الطبري:"فلن يعدو منكم أحد ما سبق له في علمه بتدبيركم".

قال النحاس:"{إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا}، أي: بما يشاء أن يتّخذ إلى رضاه طريقا، {حَكِيمًا} في تدبيره، لا يقدر أحد أن يخرج عنه".

قال ابن كثير:"أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة".

عن محمد بن إسحاق، قوله: "{عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية في قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

=

=

قوله تعالى: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ} [الإنسان: ٣١]، أي:"يُدْخل مَن يشاء مِن عباده في رحمته ورضوانه، وهم المؤمنون".

قال الطبري:"يقول: يدخل ربكم من يشاء منكم في رحمته، فيتوب عليه حتى يموت تائبا من ضلالته، فيغفر له ذنوبه، ويُدخله جنته".

قال ابن كثير:"أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له".

قوله تعالى: {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣١]، أي:"وأعدَّ للظالمين المتجاوزين حدود الله عذابًا موجعًا".

قال الطبري:"يقول: الذين ظلموا أنفسهم، فماتوا على شركهم، أعدّ لهم في الآخرة عذابا مؤلما موجعا، وهو عذاب جهنم".

قال القشيري:"أي: عذابا أليما موجعا يخلص وجعه إلى قلوبهم".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله" ، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) (الإنسان: ١٥ - ١٦)، ثم قال بعد: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) (الإنسان: ١٩)، للسائل أن يسأل عن بناء الفعل في الآية الأولى لمهول ولم يسم الفاعل وبنائه في الثانية للفاعل؟ ولم يذكر مستدعاه المجرور فلم يقل بكذا، ما الفائدة في ذلك؟ وهل الفاعل في الآية الثانية هو الذي لم يسم أولًا في قوله: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ)؟

والجواب عن ذلك أن بناء الآيتين في هذه السورة على تعظيم حال أهل الجنة وما أعد الله لهم، فذكر فيها ما يطاف (به) عليهم من أواني الفضة والأكواب بالطعام

=

سورة المرسلات(١)

=

والشراب، وما يمزج به شرابهم من الزنجبيل والعين التي تسمى سلسبيلا، ثم ذكر الطائفون عليهم بذلك، ووصفوا بكونهم ولدانًا لا أثر عليهم للعياء ولا يلحقهم في طوافهم مشقة وأنهم كالؤلؤ المنثور حسنًا وتناسبًا، فلما ذكرت أحوالهم على التفصيل، وقصد الاستيفاء لما منحوه، ناسب ذلك إيراد تنعمهم مفصلا بذكر المطاف به مستوفى، ثم ذكر الطائفون وقدم المطاف به لأنه الذي تنمهم تناولا واتصالا وتطعمًا وغذاء مأكلًا ومشربًا، فكان أهم للتقديم، ثم أعقب بذكر الطائفين وهم الولدان المخلدون، فكمل مفصلا تفصيلايحرز الاعتناء في التعريف والثناء، وقد جمعت هذا المفصل آية واحدة وهي المفسرة لما ذكرته من (أن) الطائفين بأواني الفضة والأكواب هم الولدان المذكورون بعد وذلك قوله تعالى في سورة الواقعة: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ) (الواقعة: ١٧ - ١٨)، وضح الجواب عن الأسئلة الثلاثة على أبين وجه، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٩٧).

(١) عن عبد الله بن مسعود ﵁؛ قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى؛ إذ نزل عليه: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١)} وإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها؛ إذ وثبت علينا حية؛ فقال النبي ﷺ: "اقتلوها"؛ فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: "وقيت شركم كما وقيتم شرها".

أخرجه البخاري (رقم ١٨٣٠، ٣٣١٧، ٤٩٣٠، ٤٩٣١، ٤٩٣٤)، ومسلم (رقم ٢٢٣٤).

قال ابن عاشور:"هي مكية عند جمهور المفسرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفا ، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولا =

=

لأنها نزلت والنبيء ﷺ مختف في غار بمنى مع بعض أصحابه.. عن ابن عباس وقتادة: أن آية {وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ} [المرسلات: ٤٨] مدنية نزلت في المنافقين، ومحمل ذلك أنه تأويل ممن رواه عنه نظرا إلى أن الكفار الصرحاء لا يؤمرون بالصلاة، وليس في ذلك حجة لكون الآية مدنية فإن الضمير في قوله: {وَإِذا قِيلَ لَهُمُ} [المرسلات: ٤٨] وارد على طريقة الضمائر قبله وكلها عائدة إلى الكفار وهم المشركون. ومعنى «قيل لهم اركعوا»: كناية عن أن يقال لهم: أسلموا. ونظيره قوله تعالى: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: ٤٣]، فهي في المشركين وقوله: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر: ٤٣] إلى قوله: {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المدثر: ٤٦]".

وقال مقاتل: "نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا لا نحني فإنها مسبّة علينا فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود»".

قال ابن عاشور:"وهذا أيضا أضعف، وإذا صح ذلك فإنما أراد مقاتل أن النبيء ﷺ قرأ عليهم الآية".

* آياتها خمسون. وكلماتها مائة وإحدى وثمانون. وحروفها ثمانمائة وستَّة عشر. مجموع فواصل آياتها (عبرتم لنا) على اللاَّم الفَصْل فى الموضعين، وعلى الرّاءِ القصْر، وصُفْر، وعلى الباءِ {ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ}، و {اللهب}.

* أسماء السورة:

تسمى: «سورة المرسلات» وردت هذه التسمية عند السلف، وسميت بذلك في المصاحف وكتب التفسير، وذلك لافتتاحها بالقسم الإلهي بالمرسلات وهي الرياح كما قال تعالى: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} [المرسلات: ١].

كما سميت السورة «والمرسلات»، بإضافة واو القسم إليها، كما عند الطبري في

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١).

=

تفسيره.

وتسمى «سورة والمرسلات عرفا»:

وردت هذه التسمية في عهد الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم-، كما عند ابن مسعود، وهي تسمية للسورة بأول آية افتتحت فيها، قال تعالى: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} [المرسلات: ١].

وتسمى «سورة العرف» وردت هذه التسمية دون إسناد عند البقاعي، وشهاب الدين الخفاجي، والألوسي، والقاسمي.

ولعلهم سموها بلفظ وقع في أولها وهو مأخوذ من قوله تعالى: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} [المرسلات: ١].

* معظم مقصود السّورة: القَسَم بوقوع القيامة، والخبرُ عن إِهلاك القرون، الماضية، والمِنَّة على الخلائق بإِيجادهم فى الابتداء، وإِدخال الأَجانب فى النَار، وصعوبة عقوبة الحقِّ إِيّاهم وأَنواع كرامة المؤمنين فى الجنَّة، والشكاية عن الكفَّار بإِعراضهم عن القرآن فى قوله: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}.

* متشابه سورة المرسلات: قوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} مكرّر عشر مرات: لأَن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأُولى، فلا يكون تكرارها مستهجَنا. ولو لم يكرّر كان متوعّدا على بعض دون بعض. وقيل: إن من عادة العرب التكرار والإطناب؛ كما من عادتهم الاقتصار والإِيجاز. وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أَدعَى إِلى إِدراك البغية من الإِيجاز.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَالْمُرْسَلَات عُرْفًا} أَيْ الرِّيَاح مُتَتَابِعَة كَعُرْفِ الْفَرَس يَتْلُو بَعْضه بَعْضًا وَنَصْبه عَلَى الْحَال.

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢).

{فَالْعَاصِفَات عَصْفًا} الرِّيَاح الشَّدِيدَة.

وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣).

{وَالنَّاشِرَات نَشْرًا} الرِّيَاح تَنْشُر الْمَطَر.

فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤).

{فَالْفَارِقَات فَرْقًا} أَيْ آيَات الْقُرْآن تَفْرُق بَيْن الْحَقّ وَالْبَاطِل وَالْحَلَال وَالْحَرَام.

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥).

{فَالْمُلْقِيَات ذِكْرًا} أَيْ الْمَلَائِكَة تَنْزِل بِالْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاء وَالرُّسُل يُلْقُونَ الْوَحْي إِلَى الْأُمَم.

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦).

{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} أَيْ لِلْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَار مِنْ الله تَعَالَى وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ ذَال نُذْرًا وَقُرِئَ بِضَمِّ ذَال عُذْرًا.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧).

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ} أَيْ يَا كُفَّار مَكَّة مِنْ الْبَعْث وَالْعَذَاب {لَوَاقِع} كَائِن لَا مَحَالَة.

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨).

{فَإِذَا النُّجُوم طُمِسَتْ} مُحِيَ نُورهَا.

وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩).

{وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ} شُقَّتْ.

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠).

{وَإِذَا الْجِبَال نُسِفَتْ} فُتِّتَتْ وَسُيِّرَتْ.

وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١).

{وإذا الرسل أُقِّتَتْ} بِالْوَاوِ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلًا مِنْهَا أَيْ جُمِعَتْ لوقت.

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢).

{لِأَيّ يَوْم} لِيَوْمٍ عَظِيم {أُجِّلَتْ} لِلشَّهَادَةِ عَلَى أممهم بالتبليغ.

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣).

{لِيَوْمِ الْفَصْل} بَيْن الْخَلْق وَيُؤْخَذ مِنْهُ جَوَاب إذَا أَيْ وَقَعَ الْفَصْل بَيْن الْخَلَائِق.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤).

{وَمَا أَدْرَاك مَا يَوْم الْفَصْل} تَهْوِيل لِشَأْنِهِ.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥).

{وَيْل يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} هَذَا وَعِيد لَهُمْ[(١)].

---

(١) عن عبد الله بن مسعود ﵁؛ قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى؛ إذ نزل عليه: {والمرسلات عرفا (١)} وإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها؛ إذ وثبت علينا حية؛ فقال النبي ﷺ: "اقتلوها"؛ فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: "وقيت شركم كما وقيتم شرها" أخرجه البخاري (رقم ١٨٣٠، ٣٣١٧، ٤٩٣٠، ٤٩٣١، ٤٩٣٤)، ومسلم (رقم ٢٢٣٤).

قوله تعالى: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} [المرسلات: ١].

اختلف في تفسير هذه الآية على وجوه:

=

=

أحدها: أنهم الرسل يرسلون بما يُعرفون به من المعجزات، وهذا قول أبي صالح ، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء ، وحكاه الزجاج.

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله".

عن أبي صالح في قوله: "{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}، قال: هي الرسل ترسل بالعُرف".

قال ابن عطية:"قال كثير من المفسرين: {الْمُرْسَلاتِ}، الرسل إلى الناس من الأنبياء كأنه قال: والجماعات المرسلات".

الثاني: أنها الرياح يَتْبَعُ بعضُها بعضًا، رواه أبو العُبَيْدَينِ عن ابن مسعود ، والعوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح ، وبه قال ابن كثير.

قال الواحدي:"يدل على صحة هذا القول: قوله: {يُرْسِلُ الرِّيَاحَ} [الأعراف: ٥٧]، {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ} [الحجر: ٢٢]، فالله يرسلها، وهي مرسلات".

عن الحسن:"أنها الرياح، وقال: عرفها: جريها".

قال الزجاج:"جاء في التفسير أنها الريَاح أرسلت كعرف الفرس".

قال القرطبي:"جمهور المفسرين على أن «المرسلات»: الرياح".

قال السمعاني:"قال أكثر المفسرين: على أنها الرياح ترسل عرفا، أي: تتبع بعضها بعضا كعرف الفرس".

الثالث: أنها الملائكة التي تُرسَل بالعرف. رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبهذا قال أبو هريرة ، ومقاتل ، والفراء ، وابن قتيبة.

قال أبو هريرة: "هي الملائكة، أرسلت بالمعروف".

وفي «العرف» على هذا القول وجهان من التفسير:

أحدهما: أي: متتابعات كعُرف الفرس، قاله صالح بن بريدة.

قال ابن قتيبة:"يعني الملائكة، يريد: أنها متتابعة يتلو بعضها بعضا بما ترسل به

=

=

من أمر الله ﷻ. وأصل هذا من: عرف الفرس، لأنه سطر مستو بعضه في إثر بعض، فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضا، ومنه يقول الناس: هم إليه عرف واحد، إذا كثروا وتتابعوا في توجّههم إليه".

الثاني: أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. رواه مسروق عن ابن مسعود، وبهذا قال أبو هريرة، وأبو صالح-أيضا-، وسهل بن عبد الله.

عن إسماعيل، قال: سألت أبا صالح عن قوله: "{وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا}، قال: هي الرسل ترسل بالمعروف؛ قالوا: فتأويل الكلام: والملائكة التي أرسلت بأمر الله ونهيه، وذلك هو العرف".

قال الفراء:"وأمَّا قوله: {عرفا}، فيقال: أُرْسِلَتْ بالمعروف، وَيُقَال: تتابعت كعرف الفرس، والعرب تَقُولُ: تركتُ النَّاس إلى فلان عُرفا واحدًا، إِذَا توجهوا إِلَيْه فأكثروا".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عُرْفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدلّ على أن المعنيّ بذلك أحد الحِزْبين دون الآخر، وقد عمّ جلّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكلّ من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك مَلَكا أو ريحا أو رسولا من بني آدم مرسلا".

وقال النحاس:"الصفة في هذا أقيمت مقام الموصوف فلهذا وقع الاختلاف فإذا كان التقدير: وربّ المرسلات فالمعنى واحد والقسم بالله جلّ وعزّ، وإذا زدنا هذا شرحا قلنا قد ذكرنا ما قيل إنها الرياح وأنها الملائكة وأنها الرسل عليهم السّلام ولم نجد حجّة قاطعة تحكم لأحد هذه الأقوال فوجب أن يردّ إلى عموم الظاهر فيكون عاما لهذه الأشياء كلها".

قوله تعالى: {فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا} [المرسلات: ٢].

=

=

أحدهما: أنها الرياح الشديدة الهبوب، قاله علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء ، وابن كثير. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال الطبري:"يعني: الشديدات الهبوب السريعات الممرّ".

قال ابن كثير:"العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت".

قال السمعاني:"يقال: الرياح عاصفات لأنها تأتي بالعصف، أي: بورق الزرع".

الثاني: الملائكة، قاله مسلم بن صبيح.

قال الزجاج: "قيل: تعصف بروح الكافر".

قوله تعالى: {وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} [المرسلات: ٣]، أي:"وأقسم بالملائكة الموكلين بالسحب يسوقونها حيث شاء الله".

وفي «الناشرات» خمسة أقوال:

أحدها: أنها الرياح تنشر السحاب، قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح ، والفراء. والزجاج ، وابن كثير ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال الفراء:"هي: الرياح التي تأتي بالمطر".

قال الزجاج:"الرياح تأتي بالمطر كما قال ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}".

قال ابن كثير:"هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب ﷻ".

الثاني: أنها الملائكة تنشر الكتب، قاله أبو صالح -أيضا-.

الثالث: أنه المطر ينشر النبات، قاله أبو صالح -أيضًا-.

الرابع: أنه البعث للقيامة تُنشر فيه الأرواح، قاله الربيع.

الخامس: أنها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد، قاله الضحاك ،

=

=

ومقاتل.

قال مقاتل:"هي أعمال بني آدم تنشر يوم القيامة".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالناشرات نشرا، ولم يَخْصُص شيئا من ذلك دون شيء، فالريح تنشر السحاب، والمطر ينشر الأرض، والملائكة تنشر الكتب، ولا دلالة من وجه يجب التسليم له على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فذلك على كل ما كان ناشرا".

قوله تعالى: {فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا} [المرسلات: ٤]، أي:"وأقسم بالملائكة التي تنزل من عند الله بما يفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام".

وفي «الفارقات» أربعة أقوال:

أحدها: الملائكة تأتي بما يفرِّق بين الحق والباطل، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد-في رواية- ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدي ، والثوري ، وأبو صالح ، والفراء ، والزجاج (، وحكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.

قال قتادة: "الملائكة تلقي القرآن".

قال الفراء:"هي: الملائكة، تنزل بالفرْق، بالوحي ما بين الحلال والحرام وبتفصيله".

قال ابن كثير:"فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام".

قال السمعاني:"في قول أكثر المفسرين: هم الملائكة يأتون بالفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام".

الثاني: يعني: القرآن ما فرق الله فيه بين الحقّ والباطل، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن كيسان ، ومقاتل.

=

=

قال النحاس:"التقدير على هذا: فالآيات الفارقات".

الثالث: الريح تفرّق بين السحاب فتبدِّدُه، قاله مجاهد-أيضا-.

الرابع: الرسل الذين يفرقون بين الحلال والحرام. حكاه الماوردي عن أبي صالح.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالفارقات، وهي الفاصلات بين الحق والباطل، ولم يخصص بذلك منهنّ بعضا دون بعض، فذلك قَسَم بكلّ فارقة بين الحقّ والباطل، مَلَكا كان أو قرآنا، أو غير ذلك".

قوله تعالى: {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} [المرسلات: ٥ - ٦]، أي:"وأقسم بالملائكة التي تتلقى الوحي من عند الله وتنزل به على أنبيائه؛ إعذارًا من الله إلى خلقه وإنذارًا منه إليهم ؛ لئلا يكون لهم حجة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فالملقيات ذكرا إلى الرسل إعذارا من الله إلى خلقه، وإنذارا منه لهم".

قال السمعاني:"العذر: ظهور معنى يوضع اللوم عن الإنسان، وهذا الحد في حق الخلق، فأما في حق الله فل".

قوله تعالى: {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} [المرسلات: ٥]، قولان:

أحدهما: الرسل يلقون ما أُنزل عليهم إلى الأمم، قاله قطرب.

الثاني: الملائكة تبلّغ ما حملت من الوحي إلى الأنبياء، وهذا مذهب ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد-في رواية- ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدي ، والثوري ، والكلبي ، والفراء ، والزجاج ، والطبري ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

عن ابن عباس:" {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} ، يعني: الملائكة".

=

=

عن ابن عباس: {عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}، يعني: الملائكة".

قال قتادة:"هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل وتبلغه".

قال قتادة:"الملائكة تلقي القرآن".

عن قتادة: "{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}، قال: عذرًا من الله، ونُذْرا منه إلى خلقه".

قال قتادة:"عذرا لله على خلقه، ونذرًا للمؤمنين ينتفعون به، ويأخذون به".

عن السدي:"{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} المعنى: عُذْرًا ونُذْرًا، والألف صلة".

قال الفراء:"هي: الملائكة تلقى الذكر إلي الأنبياء".

قال ابن كثير:"تلقي إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره".

قال مقاتل:"فهو جبريل- ﷺ- وحده يلقي الذكر على ألسنة الأنبياء والرسل، وهو {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} [الصافات: ٣]".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} [المرسلات: ٧]، أي:"إن الذي توعدون به مِن أمر يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء لنازلٌ بكم لا محالة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والمرسلات عرفا، إن الذي توعدون أيها الناس من الأمور لواقع، وهو كائن لا محالة، يعني بذلك يوم القيامة، وما ذكر الله أنه أعدّ لخلقه يومئذ من الثواب والعذاب".

قال الزمخشري:"إن الذي توعدونه من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه، وهو جواب القسم".

قال ابن كثير:"هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، إن هذا كله {لَوَاقِع}، أي: لكائن لا محالة".

=

=

وقال الكلبي: "إنما توعدون من الخير والشر لواقع بكم".

قوله تعالى: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ} [المرسلات: ٨]، أي:"فإذا النجوم طُمست وذهب ضياؤها".

قال الضحاك:"تُطمس فيَذهب نورها".

قال الطبري:"يقول: فإذا النجوم ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نور ولا ضوء".

قال الزجاج:"معناه: أُذْهِبَتْ وغُطيَتْ".

قال ابن كثير:"أي: ذهب ضوؤها، كقوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ٢] وكقوله: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ٢]".

قال الزمخشري:"{طُمِسَتْ}: محيت ومحقت. وقيل: ذهب بنورها ومحق ذواتها، موافق لقوله: {انْتَثَرَتْ} و {انْكَدَرَتْ}، ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور".

قوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ} [المرسلات: ٩]، أي:"وإذا السماء تصدَّعت".

قال الطبري:"يقول: وإذا السماء شقِّقت وصدّعت".

قال الزجاج:"معناه: شقَّت كما قال ﷻ: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}".

قال ابن كثير:"أي: انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها، وَوَهَت أطرافها".

قال الزمخشري:"{فُرِجَتْ}: فتحت فكانت أبوابا".

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: "فرجت للطي".

قوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ} [المرسلات: ١٠]، أي:"وإذا الجبال تطايرت وتناثرت وصارت هباء تَذْروه الرياح".

قال الطبري:"يقول: وإذا الجبال نسفت من أصلها، فكانت هباء منبثا".

قال الزجاج:"ذهب بها كلها بسرعة، يقال: انتسفت الشيء إذَا أَخذته كله

="

=

بسرعة".

قال الزمخشري: "كالحب إذا نسف بالمنسف. ونحوه: {وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا}، {وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيبًا مَهِيلًا}، وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها، من انتسفت الشيء إذا اختطفته".

قال ابن كثير: "أي: ذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه: ١٠٥ – ١٠٧]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧]".

عن ابن عباس والكلبي: {وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ}، قالا: "سويت بالأرض".

قوله تعالى: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} [المرسلات: ١١]، أي:"وإذا الرسل عُيِّن لهم وقت وأجل للفصل بينهم وبين الأمم".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} [المرسلات: ١١]، وجوه:

أحدها: جمعت، قاله ابن عباس.

الثاني: يعني: أُوعِدَت، قاله إبراهيم.

وفي رواية عنه قال:"وعدت".

قال ابن كثير: "وكأنه يجعلها كقوله: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٦٩]".

الثالث: أُجِّلَتْ، قاله الحسن، ومجاهد.

قال الطبري: "وإذا الرسل أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة".

قال الزجاج: "معنى «وُقِّتَتْ» جعل لها وقت وأجل".

قال الزمخشري: "معنى توقيت الرسل: تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة

=

على أممهم. والتأجيل: من الأجل، كالتوقيت: من الوقت".

وقال ابن زيد:"أُقتت ليوم القيامة، وقرأ: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ}، قال: والأجل: الميقات، وقرأ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}، وقرأ: {إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، قال: إلى يوم القيامة، قال: لهم أجل إلى ذلك اليوم حتى يبلغوه".

قرئ: «وُقِّتَتْ»، بالواو وتشديد القاف، وقرأه أبو جعفر: «وُقِتَتْ» بالواو وتخفيف القاف.

قوله تعالى: {لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ} [المرسلات: ١٢]، أي:"يقال: لأيِّ يوم عظيم أُخِّرت الرسل؟".

قال الزمخشري:"تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مُعَجِّبًا عباده من هول ذلك اليوم وشدّته: لأيِّ يوم أجِّلت الرسل ووقِّتت، ما أعظمه وأهوله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها؟ حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: {فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: ٤٧، ٤٨]".

قوله تعالى: {لِيَوْمِ الْفَصْلِ} [المرسلات: ١٣]، أي:"أُخِّرت ليوم القضاء والفصل بين الخلائق".

قال الطبري: "يقول: ليوم يفصل الله فيه بين خلقه القضاء، فيأخذ للمظلوم من الظالم، ويجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

قال الزجاج:"أي: أجلت القضاء فيما بينها وبين الأمم ليوم الفصل".

قال قتادة:"يوم يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة وإلى النار".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} [المرسلات: ١٤]، أي:"وما أعلمك -أيها الإنسان- أيُّ شيء هو يوم الفصل وشدته وهوله؟".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأيّ شيء أدراك يا محمد ما يوم الفصل، معظما بذلك أمره، وشدّة هوله".
عن قتادة: "{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ}، تعظيما لذلك اليوم".
قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ١٥]، أي:"هلاك عظيم في ذلك اليوم للمكذبين بهذا اليوم الموعود".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره الوادي الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها للمكذّبين بيوم الفصل".
قال الزجاج: "«ويل»: كلمة تقال لكل من وقع في هلكة، وكذلك يقولها كل من وقع
في هلكة".
قال ابن كثير:"أي: ويل لهم من عذاب الله غدا. وقد قدمنا في الحديث أن «ويل»: واد في جهنم. ولا يصح".
عن قتادة: "{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، ويل والله طويل".
عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: "«ويل»: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره".
عن عطاء بن يسار، قال: "«الويل»: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت من حره".
عن زياد بن فياض، قال: سمعت عياض، يقول: «ويل»: سيل من صديد في أصل جهنم".
(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى:

=

{والمرسلات عرفا (١) فالعاصفات عصفا (٢) والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥) عذرا أو نذرا (٦) إنما توعدون لواقع (٧)} [المرسلات: ١ - ٧].

فسرت "المرسلات" بالملائكة، وهو قول: أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل، وجماعة.

وفسرت بالرياح، وهو قول: ابن مسعود، وإحدى الروايتين عن ابن عباس، وقول قتادة.

وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن.

وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس.

قلت: الله - سبحانه - يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء. فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان:

١ - إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه.

٢ - وإرسال كون؛ وهو نوعان:

نوع يحبه ويرضاه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه.

ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه، كإرسال الشياطين على الكفار.

فالإرسال المقسم به ها هنا مقيد بـ "العرف":

١ - فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين.

وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء "مرسلات"، وتكلف: (الجماعات المرسلات) خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث.

=

=

وأيضا؛ فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء.
وأيضا؛ فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله تعالى: {تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك} [النحل: ٦٣]، وقوله تعالى: {وإنك لمن المرسلين (٢٥٢)} [البقرة: ٢٥٢]، وقوله ﷻ: {يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣)} [يس: ١ - ٣].
٢ - وإن كان "العرف" من: التتابع، كـ "عرف الفرس" و"عرف الديك"، والناس إلى فلان عرف واحد، أي: سابقون في قصده والتوجه إليه = جاز أن تكون "المرسلات": الرياح، ويؤيده عطف "العاصفات" عليه و"الناشرات".
وجاز أن تكون: الملائكة، وجاز أن يعم النوعين؛ لوقع الإرسال - عرفا - عليهما.
ويؤيده أن "الرياح" موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.
ويؤيد كونها "الرياح" عطف "العاصفات" عليها بـ "فاء" التعقيب والتسبيب، فكأنها أرسلت، فعصفت.
ومن جعل "المرسلات": الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف "الرياح".
والأكثرون على أنها "الرياح".
وفيها قول ثالث: أنها تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء؛ إذا أباده وأهلكه، قال الأعشى:
* تعصف بالدارع والحاسر * حكاه أبو إسحاق.
وهو قول متكلف، فإن المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليها. وإنما يقسم - سبحانه - بملائكته، وكتابه؛ لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على

=

=

ثبوتهما.

وأما "الناشرات نشرا"؛ فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بـ "الواو"، وما قبله معطوف على القسم الأول بـ "الفاء".

قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: "هي الرياح تأتي بالمطر".

ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: {وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} [الأعراف: ٥٧]؛ يعني أنها تنشر السحاب نشرا، وهو ضد الطي.

وقال مقاتل: "هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم"، وقاله: مسروق، وعطاء عن ابن عباس.

وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها.

وقيل: تنشر أوامر الله في السماء والأرض.

وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان.

وقال أبو صالح: "هي الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها".

قلت: ويجوز أن تكون "الناشرات" لازما لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن ينشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت، أي: حيي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها: الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به "المرسلات"، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات، فإن "الرياح" سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكن هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه - سبحانه - جعل الإقسام في هذه السورة نوعين، وفصل أحدهما من الآخر، وجعل "العاصفات" معطوفا على "المرسلات" بـ "فاء" التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل "الناشرات" كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بـ "الواو"، ثم عطف عليه "الفارقات" و"الملقيات" بـ "الفاء"، فأوهم هذا أن "الفارقات" و"الملقيات" مرتبط بـ "الناشرات"، وأن

=

=

"العاصفات" مرتبط بـ "المرسلات".

وقد اختلف في "الفارقات"؛ والأكثرون على أنها الملائكة، ويدل عليه عطف "الملقيات ذكرا" عليها بـ "الفاء"، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي نشرت أجنحتها عند النزول، ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارا وإنذارا.

ومن جعل "الناشرات": الرياح جعل "الفارقات" صفة لها، وقال: هي تفرق السحاب ها هنا وها هنا، ولكن يأبى ذلك عطف "الملقيات" بـ "الفاء" عليها.

ومن قال: "الفارقات": آي القرآن؛ تفرق بين الحق والباطل، فقوله يلتئم مع كون "الناشرات" الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها "الرياح".

ومن قال: هي جماعات الرسل؛ فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم في هذه السورة وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة: أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله - تعالى - نشورا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة.

فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بـ "الواو"، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بـ "الفاء".

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد، والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله تعالى: {ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠)} [المرسلات: ٢٠]، فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة، وهو: الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل، وأظهر آية على صحة

=

=

ما أقسم عليه وتضمنته السورة. ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر والتكذيب، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم موقعا، فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه؛ عقيب ما يوجب التصديق، وما يجب التصديق به؛ فتأمله.

قوله تعالى: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}. قال ابن جرير: (يقول: فإذا النجومُ ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نور ولا ضوء) وفي التنزيل نحو ذلك:

١ - قال تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ٢].

٢ - قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ٢].

وقوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}. أي: شقِّقت وصدّعت وتدلّت أرجاؤها، ووهت أطرافها. قال ابن عباس: (فرجت للطيّ). وقيل: فتحت: كقوله تعالى: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: ١٩].

وقوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}. قال ابن عباس: (سُوِّيت بالأرض). وقال القرطبي: (أي ذهب بها كلها بسرعة).

وفي التنزيل:

١ - قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

٢ - وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: {وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ}. قال ابن عباس: (يقول: جُمعت).

وقال مجاهد: (أُجِّلَت). وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ({أُقِّتَتْ}:

=

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦).

{أَلَمْ نُهْلِك الْأَوَّلِينَ} بِتَكْذِيبِهِمْ أَيْ أَهْلَكْنَاهُمْ.

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧).

{ثُمَّ نُتْبِعهُمْ الْآخِرِينَ} مِمَّنْ كَذَّبُوا كَكُفَّارِ مَكَّة فَنُهْلِكهُمْ.

كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨).

{كَذَلِكَ} مِثْل مَا فَعَلْنَا بِالْمُكَذِّبِينَ {نَفْعَل بِالْمُجْرِمِينَ} بِكُلِّ مَنْ أَجْرَمَ فِيمَا يَسْتَقْبِل فَنُهْلِكهُمْ.

=

أُوعِدَت). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا الرسل أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة).

وقوله تعالى: {لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ} . أي ليوم عظيم يعجب العباد منه لشدّتهِ ومزيد أهواله ضُرِبَ الأجل للرسل لجمعهم، يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

قال النسفي: ({لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ} أخرت وأمهلت، وفيه تعظيم لليوم وتعجيب من هوله، والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت).

وقوله تعالى: {لِيَوْمِ الْفَصْلِ} . بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الناس بأعمالهم، فيفَرَّقون إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} . أي: وما أعلمكَ بيوم الفصل؟ فهو تعجيب آخر وتعظيم لأمر ذلك اليوم.

وقوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} . وعيد أكيد، وتهديد شديد، يحمل في مفهومه ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليهم. قال القرطبي: (أي عذاب وخزي لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم).

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩).

{وَيَل يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} تَأْكِيد.

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠).

{أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاء مَهِين} ضَعِيف وَهُوَ المني.

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١).

{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَار مَكِين} حَرِيز وَهُوَ الرَّحِم.

إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢).

{إلَى قَدَر مَعْلُوم} وَهُوَ وَقْت الْوِلَادَة.

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣).

{فَقَدَرنَا} على ذلك {فنعم القادرون} نحن.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥).

{ألم نجعل الأرض كِفَاتًا} مَصْدَر كَفَتَ بِمَعْنَى ضَمَّ أَيْ ضَامَّة.

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦).

{أَحْيَاء} عَلَى ظَهْرهَا {وَأَمْوَاتًا} فِي بَطْنهَا.

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧).

{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَات} جِبَالًا مُرْتَفِعَات {وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاء فراتا} عذبا.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨).

{وَيَلِ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} وَيُقَال لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْم الْقِيَامَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} [المرسلات: ١٦]، أي:"ألم نهلك السابقين من الأمم الماضية؛ بتكذيبهم للرسل كقوم نوح وعاد وثمود؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألم نهلك الأمم الماضين الذين كذّبوا رسلي، وجحدوا آياتي من قوم نوح وعاد وثمود".

قال الثعلبي: أي:"من الأمم المكذّبين في قديم الدهر".

قال ابن كثير:"يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به".

قال الزجاج: "أي: أولًا وَآخِرًا".

قال مقاتل:"الذين كذبوا بيوم القيامة أهلكتهم بالصيحة والخسف والمسخ والفرق والعدو".

قال السمعاني:"أي: قوم نوح وَعَاد وَثَمُود وَمن قرب من زمانهم".

قال الزجاج: "مثل ذلك نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِين".

قال السمعاني:"هم الَّذين يأْتونَ بعدهمْ من الْكفَّار إِلَى يَوْم الْقِيَامَة".

قال النحاس:"أي: كذلك سنتي فيمن أقام على الإجرام أن أهلكه بإجرامه".

قال الطبري:"يقول: كما أهلكنا هؤلاء بكفرهم بي، وتكذيبهم برسلي، كذلك سنتي في أمثالهم من الأمم الكافرة، فنهلك المجرمين بإجرامهم إذا طغوا وبغوا".

قال مقاتل:"يعني: الكفار الظلمة، يخوف كفار مكة لئلا يكذبوا بمحمد- ﷺ- أي: فاحذروا، يا أهل مكة، أن نفعل بكم كما فعلنا بالقرون الأولى".

قال السمعاني:"أَي: مُشْركي مَكَّة ننزل بهم مثل مَا نزل بهم، لأَنهم عمِلُوا مثل عَمَلهم".

قال ابن عاشور:"«المجرمون»، من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن، قال =

=

تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٢٩]".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ١٩]

قال مقاتل: أي: "بالبعث".

قال الطبري: أي: "بأخبار الله التي ذكرناها في هذه الآية، الجاحدين قُدرته على ما يشاء".

قال النحاس:"أي: لمن كذّب بما أخبر الله جلّ وعزّ وبقدرته على ما يشاء".

قال ابن عاشور:"تقرير لنظيره المتقدم تأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه".

قوله تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [المرسلات: ٢٠]، أي:"ألم نخلقكم -يا معشر الكفار- من ماء ضعيف حقير وهو النطفة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ} أيها الناس من نطفة ضعيفة".

قال مقاتل:"يقول: ماء ضعيف، وهو النطفة".

قال ابن عباس:"يعنى بالمهين: الضعيف".

عن مجاهد:"{مِن ماءٍ مَهِينٍ}، قال: ضعيف".

قال ابن عاشور:"الماء: هو ماء الرجل. والمهين: الضعيف.. وهذا الوصف كناية رمزية عن عظيم قدرة الله تعالى إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنسانا شديد القوة عقلا وجسما".

قال ابن كثير:"أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة البارئ ﷻ، كما تقدم في سورة "يس" في حديث بُسْر بن جِحَاش: «ابنَ آدم، أَنَّى تُعجزُني وقد خلقتك من مثل هذه؟»".

قال القشيري:"أي: حقير. وإذ قد علمتم ذلك فلم لم تقيسوا أمر البعث عليه؟ ويقال: ذكّرهم أصل خلقتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم فإنه لا جنس من المخلوقين والمخلوقات أشدّ دعوى من بنى آدم. فمن الواجب أن يتفكّر الإنسان في

=

=

أصله... كان نطفة وفي انتهائه يكون جيفة، وفي وسائط حاله كنيف في قميص!!".
قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [المرسلات: ٢١]، أي:"فجعلنا هذا الماء في مكان حصين، وهو رحم المرأة".
قال الطبري:"يقول: فجعلنا الماء المَهِين في رحمٍ استقرّ فيها فتمكن".
قال مقاتل:"يعنى: الماء يتمكن في الرحم".
قال ابن كثير:"يعني: جمعناه في الرّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء".
عن مجاهد، قوله: "{فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}، قال: الرحم".
قوله تعالى: {إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ} [المرسلات: ٢٢]، أي:"إلى وقت محدود ومعلوم عند الله تعالى".
قال الطبري:"يقول: إلى وقت معلوم لخروجه من الرحم عند الله".
قال ابن كثير:"يعنى: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر".
قال مقاتل:"يعنى: تسعة أشهر".
قال مجاهد: "إلى أن نصوره".
قوله تعالى: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [المرسلات: ٢٣]، أي:"فقدرنا على خلقه وتصويره وإخراجه، فنعم القادرون نحن".
قال مقاتل:"فقدرنا الصبي في رحم أمه تسعة أشهر، ودون ذلك أو فوق ذلك".
عن الضحاك: "{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}، قال: فملكنا فنعم المالكون".
قال ابن قتيبة:"معنى «قدَّرنا» مشدَّدةً. يقال: قدَرتُ كذا وقدَّرتُه. ومنه قول النبي ﷺ- في الهلال: «إذا غُمَّ عليكم فاقْدُرُوا له». أي: فقدِّرُوا له المسيرَ والمنازلَ".
قال الفراء:"{فَقَدَرْنَا}: يُخَفَّفُ ويُشَدَّدُ، والتخفيفُ -هاهنا- أحبُّ إليَّ، وإن كان الكِسَائِيُّ يَقرأُ بالتشديدِ، وقد بَلَغَنا أن عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ والحَسَنَ شدَّدَا:

=

=

{فَقَدَّرْنَا}".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ٢٤]

التفسير:

هلاك وعذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بقدرتنا.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ويل يومئذ للمكذّبين بأن الله خلقهم من ماء مهين".

قال النحاس:"أي: بقدرة الله جلّ وعزّ على هذه الأشياء وغيرها".

عن عطاء بن يسار، قال: "الويل: واد في جهنم، لو سيرت فيه الجبال لا ماعت من شدة حره".

قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} [المرسلات: ٢٥ - ٢٦]، أي:"ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها، تضم على ظهرها أحياء لا يحصون، وفي بطنها أمواتًا لا يحصرون".

قال الطبري: يقول:"ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحيائكم وأمواتكم، تكْفِت أحياءكم في المساكن والمنازل، فتضمهم فيها وتجمعهم، وأمواتكم في بطونها في القبور، فيُدفَنون فيها".

وفي قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا} [المرسلات: ٢٥]، وجوه:

أحدها: يعني: كِنًّا، قاله ابن عباس.

الثاني: غطاء، وهو معنى قول مجاهد.

قال مجاهد:"تكفت الميت ولا يرى منه شيء وقوله: {أحياء} الرجل في بيته لا يرى من عمله شيء".

الثالث: أوعية، قاله أبو عبيدة، والسجستاني، والثعلبي، وحكاه الماوردي وانشد له قول الصمصامة بن الطرماح:

=

=

فأنت اليومَ فوق الأرض حيٌّ... وأنت غدًا تَضُمُّكَ من كِفات

قال الواحدي:"يقال للنِّحْي: كِفْتٌ، كِفت، وكفيت؛ لأنه يحوي اللبن ويضمه، ويقال أيضًا: جِرابٌ كَفِيتٌ وكِفتٌ إذا كان لا يضيِّع شيئًا مما يجعل فيه، ويقال للقدر أيضًا: كِفْتٌ، ومنه المثل: «كِفْتٌ إلى وئيَّةٍ»".

قال النحاس:"يقال: كفته إذا جمعه وأحرزه، فالأرض تجمع الناس على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا. واشتقاق هذا من: الكفتة، وهي وعاء الشيء، وكذا: الكفتة".

الرابع: مجمعًا، قاله المفضل.

قال الزجاج:" {كفاتًا}: ذات جمع".

قال النحاس:"يقال: كفته إذا جمعه وأحرزه".

قال الواحدي:"معنى «الكفت» -في اللغة-: الضم، والجمع، يقال: كَفَتُّ الشيء: أي ضممته فانكفت، أي انضم، ومنه قول أوس:

كِرامٌ حين تَنْكَفِتُ الأفاعي... إلى أجحارهنَّ من الصَّقيع".

قال ابن قتيبة:"«الكَفْتُ»: الضمّ. يقال: أَكْفِتُ إليك كذا؛ أي: أضُمُّه إليك. وكانوا يسمون بقيعَ الغَرْقَدِ: «كَفْتَةً»؛ لأنها مَقْبَرَةٌ تضمُّ الموتى".

ومثله قول النبي -ﷺ- «خمروا الآنية وأوكوا الأسقية وأجيفوا الأبواب واكفتوا صبيانكم عند المساء فإن للجن انتشارا وخطفة وأطفئوا المصابيح عند الرقاد فإن الفويسقة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت أهل البيت".

وفي قوله تعالى: {أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} [المرسلات: ٢٥ - ٢٦]، وجهان:

أحدهما: أن المعنى: ألم نجعل الأرض أحياءً بالنبات والعمارة، وأمواتًا بالخراب واليبس، وهذا قول مجاهد ، وأبي عبيدة.

قال أبو عبيدة:"منه ما ينبت ومنه ما لا ينبت".

=

=

الثاني: أن الأرض تجمع الناس أحياء على ظهرها وأمواتًا في بطنها، قاله مجاهد- أيضا- ، وقتادة ، والشعبي ، ومقاتل ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال ابن قتيبة:"يريد: أنها تضم الأَحياءَ والأَمواتَ".

قال مقاتل:"تدفنون فيها، أمواتكم وتبثون عليها أحياءكم، وتسكنون عليها فقد كفت الموتى والأحياء".

قال قتادة:"يسكن فيها حيهم، ويدفن فيها ميتهم".

قال قتادة:"أحياء فوقها على ظهرها، وأمواتا يُقبرون فيها".

قال الشعبي:"بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم".

قال مجاهد:"تكفت أذاهم {أَحْياءً} تواريه، {وأَمْوَاتًا}، يدفنون: تكفتهم".

عن مجاهد: "{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا}، قال: تكفت أذاهم وما يخرج منهم، {أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}، قال: تكفتهم في الأحياء والأموات".

عن ليث، قال: "قال مجاهد في الذي يرى القملة في ثوبه وهو في المسجد، ولا أدري قال في صلاة أم لا إن شئت فألقها، وإن شئت فوارها، {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}".

عن مجاهد: "{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}، قال: أحياء يكونون فيها، قال محمد بن عمرو: يغيبون فيها ما أرادوا، وقال الحارث: ويغيبون فيها ما أرادوا. وقوله: {أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}، قال: يدفنون فيها".

عن عبد الله بن مسعود:"أنه وجد قملة في ثوبه، فدفنها في المسجد ثم قال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}".

عن بَيان بن بِشر، قال: "خَرجْنا في جنازة فيها عامر الشعبي، فلما انتَهينا إلى الجبّان تلا هذه الآية: {ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا}، قال: كِفات

=

=

الأموات -وأشار إلى القبور-، وهذه كِفات الأحياء -وأشار بيده إلى البيوت-".
قال الفراء:"تكفتهم أحياء عَلَى ظهرها فِي بيوتهم ومنازلهم، وتكفتهم أمواتًا فِي بَطنها، أي: تحفظهم وتحرزهم. ونصبك الأحياءَ والأموات بوقوع الكفات عَلَيْهِ، كأنك قلت: ألم نجعل الأرض كفاتَ أحياءٍ، وأمواتٍ، فإذا نونت نصبت- كما يقرأ من قَرَأَ: {أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا} [البلد: ١٤ - ١٥]، وكما يقرأ: {فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ} [المائدة: ٩٥]، ومثله: {فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ} [البقرة: ١٨٤]".

قال ابن عاشور:"وفي الآية امتنان يجعل الأرض صالحة لدفن الأموات، وقد ألهم الله لذلك ابن آدم حين قتل أخاه كما تقدم ذكره في سورة المائدة، فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلا إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين أو يخاف تعفن الجثة فإنها يرمى بها في البحر وتثقل بشيء لترسب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مجوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان، ولا وضعه لكواسر الطير كما كان يفعل مجوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت قتيلا في فلاة، قال تأبط:

فَلَا تَدْفِنُونِي إِنَّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ... عَلَيْكُمْ ولكن خَامِرِي أُمَّ عَامِرِ

وهذا من جهالة الجاهلية وكفران النعمة".
قال مالك: "القبر حوز للميت كما أن البيت حوز الحي".
قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ} [المرسلات: ٢٧]، أي:"وجعلنا فيها جبالا ثوابت عاليات؛ لئلا تضطرب بكم".
قال الطبري:"وجعلنا في الأرض جبالا ثابتات فيها، باذخات شاهقات".

=

=

قال ابن كثير:"يعني: الجبال، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب".
قال قتادة:"يعني: الجبال".
قال ابن عباس:"جبالا مشرفات".
قال السمعاني:"يُقَال: شمخ فلَان بِأَنْفِهِ إِذا رفع قدره".
قوله تعالى: {وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا} [المرسلات: ٢٧]، أي:"وأسقيناكم ماءً عذبًا سائغًا".
قال الطبري:"يقول: وأسقيناكم ماء عذبا".
قال ابن كثير:"عذبا زُلالا من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض".
عن ابن عباس، ومجاهد: "{وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا}، يقول: عذبا".
قال قتادة:"أي: ماء عذبا".
قال مقاتل:"يقول: ماء حلوا".
قال القشيري:"يذكّرهم عظيم منّته بذلك عليهم. والإشارة فيه إلى عظيم منّته أنّه لم يخسف بكم الأرض- وإن عملتم ما عملتم".
قال ابن عاشور:"عطف " {وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً} {فُرَاتًا} لمناسبة ذكر الجبال، لأنها تنحدر منها المياه تجري في أسافلها وهي الأدوية وتقر في قرارات وحياض وبحيرات. والفرات: العذب وهو ماء المطر، وتنوين «شامخات» و «ماء فراتا»، للتعظيم لدلالة ذلك على عظيم القدرة".
عن ابن عباس: "{وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا}، قال: من أربعة أنهار: سيحانَ، وجيحان، والنيلِ، والفراتِ، وكل ماء يشربه ابن آدم، فهو من هذه الأنهار، وهي تخرج من تحت صخرة من عند بيت المقدس، وأما سيحان فهو ببلخ، وأما جيحان فدجلة، وأما الفرات ففرات الكوفة، وأما النيل فهو بمصر".
قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)} [المرسلات: ٢٨]

=

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩).

{انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ} مِنْ الْعَذَاب {تكذبون}.

انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠).

{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلّ ذِي ثَلَاث شُعَب} هُوَ دُخَان جَهَنَّم إِذَا ارْتَفَعَ افْتَرَقَ ثَلَاث فِرَق لعظمه.

=

قال الطبري: "يقول: ويل يومئذ للمكذّبين بهذه النعم التي أنعمتها عليكم من خلقي الكافرين بها".

قال مقاتل: أي: "بالبعث وقد علموا أن الله- تعالى- قد خلق هذه الأشياء كلها".

قال ابن كثير: "أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره".

قال ابن عاشور: "تكرير للتوبيخ والتقريع".

وفي معنى "الويل"، أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض ، وشقيق.

الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الثالث: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار.

عن عطاء بن يسار، قال: "الويل: واد في جهنم، لو سيرت فيه الجبال لا ماعت من شدة حره".

الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١).

{لَا ظَلِيل} كَنِين يُظِلّهُمْ مِنْ حَرّ ذَلِكَ الْيَوْم {وَلَا يُغْنِي} يَرُدّ عَنْهُمْ شَيْئًا {مِنْ اللهب} النار.

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢).

{ إِنَّهَا} أَيْ النَّار {تَرْمِي بِشَرَرٍ} هُوَ مَا تَطَايَرَ مِنْهَا {كَالْقَصْرِ} مِنْ الْبِنَاء فِي عِظَمه وارتفاعه.

كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣).

{كأنه جمالات} جمع جمالت جَمْع جَمَل وَفِي قِرَاءَة جِمَالَت {صُفْر} فِي هَيْئَتهَا وَلَوْنهَا وَفِي الْحَدِيث شِرَار النَّاس أَسْوَد كَالْقِيرِ وَالْعَرَب تُسَمِّي سُود الْإِبِل صُفْرًا لِشَوْبِ سَوَادهَا بِصُفْرَةٍ فَقِيلَ صُفْر فِي الْآيَة بِمَعْنَى سُود لِمَا ذُكِرَ وَقِيلَ لَا وَالشَّرَر جَمْع شرارة والقير القار.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥).

{هَذَا} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {يَوْم لَا يَنْطِقُونَ} فيه بشيء.

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦).

{وَلَا يُؤْذَن لَهُمْ} فِي الْعُذْر {فَيَعْتَذِرُونَ} عَطْف عَلَى يُؤْذَن مِنْ غَيْر تَسَبُّب عَنْهُ فَهُوَ دَاخِل فِي حَيِّز النَّفْي أَيْ لَا إِذْن فلا اعتذار.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨).

{هَذَا يَوْم الْفَصْل جَمَعْنَاكُمْ} أَيّهَا الْمُكَذِّبُونَ مِنْ هَـذِهِ الْأُمَّة {وَالْأَوَّلِينَ} مِنْ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلكُمْ فَتُحَاسَبُونَ وتعذبون جميعا.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩).

{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْد} حِيلَة فِي دَفْع العذاب عنكم {فكيدون} فافعلوها.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

{ويل يومئذ للمكذبين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المرسلات: ٢٩]، أي:"يقال للكافرين يوم القيامة: سيروا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به تكذبون في الدنيا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذّبين بهذه النِّعم والحجج التي احتجّ بها عليهم يوم القيامة: {انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ} في الدنيا {تُكَذّبُونَ} من عذاب الله لأهل الكفر به".

قال الزجاج: "يعنى: النار لأنهم كذَبوا بالبعث والنشور والنار".

قال مقاتل: {تُكَذّبُونَ} " في الدنيا أنه غير كائن وهي النار وذلك أنه إذا انطلق أهل النار وهي تهمهم، زفرت جهنم زفرة واحدة فيخرج عنق فيحيط بأهلها، ثم تزفر زفرة أخرى فيخرج عنق لها من نار وتحيط بهم، ثم تزفر الثالثة فيخرج عنق فيحيط بالآخرين فتصير حولهم سرادق من نار، فيخرج دخان من جهنم فيقوم فوقهم، فيظن أهلها أنه ظل وأنه سينفعهم من هذه النار، فينطلقون كلهم بأجمعهم فيستظلون تحتها، فيجدونها أشد حرا من السرادق.

قال ابن عاشور:"الأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير، لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرا".

قال السمعاني:"فِي التَّفْسِير: أَن النَّاس يقفون على رُءُوس قُبُورهم أَرْبَعِينَ عَاما إِذا بعثوا، وتدنوا الشَّمْس من رُءُوسهم وَيُزَاد فِي حرهَا حَتَّى يَأْخُذهُمْ الكرب الْعَظِيم =

=

وَحَتَّى تَأْخُذ بِأَنْفَاسِهِمْ ثمَّ إِن الله تَعَالَى يُنجي الْمُؤمنِينَ إِلَى ظلّ من ظله برحمته، وَيبقى الْكفَّار فَيخرج لَهُم دُخان من النَّار ويتشعب ثَلَاث شعب فَيُقَال لَهُم: انْطَلقُوا إِلَى ذَلِك الدُّخان فاستظلوا بِهِ فَهُوَ معنى قَوْله تَعَالَى: {انْطَلقُوا إِلَى مَا كُنْتُم بِهِ تكذبون}، وَإِنَّمَا قَالَ: {مَا كُنْتُم بِهِ تكذبون} لأَنهم كَانُوا يكذبُون بالنَّار. وَهَذَا دُخان النَّار".

قوله تعالى: {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ} [المرسلات: ٣٠]، أي:"سيروا، فاستظلوا بدخان جهنم الذي يتفرع منه ثلاث قطع".

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره: إلى ظلّ دخان ذي ثلاث شعب".

قال ابن كثير:"يعني: لَهَبَ النار إذا ارتفع وصَعِدَ معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب".

قال الزجاج: "يعنى بالـ «ظل» -ههنا-: دُخَانُ جَهَنَّمَ".

قال ابن عاشور:"أريد بالظل دخان جهنم لكثافته، فعبر عنه بالظل تهكما بهم لأنهم يتشوقون ظلا يأوون إلى برده. وأفرد «ظل» -هنا-، لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألما، و «الشعب»: اسم جمع شعبة وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي ذي ثلاث طوائف وأريد بها طوائف من الدخان فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها".

قال الفراء:"يُقال: إنه يخرج لسانٌ من النار، فيحيط بهم كالسرادق ثُمَّ يتشعب مِنْهُ ثلاث شعب من دخان فيظلهم، حتَّى يفرغ من حسابهم إلى النار".

قال الثعلبي:"يعني: دخان جهنم إذا ارتفع أشعب، وقيل: أنها عنق يخرج من النار فينشعب ثلاث شعب، فأمّا النور فيقف على رؤوس المؤمنين، والدخان يقف على رؤس المنافقين، واللهب الصافي يقف على رؤوس الكافرين".

=

عن مجاهد، قوله: "{إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ}، قال: دخان جهنم".

عن قتادة:"{ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ}، قال: هو كقوله: {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}، قال: والسرادق: دخان النار، فأحاط بهم سرادقها، ثم تفرّق، فكان ثلاث شعب، فقال: انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب: شعبة هاهنا، وشعبة هاهنا، وشعبة هاهنا".

قوله تعالى: {لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [المرسلات: ٣١]، أي:"لا يُظِل ذلك الظل من حر ذلك اليوم، ولا يدفع من حر اللهب شيئًا".

قال الطبري:"وذلك أنه يرتفع من وقودها الدخان فيما ذُكر، فإذا تصاعد تفرّق شعبا ثلاثا".

قال النحاس:"أي: غير ظليل من الحرّ ولا يقي لهب النار".

قال السمعاني:"أَي: لَا يدْفع الْأَذَى فَهُوَ فِي صُورَة ظلّ وَلَيْسَ لَهُ معنى الظل، ولا يدْفع عَنْهُم أَذَى اللهب، واللهب لَهب النَّار".

قال ابن كثير:"أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب".

قال ابن عاشور:"الظليل: القوي في ظلاله، اشتق له وصف من اسمه لإفادة كماله فيما يراد منه مثل: ليل أليل، وشعر شاعر، أي: ليس هو مثل ظل المؤمنين قال تعالى: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: ٥٧]. وفي هذا تحسير لهم.. وبذلك سلب عن هذا الظل خصائص الظلال، لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر".

وَعَن قطرب قَالَ: "اللهب: هُوَ الْعَطش".

قوله تعالى: {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ} [المرسلات: ٣٢]، أي:"إن جهنم تقذف من النار بشرر عظيم، كل شرارة منه كالبناء المشيد في العِظم والارتفاع".

=

قال الطبري: "إن جهنم ترمي بشرر كالقصر".
قال ابن كثير:"أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر".
قال الثعلبي:" {بِشَرَرٍ} : وهي ما تطاير من النار إذا التهبت واحدتها شررة".
قال القرطبي:"الشرر: واحدته شررة. والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجف".
قال ابن عاشور:"يجوز أن يكون هذا من تمام ما يقال للمكذبين الذين قيل لهم: {انْطَلِقُوا إِلى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المرسلات: ٢٩]، فإنهم بعد أن حصل لهم اليأس مما ينفس عنهم ما يلقون من العذاب، وقيل لهم: انطلقوا إلى دخان جهنم ربما شاهدوا ساعتئذ جهنم تقذف بشررها فيروعهم المنظر، أو يشاهدونها عن بعد لا تتضح منه الأشياء وتظهر عليهم مخائل توقعهم أنهم بالغون إليه فيزدادون روعا وتهويلا، فيقال لهم: إن جهنم ترمي بشرر كالقصر".
وقرأ عيسى: «بشرار» وهي لغة تميم، واحدها: شرارة.
وفي قوله تعالى: {كَالْقَصْرِ} [المرسلات: ٣٢]، وجوه من التفسير:
أحدها: أنه أصول الشجر العظام، قاله الضحاك.
قال الضحاك:"أصول الشجر العظام، كأنها أجواز الإبل الصفر وسط كل شيء جوزُه، وهي الأجواز".
عن هارون، قال: قرأها الحسن: «كالْقَصْرِ»، وقال: هو الجزل من الخشب قال: واحدته: قصرة وقصر، مثله: جمرة وجمر، وتمرة وتمر".
الثاني: كالجبل-بتسكين الصَّاد-. قاله مجاهد.
الثالث: القصر من البناء، وهو واحد: القصور، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والقرظي ، والأخفش.
قال القرطبي:"القصر: البناء العالي. وقراءة العامة «كالقصر»، بإسكان الصاد:
=

أي الحصون والمدائن في العظم وهو واحد القصور".

قال ابن الجوزي:"قرأ الجمهور بإسكان الصاد على أنه واحد القصور المبنيَّة. وهذا المعنى في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول الجمهور".

قال الزمخشري:"أي: كل شررة كالقصر من القصور في عظمها".

عن ابن عباس، قوله: "{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}، يقول: كالقصر العظيم".

قال أَبُو عَمْرو: "كالبناء الْعَظِيم".

وعن ابن مسعود: {تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}، قال:"إنها ليست كالشجر والجبال، ولكنها مثل المدائن والحصون".

عن الحسن قال: "{كَالْقَصْرِ}، واحد القصور".

عن مجاهد: "{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}، قال: ذكر القصر".

قال الفراء:"يريد: القصر من قصور مياه العرب، وتوحيده وجمعه عربيان".

قال الكلبي: "شبه الشرار من النار بالقصر من قصور الأعراب التي تكون على المياه".

قال القرظي: "إن على جهنم سورا فما خرج من وراء السور مما يرجع فيها في عظم القصر، ولون القار".

قال السمعاني:"وقيل: كالخيمة من خيام العرب، والعرب تسمي ذلك قصرا".

قال النحاس:"والعرب تشبه الناقة والجمل بالقصر، كما قال:

كأنها برج روميّ يشيّده... بان بجصّ وآجرّ وأحجار".

قال الزمخشري:"«القصر» في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين اسم نوع القصور وهو إلا دورا لكبار مشيدة، وقد شبهت العرب بها النوق".

الرابع: أنها خشبة كان أهل الجاهلية يقصدونها، نحو ثلاثة أذرع، يسمونها القصر، قاله ابن عباس ، وبه قال ابن العربي ، وابن القتيبة ، والنحاس.

=

قال النحاس:"وهذا أصح ما قيل فيه ومنه قيل: قصّار، لأنه يعمل بمثل هذا الخشب، والقصر بهذا المعنى يكون جمع: قصرة".

قال ابن قتيبة:"أراد: أصولَ النخل المقطوعة المقلوعة".

قال مقاتل:"هو أصول الشجر يكون في البرية، فإذا جاء الشتاء قطعت أغصانها فتبقى أصولها، «فيحرقها البرد فتسود، فتراها في البرية كأمثال الجمال إذا أنيخت في البرية".

قال ابن عباس:"القصر: خشب كان يُقْطع في الجاهلية ذراعا وأقلّ أو أكثر، يُعْمَد به".

قال ابن عباس:"القصر: خشب كنا ندّخره للشتاء ثلاث أذرع، وفوق ذلك، ودون ذلك كنا نسميه القصر".

قال ابن عباس:"كنا في الجاهلية نقصر ذراعين أو ثلاث أذرع، وفوق ذلك ودون ذلك نسميه القصر".

قال ابن عباس:"فالقصر: الشجر المقطع، ويقال: القصر: النخل المقطوع".

قال ابن عباس:"مثل قَصْر النخلة".

وعن مجاهد، قوله: "{كالْقَصْرِ}، قال: حزم الشجر، يعني: الحزمة".

وقال مجاهد:"كَأَنَّهَا جِذْمُ الشَّجَر".

قال قتادة:"أصول الشجر، وأصول النخل".

قال قتادة:"كأصل الشجر".

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس أنه قرأها: "«كالْقَصَرِ»، بفتح القاف والصاد".

وقال هارون: "أخبرني أبو عمر أن ابن عباس قرأها: «كالقَصَرِ»، وقال: قصر النخل، يعني: الأعناق".

الخامس: أنها أعناق الإبل -وهو بفتح الصاد-، وهذا مروي عن ابن عباس-

=

=

أيضا- ، وقتادة.

قال الزجاج:"وقرئت كالقَصَرِ - بفتح الصاد - جمع: قَصَرَةُ، أي: كأنَّها أعناق الإبِلَ".

قال الأخفش:"وقال بعضهم: كأعناقِ الإِبِل".

قال ابن العربي:"روي أن ابن عباس قرأها «الْقَصَرُ»، وفسرها: بأعناق الإبل".

السادس: قلوس السفن. وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-.

قال السمعاني:"وَقيل: حبال السفن".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [المرسلات: ٣٣]، أي:"كأن شرر جهنم المتطاير منها إبل سود يميل لونها إلى الصُّفْرة".

وفي قوله تعالى: {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [المرسلات: ٣٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: جِمالًا صُفرًا، وأراد بالصفر: السود، سميت صفرًا لأن سوادها يضرب إلى الصفرة، وهو قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، قال الشاعر:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلادُها كَالزَّبِيبِ

قال مقاتل:"يقول: كأنها جمال سوداء إذا رأيتها من مكان بعيد".

قال ابن عباس:"حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض ، حتى تكون كأوساط الرجال

قال الحسن:"الأينق السود".

قال قتادة: نوق سود".

قال قتادة:"كالنوق السود الذي رأيتم".

قال مجاهد:"هي الإبل".

قال ابن قتيبة:"وقع تشبيه «الشّرر» بـ «القصر» في مقاديره، ثم شبّهه في لونه

=

=

بالجمالات الصّفر، وهي السود، والعرب تسمى السّود من الإبل صفرا، وإنما سمّيت السّود من الإبل: صفرا، لأنه يشوب سودها شيء من صفرة، كما قيل لبيض الظباء: أدم، لأن بياضها تعلوه كدرة، والشّرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار، أشبه شيء بالإبل السّود، لما يشوبها من الصفرة".

قال الزمخشري:"«جِمالَتٌ»: جمع «جمال»، أو جمالة جمع: جمل، شبهت بالقصور، ثم بالجمال لبيان التشبيه. ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل".

قال ابن عاشور:"قوله: {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} تشبيه له في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر. وضمير {كَأَنَّهُ} عائد إلى «شرر». و «الجمالات»: بكسر الجيم جمع جمالة، وهي اسم جمع طائفة من الجمال، أي تشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقا، وهذا تشبيه مركب لأنه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه مع حركته. والصفرة: لون الشرر إذا ابتعد عن لهيب ناره".

الثاني: أنها قلوس السفن، شبَّه بها الشرر. قاله ابن عباس-أيضا- ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد-في رواية-.

قال سعيد بن جبير:"قُلوس الجِسر". وفي رواية:"الحبال".

قال مجاهد:"حبال الجسور".

قال ابن عباس:"قلوس سفن البحر".

قال ابن عباس:"فالجِمالات الصفر: قلوس السفن التي تجمع فتوثق بها السفن".

قال ابن عباس:"قُلُوس سفن البحر يجمل بعضها على بعض، حتى تكون كأوساط الرجال".

قال ابن عباس:"حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط

=

=

الرجال".

الثالث: أنها قطع النحاس، وهو مروي عن ابن عباس -أيضًا -.

قال الطبري:"وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: عُنِي بالجمالات الصفر: الإبل السود، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وأن الجِمالات جمع جِمال، نظير رِجال ورِجالات، وبُيوت وبُيوتات".

قال الماوردي:"وفي تسميتها بالجمالات الصفر وجهان: أحدهما: لسرعة سيرها.

الثاني: لمتابعة بعضها لبعض".

وروي عن ابن عباس، أنه قرأ: «جُمالاتٌ»، بالتاء وضمّ الجيم كأنه جمع: جُمالة من الشيء المجمل.

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)} [المرسلات: ٣٤]

قال ابن عاشور:"تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويل يوم القيامة للمكذّبين هذا الوعيد الذي توعد الله به المكذّبين من عباده".

عن عطاء بن يسار، قال: "الويل: واد في جهنم، لو سيرت فيه الجبال لا ماعت من شدة حره".

قوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ} [المرسلات: ٣٥]، أي:"هذا يوم القيامة الذي لا ينطق فيه المكذبون بكلام ينفعهم".

قال مقاتل:"ثم ذكر الويل متى يكون؟ فقال: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ} ".

قال ابن كثير:"أي: لا يتكلمون".

قال يحيى بن سلام: أي:"بحجة، وهي مواطن لا يؤذن لهم في موطن في الكلام، ويؤذن لهم في موطن".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذّبين بثواب الله وعقابه: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ} أهل التكذيب بثواب الله وعقابه.. فإنهم لا ينطقون في بعض أحوال ذلك اليوم، لا أنهم لا ينطقون ذلك اليوم كله".

قال الزجاج: "يوم القيامة له مواطن ومواقيتُ، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها".

قال الشوكاني:"قيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت".

قال أبو عثمان: "أمسكتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب".

قال سهل:"لا ينطق أحد عن نفسه بحجة، إلا بإظهار العجز والعبودية والتزام المخالفات والجرائم".

عن قتادة، قال: "جاء رجل إلى عكرمة، فقال: "أرأيت قول الله: {هذا يوم لا ينطقون} [المرسلات: ٣٥] وقوله: {ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون} [الزمر: ٣١] قال: «إنها مواقف، فأما موقف منها فتكلموا واختصموا، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا ينطقون»".

عن أبي الضحى، قال: "جاء ابن الأزرق وعطية إلى ابن عباس، فقالا له: أرأيت قول الله ﷻ: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٦]، وقال: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]، وقال في مكان آخر: {وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] وقال: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، فقال له ابن عباس: «ويحك يا ابن الأزرق، إنه يوم طويل فيه مواقف كثيرة، فيأتي عليهم ما شاء الله وهم لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يأتي عليهم حال فيجحدون شركهم، ويظنون أن ذلك ينفعهم فيختم الله على ألسنتهم، وتنطق جوارحهم فتشهد عليهم بأعمالهم، ثم تنطق ألسنتهم، فتقر بما

=

=

عملوا فلا يكتمون الله حديثا»، فيقولون: {قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} [الملك: ٩]".

قوله تعالى: {وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٦]، أي:"ولا يكون لهم إذن في الكلام فيعتذرون؛ لأنه لا عذر لهم".

قال السعدي:"أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا".

قال السمعاني:"لِأَنَّهُ لَا عذر لَهُم فيعتذرون".

قال ابن أبي زمنين:"قد يؤذن لهم في الكلام في بعض المواطن، ولايؤذن لهم في بعض؛ فإذا أذن لهم في الكلام لم يعتذروا بعذر"

قال الطبري:"يقول:"{وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} مما اجترموا في الدنيا من الذنوب".

قال ابن كثير:"أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ".

قال البيضاوي:"عطف {فَيَعْتَذِرُونَ} على {يُؤْذَنُ}، ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقيبه مطلقا، ولو جعله جوابا لدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فأوهم ذلك أن لهم عذرا لكن لا يؤذن لهم فيه".

عن أبي العالية في قوله:"{ولا هم ينظرون} يقول: لا يُنظرون فيَعْتَذِرُون، كقوله: {هَذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥ - ٣٦]".

روى عبد الله بن محمد البلوي: "كنت أنا وعمر بن نباته جلوسًا نتذاكر العُبَّاد والزهاد، فقال لي عمر: ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشَّافِعِي - رَحِمَهُ اللهُ -، فرحت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا، وكان الحارث تلميذًا

=

=

لصالح المري، فافتتح يقرأ، وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية عليه: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)} [المرسلات: ٣٥ - ٣٦].. الآيتان. فرأيت الشَّافِعِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وقد تغير لونه واقشعر جلده، واضطرب اضطرابًا شديدًا وخرَّ مغشيًا عليه، فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم خضعت للك قلوب العارفين، وذلَّت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك. وجللني بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك. قال: ثم مشى وانصرفنا".

قوله تعال: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧)} [المرسلات: ٣٧]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويل يومئذ للمكذّبين بخبر الله عن هؤلاء القوم، وما هو فاعل بهم يوم القيامة".

قال ابن عاشور:"تكرير لتهديد المشركين متصل بقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ} [المرسلات: ٣٥]".

قال أبو الليث:"يعني: ويل لمن جحد يوم القيامة وهو يقدر على الكلام في هذا اليوم، يعني: كان في الدنيا يقدر على المعذرة فتركها".

قال الشوكاني:"{للمكذبين} بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته".

القرآن

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩)} [المرسلات: ٣٨ - ٣٩]

قوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} [المرسلات: ٣٨]، أي:"هذا يوم يفصل الله فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل".

قال قتادة:"يعني: يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذّبين بالبعث يوم يبعثون: هذا يوم

=

=

الفصل الذي يَفْصل الله فيه بالحقّ بين عباده".

قال البيضاوي:"{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} بين المحق والمبطل".

قال النفسي:"{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء بالجزاء".

قال السعدي:"لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق".

قال الزجاج: "أي: هذا يوم يفصل فيه بين أهل الجنة والنار وأهل الحق والبَاطِل".

قوله تعالى: {جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} [المرسلات: ٣٨]، أي:"جمعناكم فيه -يا معشر كفار هذه الأمة- مع الكفار الأولين من الأمم الماضية".

قال البيضاوي:"تقرير وبيان للفصل".

قال الطبري:"جمعناكم فيه لموعدكم الذي كنا نعدكم في الدنيا، الجمع فيه بينكم وبين سائر من كان قبلكم من الأمم الهالكة. فقد وفَّينا لكم بذلك".

قال النسفي:"{جمعناكم} يا مكذبي محمد {والأولين} والمكذبين بين قبلكم".

قال ابن كثير:"هذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ} يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمعُهم الداعي ويَنفُذهُم البصر".

قال ابن عاشور:"المخاطبون بضمير {جَمَعْنَاكُمْ}: المشركون الذين سبق الكلام لتهديدهم وهم المكذبون بالقرآن".

قال الماتريدي:"فيه إخبار أنه لا يخص بالبعث فريقا دون فريق، بل يجمع الخلائق كلهم، ثم يفصل بينهم؛ فينزل كلا منزلته التي استوجبها {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}".

=

=

عن عبد الله بن عبد الحكم قال: "جلسنا يومًا نتذاكر الزُّهاد والعبَّاد، وما بلغ من فصاحتهم حتى ذكرنا ذا النون، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر بن نباته فقال: فيما تشاجرون؟ فقلنا: نتذاكر الزهاد والعبَّاد وما بلغ من فصاحتهم حتى ذكرنا ذا النون. فقال: والله ما رأيت رجلًا قط أفصح ولا أورع من محمد بن إدريس الشَّافِعِي رحمة الله عليه. ثم قال: خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد ذات يوم إلى الصفا فافتتح الحارث، وكان غلامًا لصالح المري، فقرأ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} فرأيت الشَّافِعِي قد اضطرب، ثم بكى بكاء شديدًا، ثم لم يتمالك أن قال: إلهي، أعوذ بك من مقال الكاذبين، وإعراض الغافلين، إلهي، لك خضعت قلوب العارفين، وذلَّت هيبة المشتاقين، إلهي هب لي جودك، وجللني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك، يا أرحم الراحمين".

قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ} [المرسلات: ٣٩]، أي:"فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا، وأنقذوا أنفسكم مِن بطش الله وانتقامه".

قال الفراء:"إن كَانَ عندكم حيلة، فاحتالوا لأنفسكم".

قال الطبري:"يقول: والله منجز لكم ما وعدكم في الدنيا من العقاب على تكذيبكم إياه بأنكم مبعوثون لهذا اليوم إن كانت لكم حيلة تحتالونها في التخلص من عقابه اليوم فاحتالوا".

قال عطاء: "يريد: كنتم في الدنيا تحاربون محمدًا -ﷺ-، وتحاربونني، فاليوم حَاربون".

وقال الكلبي: "يقول: إن استطعتم أن تصنعوا شيئًا فاصنعوا".

قال البيضاوي:"تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم".

قال ابن عاشور:"أي: فإن كان لكم كيد اليوم كما كان لكم في الدنيا، أي كيد

=

بـديني ورسـولي فـافعلوه. والأمـر للتعجيـز، والـشرط للتـوبيخ والتـذكير بـسوء صنيعهم في الدنيا، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذ حيث مكنوا من البحث عما عسى أن يكون لهم من الكيد فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سجل عليهم العجز. وهذا من العذاب الذي يعذبونه إذ هو من نوع العذاب النفساني وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني".

قـال الـسعدي: "ففـي ذلـك اليـوم، تبطـل حيـل الظـالمين، ويـضمحل مكـرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم".

قال ابن كثير: "تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتَنجُوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣]، وقال تعالى: {وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} [هود: ٥٧] وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تَبلُغوا نَفْعِي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني»".

عن أبي عبد الله الجَدَلي قال: "أتيت بيت المقدس، فإذا عُبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس، فقال عبادة: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعي، ويقول الله: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ}

اليوم لا ينجو مني جبار عنيد، ولا شيطان مريد. فقال عبد الله بن عمرو: فإنا نحدث يومئذ أنه يخرج عُنُق من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت: أيها الناس، إني بُعثتُ إلى ثَلاثَة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يُغَيّبهم عني وَزَر، ولا تُخفِيهم عني خافية: الذي جعل مع الله إلها آخر،

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١).

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَال} أَيْ تَكَاثُف أَشْجَار إِذْ لَا شَمْس يُظِلّ مِنْ حَرّهَا {وَعُيُون} نَابِعَة مِنْ الْمَاء.

وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢).

{وَفَوَاكِه مِمَّا يَشْتَهُونَ} فِيهِ إِعْلَام بِأَنَّ الْمَأْكَل وَالْمَشْرَب فِي الْجَنَّة بِحَسَبِ شَهَوَاتهمْ بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَبِحَسَبِ مَا يَجِد النَّاس فِي الْأَغْلَب وَيُقَال لهم.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣).

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا} حَال أَيْ مُتَهَنِّئِينَ {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} مِنْ الطَّاعَة.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤).

{إنا كذلك} كما جزينا المتقين {نجزي المحسنين}.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

=

وكلّ جبار عنيد، وكلّ شيطان مريد. فتنطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)} [المرسلات: ٤٠]

قال الطبري:"يقول: ويل يومئذ للمكذّبين بهذا الخبر".

قال ابن عاشور:"تكرير للوعيد والتهديد وهو متصل بما قبله".

قال البيضاوي:"إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب".

روى الحافظ ابن عساكر:"أن الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ قرأ يومًا هذه الآية: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)}.. الآيات. فلم يزل يبكي حتى غُشِيَ عليه، رَحِمَهُ اللَّهُ".

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦).

{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا} خِطَاب لِلْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا {قَلِيلًا} مِنْ الزَّمَان وَغَايَته إلَى الْمَوْت وَفِي هَذَا تهديد لهم {إنكم مجرمون}.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨).

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا} صَلُّوا {لَا يَرْكَعُونَ} لا يصلون.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠).

{فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْده} أَيْ الْقُرْآن {يُؤْمِنُونَ} أَيْ لَا يَمْكَن إيمَانهمْ بِغَيْرِهِ مِنْ كُتُب الله بَعْد تَكْذِيبهمْ بِهِ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْإِعْجَاز الَّذِي لم يشتمل عليه غيره[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد؛ قال: نزلت (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) في ثقيف.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٨٨)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٦) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر والطبري وابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله، ولم نره في "جامع البيان".

* قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ} [المرسلات: ٤١]، أي:"إن الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة وعيون الماء الجارية".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه في الدنيا، =

=

واجتناب معاصيه {فِي ظِلالٍ} ظليلة، وكِنّ كَنِين، لا يصيبهم أذى حرّ ولا قرّ- إذ كان الكافرون بالله في ظلّ ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب- وأنهار تجري خلال أشجار جناتهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من ظل اليحموم، وهو الدخان الأسود المنتن".

قال البيضاوي:"إن المتقين عن الشرك، لأنهم في مقابلة المكذبين. {فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ}".

قال السعدي:"لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب المحسنين، فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ} [أي:] للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات. {فِي ظِلالٍ} من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. {وَعُيُونٍ} جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما".

قال ابن عاشور:"التعريف في «المتقين»، للاستغراق، فلكل واحد من المتقين كون في ظلال".

عن الضحاك:"{الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: "{المتقين}، قال: هم المؤمنون".

قال عطاء: "يريد المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان".

قوله تعالى: {وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [المرسلات: ٤٢]، أي:"وفواكه كثيرة مما تشتهيه أنفسهم يتنعمون".

قال الطبري:"يأكلون منها كلما اشتهوا لا يخافون ضرّها، ولا عاقبة مكروهها".

قال ابن كثير:"أي: من سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا".

=

=

قال السعدي:"أي: من خيار الفواكه وطيبها".

قال ابن عاشور:"فالتبعيض الذي دل عليه حرف «من»، تبعيض من أصناف الشهوات لا من أصناف الفواكه فأفاد أن تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذ أخرى مما اشتهوه".

قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المرسلات: ٤٣]، أي:"يقال لهم: كلوا أكلا لذيذًا، واشربوا شربًا هنيئًا؛ بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال".

قال السعدي:"ويقال لهم: {كُلُوا وَاشْرَبُوا} من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة {هَنِيئًا} أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل، {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم المقيم".

قال ابن كثير:"أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يقال لهم: كلوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلما اشتهيتم هنيئا: يقول: لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنه لكم دائم، لا يزول،

ومريء لا يورثكم أذى في أبدانكم، ويقال لهم: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة الله، وتجتهدون فيما يقرّبكم منه".

قال ابن عاشور:"المقصود من ذلك القول كرامتهم بعرض تناول النعيم عليهم كما يفعله المضيف لضيوفه فالأمر في كلوا واشربوا مستعمل في العرض، وهنيئا دعاء تكريم كما يقال للشارب أو الطعام في الدنيا: هنيئا مريئا، كقوله تعالى: {فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤]، والباء في {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} للسببية، أي: لإفادة تسبب ما بعدها في وقوع متعلقه، أي: كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون

=

=

في الدنيا من الأعمال الصالحة وذلك من إكرامهم بأن جعل ذلك الإنعام حقا لهم".

عن عكرمة:"{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا}، أي: لا موت".

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [المرسلات: ٤٤]، أي:"إنا بمثل ذلك الجزاء العظيم نجزي أهل الإحسان في أعمالهم وطاعتهم لنا".

قال الطبري:"يقول: إنا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان في طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم لا نضيع في الآخرة أجرهم".

قال ابن كثير:"أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل".

قال البيضاوي:"{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} في العقيدة".

قال السعدي:"وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله".

قال القشيري:"الإحسان من العبد ترك الكلّ لأجله! كذلك غدا: يجازيك بترك كلّ الحاصل عليك لأجلك".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ٤٥]، أي:"هلاك وعذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بيوم الجزاء والحساب وما فيه من النعيم والعذاب".

قال الطبري:"يقول: ويل للذين يكذّبون خبر الله عما أخبرهم به من تكريمه هؤلاء المتقين بما أكرمهم به يوم القيامة".

قال مقاتل:"ثم قال الله- تعالى- لكفار مكة: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بالبعث".

قال البيضاوي:"يمحض لهم العذاب المخلد ولخصومهم الثواب المؤبد".

قال السعدي:"ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرمانا وخسرانا".

قوله تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)} [المرسلات: ٤٦]

=

=

ثم هدَّد الله الكافرين فقال: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية زمنًا قليلا؛ إنكم مجرمون بإشراككم بالله.

قوله تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا} [المرسلات: ٤٦]، أي:"يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية زمنًا قليلا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره تهدّدا ووعيدا منه للمكذبين بالبعث: كلوا في بقية آجالكم، وتمتعوا ببقية أعماركم".

قال ابن كثير:"خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأَمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا}، أي: مدة قليلة قريبة قصيرة".

قال الواحدي:"يريد في الدنيا إلى منتهى آجالهم".

قال النحاس:"أي: وقتا قليلا وتمتعا قليل".

قال البيضاوي:"تذكيرا لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم".

قال السعدي:"هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات".

قال ابن عاشور:"خطاب للمشركين الموجودين الذين خوطبوا بقوله تعالى: إنما توعدون لواقع [المرسلات: ٧]، وهو استئناف ناشاء عن قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} [المرسلات: ٤٤] إذ يثير في نفوس المكذبين المخاطبين بهذه القوارع ما يكثر خطوره في نفوسهم من أنهم في هذه الدنيا في نعمة محققة وأن ما يوعدون به غير واقع فقيل لهم: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا}، فالأمر في قوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا} مستعمل في الإمهال والإنذار، أي ليس أكلكم وتمتعكم بلذات الدنيا بشيء لأنه تمتع قليل ثم مأواكم العذاب الأبدي قال تعالى: لَا يَغُرَّنَّكَ

=

=
تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]".

قال سهل: "من كانت همته بطنه وفرجه فقد أظهر خسارته".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [المرسلات: ٤٦]، أي: "إنكم مجرمون بإشراككم بالله".

قال الطبري: "مَسْنُونٌ بكم سنة من قبلكم من مجرمي الأمم الخالية التي متعت بأعمارها إلى بلوغ كتبها آجالها، ثم انتقم الله منها بكفرها، وتكذيبها رسلها".

قال ابن كثير: "أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها.. كما قال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٩، ٧٠]".

قال ابن عاشور: "جملة {إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} خبر مستعمل في التهديد والوعيد بالسوء، أي: أن إجرامكم مهو بكم إلى العذاب، وذلك مستفاد من مقابلة وصفهم بالإجرام بوصف {الْمُتَّقِينَ} [المرسلات: ٤١] بالإحسان إذ الجزاء من جنس العمل، فالجملة واقعة موقع التعليل.

وتأكيد الخبر بـ «إن» لرد إنكارهم كونهم مجرمين".

قال السعدي: "فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات".

قال الزمخشري: "وعلل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قلائل، ثم البقاء في الهلاك أبدا".

قال ابن زيد: "عُني به أهل الكفر".

قال الثعلبي: "مشركون مستخفون للعذاب".

=

=

قال القرطبي:"أي: كافرون. وقيل: مكتسبون فعلا يضركم في الآخرة، من الشرك والمعاصي".

قال مقاتل:"فيحل بكم ما أحل بالذين من قبلكم من العذاب".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)} [المرسلات: ٤٧]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويل يومئذ للمكذبين الذين كذّبوا خبر الله الذي أخبرهم به عما هو فاعل بهم في هذه الآية".

قال البيضاوي:"حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: لمن رضي بالدنيا ولا يقر بالبعث".

قال ابن عاشور:"لما في تمتعوا قليلا من الكناية عن ترقب سوء عاقبة لهم فيقع قوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} موقع البيان لتلك الكناية، أي: كلوا وتمتعوا قليلا الآن وويل لكم يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)} [المرسلات: ٤٨]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذّبين بوعيد الله أهل التكذيب به: اركعوا؛ لا يركعون".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ} [المرسلات: ٤٨]، ثلاثة وجوه"

أحدها: أنه حين يُدْعَون إلى السجود يوم القيامة، رواه العوفي عن ابن عباس.

عن ابن عباس قوله: "{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ}، يقول: يُدْعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا".

الثاني: أنه في الدنيا كانوا إذا قيل لهم: اركعوا، أي: صلوا {لا يَرْكَعُونَ}، أي: لا يصلُّون، فعبر عن الصلاة بالركوع لأنه من أركانها. وإلى نحو هذا ذهب مجاهد ،

=

=

وبه قال الفراء ، والزجاج ، قال ابن الجوزي: "وهو الأصح".

قال مجاهد:"نزلت في ثقيف".

قال الماوردي:"نزلت في ثقيف امتنعوا عن الصلاة فنزل ذلك فيهم".

قال ابن الجوزي:"وقيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا نحني، فإنها مَسَبَّةٌ علينا، فقال: «لا خير في دين ليس فيه ركوع»".

قال النحاس:"كان الركوع أشدّ الأشياء على العرب حتى أسلم بعضهم وامتنع من أن يركع".

قال ابن كثير:"أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه".

قال السعدي:"ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: {ارْكَعُوا} امتنعوا من ذلك. فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟".

عن مجاهد، قوله: "{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ}، قال: صَلُّوا".

قال مجاهد:"إذا قيل لهم صلوا لا يصلون".

قال الفراء والزجاج: أي:"إِذَا أُمروا بالصلاة لم يصلوا".

قال الواحدي:"إذا أمروا بالصلوات الخمس لا يصلون مع محمد -ﷺ-".

قال مقاتل:"يعني: الصلوات الخمس، قالوا: لا نصلي إلا أن يكون بين أيدينا أوثانا".

عن قتادة، قوله: "{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ}، عليكم بحسن الركوع، فإن الصلاة من الله بمكان. وقال قتادة عن ابن مسعود، أنه رأى رجلا يصلي ولا يركع، وآخر يجرّ إزاره، فضحك، قالوا: ما يُضحكك؟ قال: أضحكني رجلان، أما أحدهما فلا يقبل الله صلاته، وأما الآخر فلا ينظر الله إليه".

=

=

الثالث: أي: أنهم كنوا له مخالفين في أمره ونهيه، لا يأتمرون بأمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه. قاله الطبري ، وذكر نحوه أبو الليث السمرقندي ، والزمخشري.

قال أبو الليث السمرقندي:"اخضعوا لله تعالى بالتوحيد لا يخضعون".

قال الزمخشري: أي:"اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه. واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك، ويصرون على استكبارهم".

قال ابن العربي:"هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنا في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف، فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طبقا واحدا".

قال القرطبي: "يذكر أن مالكا رَحِمَهُ اللَّهُ دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال له صبي: يا شيخ قم فاركع. فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين {إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ} [المرسلات: ٤٨]".

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ٤٩]، أي:"هلاك وعذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بآيات الله".

قال الطبري:"ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: ويل طويل لمن لا يقر بالصلاة ولا يؤديها".

قال السعدي:"ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات،

=

=

وقيل لهم: {ارْكَعُوا} امتنعوا من ذلك. فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟".

قال الثعلبي:"قال أهل المعاني: ليس قوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} تكرارا غير مفيد لأنه أراد بكلّ قول منه غير ما أراد بالقول الآخر كأنه ذكر شيئا ثم قال: ويل للمكذّبين بهذا".

قال القرطبي: "كرر: «ويل يومئذ للمكذبين» لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر، كأنه ذكر شيئا فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها".

قال السمعاني:"فإن قال قائل: ما وجه التكرار في قوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} في هذه السورة والمرة الواحدة تغني عن المراد به؟ والجواب قد بينا هذا في سورة الرحمن. ووجه ذلك أنه لما كرر ذكر النعم في تلك السورة كرر الزجر عن كفرانها والنهي عنها بقوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، ولما كرر ذكر الآيات في هذه السورة لإقامة الحجيج عليهم كرر ذكر العقوبة عليهم بذكر الويل ليكون أبلغ في الإنذار والإعذار وهو على عادة كلام العرب فإن الرجل يقول لغيره: ألم أحسن إليك بأن فعلت لك كذا؟ ألم أحسن بأن خلصتك من المكاره؟ ألم أحسن بأن تشفعت لك إلا فلان؟ وغير ذلك فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به، قَالَ مهلهل بن ربيعَة يرثي أَخَاهُ كليبا على هَذَا الْمَعْنى:

عليّ أَن لَيْسَ عدلا من كُلَيْب... إِذا طرد اللَّئِيم عَن الْجَزُور
عليّ أَن لَيْسَ عدلا من كُلَيْب... إِذا مَا ضيم جيران المجير
عليّ أَن لَيْسَ عْدلًا من كُلَيْب... إِذا خرجت مخبأة الْخُدُور
على أَن لَيْسَ عْدلًا من كُلَيْب... غَدَاة بلائك الْأَمر الْكَبِير

=

=

عَليّ أَن لَيْسَ عْدلًا من كُلَيْب... إِذا مَا ضام جَار المستجير".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المرسلات: ٥٠]، أي:"فبأي كتابٍ وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدّقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟".

قال ابن عباس:"يريد: فبأي قرآن غير ما جاء به محمد يصدقون".

قال الضحاك: [{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ}] "بعد توحيد الله" [{يُؤْمِنُونَ}].

قال الزجاج:"أي: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بعد القرآن الذي أتاهم فيه البيان وأَنَهُ مُعْجِزَة وهو آية قائمة، دليلة على الإسلام مما جاء به النبي عليه السلام".

قال ابن كثير:"أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦]".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأي حديث بعد هذا القرآن، أي أنتم أيها القوم كذبتم به مع وضوح برهانه، وصحة دلائله، أنه حق من عند الله تصدّقون، وإنما أعلمهم تعالى ذكره أنهم إن لم يصدّقوا بهذه الأخبار التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحة حججه على حقيقته لم يمكنهم الإقرار بحقيقة شيء من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبَر عنه، ولم يعاينوه، وأنهم إن صدّقوا بشيء مما غاب عنهم لدليل قام عليه لزمهم مثل ذلك في أخبار هذا القرآن".

قال الزمخشري: يعنى: أنّ القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة، فحين لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده يُؤْمِنُونَ".

قال السمعاني:"أَي: بِأَيّ كتاب بعد الْقُرْآن يُؤمنُونَ إِن لم يُؤمنُوا بِهَذَا الحَدِيث بعد ظُهُور براهينه وَقيام الدَّلَائِل على أَنه من عِنْد الله؟!".

قال السعدي:"أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين؟. فليس بعد النور المبين إلا دياجى الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين

=

=

على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه. فتبا لهم ما أعماهم! وويحا لهم ما أخسرهم وأشقاهم!".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}، يؤيد أن الآية كلها في قريش، والحديث الذي يقتضيه الضمير هو القرآن، وهذا توقيف وتوبيخ".

وروي عن يعقوب أنه قرأ: «تؤمنون»، بالتاء من فوق، على المواجهة، ورويت عن ابن عامر.

عن إسماعيل بن أمية: "سمعت رجلا أعرابيا بَدَويا يقول: سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ: {وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا} فقرأ: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (ويل يومئذ للمكذبين) للسائل أن يسأل عن تكريرها عشر مرات؟ وعن الترتيب فيما تخلل متكرر هذه الآية من الآيات وإبداء الفائدة في كل آية واختصاصها بموضوعها؟ وعن الفرق الوارد من هذه الآية هنا وفي سورة التطفيف من حيث تكررت هنا ولم تتكرر في سورة التطفيف؟ فهذه ثلاثة سؤالات في ثانيها تفصيل.

والجواب عن الأول: أن سورة الإنسان لما تضمنت التعريف بحال الفريقين ذوي السعادة وأهل الشقاء، وابتدئت بذكر حال المكذبين فقال تعالى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) (الإنسان: ٤)، ثم أردف هذا بالتعريف بحال وي التنعم وجرى في وصفهم إطناب، ثم عاد الكلام إلى حال من تقدم (فقال: (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) (الإنسان: ٢٧)،فلما قدم هذا من وعد الكافرين أقسم تعالى على وقوعه إبلاغا في الإنذار فقال تعالى: (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا) (المرسلات: ١) إلى قوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) (المرسلات: ٧)، ثم عرف سبحانه بصفة يوم الوقوع، وكأنه

=

على تقدير سؤال كأن قد قيل: ومتى ذلك؟ فقال: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ) (المرسلات: ٨ - ٩) إلى قوله: (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) (المرسلات: ١٣)، ثم أكد هول ذلك اليوم بسؤاله صلي الله عليه وسلم عن تعرفه فقال: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) (المرسلات: ١٤) تعظيمًا لأمره وإنباء بأهواله وشدائده، ثم قال: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات: ١٥)، ثم تكرر هذا الدعاء بالويل الحال بهم سبع مرات - رعيا لما تقدم في سورة الرحمن - آخرها: (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات: ٣٩ - ٤٠)، ثم رجع الكلام إلى التعريف بحال الناجين في آيات ثلاث لم يتخللها الدعاء بالويل لئلا يشوب بشارتهم تنقيص فقال تعالى (إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون) إلى قوله: (إنا كذلك نجزي المحسنين) (المرسلات: ٤١ - ٤٤)، ثم عادت الآي إلى ما بنيت عليه السورة من وعيد المكذبين وتخويفهم إلى آخر السورة، وتكرر فيها ذلك الدعاء بالويل للمكذبين ثلاث مرات، طوبق بها عدد آيات وصف المتقين ليكون زيادة في تنكيل المكذبين وتحسرهم بسماع حال من حاله على الضد منهم، فتلك العشرة التى تضمنتها السورة.

فإن قلت: لم فصل بين ما جرى من الآي المتقدمة وبين هاتين الآيتين من قوله: (المرسلات: ٤٦) مع أن جميعها راجع إلى مقصد واحد من تقريع المكذبين ووصف أحوالهم، لم فصل بين ذلك بكر المتقين وأحوالهم؟ قلت: بدأ أولًا بتوبيخهم في عدم اعتبارهم بما ذكروا به من إهلاك من تقدمهم ممن كذب، وبدأة خلقهم من ماء مهين، وجعل الأرض تكفت إحياءهم وموتاهم، ثم عرفوا بجزائهم الأخراوي وما يشاهدون ويقال لهم عند مصيرهم إلى العذاب ووصف جهنم، ثم أعقب بذكر الضد من حال المتقين ليكون زائدًا ومحركًا لندم المكذبين حين لا ينفع الندم، وتم هذا المقصد على أتم مناسبة، ثم رجع إلى

=

الضرب الآخر المتقدم من التوبيخ بذكر حالهم الدنياوي في تنعمهم (وتمتعهم)، وأورد ذلك بصغية الأمر تهكمًا بهم وقيل: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) (المرسلات: ٤٨)، فلم يكن الوارد في هاتين الآيتين ليناسب ما تقدم من توبيخهم، ففصل عنه.

والجواب عن السؤال الثاني: أن وجه الترتيب فيما تخلل متكرر آية الدعاء من الآيات أنه لما ذكر سبحانه أهوال ذلك اليوم في قوله: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) (المرسلات: ٨) أعقب تعالى بتوبيخ المكذبين على غفلتهم عن التذكر بأخذ من تقدم من مكذبي الأمم وإهلاكهم بجزائهم فقال تعالى: (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ) (المرسلات: ١٦) أي فهلا اتعظوا بهم، كما قال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) (الأنعام: ٦)، وقال تعالى: (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) (الرعد: ٦)، (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ) (القمر: ٤٣)، ثم أردف سبحانه بقوله: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) (المرسلات: ٢٠)، فذكر بأصل الخلقة وتطور الإنسان وتقلبه إلى كمال أمره بتعرف الخطاب وكمال التعقل كما قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (يس: ٧٧)، ثم ذكر سبحانه خلي الأرض ومنافعها وما بها أرساها من الجبال وفجر فيها من المياه لسقينا، فحصل التذكير بضروب ثلاثة وهي: إهلاك الأمم السالفة بتكذيبهم، وخلق الإنسان، وخلق الأرض وما جعل فيها، ثم أعقب بما ياقل لهم في الآخرة وما يشاهدونه مما يحل بهم جزاء على تكذيبهم وتعاميهم عن الاعتبار فقال (انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (المرسلات: ٢٩) إلى قوله: (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) (المرسلات: ٣٩) ثم ذكر تعالى حال المتقين ومصيرهم في ثلاث آيات تأنيسا للمؤمنين، وعلى المطرد في الكتاب العزيز من ذكر الإعقاب، متى ذكر أحد الفريقين من أهل النجاة وأهل الامتحان أن يعقب بذكر الفريق الآخر

=

سورة النبأ(١)

=

ثم عاد الكلام إلى تهديد من قدم وأعقب بما يلائم من امتناعهم عن الاستجابة والخشوع.

والجواب عن السؤال الثالث: أن سورة التطفيف لم تبن على التفصيل المقصود هنا فلم تتكرر فيها آية الدعاء، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٩٨-٤٩٩).

(١) قال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.

وقال ابن عطية:"هي مكية بإجماع".

وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".

* آياتها إِحدى وأَربعون فى عدّ المكّى والبصرىّ، وأَربعون فى عدّ الباقين. وكلماتها مائة وثلاث وسبعون. وحروفها ثمانمائة وستّ عشرة. المختلف فيها آية {عَذَابًا قَرِيْبًا}. فواصل آياتها: (منا) وعلى الميم آية {العَظِيمِ}

* أسماء السورة:

تسمى «سورة النبأ» سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير، وكتب التفسير السنة «سورة النبأ» لوقوع كلمة «النبأ» في مقدمتها: {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ٢].

وتسمى «سورة عمّ يتساءلون» سميت في بعض المصاحف وفي «صحيح البخاري» ، وفي «تفسير الطبري» ، «وتفسير ابن أبي زمنين» ، «وتفسير ابن فورك» ، و «الكشاف» ، «سورة عم يتساءلون».

وفي «تفسير القرطبي» سماها «سورة عم» ، أي: بدون زيادة «يتساءلون» تسمية لها بأول جملة فيها.

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١).

{عَمّ} عَنْ أَيّ شَيْء {يَتَسَاءَلُونَ} يَسْأَل بَعْض قريش بعضا.

=

وتسمى «سورة التساؤل» ووجه تسميتها بذلك، لوقوع «يتساءلون» في أولها: {يَتَسَاءَلُونَ} [النبأ: ١].

وتسمى «سورة المعصرات» وردت هذه التسمية في «المبسوط في القراءات العشر» للنيسابوري، وتفسير الطبرسي، والألوسي، وعدّها السيوطي من بين أسماء السورة، ووجه تسميتها وذلك لقوله تعالى فيها: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا} [النبأ: ١٤].

* معظم مقصود السورة: ذكر القيامة، وخَلْق الأَرض والسّماءِ، وبيان نفع الغَيْث، وكيفيّة النَشْر والبعث، وعذاب العاصين، وثواب المطيعين من المؤمنين، وقيام الملائكة فى القيامة مع المؤمنين، وتمنِّى الكفَّار المحالَ فى قوله: {ياليتني كُنتُ تُرَابًا}.

* المتشابهات: قوله: {كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ} قيل: التكرار للتأكيد. وقيل: الأَوّل للكفَّار، والثَّانى للمؤمنين. وقيل: الأَوّل عند النزع، والثانى فى القيامة. وقيل: الأَوّل رَدْع عن الاختلاف، والثانى عن الكفر.

قوله: {جَزَآءً وِفَاقًا} وبعده: {جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا}؛ لأَنَّ الأَوّل للكفَّار، وقد قال الله تعالى: {وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} فيكون جزاؤهم على وَفْق أَعمالهم. والثَّانى للمؤمنين، وجزاؤهم [يكون] وافيًا كافيًا. فلهذا قال: {حِسَابًا} أَى وافيًا من قولك: حسبى (وكفانى) بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٩٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢).

{عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيم} بَيَان لِذَلِكَ الشَّيْء وَالِاسْتِفْهَام لِتَفْخِيمِهِ وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ مِنْ الْقُرْآن الْمُشْتَمِل عَلَى البعث وغيره.

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣).

{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} فَالْمُؤْمِنُونَ يُثْبِتُونَهُ وَالْكَافِرُونَ ينكرونه.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤).

{كَلَّا} رَدْع {سَيَعْلَمُونَ} مَا يَحِلّ بِهِمْ عَلَى إنكارهم له.

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥).

{ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} تَأْكِيد وَجِيءَ فِيهِ بِثُمَّ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْوَعِيد الثَّانِي أَشَدّ مِنْ الْأَوَّل ثُمَّ أَوْمَأَ تَعَالَى إِلَى الْقُدْرَة عَلَى الْبَعْث فقال.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦).

{أَلَمْ نَجْعَل الْأَرْض مِهَادًا} فِرَاشًا كَالْمَهْدِ.

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧).

{وَالْجِبَال أَوْتَادًا} تَثْبُت بِهَا الْأَرْض كَمَا تَثْبُت الْخِيَام بِالْأَوْتَادِ وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ.

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨).

{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} ذُكُورًا وَإِنَاثًا.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩).

{وَجَعَلْنَا نَوْمكُمْ سُبَاتًا} رَاحَة لِأَبْدَانِكُمْ.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠).

{وَجَعَلْنَا اللَّيْل لِبَاسًا} سَاتِرًا بِسَوَادِهِ.

وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١).

{وَجَعَلْنَا النَّهَار مَعَاشًا} وَقْتًا لِلْمَعَايِشِ.

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢).

{وَبَنَيْنَا فَوْقكُمْ سَبْعًا} سَبْع سَمَاوَات {شِدَادًا} جَمْع شَدِيدَة أَيْ قَوِيَّة مُحْكَمَة لَا يُؤَثِّر فِيهَا مرور الزمان.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣).

{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا} مُنِيرًا {وَهَّاجًا} وَقَّادًا يَعْنِي الشَّمْس.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤).

{وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَات} السَّحَابَات الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تُمْطِر كَالْمُعْصِرِ الْجَارِيَة الَّتِي دَنَتْ مِنْ الْحَيْض {مَاء ثَجَّاجًا} صَبَّابًا.

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥).

{لِنُخْرِج بِهِ حَبًّا} كَالْحِنْطَةِ {وَنَبَاتًا} كَالتِّبْنِ.

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦).

{وَجَنَّات} بَسَاتِين {أَلْفَافًا} مُلْتَفَّة جَمْع لَفِيف كَشَرِيفٍ وَأَشْرَاف[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن؛ قال: لما بعث النبي ﷺ؛ جعلوا يتساءلون بينهم؛ فأنزل الله: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)}؛ يعني: الخبر العظيم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢): ثنا أبو كريب ثنا وكيع عن مسعر عن محمد بن جحادة عن الحسن. وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٩٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

=

=

* قوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} [النبأ: ١].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون بالله ورسوله من قريش يا محمد، وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أن قريشا جعلت فيما ذُكر عنها تختصم وتتجادل في الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الإقرار بنبوّته، والتصديق بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعث، فقال الله لنبيه: فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون".

قال ابن كثير: "يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}، أي: عن أي شيء يتساءلون؟".

قال الزمخشري: "معنى هذا الاستفهام: تفخيم الشأن، كأنه قال: عن أي شأن يتساءلون. ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد؟ جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره، كما تقول: ما الغول وما العنقاء؟ تريد: أي شيء هو من الأشياء هذا أصله، ثم جرد للعبارة عن التفخيم، حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية، {يَتَساءَلُونَ} يسأل بعضهم بعضا. أو يتساءلون غيرهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين. نحو: يتداعونهم ويتراءونهم. والضمير لأهل مكة: كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء".

قال الزجاج: "أصله: «عن ما يتساءلون»، فأدْغمت النون في الميم، لأن الميم تشرك النُونَ في الغُنَّةِ في الأنف.. والمعنى: عن أي شيء يتساءلون، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى: تفخيم القصة، كم اتقول: أي: شيء زَيْدٌ".

وعن ابن كثير أنه قرأ: «عمه»، بهاء السكت.

وأصل (عم) عنْ ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف ما الاستفهامية، وليس

=

المراد هنا مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً.

قال ابن عاشور: افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم، افتتاح تشويقٍ ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن.

قوله تعالى: {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ٢].

قال الطبري: "ثم أخبر الله نبيه ﷺ عن الذي يتساءلونه، فقال: يتساءلون عن النبأ العظيم: يعني: عن الخبر العظيم".

عن الحسن، قال: "{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}، يعني: الخبر العظيم".

وفي المراد بقوله تعالى: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ٢]، أقوال:

أحدها: أريد به القرآن، قاله مجاهد ،وقتادة ، وبه قال ابن قتيبة.

الثاني: يوم القيامة، قاله ابن زيد ، وبه قال ابن كثير.

قال ابن زيد:"يوم القيامة؛ قال: قالوا هذا اليوم الذي تزعمون أنا نحيا فيه وآباؤنا، قال: فهم فيه مختلفون، لا يؤمنون به، فقال الله: بل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون: يوم القيامة لا يؤمنون به".

قال ابن كثير: "وهو النبأ العظيم، يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر".

الثالث: أنه البعث بعد الموت، قاله قتادة-أيضا-.

قال الزجاج: "قوله: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ: ١٧]، يدل على أنهم كانوا يَتساءلون عن البعث".

الرابع: أنه أمر النبي-ﷺ-. حكاه الزجاج.

أي: يتساءلون عن الخبر العظيم المفظع الباهر، وقد اختلف في المراد بالنبأ هنا:

=

قيل: هو البعث بعد الموت، وهذا قول الأكثر.

وقيل: هو القرآن، وقيل: بعثة محمد ﷺ وإرساله إليهم، والراجح الأول، ورجحه ابن كثير، وقال: لأنه سبحانه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث.

- قال الرازي: ذكر المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه هو القيامة وهذا هو الأقرب ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله (سَيَعْلَمُونَ) والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو القيامة.

وثانيها: أنه تعالى بين كونه قادرًا على جميع الممكنات بقوله (أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادًا) إلى قوله (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور) وذلك يقتضي أنه تعالى إنما قدم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادرًا على إقامة القيامة، ولما كان الذي أثبته الله تعالى بالدليل العقلي في هذه السورة هو هذه المسألة ثبت أن النبأ العظيم الذي كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة.

وثالثها: أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله (أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبّ العالمين) وقوله: (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه فكان تخصيص اسم العظيم به لائقًا.

وقال القرطبي: والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله ﷻ "إن يوم الفصلِ كان مِيقاتًا" يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث.

قوله تعالى: {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [النبأ: ٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذي صاروا هم فيه مختلفون فريقين: فريق به مصدّق، وفريق به مكذّب. يقول تعالى ذكره: فتساؤلهم بينهم في النبأ الذي هذه

=

=

صفته".

قال ابن كثير: "يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر".

عن قتادة: {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}، قال: مصدّق ومكذّب".

قال قتادة: "صار الناس فيه رجلين: مصدّق، ومكذّب، فأما الموت فإنهم أقروا به كلهم لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت".

عن قتادة: عن النبإ {الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} البعث بعد الموت، فصار الناس فيه فريقين: مصدّق ومكذّب، فأما الموت فقد أقرّوا به لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت".

أي: الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍ في قوعه، ومكذب منكر لحصوله.

- جاء في التفسير الوسيط (الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) ما بين منكر له إنكارا تاما، كما حكى سبحانه عنهم في قوله (إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ). وما بين متردد في شأنه، كما حكى سبحانه عن بعضهم في قوله (وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ).

- فالمشركين لم يكونوا جميعًا مطبقين على أن البعث غير آت، بل كان منهم من يقر بالبعث، ومنهم من كان يتشكك في أمره، ومنهم من كان ينفيه بالكلية، فطوائف النصارى يقرون بالبعث، لكن البعث عندهم له صفات أخر، وأحداث أخر غير البعث الذي يعتقده أهل الإسلام، وكذلك طوائف من اليهود، فإنهم يقولون (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)، وهذا يفيد أنهم يقرون بالبعث، لكن له صفة معينة عندهم.

أما الذين يتشككون في أمر البعث، فكما حكى الله مقالتهم في قوله (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى).

=

=

وقال حاكيًا عن بعضهم (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا) أي: على فرض أن هناك بعثًا، فهذا الكافر يقول: لئن رددت إلى ربي فإنه قد أكرمني في الدنيا، فسيكرمني بكرامة أكبر منها في الآخرة.

وقال تعالى (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُون).

وهناك طوائف تنفي البعث مطلقًا، كما قال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم).

وقال الله سبحانه وتعالى (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ).

فكانت طائفة منهم تنكر البعث، فهذه أوجه اختلافهم في النبأ العظيم على تفسير النبأ العظيم بأنه البعث بعد الموت.

قوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [النبأ: ٤]، أي:"ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون، سيعلم هؤلاء المشركون عاقبة تكذيبهم، ويظهر لهم ما الله فاعل بهم يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون بعث الله إياهم أحياء بعد مماتهم، وتوعدهم جل ثناؤه على هذا القول منهم، فقال: سيعلم هؤلاء الكفار المنُكرون وعيد الله أعداءه، ما الله فاعل بهم يوم القيامة".

قال الزمخشري:" {كَلَّا}: ردع للمتسائلين هزؤا. {وسَيَعْلَمُونَ}، وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أنّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق، لأنه واقع لا ريب فيه. وتكرير الردع مع الوعيد تشديد في ذلك".

=

=

قال ابن كثير:"وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد".

قوله تعالى: {ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [النبأ: ٥]، أي:"سيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال".

قال الطبري:"ثم أكد الوعيد بتكرير آخر، فقال: ما الأمر كما يزعمون من أن الله غير محييهم بعد مماتهم، ولا معاقبهم على كفرهم به، سيعلمون أن القول غير ما قالوا إذا لقوا الله، وأفضوا إلى ما قدّموا من سيئ أعمالهم".

قال الزمخشري:"معنى {ثُمَّ}، الإشعار بأنّ الوعيد الثاني أبلغ من الأوّل وأشد".

قال المراغي:"وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد".

عن الضحاك: "{كَلّا سَيَعْلَمُونَ}: الكفار. {ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ}: المؤمنون، وكذلك كان يقرأها".

عن الحسن، في قوله: "{كَلّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلّا سَيَعْلَمُونَ}، قال: وعيد بعد وعيد".

قيل:"أن قوله: {ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [النبأ: ٥]، تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة فيها، فكأنه قيل: لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان، ثم قيل: بل لهم يومئذ عذاب أَشد وأشد، وثم للتفاوت في رتبة العذاب بين الردع الأَول والثاني، وقيل: إِن الجملة الأُولى تشير إِلى ما يكون عند النزع، وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء، والجملة الثانية تشير إِلى ما يكون في القيامة من زجر ملائكة العذاب، وملاقاة شديد العقاب، وعلى هذا فـ {ثُمَّ} في مكانها من إِفادة التراخي لما بين الأَمرين من البعد الزماني".

قرئتْ: «كلا ستعلمون» بالتاء. والذىَ عليه القراء: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}، بالياء".

الآية تأكيد للردع والزجر والتهديد للمكذبين للرسول ﷺ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله

=

=

العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، كما قال تعالى (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

وقال تعالى (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا).

وقال تعالى (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ).

قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا} [النبأ: ٦]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره معدّدا على هؤلاء المشركين نِعَمه وأياديه عندهم، وإحسانه إليهم، وكفرانهم ما أنعم به عليهم، ومتوعدهم بما أعدّ لهم عند ورودهم عليه من صنوف عقابه، وأليم عذابه، فقال لهم: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ} لكم {مِهادًا} تمتدونها وتفترشونها".

قال ابن كثير:"ثم شرع وتعالى يُبَيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا} ؟ أي: ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم، قارّةً ساكنة ثابتة".

عن قتادة: "{أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا}، أي: بساطا".

عن الحسن:"{الأَرْضَ مِهادًا} قال: فِراشًا".

عن سفيان، {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادًا}، قال:"فُرِشَتْ لكم".

قال ابن قتيبة: "أي: فراشا".

قال الزجاج: أي: "إنا ذللناها لهم حتى سكنوها وساروا في مناكبها".

قال السعدي:"أي: ممهدة مهيأة لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل".

قال الزمخشري:"معناه: أنها لهم كالمهد للصبي: وهو ما يمهد له فينوّم عليه".

=

=

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف اتصل به قوله: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهادا}؟، قلت: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة، فما وجه إنكار قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات. أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة. والحكيم لا يفعل فعلا عبثا، وما تنكرونه من البعث والجزاء مؤدّ إلى أنه عابث في كل ما فعل".

عن قتادة:"{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادًا} إلى قوله: {مَعاشًا}، قال: نِعمٌ من الله يعدّها عليكم، يا بني آدم؛ لِتعمَلوا لأداء شُكرها".

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) أي: ممهدة للخلائق ذلولًا لهم قارة ساكنة ثابتة مبسوطة مفروشة، فهذا استفهام على وجه التقرير معناه: أن الله جعل هذه الأرض البسيطة مهيئة للناس كالمهاد الذي يفترشونه.

والمِهاد: الوِطاء والفراش.

كما قال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا).

وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ).

وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا..).

قوله تعال: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [النبأ: ٧]

قال الطبري:"يقول: والجبال للأرض أوتادا أن تميد بكم".

قال ابن قتيبة: "أي: أوتادًا للأرض".

قال ابن كثير:"أي: جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها".

=

=

قال السعدي: "تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد".

قال سفيان: "أُوتِدَتْ بها".

أي: وجعلنا الجبال أوتادًا ثبتنا بها الأرض حتى سكنت ولم تضطرب.

- قال في التسهيل (والجبال أَوْتَادًا) شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد.

كما قال تعالى (وأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا).

- قال الألوسي (والجبال أَوْتَادًا) أي كالأوتاد ففيه تشبيه بليغ أيضًا والمراد أرسينا الأرض بالجبال كما يرسي البيت بالأوتاد.

قال الأفوه: والبيت لا يبتنى الإله عمد... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد.

- قال ابن عاشور: والأوتاد: جمع وتد بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية، والوتد: عود غليظ شيئًا، أسفله أدق من أعلاه يُدق في الأرض لتُشد به أطناب الخيمة وللخيمة، أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها.

والإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد.

قوله تعالى: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبأ: ٨]

قال مجاهد: "اثنين اثنين".

قال الطبري: أي: "ذُكرانا وإناثا، وطوالا وقصارا، أو ذوي دمامة وجمال".

قال ابن قتيبة: "أي: أصنافًا وأضدادًا".

قال الزجاج: "خلق الذكَر والأنثى، وقيل: {أزواجًا}، أي: ألوانًا".

قال ابن كثير: "يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: ٢١]".

=

=

قال السعدي: "أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المنكح".

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) أي: أصنافًا ذكورًا وإناثًا ليحصل بذلك التزاوج بين الذكر والأنثى، ويسكن كل منهما إلى الآخر ويأنس به.

كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَأُكُمْ فِيهِ).

قال أبو السعود (أزواجا) أصنافًا ذكرًا أو أُنْثَى ليسكنَ كلٌّ من الصنفينِ إلى الآخرِ وينتظمَ أمرُ المعاشرةِ والمعاشِ ويتسنَّى التناسلُ.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [النبأ: ٩]

وفي تفسير قوله تعالى: {سُبَاتًا} [النبأ: ٩]، أقوال:

أحدها: نعاسا، قاله السدي.

الثاني: سكنا، قاله قتادة.

الثالث: سباتا أي قطعا لأعمالهم، لأن أصل السبات القطع ومنه قولهم سبت الرجل شعره إذا قطعه.

قال الأنباري: "وسمي يوم السبت، لانقطاع الأعمال فيه".

الرابع: راحة ودعة، ولذلك سمي يوم السبت سبتا لأنه يوم راحة ودعة.

قال الطبري: "يقول: وجعلنا نومكم لكم راحة ودَعة، تهدءون به وتسكنون، كأنكم أموات لا تشعرون، وأنتم أحياء لم تفارقكم الأرواح، والسبت والسبات: هو السكون، ولذلك سمي السبت سبتا، لأنه يوم راحة ودعة".

=

=

قال ابن قتيبة: "أي: راحةً لأبدانكم. وأصل «السَّبْت»: التمدُّد".

قال القشيري:"أي: راحة لكم، لتنقطعوا عن حركاتكم التي تعبتم بها في نهاركم".

قال ابن كثير:"أي: قطعا للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار".

قال السعدي:"أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة".

قال الزجاج: "السُّبَاتُ: أن ينْقطع عن الحركة والروحُ في بدنه، أي جعلنا نومكم راحة لكم".

قال ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [النبأ:٩]: "وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم؛ لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم، فالله تعالى جعل النوم حاصلًا للإنسان بدون اختياره. فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل؛ لتحصل راحة لمجموعه العصبي، الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب قواه، التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم، وذلك لطف بالإنسان، بحيث يحصل له ما به منفعة مدركة قسرًا عليه؛ لئلا يتهاون به؛ ولذلك قيل: إن أقل الناس نومًا أقصرهم عمرًا، وكذلك الحيوان".

ويقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة: "النوم حاجة متكررة معروفة من حاجات الأحياء، وهو في حقيقته وفاة صغرى للنفوس، ففيه يتوقف الحس الظاهر عن العمل، فيكون النائم كالميت الذي لا يستجيب لشيء مما حوله... ومن عجيب ظاهرة النوم أنه عَرَض يتم في الإنسان من غير طريق سلطان إرادته، فهو لا يملك

=

السيطرة على النوم، وقد يتمناه محتاجًا إليه فلا يستطيعه، وقد يشتهي السهر فيغلبه سلطان النوم، وقد اتضح للباحثين من علماء الطبيعة أن النوم أهم للحياة من الطعام والشراب... وقد توصل علماء الروس من خلال تجاربهم التي أجريت على صغار الكلاب، أن الكلاب لم تستطع الحياة لأكثر من خمسة أيام بغير نوم، بينما عاشت مثيلاتها التي تنام عشرين يومًا بغير أكل"، وصدق الله إذ يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [الروم: ٢٣].

ومن آيات الله التي اكتشفها العلماء الطبيعيون في ظاهرة النوم أن ملايين الخلايا في المخ تنفصل عن مقابلاتها حالة النوم، وتتصل فتتماس ببعضها البعض حالة اليقظة، فالحادثة شبيهة بمفصل مجمع كهربائي ذي أسلاك اتصال تعد بالملايين، وكل منها يؤدي وظيفة خاصة يتصل بناحية من أنحاء المدينة العظيمة، وإذا كان كل ذي حياة مما نعرف من الأحياء بحاجة إلى النوم، فمن الذي يدبر أمر الأحياء، وهي نائمة فاقدة شعورها الظاهر... وقد أثبت علماء الأحياء أن استرخاء الجسم في حالة النوم يساعد على تنظيم الدورة الدموية ومدها بالنشاط الجديد، ليساعد ذلك على طرد ما علق في أنحاء الجسم من مواد ضارة كان الأرق أو اليقظة الطويلة السبب في علوقها وترسبها".

وهذا البيان يدلنا على أمور كثيرة منها:

- أن النوم آيات من آيات الله التي أقام عليها الكون.
- أن النوم ضروري للإنسان.
- حصول الضرر لمن يخالف الفطرة التي جبل الله الخلق عليها من التمتع بالنوم.
- أن عدم النوم بالمقدار الذي يحتاجه الإنسان منه قد يفضي به إلى الهلاك.

=

إلى غير ذلك من المعارف حول هذه الظاهرة مما كان الإنسان في عصر تنزل القرآن الكريم على جهل تام بها؛ وما ذلك إلا لكونها مصنفة وإلى زمن قريب مع الأسرار الكونية، التي لا يحيط بها علمًا إلا الله جل وعلا.

وعلى الرغم من اختلاف وجهات نظر علماء الحياة، الذين حاولوا تفسير ظاهرة النوم وبيان حقيقتها، فإن ثمة نقاط وفاق يلتقي عليها الفرقاء في هذا المضمار، وهي وفق التالي:

- النوم حالة طبيعية متكررة، يتوقف فيها الكائن الحي عن اليقظة، وتصبح حواسه معزولة نسبيًا عما يحيط به من أحداث. وكل الحيوانات على اختلاف أنواعها تنام، ويحدث عندها في تخطيط دماغها تغييرات مماثلة لما يحدث عند الإنسان.

- يحصل لمختلف أجهزة الجسم لدى النوم راحة واستجمام، ومعاودة النشاط للعمل؛ ولذلك فكلما كانت مدة النوم كافية ازدادت إمكانية الجسم للنشاط والعطاء بعده.

- تتناسب حاجة الإنسان للنوم طردًا مع مقدار ما يصيبه من تعب.

- حرمان الإنسان من النوم مضر جدًا؛ وفي حال ديمومة الحرمان من النوم، فإن الإنسان يصيبه الهلاك.

- النوم من أقوى الأسباب المعينة على تخليص الدماغ من الارتباك والإرهاق والإجهاد؛ بل ومدعاة لعافيته من بعض الظواهر المرضية التي تعتريه من التوتر والكسل والارتباك والتشتت والذهان.

- النوم له عدة أنواع منها الحالم (المتناقض) والتقليدي (الهادئ).

- يتغير معدل إفراز الهرمونات من الغدد الصم أثناء النوم.

وحول أهمية النوم يلفت الدكتور الكسيس كاريل النظر إلى ضرورة تنظيم النوم، =

=

فيقول في كتابه "الإنسان ذلك المجهول": "ينام الإنسان العصري إما أكثر، وإما أقل مما يجب، وهو لا ينسق نفسه بسهولة بالنسبة للنوم الكثير، ولكنه يدفع ثمنًا غاليًا إذا نام وقتًا قصيرًا في فترة طويلة".

ويتحدث حول فوائد النوم، ويعدد منها ما يلي:

- سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من تعب. حيث تستريح الحواس من نصب اليقظة، ويزول عنها الإعياء.
- يعين الجسم على الهضم.
- يخلص الجسم من السموم المتراكمة، كما يعيد الحيوية والنشاط إلى جميع أجزاء الجسم.
- يساعد في بناء أنسجة الجسم التالفة.
- يعتبر علاجًا للقلق والتوتر والاضطرابات العصبية.
- يعين على راحة أجهزة وأعضاء الجسم مثل القلب.
- يزداد أثناء النوم إفراز بعض الهرمونات مثل هرمون النمو).

وقد اكتشف العلماء أن النوم الجيد -وخصوصًا في الليل- يساعد على جوانب معينة من الذاكرة، وتحديدًا تنشيط استذكار ما حدث في الماضي، واستذكار التصورات.

وفي دراسة علمية قام بها باحثون من جامعة شياغو في الولايات المتحدة أثبتت أن الأرق المزمن يقلل قدرة البالغين على تأدية الوظائف الحيوية الأساسية مثل تخزين النشويات، وعمليات الدماغ، بل يؤثر على نظام إفراز الهرمونات. فقد تركوا المتطوعين ليناموا ثماني ساعات عدة أيام، ثم أربع ساعات عدة أيام أخر، فأدى ذلك إلى قلة تحمل الجلوكوز في الدم، واضطرابات في وظائف الغدد الصماء، التي تؤدي إلى أعراض مشابهة لأمراض الشيخوخة، أو المراحل

=

=

لمرض السكر، فلقد قلت قدرة هؤلاء على إفراز الأنسولين بنسبة (٣٠٪)، وأخذوا (٤٠٪) وقتًا أطول لتنظيم معدل السكر في الدم بعد وجبة دسمة من النشويات، كما

لوحظ عليهم حالات توتر وتعكر مزاجي. وهذه علامة أخرى من علامات الشيخوخة، وهذا يوضح ما يقوله العلماء، من أن الأرق له علاقة بأعراض تقدم السن، مثل السكر، واضطرابات ضغط الدم، التي تؤدي إلى الأزمات القلبية من الهرمونات الأساسية التي تتأثر بالنوم غير الصحي هرمون الكورتيزول) ويُعرف بهرمون الضغط العصبي، حيث من المفترض في الصورة الطبيعية أن يقل معدل هذا الهرمون حين الاستعداد للنوم، ويزداد عند الاستيقاظ ليساعد على النشاط والحركة، ولكن في النوم غير الصحي يرتفع الكورتيزول في الليلة التالية، وتفرز الغدة الكظرية هذا الهرمون بسهولة عند التعرض لأي ضغط أثناء النهار، وزيادة هرمون الكورتيزول لوقت طويل يمكن أن يؤدي إلى تحطم الخلايا الدماغية، وضمور في مناطق الدماغ الخاصة بالتعلم والذاكرة، كما أثبتت ذلك بعدُ الأبحاث التي أجريت على الحيوانات، كما يؤثر الأرق على هرمونات بناء العضلات وهرمون النمو، ويقلل الأجهزة المناعية للجسم.

وعلى ضوء ما تقدم يتبين أن النوم حاجة ضرورية للإنسان، وأن حرمانه منه مدعاة لهلاكه، وأن هذه الحقيقة لدى التأمل تتطابق تمامًا مع ما ورد ضمن دلالات النصوص القرآنية، الواردة بصدد النوم، وهذا التطابق التام بين ما دلت عليه النصوص الواردة في هذا الشأن مع ما توصل إليه أولئك العلماء من حقائق ثابتة ومستقرة، يدل بكل جلاء على أن القرآن الكريم -الذي وردت فيه تلك النصوص- هو كلام الله ﷻ، وأن الذي بلغنا هذا القرآن الكريم هو رسول من عند الله حقًا.

=

=

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} [النبأ: ١٠]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وجعلنا الليل لكم غشاء يتغشاكم سواده، وتغطيكم ظلمته، كما يغطي الثوب لابسه لتسكنوا فيه عن التصرّف لما كنتم تتصرّفون له نهارا، ومنه قول الشاعر:

فلمَّا لَبِسْن اللَّيْلَ أوْ حِينَ نَصَّبَتْ... له مِنْ خَذا آذانِها وَهْوَ جَانح

يعني بقوله: «لبسن الليل»: أدخلن في سواده فاستترن به".

قال ابن كثير: "أي: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: ٤]".

عن قتادة: "{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}، قال: سكنا". وروي عن سعيد بن جبير والسدي مثله.

قال ابن قتيبة: "أي: سِترًا لكم".

قال الزجاج: "أي: تسكنون فيه وهو مشتمل عليكم".

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) أي: جعلناه يغشاكم بظلامه، فيكون لكم كاللباس الذي يستركم، فتستريحون فيه بعد عناء التقلب في النهار، كما قال تعالى (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) أي: يغشى الكون والخليقة بظلامه فيسكن فيه الناس.

- قال القفال: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به، فيكون ذلك مغطيًا له، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل لباسًا لهم.

- قال ابن عاشور: أي جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية.

وتحته ثلاثة معانٍ:

أحدها: أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس، فالإنسان في الليل يختلي بشؤونه التي لا يرتكبها في النهار لأنه لا يحب أن تراها الأبصار.

=

=

المعنى الثاني: من معنيي وجه الشبه باللباس: أنه المشابهة في الرفق باللاَّبس والملاءمة لراحته، فلما كان الليل راحة للإنسان وكان محيطًا بجميع حواسه وأعصابه شُبه باللباس في ذلك.

المعنى الثالث: أن وجه شبه باللباس هو الوقاية، فاللَّيل يقي الإنسان من الأخطار والاعتداء عليه، فكان العرب لا يغير بعضهم على بعض في الليل وإنما تقع الغارة صباحًا ولذلك إذا غِير عليهم يصرخ الرجل بقومه بقوله: يا صَبَاحَاه.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [النبأ: ١١]

قال ابن عباس: "تَبتغون فيه مِن فضل الله، وما قَسم لكم مِن رزقه".

قال مجاهد: "يبتغون فيه من فضل الله ﷻ".

قال الطبري: "يقول: وجعلنا النهار لكم ضياء لتنتشروا فيه لمعاشكم، وتتصرّفوا فيه لمصالح دنياكم، وابتغاء فضل الله فيه، وجعل جلّ ثناؤه النهار إذ كان سببا لتصرّف عباده لطلب المعاش فيه معاشا، كما في قول الشاعر:

وأَخُو الهمومِ إذا الهُمُومُ تَحَضرَتْ... جُنْحَ الظَّلامِ وِسادُهُ لا يَرْقُدُ

فجعل "الوساد" هو الذي لا يرقد، والمعنى: لصاحب الوساد".

قال ابن كثير: "أي: جعلناه مشرقا مُنيرًا مضيئًا، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك".

قال الزمخشري: "ولما جعل النوم موتا، جعل اليقظة معاشا، أي: حياة في قوله {وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشًا}، أي: وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. وقيل: السبات الراحة لِباسًا يستركم عن العيون إذا أردتم هربا من عدوّ، أو بياتا له. أو إخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور:

وكم لظلام اللّيل عندك من يد... تخبّر أنّ المانويّة تكذب".

أي: وجعلناه مشرقًا نيرًا ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء

=

=

للمعاش.

كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا).

فمن دلائل كمال قدرة الله وعظيم نعمه جعل الليل وقتًا للنوم والنهار وقتًا لطلب المعاش كما قال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ).

قوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [النبأ: ١٢]

قال الزجاج: "أي: سبعَ سمواتٍ".

قال السعدي:"أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم".

قال الطبري: أي:"وسقفنا فوقكم، فجعل السقف بناء، إذ كانت العرب تسمي سقوف البيوت - وهي سماؤها - بناءً وكانت السماء للأرض سقفا، فخاطبهم بلسانهم إذ كان التنزيل بِلسانهم، وقال {سَبْعًا شِدَادًا} إذ كانت وثاقا محكمة الخلق، لا صدوع فيهنّ ولا فطور، ولا يبليهنّ مرّ الليالي والأيام".

قال ابن كثير:"يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات".

قال مقاتل:"يعني: بالسبع السموات وغلظ كل سماء مسيرة عام، وبين كل سماءين مثل ذلك، نظيرها في المؤمنين: {خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ} [المؤمنون: ١٧]، قوله: «شدادا» قال: وهي فوقكم يا بني آدم فاحذروا، لا تخر

=

=

عليكم إن عصيتم".

قال السمعاني:"أي: السَّمَاوَات السَّبع.، {شَدَّاد}، أي: صلبة، وَفِي الْآثَار: أَن غلط كل سَمَاء مسيرَة خَمْسمِائَة عَام".

قال الزمخشري:" {شِداداً}: جمع شديدة، يعنى: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان".

عن ابن عباس: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}، قال: "يريد: سبع سماوات".

عن مجاهد: {ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق} [المؤمنون: ١٧]، يعني: «سبع سموات»".

عن قتادة في قوله: {فسواهن سبع سماوات}، قال: بعضهن فوق بعض، بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام".

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات، لا فطور فيها ولا شقوق ولا خلل.

كما قال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ).

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ).

وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [النبأ: ١٣]

قال الطبري:" وجعلنا الشمس وقادا مضيئا".

=

=

قال ابن قتيبة: "أي: وَقَّادًا؛ يعني: الشمسَ".

قال الزجاج:"أي: جعلنا فيها الشمس سراجًا وَقَّادًا".

قال القشيري:"أي: الشمس، جعلناها سراجا وقّادا مشتعل".

قال ابن كثير:"يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم".

قال السعدي:"نبه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح".

عن مجاهد: "{سِرَاجًا وَهَّاجًا}، قال: يتلألأ".

قال سفيان:"يتلألأ ضوءه".

عن ابن عباس: "{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}، يقول: مضيئا".

قال ابن عباس:"يقول: سراجا منيرا".

قال قتادة:"الوهاج: المنير".

قال عطاء الخراساني:"الوهج: المنير".

قال مقاتل:"يقول: جعل فيها نورا وحرا".

أي: وجعلنا في السماء الشمسَ كالسراج المتقد المضيء، فتعم الكون بمنافعها وبدفئها وحرارتها.

كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

- جاء في التفسير الوسيط: والمراد بالسراج الوهاج: الشمس، وصفت بكونها سراجا، لأنها كالمصباح في إضاءته لما حوله. ووصف السراج بأنه وهاج، مبالغة في شدة ضيائه ولمعانه، من الوهج- بفتح الواو والهاء- بمعنى شدة الضياء..

=

=

والكلام على التشبيه البليغ، والمقصود منه تقريب صفة المشبه إلى الأذهان، وإلا فالشمس أعظم من كل سراج.

أي: وأنشأنا وأوجدنا- بقدرتنا ومنتنا- في السماء، سراجا زاهرا مضيئا.. هو الشمس المتوهجة من شدة حرارتها وضيائها، والتي تشرق على هذا الكون فتحول ظلامه إلى نور، بقدرته- تعالى-.

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا} [النبأ: ١٤]، أي:"وأنزلنا من السحب الممطرة ماء منصَبّا بكثرة".

وفي معنى «المعصرات»، أقوال:

أحدها: أن «المعصرات»: الرياح، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكلبي، وزيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن.

قال ابن كثير:"ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب".

عن عكرِمة:"أنه كان يقرأ: «وأنزلْنا بالمُعْصِرَاتِ»، يعني: الرياح".

قال قتادة:"هي في بعض القراءات: {وَأنزلْنا بالمُعْصِرَات}: الرياح".

قال ابن زيد:"المعصرات: الرياح، وقرأ قول الله: {الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...} إلى آخر الآية".

قال الأزهري: "سميت الرياح «مُعْصِرات»: إذا كانت ذوات أعاصير، واحدها: إعصار".

الثاني: أنها السحاب، قاله عكرمة-أيضا-، وأبو العالية، وسفيان، والربيع، والضحاك، والحسن، وهو رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن قتيبة، والزجاج.

قال القاسم بن سلام:"«المعصرات»: السحاب الواحد معصرة -بلغة قريش-".

قال ابن قتيبة:"يقال: شُبّهتْ بمَعَاصِير الجواري. والمُعْصِرُ: الجاريةُ التي دَنت

=

=

من الحيض".

قال الزجاج: "المعصرات: السحائب، لأنها تعصر الماء وقيل المعصرات كما يقال: قد أَجَزَّ الزرْعُ فهو مُجَزّ، إذا صار إلى أن يمطر. فقد أَعْصَر".

قال النحاس:"أولاهما أن يكون «السحاب» لقوله جلّ وعزّ: {الْمُعْصِراتِ}، ولم يقل: «بالمعصرات»".

عن ابن مسعود قال: "يرسل الله سبحانه الرياح، فتأخذ الماء فتجريه في السحاب، فتدر كما تدرّ اللّقحة".

وعن ابن عمرو وعن قيس بن سكن قال: قال عبد الله في قوله: "{وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجًا}، قال: بعث الله سبحانه الريح فحمل الماء من الماء فتدرّ كما تدر اللقحة، ثم يبعث الماء كأمثال العزالي فتضرب به الرياح فينزل متفرّقا".

قال المبرّد: "المعصرات: القاطرات".

وقال ابن كيسان: "المغيثات، من قوله: {وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٩]".

وقال المازني: "أعصرت السحابة، إذا ارتفع لها غبار شديد، وهو الإعصار".

الثالث: أن «المعصرات»: السماوات، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة- أيضا-، وزيد بن أسلم، وأبيّ بن كعب، ومقاتل بن حيان.

عن قتادة:"{وَأَنزلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، قال: من السموات".

قال قتادة:"من السماء".

قال ابن كثير: "وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال الله تعالى: {اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} [الروم: ٤٨] أي: من بينه".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه أنزل من المعصرات - وهي التي قد تحلبت بالماء من السحاب - ماء، وإنما قلنا ذلك

=

=

أولى بالصواب؛ لأن القول في ذلك على أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرت، والرياح لا ماء فيها فينزل منها، وإنما ينزل بها، وكان يصحّ أن تكون الرياح لو كانت القراءة: «وَأنزلنا بالمُعْصِرَاتِ» فلما كانت القراءة: {مِنَ الْمُعْصِرَاتِ} علم أن المعنيّ بذلك ما وصفت. فإن ظنّ ظانّ أن الباء قد تعقب في مثل هذا الموضع من قيل ذلك، وإن كان كذلك، فالأغلب من معنى "من" غير ذلك، والتأويل على الأغلب من معنى الكلام. فإن قال: فإن السماء قد يجوز أن تكون مرادا بها. قيل: إن ذلك وإن كان كذلك، فإن الأغلب من نزول الغيث من السحاب دون غيره".

وفي «الثجاج»، قولان:

أحدهما: الكثير. قاله الحسن، وابن زيد، وابن وهب.

قال الحسن: "الثّجاج: الماء الكثير يُنبتُ الله به الحَبّ".

قال السعدي: "أي: كثيرا جدا".

قال الطبري: "ولا يُعرف في كلام العرب من صفة الكثرة «الثجّ»، وإنما الثجّ: الصب المتتابع. ومنه قول النبيّ ﷺ: «أفْضَلُ الحَجِّ الْعَجُّ والثجّ»، يعني بالثج: صبّ دماء الهدايا والبُدن بذبحها، يقال منه: ثججت دمه، فأنا أثجُّه ثجا، وقد ثجَّ الدم، فهو يثجّ ثجوجا".

الثاني: المنصبّ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع، وبه قال مقاتل، وابن قتيبة، والزجاج، والطبري. ومنه قول عبيد بن الأبرص:

فثجّ أعلاه ثم ارتج أسفلُه... وضاق ذَرْعًا بحمل الماء مُنْصاحِ

قال النحاس: "المعروف في كلام العرب يقال: ثجّ الماء ثجوجا إذا انصبّ، وثجّه فلان ثجا، إذ صبّه صبّا متتابعا".

قال القاسم بن سلام: "«ثجاجا»، يعني: رشاشا -بلغة الأشعريين-".

=

=

قال الربيع:"مُنصبًّا".

قال قتادة:"الثجاج: المنصب"

وقال عكرمة:"صبًّا. أو قال: كثيرًا".

قال قتادة:"مُتتابعًا يتلو بعضه بعضًا".

قال ابن عباس:"ماء من السماء منصبا".

وقال سفيان:"متتابعا".

وقال مجاهد: "مدرارا".

قال ابن قتيبة:"أي: سَيَّالا".

قال الطبري:"ماء منصبا يتبع بعضه بعضا كثجّ دماء البدن، وذلك سفكها".

قال مقاتل:"يعني: مطرا كثيرا منصبا يتبع بعضه بعضا، وذلك أن الله- ﷻ- يرسل الرياح فتأخذ الماء من سماء الدنيا من بحر الأرزاق، ولا تقوم الساعة ما دام به قطرة ماء، فذلك قوله: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: ٢٢]، قال: تجيء الريح فتثير سحابا فتلحقه ثم تمطر وتخرج الريح والمطر جميعا من خلل السحاب".

قال الواحدي:"الثج: شدة الانصباب، يقال: مطر ثجاج، ودم ثجاج أي: صباب، و «الثجاج» -في هذه الآية-: المتدفق المنصب".

- ومع إنزاله ﷻ هذا الماء بكثرة وغزارة فهو مقدر كما قال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ) وقال تعالى (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

- قال الرازي: أي مُنصبًّا بكثرةٍ، يقالُ ثجَّ الماءُ أي سالَ بكثرةٍ وثجَّه أيْ أسالَه، ومنه قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ (أفضلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ) أي: رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ وصبُّ دماءِ الهَدي.

=

=

قوله تعالى: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا} [النبأ: ١٥].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لنخرج بالماء الذي ننزله من المعصرات إلى الأرض حبا، والحب كل ما تضمنه كمام الزرع التي تحصد، وهي جمع حبة، كما الشعير جمع شعيرة، وكما التمر جمع تمرة: وأما النبات فهو الكلأ الذي يُرْعى، من الحشيش والزروع".

قال ابن كثير:"أي: لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبَارَك {حَبًّا} يدخر للأناسي والأنعام، {وَنَبَاتًا}، أي: خضرًا يؤكل رطبا".

قال مقاتل:"يعني بـ «الحبوب»: كل شيء يزرع ويحصد من البر والشعير والسمسم ونحوها من الحبوب، قال: {ونباتا}، يعني: كل شيء ينبت في الجبال والصحارى من الشجر والكلأ فذلك النبات، وهي تنبت عاما بعام من قبل نفسها".

قال الزجاج:"كل ما حصد فهو: حَبٌّ، وكل ما أكلته الماشية من الكلأ فهو: نَبَات".

وقال عكرمة:"ما أنزل الله من السماء قطرا، إلا نبت به في البحر لؤلؤا، وفي الأرض عشبا".

أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع (حَبًّا) وهو شامل لجميع الحبوب، كالقمح والشعير والأرز وغيرها مما يأكله الناس الأنعام، (وَنَبَاتًا) أي: ونخرج النبات، وهو ما عدا الحبوب ما ينبت في الأرض، كالنخيل والرمان والأعناب وغيرها.

قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا).

=

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧).

{إِنَّ يَوْم الْفَصْل} بَيْن الْخَلَائِق {كَانَ مِيقَاتًا} وَقْتًا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَاب.

=

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ: ١٦]، أي:"وبساتين ملتفة بعضها ببعض لتشعُّب أغصانها".

قال الطبري:"يقول: ولنخرج بذلك الغيث جنات ملتفة مجتمعة".

قال مقاتل:"يعني: وبساتين ملتفة بعضها إلى بعض من كثرة الشجر".

قال ابن كثير:"{وَجَنَّاتٍ}، أي: بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذهلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا؛ ولهذا قال: {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} قال ابن عباس، وغيره: {أَلْفَافًا} مجتمعة. وهذه كقوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ} الآية [الرعد: ٤]".

قال الزجاج:"أي: وبساتين ملتفة، فأعلم الله ﷻ ما خلق وأنه قادِرٌ على البعث".

قال السعدي:"أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة، فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عددها، كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟".

عن ابن عباس: "{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}، قال: مجتمعة".

قال ابن عباس:"وجنات التفّ بعضها ببعض".

عن مجاهد، وسفيان: "{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}، قال: ملتفة".

قال قتادة:"التفّ بعضها إلى بعض".

قال ابن زيد:"هي الملتفة، بعضها فوق بعض".

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨).

{يَوْم يُنْفَخ فِي الصُّور} الْقَرْن بَدَل مِنْ يَوْم الْفَصْل أَوْ بَيَان لَهُ وَالنَّافِخ إِسْرَافِيل {فَتَأْتُونَ} مِنْ قُبُوركُمْ إِلَى الْمَوْقِف {أَفْوَاجًا} جَمَاعَات مختلفة.

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩).

{وَفُتِحَتْ السَّمَاء} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف شُقِّقَتْ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَة {فَكَانَتْ أَبْوَابًا} ذَات أَبْوَاب.

وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠).

{وَسُيِّرَتْ الْجِبَال} ذُهِبَ بِهَا عَنْ أَمَاكِنهَا {فَكَانَتْ سَرَابًا} هَبَاء أَيْ مِثْله فِي خِفَّة سَيْرهَا.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١).

{إِنَّ جَهَنَّم كَانَتْ مِرْصَادًا} رَاصِدَة أَوْ مُرْصَدَة.

لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢).

{لِلطَّاغِينَ} الْكَافِرِينَ فَلَا يَتَجَاوَزُونَهَا {مَآبًا} مَرْجِعًا لَهُمْ فيدخلونها.

لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣).

{لَابِثِينَ} حَال مُقَدَّرَة أَيْ مُقَدَّرًا لُبْثهمْ {فِيهَا أَحْقَابًا} دُهُورًا لَا نِهَايَة لَهَا جَمْع حُقْب بضم أوله.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤).

{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا} نَوْمًا فَإِنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَهُ {وَلَا شَرَابًا} مَا يُشْرَب تَلَذُّذًا.

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥).

{إِلَّا} لَكِنْ {حَمِيمًا} مَاء حَارًّا غَايَة الْحَرَارَة {وغساقا} بالتخفيف والتشديد ما يسيل عن صَدِيد أَهْل النَّار فَإِنَّهُمْ يَذُوقُونَهُ جُوزُوا بِذَلِكَ.

جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦).

{جَزَاء وِفَاقًا} مُوَافِقًا لِعَمَلِهِمْ فَلَا ذَنْب أَعْظَم مِنْ الْكُفْر وَلَا عَذَاب أَعْظَم مِنْ النَّار.

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧).

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ} يَخَافُونَ {حِسَابًا} لِإِنْكَارِهِمْ البعث.

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨).

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الْقُرْآن {كِذَّابًا} تَكْذِيبًا.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩).

{وَكُلّ شَيْء} مِنْ الْأَعْمَال {أَحْصَيْنَاهُ} ضَبَطْنَاهُ {كِتَابًا} كَتْبًا فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ لِنُجَازِيَ عَلَيْهِ وَمِنْ ذَلِكَ تَكْذِيبهمْ بِالْقُرْآنِ.

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠).

{فَذُوقُوا} أَيْ فَيُقَال لَهُمْ فِي الْآخِرَة عِنْد وُقُوع الْعَذَاب ذُوقُوا جَزَاءَكُمْ {فَلَنْ نَزِيدكُمْ إِلَّا عَذَابًا} فَوْق عَذَابكُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ: ١٧]، أي:"إن يوم الفصل بين الخلق، وهو يوم القيامة، كان وقتًا وميعادًا محددًا للأولين والآخرين".

قال ابن عطية:"«يَوْمَ الْفَصْلِ»: هو يوم القيامة، لأن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل. و «الميقات» مفعال من الوقت، كميعاد من الوعد".

قال السمعاني:"أَي: ميعادا لِلْخَلَائِق، وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن يوم يفصل الله فيه بين خلقه، فيأخذ فيه من بعضهم لبعض، كان ميقاتًا لما أنفذ الله لهؤلاء المكذّبين بالبعث، ولضربائهم من =

=

الخلق".

قال الزمخشري:"كانَ مِيقاتًا كان في تقدير الله وحكمه حدّا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدا للخلائق ينتهون إليه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، كما قال: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [هود: ١٠٤]".

قال قتادة:"وهو يوم عظَّمه الله، يفصِل الله فيه بين الأوّلين والآخرين بأعمالهم".

قال الراغب:"الوَقْتُ: نهاية الزمان المفروض للعمل، ولهذا لا يكاد يقال إلّا مقدّرا نحو قولهم: وَقَّتُّ كذا: جعلت له وَقْتًا".

يخبر تعالى عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله.

كما قال تعالى (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ).

وقال تعالى (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ).

- وفي هذا رد على من أنكر البعث أو استعجل العذاب.

- قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا وميعادًا للأولين والآخرين.

قوله تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [النبأ: ١٨]، أي:"يوم ينفخ المَلَك في «القرن» إيذانًا بالبعث".

قال الطبري:"هو قَرْن يُنْفَخ فيه".

قال قتادة:"الصُّور: الخَلق".

=

وفي «الصور» قولان:

أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيْتٍ.

واعتلوا لقولهم ذلك بقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]، وبالخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور: "هو قرن يُنفخ فيه".

وقال مجاهد: "الصور كهيئة البوق".

وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد:

نحن نطحنا غداة الجمعين... بالضابحات في غبار النقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصورين.

وأنشد الفراء:

لَوْلا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ تُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُمْ... وَلا خُرَاسَانَ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ

رجّحه البغوي ، وقال ابن الجوزي: "وهذا اختيار الجمهور".

والثاني: أن {الصور}، جمع: «صورة»، يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء والمراد نفخ الأرواح في صور الناس، قاله الحسن ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وارتضاه البخاري ، قال النابغة:

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة... ترى كلّ ملك دونها يتذبذب

قال ابن قتيبة: "السورة في هذا البيت سورة المجد. وهي مستعارة من سورة البناء".

وقال العجّاج:

فربّ ذى سرادق محجور... سرت إليه في أعالي السّور

=

ومنها: سورة المجد أعاليه، وقال جرير:

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت... سور المدينة والجبال الخشّع

وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو مجلز، وأبو المتوكل: «في الصور» بفتح الواو.

قال ثعلب: "الأجود أن يكون {الصور}: القرن، لأنه قال ﷻ: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض}، ثم قال: {ثم نفخ فيه أخرى}، ولو كان الصور، كان: ثم نفخ فيها، أو فيهن، وهذا يدل على أنه واحد، وظاهر القرآن يشهد أنه ينفخ في الصور مرتين".

قال ابن عباس: "يعني: بالصور: النفخة الأولى، ألم تسمع أنه يقول: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى يعني الثانية فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]".

قال ابن عطية:"«الصور»: القرن الذي ينفخ فيه لبعث الناس. هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أن يكون «الصور» فيه جمع: صورة، أي يوم يرد الله فيه الأرواح إلى الأبدان، هذا قول بعضهم في الصُّورِ وجوزه أبو حاتم، والأول أشهر وبه تظاهرت الآثار، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى [الزمر: ٦٨]".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن إسرافيلَ قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ» ، وأنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه»".

قوله تعالى: {فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ: ١٨]، أي:"فتأتون أممًا، كل أمة مع إمامهم".

قال الطبري:"يقول: فيجيئون زمرا زمرا، وجماعة جماعة.. لأن كلّ أمة أرسل

=

=

الله إليها رسولا تأتي مع الذي أرسل إليها كما قال: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم}".

قال الزمخشري:"من القبور إلى الموقف أمما كل أمّة مع إمامهم. وقيل: جماعات مختلفة".

قال الزجاج:"أي: تأتي كل أمة مع إمَامِهِم".

عن مجاهد، قوله: "{أَفْوَاجًا}، قال: زُمرًا زُمرًا".

قال مقاتل:"يعني: زمرا زمرا، وفرقا فرقا، وأمما أمما".

قال ابن عطية:"«الأفواج»: الجماعات يتلو بعضها بعضا، واحدها فوج".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما بين النفختين أربعون" قالوا: أربعون يومًا؟ قال: "أبيتُ". قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: "أبيت". قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبيت". قال: "ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عظمًا واحدا، وهو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة".

قوله تعالى: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ} [النبأ: ١٩].

قال الطبري: يقول:"وشققت السماء فصدّعت".

قال مقاتل:"يعني: وفرجت السماء، يعني: وفتقت السماء فتقطعت".

قال الزجاج:"أي: تشققت كما قال ﷻ: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}، {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}".

قال السمعاني:"أي: جعلت طرقا".

قوله تعالى: {فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: ١٩]، أي:"فكانت ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة".

قال ابن كثير:"أي: طرقا ومسالك لنزول الملائكة".

=

=

قال مقاتل:"يعني خللا خللا فشبهها الله بالغيم إذا انكشف بعد المطر، ثم تهيج به الريح الشمال الباردة فينقطع فيصير كالأبواب".

قال الطبري: يقول:"فكانت طُرقا، وكانت من قبل شدادا لا فطور فيها ولا صدوع. وقيل: معنى ذلك: وفُتحت السماء فكانت قِطعا كقطع الخشب المشقَّقة لأبواب الدور والمساكن، قالوا: ومعنى الكلام: وفُتحت السماء فكانت قِطعا كالأبواب".

قال ابن عطية:"قيل: معناه: تتفطر وتتشقق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدارات".

قال الثعلبي:"قيل: شقت حتى جعلت كالأبواب قطعا، وقيل: تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق وقيل: إنّ لكل عبد بابين في السماء: باب لعمله وباب لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب".

عن ابن جريج في قوله: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ} [الحاقة: ١٦]، قال: ذلك قوله: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: ١٩]".

قوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [النبأ: ٢٠]، أي:"ونسفت الجبال بعد ثبوتها".

قال الطبري: "يقول: ونُسفت الجبال فاجتثت من أصولها".

قال مقاتل:"يعني: وانقلعت الجبال من أماكنها، فطارت بين السماء والأرض من خشية الله".

عن مجاهد:"{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}، قال: ذهبت".

قوله تعالى: {فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ٢٠]، أي:"فكانت كالسراب".

قال الطبري: "فصيرت هباء منبثا، لعين الناظر، كالسراب الذي يظنّ من يراه من بُعد ماء، وهو في الحقيقة هباء".

قال الزمخشري:"يعنى: أنها تصير شيئا كلا شيء، لتفرّق أجزائها وانبثات

=

=

جواهرها".

قال ابن كثير:"أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه: ١٠٥ – ١٠٧] وقال: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [الكهف: ٤٧]".

قال القاسمي:"أي: رفعت من أماكنها في الهواء. وذلك إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء. وفي الآية تشبيه بليغ. والجامع أن كلا منهما يرى على شكل شيء، وليس به. فالسراب يرى كأنه بحر

وليس كذلك. والجبال إذا فتتت وارتفعت في الهواء، ترى كأنها جبال وليست بجبال. بل غبار غليظ متراكم، يرى من بعيد كأنه جبل".

قال مقاتل:"يعني: مثل السراب الذي يكون بالقاع يحسبه الظمآن ماء، فإذا أتاه لم يجده شيئا، فذلك قوله: {تَحْسَبُهَا جَامِدَة} [النمل: ٨٨]،يعنى: من بعيد يحسبها جبلا قائما، فإذا انتهى إليه ومسه لم يجده شيئا، فتصير الجبال أول مرة كالمهل، ثم تصير الثانية كالعهن المنفوش، ثم تذهب فتصير لا شيء فتراها تحسبها جبالا، فإذا مسستها لم تجدها شيئا، فذلك قوله: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [النبأ: ٢٠]، يعني: انقطعت الجبال من خشية الله– ﷻ– يوم القيامة {فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ٢٠]، فما حالك يا بن آدم؟".

عن عامر الشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، قالوا:"السّراب كهيئة الآل".

أي: وسيرت الجبال العظيمة العالية بعد أن كانت راسية ثابتة لا تتحرك.

كما قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ).

وقال تعالى (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا).

=

=

وقال تعالى (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ).

(فَكَانَتْ سَرَابًا) أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، والمعنى: أن الجبال تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر كما قال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا).

ولهذا قال تعالى (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) أي: بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحدًا، بل الخلق كلهم ظاهرون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية، ومفهوم الآية أن الأرض الآن غير بادية لوجود الأشجار والأبنية والجبال وغيرها.

- قال الشوكاني: وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول:

أوّل أحوالها الاندكاك، وهو قوله (وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة).

وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله (وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش).

وثالث أحوالها أن تصير كالهباء، وهو قوله (وَبُسَّتِ الجبال بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا).

ورابع أحوالها: أن تنسف وتحملها الرياح، كما في قوله (وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب).

وخامس أحوالها أن تصير سرابًا أي: لا شيء، كما في هذه الآية.

قوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} [النبأ: ٢١]، أي:"إن جهنم كانت يومئذ ترصد أهل الكفر الذين أُعِدَّت لهم".

قال الطبري: "إن جهنم كانت ذات رَصْد لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها. ومعنى الكلام: إن

=

=

جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصُدهم".

قال الزجاج:"أي: يَرْصُدُ أَهلَ الكفر ومن حق عليه العذاب. تكاد تميز من الغيظ، فلا يجاوزها من حقت عليه كلمة العذاب".

قال ابن كثير:"أي: مرصدة مُعَدّة، {لِلطَّاغِينَ}، وهم: المَرَدة العصاة المخالفون للرسل".

قال الثعلبي:"طريقا وممرا فلا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار".

قال الزمخشري:"المرصاد: الحدّ الذي يكون فيه الرصد. والمعنى: أن جهنم هي حدّ الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب وهي مآبهم. أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها، لأن مجازهم عليها، وهي مآب للطاغين".

عن قتادة، قوله: "{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}: يُعْلِمُنا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى يَقطَع النار".

عن سفيان:"{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}، قال: عليها ثلاث قناطر".

روي أن الحسن تلا هذه الآية: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}، وقال:"ألا إنّ على الباب الرّصَد، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز احتبس".

قال الحسن:"لا يدخل الجنة أحد حتى يجتاز النار".

- قال القرطبي: والرصد كل شي كان أمامك.

- وجهنم اسم من أسماء النار، سميت بذلك لجهمتها وظلمها وبعد قعرها.

قوله تعالى: {لِلطَّاغِينَ مَآبًا} [النبأ: ٢٢]، أي:"للكافرين مرجعًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن جهنم للذين طَغَوا في الدنيا، فتجاوزوا حدود الله استكبارا على ربهم كانت منزلا ومرجعا يرجعون إليه، ومصيرا يصيرون إليه يسكنونه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونزلا".

عن قتادة: "{لِلطَّاغِينَ مَآبًا}، أي: منزلا ومأوى".

قال سفيان:"مرجعا ومنزلا".

قال الزجاج:"معنى {مَآبًا}: إليها يرجعون".

قال مقاتل:"يعنى للمشركين مرجعا إليها. نزلت في الوليد بن المغيرة".

(لِلْطَّاغِينَ) وهم المردة العصاة المخالفون للرسل.

الطاغي: هو من تجاوز الحد.

(مَآبًا) أي: مرجعًا ومصيرًا ومأوى.

كما قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى).

وقال تعالى (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا).

وقال تعالى (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ).

قوله تعالى: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣].

قال الطبري: يقول: "إن هؤلاء الطاغين في الدنيا لابثون في جهنم، فماكثون فيها أحقابا".

قال ابن كثير:"أي: ماكثين فيها أحقابا، وهي جمع «حقُب»، وهو: المدة من الزمان".

واختلفوا في مدة «الحقب»، على أقوال:

أحدها: ثمانون سنة، قاله ابن عباس، وأبو هريرة، وعبد الله بن عَمرو، وهلال الهَجرِيّ، وسعيد بن جبير، وعَمرو بن ميمون، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحاك.

قال أبو هريرة:"الحُقب: ثمانون سنة، والسنة: ستون وثلاث مئة يوم، واليوم: ألف سنة".

=

=

عن سالم بن أبي الجعد، قال: "قال عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهلال الهَجرِيّ: ما تجدون الحُقْب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجد ثمانين سنة كل سنة اثنا عشر شهرا، كل شهر ثلاثون يوما، كل يوم ألف سنة".

عن ابن عباس، قال: "الحُقْب: ثمانون سنة".

قال سعيد بن جبير:"الحقب: ثمانون سنة، السنة: ثلاث مئة وستون يوما، اليوم: سنة أو ألف سنة. -الطبري يشكّ-".

قال قتادة:"بلغنا أن الحقب ثمانون سنة من سني الآخرة".

عن قتادة، قال الله: "{لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، وهو ما لا انقطاع له، كلما مضى حُقْب جاء حُقْب بعده. وذُكر لنا أن الحُقْب ثمانون سنة".

قال الربيع بن انس:"لا يعلم عدّة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحُقْب الواحد: ثمانون سنة، والسنة: ثلاث مئة وستون يوما، كل يوم من ذلك ألف سنة".

الثاني: أربعون سنة، قاله ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو.

روي عن طارق بن عبد الرحمن: "دعاني شيخ بين الصفا والمروة فإذا عنده كتاب عبد الله بن عمرو {لابِثِينَ فِيها أَحْقابًا}، أن الحقب أربعون سنة كلّ يوم منها ألف سنة".

الثالث: سبعون سنة، قاله الحسن ، والسدي.

قال السّدي:"{لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} سبعمائة حُقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم كألف سنة مما تعدون".

الرابع: أن الحقب: بضع وثمانون سنة. رواه ابن عمر مرفوعا.

عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: "والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا". قال: والحُقْب: بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون".

=

=

الخامس: أنه ألف شهر، رواه أبو أمامة مرفوعًا.

وأخرج ابن أبي حاتم:"بسند ضعيف عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، قال: الحقب: ألف شهر، والشهر ثلاثون يوما، والسنة اثنا عشر شهر، والشهر ثلاثمائة وستون يوما، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحقب ثمانون ألف سنة".

السادس: ثلاثمائة سنة، قاله بشير بن كعب، وأبيّ بن كعب.

قال بشير بن كعب:"بلغني أن الحُقب ثلاث مئة سنة، كلّ سنة ثلاث مئة وستون يوما، كل يوم ألف سنة".

السابع: سبعون ألف سنة، قاله الحسن.

قال الحسن:"أما الأحقاب، فلا يَدرِي أحد ما هي، وأما «الحُقْب الواحد»: فسبعون ألف سنة، كلّ يوم كألف سنة".

عن سالم، قال: "سمعت الحسن يُسْأل عن قول الله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، قال: أما الأحقاب فليس لها عدّة إلا الخلود في النار؛ ولكن ذكروا أن الحُقْب الواحد سبعون ألف سنة، كلّ يوم من تلك الأيام السبعين ألفا كألف سنة مما تَعُدّون".

الثامن: أن الحقب الواحد: سبع عشرة ألف سنة. قاله مقاتل بن حيان.

التاسع: أي: أحقابا لا انقطاع لها. وهذا قول قتادة، وبه قال قطرب، والنحاس.

قال الماوردي:"يعني: كلما مضى حقب جاء حقب، وكذلك إلى الأبد".

قال قطرب: أي:"دهر طويل غير محدود".

وحكي الثعلبي عن آخرين: أنه" اسم للزمان والدّهر وليس له حد".

عن قتادة، قال الله: "{لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، وهو ما لا انقطاع له، كلما مضى حُقْب جاء حُقْب بعده..".

وروى أبو الضحى عن ابن مسعود قال: "لا يعلم عدد الأحقاب إلّا الله ﷻ".

=

=

قال مقاتل:"يعني: الأزمنة والأحقاب لا يدري عددها، ولا يعلم منتهاها إلا الله- عَجَّلَ-".

قال النحاس:"فمن أحسن ما قيل فيها أن قتادة قال: «لابِثِينَ فِيها أَحْقابًا لا انقطاع لها»، فعلى هذا التقدير يكون الجمع وحقبة حقب، وأحقاب جمع الجمع كما قال:

وكنّا كندماني جذيمة حقبة... من الدّهر حتّى قيل لن يتصدّعا".

قال الحسن: "إنّ الله سبحانه لم يذكر شيئا إلّا وجعل له مدّة ينقطع إليها ولم يجعل لأهل النار مدّة بل قال: {لابِثِينَ فِيها أَحْقابًا}، فو الله ما هو إلّا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر ثم آخر كذلك إلى أبد الآبدين فليس للأحقاب عدة إلّا الخلود في النار، ولكن قد ذكروا أن الحقب الواحد سبعون ألف سنة كل يوم منها ألف سنة ممّا نعده".

وفي تعليق لبثهم بالأحقاب قولان:

أحدهما: أن هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب، وليس ذلك بحد لخلودهم في النار، ولو أنه قال: لابِثِينَ فِيها عشرة أحقاب أو خمسة دل على غاية، هذا قول ابن قتيبة ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال ابن الجوزي:"وبيانه أن زمان أهل الجنة والنار يُتَصَوَّرُ دخوله تحت العدد، وإن لم يكن له غاية. كقوله: بكرة وعشيا، مثل هذا أنّ كلمات الله تعالى داخلة تحت العدد وإن لم تكن لها نهاية".

قال ابن قتيبة: "يقال: الْحُقْبُ: ثمانون سنة. وليس هذا مما يدلُّ على غايةٍ، كما يظن بعض الناس. وإنما يدُلُّ على الغاية التوقيتُ: خمسة أحقاب أو عشرة. وأراد: أنهم يَلْبَثُون فيها أحقابًا، كلَّما مضى حُقْبٌ تَبِعه حقبٌ آخرُ".

قال الزمخشري:"حقبا بعد حقب، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية، ولا

=

=

يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها، والاشتقاق يشهد لذلك. ألا ترى إلى حقيبة الراكب، والحقب الذي وراء التصدير".

الثاني: أن المعنى: أنهم يلبثون فيها أحقابًا لا يَذُوقُونَ في الأحقاب بَرْدًا وَلا شَرابًا فأما خلودهم في النار فدائم، وبيانه أن الأحقاب حَدٌّ لعذابهم بالحميم والغَسّاق، فإذا انقضت الأحقاب عُذِّبوا بغير ذلك من العذاب. وهذا قول الطبري ، والزجاج.

قال الطبري:"يحتمل أن يكون معنى ذلك: لابثين فيها أحقابا في هذا النوع من العذاب هو أنهم: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}، فإذا انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه: (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية".

قال الزجاج:"«الأحقاب» واحدها: حُقْب، و «الحقب»: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، وكل شهر ثلاثون يومًا، وكل يوم مقداره ألف سنة من سني الدنيا، والمعنى: أنهم يلبثون أحقابًا لاَ يَذُوقُون في الأحقاب بردًا ولا شرابًا، وهم خالدون في النار أبدًا كما قال ﷻ: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}".

وروي عن عمرو بن أبي سَلَمة، قال: "سألت أبا معاذ الخراساني، عن قول الله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}؟ فأخبرنا عن مقاتل بن حَيان، قال: منسوخة، نسختها: {فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}".

قال الطبري: "ولا معنى لهذا القول؛ لأن قوله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} خبر، والأخبار لا يكون فيها نسخ، وإنما النسخ يكون في الأمر والنهي".

وروي عن خالد بن معدان في قوله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، وقوله: {إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة".

=

=

قال ابن عطية:"ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: «الحقب سبعة عشر ألف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالى: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذابًا} [النبأ: ٣٠]»، وقد ذكرنا فساد هذا القول، وقال آخرون الموصوفون باللبث أَحْقابًا عصاة المؤمنين، وهذا أيضا ضعيف ما بعده في السورة يدل عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: {لابِثِينَ فِيها أَحْقابًا} غير ذائقين بردا ولا شرابا، فهذه الحال يلبثون أحقابا ثم يبقى العذاب سرمدا وهم يشربون أشربة جهنم".

وقرئ: «لَبِثِينَ»، بغير ألف.

قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب - الدهور - وهي لا تنقطع، كلما مضى حقب جاء حقب، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها.

فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقابًا، كلما انقضى حقب جاء آخر إلى غير نهاية.

وقيل: هي في عصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار، وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا). وقيل: معناه أنهم يبقون أحيانًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب.

- قال الشنقيطي: وأما وجه الجمع بين الأحقاب المذكورة هنا مع الدوام الأبدي الذي قدمنا الآيات الدالة عليه فمن ثلاثة أوجه:

الأول: وهو الذي مال إليه ابن جرير وهو الأظهر عندي لدلالة ظاهر القرآن عليه هو أن قوله (لابثين فيها أحقابًا) متعلق بما بعده أي لابثين فيها أحقابًا في حال كونهم لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا فإذا انقضت تلك الأحقاب عذبوا بأنواع أخر من أنواع العذاب غير الحميم والغساق، ويدل لهذا تصريحه تعالى بأنهم يعذبون بأنواع أخر من أنواع العذاب غير الحميم والغساق في قوله (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاج).

=

=

الثاني: أن هذه الأحقاب لا تنقضي أبدًا.

الثالث: أنا لو سلمنا دلالة قوله (أحقابًا) على التناهي والانقضاء فإن ذلك إنما فهم من مفهوم الظرف والتأبيد مصرح به منطوقا والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول.

وقول خالد بن معدان أن هذه الآية في عصاة المسلمين يرده ظاهر القرآن لأن الله قال وكذبوا بآياتنا كذابا: وهؤلاء الكفار.

(تتمة): النصوص الدالة على خلود النار كثيرة، وحسبك أن الله سماها "دار الخلد".

قال الطحاوي في عقيدته (ص ٤٧٦-ابن أبي العز): "والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان ولا تبيدان"، وقال ابن حزم في الملل والنحل (٤/ ٨٣): "اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا الجهم بن صفوان "، وجاء في كتابه مراتب الإجماع (ص١٧٣):"... وأن النار حق، وأنها دار عذاب لا تفنى، ولا يفنى أهلها بلا نهاية " ا.هـ وهذا الإجماع وإن كان لا يثبت ولكن القول بما تضمنه هو الحق في المسألة لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنعم عليهم بجميع النعم وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وأخبرهم أن من وحده وعبده وحده لا شريك له دخل الجنة ومن جحده أو أشرك به وعبد معه غيره أو اتخذ آلهة أخرى من دونه أو جعل له زوجة أو ولدا أو جعل الملائكة بناته أو اتبع غير شرعه الذي أنزله ليحكم بين الناس بالحق أو ترك دينه وأعرض عنه أنه سيكون يوم القيامة في عذاب جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، وهذا عين العدل وهو ما يستحقه هذا الذي ظلم نفسه بجحد ربه وخالقه وموجده من العدم، أما الساقط في جهنم من الموحدين يعذب ما شاء الله ثم يخرج، هذا هو المذهب الحق، والمذاهب في النار المخالفة للمذهب الحق

=

=

سبعة وهي:

١- الجهمية: القائلون بفناء النار وفناء الجنة أيضًا، وقد حكى الإمام أحمد في آخر كتاب " الرد على الزنادقة " مذهب الجهمية بأن النار والجنة تفنيان، ورد عليهم ذاكرًا النصوص الدالة على عدم فنائهما.

٢- الخوارج والمعتزلة: يقولون بخلود كل من يدخل النار، ولو كانوا من أهل التوحيد، وسر هذا القول أن الخوارج يكفرون المسلمين بالذنوب، فكل من ارتكب ذنبًا، فإنه كافر خالد مخلد في نار جهنم، والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنبًا في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا كافر، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا، ولكنه في الآخرة مخلد في نار جهنم، وقد سقنا كثيرًا من النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار.

٣- اليهود: الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقتًا محدودًا، ثم يخلفهم غيرهم فيها، وقد أكذبهم الله في زعمهم، ورد عليهم مقالتهم (وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة: ٨٠ - ٨١]. (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون*ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

٤- قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم، قال ابن حجر في الفتح: "وهذا قول بعض من ينسب إلى التصوف من الزنادقة".

٥- قول من زعم أن أهلها يخرجون منها، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد.

=

=

٦- قول أبي هذيل العلاف من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى، ويصيرون جمادًا لا يتحركون، ولا يحسون بألم، قال بذلك لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، فخالف الأدلة الصريحة القطيعة الثبوت بمقاييس عقلية باطلة.

٧- قول من قال: إن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الأحاديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، وهذا القول مال إليه البحر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وتلميذه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ولقد شاع واشتهر على ألسنة كثير من الدارسين لمسائل العقيدة القول بأن شيخ الإسلام ابن تيمية يميل إلى القول بفناء النار، ولا يوجد لشيخ الإسلام نص واضح جلي في هذه المسألة، ولكن له رسالة بعنوان (الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك)، وقد وجدت هذه الرسالة بحمد الله وطبعت في دار بلنسية في الرياض، ألَّفها شيخ الإسلام جوابا عن سؤال وجه إليه، فأجاب بذكر آراء غيره من العلماء في ذلك، وبين الفرق بين دوام الجنة والنار، وفنائهما، ولم يعقب على ما ذكر من الآراء بقول خاص له هو، ومن هنا اختلفت الآراء والمفاهيم حول موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من المسألة، وذلك على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تحاملوا على ابن تيمية وجعلوه حامل لواء هذه المسألة، وجعلوا منها غرضا للنيل منه وتضليله، وعلى رأس هؤلاء السبكي صاحب رسالة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) ألفها ردا على شيخ الإسلام.

القسم الثاني: من أنكر نسبة القول بفناء النار إلى شيخ لإسلام ابن تيمية.

القسم الثالث: تأملوا النصوص الواردة عن ابن تيمية في هذه المسألة وقالوا: إنه يميل فقط إلى القول بفناء النار انطلاقا من سعة رحمة الله وليس الغرض من

=

=

سوق هذا الكلام هو الدفاع عن القول بفناء النار ولكن الغرض هو الرد على السبكي وغيره في تضليل وتبديع شيخ الإسلام وفي هذا المعنى يقول العلامة ابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٥٦): فقولكم إنه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم وآرائهم واختلافهم وقال الألوسي في جلاء العينين (ص٤٨٨): ولئن سلم أنه – أي شيخ الإسلام – مال إلى ذلك فقد ذهب إليه بعض السلف وأفراد من الخلف، وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: "وغاية ما يقال إنه قول خطأ، أو رأي غير صواب، ولا يقال بدعة، وليس قصدي الدفاع عن هذا القول ولكن قصدي ببيان أنه ليس بدعة ولا ينطبق عليه ضابط البدعة وهو أنه من المسائل القديمة" التي وقع الخلاف فيها قبل ابن تيمية ا.هـ.

قال شيخ الإسلام في رسالة "الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك" (ص٤١): بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

مسألة في الرد على من قال: بفناء الجنة والنار، وعلى من قال بفناء – بياض بالأصل – كالفارابية وذكر اختلاف الناس في دار الجزاء بالعقاب، ودار الثواب بالإنعام، وللناس في ذلك ثلاثة أقوال:

قوم قالوا بفنائهما جميعا، وقوم قالوا ببقائهما جميعا، وقوم قالوا: بفناء دار الجزاء، وبقاء دار الإفضال، والإنعام، والإكرام...

أما القول بفنائها فما رأينا أحدا حكاه عن أحد من السلف، من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وإنما حكوه عن الجهم بن صفوان، وأتباعه الجهمية، وهذا مما أنكر عليه أئمة الإسلام، بل ذلك مما أكفروهم به، كما ذكره عبد الله بن أحمد في كتاب "السنة" والأثرم في: كتاب "السنة"، وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في كتاب "خلق أفعال العباد"، وغيرهم عن خارجة بن

=

=

مصعب، أنه قال: كفرت الجهمية بآيات من كتاب الله ﷻ، في غير موضع بأربع آيات من كتاب الله: بقوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ}، وهم يقولون: لا يدوم، ويقول الله تعالى {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}، وهم يقولون ينفد، وبقوله تعالى: {لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ}، فمن قال: إنها تنقطع، فقد كفر، وبقوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: غير مقطوع. فمن قال: إنه ينقطع، فقد كفر، "وهذا قاله جهم، لأصله الذي اعتقده، وهو: امتناع وجود ما يتناهى من الحوادث كما بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع - وهو عمدة أهل الكلام الذين استدلوا على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يخل من الحوادث بها، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأى الجهم: أن ما يمنع من وجود ما لا يتناهى بمنعه في المستقبل، كما يمنعه في الماضي، فيلزم أن يكون الفعل الدائم ممتنعا على الرب في المستقبل كما كان ممتنعا عليه في الماضي وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكن قال: هذا إنما يقتضي فناء الحركات، فقال: إنه تفنى حركات أهل الجنة، والنار حتى يبقوا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة".

وزعم طائفة ممن وافقهم على امتناع حوادث لا نهاية لها، كأبي الحسن بن الزاغواني، أن هذا القول هو المقتضى القياس العقلي، لكن السمع لما جاء ببقاء الجنة، والنار، قلنا به، ولم يعلم أن ما كان ممتنعا في العقل لا يجيء السمع بوقوعه، فإن السمع لا يخبر بوجود ما كان ممتنعا في العقل.

والأكثرون الذين وافقوا جهما، وأبا الهذيل على أصلها، فرقوا بين الماضي، والمستقبل من جهة العقل، بأن الماضي قد دخل في الوجود بخلاف المستقبل، والممتنع إنما هو أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى.

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال في غير هذا الموضع، وبُيِّنَ غلط أصحابها، وأن الماضي إذا قيل: لا يتناهى، فإنما المراد أنه لا ابتداء له، فلم ينته من طرف

=

=

الابتداء، وإلا فإذا قدر ماضيا منتقضا، فقد تناهى. ففرض مالا يتناهى مطلقا، وجعله قاضيا منقضيا جمع بين النقيضين.

ولهذا كانت أدلتهم عليه جامعة بين النقيضين، مثل قولهم: يلزم أن يكون اليوم، وما سواه من الحوادث متوقفا على انقضاء ما نهاية له، وانقضاء ما لا نهاية له محال.

فإنه يقال لهم نعم، ما لا يتناهى لا في الابتداء، ولا في الانتهاء، فانقضاؤه محال، أما إذا قدرتموه حتى مضى، وانتهى إلى حد.

فقولهم بعد ذلك أن انقضاءه محال، كلام متناقض، فإنكم فرضتموه قد انقضى وانتهى من هذا الجانب، جانب النهاية، دون جانب البداية، ومثل قولهم في دليل ذلك التطبيق، إذا فرضنا الحوادث إلى حين الطوفان، والحوادث إلى حين الهجرة، ثم طبقنا بينهما: فإما أن يتماثلا، وإما أن يتفاضلا، والتماثل ممتنع، والتفاضل يقتضي وقوع التفاضل فيما لا يتناهى، وهو محال، فإنه يقال لهم:

هذه الحوادث، هي بعينها لكنها زادت بما بين الوقتين: وقت الطوفان، ووقت الهجرة، وسواء قدر أنها هي، أو أنها غيرها، فهذه أكثر من هذه، وهذا تفاضل فيما انتهى، وهو الماضي، فهو تفاضل فيما تناهى من أحد طرفيه من الطرف المتناهي، فإن كان تناهى ما لا ابتداء له في المستقبل ممكنا، فالتفاضل وقع من جهة كونه متناهيا، لا من جهة كونه غير متناه - أي - لا بداية له. وإن كان تناهى ما لا ابتداء له غير ممكن، فقولكم: تناهى الحوادث إلى زمان الطوفان، أو الهجرة، باطل، وذلك أنه إذا قيل: إنه لم يزل الرب متكلما بمشيئته، وقدرته، أو لم يزل فعالا لما يشاء، نحو ذلك مما يقتضي كونه فاعلها، كان هذا النوع قديما، وما وجب قدمه، امتنع عدمه، وذلك يقتضي امتناع انقضاء فعل الرب، نقيض قول الجهم، فإن عنده يجب انقضاء فعله وانقطاعه، ويمتنع عنده دوامه أبدا كما

=

=

امتنع دوامه أزلا، ويجب عنده أن يكون لم يزل غير فاعل في الماضي، ولا في الأبد إذا فنيت الجنة والنار.

وحقيقة قوله: أنه لم يزل غير قادر، ثم صار قادرا، ثم يصير غير قادر وهو يقول: ما كان له بداية، وجب أن يكون له نهاية.

فأما إذا قدر أن الرب لم يزل قادرا على الفعل، والكلام بمشيئته، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء فعالا لما يشاء، فهنا وجب وجود ما لا ابتداء له، ولا نهاية لابتدائه، فإذا قدر انتهاء هذا النوع كان باطلا، فإذا قيل: إن الحوادث انتهت إلى الطوفان أو الهجرة.

فإن قيل: يقدر الرب ما بقي بفعل شيئا، فهذا تقدير خلاف الواقع، بل هو ممتنع.

وإن قيل: يقدر فضلا في الذهن بين ما مضى وبين ما يستقبل، فهذا التقدير الذهني لا يغير الحقائق، بل الفعل الدائم في نفسه، ثم إذا قدر هذا في الذهن، فقد قدرت الحوادث الماضية انتهت إلى هذا الحد.

وإذا انتهت قبلت الزيادة والنقصان، فإن ما ينتهي من الحوادث يقبل الزيادة والنقصان، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع، ولكن نبهنا هنا على أصل قول الجهم الذي أوجب له أن يقول بفناء الجنة والنار، حتى أنكر ذلك عليه أئمة الإسلام، وجمهورهم كفروه. والذين وافقوه على الأصل خالفوه في لوازمه فتناقضوا.

وفرق من فرق بين الماضي والمستقبل، بأن الماضي دخل في الوجود بخلاف المستقبل، فرق ضعيف لوجوه:

أحدها: إن الماضي قد جعله متناهيا، فلم يقع التفاضل إلا فيما تناهى دون ما لا تناهى كما تقدم، وحينئذ فما دخل في الوجوه إلا ما يتناهى من هذا الجانب، فهو تقدير يتناهى فما قدر متناهيا، ثم هذا إذا قدر أن تنهايه ممكن، فكيف إذا كان

=

=

ممتنعا؟.

الثاني: أن الدليل شامل للنوعين، فإنه يمكن أن يقال: الحوادث من الهجرة، ومن الطوفان إلى ما لا يتناهى، هل هما متفاضلان؟ أم متماثلان. فإن تماثلا فهو محال، لأن أحدهما أزيد من الآخر، وإن تفاضلا فهو محال، لأن التفاضل في ما لا يتناهى محال.

فإن قيل: هذا تقدير التفاضل، والتماثل في ما لم يكن بعد.

قيل: نعم، لكنه تقدير التفاضل والتماثل، بتقدير وجوده لا في حال كونه معدوما، كما أن الماضي قدرتهم فيه التماثل، والتفاضل بعد عدمه بعد عدمه لا في حال وجوده، لكن قدرتهم تلك الحوادث الماضية التي عدمت كأنها موجودة.

ففي كلا الموضعين إنما هو تقدير التفاضل، والتماثل فيما هو معدوم.

فإن صح في أحد الموضعين صح في الآخر، وإن امتنع في أحدهما امتنع في الآخر.

الوجه الثالث: أن يقال: كون الشيء ماضيا، ومستقبلا أمرا إضافي بالنسبة إلى المتكلم المخبر، فيما مضى قبل كلامه، كان ماضيا، وما يكون بعده يكون مستقبلا، وبنسبة أحدهما إلى الآخر، فالماضي ماض على ما يستقبل، والمستقبل مستقبل لما قد مضى، وما من ماض إلا وقد كان مستقبلا، وما من مستقبل إلا وسيصير ماضيا، فليس ذلك فرقا يعود إلى صفات النوعين، حتى يقال: إن أحدهما ممكن، والآخر ممتنع، بل هذا الماضي كان مستقبلا، وهذا المستقبل يصير ماضيا، فتتصف كل الحوادث بالمضي والاستقبال، فلم يكن في ذلك ما هو لازم للنوعين يوجب الفرق بينهما.

وبسط الكلام على ذلك له موضع آخر.

"والمقصود هنا: أن هذا القول "هو القول بفناء الجنة، والنار قول لم يعرف عن أحد من السلف: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة

=

=

المسلمين، والذين قالوه لم يقولوه تلقيا له من خطاب الرسول ﷺ. وإعلامه وبيانه، ولا من قياس معقول دل عليه الرسول، وإنما قالوه عن قياس قاسوه بعقولهم، وهو خطأ في نفس الأمر"، وإن كان قد اشتبه على كثير من أهل الكلام فاعتقدوه حقا، حتى بنوا عليه وجوب حدوث ما لم يخل من الحوادث، بل وجوب حدوث ما تقوم به الحوادث.

ومن هذا قالوا: إن القرآن مخلوق هو، وغيره من كلام الله، وإن الله يمتنع أن يكون لم يزل متكلما إذا شاء، وعليه - أيضا - بنوا نفي الصفات، لأنها أعراض لا تقوم بإلا بجسم، ثم منهم من قال: إنه صار يتكلم بمشيئته، بعد أن لم يكن يتكلم بمشيئته، وهؤلاء منهم من قال: الكلام لا يقوم به، فيكون مخلوقا بائنا عنه، ومنهم من قال: بل يقوم بذاته، فيكون جنس كلامه حادثا، والذين وافقوا السلف على أنه لم يزل متكلما وافقوا الجهم على أصله، قالوا: إن كلامه قديم العين، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل هو لازم لذاته كالحياة، ثم من هؤلاء من قال: إنه معنى واحد، هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي، وهو معنى التوراة. والإنجيل، والزبور وكل كلام يكلم به عبادة المؤمنين، ملائكته وغيرهم. ومنهم من قال: بل هو حروف، أو حروف وأصوات أزلية، لم تزل ولا تزال لازمة لذاته، لا تتعلق بمشيئته وقدرته فهذه الطوائف الأربعة قد دخل في كل طائفة كثير من أهل النظر المعدودين من أكابر النظار، وأهل العلم، الناصرين للإسلام، أو للإسلام، والسنة وأصل أمرهم موافقتهم لجهم على قوله بامتناع دوام الحوادث، وأن الله يمتنع أن يكون لم يزل متكلما إذا شاء، فعالا لما يشاء، فوافقوه على أن كلام الرب وفعله يمتنع أن يكون دائما بقدرته، ومشيئته، وعلى أن يمتنع أن يكون كلمات الله لا نهاية لها، وقد قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} إلى قوله: {وَلَوْ جِئْنَا

=

بِمِثْلِهِ مَدَدًا}.

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

روى ابن أبي حاتم في "تفسيره" عن سليمان بن عامر، قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: "إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ربهم، كقطرة من هذه البحور كلها، وقد أنزل في ذلك: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

وقوله: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}.

ذلك الذي عني في هذا الحديث، يقول: لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي، والشجر كلها أقلام، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة دائمة لا يفنيها شيء، لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما نقول، وفوق ما نقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة، كحبة من خردل في خلال الأرض كلها".

قلت ومثل هذا الكلام يقصد به التعبير عن عدم النهاية والنفاد والانقضاء.

والمراد: أن كلمات الله لا انتهاء لها، فلا تنفد، ولا تنقضي، وقد ذكر الربيع مع ذلك نعيم الجنة، فإن الله تعالى - قال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}.

فاخبر أنه: لا ينفد، فلا يكون له انقضاء، ولا فراغ وآخر ينتهي عنده.

وهذه الأقوال، والكلام عليها مبسوطة في غير هذا الموضع، والمقصود هنا في فناء الجنة والنار، فقد تبين أن القول بفناء الجنة لم يعرف عن أحد من السلف، ولا الأئمة، وإنما هو قول جهم، ونحوه، وقد عرف فساده عقلا، ونقلا.

=

وأما القول بفناء النار: ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين، ومن بعدهم.

وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها، فإن الذين يقولون: إن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم، كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفنى، وقد يقولون: إنهم يخرجون منها، فلا يبقى فيها أحد، لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد، بل يفنى عذابها، وهذا هو معنى فنائها.

"وقد نقل هذا القول عن عمر، ابن مسعود، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم".

وقد روى عبد بن حميد - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور، قال: أنا سليمان بن حرب، أنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري، قال: قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه".

وقال: أنبأ حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج، لكان لهم يوم يخرجون فيه". ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} وهذا يبين أن مثل الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل هؤلاء الأئمة في الحديث، والسنة مثل سليمان بن حرب والذي هو من أجل علماء السنة والحديث، ومثل حجاج بن منهال في كلامهما عن حماد بن سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروي من وجهين: من طريق سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروى من وجهين: من طريق ثابت، ومن طريق حميد هذا عن الحسن من بعض التابعين فسواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر، أو لم يحفظ،

=

=

كان مثل هذا الحديث متداولًا بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والجهمية.

وكان أحمد بن حنبل يقول: "أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة".

فهؤلاء من أعظم أعلام السنة الذين ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب والسنة، والإجماع، كما يظنه طائفة من الناس.

وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} ليبين قول من قال: الأحقاب لها أمد ينفذ، ليست كالرزق الذي ماله من نفاذ، ولا ريب أنه من قال هذا القول، قول عمر، ومن نقله عنه، إنما أرادوا بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها.

فأما قوم أصيبوا بذنوب، فأولئك قد علم هؤلاء، وغيرهم، بخروجهم منه، وأنهم لا يلبثون فيها قدر رمل عالج، ولا قريبا من ذلك.

والحسن كان يروي حديث الشفاعة في أهل التوحيد، وقد ذكره البخاري، ومسلم عنه، وكذلك حماد بن سلمة كان يجمعها، ويحدث بها، وكذلك سليمان بن حرب، وأمثاله، فهذا عندهم لا يقال فيه مثل هذا، ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين، بل يختص بمن عداهم، كما قال النبي صلى الله عيه وسلم: "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون". وقوله: يخرجون منها، أي يخرجون من جهنم بعد أن يفنى عذابها، وينفذ وينقطع.

فهم لا يخرجون منها يعني جهنم، بل هم خالدون في جهنم كما أخبر الله سبحانه وتعالى.

=

=

لكن إذا انقضى أجلها، وفنيت كما تفنى الدنيا، لم يبق فيها عذاب، وذلك أن العالم لا يعدم، وجهنم في الأرض، والأرض لا تعدم بالكلية ولكن فناؤها بتغير حالها، واستحالتها من حال إلى حال كما قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، وهم لا يعدمون بل يموتون، ويهلكون، كما قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ}.

فإذا أنفذه الرجل فقد نفذ ما عنده، إن كان لم يعدم، بل يعدم، بل انتقل من حال إلى حال.

وفي "تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي" عن ابن عباس - وهو معروف مشهور، ينقل منه عامة المفسرين الذين يسندون كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وعثمان بن سعيد الدارمي، والبيهقي والذين يذكرون الإسناد مجملا، كالثعلبي، والبغوي، والذين لا يسندون كالماوردي، وابن الجوزي، قال: قوله: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}.

قال: "وفي هذه الآية إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا".

قال الطبري: "وروي عن ابن عباس أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: أن الله تعالى جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته ثنا عبد الله ثنا معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قال: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا} قال في هذه الآية: "إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا". وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصا بأهل القبلة فإنه قال: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

=

=

فأولياؤهم من الإنس" لفظ يدخل فيه الكفار قطعا، فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين.

وقال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}.

وقال تعالى: {جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ * مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}.

وقال تعالى: {فَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

وقال تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}.

فأمر بقتال أولياء الشيطان، وهم الكفار، وقال: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فأخبر أنهم يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوكم، فهذه وأمثالها تبين أن الكفار أولياء الشياطين، فهم أحق الناس بدخول في قوله: {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} وقد قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: "إن هذه الآية تقتضي أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا" فدل على أن هذا الاستثناء عنده دفع

=

=

العذاب عنهم، وهذا مدلول الآية، وأنه لأجل هذه الآية يجب أن يتوقف، فلا يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ونارا، وهذا يناقض قول من يقول سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وإلا مدة مقامهم قبل الدخول من حين بعثوا إلى أن دخلوا، فإن ذلك معلوم أنه قبل الدخول لم يكونوا فيها، وقول من يقول في أهل الجنة فإنها صريحة في تناول الكفار.

لكن ذكر البغوي، أن ابن عباس قال: "الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله وأنهم يسلمون فيخرجون من النار". ولم يذكر من نقل هذا عن ابن عباس، فإن أريد بذلك من أسلم في الدنيا فليس كذلك، فإن الخطاب إنما هو لمن كان من أولياء الشيطان والجن الذين استمتع بعضهم ببعض وهؤلاء من جملة المسلمين، وجميع من أسلم سبق فيه علم الله، وأنه يسلم، وكأن قائل هذا القول ظن أن هذا خطاب للأحياء، وليس كذلك، بل هذا خطاب لهم يوم القيامة، وإن أراد أنهم يسلمون في جهنم فيخرجون منها، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن في غير موضع، فعن عبد الله بن مسعود قال: "ليأتين على جهنم زمان، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا، وهؤلاء هم الكفار، وعن أبي هريرة ومثله" قال البغوي: "ومعناه عند أهل السنة - إن ثبت - ألا يبقى فيها أحد من؟ أهل الإيمان".

فيقال: إنهما لم يريدا ذلك، فإنهما بعد ما يلبثون فيها أحقابا وهؤلاء هم الكفار المذكورون في قوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وِفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا} وهذا الوصف الذين كذبوا بآيات الله {كِذَّابًا} أي تكذيبا، فهو تكذيب مؤكد بالمصدر، ولم أجد نقلا مشهورا عن أحد من الصحابة يخالف ذلك، بل أبو سعيد وأبو هريرة هما رويا حديث ذبح

=

=

الموت، وأحاديث الشفاعة، وخروج أهل التوحيد وغيرهما، قالا في فناء النار ما قالا، وقد نقل البغوي: روى السدي، عن مرة، عن عبد الله، قال: "لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا" وقد استفاض عن غير واحد من السلف تقدير الحقب بحد محدود، والأحقاب، جمع حقب، فروى ابن أبي حاتم عن عطية، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: "سنين".

وعن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة قال: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: الحقب: ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوما، واليوم كألف سنة، اليوم منها كالدنيا كلها.

قال ابن أبي حاتم، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهلال الهجري والضحاك، وذكوان، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعمرو بن ميمون أنهم قالوا: الحقب: ثمانون سنة.

وعن هشام، عن الحسن البصري أنه سئل عن قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} فقال: الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلا الخلود، ولكنه بلغنا أن الحقب الواحد: سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك الأيام كألف سنة مما تعدون.

وعن هشام، عن الحسن قال: "الأحقاب" لا يدري أحد ما هي؟ ولكن الحقب الواحد: سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون وقوله: الله أعلم ما الأحقاب، ولا يدري ما هي؟ يقتضي أن لها عددا الله أعلم، ولو كانت لا عدد لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها، ويؤيد ما نقله الحسن، عن عمر بن الخطاب كما تقدم، قول الحسن: "ليس فيها عدد إلا الخلود" حق أيضا، فإنهم خالدون فيها، لا يخرجون منها ما دامت باقية، فأقوال الحسن يصدق بعضها بعضا.

وأما خلودهم في النار فهو حق كما أخبر الله.

=

=

وعن السُّدي: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: "سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما، كل يوم كألف سنة مما تعدون".
وعن عبد الله بن عمرو قال: "الحقب: أربعون سنة".
وقد تنازع الناس في الأحقاب، هل هي مقدرة محدودة؟ على قولين: فعلى قول السدي وغيره: هي محدودة، مقدرة، وهو قول الزجاج، وغيره، لكن قال الزجاج: "المعنى أنهم يلبثون فيها أحقابا، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا". قال الزجاج: "وبيانه: أن الأحقاب حدّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب". وهذا الذي قاله الزجاج شاذ، خلاف ما عليه الأولون والآخرون، وهو خلاف ما دل عليه القرآن، فإن هذا يقتضي أنهم يبقون بعد الأحقاب فيها، ولكن لا يذوقون البرد والشارب حينئذ، وهذا باطل قطعا، ثم إذا ذاقوا البرد والشارب فهذا نعيم، فكيف يكونون معذبين فيها ذلك؟
وقال بعضهم: هذه الآية منسوخة، وقيل: "هي في أهل التوحيد".
قال عبد الحق بن عطية في "تفسيره". "ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: الحقب سبع عشرة ألف سنة وهي منسوخة بقوله تعالى: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} قال: وقد ذكرنا فساد هذا القول.
وقال آخرون: الموصوف باللبث أحقابا عصاة المؤمنين قال: وهذا أيضا ضعيف فما بعده من السورة يرد عليه.
وقال آخرون: إنما المعنى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} غير ذائقين بردا ولا شرابا، فهذه الحال: يلبثون أحقابا، ثم يبقى العذاب سرمدا وهم يشربون أشربة جهنم.
والقول الثاني: إنها غير مقدرة، وقال هؤلاء: هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب، ولو أنه قال: لابثين فيها عشرة أحقاب، أو خمسة

=

=

أحقاب دل على غاية، هذا قول ابن قتيبة وغيره.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وهذا قول ابن قتيبة والجمهور وبيانه: إن زمان أهل الجنة والنار يتصور دخوله تحت العدد كقوله تعالى: {بُكْرَةً وَعَشِيًّا}، ومثل هذا، أن كلمات الله داخلة تحت العدد وإن لم يكن لها نهاية، فيقال: هذا ممنوع، فما لا نهاية يمتنع أن يدخل تحت العدد، وإنما يدخل تحت العدد ما له مقدار محدود وهو المعدود، لكن إذا أخذ بعض من أبعاضه دخل تحت العدد كالبكرة والعشي، وهو مقدار يوم من أيام الجنة، ويعرف ذلك بنور يظهر لهم يزيد على النور المعتاد، يعرفون به البكرة والعشي، كما تظهر الشمس لأهل الدنيا، لكن الجنة ليس فيها ظلمة.

وقوله: كلمات الله داخلة تحت العدد ممنوع إنما يدخل منها تحت العدد بعض من أبعاضها مثل الآيات المنزلة، وإلا فيما لا نهاية له كيف يكون معدودا وكلما عد بقدر معدود فهو ما حد، وما يقدره الإنسان بلسانه وذهنه من العدد فله حد، والذي لا يتناهى ليس له مقدار لا في ذهنه ولا في لسانه.

وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال ابن أبي حاتم: ذكر عن جعفر بن سليمان، عن الجريري قال: سمعت أبا نضرة يقول: ينتهي القرآن إلى هذه الآية: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}.

وقد روى حرب الكرماني، وأبو بكر البيهقي عن أبي سعيد الخدري، وعن قتادة في قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} والله أعلم بتثنيته على ما وقعت.

وروى الطبري، عن يونس، نا ابن وهب، نا ابن زيد. في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} فقرأ حتى بلغ: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}

=

=

فأخبرنا الذي شاء لأهل الجنة، فقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وعن السُّدي: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}. عن هذه الآية يوم نزلت كانوا يطعمون في الخروج.

قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، ذكر البغوي عن عبد الرحمن بن زيد أنه قال: قد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي لأهل الجنة، فقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وقد روى علماء السنة والحديث في ذلك آثارا عن الصحابة والتابعين مثل ما روى حرب الكرماني، وأبو بكر البيهقي، وأبو جعفر الطبري وغيرهم عن الصحابة في ذلك.

وفي المسند للطبراني: ذكر فيه "أنه ينبت فيها الجرجير"، وحينئذ فيحتج على فنائها بالكتاب والسنة، وأقوال الصحابة - مع أن القائلين ببقائها ليس معهم كتاب، ولا سنة ولا أقوال الصحابة -.

منها ما رواه حرب، والبيهقي قال حرب الكرماني: "سألت إسحاق عن قول الله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} قال: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن.

قال إسحاق: ثنا عبيد الله بن معاذ، ثنا معتمر بن سليمان، قال: قال لي أبي: ثنا أبو نضرة، عن جابر، أو أبي سعيد، أو بعض أصحاب النبي ﷺ قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال المعتمر: قال أبي: عنى كل وعيد في القرآن.

رواه أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره قال: ثنا الحسن بن يحيى، أنا عبد الرزاق، أنا ابن التيمي، عن أبيه أبي نضرة، عن جابر، أو أبي سعيد، أو عن رجل

=

=

من؟ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله، فيقول: حيث كان في القرآن: {خَالِدِينَ فِيهَا} تأتي عليه.

وقال ابن جرير، حدثت عن ابن المسيب، عمن ذكره عن ابن عباس: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} قال: استثنى الله ﷻ قال: يأمر النار أن تأكلهم.

قال -أي الطبري-: وقال ابن مسعود: "ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا".

وقال ثنا محمد بن حميد الرازي، ثنا جرير، عن بيان، عن الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانا، وأسرعهما خرابا".

وقال حرب الكرماني، عن إسحاق بن راهوية، ثنا عبيد الله بن معاذ ثنا أبي، ثنا شعبة، عن أبي بلج، سمع عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها، ليس أحد"، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا.

وقال إسحاق، ثنا عبيد الله بن معاذ، ثنا أبي، ثنا شعبة، عن يحيى بن أيوب عن أبي زرعة وعن أبي هريرة، قال: أما الذي أقول: "إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ} الآية.

قلت: والذين قطعوا بدوام النار، لهم أربع طرق.

أحدها: ظن الإجماع فإن كثيرا من الناس يعتقد أن هذا مجمع عليه، ولا خلاف فيه بين السلف، وإن كان فيه خلاف حادث، فهو من أقوال أهل البدع.

والثاني: أن القرآن قد دل على ذلك دلالة قطعية، فإنه أخبر بخلودهم في النار أبدا في غير موضع من القرآن.

=

=

والثالث: أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من في قلبه مثال ذرة من إيمان من النار دون الكفار، فإنهم لم يخرجوا.

والرابع: قول من يقول: الرسول وقفنا على ذلك، وعلمناه من بعده ضرورة ولا يحتجون بنص معين، وعامة الناس يقولون: هذا لا نعلمه إلا من الخبر وشذ بعضهم فزعم أن العقل دل على خلود الكفار.

فأما الإجماع فهو أولا: غير معلوم، فإن هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع، نعم قد يظن فيها الإجماع وذلك قبل أن يعرف النزاع، وقد عرف النزاع قديمًا وحديثا، بل إلى الساعة لم أعلم أحدا من الصحابة قال: إنها لا تفنى، وإنما المنقول عنهم ضد ذلك ولكن التابعون نقل عنهم هذا وهذا.

وأما القرآن، فالذي دل عليه وليس في القرآن ما يدل على أنها لا تفنى، بل الذي يدل عليه ظاهر القرآن أنهم خالدون فيها أبدا، كما أخبر الله ﷻ في غير موضع، وأخبر أنهم يطلبون الموت، والخروج منها ويطلبون تخفيف العذاب، فلا يجابون: لا إلى هذا ولا على هذا، وأخبر أنهم ماكثون فيها، وأخبر أنهم {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}.

وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا}، {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}.

وقوله: {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أي: يميتنا، وهكذا قال المفسرون مثل: السدي وابن زيد وغيرهما.

قال السدي: يقضي علينا بالموت، وقال ابن زيد: القضاء هاهنا: الموت.

=

وكذلك قال سائر المفسرون، وهذا كقوله تعالى: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}.

وعن الفراء في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} إلى قوله تعالى {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} وذلك أن القضاء هو الإكمال والإتمام، والأمر المقتضى هو الذي قد مضى وفرغ.

وبالموت تنقضي حياة الإنسان، فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}.

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}.

وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فهذه النصوص وأمثالها في القرآن تبين أنهم خالدون في جهنم لا يموتون ولا يحيون، وأنهم يسألون هذا وهذا فلا يجابون.

وهذا يقتضي خلودهم في جهنم - دار العذاب - مادام ذلك العذاب باقيا ولا يخرجون منها مع بقائها وبقاء عذابها، كما يخرج أهل التوحيد، فإن هؤلاء يخرجون منها بالشفاعة، وغير الشفاعة مع بقائها، كما يخرج ناس من الحبس الذي فيه العذاب مع بقاء الحبس والعذاب لذي فيه على من لم يخرج.

=

وهكذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح "صحيح مسلم":

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر، ضمائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل".

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة في الحديث الطويل الذي فيه المرور على الصراط، والشفاعة، وقال فيه: "حتى إذا فرغ الله من القصاص بين العباد، فأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله فيعرفونهم بأثر السجود، وتأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القصاص بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار"، وذكر صرفه عن النار، ثم تقدمه إلى الجنة، ثم إلى بابها، ثم إدخاله الجنة، وانه يعطيه ما تناه، مثله معه. ورواه أبو سعيد، وقال: "وعشرة أمثاله".

وكذلك في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد قال: "حتى إذا خلص المؤمن من النار، فو الذي نفي بيده، من أحد بأشد منا شدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصمون معنا، ويصلون ويحجّون، فيقول: أخرجوا من عرفتوهم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا، وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتهم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، إلى أن قال: ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا".

=

=

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرءوا إن شئتم: {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}.

فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفعت النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السبيل، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبدا".

وفي رواية: "من إيمان" بدل قوله: "من خير"، قال فيه: "فيقول الجبار: قد بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواما قد امتشحوا فليقيهم في نهر بأفواه الجنة... " الحديث. ولم يقل: "لم يعملوا خيرا قط".

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: "إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر الجنة دخولا الجنة: رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله له: اذهب: فادخل الجنة، فيأتيها، فتخيل إليه أنها ملآى - إلى أن قال -: فيقول الله له: اذهب، فإن لك عشرة أمثال الدنيا - أو - إن لك الدنيا، وعشرة أمثالها".

وفي رواية لمسلم: فيقول له: "تمن، فتمنى، فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعافه". وهذا يوافق حديث أبي سعيد من وجهين:

وكذلك لمسلم من حديث جابر: "مثل الدنيا وعشرة أمثالها"، كما في اللفظ

=

=

الأول في حديث ابن مسعود.

وفي حديث جابر في "الصحيحين" أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى يخرج ناسا من النار، فيدخلهم الجنة".

وفي رواية: "إن الله يخرج قوما من النار بالشفاعة"، ولمسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة".

وللبخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: "يخرج قوم النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميين".

وللبخاري، عن أنس عن النبي ﷺ قال: "يخرج قوم من النار بعد ما "مسهم" منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميين".

وأحاديث الشفاعة فيمن يخرج من النار كثيرة فيخرج من النار كثير منها عدة أحاديث في "الصحيحين".

وفي حديث أنس: ذكر فيه الشفاعة مرة بعد مرة، وأنه صلى لله عليه وسلم قال في الآخرة، "فأقول: أي رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله فيقول الله ﷻ وعزني وجلالي، وعظمتي وكبريائي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله".

وفي رواية لمسلم: "ليس ذلك لك، أو إليك".

"الفرق بين بقاء الجنة، والنار، شرعا، وعقلا" فأما شرعا، فمن وجوه:

أحدها: أن الله أخبر ببقاء نعيم الجنة ودوامه، وأنه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه، كما أخبر أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأما النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك، بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها، وأما النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك، بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها.

الثاني: أنه أخبر بما يدل على أنه ليس بمؤيد في عدة آيات.

=

=

الثالث: أن النار لم يذكره فيها شيء يدل على الدوام.

الرابع: إن النار قيدها بقوله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} وقوله: {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، فهذه ثلاث آيات تقتضي قضية مؤقتة، أو معلقة على شرط، وذاك دائم مطلق، ليس بمؤقت ولا معلق.

الخامس: أنه قد ثبت أنه يدخل الجنة من ينشأه في الآخرة لها ويدخلها من دخل النار أولا، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرا، وأما النار فلا يعذب أحد إلا بذنوبه، فلا تقاس هذه بهذه.

السادس: أن الجنة من مقتضى رحمته ومغفرته، والنار من عذابه، وقد قال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} وقال: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وقال: {رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}.

فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته فيجب داومه بدوام معاني أسمائه وصفاته.

وأما العذاب فإنما هو من مخلوقاته، والمخلوق قد يكون له انتهاء مثل الدنيا وغيرها، لاسيما مخلوق خلق تتعلق بغيره.

السابع: أنه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، وقال: "سبقت رحمتي غضبي" "وغلبت رحمتي غضبي"، وهذا عموم، وإطلاق، فإذا قدر عذاب لا آخر له، لم يكن هناك رحمة البتة.

الثامن: أنه قد ثبت مع رحمته الواسعة أنه حكيم، والحكيم إنما يخلق لحكمته العامة، كما ذكر حكمته في غير موضع فإذا قدر أنه يعذب من يعذب لحكمة كان هذا ممكنا، توجد في الدنيا العقوبات الشرعية فيها حكمة، وكذلك ما يقدره من

=

=

المصائب فيها حكم عظيمة، فيها تطهير من الذنوب، وتزكية للنفوس، وزجر عنها في المستقبل للفاعل ولغيره، ففيها عبرة، والجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهذا قال في الحديث الصحيح: "إنهم يحسبون بعد خلاصهم من الصراط على قنطرة بين الجنة والنار، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة".

والنفوس الشريرة الظالمة التي ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادات لما نهيت عنه لا يصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والظلم والشر، فإذا عذبوا بالنار عذابا يخلص نفوسهم من ذلك الشر كان هذا معقولا في الحكمة كما يوجد في تعذيب الدنيا، وخلق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة، وأما خلق نفوس تعمل الشر في الدنيا وفي الآخرة لا تكون إلا في العذاب، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر في غيره.

ولهذا كان الجهم لما رأى ذلك ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين، وقال: بل يفعل ما يشاء، والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره، ليس عندهم في الحقيقة حكمة ورحمة، ولكن له علم وقدرة وإرادة لا ترجح أحد الجانبين، ولهذا لما طلب منهم أن يقروا بكونه حكيما، فسروه بأنه عليم أو قدير أو مؤيد، وليس من الثلاثة ما يقتضي الحكمة، وإذا ثبت أنه رحيم حكيم، وعلم بطلان قول الجهم تعين إثبات ما تقتضيه الرحمة والحكمة.

وما قاله المعتزلة - أيضا - باطل، فقول القدرية المجبرة والنفاة في حكمته ورحمته باطل، ومن أعظم ما غلظهم اعتقادهم تأييد جهم، فإن ذلك يستلزم ما قالوه، وفساد اللازم يستلزم فساد الملزوم، والله سبحانه أعلم.

وأما آيات بقاء الجنة.

فالأول: مثل قوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} فأخبر أنه دائم والمنقطع ليس بدائم.

=

=

والثاني: مثل قوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}، والمنقطع ينفد.

والثالث: قوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ} فأخبر أن ما في الدنيا من الخير ينفد وما عند الله باق لا ينفد، فلو كان لما عند الله من النعيم آخر لكان ينفد نعيم الدنيا، ولم يكن باقيا لا ينفد.

والرابع: مثل قوله تعالى في آيتين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} كما قال: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} قال عامة المفسرين: غير مقطوع، ولا منقوص وذكروا عن ابن عباس أنه قال: غير مقطوع، وعن مقاتل: غير منقوص - أيضا - قال عامة المفسرين: غير مقطوع ولا منقوص، كما قال: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} قالوا - ومنه المنون، لأنه يقطع عمر الإنسان.

وعن مجاهد "غير مسحوب" وهذا يوافق ذلك، لأن ما ينتهي مقدر محسوب، بخلاف ما لا نهاية له فإنه غير مسحوب.

وقد شذ بعض الناس فقال: غير ممنون عليهم من جنس قوله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}.

وهذا القول مع مخالفته لأقوال السلف والجمهور هو خطأ لوجوه:

أحدها: أن الله يمن علينا بكل نعمة أنعم بها علينا، حتى بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، وقال أهل الجنة ما أخبر الله تعالى به في قوله: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}،

=

=

وهذا قولهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ}، وقوله: {وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يدخل أحد منكم بعمله الجنة" قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل".

والله تعالى في غير موضع يذكر آلاءه وإحسانه ونعمه على عباده، ويأمرهم أن يذكروها، ويأمرهم أن يشكروها.

والعبد قد نهي أن يمن بصدقته بقوله تعالى: {لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} لأن المتصدق في الحقيقة إنما أحسن إلى نفسه لا إلى المتصدق عليه، فإنه لولا أن له في ذلك منفعة وأجرا وعوضا لم يتصدق عليه، فصار كالذي يخدم المماليك بأجرة يأخذها من سيدهم ليس بمحسن إليهم.

وأيضا فإن المصدق الله هو المنعم عليه بما يسره الله للإحسان إلى نفسه وعليه أن يشكر الله تعالى ويرى أن الله هو المحسن إليه، فإن نظر إلى الفعل فالله خالقه، وإن نظر إلى غايته فهو يطلب جزاءه وعوضه من الله، وإن نظر إلى المحسن إليه فهو المحسن إلى نفسه، والله أحسن إليه أن جعله محسنا إلى نفسه لا ظالما لها.

فلهذا كان منه على المخلوق ظلما أبطل به صدقته، والله هو المنعم على عباده حقيقة بالنعمة، والشكر عليها إذا أعانهم على شكره وجعلهم شاكرين بنعمته، بثواب الشكر فكل ذلك تفضل منه وإحسان من غير أن يكون له على ذلك عوض يأخذه من غيره، لا من المحسن إليه ولا من غيره فهو المنعم حقيقة، وإن كان له في الإنعام حكمة يحبها ويرضاها، فتلك الحكمة منه، فما لأحد عليه منة وهو الجواد المحض وهو سبحانه ليس كمثله شيء.

وللناس كلام في الجود والإحسان ومن يفعل لحكمة ومقصود هل هو جواد أم ليس بجواد؟ يفرق بين من يطلب عوضا من غيره فيحتاج إلى غيره فيكون جوده

=

=

من باب المعاوضة، وبين من لا يحتاج إلى غيره بل هو الجواد بالنعم وبالحكم كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ولأنه لما قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وبين أن غير المؤمنين تزول عنه النعمة، فلو كان المؤمن كذلك لم يكن بينهما فرق.

الخامس: مثل قوله تعالى في نعيم الجنة: {عطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} وفي عذاب أهل النار: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال غير واحد: غير مقطوع - أيضا -.

السادس: أنه قد أخبر أن أهل الجنة والنار لا يموتون كما في الحديث الصحيح "يؤتى بالموت في صورة كبش، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود ولا موت فيها" كل خالد فيما هو فيه، فإذا كانوا لا يموتون فلا بد لهم من دار يكونون فيها، ومحال أن يعذبوا بعد دخول الجنة فلم يبق إلا دار النعيم، والحي لا يخلو من لذة أو ألم، فإذا انتفى الألم تعينت اللذة الدائمة ا.هـ. آخرها... والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه، حسبنا الله ونعم الوكيل انتهت رسالة شيخ الإسلام.

وانظر أيضا بحثا موسعا في هذه المسألة للإمام ابن القيم في كتابه حادي الإرواح (ص٣٤٥-٣٨٨) الباب السابع والستون (في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد).

والقول الصواب في هذه المسألة: أن النار لا تفنى ولا تبيد، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين، أما الكفرة والملحدون فهم فيها خالدون.

ولتوضيح الحق في المسألة ننقل كلام للعلامة الألباني في لإبطال أدلة القائلين بفناء النارللصنعاني (ص٧ - ٤٩) قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وقعت عيني على رسالة الإمام الصنعاني تحت اسم "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار"، في مجموع رقم الرسالة فيه (٢٦١٩) فطلبته فإذا فيه عدة رسائل هذه

=

=

الثالثة منها، فدرستها دراسة دقيقة واعية؛ لأن مؤلفها الإمام الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى رد فيها على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ميلهما إلى القول بفناء النار بأسلوب علمي رصين دقيق " من غير عصبية مذهبية، ولا متابعة أشعرية ولا معتزلية " كما قال هو نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في آخرها.

وقد كنت تعرضت لرد قولهما هذا منذ أكثر من عشرين سنة بإيجاز في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " في المجلد الثاني منه (ص ٧١ - ٧٥) بمناسبة تخريجي فيه بعض الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة التي احتجا ببعضها على ما ذهبا إليه من القول بفناء النار، وبينت هناك وهاءها وضعفه وأن لابن القيم قولًا آخر وهو أن النار لا تفنى أبدًا، وأن لابن تيمية قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار، وكنت توهمت يومئذ أنه يلتقي فيها مع ابن القيم في قوله الآخر، فإذا بالمؤلف الصنعاني يبين بما نقله عن ابن القيم أن الرد المشار إليه إنما يعني الرد على من قال بفناء الجنة فقط من الجهمية دون من قال بفناء النار، وأنه هو نفسه - أعني ابن تيمية - يقول بفنائها وليس هذا فقط، بل وأن أهلها يدخلون بعد ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، وذلك واضح كل الوضوح في الفصول الثلاثة التي عقدها ابن القيم لهذه المسألة الخطيرة في كتابه " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح " (٢/ ١٦٧ - ٢٢٨)، وقد حشد فيها " من خيل الأدلة ورجلها، وكثيرها وقلها، ودقها وجلها، وأجرى فيها قلمه، ونشر فيها علمه، وأتى بكل ما قدر عليه من قال وقيل، واستنفر كل قبيل وجيل " كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنه أضفى بهذا الوصف على ابن تيمية، وابن القيم أولى به وأحرى لأننا من طريقه عرفنا رأي ابن تيمية في هذه المسألة، وبعض أقواله فيها، وأما حشد الأدلة المزعومة وتكثيرها فهي من ابن القيم وصياغته وإن كان ذلك لا ينفي أنه تلقَّى ذلك كله أو جله من شيخه في بعض مجالسه، فما عزاه إليه صراحة فهو الأصل

=

=

في ذلك، وما لم يعزه فلا، ولذلك جريت فيما يأتي على التنبيه على ما لم يعزه إليه صراحةً؛ لأن من بركة العلم أن يعزى كل قول لقائله، وليس العكس كما هو معروف عند العلماء.

وإن مما يؤيد هذا؛ أن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعرض لهذا البحث مطولًا أيضًا في كتابه " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " بنحو ما في " الحادي " كما تراه في " مختصر الصواعق " للشيخ محمد بن الموصلي (ص ٢١٨ - ٢٣٩) فلم يذكر فيه ابن تيمية مطلقًا، وكذلك رأيته فعل في " شفاء العليل " (ص ٢٥٢ - ٢٦٤) إلا أنه قال في آخرها:

"وكنت سألت عنها شيخ الإسلام قدس الله روحه فقال لي: هذه المسألة عظيمة كبيرة، ولم يجب فيها بشيء، ومضى على ذلك زمن حتى رأيت في تفسير عبد بن حميد الكشي بعض تلك الآثار (يعني أثر عمر الآتي في أول الكتاب) فأرسلت إليه الكتاب وهو في مجلسه الأخير وعلمت على ذلك الموضع، وقلت للرسول: قل له هذا الموضع يشكل عليه ولا يدرى ما هو؟ فكتب فيها مصنفه المشهور رحمة الله عليه فهذا مما يدل على أنه من الممكن أن يكون تلقاه كله عنه، ولكن لا نقول به إلا في حدود ما نص هو عليه أنه من كلام ابن تيمية نفسه رحمهما الله تعالى في " الحادي " أو في غيره إن وجد.

وقد وقفت في مخطوطات المكتب الإسلامي على ثلاث صفحات في ورقتين بخط لعله من خطوط القرن الحادي عشر، نقلها كاتبها الذي لم يكشف عن هويته من رسالة ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على من قال بفناء الجنة والنار.

وهذه الورقات الثلاث جمعها أخي المحقق زهير الشاويش من دشت مخطوطات عنده. وانظر صورها في الصفحات (٥٣ - ٥٥) وهذا نصها:

"قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى - في رسالة في الرد

=

=

على من قال بفناء الجنة والنار ما نصه:

" وأما القول بفناء النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين ومن بعدهم، وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها.

فإن الذين يقولون: أن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفنى وقد يقولون: إنهم يخرجون منها فلا يبقى فيها أحد.

لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد. وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم رضي الله عنهم.

وروى عبد بن حميد - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور قال: "أخبرنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري قال: قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه".

وقال: أخبرنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن: أن عمر بن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه". ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: (لابثين فيها).

وهذا يبين أن مثل هذا الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل هؤلاء الأئمة في الحديث والسنة مثل سليمان بن حرب الذي هو من أجل علماء السنة والحديث، ومثل حجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة - مع جلالته في العلم والسنة والدين -، يروي من وجهين من طريق ثابت ومن طريق حميد هذا عن الحسن البصري - الذي يقال: أنه أعلم من بقي من التابعين في زمانه - يروى عن عمر بن الخطاب، وإنما سمعه الحسن من بعض التابعين،

=

=

سواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر أو لم يحفظه كان مثل هذا الحديث متداولًا بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجهمية، وكان أحمد بن حنبل يقول: أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة.

فهؤلاء من أعظم أعلام أهل السنة الذي ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب والسنة والإجماع كما يظنه طائفة من الناس، وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: [لابثين فيها أحقابا] ليبين قول من قال: إن الأحقاب لها أمد تنفد ليست كالرزق الذي ما له من نفاد، ولا ريب أن من قال هذا القول: عمر ومن نقله عنه إنما أراد بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها.

فأما قوم أصيبوا بذنوب فأولئك قد علم هؤلاء وغيرهم بخروجهم منها، وأنهم لا يلبثون فيها قدر عدد رمل عالج ولا قريبا من ذلك، والحسن كان يروي حديث الشفاعة في أهل التوحيد وقد ذكره البخاري ومسلم عنه وكذلك حماد بن سلمة كان يجمعها ويحدث الناس بها وكذلك سليمان بن حرب وأمثاله فهذا عندهم لا يقال فيه مثل هذا ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون» وقوله: "يخرجون فيه" أي يخرجون من جهنم بعد أن يفنى عذابها، وينفد وينقطع، فهم لا يخرجون منها بل هم خالدون في جهنم كما أخبر الله، لكن انقضى أجلها وفنيت كما تفنى الدنيا فلم يبق فيها عذاب، وذلك أن العالم لا يعدم، وجهنم في الأرض، والأرض لا تعدم بالكلية لكن فناؤها بتغير حالها واستحالتها من حال إلى حال قال تعالى: {كل من عليها فان} وهم لا يعدمون بل يموتون ويهلكون وكما قال تعالى {ما عندكم ينفد وما عند

=

=

الله باق} فإذا أنفذه الرجل فقد نفد ما عنده وإن كان لم يعدم بل انتقل من حال إلى حال". انتهى. وقال فيها أيضًا:

" والفرق بين بقاء الجنة والنار عقلًا وشرعًا أما شرعًا فمن وجوه:

أحدها: أن الله أخبر ببقاء نعيم الجنة ودوامه وأنه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه، كما أخبر أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأما أهل النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها.

الثاني: أنه أخبر بما يدل على أنه ليس بمؤبد في عدة آيات.

الثالث: أن النار لم يذكر فيها شيء مما يدل على الدوام.

والرابع: أن النار قيدها بقولها: {لابثين فيها أحقابا} وقوله: {خالدين فيها إلا ما شاء الله} وقوله: {خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك} فهذه ثلاث آيات تقتضي قضية مؤقتة، أو معلقة على شرط وذاك دائم مطلق ليس بمؤقت ولا معلق.

الخامس: قد ثبت أنه يدخل الجنة من ينشئه الله لها ويدخلها من دخل النار أولًا، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرًا، وأما النار فلا يعذب أحد إلا بذنوبه فلا يقاس هذه بهذه.

السادس: أن الجنة من مقتضى رحمته ومغفرته والنار من عذابه وقد قال: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم} وقال تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} وقال تعالى: {إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته فيجب دوامه بدوام معاني أسمائه وصفاته.

وأما العذاب فإنما هو من مخلوقاته والمخلوق قد يكون له انتهاء مثل الدنيا وغيرها، لا سيما مخلوق خلق لحكمة يتعلق بغيره.

=

=

الوجه السابع: أنه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء وأنه {كتب على نفسه الرحمة}، وقال: «سبقت رحمتي غضبي» و «غلبت رحمتي غضبي» وهذا عموم وإطلاق، فإذا قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة.

الثامن: أنه قد ثبت مع رحمته الواسعة أنه حكيم إنما يخلق لحكمة كما ذكر حكمته في غير موضع، فإذا قدر أنه يعذب من يعذب لحكمة كان هذا ممكنًا كما يوجد في الدنيا العقوبات الشرعية فيها حكمة، وكذلك ما يقدره من المصائب فيه حكمة عظيمة فيها تطهير من الذنوب، وتزكية للنفوس، وزجر لها في المستقبل للفاعل ولغيره يجنبها غيره، والجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب ولهذا قال في الحديث الصحيح: «إنهم يحبسون بعد خلوصهم من الصراط على قنطرة بين الجنة والنار، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة» والنفوس الشريرة الظالمة التي لو ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه لا تصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والظلم والشر، فإذا عُذبوا بالنار عذابًا يخلص نفوسهم من ذلك الشر كان هذا معقولًا في الحكمة، كما يوجد في تعذيب الدنيا وخلق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة، أما خلق نفوس تعمل الشر في الدنيا والآخرة لا يكون إلا في العذاب، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر من غيره، ولهذا كان من الجهم لما رأى ذلك ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين وقال: بل يفعل ما يشاء. والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره ليس عندهم في الحقيقة له حكمة ورحمة، لكن له علم وقدرة وإرادة لا ترجح أحد الجانبين، ولهذا لما طلب منهم أن يقروا بكونه حكيمًا، فرده بأنه عليم، إذ قد يراد: يريد وليس من الثلاثة ما يقتضي الحكمة، وإذا ثبت أنه حكيم رحيم وعلم بطلان قول الجهم تعين إثبات ما تقتضيه الحكمة والرحمة.

=

=

وما قاله المعتزلة أيضًا باطل، فقول القدرية المجبرة والنفاة في حكمته ورحمته باطل، ومن أعظم ما غلَّطهم اعتقادهم تأبيد جهنم فإن ذلك يستلزم ما قالوه، وفساد اللازم يستلزم فساد الملزوم" انتهى.

وأنت ترى في هذه الصفحات المنقولة عن رسالة ابن تيمية شبهًا كبيرًا فيما جاء فيها من الأمور بكلام ابن القيم في " الحادي " الذي نقل المؤلف خلاصات منه ورد عليها، مع فارق من حيث الإيجاز والبسط من جهة، وعدم تعرضه لكثير من المسائل والأحاديث والأدلة من جهة أخرى، وإن كان من الممكن أن يقال: أن من الجائز أن يكون ابن تيمية قد تعرض لذلك أيضًا في " رسالته " ولكن كاتب تلك الصفحات اختصرها كما يدل عليه قوله في أولها عن ابن تيمية: "وأما القول بفناء النار "، وقول الكاتب في آخر ثلث الصفحة الثانية من الثلاث: (انتهى) وكذا قال في آخر الثالثة أيضًا. والله أعلم، ولقد كان أملي كبيرًا في أن أجد رسالة ابن تيمية هذه محفوظة في " مجموع الفتاوى " التي جمعها الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم في خمس وثلاثين مجلدًا ولكني - مع الأسف - لم أجد لها أثرا في شيء منها بعد تقليبي لها كلها، والاستعانة على ذلك بالفهارس التفصيلية الموضوعة لها، وكان أقوى ظني أن يوردها تحت عنوان " التخليد " الموضوع في (الفهرس) (١/ ١٣٩) ولكن دون جدوى أو في " تفسير سورة هود " في آيتي الاستثناء فيها، لكني لم أرها مع أنه أشار إليهما في فهرس السورة (١/ ٢٩١) فلما رجعت إلى المكان الذي أشار إليه (١٥/ ١٠٤) لم أجد فيه سوى إشارة ابن تيمية إلى الآيتين بقوله: "ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا ثم قال... " أو في آية (الأنعام ١٢٨) من تفسير هذه السورة، ولكنها مما لا وجود له فيه مطلقا، أو في تفسير (النبأ) آية [لابثين فيها أحقابا] والقول فيه كالقول في الذي قبله، إلا أنه قد أشار في (الفهرس) (١/ ٣٤٥) أنها في موضعين من " المجموع "

=

=

الأول في (١٦/ ١٩٤ - ١٩٧) والآخر في (١٨/ ٣٠٧) ومع ذلك فليس للآية ذكر فيهما مطلقًا نعم في الموضع الأول (ص ١٩٧) ما يدل ظاهر كلامه أنه يقول بخلود الكفار في النار، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى في (سورة الأعلى): {ثم لا يموت فيها ولا يحيى} . ولكنه لا ينافي قوله بفناء النار؛ لأن له أن يقيده بقوله: ما لم تفن كما فعل بكثير من الآيات الصريحة بالخلود، بل والخلود الأبدي كما سترى ذلك مع رد المؤلف عليه في الرسالة إن شاء الله تعالى.

لكنه في الموضع الآخر قد صرح بخلاف ذلك وأن النار لا تفنى صراحة؛ فقد جاء في الصفحة المشار إليها منه ما نصه:

" وسئل عن حديث أنس بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: "سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار، وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش " فهل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب: هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإنما هو من كلام بعض العلماء. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرض وغير ذلك ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين...".

قلت: والظن بمن هو دون ابن تيمية علمًا ودينًا أن لا يخالف سلف الأمة وأئمتها، ولم لا وهو حامل راية الدعوة إلى اتباعهم، والسير على منهجهم، والتحذير من مخالفتهم، والخروج عن سبيلهم، كما لا يخفى ذلك على كل من اطلع على شيء من كتبه، وتغذى بطرف من علمه، لا سيما والنص في معنى ما ذكره محفوظ عن الإمام أحمد إمام السنة فقد ذكر في آخر كتابه " الرد على الزنادقة " وقد حكى عن الجهمية قولهم بفناء الجنة والنار فرده عليهم بشطريه

=

=

وذكر آيات كثيرة في بقاء الجنة ودوامها، ثم قال في رد قولهم بفناء النار:

" وذكر الله تعالى أهل النار فقال:

{لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها} (فاطر:٣٦).

وقال: {أولئك يئسوا من رحمتي} (العنكبوت:٢٣). وقال: {ولا ينالهم الله برحمته} (الأعراف:٤٩) وقال: {ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون} (الزخرف:٧٧) وقال: {سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} (إبراهيم:٢١) وقال: {خالدين فيها أولئك هم شر البرية} (البينة:٦) وقال: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب} (النساء:٥٦) وقال: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها} (السجدة:٣٠) وقال: {إنها عليهم مؤصدة} (الهمزة:٨).

هذا كله مما احتج به الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالى على القائلين بفناء النار وعدم دوامه وقد نقل عنه شارح قصيدة الإمام ابن القيم: (الكافية الشافية) (١/ ٩٧) أنه قال: "والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف ذلك فهو مبتدع " ونحوه قول ابن حزم في " الملل والنحل " (٤/ ٨٣): "اتفقت فرق الأمة كلها على: أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا جهم بن صفوان... " وفي " العقيدة الطحاوية " (ص ٤٢٠ - بشرحها طبع المكتب الإسلامي): "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان " ثم رأيت ابن حزم قد أورد المسألة أيضا في كتابه " مراتب الإجماع" فقال (ص ١٧٣):"... وأن النار حق وأنها دار عذاب أبدًا، لا تفنى ولا يفني أهلها أبدا بلا نهاية" وأقره شيخ الإسلام أحمد بن تيمية خلافا لغيرها من المسائل التي تعقبه فيها ومن العجيب أن هذا القول بعدم فنائها هو مما ذهب إليه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، كما يدل عليه ظاهر كلامه في كتابه " الروح " (ص ٣٤ - طبعة صبيح) بل ذلك

=

=

ما صرح به في بعضه كتبه:
١ - قال في " الكافية الشافية ": "ثمانية حكم البقاء يعمها من... الخلق والباقون في حيز العدم"هي: العرش والكرسي ونار وجنة... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم.
٢ - وأصرح منه ما كنت نقلته عنه في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " في كتابه " الوابل الصيب " (ص ٢٦) قال ما نصه: "وأما النار فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعضه، ثم يجعله في جهنم مع أهله فليس فيها إلا خبيث، ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، كانت دورهم ثلاثة:
دار الطيب المحض ودار الخبث المحض وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض.
٣ - تصريحه في مقدمة كتابه العظيم: "زاد المعاد في هدى خير العباد " بأن المشرك لا تطهره النار، ولو أخرج منها عاد خبيثًا كما كان وقد حرم الله عليه الجنة.
وسيذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نص كلامه في ذلك في أول الرسالة (ص ٦٣)
فإن قيل: إن بعض الآيات التي احتج بها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي على الأقل قطعية الدلالة في ديمومة عذاب الكفار وعدم فناء النار كقوله تعالى: {لا يخفف عنهم من عذابها} وقوله: {إنكم ماكثون} وقوله: {ما لنا من محيص} وغير ذلك من
=

=

الآيات التي تأولها ابن القيم وأخرجها عن دلالتها على عدم الفناء مما سيأتي ذكره في الرسالة ورد المصنف عليه، وكذلك بعض الأحاديث الصحيحة تدل دلالة قاطعة على ذلك، ولا بأس من أن أذكر الآن بعضها:

الأول: حديث أنس الطويل في شفاعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفيه: «فأخرجهم فأدخلهم الجنة فما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن. أي وجب عليه الخلود». رواه الشيخان وغيرهما وهو مخرج في «ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم» (٨٠٤ - ٨١٠).

الثاني: حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال: بخطاياهم فأماتهم الله تعالى إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة...» الحديث أخرجه مسلم (١/ ١١٨) وغيره وهو مخرج في "سلسلة الأحاديث الصحيحة " (١٥٥١). وفي رواية عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- خطب فأتى على هذه الآية: {لا يموت فيها ولا يحيى} فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: فذكره نحوه إلا أنه قال: «وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم....». ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية من رواية أبي حاتم كما في " مجموع الفتاوى " (١٦/ ١٩٥).

ووجه دلالة الحديث أنه صرح تبعا للقرآن أن الكافر لا يموت في النار ولا يحيى، فإذا قيل بأن النار تفنى؛ فإما أن يقال: تفنى بمن فيها كما هو المتبادر إن قيل بفنائها، أو تفنى لوحدها دون من فيها، وكلاهما باطل، لأن معنى الآية كما في "تفسير ابن كثير ": "أن الكافر لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه "، فإن فني الكافر معها فقد مات واستراح، وإن حيي دونها فقد

=

=

استراح منها أيضًا، وكل هذا باطل بداهة، فإذا انضم إلى ذلك القول بأنه يدخل الجنة فهو أبطل.

الثالث: حديث ذبح الموت بين الجنة والنار وقد جاء عن جمع من الصحابة كابن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم في " الصحيحين " وغيرهما فلنذكر حديثين منها:

أحدهما: عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه» أخرجه الشيخان. والآخر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيها أبدا». أخرجه ابن ماجه بإسناد جيد كما قال المنذري وصححه ابن حبان (٢٦١٤) وأحمد (٢/ ٢٦١).

قلت: ففي الحديث دلالة قاطعة على بطلان دعوى فناء النار؛ لأنه جعلها كالجنة من حيث خلود أهلها فيما هم فيه من العذاب إلى الأبد، فكما أن الجنة لا تفنى أبدًا فكذلك النار لا تفنى أبدًا، وكل ذلك واضح بين إن شاء الله تعالى.

بعد هذا أعود فأقول: إن ما تقدم من الآيات والأحاديث صريحة في الدلالة على بطلان القول بفناء النار، فكيف ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له تلميذه ابن قيم الجوزية؟ فأقول: إن أحسن ما أجد في نفسي من الجواب عنهما إنما هو أنه لما توهما أن بعض الصحابة قد ذهبوا إلى ذلك، وهم قدوتنا جميعًا

=

=

لو صح ذلك عنهم روايةً ودرايةً ولم يصح كما سيأتي بيانه عند المؤلف الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ، واقترن مع ذلك غلبة الخوف عليهما من الله {ولمن خاف مقام ربه جنتان} والشفقة على عباده تعالى من عذابه، وغمرهما الشعور بسعة رحمته وشمولها حتى للكفار منهم، وساعدهما على ذلك ظواهر بعض النصوص ومفاهيمها، فأذهلهما ذلك عن تلك الدلالة القاطعة، وقالا ما لم يقل أحد قبلهما، وما أرى لهما شبهًا في هذا إلا ذلك المؤمن الذي أوصى أهله أن يحرقوه بالنار ليضل عن ربه فلا يقدر على تعذيبه زعم كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم به، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت، أعلم فغفر الله له».

أخرجه الشيخان وغيرهما عن جمع من الصحابة منهم أبو هريرة وهذا لفظه عند مسلم (٨/ ٩٧) وسيأتي عن ابن يتيمة وغيره أنه متواتر في التعليق (٩٧)

فهذا الرجل أنساه خوفه من ربه قدرته تعالى على إعادة خلقه وهي معلومة يقينًا {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} (يس:٧٨ ٧٩) فما أشبه ابن تيمية به من حيث أنه غفل عن المعلوم يقينًا أيضًا، وهو أن النار باقية لا تفنى، إلا أن الحامل له على ذلك إنما كان ثقته البالغة في رحمة ربه وعفوه، وأنها وسعت كل شيء دون ما استثناء، ووافق ذلك منه خلقًا كريمًا وطبعًا رحيمًا جبله الله عليه عرف به بين أصحابه، ولا أدل على ذلك مما كتب به إليهم من سجنه الظالم في مصر: "فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت

=

=

كل مسلم وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي... أسأل الله أن يتوب عليهم وأنتم تعلمون هذا من خلقي...". انظر " مجموع الفتاوى " (٢٨/ ٥٥ - ٥٦).

وساعده على ذلك ظواهر بعض الآيات والأحاديث التي لم يمعن النظر فيها فلم يتبين له خطأ استدلاله بها، حتى استقر ذلك القول في نفسه، وأخذ بمجامع لبه، فصار يدافع عنه ويحتج له بكل دليل يتوهمه ويتكلف في الرد على الأدلة المخالفة له تكلفًا ظاهرًا خلاف المعروف عنه، وتبعه في ذلك بل وزاد عليه تلميذه وماشطة كتبه - كما يقو ل البعض - ابن قيم الجوزية.

حتى ليبدو للباحث المتجرد المنصف أنهما قد سقطا فيما ينكرانه على أهل البدع والأهواء من الغلو في التأويل والابتعاد بالنصوص عن دلالتها الصريحة، وحملها على ما يؤيد ويتفق مع أهوائهم، كما سترى ذلك مفصلا في " الرسالة " هذه (ص ١١٦ - ١٢٢)، حتى بلغ الأمر بهما إلى تحكيم العقل فيما لا مجال له فيه كما يفعل المعتزلة تمامًا، وقد تعلمنا من ابن تيمية وابن القيم - جزاهما الله خيرًا - الرد عليهم في مثله؛ فزعما أن عذاب النار سبب لإزالة آثار الخبث والنجاسة من الكفار فإذا تطهروا منها عادوا إلى فطرتهم الأولى فيزول العذاب ويبقى مقتضى الرحمة. كما سيأتي (ص ١٢٢) نقلًا عن ابن القيم ومضى نحوه من كلام ابن تيمية. فتأمل معي في ذلك تجده كلامًا خطابيًا خياليًا لا حقيقة تحته، فإنه يفترض ذهاب تلك الخبائث وتلاشيها، وزوال العذاب عن الكفار وهم في الدار الآخرة حيث لا تكليف فيها، فإن من المعلوم يقينًا أننا لو تخيلنا كافرًا تاب إلى ربه وأناب إليه حينما رأى العذاب بأم عينيه أنه لا يفيده ذلك شيئًا بالإجماع، فكيف ينفعه شيء وهو لم يتب وهو في العذاب محترق؟ تالله إنها لإحدى الكبر أن يخفى مثل هذا على أحد من المسلمين، فكيف بشيخ الإسلام وتلميذه ابن

=

القيم الهمام ونحن دائمًا نغترف من بحر علومهما ونستضيء بنور أدلتهما في إزالة الشكوك والأوهام، في كثير مما اختلف فيه الناس قديمًا وحديثًا، وعلى سبيل المثال المناسب للحال أذكر هنا ملخصًا فتوى لابن تيمية جاءت في " مجموع الفتاوى " (٤/ ٣٢٤): "سئل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: هل صح عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– أن الله تعالى أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك؟ "

فأجاب: "لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث، بل أهل الحديث متفقون على أن ذلك كذب مختلق، وإن كان قد روي بإسناد فيه مجاهيل، وأمثال هذه المواضع فلا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذبًا، كما نص عليه أهل العلم، فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله؛ فإنه من أعظم الأمور خرقا للعادة من وجهين:

١ – من جهة إحياء الموتى:

٢ – ومن جهة الإيمان بعد الموت، ثم هذا خلاف الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع قال الله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما. وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} (النساء:١٧ ١٨). فبين الله تعالى أنه لا توبة لمن مات كافرًا. وقال تعالى: {فلم يك ينفعهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} (غافر:٨٥) فأخبر أن سنته في عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس فكيف بعد الموت؟ "

قلت: فمن يفتي بهذا كيف يعقل أن يقول بنقيضه، لولا الذهول الذي نوهت عنه، بل إنه زاد على ذلك فقال ابن تيمية فيما تقدم من رسالته (ص ١٣):

=

"ولو قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة "! ويا سبحان الله أين هو من مثل قوله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} (الأعراف:١٥٦) وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن لله مائة رحمة، سأنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة». أخرجه الشيخان، وكذا أحمد، والحاكم وصححه، من طرق عن أبي هريرة بلفظ: «فيكملها مائة رحمة لأوليائه يوم القيامة»، وله بعض الشواهد خرجتها معه في " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (رقم ١٦٣٤) فالآية الكريمة والحديث الشريف صريحان في أن الرحمة إنما هي للذين يستحقونها من المؤمنين، كلما كان المؤمن لله أتقى كلما كان بها أحظى، وليس الأمر كما يرجو بعض المهابيل من الذين يترنمون بقول شاعرهم البوصيري: لعل رحمة ربي حين يقسمها... تأتي على حسب العصيان في القسم كيف هذا وربنا يقول: [والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروق وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم] (التوبة/ ٧١) ويقول: {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} (البقرة:٢١٨) ولذلك كان من دعاء الملائكة الذين يحملون العرش: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} (غافر:٧). فكل من وقاه الله تبارك وتعالى عذاب الجحيم فهو منغمس في رحمة الله يومئذ، كما هو صريح قوله ﷻ: {فأما الذين اسودت وجوههم أكفرت بعد إيمانكم فذقوا العذاب بما كنتن تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون}

=

=

(آل عمران:١٠٦ و١٠٧).

فكيف يقول ابن تيمية: «ولو قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة "، فكأن الرحمة عنده لا تتحقق إلا بشمولها للكفار المعاندين الطاغين، أليس هذا من أكبر الأدلة على خطأ ابن تيمية وبعده هو ومن تبعه عن الصواب في هذه المسألة الخطيرة؟ فغفرانك اللهم.

ولعل ذلك كان منه إبان طلبه للعلم، وقبل توسعه في دراسة الكتاب والسنة، وتضلعه بمعرفة الأدلة الشرعية في الوقت الذي كان يحسن الظن بابن عربي الصوفي القائل بأن عذاب الكفار في النار لا يستمر، بل ينقلب عليهم إلى عذوبة يتلذذون بها كما في " حادي الأرواح " (٢/ ١٦٨) فلما تبين له حاله رجع عنه كما تحدث بذلك هو نفسه فقال كما في " مجموع الفتاوى " (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥): "وإنما كنت قديمًا ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من " الفتوحات " " والدرة الفاخرة " و" مطالع النجوم "ونحو ذلك، ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع " الفصوص" ونحوه...».

ومثله جزمه بحياة الخضر عليه الصلاة والسلام مع إبطاله لحديث «لو كان الخضر حيًا لزارني» وقوله: بل المروي في " مسند الشافعي وغيره أنه اجتمع بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن قال إنه لم يجتمع بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد قال ما لا علم له "، ذكر له ذلك في فتوى له تجد نصفها في (المجموع) (٤/ ٣٣٨ - ٣٤٠) انظر (١٠/ ٤٦). فإن المعروف عنه رَحِمَهُ اللهُ أنه يقول بموت الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما هو قول كثير من الأئمة كالإمام البخاري، وقد صرح بذلك في كثير من رسائله وفتاويه فقال في " زيارة بيت المقدس " (٢٧/ ١٨): "وكذلك الذي يرون الخضر أحيانًا هو جني لبس على المسلمين الذي

=

=

رأوه، وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مات، ولو كان حيًا على عهده رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لوجب عليه أن يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويؤمن به ويجاهد معه... ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرًا من أن يلبس الشيطان عليهم، ولكن لبس على كثير ممن بعدهم...".

وقال في موضع آخر (٢٧/ ١٠٠): "والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجودًا في زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لوجب أن يؤمن به ويجاهد معه... وإذا كان الخضر حيًا دائمًا فكيف لم يذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك قط، ولا أخبر به أمته ولا خلفاؤه الراشدين؟ "

قلت: حتى ولا ذكر ذلك لأمين سره حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمن ذا الذي يدعي بعد ذلك أنه علمه ما لم يعلم هؤلاء الأجلة العظماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد صرح ابن تيمية بموت الخضر في مواطن أخرى كثيرة فانظر مثلًا (١/ ٢٤٩) من " المجموع "، أليس في ذلك دليل واضح على أن فتواه الأولى بحياة الخضر كانت في أول أمره ولا سيما وقد احتج لها بحديث الشافعي وهو موضوع كما هو مبين في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " برقم (٥٢٠٤) فيه القاسم بن عبد الله العمري قال أحمد: "كان يكذب ويضع الحديث".

ومن ذلك أنه كان يفتي بنجاسة الزيت ونحوه إذا وقعت فيه نجاسة مثل الفأرة الميتة، كما هو مذهب الشافعي وغيره، اعتمادًا منه على حديث أبي داود: «إن كان جامدا فألقوها وما حولها وكلوا سمنكم، وإن كان مائعا فلا تقربوه».

فلما تبين له أن قوله فيه: «وإن كان مائعا فلا تقربوه» ضعيف رجع عنه إلى القول:

=

=

بعدم التفريق بين المائع والجامد، وأن العبرة في كل ذلك إنما هو التغير، فقال في فتوى له:

" وهذا هو الذي تبين لنا ولغيرنا ونحن جازمون بأن هذه الزيادة ليست من كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلذلك رجعنا عن الإفتاء بها بعد أن كنا نفتي بها أولًا، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل " " مجموع الفتاوى" (٢١/ ٥١٥ - ٥١٦).

ونحوه رجوعه عن بعض أحكام المناسك التي كان قلد فيها من قبله من العلماء كما قال في "منسكه " (المجموع ٢٦/ ٩٨).

ولا غرابة في أن يكون لمثله أكثر من قول واحد في بعض المسائل، وأن يخطئ في بعض آخر؛ فإن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا يخلو منها أحد من العلماء بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن من المعلوم أن أحدهم كلما طال به الزمن في طلب العلم، وتقدم به في ذلك العمر، كلما ازداد به معرفةً ونضجًا، وهذا هو السبب في كثرة الأقوال التي تروى في المسألة الواحدة عن بعض الأئمة المتبوعين، وبخاصة منهم الإمامين أحمد وأبا حنيفة، وتميز الإمام الشافعي من بينهم بمذهبه القديم والجديد، وهذا أبو الحسن الأشعري - إمام الأشاعرة في العقيدة - نشأ في الاعتزال أربعين عامًا يناظر عليه، ثم رجع عن ذلك وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في " المجموع " (٤/ ٧٢).

وقد صرح بهذه الحقيقة الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ حين نهى أبا يوسف عن تقليده فقال له: "ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمع مني، فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غدًا، وأرى الرأي غدًا وأتركه بعد غد".

ولذلك تتابعت أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم في النهي عن تقليدهم، وجرى في

=

=

ذلك على سننهم كل من جاء بعدهم من العلماء المحققين من أمثال ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، وجريت أنا على هذا الذي خططوه لنا في كل ما تبين من العلم كما تراه موضحًا في مقدمة "صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-".

وهذا هو السبب الذي يحملني على أن لا أحابي في ذات الله أبًا، أو أداري في دين الله أحدًا، فترانا هنا نرد على شيخ الإسلام ابن تيمية قوله بفناء النار، ولا نداريه مع عظمته في نفوسنا، وجلالته في قلوبنا فضلًا عن أننا لا نقلده في ديننا، خلافًا لما عليه عامة المقلدة الذين يحملهم إجلالهم لإمامهم على تقليده، ونبذ قول كل من خالف، حتى ولو كان المخالف هو النبي محمدًا ﷺ، بديل أن يتخذوه وحده قدوةً ولا يشركوا معه في ذلك أحدًا كما هو الواجب بل إنهم ليصرحون بخلاف ذلك كما قال أحدهم اليوم في كتيب له: "أفلا يحق لنا أن نعتبر من واقع غيرنا (يعني السلفيين) فنثبت عند أقوال الإمام الذي يسر الله تعالى لنا الاقتداء به منذ أول نشأتنا".

ونحن نقول بقول رب العالمين في القرآن الكريم: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير]؟ فأين أنت يا هذا من قوله تبارك وتعالى: [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر} ؟ وغير ذلك من النصوص التي توجب على كل مسلم اتباعه -صلى الله عليه وآله وسلم- دون سواه {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} ولكن {من لم يجعل الله له نورا فما له من نور} .

وإذا كان هذا موقف المقلدة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فماذا يكون موقفهم من المحبين له، المخلصين في الاقتداء به، لا سيما إذا كان من العلماء العاملين المعروفين بالرد على كل من خالف شرعة رب العالمين؛ كابن

=

=

عربي وابن الفارض القائلين بوحدة الوجود، وأن الخالق هو عين المخلوق، وعلى غيرهم من علماء الكلام والمتصوفة والمقلدة، وسائر الهالكين من الأنام، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإننا نرى المقلدة في كل عصر ومصر يعادونه أشد العداء، لا سيما إذا عثروا له على قول خالف فيه العلماء كمسألتنا هذه، فهناك تراهم يصولون ويجولون، ومن عرضه ينالون، وفي دينه يطعنون، بل وبالكفر والضلال يصرحون، كما يفعل الكوثري والحبشي وغيرهما اليوم، وهم - مع الأسف -كثيرون، ولكنهم غثاء كغثاء السيل؛ لأنهم بالقرآن لا يعملون، بل هم عنه يعدلون، إلى تحكيم أهوائهم، وإلا فأين هم من قوله تعالى: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.

فهل من العدل في شيء أن يتخذوا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ غرضًا للتكفير والتضليل لقوله هذا ونحوه من الأقاويل، ولا ينبسون ببنت شفة في حق ابن عربي مثلًا الذي ملأ الدنيا بالكفريات والأضاليل، وهلك بسببه الألوف المؤلفة من خاصة المسلمين، فضلًا عن عامتهم المهابيل، فضلُّوا جميعا عن سواء السبيل، مع البون الشاسع والفرق اللامع بين الرجلين؛ فإن عربي ليس له ذكر ولا أثر في العلوم الإسلامية، كالتفسير والحديث والفقه كما لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، الذي شهد بفضله وغزارة علمه القريب والبعيد، والحبيب والبغيض فهم، جميعًا يغترفون من بحر علومه بأوفى نصيب، فهو بحق كما قال السيد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: "رحم الله شيخ الإسلام وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فوالله إنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه: في بيان حقيقة هذا الدين، وحقيقة عقائده، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل لا نعرف أحدًا منهم أوتي مثل ما أوتي من الحجج بين علوم النقل وعلوم

=

=

العقل بأنواعها، مع الاستدلال والتحقيق دون محاكاة أو تقليد".
وما لنا نذهب بعيدًا، فهناك بعض الأئمة المتقدمين ممن يقلدهم اليوم جماهير المسلمين، ممن ذهب إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، مع مخالفة ذلك لأدلة الكتاب والسنة الصريحة وأقوال سلف هذه الأمة، مما هو معروف ومبسوط في محله، فلماذا مع ذلك يعتذر عنه بعض المقلدين وجمهورهم له يقلدون، وعن ابن تيمية يزورن، بل وله يعادون، والحكم واحد فهلاّ ساقوهما مساقًا واحدًا، واعتذروا عنهما كليهما بجامع كونهما من أفاضل العلماء الأتقياء أم الأمر كما قال الشاعر:
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
ولست بالذي يتبع عثرات العلماء، وإنما هي الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون، فينصفون ابن تيمية ولا يظلمون، وإلا فإن من فضائل ابن تيمية التي حرمها المقلدة علمًا وعملًا تحذيره عن تتبع زلات العلماء، وعن التكلم فيهم؛ لأن الله عفا عما أخطؤوا فيه، فقال في آخر رسالته في تحريم الشطرنج في " المجموع " (٣٢/ ٢٣٩) ما نصه: "وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل؛ فإن الله تعالى عفا عن المؤمنين عما أخطؤوا كما قال تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} قال الله: قد فعلت" رواه مسلم. وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا، ولا نتبع من دونه أولياء، وأمرنا أن لا نطيع مخلوقًا في معصية الخالق، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فنقول: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان}، وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور، ونعظم أمره تعالى بالطاعة لله ورسوله، ونرعى حقوق المسلمين لا سيما أهل العلم منهم كما أمر الله ورسوله، ومن عدل عن هذه الطريقة فقد عدل عن اتباع الحجة إلى اتباع

=

=

الهوى في التقليد، وآذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو من الظالمين، ومن عظم حرمات الله وأحسن إلى عباد الله كان من أولياء الله المتقين". {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، وإن مما يمنع توجيه الطعن في ابن تيمية لقوله بفناء النار علاوة على ما ذكرنا آنفًا؛ أن له قولًا آخر في المسألة، وهو عدم فنائها كما سبق بيانه بالنقل عنه، وإذا كنا لا نعلم أي القولين هو المتأخر فمن البدهي أن الطاعن لا بد له من الجزم بأنه هو الأول، ودون هذا خرط القتاد، وأما نحن فإن حسن الظن الذي أُمِرنا به يقتضينا بأن نقول: لعله القول الآخر؛ لأنه موافق للإجماع الذي نقله هو نفسه فضلًا عن غيره كما تقدم، وقد يؤيده هذا أن ابن القيم نقله أيضًا كما سبق في قصيدته " الكافية الشافية " فالظاهر أنه مات على ذلك؛ لأنها قرئت عليه في آخر حياته فقد ترجمه الحافظ ابن رجب الحنبلي في " طبقاته " وذكر في آخرها ما يشعرنا بذلك فقال: (٢/ ٤٤٨): "ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها".

أقول فإذا صح ظننا هذا فالحمد لله، وإلا فأسوأ ما يمكن أن يقال: إنه خطأ مغفور لهما بإذن الله تعالى؛ لأنه صدر عن اجتهاد صادق منهما، ومعلوم أن المجتهد مأجور ولو أخطأ، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد». متفق عليه وقد تقرر في الأصول أن الخطأ مغفور ولو في المسائل العلمية كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه وفتاويه، هذا بالإضافة إلى ما لهما من الجهاد والبلاء الحسن في الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة والرد على المبتدعة والفرق الضالة، وتقديم الإسلام إلى المسلمين صافيًا نقيًا على منهج السلف الصالح، وإن ما نراه اليوم في العالم الإسلامي من نهضة فكرية وعلمية ودعوة سنية سلفية

=

=

فهو ثمرة من ثمار جهادهما وصبرهما جزاهما اله تعالى عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

ولذلك رأينا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى مع أنه لم يقصِّر في الرد عليهما، فإنه لا يذكرهما إلا مقرونًا بالإجلال والإكبار وبخاصة الشيخ ابن تيمية، فإنه وصفه في أول الكتاب بـ " العلامة شيخ الإسلام " أو يذكره بهذا اللقب كثيرًا ووصفه في مكان آخر (ص ١٢٠): "بتبحره في العلوم، وسعة اطلاعه على أقوال السلف والخلف " وصدق من قال: "إنما يعرف الفضل لذوي الفضل أهل الفضل".

أقول هذا؛ لأن كثيرًا من المقلدة المتعصبة تقزز نفوسهم من إطلاق لقب " شيخ الإسلام " على ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، حتى أن العلاء البخاري الحنفي المتعصب كفر من يلقبه به، وقد رد عليه أحسن الرد الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي في كتابه القيم " الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافر "، ذكر فيه نحو المائة من كبار العلماء المشهورين من مختلف المذاهب وكلهم يلقب ابن تيميه يلقبه: (شيخ الإسلام). وقد قام بتحقيقه والتعليق عليها أخونا الأستاذ زهير الشاويش صاحب المكتب الإسلامي جزاه الله خير الجزاء على جهده القيم.

أقول هذا بيانًا للحقيقة، وإلا فأنا أعلم أن هذا اللقب وغيره مما هو مستعمل اليوم لم يكن معروفًا عند السلف، فالخير كله في الاتباع، ولا سيما وقد صار مبتذلًا في العصور المتأخرة، بحيث أنهم يطلقونه نفاقًا ورياء على من لا علم عنده، بل هو ممن يصدق عليه المثل الشهير:"لا في العير ولا في النفير".

ولعل من ألطاف الله تعالى بالشيخين رحمهما الله تعالى أننا لم نر أحدًا - فيما اطلعنا - تبعهما على ذلك القول بالفناء، فهذا شارح العقيدة الطحاوية مثلا فإنه مع كونه لا يكاد يخرج فيه عما ذهب إليه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فإنه ههنا ذكر

=

=

أدلة هذا القول، ثم ذكر أدلة القول الآخر وهي ملخصة من كلام ابن القيم، ولم يرجح شيئًا منهما، ذكر ذلك تحت قول الطحاوي المتقدم: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان".

وأما العلامة السفاريني فقد رأيته تعرض للموضوع في كتابه " شرح الدرة المضية في عقد الفرق المرضية " ونقل فيه طرفًا من بحث ابن القيم، ولكنه صرح بمخالفته، فإنه ذكر بعض الآيات المستلزمة لدوام العذاب وحديث ذبح الموت المتقدم ثم قال (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥): "فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلودًا مؤبدًا، كل بما فيه من نعيم وعذاب أليم، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، فأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع، وقد ألف العلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رسالة سماها " توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين".

وهذا ما ذهب إليه الشيخ نعمان الآلوسي فإنه تعرض للمسألة في كتابه " جلاء العينين في محاكمة الأحمدين " (ص ٤٢٠ - ٤٢٤) نقل فيه الأقوال السبعة في عذاب أهل النار وقال: "وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والأصح عدم فنائها أيضا".

ثم قال في قول ابن تيمية: "واعلم أن الإمام ابن القيم قدس الله تعالى روحه انتصر لهذا القول انتصارًا عظيمًا، ومال إليه ميلًا جسيمًا، وذكر خمسة وعشرين دليلًا، ثم رجع القهقرى وقال: إن قيل: إلى أين انتهى قدمك في هذه المسألة العظيمة؟ قيل: إلى قوله تعالى {إن ربك فعال لما يريد} وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة وأهل النار وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء قال: ثم يفعل لك بعد ذلك ما يشاء. ثم قال: وما ذكرناه في هذه المسألة من صواب فمن الله سبحانه وهو المنان، وما كان من خطأ فهو

=

=

مني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه".

قلت: وقوله في ابن القيم: "ثم رجع القهقرى وقال... " نظر عندي؛ لأنه ليس صريحًا في ذلك، وغاية ما يمكن أن يؤخذ منه أنه لم يجزم بما دندن حوله من الانتصار للقول بفناء النار، ومناقشة أدلة المخالفين ورده عليها مما سترى الرد عليه فيها في الكتاب إن شاء الله تعالى، ولكن ذلك لا ينفي ميله إلى ترجيحه إياه، وإلا كانت دندنته {كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا} وهذا مما لا يليق أن يقال في مثله كما لا يخفى، ويؤيد هذا أن خاتمته للبحث في " شفاء العليل " التي أشرت إليها آنفا أقوى في الدلالة على ما ذكرت فإنه قال ما خلاصته (ص ٢٦٤): "وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه ذكر دخول أهل الجنة... والقول بأن النار وعذابها دائم بدوام الله خبر عن الله بما يفعله، فإن لم يكن مطابقا لخبره عن نفسه بذلك، وإلا كان قولا عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك. والله أعلم".

قلت: فقوله: "والنصوص لا تفهم ذلك " صريح منه بأنه لا يختار القول ببقاء النار، فهو إذن يميل إلى القول بفنائها، غير أنه لا يقطع بذلك لأنه يشعر أنه ليس لديه دليل قاطع فيه، وإنما هو فهمه واستنباطه، ولذلك ترك فيها مجالًا للأخذ والرد كما هو شأن العلماء المنصفين الذين لا يفرضون رأيهم على الآخرين، لا سيما في مثل هذا الفهم الذي أجمع العلماء على خلافه ومما يؤكد ذلك قوله في خاتمة بحثه في " الصواعق ":"... فتأمل هذا الوجه حق التأمل، وأعطه حقه من النظر، واجمع بين ذلك وبين معاني أسمائه وصفاته، وما دل عليه كلام الله وكلام رسوله، وما قاله الصحابة ومن بعدهم، ولا تبادر إلى القول بلا علم، ولا إلى الإنكار، فإن أسفر لك صبح الصواب، وإلا فرد الحكم إلى ما رده الله إليه بقوله {إن ربك فعال لما يريد} وتمسك بقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ذكر

=

=

دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ووصف حالهما ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء".

ولكني ألاحظ في هذا النص أنه يأمر فيه من لم يتبين الصواب أن ينهي إلى قوله تعالى: {إن ربك فعال لما يريد} وقول علي المذكور وذلك ما انتهى هو إليه في خاتمة " الحادي".

فهل يعني ذلك أن ابن القيم نفسه بعد تلك المناقشة الطويلة لم يتبين له الصواب فانتهى إلى ما أمر به من لم يتبين له الصواب، أم هو التردد في مثل هذه المسألة الخطيرة التي كان الأولى به أن يقف فيها حيث وقف العلماء، ولا يدخل نفسه في مضايق لا قبل للعقل البشري أن يدخلها؟

ويؤسفني والله جدا قوله المتقدم: "والنصوص لا تفهم ذلك " كيف يتجرأ على مثل هذا القول، والنصوص قاطعة في ذلك من الكتاب والسنة كما تقدم، فلا جرم أجمعت على مدلولها الأمة، فالحق والحق أقول: لقد أصيب ابن القيم في هذه المسألة مع الأسف الشديد بآفة التأويل التي ابتلي بها أهل البدع والأهواء في مقالتهم التي خرجوا بها عن نصوص الكتاب والسنة، فرد عليهم ذلك هو وشيخه ابن تيمية أحسن الرد في كتبهما الكثيرة المعروفة، فما باله وقع في مثل ما وقعوا من التأويل.

ولقد كان أوله في تأويلهما قول عمر على انقطاعه: "لو لبث أهل النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه". فاستدلا به على الفناء المزعوم، وهو صريح في الخروج من النار، وهما لا يقولان به، وهكذا تأولوا كثيرا من الآثار بالفناء وهي في الخروج كما ستراه مفصلا في الكتاب بإذن الله تعالى.

ثم قال الشيخ نعمان الآلوسي في " محاكمة الأحمدين " ص (٤٢٤): "ونقل الوالد قدس الله تعالى روحه في " تفسيره " عن الفهامة ابن الجوزي: أنه ضعف

=

=

بعض الآثار الواردة في ذلك. " ثم ذكر خبر ابن عمرو الآتي (ص ٨١) ثم قال: وأول البعض أيضًا بعضها قال:

"وأنت تعلم أن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون لا عبرة بالمخالف، والقواطع أكثر من أن تحصى، ولا يقاوم واحدًا منها كثير من هذه الأخبار".

قلت: ولو كان العلم بالتمني لتمنيت أن يكون ما عزاه العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي لابن القيم صحيحًا، ولكنها من أوهام العلماء فقد قال في تفسيره "محاسن التأويل" (٦/ ٢٥٠٣ - ٢٥٠٤):

"وقد بسط البحث وَجَوَّدَ الإمام ابن القيم في كتابه " حادي الأرواح " ومع كونه انتصر لهذا القول انتصارًا عظيمًا وذكر له خمسة وعشرين دليلًا؛ لم يصححه حيث قال: وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والأصح عدم فنائها. أيضًا." انتهى.

فقوله: "وأما أبدية النار... " إلخ. إنما هو من كلام الشيخ نعمان الآلوسي كما تقدم نقله عنه توهمه الشيخ القاسمي - على ما كان عليه من الوعي - أنه من كلام ابن القيم وبناء عليه قال: "لم يصححه "، فهو وهم آخر نشأ من الوهم الأول، فسبحان من لا يسهو ولا يهم.

هذا - ثم إن ابن القيم - عفا الله عنا وعنه لم يقنع بميله إلى القول بفناء نار الكفار، وتخلصهم به من العذاب الأبدي في تلك الدار، حتى طمع لهم في رحمة الله أن ينزلهم منازل الأبرار، جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك ما يظهر لنا من بعض الأدلة التي ساقها تأييدًا للقول بفناء النار، وهو مما نبه عليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ معقبا على قول ابن القيم: "ثم تفنى ويزول عذابها " فقال (ص ٦٤): "يريد: ويدخل الله من كان فيها من الكفار الجنة، كما ستعرفه من الأدلة التي ذكرها".

وأعاد هذا المعنى في مكان آخر (ص ١٢٠).

=

=

وإن مما لا شك فيه أن هذا الذي استظهرناه هو في الخطورة والإغراق كقوله بالفناء إن لم يكن أخطر منه؛ لأنه كالثمرة له، ولأنه لا قائل به مطلقًا من المسلمين بل هو من المعلوم من الدين بالضرورة للأدلة القاطعة بأن الجنة محرمة على الكفار كقوله تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} (المائدة:٧٢) وقوله: {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط} (الأعراف:٤٠) وكقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أمر بالمناداة به يوم حنين: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة». أخرجه البخاري ومسلم (١٠/ ٧٤) عن أبي هريرة وله مثله عن عمر بلفظ"... إلا المؤمنون» وله شواهد فانظر «إرواء الغليل» (٩٦٣) إن شئت. ويكفي في ذلك قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (النساء:٤٨).

فإننا نعلم بالضرورة أن من دخل الجنة فقد غفر الله له وعلى العكس.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بحث له في " المجموع " (١٤/ ٤٧٦ - ٤٧٧) " "ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد وهم أهل {لا إله إلا الله}". ثم قال: "ولكن لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولًا، وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه".

قلت: ومثل هذا مما لا يخفى على ابن القيم، بل هو ممن صرح بذلك في غير ما موضع من كتبه، فهو يقول مثلًا في " الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي". (ص ٨٩): "إن الله حرم الجنة على كل مشرك".

بل إنه لما حكى في " الحادي " (٢/ ١٦٩ - ١٧٠) قول من يقولك أن أهل النار يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم آخرون، أبطله بعدة آيات ساقها كلها صريحة في عدم خروج أهل النار منها، وكان آخرها آية

=

=

الأعراف المتقدمة: {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}. قال عقبها: "وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة "

وحينئذ كيف يصح ما سبق من استظهارنا أن ابن القيم يميل إلى القول بأن الكفار يدخلون الجنة بعد العذاب؟

والذي يدور في ذهني من الجواب على وجهين:

الأول: إما أن يقال: أن صريح كلامه ينافي ما وصل إليه باستنباطه فهو الذي ينبغي الاعتماد عليه ونسبته إليه وهو الأحب إلي.

والآخر: أن يجمع بين الصريح والمستنبط فيقال: الصريح يريد به دخول الكافر الجنة بعد خروجه من النار، فهذا هو المستحيل، وأما المستنبط فإنما يريد به دخول الجنة بعد فناء النار.

وهذا الجمع وإن بدا غريبًا، فليس بأغرب من تفريقه بين انتهاء عذاب الكفار بخروجهم من النار، فهذا مستحيل أيضًا وفقًا لجميع العلماء، وبين انتهاء عذابهم بفناء النار فهذا أمر جائز، بل واقع عنده، ويجادل فيه، ويصول ويجول ويتأول النصوص الصريحة المخالفة له، مما لا نعرفه عنه وإنما عن أهل البدع والأهواء الذين قضى حياته هو وشيخه في الرد عليهم، والكشف عن ضلالتهم، وبغير هذا الجمع لا يمكن أن يفهم كلامه في رده على مخالفيه، فانظر إلى قوله في " الحادي " (٢/ ١٨٥): "وأما الطريق الثاني وهو دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها، فإن في القرآن دليل واحد يدل على ذلك؟ نعم الذي دل عليه القرآن: أن الكفار خالدين في النار إلى الأبد وأنهم غير خارجين منها و... و... و... وليس هذا مورد النزاع وإنما النزاع في أمر آخر وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء. قال: "وأما كون الكفار لا يخرجون منها و {لا يفتر عنهم} من عذابها {ولا يقضى عليهم فيموتوا} {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجميل في سم

=

=

الخياط} فلم يختلف في ذلك الصحابة والتابعون ولا أهل السنة فهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون منها... مع بقائها البتة".

فتأمل نقله اتفاق الصحابة ومن بعدهم على أنهم لا يدخلون الجنة كما في الآية الكريمة، فإنه لا يتفق مع ميله إلى أنهم يدخلون الجنة يومًا ما إلا يحمل الدخول المنفي على دخول مقرون بخروجهم من النار، والدخول المثبت على دخولهم بعد فناء النار، كما ذكرنا، وهذا المعنى يكاد يكون صريحًا في سياق كلامه على هذه الطريق في كتابه " شفاء العليل "، فإنه قال بعد الآيات النافية المتقدمة بما فيها الآية النافية لدخولهم الجنة قال (ص ٢٦٠): "وهذه الطريق لا تدل على ما ذكروه، وإنما يدل على أنها ما دامت باقية فهم فيها، فأين فيها ما يدل على عدم فنائها؟ "

قلت: فكأنه يريد أن يقول: وأين الدليل أيضا في الآية المذكورة على نفي دخولهم الجنة بعد فناء النار؟ فيا سبحان الله ما يفعل التأويل بأهله، وإلى حضيض سحيق يهوون به فيه، وإلا فقل لي بربك: كيف يمكن لابن القيم أن ينكر أبدية النار ببقاء أهلها فيها وعدم دخولهم الجنة مطلقًا لولا تشبثه بذاك التأويل البشع، وهو المعروف بمحاربته لعلماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة لتأولهم كثيرًا من آيات وأحاديث الصفات، كاستواء الله على عرشه، ونزوله إلى السماء، ومجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من التأويل الذي هو أيسر من تأويله، فقد قال به كثير من المتأخرين خلافا للسلف، وأما تأويله فلم يقل به أحد منهم، لا من السلف، ولا من الخلف إلا تقليدًا لشيخه، ولقد كان من الواجب عليه أن يلتزم بقول إمامه الذي قال ناصحًا لكل سلفي:

" إياك أن تتلكم في مسألة ليس لك فيها إمام".

=

=

وكان في المحنة يقول: "كيف أقول ما لم يقل؟".

وإن مما يتنبه له الباحث المتأمل أن يرى موقفين متباينين أشد التباين لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى؛ فإنه في الوقت الذي مال إلى القول بفناء النار وانتصر له ابن القيم ذاك الانتصار الغريب المتكلف، نرى ابن القيم نفسه قد عقد في " الحادي " ستة أبواب في مسألة أخرى هي أهون من هذه بكثير من حيث موضوعها، ومن حيث اختلاف العلماء فيها ألا وهي: جنة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أهبط منها هل هي جنة الخلد التي وعد بها المتقون أم غيرها؟ على قولين للعلماء أطال النفس فيها جدًا (ص ٤٣ - ٨٠) وذكر حجة كل منهما، وما له وما عليه، وعلى الرغم من أن من القائلين بأنها ليست جنة الخلد أبا حنيفة وأصحابه، وابن عيينة، كما حكاه ابن القيم، ومال إليه هو في آخر الباب الرابع (ص ٦٨ - ٦٩): على الرغم من ذلك نرى شيخ الإسلام ابن تيمية يرده بكل صراحة وشدة يقول في بعض فتاويه:

"والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد، ومن قال إنها في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة".

فأقول: أليس كان الأحق بمثل هذا الرد الأشد من قال بفناء النار أيا كان القائل؛ لأنه لم يقل به أحد حتى ولا المعتزلة، ولأن أدلته وهمية لا حقيقة لها، كما سيفصل المؤلف القول في ذلك تفصيلًا، ويبين بطلانها تبيانًا بحيث لا يدع شبهة إلا أطاح بها، ولا متأثرًا بها إلا أعاده إلى الصراط المستقيم يمشي عليه سويًا.

غير أن هناك شبهة أخرى أوردها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لم أر المؤلف جزاه الله خيرا تعرض لها فلا بد لي أن أذكرها لأرد عليها بما يبدو لي، راجيًا منه تعالى أن يلهمني الصواب ويعصمني من الخطأ. قال في "الحادي " (٢/ ٢٢١): "لو جاء

=

=

الخبر منه سبحانه صريحًا بأن عذاب النار لا انتهاء له وأنه أبدي لا انقطاع له؛ لكان ذلك وعيدًا منه سبحانه، والله تعالى لا يخلف وعده، وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم: أن إخلافه كرم وعفو، وتجاوز بمدح الرب تبارك وتعالى عليه، فإنه حق له إن شاء تركه وإن شاء استوفاه، والكريم لا يستوفي حقه، فيكف بأكرم الأكرمين، وقد صرح سبحانه في كتابه في غير موضع بأنه لا يخلف وعده ولم يقل في موضع واحد لا يخلف وعيده وقد روى أبو يعلى.... عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: "من وعده الله على عمل ثوابًا فهو منجزه، ومن أوعده على عمل عقابًا فهو فيه بالخيار".

وأقول وبالله المستعان:

أولًا: قد جاءت الأخبار كتابًا وسنةً بأبدية النار وعذابها كما تقدم فلا داعي للإعادة، وما تشبث به ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في خلاف ذلك مردود بل باطل، كما يأتي شرحه من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

ثانيًا: ما ذكره: أن مذهب أهل السنة كلهم جواز إخلاف الله لوعيده، لا أعلمه بهذا الإطلاق، وقد بحث شيخ الإسلام الخلاف المعروف بين المرجئة والمعتزلة في الوعد والوعيد في مناسبات شتى فلم يذكر هذا بل صرح بخلافه في بعض المواطن، فإنه بعد أن ذكر حديث الشفاعة وغيره في دخول بعض الموحدين النار وخروجهم منها قال: (١٦/ ١٩٦): "وفيه رد على من يقول: "يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحدًا النار " كما يقوله طائفة من المرجئة والشيعة...".

فإذا لم يجز هذا الإخلاف في حق الموحدين، فكيف يجوز الإخلاف الأكبر الذي هو في حق المشركين؟

ثالثًا: "ولم يقل في موضع واحد: لا يخلف وعيده".

=

=

أقول: قد فاته - عفا الله عنا وعنه - قوله تعالى في (ق: ٢٧ - ٢٩) {قال قرينة ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لذي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عقبه (١٤/ ٤٩٨): "وهذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضًا، وأن وعيده لا يبدل، وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار، وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع، لكن هذه الآية يضعف جواب من يقول: أن إخلاف الوعيد جائز فإن قوله: {ما يبدل القول لدي} بعد قوله: {وقد قدمت إليكم بالوعيد} دليل على أن وعيده لا يبدل كما لا يبدل وعده".

رابعًا: حديث أنس المذكور إسناده ضعيف كما كنت بينته في " الأحاديث الصحيحة " (٢٤٦٣) وعلى فرض ثبوته فهو بمعنى قوله تعالى: [إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء] وما في معناها من الأحاديث، أي: أن الحديث في الموحدين وليس في المشركين، فهؤلاء مستثنون من المغفرة بهذه الآية وغيرها.

وإلى هذا أشار العلامة المرتضى اليماني بقوله في " إيثار الحق على الخلق " (ص ٣٨٩): "والحق أن الله لا يخلف الوعيد إلا أن يكون استثنى فيه". وهذا مما يشعر به قول ابن تيمية نفسه في " مجموع الفتاوى " (٢٤/ ٣٧٥) فإنه قال: "وأحاديث الوعيد يذكر فيها السبب، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك إما بتوبة مقبولة، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بشفاعة شفيع مطاع، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته فإنه {لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}.

فهذا منه رَحِمَهُ اللهُ كالتفصيل لكلام ابن القيم، وهو يقيده ويبين أن الإخلاف للوعيد

=

إنما يكون لمانع، من تلك الموانع وليس منها الشرك بداهةً، فإن الله لا يغفره.
فتأمل في هذا يتبين لك خطأ ابن القيم في بعض مما يدعيه ويعزوه لأهل السنة دون قيد أو شرط، فيكون ذلك مثار شبهة عنده، تحمله على أن يتأول النصوص القاطعة الدلالة، فيخرج بذلك عما عليه أهل السنة والجماعة، فيقع في الخطأ من حيث لا يدري ولا يشعر.
وإن من العجيب حقا أن ينفرد بالاغترار بكلامه في هذه المسألة الخطيرة العلامة السيد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى؛ لما تعلم عنه من استقلاله في الفهم، وبعده عن الجمود والتقليد، فإنه مع ذلك تابعه عليه دون كل من وقفنا على كلامه من المحققين الذين وقفوا عليه ولم يتابعوه أمثال الآلوسي أبًا وابنًا وغيرهما ممن سبق ذكره، فقد نقل السيد رشيد كلام ابن القيم على طوله من " حادي الأرواح " في تفسير سورة (الأنعام) (ج ٨ ص ٦٩ - ٩٩) تحت " فصل في الخلاف في أبدية النار وعذابها " وختمه مفصحًا عن إعجابه به بقوله: "وإنما أوردناه بنصه على طوله لما تضمنه من الحقائق التي نوهنا بها، ولأمر آخر أهم وهو أننا نعلم أن أقوى شبهات الناس من جميع الأمم على الدين قول أهل كل دين من الأديان المشهورة أنهم هم الناجون وحدهم وأكثر البشر يعذبون عذابًا شديدًا دائمًا لا ينتهي أبدًا، بل تمر ألوف الألوف المكررة من الأحقاب والقرون ولا يزداد إلا شدة وقوة وامتدادا، مع قولهم ولا سيما المسلمين منهم: إن الله تعالى أرحم الراحمين، وإن رحمة الأم العطوف الرؤوم بولدها الوحيد ليست إلا جزاءً صغيرًا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وهذا البحث جدير بأن يزيل شبهة هؤلاء، فيرجع المستعدون منهم إلى دين الله تعالى مذعنين لأمره ونهيه، راجين رحمته خائفين عقابه الذي تقتضيه حكمته؛ لأنهم لا يعلمون قدره".
قلت: هذا الكلام خيال لا حقيقة له في الواقع، لأن الأصل في هذه المسألة

=

وغيرها من المسائل الاعتقادية الغيبية إنما هو الإيمان بما جاءنا عن الرحمن الرحيم العليم الحكيم، كما قال في القرآن الكريم: {هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب}.

وهو الإيمان بكل ما غاب عن عقلك، فمن لم يؤمن بما أخبر به تعالى من خلود الكافرين في النار أبد العابدين؛ لأن عقله لم يقبله فلن يؤمن بعقاب يبلغ مئات السنين أخبر به رب العالمين في مثل آية {لابثين فيها أحقابا}، ولو على افتراض أن له أمد منتهيًا " لا يعلمون قدره"! إذ أن لبثهم هذه المدة الطويلة التي تزيد على مدة عمرهم الذي قضوه كافرين أضعافًا مضاعفة، فلو أراد أحد أن يقنعهم بها وأنها عدل من الله فلن يصل إلى نتيجة معهم أبدًا، اللهم إلا من طريق الإيمان بالله ورسوله.

وإذا كان الأمر كذلك فمن العبث بل من الضلال؛ أن يحاول أحد إقناع المشركين في أصل الدين ببعض ما جاء فيه من العقائد من طريق العقل المجرد عن الإيمان، فإن هذا مع كونه لا يثمر معهم إلا الخسران، فإنه ليس من سبيل المؤمنين، بل هو سبيل المتأثرين بالفلسفة وعلم الكلام، الذي حملهم إلى تأول آيات وأحاديث الصفات، وتفسيرها بما يتناسب مع عقولهم، وأهواء أمثالهم من ضعفاء الإيمان، وربما فعل ذلك بعضهم لإقناع الآخرين، وإن كان هو في قرارة نفسه لا يؤمن بذلك التأويل، فهل يمكن أن يكون كلام السيد رشيد رضا من هذا القبيل، بغية إرشاد من ضل عن سواء السبيل؟

فقد كنت لقيت رجلا فاضلًا في بعض أسفاري إلى المغرب منذ بعض سنين يظهر أنه سلفي العقيدة فزرته في داره، ودار البحث في الدعوة السلفية هناك، وإذا به يصرح بأنه لا يرى مانعًا في سبيل تقريب الناس إليها من تأويل آيات الصفات وأحاديثها لإقناع المخالفين.

=

=

فقلت له: عجبًا كيف يمكن أن يكون هذا؟ إذ كيف تقدم إليهم معنى للنص أنت تؤمن بخلافه أولًا، ثم كيف تكون قد دعوته إلى مذهبك السلفي وقد قدمت إليه المعني الخلفي؟ إن أخشى ما أخشاه أن يكون هذا من باب قول من قال: "وداوني بالتي كانت هي الداء".

وختامًا أقول: لقد خرجت من دراستي لهذه الرسالة النافعة للأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بالعبر الآتية:

الأولى: أنني ازددت إيمانًا ويقينًا بالقول المأثور عن جمع من الأئمة: "ما منا من أحد إلا رد ورد عليه إلا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- " فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية زلت به القدم فقال قولًا لم يسبق إليه ولا قام الدليل عليه ومن هنا قالوا: "زلة العالم زلة العالَمَ " فلو أننا كنا مبتلين بتقليده كما ابتلي كل مقلد بتقليد إمامه، لزللنا بزلته ولذلك قالوا: "الحق لا يعرف بالرجل، اعرف الحق تعرف الرجال".

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الثانية: بطلان الخرافة التي يطلقها اليوم كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين وفيهم بعض من يُجِلُّون شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الخلاف في الفروع وليس في الأصول.

وقد يسارع بعض الجاحدين لعلم شيخ الإسلام وفضله، الحاقدين عليه لرده على أهل الأهواء والمبتدعة المبغضين له لإخلاصه في الدعوة لاتباع الكتاب والسنة، فيقول: إنما الخلاف في الأصول من ابن تيمية وأمثاله المخالفين للجمهور، والمثال أمامك.

فأقول: كذبت والله؛ فإن الخلاف المذموم إنما يكون من المصرين عليه بعدما تبين لهم الحق كما في قوله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له

=

=

الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} .
والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُعرف يومًا بالإصرار على الخطأ مهما كان نوعه، بدليل رجوعه عن كثير من آرائه التي كان عليها بعدما تبين له الحق، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج منها، وأما خلافه في هذه المسألة فهي زلة منه بلا شك يغفرها الله له إن شاء الله تعالى، كفاه جهاده في سبيل الله إلى آخر رمق من حياته، حتى توفي في سجن دمشق مظلومًا بعيدًا عن أهله وتلامذته وكتبه، ولغير ذلك من الأسباب التي سبق التحدث عنها.

والخلاف المذموم حقًا: إنما هو من أولئك المقلدين، الذين يصرون على التدين بالتقليد، والإعراض عن الاهتداء بهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة، والإخلاص له في اتباعه وحده دون سواه، الذي هو من لوازم الشهادة له بأنه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد أمرنا بطاعته استقلالًا لا يشاركه في ذلك أحد من البشر في غير ما آية من آيات الله تبارك وتعالى، فأي خلاف شر من هذا الذي عليه المقلد هذا الذي يظل {يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشرها بعذاب أليم} (الجاثية:٨) فالخلاف حقيقة واقعة - مع الأسف - أصولًا وفروعًا، فلا يجوز تجاهلها أو الرضا بها، وإنما يجب على أهل العلم أن يحاولوا في كل قطر ومصر تقليله قدر الاستطاعة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بشيء واحد وهو تحكيم الكتاب والسنة في كل خلاف كما هو صريح قوله تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} .

الثالثة: لقد وجدت في هذه الدراسة مثلا جديدا يضاف إلى الأمثلة العديدة التي كنت ولا أزال أشير إليها في كتابي " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة " نصحًا وتحذيرًا؛ لأن من آثارها السيئة أنها تصرف كثيرًا

=

=

من العلماء والفقهاء فضلًا عن غيرهم عن تبني الحكم الصحيح فيما هم فيه مختلفون من العقائد والأحكام، وقد تكون معارضته لنص أو نصوص في الكتاب والسنة الصحيحة، فقد وجدت أن الذي فتح لابن تيمية وابن القيم باب التورط في القول بفناء النار إنما هو بعض الآثار المروية عن بعض الصحابة والأحاديث المرفوعة جلها لا تصح أسانيدها... ا.هـ كلام العلامة الألباني.

وقد أشار إلى هذه المسألة جمع من العلماء غير شيخ الإسلام من السابقين على ابن تيمية واللاحقين له، منهم: عبد بن حميد فقد ذكر الروايات في "تفسيره" كما في شفاء العليل (ص٤٣٥)، وعبد الحق بن عطية الأندلسي في تفسيره (٧/ ٤٠٢)، والفخر الرازي في تفسيره (١٨/ ٦٣)، والقرطبي في التذكرة (ص٥٢٦)، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (ص٤٨٠ - ٤٨٦)، وابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٤٠ - ٣٧٩) وهو أوسعهم كلاما، ومحمد الأمين الشنقيطي في كتابه: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص١٢٢ - ١٢٨)، وأبو حامد الغزالي في كتابه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (ص٦٢ - ٦٣)، وابن الوزير في كتابه إيثار الحق على الخلق (ص٢١٩)، والإمام الذهبي له مصنف في صفة النار يقع في جزأين كما في رفع الأستار للصنعاني (ص٦٢)،، والحافظ بن رجب في كتاب التخويف من النار، والشيخ مرعي بن يوسف له كتاب توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين، والشيخ الصنعاني في كتابه رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار.

قال شيخ الإسلام الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (٤٤٩) في عقيدة السلف وأصحاب الحديث. قال بعد كلام سبق (أما الكفار فإنهم يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبدا ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحدا).

وقال (ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا يفنيان أبدا

=

=

وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدا وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها لا يخرجون أبدا. وأن المنادي ينادي يومئذ يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ أهـ ص١٢٣ من الجزء الأول من مجموعة الرسائل المنيرية.

وقال الإمام الآجري في كتابه الشريعة: (كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وأن نعيم أهل الجنة لا ينقطع عن أهلها أبدا وأن عذاب النار لا ينقطع عن أهلها الكفار أبدا ثم ساق الآيات والأحاديث في ذلك بمثل ما تقدم فراجعه إن شئت ص٣٨٧ ثم قال ص٣٩٨ (باب ذكر الإيمان بأن أهل الجنة خالدون فيها أبدا وأن أهل النار من الكفار والمنافقين خالدون فيها أبدا) ثم ساق الآيات والأحاديث.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ الله تعالى في عقيدته التي سأله أهل القصيم عنها قال في أولها: أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ثم قال: وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما اليوم موجودتان وأنهما لا يفنيان ا.هـ

وقال العلامة صديق حسن خان في كتابه يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار: باب (في أن النار لا تفنى ثم ساق الأحاديث في أبدية النار ثم قال: وثبت بما ذكر من الآيات الصريحة والأخبار الصيحة خلود أهل الدارين خلودا مؤبدا كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة ودليل ذلك من الكتاب والسنة وزعمت الجهمية أن الجنة والنار تفنيان قال هذا جهم بن صفوان إمام المعطلة وليس له في ذلك سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أئمة الدين ولا قال به أحد من أهل السنة. نعم حكى بعض العلماء في أبدية النار قولين وحاصل ذلك كله سبعة أقوال

=

=

فساقها (توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين) وفي الباب رسالة للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير. ورسالة للقاضي العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني حاصلهما بقاء الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما وهو الحق الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسنة وإجماع الأئمة والأمة والله أعلم أهـ كلامه ا.هـ

وقال الآلوسي في جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص٤٨٨): ثم أعلم أنه قد تبين لك مما نقلناه من الأقوال: أن القول الصحيح، الحرى بالترجيح، هو بقاء الجنة والنار وساكنيهما من الأخيار والفجار، وإن الشيخ ابن تيمية لم يتبين عنه نقل صحيح فيما نسب إليه، ولئن سلم أنه مال لذلك فقد ذهب إليه بعض السلف، وأفراد من الخلف، كما تقدم آنفًا، فليس في ميله ما يوجب تكفيرًا عند من أنصف، على أنا لا نعلم إن صح النقل عدم رجوعه عنه، وهو لا يعد عند المنصفين إلا من العلماء المجتهدين، وأى مجتهد قرنت بالصواب جميع أقواله، وصوبت كافة أحواله، وكم رجع مجتهد عن اجتهاده الأول، ونص على خلافه وعول، ومع هذا فلعله اتبع في ذلك أقوال الفاروق، وباب مدينة العلم، وترجمان القرآن، وابن مسعود، وأبي هريرة القائل: أخذت عن رسول الله ﷺ وعاءين... الحديث الشهير. فتدبر جميع ما حررناه لك من كلام العلماء الأخيار، وأسأله سبحانه أن ينجينا وإياك من النار، ويسكننا الجنة دار القرار. آمين ا.هـ

وسئلت اللجنة الدائمة (٣/ ٤٨٦) عن: قول البعض إن النار تفنى وأن نعيم الجنة من قبيل المجاز والاستعارة، وأن الكافر يخرج من النار؟

فأجابت: قامت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أن النار لا تفنى، وعلى تخليد الكافرين في النار، وأنهم لا يخرجون منها، قال الله تعالى: {ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ

=

=

يُسْتَعْتَبُونَ} وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} وقال: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} وقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} وقال: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} وقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} إلى أن قال: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} وقال: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} {لِلطَّاغِينَ مَآبًا} إلى أن قال: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} إلى غير ذلك من الآيات التي يدل كل منها على تخليد الكفار في النار وعدم خروجهم منها وعدم فنائها، فإذا اجتمعت كانت دلالتها

=

على ذلك أقوى وأبعد عن التأويل.

أما الجنة فدار الجزاء يوم القيامة لمن آمن وعمل الصالحات، فيها من النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يتمتع بها من دخلها متاعا حقيقيا حسيا وروحيا ويحيون فيها حياة أبدية أمنية فلا فناء ولا خروج منها ولا انقطاع لنعيمها ولا نغص ولا كدر بالنصوص القطعية وإجماع أهل العلم والإيمان، قال الله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} وقال تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} وقال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} {يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} وقال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} يعني بالاستثناء: المدة التي شاء الله ألا تكونوا بالجنة قبل دخولها ولذا ختم الآية بقوله: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} تأكيدا لدوام نعيمها يتمتع به من فاز بدخولها، ونظيره الاستثناء في سورة الدخان قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ

=

أَمِينٍ} {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ} {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} {فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} فاستثنى موتة سابقة من موت منفي مستقبل لإفادة تأبيد الحياة وتأكيد دوامها، أو المراد بالاستثناء بيان عموم مشيئة الله ونفوذها في كل شيء فدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وخلود كل من الفريقين فيما دخل فيه من نعيم أو عذاب إنما كان بمشيئة الله واختياره وفضله وعدله لا واجبا عليه عقلا ولا يحصل كرها عنه ولا قهرا له تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وثبت في السنة أن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبئسوا أبدا» رواه مسلم وثبت أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح»... إلى أن قال: «فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» إلخ، رواه مسلم في صحيحه وأكد سبحانه خلود الجنة والنار وأبديتهما، وخلود المؤمنين في الجنة والكافرين في النار في آيات كثيرة من القرآن، وفصلت السنة الثابتة عن النبي ﷺ تفصيلا لا يدع مجالا للشك في حقيقته ولا لتأويل النصوص الصريحة فمن شك فيه أو تأوله فقد اتبع هواه وحرف الكلم عن مواضعه وكان من الكافرين ا.هـ

وقال العلامة عبد الرزاق عفيفي كما في مجموعة ملفات الشيخ عبد الرزاق عفيفي (ص١٢ – ١٣): "أما أبدية النار: ففيها آراء كثيرة للسلف منها رأيان:

الأول: رأي جمهور السلف، قالوا: إن النار باقية لا تفنى، ومن دخل بقي مخلدا فيها أبدا إلا من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون منها.

=

=

واستدلوا على بقائها ومن بها من الكافرين بقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة: ١٦٧، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المائدة: ٣٦، وقوله: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} الزخرف: ٧٥، قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} فاطر: ٣٦، وقوله: قال تعالى: {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} الإسراء: ٩٧، وغيرها من الآيات.

الرأي الثاني: أن النار تفنى بعد أن يستوفي الكفار نصيبهم من العذاب فيها، ونسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة من الصحابة، وابن تيمية وابن القيم وجماعة، واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} الأنعام: ١٢٨، وقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} هود: ١٠٦ – ١٠٧، قالوا: استثنى من الخلود في الآيتين بقوله في الآية الأولى {إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} وبقوله في الآية الثانية {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} ولم يأتِ بعد الاستثناءين ما يدل على عدم الانقطاع وانتهاء العذاب كما جاء عقب الاستثناء من الخلود في نعيم الجنة، فإن الآية ختمت بقوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} هود: ١٠٨، وهو دال على دوام النعيم واستمراره فكان قرينة على أن الاستثناء الذي قبله لا يراد به الإخراج، إنما يراد به إثبات كمال الاختيار واستدلوا أيضًا بقوله تعالى: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} النبأ:

=

=

٢٣، تجعل اللبث في النار مدة محدودة، فدل على انتهاء العذاب، واستدلوا أيضًا بأن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد روى البخاري في صحيحة عن النبي ﷺ أنه قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي)، وفي رواية (تغلب غضبي) قالوا فلو بقي الكافر في النار، ولم تفن النار لكان غضبه قد سبق رحمته، وفي هذا خلف لخبر الصادق ﷺ عن ربه، وخلف خبر مستحيل.

قالوا وما ورد من النصوص الدالة على خلود الكفار فيها أبدًا وعدم خروجهم منها فلا نزاع فيه، لكنه يعني البقاء في العذاب ما دامت النار باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، وهناك فرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس قائم، وبين من ينهدم حبسه وينقض بناؤه، فيبطل حبسه وينتهي سجنه بانتقاض البناء، وقد يناقش هذا بأنه وإن صلح جوابًا عن أدلة الخلود فلا يصلح جوابًا عن النصوص الصريحة في أن عذابها مقيم، وأنه كان غرامًا، وأن النار كلما هبت وأدها الله سعيرًا، وأنهم لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف بل يزيدهم الله عذابًا، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلود غيرها ليذوقوا العذاب، اللهم إلا أن قال: إن الاستثناء بالمشيئة في الآيتين السابقتين مسلط على جميع النصوص التي دلت على دوام العذاب واستمراره، وعلى كل حال فالموضوع من شئون الله فليترك إلى الله سبحانه والله أعلم" ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٥): هل النار مؤبدة أو تفنى؟

فأجاب: المتعين قطعًا أنها مؤبدة ولا يكاد يعرف عند السلف سوى هذا القول، ولهذا جعله العلماء من عقائدهم، بأن نؤمن ونعتقد بأن النار مؤبدة أبد الآبدين، وهذا الأمر لا شك فيه؛ لأن الله تعالى ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع من القرآن:

الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر

=

=

لهم ولا ليهديهم طريقًا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا}.
والثاني: في سورة الأحزاب {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرًا. خالدين فيها أبدًا}. والثالث: في سورة الجن {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا}. ولو ذكر الله ﷻ التأبيد في موضع واحد لكفى، فكيف وهو قد ذكره في ثلاثة مواضع؟ ومن العجب أن فئة قليلة من العلماء ذهبوا إلى أنها تفنى بناء على علل عليلة لمخالفتها لمقتضى الكتاب والسنة وحرفوا من أجلها الكتاب والسنة فقالوا: إن "خالدين فيها أبدًا " ما دامت موجودة فكيف هذا؟
إذا كانوا خالدين فيها أبدًا، لزم أن تكون هي مؤبدة "فيها" هم كائنون فيها وإذا كان الإنسان خالدًا مؤبدًا تخليده، لزم أن يكون مكان الخلود مؤبدًا؛ لأنه لو فني مكان الخلود ما صح تأبيد الخلود، والآية واضحة جدًا والتعليلات الباردة المخالفة للنص مردودة على صاحبها، وهذا الخلاف الذي ذكر عن فئة قليلة من أهل العلم خلاف مطرح لأنه مخالف للنص الصريح الذي يجب على كل مؤمن أن يعتقده، ومن خالفه لشبهة قامت عنده فيعذر عند الله، لكن من تأمل نصوص الكتاب والسنة عرف أن القول بتأبيدها هو الحق الذي لا يحق العدول عنه.
والحكمة تقتضي ذلك لأن هذا الكافر أفنى عمره كل عمره في محاربة الله ﷻ ومعصية الله والكفر به وتكذيب رسله مع أنه جاءه النذير وأعذر وبين له الحق، ودعي إليه، وقوتل عليه وأصر على الكفر والباطل فكيف نقول: إن هذا لا يؤبد عذابه؟ والآيات في هذا صريحة كما تقدم.
(فرع): سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٦): هل هناك ناران نار لأهل الكفر، ونار لأهل المعاصي الذين يعذبون فيها ثم يخرجون؟
فأجاب: زعم بعض العلماء ذلك وقال: إن النار ناران نار لأهل الكفر، ونار لأهل المعاصي من المؤمنين وبينهما فرق، ولكن هذا لا أعلم له دليلًا لكن عذابهما

=

يختلف، لا شك أنها على عصاة المؤمنين ليست كما هي على الكافرين وكوننا نقول بالتقسيم بناء على استبعاد عقولنا ان تكون نار واحدة تؤثر تأثيرين مختلفين لا ينبغي؛ لأن هذا الاستبعاد لا وجه له لأمرين:

الأمر الأول: أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قادر على أن يجعل النار الواحدة لشخص سلامًا، ولآخر عذابًا.

الأمر الثاني: أن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا أبدًا لظهور الفرق العظيم بينهما، فلا يجوز أن تقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا لتنفي مالا يتسع له عقلك، بل عليك بالنسبة لأحوال الآخرة أن تسلم وتقبل وتصدق، أليست هذه الشمس ستدنو من الخلائق قدر ميل يوم القيامة؟ ولو كانت أحوال الناس يوم القيامة كأحوالهم في الدنيا لأحرقتهم؛ لأن هذه الشمس في أوجها لو أنها نزلت ولو يسيرًا أحرقت الأرض ومحتها عن آخرها ونحن نحس بحرارتها الآن وبيننا وبينها مسافات عظيمة لا سيما في أيام الصيف حين تكون عمودية، ومع ذلك تدنو من الخلائق يوم القيامة على قدر ميل ولا يحترقون بها، كذلك أيضًا في يوم القيامة في مقام واحد المؤمنون لهم نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة، لكن في الدنيا لو كان بجانبك واحد على يمينه نور وبن يديه نور فإنك تنتفع به، أما في الآخرة فلا، وفي الآخرة أيضًا يعرق الناس فيختلف العرق اختلافًا عظيمًا بينهم، وهم في مكان واحد، فمن الناس من يصل العرق إلى كعبيه ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق، وهم في مكان واحد.

فالمهم أنه لا يجوز أن نقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا ثم نذهب ونحدث أشياء لم تأت في الكتاب والسنة كتقسيم النار إلى نارين: نار للعصاة ونار للكافرين فالذي بلغنا ووصل إليه علمنا أنها نار واحدة لكنها تختلف.

=

قوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} [النبأ: ٢٤]، أي:"لا يَطْعَمون فيها ما يُبْرِد حرَّ السعير عنهم، ولا شرابًا يرويهم".

قال الطبري: "يقول: لا يطعمون فيها بردا يبرد حرّ السعير عنهم، إلا الغساق، ولا شرابا يرويهم من شدّة العطش الذي بهم، إلا الحميم".

قال ابن كثير:"أي: لا يجدون في جَهنَّم بردًا لقلوبهم، ولا شرابا طيبا يتغذون به".

قال أبو العالية:"استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق".

وروي الطبري بسنده عن الربيع: "{لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}، فاستثنى من الشراب الحميم، ومن البَرْد: الغَسَّاق".

وفي «البرد»، خمسة أقوال:

أحدها: أنه برد الماء، وبرد الهواء، اختاره النحاس ، وحكاه الماوردي عن الأكثرين.

قال ابن عطية:"قال جمهور الناس: «البرد» في الآية: مسر الهواء البارد وهو القر، أي: لا يمسهم منه ما يستلذ ويكسر غرب الحر".

الثاني: أنه برد الشراب، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عَلَيْهِمُ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

ومنه قول الآخر:

أماني من سعدى حسان كأنما... سقتني بها سعدى على ظمأ بردا

قال ابن عباس:"لا يذقون فيها برد الشراب ولا الشراب".

الثالث: أنه الرَّوْح والراحة، قاله قتادة ، والحسن ، وعطاء.

قال الحسن وعطاء: "{لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا}، أي: روّحا وراحة.

قال الزمخشري: أي: "وروحا ينفس عنهم حرّ النار".

=

=

وقال عبدالقاهر الجرجاني:"برد العفو والعافية".

الرابع: أنه النوم، قاله ابن عباس -في رواية عطاء عنه- ، ومجاهد ، والسدي ، وأبو معاذ النحوي ، والفضل بن خالد المروزي ، والكسائي ، وابن قتيبة ، وأبو عبيدة. وأنشد الأخير قول الكندي:

بَرَدَتْ مَراشِفُها عليَّ فَصَدَّني... عنها وعن تَقْبيلِها البَرْدُ

يعني: النوم.

ومنه قول الشاعر:

وإن شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ... وإن شِئتِ لمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدَا

قال الثعلبي:"والعرب تقول: منع البرد البرد، يعني أذهب البرد النوم".

قال الفراء: "وإن النوم ليبرد صاحبه. وإن العطشان لينام فيبرد بالنوم".

وضعّفه النحاس، قائلا:"البرد ليس باسم من أسماء «النوم»، وإنما يحتال فيه فيقال للنوم: برد، لأنه يهدي العطش، والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جلّ وعزّ على الظاهر والمعروف من المعاني إلّا أن يقع دليل على غير ذلك".

الخامس: لَا يَذُفقُونَ فِيهَا بَرْدَ رِيح وَلاَ ظِلٍّ وَلاَ نَوْم. ذكره الزجاج.

قال الماوردي:"والشراب -ها هنا-: العذاب. ويحتمل أن يريد بالشراب الري، لأن الشراب يروي وهم فيها عطاش أبدًا".

قال الرازي: واعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب.

- قال الرازي: قوله (بردًا) وجهان الأول: أنه البرد المعروف، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم، والحاصل أنه لا يجدون هواء باردًا، ولا ماء باردًا.

=

=

والثاني: البرد ههنا النوم، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي.

واعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب.

قوله تعالى: {إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا} [النبأ: ٢٥]، أي:"إلا ماءً حارًا، وصديد أهل النار".

وفي «الحميم»، أربعة أقوال:

أحدها: أنه الحارّ الذي يحرق، قاله ابن عباس.

قال الطبري:"لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميمًا قد أغلي حتى انتهى حرّه، فهو كالمُهْل يَشْوِي الوجوه، ولا بردًا إلا غَسَّاقًا".

قال ابن كثير:"فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحُموه".

قال أبو عبيدة: "{حَمِيمًا}: ماء".

قال ابن قتيبة:"هو الماء الحار".

قال الزجاج:"هو في غاية الحرارة".

الثاني: دموع أعينهم في النار تجتمع في خنادق النار فيُسقونْه، قاله ابن زيد.

الثالث: أنه نوع من الشراب لأهل النار، قاله السدي.

الرابع: يعنى. بـ «الحميم»: الصفر المذاب الذي قد انتهى حره. قاله مقاتل.

وأما «الغسّاق»، ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه القيح الغليظ، قاله ابن عمر.

عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "أتدرون أيّ شيء الغسَّاق؟ " قالوا: الله أعلم، قال: "هو القيح الغليظ، لو أن قطرة منه تهراق بالمغرب لأنتن أهل المشرق، ولو تهراق بالمشرق، لأنتن أهل المغرب".

الثاني: أنه الزمهرير البارد الذي يحرق من برده، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو

=

=

العالية ، والربيع بن أنس ، ومقاتل.

وقال مجاهد:"الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده".

قال مجاهد:"الغساق: الذي لا يستطاع من برده".

قال أبو العالية والربيع:"الغساق، الزمهرير".

قال مقاتل:"وهو الزمهرير الذي انتهى برده".

الثالث: أنه صديد أهل النار، قاله عطية بن سعد ، وأبو رزين ، وإبراهيم ، وابن زيد ، وبه قال ابن قتيبة.

قال عطية بن سعد:"هو الذي يَسيل من جلودهم".

قال عكرمة:"ما يخرج من أبصارهم من القيح والدم".

قال أبو رزين وإبراهيم:"ما يَسِيل من صديدهم".

قال إبراهيم:"ما يسيل من صديدهم من البرد".

قال إبراهيم:"الغساق: ما يقطر من جلودهم، وما يسيل من نتنهم".

عن إبراهيم وأبي رَزِين: {إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}، قالا غُسالة أهل النار: لفظ ابن بشار؛ وأما ابن المثنى فقال في حديثه: ما يسيل من صديدهم".

قال ابن زيد:"الغساق: الصديد الذي يخرج من جلودهم، ما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها فيسقونه".

قال أبو عبيدة: "وهو ما همى، أي سال ويقال: قد غسقت من العين ومن الجرح ويقال: عينه تغسق، أي: تسيل".

الرابع: أنه المنتن باللغة الطحاوية، قاله عبد الله بن بُرَيدة.

الخامس: أنه واد في جهنم. قاله شهر بن حوشب.

قال شهر بن حوشب: "الغسّاق: واد في النار فيه ثلاثمائة وثلاثون شعبا في كل شعب ثلاثمائة وثلاثون بيتا في كل بيت أربع زوايا في كلّ زاوية شجاع كأعظم ما

=

=

خلقه الله سبحانه من خلقه في رأس كل شجاع سم".

قال النحاس:"وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنه يكون ما يسيل من جلودهم منتنا شديد البرد".

قال ابن كثير:"الغَسَّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه".

قال الطبري:"«الغساق» -عندي-: هو الفعال، من قولهم: غَسَقَت عين فلان: إذا سالت دموعها، وغَسَق الجرح: إذا سال صديده، ومنه قول الله: {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} يعني بالغاسق: الليل إذا لَبِسَ الأشياء وغطاها، وإنما أريد بذلك هجومه على الأشياء، هجوم السيل السائل. فإذا كان الغسَّاق هو ما وصفت من الشيء السائل، فالواجب أن يقال: الذي وعد الله هؤلاء القوم، وأخبر أنهم يذوقونه في الآخرة من الشراب

هو السائل من الزمهرير في جهنم، الجامع مع شدّة برده النتن.. فإن قال قائل: فإنك قد قلت: إن الغَساق: هو الزمهرير، والزمهرير، هو غاية البرد، فكيف يكون الزمهرير سائلا؟ قيل: إن البرد الذي لا يُستطاع ولا يُطاق يكون في صفة السائل من أجساد القوم من القيح والصديد".

عن أبي سعيد الخدريّ، عن النبيّ ﷺ، قال: "لَوْ أنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ إلى الدُّنْيا لأنْتَن أهْلَ الدُّنْيا".

قَرَأَ حَفْص عَن عَاصِم والمفضل عَن عَاصِم: {وغساقا} مُشَدّدَة، وروى أَبُو بكر عَنهُ {وغساقا} خَفِيفَة، وَقَرَأَ حَمْزَة والكسائي: {وغساقا} مشددا، وَقَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر {وغساقا} خَفِيفَة.

(إِلَّا حَمِيمًا) الاستثناء منقطع، أي: ولكن يذوقون حميمًا أي: ماء حارًا بالغًا الغاية في الحرارة.

=

=

كما قال تعالى (وسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).

وقال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا).

(وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا) أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد (يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) المهل: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته (يَشْوِي الْوُجُوهَ) أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه (بِئْسَ الشَّرَابُ) أي بئس هذا الشراب الذي يفعل بهم هذا، وهذا الأسلوب (يغاثوا..) يفيد أنه لا إغاثة لهم البتة.

(وَغَسَّاقًا) وهو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم وهو في غاية النتن والكراهة.

قوله تعالى: {جَزَاءً وِفَاقًا} [النبأ: ٢٦]، أي:"يجازَون بذلك جزاء عادلا موافقًا لأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا".

قال ابن عباس:"وافق أعمالهم".

قال مجاهد:"وافق الجزاء العمل".

قال ابن قتيبة:"أي: وفاقًا لأعمالهم".

قال الزجاج:"أي: جُوزُوا وِفْق أعمالهم".

قال أبو عبيدة: "أي: ثوابا وفقا، هذا وفق هذا. أي: مثله".

قال مقاتل:"كما أنه ليس في الأعمال أخبث من الشرك بالله- ﷻ- وكذلك ليس من العذاب شيء أخبث من النار، فوافقت النار الشرك".

أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ: ٢٧]، أي:"إنهم كانوا لا يخافون يوم الحساب فلم يعملوا له".

قال مجاهد:"لا يخافونه". وفي لفظ: "لا يبالون فيصدقون بالبعث".

قال قتادة:"أي: لا يخافون حسابا".

قال ابن قتيبة:"أي: لا يخافون".

قال ابن كثير:"أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون".

قال الطبري: يقول:"إن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافون محاسبة الله إياهم في الآخرة على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وسوء شكرهم له على ذلك".

قال مقاتل:"يعني: أنهم كانوا لا يخافون من العذاب أن يحاسبوا بأعمالهم الخبيثة إذا عملوها".

قال السعدي:"أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة".

قال ابن زيد:"لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب، وكيف يرجو الحساب من لا يوقن أنه يحيا، ولا يوقن بالبعث، وقرأ قول الله: {بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...} إلى قوله: {أساطِيرُ الأوَّلِينَ}.

وقرأ: {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ...} إلى قوله: {جَدِيدٍ}، فقال بعضهم لبعض: ماله {أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}، الرجل مجنون حين يخبرنا بهذا".

ي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون، كما قال تعالى (بل كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا) وقال تعالى)نَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...).

قوله تعالى: {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا} [النبأ: ٢٨]، أي:"وكذَّبوا بما جاءتهم به الرسل تكذيبا".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكذّب هؤلاء الكفار بحُججِنا وأدلتنا تكذيبا. وقيل: {كِذَّابًا}، ولم يقل تكذيبا تصديرا على فعله".

قال السعدي:"أي: كذبوا بها تكذيبا واضحا صريحا وجاءتهم البينات فعاندوها".

قال ابن كثير:"أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة".

أي: وكذبوا بآياتنا الشرعية التي أنزلناها على رسلنا وأعظمها القرآن الكريم المنزل على أفضل الرسل محمد ﷺ (كذابًا) أي: تكذيبًا عظيمًا.

والتكذيب بالآيات الشرعية: إما بجحودها، أو بتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد.

قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} [النبأ: ٢٩]، أي:"وكلَّ شيء علمناه وكتبناه في اللوح المحفوظ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكلّ شيء أحصيناه فكتبناه كتابا، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فلا يعزُب عنا علم شيء منه".

قال السمعاني:"هُوَ مثل قَوْله تَعَالَى: {وكل شَيْء أحصيناه فِي إِمَام مُبين}، أَي: بَيناهُ فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ".

قال ابن كثير:"أي: وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلهم، وكتبناهم عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال السعدي:"{وَكُلَّ شَيْءٍ} من قليل وكثير، وخير وشر {أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} أي: كتبناه في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا

=

=

وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}".

وقال تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا).

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ).

وقال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

قوله تعالى: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [النبأ: ٣٠]، أي:"فذوقوا -أيها الكافرون- جزاء أعمالكم، فلن نزيدكم إلا عذابًا فوق عذابكم".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: يقال لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميم والغَسَّاق: ذوقوا أيها القوم من عذاب الله الذي كنتم به في الدنيا تكذّبون، فلن نزيدكم إلا عذابًا على العذاب الذي أنتم فيه، لا تخفيفا منه، ولا ترفُّها".

قال ابن كثير:"أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨]".

قال الزمخشري:"هي آية في غاية الشدّة، وناهيك بـ «لن نزيدكم»، وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال".

قال السعدي:"وكل وقت وحين يزداد عذابهم، وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها".

عن عبد الله بن عمرو، قال: "لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه: {فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}، قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن عبد الله بن عمرو كان يقول: ما نزلت على أهل النار آية أشدّ منها: {فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}، فهم في مزيد من الله أبدا".

قال قتادة:"ما زال أهل النار يَأملون الخروج لقول الله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} حتى

=

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١).

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} مَكَان فَوْز فِي الْجَنَّة.

حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) .

{حَدَائِق} بَسَاتِين بَدَل مِنْ مَفَازًا أَوْ بَيَان لَهُ {وَأَعْنَابًا} عَطْف عَلَى مَفَازًا.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣).

{وَكَوَاعِب} جَوَارِي تَكَعَّبَتْ ثُدِيّهنَّ جَمْع كَاعِب {أَتْرَابًا} عَلَى سِنّ وَاحِد جَمْع تِرْب بِكَسْرِ التَّاء وسكون الراء.

وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤).

{وَكَأْسًا دِهَاقًا} خَمْرًا مَالِئَة مَحَالّهَا وَفِي سُورَة الْقِتَال وَأَنْهَار مِنْ خَمْر.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥).

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا} أَيْ الْجَنَّة عِنْد شُرْب الْخَمْر وَغَيْرهَا مِنْ الْأَحْوَال {لَغْوًا} بَاطِلًا مِنْ الْقَوْل {وَلَا كِذَّابًا} بِالتَّخْفِيفِ أَيْ كَذِبًا وَبِالتَّشْدِيدِ أَيْ تَكْذِيبًا مِنْ وَاحِد

=

نزلت: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذابًا} فهم في مزيد أبدًا".

عن الحسين بن واقد، قال: "سمعت علي بن الحسين، يقول: أشد آية على أهل النار {فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا}".

عن الحسن بن دينار، قال: "سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار؟ فقال: قول الله: {فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}".

أي: يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه وآخر من شكله أزواج.

قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية كلما استغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشد منه.

لِغَيْرِهِ بِخِلَافِ مَا يَقَع فِي الدُّنْيَا عِنْد شُرْب الْخَمْر.

جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦).

{جَزَاء مِنْ رَبّك} أَيْ جَزَاهُمْ الله بِذَلِكَ جَزَاء {عَطَاء} بَدَل مِنْ جَزَاء {حِسَابًا} أَيْ كَثِيرًا مِنْ قَوْلهمْ أَعْطَانِي فَأَحْسَبنِي أَيْ أَكْثَر عَلَيَّ حَتَّى قُلْت حَسْبِي.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧).

{رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض} بِالْجَرِّ وَالرَّفْع {وَمَا بَيْنهمَا الرَّحْمَن} كَذَلِكَ وَبِرَفْعِهِ مَعَ جَرّ رَبّ {لَا يَمْلِكُونَ} أَيْ الْخَلْق {مِنْهُ} تَعَالَى {خِطَابًا} أَيْ لَا يَقْدِر أَحَد أَنْ يُخَاطِبهُ خَوْفًا مِنْهُ.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)

{يَوْم} ظَرْف ل لَا يَمْلِكُونَ {يَقُوم الرُّوح} جِبْرِيل أَوْ جُنْد الله {وَالْمَلَائِكَة صَفًّا} حَال أَيْ مُصْطَفِّينَ {لَا يَتَكَلَّمُونَ} أَيْ الْخَلْق {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن} فِي الْكَلَام {وَقَالَ} قَوْلًا {صَوَابًا} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَة كَأَنْ يَشْفَعُوا لمن ارتضى.

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩).

{ذَلِكَ الْيَوْم الْحَقّ} الثَّابِت وُقُوعه وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {فَمَنْ شَاءَ اِتَّخَذَ إِلَى رَبّه مَآبًا} مَرْجِعًا أَيْ رَجَعَ إِلَى الله بِطَاعَتِهِ لِيَسْلَم مِنْ الْعَذَاب فِيهِ.

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠).

{؟ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ} يَا كُفَّار مَكَّة {عَذَابًا قَرِيبًا} عَذَاب يَوْم الْقِيَامَة الْآتِي وَكُلّ آتٍ قَرِيب {يَوْم} ظَرْف لَعِذَابًا بِصِفَتِهِ {يَنْظُر الْمَرْء} كُلّ اِمْرِئٍ {مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} مِنْ

خَيْر وَشَرّ {وَيَقُول الْكَافِر يَا} حَرْف تَنْبِيه {لَيْتَنِي كُنْت تُرَابًا} يَعْنِي فَلَا أُعَذَّب يَقُول ذَلِكَ عِنْدَمَا يَقُول الله تَعَالَى لِلْبَهَائِمِ بَعْد الِاقْتِصَاص مِنْ بعضها لبعض كوني ترابا(١).

(١) قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١]، أي:"إن للذين يخافون ربهم ويعملون صالحًا، فوزًا بدخولهم الجنة".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: متنزها، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وبه قال ابن كثير.

عن ابن عباس، قوله: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}، يقول: مُنْتَزَها".

قال ابن كثير:"الأظهر هاهنا قولُ بن عباس؛ لأنه قال بعده: {حَدَائِقَ}".

الثاني: فازوا بأن نجوا من النار بالجنة، ومن العذاب بالرحمة، قاله قتادة ، ومجاهد ، وبه قال الطبري.

قال الماوردي:"وتحقيق هذا التأويل أنه الخلاص من الهلاك، ولذلك قيل للفلاة -إذا قل ماؤها- مفازة، تفاؤلًا بالخلاص منها".

قال الطبري:"يقول: إن للمتقين مَنجَى من النار إلى الجنة، ومخلصا منها لهم إليها، وظفرا بما طلبوا".

قال النحاس:"المفاز: الظفر بما يحبّه الإنسان".

قال السجستاني:"أي: ظفرا بما يريدون. ويقال: فاز بالأمر، إذا ظفر به".

قال مجاهد:"فازوا بأن نَجَوا من النار".

قال قتادة:"إي والله مفازا من النار إلى الجنة، ومن عذاب الله إلى رحمته".

قوله تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ) جرى هذا الانتقال على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذَرين بتبشير من هم أهل للتبشير، فانتقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أُعدَّ لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه =

=

أهل الشرك (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ) الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

- فالتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت خذا المعنى.

- قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

- وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

- وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قال ابن القيم: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قال تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ).

وقال تعالى (وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

وقال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ

=

=

هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ).

قوله تعالى: {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [النبأ: ٣٢]، أي:"إن لهم بساتين عظيمة وأعنابًا".

قال الطبري:"الحدائق: جمع حديقة، وهي البساتين من النخل والأعناب والأشجار المُحَوَّط عليها الحيطان المحدقة بها، لإحداق الحيطان بها تسمى الحديقة حديقة، فإن لم تكن الحيطان بها محدقة، لم يَقُل لها حديقة، وإحداقها بها: اشتمالها عليها، {وأعْنابًا}، يعني: وكرومَ أعناب، واستغنى بذكر الأعناب عن ذكر الكروم".

قال ابن كثير:"{حَدَائِقَ}: هي البساتين من النخيل وغيرها".

قال ابن عباس: "الحدائق الشجر الملتفّ".

وقال الضحاك: الذي عليه الحيطان".

قال النحاس:"وكذلك هو في اللغة: وقد حدق بالقوم. كما قال:

وقد حدقت بي المنيّة".

قال الزمخشري: "«الحديقة»: البستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة. وقيل ذات، لأن المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة، كما يقال: النساء ذهبت. والبهجة: الحسن، لأن الناظر يبتهج به".

قوله تعالى: {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [النبأ: ٣٣]، أي:"ولهم زوجات حديثات السن، نواهد مستويات في سن واحدة".

في "الكواعب"، قولان:

أحدهما: النواهد، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جُرَيج، وابن زيد، وبه قال الطبري.

قال ابن زيد:"الكواعب: التي قد نهدت وكَعَبَ ثديها".

قال ابن كثير:"يعنون أن ثُدُيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار".

=

=

قال عبدالقاهر الجرجاني:"جمع كاعب، وهي الجارية التي نهد ثديها كالرمانة".

الثاني: العذارى، قاله الضحاك ، ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِنْ حَصانٍ قد حَوَيْنا كَريمةٍ... ومِنْ كاعبٍ لم تَدْرِما البؤسُ مُعْصِرِ

وفي «الأتراب»، أقوال:

أحدها: مُسْتَوِيَات، في سنّ واحدة، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، والسدي ، وابن زيد ، وبه قال أبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة ، والطبري.

عن أمّ سلمة، قالت: "قلت يا رسول الله، أخبرني عن قوله: {عُرُبًا أَتْرَابًا} ، قال: «عُرُبا مُتَعَشِّقاتٍ مُتَحَبباتٍ، أترَابا على مِيلادٍ وَاحِدٍ»".

قال الزجاج:"أي: أسنانهن وَاحِدة، وهن في غاية الشباب والحُسْنِ".

قال القشيري:"«أَتْرابٌ»: لدات مستويات في الحسن والجمال والشكل".

قال ابن عباس:"يعني: النساء المستويات".

قال ابن عباس:"في سن واحد ثلاثا وثلاثين سنة".

قال قتادة:"يقول: لسن واحدة".

قال قتادة:"يعني: بذلك النساء أترابا لسنٍّ واحدة".

قال سهل:"مستويات على ميلاد واحد".

قال ابن قتيبة:"أي: شيئًا واحدًا وسنًّا واحدًا".

قال مقاتل:"يعنى: مستويات على ميلاد واحد بنات ثلاثة وثلاثين سنة".

قال ابن زيد:"أترابا: مستويات، فلانة تربة فلانة، قال: الأتراب: اللِّدات".

عن مجاهد: "{وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} ، لِدَّات".

قال الزمخشري:"وإنما جعلن على سنّ واحدة، لأن التحاب بين الأقران أثبت. وقيل: هنّ أتراب لأزواجهن، أسنانهنّ كأسنانهم".

=

=

قال أبو السعود:"فإن التحاب بين الأقران أرسخ أو بعضهن لبعض، لا عجوز فيهن ولا صبية، واشتقاقه من «التراب»، فإنه يمسهم في وقت واحد".

قال المراغي:"متساوون في السن حتى لا تحصل الغيرة بينهن".

الثاني: أن «الأتراب»: الأمثال. قاله ابن عباس ، ومجاهد.

الثالث: الأقران. وهذا مروي عن ابن عباس-أيضا- ، وعطية.

الرابع: أتراب في الأخلاق المتواخيات بينهن، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد، قاله مجاهد-أيضا- ، والسدي.

قال ابن كثير:"يعني: لا كما كن ضرائر في الدنيا ضرائر متعاديات".

- صفات الحور العين:

كواعب، أترابًا، مقصورات في الخيام، حور عين، أبكار، عربًا.

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا).

(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً) أي: نساء أهل الجنة، وأعاد الضمير في قوله (أَنْشَأْنَاهُنَّ) على غير مذكور، لأنه سبق ما يدل عليهن وهي الفرش، ومعنى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً) أي: إنه ﷻ أنشأهن، أي: أوجدهن وخلقهن (إِنْشَاءً) أي: خلقًا جديدًا.

قيل: المراد الحور العين، أي: خلقناهنّ من غير ولادة، وقيل: المراد نساء بني آدم، أي: خلقناهن خلقًا جديدًا وهو الإعادة، أي: أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال.

(فجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) البكر هي التي لم تفتض بكارتها بعد، ومعنى (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) أي: في النشأة الآخرة جعلناهن أبكارًا بعد أن كن ثيبات، وقد يراد بذلك الحور العين فهن أبكار، فنساء الجنة مهما جامعها زوجها عادت بكرًا.

وقد جاء في الحديث (أن امرأة عجوز جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله! أدع الله أن يدخلني الجنة؟ فقال: يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولّت تبكي،

=

=

فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، فإن الله يقول: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا).

(عُرُبًا) أي: متحببات إلى أزواجهن، وقال المبرد: العاشقة لزوجها، وقال ابن الأعرابي: العَروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه.

(أَتْرَابًا) أي: على سن واحدة وميلاد واحد، بنات ثلاث وثلاثين سنة

- والحكمة من الإخبار باستواء أسنانهن أنهم ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن، ولا ولائد لا يَطِقْنَ الوطء، وقال تعالى (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) أي: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم.

قال الحسن: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات.

والطرف البصر والنظر، فهن لكمال محبتهن لأزواجهن وإعجابهن بهم لا يرين أحدًا أحسن ولا أجمل منهم فلا ينظرن لغيرهم ولا يبغين بهم بديلًا كما قال تعالى (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) وقال تعالى (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) وقال تعالى (وحُورٌ عين) حور جمع حوراء، والحَوَر: سعة العين مع شدة بياضها وسوادها، وهو غاية جمالها، أي: نساء بيض واسعات الأعين.

قوله تعالى: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤]، أي:"ولهم كأس مملوءة خمرًا".

وفي قوله تعالى: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤]، وجوه:

أحدها: مملوءة، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، ومنه قول الشاعر:

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا... فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقَا

عن أبي صالح، عن ابن عباس، قوله: "{كَأْسًا دِهَاقًا}، قال: ملأى".

عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: "{وَكَأْسًا دِهَاقًا}، يقول: ممتلئا".

=

=

عن مسلم بن نَسْطاس، قال: قال ابن عباس لغلامه: اسقني دهاقا، قال: فجاء بها الغلام ملأى، فقال ابن عباس: هذا الدِّهاق".

عن قتادة: "{وَكَأْسًا دِهَاقًا}، قال: مُتْرَعة مَلأى".

قال قتادة:"الدهاق: المَلأى المُتْرَعة".

قال قتادة:"الدهاق: الممتلئة".

قال ابن زيد:"الدِّهاق المملوءة".

قال النحاس أي: ممتلئة. مشتقّ من دهقه إذا تابع عليه الشدّة".

الثاني: متتابعة يتبع بعضها بعضًا، قاله أبو هريرة، سعيد بن جبير، ومجاهد.

عن أبي هريرة، في قوله: "{كَأْسًا دِهَاقًا}، قال: دمادم". وهي كلمة فارسية بمعنى: متتابعة.

قال سعيد بن جبير:"دهاقًا: المتتابعة".

عن مجاهد: "{وَكَأْسًا دِهَاقًا}، قال: المتتابعة".

عن عمرو بن دينار، قال: "سمعت ابن عباس يُسأل عن {كأْسًا دِهاقًا}، قال: دراكا، قال يونس: قال ابن وهب: الذي يَتْبع بعضُه بعضا".

عن الكلبيّ عن أبي صالح: "أنّ العباس بن عبد المطّلب يقول: كنّا في جاهليّتنا، نقول: اسقنا دِهَاقا، نقول: متتابعات".

وفي رواية عن ابن عباس: "{وَكَأْسًا دِهَاقًا}، قال: الملأى المتتابعة".

قال الطبري:"يقول: وكأسا ملأى متتابعة على شاربيها بكثرة وامتلاء، وأصله من الدَّهْق: وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدّة وعنف، وكذلك الكأس الدهاق: متابعتها على شاربيها بكثرة وامتلاء".

الثالث: صافية، رواه عمر بن عطاء عن عكرمة، قال الشاعر:

لأَنْتِ إلى الفُؤادِ أَحَبُّ قُرْبًا... مِنَ الصَّادي إلى كَأسِ الدِّهاقِ.

=

=

قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، أي:"لا يسمعون في هذه الجنة باطلا من القول، ولا يكذب بعضهم بعضًا".

وفي «اللغو» -ها هنا- أربعة أقوال:

أحدها: الباطل من القول، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وبه قال الطبري ، والزجاج.

قال قتادة:"إنما كان اللغو والباطل في الدنيا".

الثاني: الحلف عند شربها، قاله السدي ، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: لا حلف في شربهم".

الثالث: الشتم، قاله مجاهد ، وابن زيد.

عن مجاهد، قوله: "{لَا لَغْوٌ فِيهَا} [الطور: ٢٣]، قال: لا يستبون".

قال ابن زيد:"لا سباب ولا تخاصم فيها".

الرابع: المعصية، قاله الحسن.

قال الماتريدي:"أي: لا يسمعون فيها ما يحق أن يلغى، بل يسمعون فيها كل خير، والذي يحق أن يلغى ما ذكروا من الحلف والباطل والكذب؛ فلا يسمعون شيئا من ذلك كما يسمع من أهلها في الدنيا إذا شربوها".

قال ابن كثير:"أي: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أي: هَذَيَان".

قال ابن كثير:"أي: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة".

قال ابن عطاء: "أي: لغو يكون في مجلس محلّه جنة عدن، والساقي فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم تحية من عند الله مباركة طيبة، والقوم أضياف الله".

وفي قوله تعالى: {كِذَّابًا} [النبأ: ٣٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يكذب بعضهم بعضًا، قاله سعيد بن جبير ، وبه قال الطبري.

قال مقاتل:"يقول: ولا يكذبون على شرابهم كما يكذب أهل الدنيا إذا شربوا".

=

=

قال ابن كثير:"ليس فيها إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص".

قال الفراء:"وقد قرأ عَلِيٌّ: {لَغْوًا وَلَا كِذَابًا}، بالتخفيف، اللهُ أعلمُ: لا يَتَكَاذَبون".

قال الماتريدي:"{كِذَّابًا}: إن قرئ بالتخفيف فهو من الكذب؛ أي: لا يكذبون. وإن قرئ بالتشديد فهو من التكذيب؛ أي: لا يكذب بعضهم بعضا، فكان معناه: ذلك الشراب لا يعمل فيهم هذا العمل؛ حتى يحملهم على الكذب والتكذيب؛ كما يوجد في شراب أهل الدنيا".

الثاني: أنه الخصومة، قاله الحسن.

الثالث: أنه المأثم، قاله قتادة.

كما قال تعالى (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).

وقال تعالى (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا). (إلا) أداة استثناء بمعنى (لكن) فالاستثناء منقطع، أي: لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا لكنهم يسمعون فيها السلام كما قال تعالى (لا... يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا).

يسلم بعضهم على بعض كما قال تعالى (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ).

وتسلم عليهم الملائكة كما قال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ). (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ).

والرب يسلم عليهم كما قال تعالى (سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ).

فالجنة دار السلام فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه.

- قال البقاعي:... ولما كانت العادة جارية بأن الشراب الجيد يكون قليلًا، دل على كثرته دليلًا على جودته بقوله (دهاقًا) أي ممتلئة، ولما كانت مجالس الخمر

=

=

في الدنيا ممتلئة بما ينغصها من اللغو والكذب إلا عند من لا مروءة له فلا ينغصه القبيح، قال نافيًا عنها ما يكدر لذة السمع (لا يسمعون فيها) أي الجنة في وقت ما (لغوًا) أي لغطًا يستحق أن يلغى لأنه ليس له معنىً أعم من أن يكون مهملًا ليس له معنى أصلًا، أو مستعملًا ليس له معنىً موجود في الخارج وإن قل، أو له معنى ولكنه لا يترتب به كبير فائدة.

- وقيل الضمير أنها ترجع إلى الكأس، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم، ولم يتكلموا.

قوله تعالى: {جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا} [النبأ: ٣٦]، أي:"لهم كل ذلك جزاء ومنَّة من الله وعطاءً كثيرًا كافيًا لهم".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ {عَطَاءً حِسَابًا}، أي: كافيًا وافرًا شاملا كثيرًا؛ تقول العرب: "أعطاني فأحسبني" أي: كفاني. ومنه "حسبي الله"، أي: الله كافيّ".

قال مقاتل:"{جَزَاءً}، يعني: ثوابا {مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا}، يعني: يحاسب المسيئين فيجازيهم بالنار، ويحاسب المؤمنين فيجازيهم بالجنة، فأعطى هؤلاء وهؤلاء جزاءهم ولم يظلم هؤلاء المعذبين، شيئا".

قال الطبري: أي:"أعطى الله هؤلاء المتقين ما وصف في هذه الآيات ثوابًا من ربك بأعمالهم، على طاعتهم إياه في الدنيا، تفضلا من الله عليهم بذلك الجزاء، وذلك أنه جزاهم بالواحد عشرا في بعض وفي بعض بالواحد سبع مِئَةٍ، فهذه الزيادة وإن كانت جزاء، فعطاء من الله".

قال يحيى بن سلام:"يعني: الجَنَّة ثوابا من الله وعطية منه لأعمالهم التي عملوا في الدُّنيا احتسابا".

=

=

قال ابن قتيبة:"أي: كثيرًا. يقال: أعطيتُ فلانًا عطاءً حِسابًا؛ وأحْسَبْتُ فلانًا، أي أكثرتُ له. قال الشاعر:

ونُقْفِي وَلِيدَ الحَيِّ إنْ كان جائعًا... ونُحْسِبُه إن كان ليس بِجائعِ

ونرى أصلَ هذا: أن يُعطيَه حتى يقولَ: حسبِي".

وقال ابن قتيبة-المشكل":"الحساب: الكثير، قال الله تعالى: {جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسابًا (٣٦)} [النبأ: ٣٦]، أي كثيرا. ويقال: أحسبت فلانا. أي أعطيته ما يحسبه، أي يكفيه. ومنه قول الهذليّ:

حساب ورجل كالجراد يسوم

والحساب: الجزاء، قال الله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (٢٦)} [الغاشية: ٢٦]، أي: جزاءهم، وقال تعالى: {إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)} [الشعراء: ١١٣]، لأن الجزاء يكون بالحساب".

قال أبو عبيدة:"{عَطاءً حِسابا}، أي: جزاء ويجيء: حسابا كافيا، يقال: أعطاني ما أحسبني، أي: كفاني".

عن قتادة: "{عَطَاءً حِسَابًا}، قال: عطاء كثيرا".

قال مجاهد:"عطاء منه حسابًا لما عملوا". وفي لفظ:"عطاء من الله حسابًا بأعمالهم".

قال قتادة:"أي عطاء كثيرا، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم، الذي لا انقطاع له".

عن ابن وهب، قال: "سمعت ابن زيد يقول في قول الله: {جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا}، فقرأ: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا...} إلى {عَطَاءً حِسَابًا}، قال: فهذه جزاء بأعمالهم عطاء الذي أعطاهم عملوا له واحدة، فجزاهم عشرا، وقرأ قول الله: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}، وقرأ قول

=

=

الله: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}، قال: يزيد من يشاء، كان هذا كله عطاء، ولم يكن أعمالا يحسبه لهم، فجزاهم به حتى كأنهم عملوا له، قال: ولم يعملوا إنما عملوا عشرا، فأعطاهم مئة، وعملوا مئة، فأعطاهم ألفا، هذا كله عطاء، والعمل الأوّل، ثم حَسَب ذلك حتى كأنهم عملوا فجزاهم كما جزاهم بالذي عملوا".

قال ابن عاشور: والجزاء: إعطاء شيء عوضًا على عمل.

قوله تعالى: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ} [النبأ: ٣٧]، أي:"أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء".

قال المراغي:"أي: إنه سبحانه المالك لشئونهما، المدبر لأمورهما.

قال ابن كثير:"وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء".

قال أهل العلم:"ولا شك أن في ذكر ربوبيته تعالى لجميع الخلق، ورحمته الواسعة إشعارًا بمقدار الجزاء المذكور".

قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو: {رب السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا الرَّحْمَن} بِالرَّفْع، وَقَرَأَ عَاصِم وَابْن عَامر: «رب السموت وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا الرَّحْمَن»، خفضا جَمِيعًا، وَقَرَأَ الْمفضل عَن عَاصِم «رب السموت وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا الرَّحْمَن»، رفعا، وَقَرَأَ حَمْزَة والكسائي: «رب السموت وَالْأَرْض ومابينهما» خفضا، {الرَّحْمَن} رفعا.

قوله تعالى: {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧]، أي:"لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه".

قال الطبري: "لا يقدر أحد من خلقه خطابه يوم القيامة".

عن مجاهد، وقتادة: "{لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}، قال: كلاما".

=

=

قال ابن زيد:"لا يملكون أن يخاطبوا الله، والمخاطِب: المخاصم الذي يخاصم صاحبه".

قال القشيري:"وكيف تكون للمكوّن المخلوق الفقير المسكين مكنة أن يملك منه خطابا؟ أو يتنفّس بدونه نفسا؟ كلاّ.. بل هو الله الواحد الجبّار".

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء.

(لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ). وقال تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

قال الرازي: واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أحدًا من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله في شيء أو يطالبه بشيء قرر هذا المعنى، وأكده فقال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدرًا ورتبة، وأكثر قدرة ومكانة، فبين أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالًا لربهم وخوفًا منه وخضوعًا له، فكيف يكون حال غيرهم.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ} [النبأ: ٣٨]

في الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أنه مَلَك من أعظم الملائكة خَلْقًا. قاله ابن مسعود ، وابن عباس.

قال ابن عباس:"هو ملك أعظم الملائكة خَلْقًا".

قال مقاتل:"هو الملك الذي قال الله- ﷻ- عنه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء: ٨٥]، وجهه وجه آدم- عليه السلام- ونصفه من نار، ونصفه من ثلج، فيسبح بحمد ربه ويقول رب كما ألفت بين هذه النار وهذا الثلج، تذيب هذه النار هذا

=

=

الثلج، ولا يطفئ هذا الثلج هذه النار. فكذلك ألف بين عبادك المؤمنين، فاختصه الله- تعالى- من بين الخلق من عظمه".

قال ابن مسعود:"الرُّوح: ملك في السماء الرابعة، هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة يسبح الله كلّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كلّ تسبيحة مَلَكا من الملائكة، يجيء يوم القيامة صفًّا وحده".

عن عبد الله بن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن لله ملكا لو قيل له: التقم السماوات السبع والأرضين بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت".

الثاني: أن «الروح»: جبريل -عليه السلام-. قاله الضحاك ، وسعيد بن جبير ، والشعبي.

قال ابن كثير:"ويستشهد لهذا القول بقوله: {نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]".

الثالث: أن «الروح»: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب عز وجل، وصاحب الوحي. قاله مقاتل بن حيان.

قال الزمخشري:"الروح: أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين".

الرابع: أنهم حفظة على الملائكة، قاله ابن أبي نجيح.

الخامس: أنهم خَلق من خلق الله، على صُور بني آدم، وليسوا بملائكة ولا ببشر، وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح ، والأعمش.

قال الزجاج:"{الرُّوحُ}: خلق كالإنس، وليس هو إنس".

قال مجاهد:"{الرُّوحُ}: خلق كخلق آدم".

عن مسلم، عن مجاهد، قال: "{الرُّوحُ}: خلق لهم أيد وأرجل، -وأراه قال: ورءوس يأكلون الطعام، ليسوا ملائكة-".

=

=

قال أبو صالح:"يشبهون الناس وليسوا بالناس". وفي لفظ:"الروح: خلق كالناس، وليسوا بالناس".

قال الأعمش:"الروح خلق من خلق الله يضعفون على الملائكة أضعافًا، لهم أيد وأرجل".

وروى ابن مجاهد عن ابن عباس قال: "الروح خلق من الله وصورهم على صور بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلّا ومعه واحد من الروح".

السادس: أنهم بنو آدم. وهذا قول الحسن ، وقتادة.

قال ابن كثير:"الأشبه – والله أعلم – أنهم بنو آدم".

عن معمر، عن الحسن، في قوله: "{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ}، قال: الروح: بنو آدم. وقال قتادة: هذا مما كان يكتمه ابن عباس".

السابع: أنها أرواح بني آدم، وذلك حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الأرواح إلى الأجساد. رواه العوفي عن ابن عباس.

الثامن: أنه القرآن. قاله زيد بن أسلم.

قال ابن زيد:"كان أبي يقول: الروح: القرآن، وقرأ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ}".

التاسع: أنه جند من جند الله تعالى، وليسوا بملائكة، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ.

قال الطبري:"الصواب من القول أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ خَلْقَه لا يملكون منه خطابا، يوم يقوم الرُّوح، والرُّوح خَلْق من خَلْقِه، وجائز أن يكون بعض هذه الأشياء التي ذكرت، والله أعلم أيّ ذلك هو، ولا خبر بشيء من ذلك أنه المعنيّ به دون غيره يجب التسليم له، ولا حجة تدلّ عليه، وغير ضائر الجهل به".

=

=

قال النحاس:"لا دليل نعلمه يدلّ على أصحّ هذه الأقوال يكون قاطعا من توقيف من الرسول أو دلالة بينة، وهو شيء لا يضرّ الجهل به، ولو قال قائل: هذه الأشياء التي ذكرها العلماء ليست بمتناقضة ويجوز أن يكون هذا كلها لها لما عنّف".

قوله تعالى: {لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨]، أي:"لا يشفعون إلا لمن أذن له الرحمن في الشفاعة، وقال حقًا وسدادًا".

وفي تفسير قوله تعالى {لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} [النبأ: ٣٨]، وجهان:

أحدهما: لا يشفعون إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة، قاله الحسن.

الثاني: لا يتكلمون في شيء إلا من أذن له الرحمن بشهادة أن لا إله إلا الله، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، في قوله: "{إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}، يقول: إلا من أذن له الربّ بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي منتهى الصواب".

قال الزمخشري:"الضمير في {لا يَمْلِكُونَ}، لأهل السماوات والأرض، أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك، فيزيدون فيه أو ينقصون منه. أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب، إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه".

وقال مقاتل:"لا يتكلمون من الخوف أربعين عاما".

وفي قوله تعالى {وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: حقا في الدنيا وعمل به، قاله مجاهد ، ونحوه عن الضحاك.

الثاني: يعني: شهادة: لا إله إلا الله، قاله عكرمة ، وأبو صالح ، ويحيي بن سلام ،

=

=

ومقاتل.
قال النحاس:"وقال صوابا في الدنيا، أي قال: لا إله إلا الله".
قال مقاتل:"لأن العرب قالوا إن القيامة باطل".
الثالث: أن الملائكة تقول يوم القيامة: لا تُدخل الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل، وهو قول الحسن ، وعكرمة-أيضا-.
روي عن عكرمة، أنه "قرأ هذه الآية: {إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}، قال: يُمرّ بأناس من أهل النار على ملائكة، فيقولون: أين تذهبون بهؤلاء؟ فيقال: إلى النار، فيقولون: بما كَسَبت أيديهم، وما ظلمهم الله،
ويمرّ بأناس من أهل الجنة على ملائكة، فيقال: أين تذهبون بهؤلاء؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: برحمة الله دخلتم الجنة، قال: فيُؤْذَن لهم في الكلام، أو نحو ذلك".
قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن خلقه أنهم لا يتكلمون يوم يقوم الروح والملائكة صفا، إلا من أذن له منهم في الكلام الرحمن، وقال صوابا، فالواجب أن يقال كما أخبر إذ لم يخبرنا في كتابه، ولا على لسان رسوله، أنه عَنَى بذلك نوعا من أنواع الصواب، والظاهر محتمل جميعه".
أي: في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين.
(لَّا يَتَكَلَّمُونَ) أي: لا أحد يتكلم منهم تعظيمًا لله وهيبة منه.
كما قال تعالى (لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا).
وقال تعالى (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا).
(إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ) أي: إلا من أذن له الرحمن سبحانه بالكلام فإنه يتكلم كقوله (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

=

=

(وَقَالَ صَوَابًا) أي حقًا. ومن الحق: لا إله إلا الله.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [النبأ: ٣٩]، أي:"ذلك اليوم الحق الذي لا ريب في وقوعه".

قال الطبري:"يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقوم الروح والملائكة صفا {الْحَقُّ}، يقول: إنه حقّ كائن لا شكّ فيه".

قال السمعاني:"وَمعنى «الْحق» -هَاهُنَا-: أَنه كَائِن لَا محَالة".

قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [النبأ: ٣٩]، أي:"فمن شاء النجاة مِن أهواله فليتخذ إلى ربه مرجعًا بالعمل الصالح".

قال الطبري:"يقول: فمن شاء من عباده اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحقّ، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله {مآبًا}، يعني: مرجعا، وهو مَفْعَلٌ من قولهم: آب فلان من سفره، كما قال عبيد بن الأبرص:

وكُل ذِي غَيْبَةٍ يَئُوب... وغائِبُ المَوْتِ لا يَئُوبُ".

عن قتادة: "{إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}، قال: سبيلا".

قال سفيان:"يقول: مرجعا منزلا".

قال قتادة:"اتخذوا إلى الله مآبًا بطاعته، وما يقرّبهم إليه".

قال مقاتل:"يعني: منزلة، يعني: الأعمال الصالحة".

قال النحاس:"أي: نجاء مآب، أي: عملا صالحا في الدنيا".

قال السمعاني:"أَي: منقلبا حسنا بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَة".

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ) أي: الكائن لا محالة.

- وفي وصف اليوم بأنه حق وجوه:

أحدها: أنه يحصل فيه كل الحق، ويندمغ كل باطل.

وثانيها: أن الحق هو الثابت الكائن، وبهذا المعنى يقال إن الله حق، أي هو ثابت

=

=

لا يجوز عليه الفناء ويوم القيامة كذلك فيكون حقًا.

وثالثها: أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يستحق أن يقال له يوم، لأن فيه تبلى السرائر وتنكشف الضمائر، وأما أيام الدنيا فأحوال الخلف فيها مكتومة، والأحوال فيها غير معلومة. [تفسير الرازي].

(فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) أي: مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

(إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث (أنذرناكم أي: حذرناكم وخوفناكم (عذابًا قريبا) يعني يوم القيامة.

والإنذار: الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته، في وقت يستطيع المنذر فيه أن يجنب نفسه الوقوع في ذلك الشيء.

- سماه قريبًا لتأكد وقوعه، ولأن كل ما هو آتٍ آت.

- قال في التسهيل: ووصفه بالقرب لأن كل آت قريب، أو لأن الدنيا على آخرها.

- قال البيضاوي: يعني عذاب الآخرة، وقربه لتحققه فإن كل ما هو آت قريب ولأن مبدأه الموت.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} [النبأ: ٤٠]، أي:"إنَّا حذَّرناكم عذاب يوم الآخرة القريب".

قال الطبري:"يقول: إنا حذّرناكم أيها الناس عذابًا قد دنا منكم وقرُب".

قال ابن الجوزي:"هو عذاب الآخرة، وكل آت قريب".

قال ابن كثير:"يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا، لأن كل ما هو آت آت".

وقال مقاتل:"يعني: في الدنيا القتل ببدر، وهلاك الأمم الخالية، وإنما قال قريبا لأنها أقرب من الآخرة".

=

=

قوله تعالى: {يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ: ٤٠]، أي:"يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته".

قال الطبري:"يقول: "وذلك العذاب {يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ} المؤمن {مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} من خير اكتسبه في الدنيا، أو شرّ سَلَفَهُ، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها".

قال ابن الجوزي:"أي: يرى عمله مثبَتًا في صحيفته خيرًا كان أو شرّا".

قال ابن كثير:"أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} [الكهف: ٤٩]، وكقوله: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]".

عن الحسن: "{يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}، قال: المرء المؤمن".

عن الحسن:"{يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}، قال: المرء المؤمن يحذَر الصغيرة، ويخاف الكبيرة".

وقال مقاتل يعني: الإنسان الخاطئ يرى عمله أسود مثل الجبل".

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، أي:"ويقول الكافر من هول الحساب: يا ليتني كنت ترابًا فلم أُبعث".

عن قتادة، قوله: "{يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}، وهو الهالك المفرط العاجز، وما يمنعه أن يقول ذلك وقد راج عليه عَوْرَاتُ عمله، وقد استَقبل الرحمن وهو عليه غضبان، فتمنى الموت يومئذ، ولم يكن في الدنيا شيء أكرهَ عنده من الموت".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، وجوه:

أحدها: أي: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء، كما قال: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٥]. حكاه الزجاج.

=

=

الثاني: أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة. ذكره ابن كثير.

الثالث: أنه إذا قُضِيَ بين الناس، وأمر بأهل النار إلى النار قيل لمؤمني الجنّ ولسائر الأمم سوى ولد آدم: عُودُوا ترابًا، فإذا نظر الكفار إليهم قد عادوا ترابًا، قال الكافر: يا ليتني يا ليتني كنت ترابًا. وهذا قول أبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وبه قال ليث بن أبي سليم.

عن ليث بن أبي سليم، قال: "مؤمنو الجن يعودون ترابًا".

عن ليث بن أبي سليم، قال: "ثواب الجن أن يُجاروا مِن النار، ثم يُقال لهم: كونوا ترابًا".

وقال عمر بن عبد العزيز: "إن مؤمنين الجن حول الجنّة في ريض ورحاب وليسوا فيها".

الرابع: أن الكافر -هاهنا-: إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب وافتخر بأنه خلق من النار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والراحة والرحمة ورأى ما هو وذويه فيه من الشدّة والعذاب تمنّى أنه بمكان آدم فيقول حينئذ: {الَيْتَنِي كُنْتُ تُرابًا}. حكاه أبو القاسم بن جبير.

الخامس: أن الكافر يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابا، فتصير ترابا. فعند ذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}، أي: كنت حيوانا فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصّور المشهور ، وورد فيه آثار عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو ، وسفيان ، وبه الفراء ، والطبري.

=

=

قال الفراء:"وإنما تمنوا ذلك لأن الوحوش وسائر الدواب يوم القيامة يقال لها: كوني ترابا".

قال الطبري:"ويقول الكافر يومئذ تمنيا لما يلقى من عذاب الله الذي أعدّه لأصحابه الكافرين به، يا ليتني كنت ترابًا كالبهائم التي جُعِلت ترابًا".

قال الكلبي: "يقول الله ﷻ للبهائم والوحش والطير والسباع: كن ترابا فتسوى بها الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافرون لو كانوا ترابا يمشي عليهم أهل الجمع، بيانه قوله ﷻ: {يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا}".

قال سفيان:"إذا قيل للبهائم: كونوا ترابًا، قال الكافر: يا ليتني كنت ترابًا".

قال الماوردي:"وهذه من الأماني الكاذبة، كما قال الشاعر:

ألا يا ليتني والمْرءُ مَيْتُ... وما يُغْني من الحدثانِ لَيْت".

عن ابن وهب قال: وحدثني الليث [بن سعد] قال: "يقال إذا فرغ الله من الحكم، والطير والبهائم واقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، قال لهم: كونوا ترابا، فعند ذلك: {يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}".

قال مجاهد: "يقاد يوم القيامة للمنقورة وللمنطوحة من الناطحة".

قال عكرمة: "بلغني أنّ السباع والوحوش والبهائم إذا رأين يوم القيامة بني آدم وما هم فيه من الغمّ والحزن قلن: الحمد لله الذي لم يجعلنا مثلكم فلا جنّة نرجو ولا نارا نخاف".

عن أبي هريرة، قال: "إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}".

عن أبي هريرة في قوله تعالى {إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]، قال: «يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطير، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن الله يأخذ للجماء من القرناء» قال: "ثم يقول: كوني ترابا "

=

=

قال:"فلذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]".

قال أبو هريرة:"ما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجماء من ذات القرن. ثم يقول لها: كوني ترابا. فعند ذلك يقول الكافر: {لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}. وإن شئتم فاقرءوا: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨]".

عن محمد بن كعب القُرظيِّ، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "يَقْضِي اللهُ بَينَ خَلْقِهِ الجِنِّ والإنْسِ والبَهائم، وإنَّه لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الجَمَّاءَ مِنَ القَرْناءِ، حتى إذَا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لأخْرَى، قالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذلكَ يَقُولُ الكافِرُ: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا".

عن عبد الله بن عمرو، قال: "إذا كان يوم القيامة، مُدّ الأديم، وحُشِر الدوابّ والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدوابّ، يقتصّ للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدوابّ، قال لها: كوني ترابا، قال: فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا".

وقال أبو هريرة: "فيقول التراب للكافر: لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي".

- قال ابن عاشور: ومعنى نظر المرء ما قدمت يداه: حصول جزاء عمله له.

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ) متحسرًا.

(يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا لم يخلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة.

وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقضي للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا فتصير ترابًا فعند ذلك يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابًا) أي: كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب.

=

=

ومثل هذه الآية: قوله تعالى (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا).

وقول الله عن الكافر (يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ).

- قال في التسهيل: (وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَابًا) يتمنى أن يكون يوم القيامة ترابًا فلا يحاسب ولا يجازى، وقيل: تمنى أن يكون في الدنيا ترابًا أي لم يخلق، وروي أن البهائم تحشر ليقتص لبعضهم من بعض ثم ترد ترابًا، فيتمنى الكافر أن يكون ترابًا مثلها، وهذا يقوّي الأول.

- قال ابن عاشور: وخُص بالذكر من عموم المرء الإنسانُ الكافر الذي يقول (يا ليتني كنت ترابًا) لأن السورة أقيمت على إنذار منكري البعث فكان ذلك وجه تخصيصه بالذكر، أي يوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلًا عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع، أي يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حسّاس بأن يكون أقل شيء مما لا إدراك له وهو التراب، وذلك تلهف وتندم على ما قدمت يداه من الكفر، وقد كانوا يقولون (أئذا كنا عظامًا ورفاتًا إنا لمبعوثون) فجعل الله عقابهم بالتحسر وتمني أن يكونوا من جنس التراب.

وذكر وصف الكافر يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم وقد قال الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا).

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون)، يسأل عن تكرر التهديد وفائدته؟

والجواب عن ذلك: قد تقدم أن العرب متى تهممت بشئ أرادته لتحققه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدًا، وكأنها تقيم تكرارها مكان القسم عليه والاجتهاد في الدعاء عليه حيث يقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم

=

=

وكأن مخاطباتهم جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وقد تقدم هذا وتقرر، وعلى ذلك يجري ما ورد في هذا الوعيد. ومنه قوله تعالى: (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) (المدثر: ١٩ - ٢٠) وقوله: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) (القيامة: ٣٤ - ٣٥) ومنه: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) (التكاثر: ٦ - ٧) وهو كثير.

الآية الثانية - قوله تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا) (النبأ: ٢٤ - ٢٦)، (وقال في أهل الجنة) (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا) (النبأ: ٣١ - ٣٢) إلى قوله: (جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا) (النبأ: ٣٦)، للسائل أن يسأل عن موجب الفرق بين الفريقين حتى قيل في أهل النار: (جزاء وفاقًا) وفي أهل الجنة (جزاءً من ربك عطاء حسابًا) مع أن كل ذلك جزاء؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله سبحانه أعلمنا أنه يجازي على الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، على ما لا عين رأي ولا أن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (الأنعام: ١٦٠)، وقال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) (البقرة: ٢٦١)، وقال تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة: ١٧)، وقال: (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) (فصلت: ٣١) وقال تعالى في الجزاء على السيئات: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى: ٤٠)، وقال تعالى: (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الطور: ١٦)، فحصل من هذا أن حكم السيئات المقابلة بأمثالها، وذلك فيمن نفذ عليه الوعيد

=

=

ولم يغفر له، إذ المعتقد أنه تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وأنه لا يخلد في النار إلا الكافر، فإذا تقرر ما ذكرنا فاعلم أن تسميه ما يمنحه الله سبحانه أهل الجنة جزاء إنما ذلك فضل منه سبحانه، إذ الجزاء لهم على أعمالهم أكثر من أعمالهم بوعده سبحانه، فإذا إنما حاصلة عطاء وإحسان وإنعام، وإنما سمى جزاء من حيث قوبل به عمل وارتبط به بحسب الإنعام، إذ لا يجب عليه شئ، فهذا حال الجزاء والإحسان.

وأما الطرف الآخر فاسم الجزاء عليه أوقع وأطبق من حيث المقابلة، فلهذا قيل في هذا (جزاء وفاقًا) كما قال تعالى: (لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) (غافر: ١٧) (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الطور١٦)، وأما الجزاء الإحسانى فقد فاق الوفاق وعجز عنه التقدير، فلهذا أعقب قوله تعالى: (جزاء) بما يشعر بجريانه على حكم الإنعام والإحسان فقال تعالى (من ربك)، وفي هذه الإضافة ما يشعر بعظيم الرحمة وزلفى القرب بقوله: (من ربك)، ثم قال: (عطاء) فاعلم أنه لا يماثل ما ارتبط به من عمل العبد بل يفوق رجاء العبد وتقديره، ثم قال تعالى: (حسابا) فأشار إلى التضعيف المتقدم، ولم يكن ليلائم جزاء السيئة أن يقال فيها: (من ربك)، ولا لتسمى عطاء ولا حسابا لما بيناه، فورد كل على ما يناسب، ولا يمكن فيه العكس، والله أعلم

فإن قيل: قد ورد التصنيف فى جزاء السيئات قال تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) (هود: ٢٠).

فالجواب أن التضعيف هنا ليس على الحد المتقدم في تضعيف جزاء الحسنة، فإن المراد هناك أن الحسنة الواحدة يتضاعف عليها الجزاء بعشر أمثالها إلى أكثر كما تقدم، وأما المراد بتضاعف عليها الجزاء بعشر أمثالها إلى أكثر كما تقدم،

=

سورة النازعات(١)

=

وأما المراد بتضعيف العذاب بتكثيره بحسب تكثير المجترحات، لأن السيئة الواحدة لا يضاعف الجزاء عليها بدليل قوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى: ٤٠)، وقد تمهد هذا، وتقدم بقبل قوله في أهل الامتحان: (يضاعف لهم العذاب) ما يشهد بما ذكرته يبين المراد وهو قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (هود: ١٨ - ١٩)، فهؤلاء كذبوا على ربهم وصدوا عن سبيله وبغوها عوجًا، وكفروا بالجزاء، فهذه مرتكبات عذبوا بكل مرتكب (منها) فتضاعف عليهم العذاب لتضاعف مرتكباتهم، لكل مرتكب منها عذاب يخصه فليس ما ذكر من التضعيف في هذا الطرف على حد ما في الطرف الآخر، وقد بين القرآن ذلك بغير الجواب عن تخليدهم وكيف نبه عليه أنه وفاق لكفرهم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٠-٥٠١).

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المتأولين".

قال ابن الجوزي:"مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مكّيّة.

* آياتها ستّ وأَربعون فى عدّ الكوفة، وخمس عند الباقين. وكلماتها مائة وتسع وسبعون. وحروفها سَبْعمائة وثلاث وخمسون. المختلف فيها اثنتان: {وَلأَنْعَامِكُمْ} طغى. فواصل آياتها (هم)، على الميم آية واحدة: {وَلأَنْعَامِكُمْ}.

* أسماء السورة:

تسمى «سورة النازعات» سميت في المصاحف وأكثر التفاسير «سورة النازعات»

=

بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، وجعل لفظ «النازعات» علما عليها لأنه لم يذكر في غيرها. وعنونت في كتاب التفسير في «صحيح البخاري» ، وفي كثير من كتب المفسرين بسورة «والنازعات» بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها.
وتسمى «سورة الساهرة» ذكر سعد الله الشهير بسعدي والخفاجي: إنها تسمى «سورة الساهرة»، وورد هذا الاسم عند السخاوي في "جمال القراء" -أيضا- والشوكاني في تفسيره ، والألوسي في تفسيره ،والقاسمي في تفسيره ، وهذه التسمية لوقوع لفظ «الساهرة» في أثنائها، قال تعالى: {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤]،وهذا اللفظ لم يقع في غيرها من السور.
وتسمى «سورة الطامة» وذكر سعدي والخفاجي-أيضا-: إنها تسمى: «سورة الطامة»، وسماه بذلك السخاوي ، والألوسي في تفسيره ، والقاسمي في تفسيره ، ووجه تسميتها بذلك لوقوع لفظ «الطامة» فيها، ولم يقع في غيرها، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤].
• الاسم الثالث: «سورة المدبرات»:
قال ابن عاشور:""ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنون اسمها «سورة فالمدبرات» وهو غريب، لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها".
* معظم مقصود السّورة: القَسَم بنَفْخَة الصُّور، وكيفِيّة البَعْث والنُّشُور، وإِرسال موسى إِلى فرعون، والمِنَّة بخَلْق السّماءِ والأَرض، وتحقيق هَوْل القيامة، وبيان حال مَنْ آثر الدّنيا، والخبر من حال أَهل الخوف، واستعجال الكافرين بالقيامة، وتعجّبهم منها فى حال البعث فى قوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا} إِلى آخرها.
* المتشابهات: قوله: {فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى}، وفى عبس {فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة}؛ لأَنَّ الطَّامّة مشتَقَّة من طمَمْت البِئر إِذا كبستَها. وسمّيت القيامة طامة، لأَنَّها تكبِس كلّ شئ وتكسِره. وسمّيت الصَّاخة - والصّاخَّة: الصّوت الشَّديد -

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١).

{وَالنَّازِعَات} الْمَلَائِكَة تَنْزِع أَرْوَاح الْكُفَّار {غَرْقًا} نَزْعًا بشدة.

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢).

{وَالنَّاشِطَات نَشْطًا} الْمَلَائِكَة تَنْشِط أَرْوَاح الْمُؤْمِنِينَ أَيْ تسلها برفق.

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣).

{وَالسَّابِحَات سَبْحًا} الْمَلَائِكَة تَسْبَح مِنْ السَّمَاء بِأَمْرِهِ تَعَالَى أَيْ تَنْزِل

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤).

{فَالسَّابِقَات سَبْقًا} الْمَلَائِكَة تَسْبِق بِأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الجنة.

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥).

{فَالْمُدَبِّرَات أَمْرًا} الْمَلَائِكَة تُدَبِّر أَمْر الدُّنْيَا أَيْ تَنْزِل بِتَدْبِيرِهِ وَجَوَاب هَذِهِ الْأَقْسَام مَحْذُوف أَيْ لَتُبْعَثُنَّ يَا كُفَّار مَكَّة وَهُوَ عَامِل فِي.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦).

{يَوْم تَرْجُف الرَّاجِفَة} النَّفْخَة الْأُولَى بِهَا يَرْجُف كُلّ شَيْء أَيْ يَتَزَلْزَل فَوُصِفَتْ بِمَا يَحْدُث منها.

=

لأَنَّ من شدّة صوتها يحيا النَّاس؛ كما ينتبه النَّائم (من الصّوت) الشديد. وخُصّت النازعات بالطَّامة: لأَنَّ الطَّم قبل الصّخ، والفزع قبل الصّوت، فكانت هى السّابقة، وخُصّت (عبس) بالصّاخَّة؛ لأَنَّها بعدها. وهى اللاَّحقة. بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٩٩).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧).

{تَتْبَعهَا الرَّادِفَة} النَّفْخَة الثَّانِيَة وَبَيْنهمَا أَرْبَعُونَ سَنَة وَالْجُمْلَة حَال مِنْ الرَّاجِفَة فَالْيَوْم وَاسِع لِلنَّفْخَتَيْنِ وَغَيْرهمَا فَصَحَّ ظَرْفِيَّته لِلْبَعْثِ الْوَاقِع عَقِب الثَّانِيَة.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨).

{قُلُوب يَوْمئِذٍ وَاجِفَة} خَائِفَة قَلِقَة.

أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩).

{أَبْصَارهَا خَاشِعَة} ذَلِيلَة لِهَوْلِ مَا تَرَى.

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠).

{يَقُولُونَ} أَيْ أَرْبَاب الْقُلُوب وَالْأَبْصَار اِسْتِهْزَاء وَإِنْكَارًا لِلْبَعْثِ {أَئِنَّا} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ {لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَة} أَيْ أَنُرَدُّ بَعْد الْمَوْت إِلَى الْحَيَاة وَالْحَافِرَة اِسْم لِأَوَّلِ الْأَمْر وَمِنْهُ رَجَعَ فُلَان فِي حَافِرَته إِذَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١).

{أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَة} وَفِي قِرَاءَة نَاخِرَة بَالِيَة مُتَفَتِّتَة نَحْيَا.

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢).

{قَالُوا تِلْكَ} أَيْ رَجْعَتنَا إِلَى الْحَيَاة {إِذًا} إن صحت {كرة} رجعة {خاسرة} ذات خسر إن قال تعالى.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣).

{فَإِنَّمَا هِيَ} أَيْ الرَّادِفَة الَّتِي يَعْقُبهَا الْبَعْث {زَجْرَة} نَفْخَة {وَاحِدَة} فَإِذَا نُفِخَتْ.

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤).

{فَإِذَا هُمْ} أَيْ كُلّ الْخَلَائِق {بِالسَّاهِرَةِ} بِوَجْهِ الأرض أحياء بعد ما كَانُوا بِبَطْنِهَا أَمْوَاتًا[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن محمد بن كعب في قوله تعالى: {أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١)}؛ قال: لما نزلت هذه الآية؛ قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت؛ لنحشرن؛ فنزلت: {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤٠٧) ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر. وهذا ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} [النازعات: ١].

أقسم ربنا جلّ جلاله بـ «النازعات»، واختلف أهل التفسير فيها على أقوال:

أحدها: أنها الملائكة تَنْزِعُ أَرْواح الكفَّار، قاله علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس.

قال علي رضي الله عنه:"هي الملائكة تنزع أرواح الكافر والكفرة".

قال ابن مسعود:"الملائكة الذين يلون أنفس الكفار".

قال ابن مسعود: "يريد أنفس الكفّار ينزعها ملك الموت من أجسادهم من تحت كلّ شعرة ومن تحت الأظافير وأصول القدمين ثم يفرّقها ويردّدها في جسده بعد ما تنزع حتى إذا كادت تخرج ردّها في جسده فهذا عمله بالكفار".

قال ابن عباس:"هي أنفس الكفار، تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار".

قال سعيد:"نزعت أرواحهم، ثم غرقت، ثم قذف بها في النار".

عن الربيع بن أنس في قوله: "{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ١ - ٢]، قال: هاتان الآيتان للكفار، عند نزع النفس تنشط نشطا عنيفا مثل سفود في صوف فكان خروجه شديدا، {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} =

=

[النازعات: ٣ - ٤]، قال: هاتان للمؤمنين".

قال مقاتل:"فهو ملك الموت وحده، ينزع روح الكافر حتى إذا بلغ ترقوته غرقه في حلقه، فيعذبه في حياته قبل أن يميته، ثم ينشطها من حلقه كما ينشط السفود الكثير الشعث من الصوف فينشط روح الكافر من قدمه إلى حلقه مثل الصوف المبلول".

وروى عطية عن ابن عباس، قوله: "{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، قال: تنزع الأنفس" ، أي: أنفس بني آدم. وهو قول ابن مسعود-في إحدى الروايات- ، وبه قال مسروق.

روي عن عبد الله، ومسروق:"{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، قال: الملائكة".

وروي أبو صالح، عن ابن عباس، في {النازعات}، قال: حين تنزع نفسه".

قال ابن كثير: قال ابن مسعود وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسُّدي: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فَتُغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط، وهو قوله: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} قاله ابن عباس".

الثاني: أنه الموت ينزع النفوس، قاله مجاهد.

الثالث: أنها النفس حين تُنْزَعُ، قاله السدي.

قال السدي:"النفس حين تَغرق في الصدر".

قيل: "يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنه يغرق".

الرابع: أنها النجوم تَنْزِع من أُفُق إلى أُفُق تطلع ثم تغيب، قاله الحسن ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، والأخفش ، وابن كيسان.

الخامس: أنها القِسِيّ تَنْزِع بالسَّهم، قاله عطاء ، وعكرمة.

=

=

السادس: هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر، حكاه يحيى بن سلام.

السابع: أنها الغزاة، الرماة، حكاه الثّعلبيّ.

قال الثعلبي:"والنازعات إغراقا كما يغرق النازع في القوس إذا بلغ بها غاية المد الذي عند النصل الملفوف عليه، ويقال لقشرة البيضة الداخلة غرقي، وأراد بالإغراق المبالغة في النزع وهو سابغ في جميع وجوه تأويلها".

قال ابن كثير:"والصحيح [القول] الأول، وعليه الأكثرون".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالنازعات غرقا، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكلّ نازعة غرقا، فداخلة في قسمه، ملكا كان أو موتا، أو نجما، أو قوسا، أو غير ذلك. والمعنى: والنازعات إغراقا كما يغرق النازع في القوس".

قال القرطبي: و"النازعاتِ": الملائكة التي تنزِع أرواحَ الكفار.

قال ابن عاشور: ابتدئت بالقسَم بمخلوقات ذات صفات عظيمة قَسَمًا مرادًا منه تحقيقُ ما بعده من الخبر وفي هذا القسَم تهويل المقسم به.

قوله تعالى: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ٢].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ٢]، وجوه:

أحدها: أنها الملائكة تنشط أرواح المؤمنين بسرعة كنشط العقال من البعير إذا حُلّ عنه، قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-.

قال الثعلبي:"وذلك أنه ليس من مؤمن يحضره الموت إلّا عرضت عليه الجنّة قبل أن يموت فيرى فيها أشباها من أهله وأزواجه من الحور العين فهم يدعونه إليها، فنفسه إليهم نشيطة أن تخرج فتأتيهم".

وقال علي ابن أبي طالب: "هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافها بالكرب والغمّ". وبه قال مقاتل.

=

=

وقال مقاتل:"فهو ملك الموت فيخرج نفسه من حلقه ومعها العروق كالغريق من الماء".

الثاني: النجوم التي تنشط من مطالعها إلى مغاربها، قاله قتادة ، وهو اختيار أبي عبيدة.

قال أبو عبيدة:"يقال: حمار ناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها، وانشد قول هميام بن قحافة:

أَمْسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ المَناشِطَا... الشَّامَ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطَا".

قال الثعلبي:"ويقال لبقر الوحش نواشط، لأنها تذهب من موضع إلى موضع".

الثالث: هو الموت- يعني شدائده-، ينشط نفس الإنسان، قاله مجاهد ، وابن عباس ، والسدي.

قال السدي:"نشطها حين تُنشط من القدمين". وفي لفظ:"الملائكة حين تنشط الروح من الأصابع والقدمين".

الرابع: هي النفس حيث نشطت بالموت، قاله السدي.

الخامس: هي الأوهاق ، قاله عطاء.

قال الواحدي:"وعلى هذا هي من النشط الذي هو الجذب".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه أقسم بالناشطات نشطا، وهي التي تنشط من موضع إلى موضع، فتذهب إليه، ولم يخصص الله بذلك شيئا دون شيء، بل عم القسم بجميع الناشطات والملائكة تنشط من موضع إلى موضع، وكذلك الموت، وكذلك النجوم والأوهاق وبقر الوحش أيضا تَنْشُط، كما قال الطِّرِمَّاح:

وَهَلْ بِحَلِيفِ الخَيْلِ مِمَّنْ عَهِدْتُه... بِهِ غَيْرُ أُحْدانَ النَّوَاشِطِ رُوع

يعني بالنواشط: بقر الوحش، لأنها تنشط من بلدة إلى بلدة، كما قال رؤبة بن

=

=

العجَّاج:

تَنَشَّطَتْهُ كُلُّ مِغْلاةِ الْوَهْق

والهموم تنشط صاحبها، كما قال هِيمان بن قحافة:

أمْسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ المَناشِطَا... الشَّامَ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطَا

فكل ناشط فداخل فيما أقسم به إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيّ بالقسم من ذلك بعض دون بعض".

قال العثيمين: {والنازعات} يعني الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها {غرقا} أي نزعًا بشدة. {والناشطات نشطا} يعني الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطًا: أي تسلها برفق كالأنشوطة، والأنشوطة: الربط الذي يسمونه عندنا (التكة) أو ما أشبه ذلك من الكلمات، يعني يكون ربطًا بحيث إذا سللت أحد الطرفين انفكت العقدة وهذا ينحل بسرعة وبسهولة، فهؤلاء الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين تنشطها نشطًا أي: تسلها برفق، وسبب ذلك أن الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار إذا دعت الروح إلى الخروج تناديها بأقبح الأوصاف تقول الملائكة لروح الكافر: اخرجي أيتها النفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، اخرجي إلى غضب الله، فتنفر الروح لا تريد أن تخرج إلى هذا، وتتفرق في الجسد حتى يقبضوها بشدة، وينزعوها نزعًا يكاد يتمزق الجسد منها من شدة النزع. أما أرواح المؤمنين - جعلني الله وإياكم منهم - فإن الملائكة إذا نزلت لقبضها تبشرها: أخرجي يا أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب أخرجي إلى رضوان الله، فيهون عليها أن تفارق جسدها الذي ألفته فتخرج بسهولة، ولهذا لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة: يا رسول الله: إنَّا لنكره الموت، فقال: «ليس ذلك ولكن المؤمن إذا

=

=

حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه»، لأنه في تلك اللحظة يرى أنه سينتقل إلى دار أحسن من الدار التي فارقها فيفرح كما يفرح أحدنا إذا قيل له أخرج من بيت الطين إلى بيت المسلح القصر المشيد الطيب، فيفرح فيحب لقاء الله، والكافر ـ والعياذ بالله ـ بالعكس إذا بشر بالغضب والعذاب فإنه يكره أن يموت، يكره لقاء الله فيكره الله لقاءه.

قوله تعالى: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} [النازعات: ٣].

وفي قوله تعالى: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} [النازعات: ٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنها الملائكة. قاله ابن مسعود ، وعلي ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، وأبو صالح.

وحكي الماوردي عن ابن مسعود والحسن، قالا: "هي الملائكة سبحوا إلى طاعة الله من بني آدم".

وحكي ابن الجوزي عن علي رضي الله عنه:"أنها الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين".

قال ابن السائب: "يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء. فأحيانًا ينغمس، وأحيانًا يرتفع، يسلُّونها سلًا رفيقًا، ثم يَدَعُونها حتى تستريح".

قال مقاتل:"هو- ملك الموت- وحده... تقبض روح المؤمن كالسابح في الماء لا يهوله الماء".

الثاني: أنها النجوم تسبح في فلكها، قاله قتادة ، وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:"هي أيضا النجوم: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: ٣٣].

الثالث: أنها النفس حين تسبح في الجوف تتردد عن الموت. قاله السدي.

الرابع: أنه الموت يسبح في نفوس ابن آدم، قاله مجاهد.

=

=

روي الطبري بسنده من طريق ابن حميد عن مجاهد: "{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}، قال: الموت، هكذا وجدته في كتابي".

الخامس: أنهم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كما يقال للفرس الجواد: سابح: إذا أسرع في جريه ، ومر يتمطى ، جعل نزولها من السماء كالسباحة. قاله مجاهد ، وأبو صالح ، والفراء.

روي الطبري بسنده عن مجاهد:"{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}، قال: «الملائكة»، وهكذا وجدت هذا أيضا في كتابي، فإن يكن ما ذكرنا عن ابن حميد صحيحا ، فإن مجاهدا كان يرى أن نزول الملائكة من السماء سبَّاحة، كما يقال للفرس الجواد: إنه لسابح إذا مرّ يُسرعُ".

الخامس: أنها السفن تسبح في الماء، قاله عطاء.

السادس: أنها الخيل، حكاه ابن شجرة ، كما قال عنترة:

والخيلُ تَعْلَمُ حينَ تَض... بَحُ في حياضِ الموتِ ضَبْحا

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه أقسم بالسابحات سبحا من خلقه، ولم يخصص من ذلك بعضا دون بعض، فذلك كل سابح، لما وصفنا قبل في النازعات".

قوله تعالى: {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} [النازعات: ٤].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} [النازعات: ٤]، على أقوال:

القول الأول: أنها الملائكة. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، إذ كانت الشياطين تسترق السمع. قاله عليّ -عليه السلام- ، ومسروق ، وهو اختيار الفراء.

والثاني: أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، قاله مجاهد-في إحدى الروايات-

=

=

، وأبو روق ، ونحوه عن الربيع ، ومقاتل.

عن الربيع بن أنس في قوله: "{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ١ - ٢]، قال: هاتان الآيتان للكفار، عند نزع النفس تنشط نشطا عنيفا مثل سفود في صوف فكان خروجه شديدا، {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} [النازعات: ٣ - ٤]، قال: هاتان للمؤمنين".

قال مقاتل:"تستبق الملائكة أرواح المؤمنين في حريرة بيضاء من حرير الجنة. يسبقون بها ملائكة الرحمة، ووجوههم مثل الشمس عليهم تاج من نور ضاحكين مستبشرين طيبين".

والثالث: سبقت بني آدم إلى الإيمان والتصديق، قاله الحسن.

القول الثاني: أنها أنفس المؤمنين تسبق الملائكة شوقًا إلى لقاء الله، فيقبضونها وقد عاينت السرور. قاله ابن مسعود.

الثالث: أنه الموت يسبق إلى النفوس، قاله مجاهد-أيضا-.

الرابع: أنها النجوم يسبق بعضها بعضًا في السير، قاله قتادة.

الخامس: أنها الخيل السابقة في سبيل الله، قاله عطاء.

قال الطبري:"القول عندنا في هذه مثل القول في سائر الأحرف الماضية".

قوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [النازعات: ٥].

وفي تفسير هذه الآية وجهان:

أحدهما: أنها الملائكة، قاله علي رضي الله عنه ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدي ، وبه قال الطبري ، وهو قول الجمهور ، فعلى هذا في تدبيرها بالأمر وجهان:

أحدهما: تدبير ما أمرت به وأرسلت فيه. وهو معنى قول علي-رضي الله عنه ، والحسن ، وعطاء ، وبه قال الفراء.

=

=

قال الحسن:"تدبر الأمر من السماء إلى الأرض".
قال عطاء: "وُكِّلتْ بأمور عَرَّفهم الله العمل بها".
قال علي رضي الله عنه:"الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره".
قال الفراء:"هي الملائكة أيضا، تنزل بالحلال والحرام فذلك تدبيرها، وهو إلى الله جل وعز، ولكن لما نزلت به سميت بذلك، كما قال عز وجل: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣]، وكما قال: {فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِك} [البقرة: ٩٧]، يعني: جبريل عليه السلام نزله على قلب محمد صلى الله عليهما وسلم، والله الذي أنزله".
الثاني: تدبير ما وكلت فيه من أمر الدنيا كالرياح والأمطار والقطر والنبات وقبض الأرواح. وهو معنى قول ابن سابط.
قال عبد الرحمن بن سابط: "يدبر أمر الدنيا أربعة، جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر".
قال مقاتل:"فهم الملائكة منهم الخزان الذين يكونون مع الرياح، ومع المطر، ومع الكواكب، ومع الشمس والقمر، ومع الإنس والجن، فكذلك هم، ويقال جبريل، وميكائيل، وملك الموت- عليهم السلام- الذين يدبرون أمر الله- تعالى- في عباده وبلاده، وبأمره".
الثاني: هي الكواكب السبعة، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل؛ وعلى هذا في تدبيرها للأمر وجهان:
أحدهما: تدبير طلوعها وأفولها.
الثاني: تدبير ما قضاه الله فيها من تقلب الأحوال.

=

=

ومن أول السورة إلى هذا الموضع قسم أقسم الله به، وفيه وجهان:

أحدهما: أن ذكرها بخالقها.

الثاني: أنه أقسم بها وإن كانت مخلوقة لا يجوز لمخلوق أن يقسم بها، لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه. وجواب ما عقد له القسم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مضمر محذوف وتقديره: لتُبْعَثُن ثم لُتحاسبُن، فاستغنى بفحوى الكلام وفهم السامع عن إظهاره، قاله الفراء.

الثاني: أنه مظهر، وهو قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات: ٢٦]، قاله مقاتل.

الثالث: هو قوله تعالى: {يومَ ترْجفُ الراجفةُ تَتْبعُها الرادِفةُ} [النازعات: ٦ – ٧]. حكاه الطبري.

قوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} [النازعات: ٦ – ٧]، أي:"لتُبعثَنَّ الخلائق وتُحَاسَب يوم تضطرب الأرض بالنفخة الأولى نفخة الإماتة، تتبعها نفخة أخرى للإحياء".

– قال ابن عطية: وأما (المدبرات)، فلا أحفظ خلافًا أنها الملائكة ومعناه أنها تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فياه كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات.

– قال القرطبي: قوله تعالى: (فالمدبرات أَمْرًا) قال القُشَيريّ: أجمعوا على أن المراد الملائكة، وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة؛ قاله الجمهور.

– فأقسم ﷻ بالملائكة في أوصافها الخمسة، وهذا تعظيم لها، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

– قال القرطبي: أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، على أن القيامة حقٌّ.

قوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} [النازعات: ٦ – ٧]،

=

=

في هذه الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أن الراجفة: القيامة، والرادفة: البعث، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"يقول: تتبع الآخرة الأولى، والراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الآخرة".

الثاني: أن الراجفة النفخة الأولى تميت الأحياء، والرادفة: النفخة الثانية تحيي الموتى، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك.

قال ابن الجوزي:"«الراجفة» صيحة عظيمة فيها تردُّدٌ واضطراب كالرعد إذا تمحض، و «ترجف» بمعنى: تتحرَّك حركة شديدةً، {تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}، وهي: النفخة الثانية ردفت الأولى، أي: جاءت بعدها".

قال أبو عبيدة:"كل شيء بعد شيء يردفه فهو الرادفة الصيحة الثانية".

عن الضحاك: "قوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} : النفخة الأولى، [تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ]: النفخة الأخرى".

قال الحسن:"هما النفختان: أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتُحيي الموتى، ثم تلا الحسن: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} ".

قال قتادة:"هما الصيحتان، أما الأولى فتُميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتُحيي كل شيء بإذن الله، إن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "بَيْنَهُما أرْبَعُونَ" قال أصحابه: والله ما زادنا على ذلك. وذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "يُبْعَثُ فِي تِلْك الأرْبَعِينَ مَطَرٌ يُقال لَهُ الْحَياةُ، حتى تَطِيبَ الأرْضُ وتَهْتَزَّ، وتَنْبُتَ أجْسادُ النَّاسِ نَباتَ البَقْل، ثُمَّ تُنْفَخُ الثَّانِيَةُ، فإذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ".

عن الطفيل بن أبيّ، عن أبيه، قال: قرأ رسول الله ﷺ: {يَوْم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} ، فقال: "جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه".

=

الثالث: أن الراجفة: الزلزلة التي ترجف الأرض والجبال، والرادفة: إذا دكّتا دكة واحدة، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ}، قال: ترجف الأرض والجبال، وهي الزلزلة وقوله: {الرَّادِفَةُ}، قال: هو قوله: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَة}".

الرابع: أن الراجفة: ترجف الأرض، والرادفة: الساعة. قاله ابن زيد.

قال الطبري:"يوم ترجف الأرض والجبال للنفخة الأولى، تتبعها الأخرى بعدها، هي النفخة الثانية التي ردفت الأولى لبعث يوم القيامة".

الخامس: أن الراجفة: أشراط الساعة والرادفة: قيامها. أفاده الماوردي.

والرّجف: هو الاضطراب الشديد، وُصفت النفخة بما يحدث بحدوثها، إذ يرتجف بها كل شيء، وتضطرب الأرض، أي تزلزل ويموت من عليها.

والمراد بالرادفة: النفخة الثانية، التي تردف الأولى، أي: تأتي بعدها، وفيها يبعث الموتى بإذن الله تعالى، يقال: فلان جاء ردف فلان، إذا جاء في أعقابه.

قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

قوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [النازعات: ٨]، أي:"قلوب الكفار يومئذ مضطربة من شدة الخوف".

وفي قوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [النازعات: ٨]، وجوه من التفسير:

أحدهما: خائفة، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد.

قال مجاهد: "وجلة"".

وقال عطاء الخراساني:"وجلة متحركة".

قال قتادة:"خائفة، وجفت مما عاينت يومئذ".

=

قال ابن زيد:"الواجفة: الخائفة".

عن ابن عباس: "{وَاجِفَةٌ} : خائفة".

قال الطبري:"قلوب خَلْقٍ من خلقه يومئذ، خائفة من عظيم الهول النازل".

قال الزجاج:"ومعنى واجفة شديدة الاضطراب".

قال ابن الجوزي:"أي: شديدة الاضطراب لما عاينت من أهوال يوم القيامة".

الثاني: طائرة عن أماكنها، قاله الضحاك.

قال السدي: "زائلة عن أماكنها، نظيره: {إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين}".

الثالث: قلقة. قاله المؤرج.

الرابع: مستوفزة. قاله قطرب.

الخامس: غير هادئة، ولا ساكنة. قاله يمان.

السادس: مرتكضة. قاله أبو عمرو بن العلاء.

وقال المبرد: "مضطربة، من وجيف الحركات، يقال: وجف القلب ووجب، فهو يجب ويجف، وجوفا ووجيفا ووجوبا ووجيبا".

وسمي: "الوجيف" في السير، لشدة اضطرابه.

وهذه العبارات في تفسير "الواجفة"، معناها واحد، فقالوا: خائفة، وجلة، زائلة عن أماكنها، قلقة، مستوفزة، مرتكضة، شديدة الاضطراب، غير ساكنة، وذلك لما عاينت من أهوال القيامة، -والله أعلم-.

والمراد بهذه القلوب: قلوب المشركين الذين أنكروا في الدنيا البعث والجزاء، فلما بعثوا اعتراهم الرعب الشديد، والفزع الذي لا يقاربه فزع... فأما قلوب المؤمنين فهي- بفضل الله ورحمته- تكون في أمان واطمئنان، كما قال- تعالى- : لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ.

قال القرطبي (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) أي: خائفة وجلة؛ قاله ابن عباس وعليه عامة

=

=

المفسرين.

قوله تعالى: {أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [النازعات: ٩]، أي:"أبصار أصحابها ذليلة من هول ما ترى".

قال الطبري:"يقول: أبصار أصحابها ذليلة مما قد علاها من الكآبة والحزن من الخوف والرعب الذي قد نزل بهم من عظيم هول ذلك اليوم".

عن قتادة: "{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}، يقول: ذليلة".

قال ابن زيد:"خاشعة للذلّ الذي قد نزل بها".

قال مقاتل:"مما ترى من العجائب ومما ترى من أمر الآخرة".

قال ابن الجوزي:"أي: ذليلةٌ لمعاينة النار".

قال ابن كثير:"أي: أبصار أصحابها. وإنما أضيف إليها؛ للملابسة، أي: ذليلة حقيرة؛ مما عاينت من الأهوال".

قال عطاء: وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام". قال ابن الجوزي:"ويدل على هذا أنه ذَكَرَ منكري البعث، فقال ﷻ: {يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ}".

أي: أبصار أصحابها، وإنما أضيفت إليها للملابسة، أي ذليلة وحقيرة مما عاينت من الأهوال ولما تترقبه من العذاب والنكال كما قال تعالى (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ).

قوله تعالى: {يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} [النازعات: ١٠]، أي:"يقول هؤلاء المكذبون بالبعث: أَنُرَدُّ بعد موتنا إلى ما كنا عليه أحياء في الأرض؟".

قال الطبري:"يقول هؤلاء المكذّبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا، وهو من قولهم: رجع فلان

=

=

على حافرته: إذا رجع من حيث جاء".

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «أإنا» بهمزتين مخففتين على الاستفهام، وقرأ الباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية، وفصل بينهما بألف.

واختلف في تفسير قوله تعالى {الْحَافِرَةِ} [النازعات: ١٠]، على وجوه:

أحدها: أن الحافرة: الحياة بعد الموت، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبو مالك ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، وعطية.

قال ابن عباس:"يقول: أئنا لنحيا بعد موتنا، ونبعث من مكاننا هذا".

قال مقاتل:"يقولون: أإنا لراجعون على أقدامنا إلى الحياة بعد الموت، وهذا قول كفار مكة".

الثاني: أنها الأرض المحفورة التي حُفرت فيها قبورهم، قاله مجاهد ، وابن عيسى.

عن مجاهد: {الْحَافِرَةِ}، قال: الأرض: نبعث خلقا جديدا، قال: البعث".

قال الفراء:"وقال بعضهم: الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبورهم فسماها: الحافرة. والمعنى: المحفورة. كما قيل: ماء دافق، يريد: مدفوق".

قال ابن كثير:"يعني: مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي القبور، قاله مجاهد. وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها".

الثالث: أنها النار، قاله ابن زيد.

عن ابن وهب، قال: "سمعت ابن زيد يقول في قول الله: {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} قال: الحافرة: النار، وقرأ قول الله: {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}، قال: ما أكثر أسماءها، هي النار، وهي الجحيم، وهي سَقَرُ، وهي جهنم، وهي الهاوية، وهي الحافرة، وهي لَظَى، وهي الحُطَمة".

=

=

الرابع: أنها الرجوع إلى الحالة الأولى تَكذيبًا بالبعث، من قولهم: رجع فلان على قومه، إذا رجع من حيث جاء، قاله قتادة ، ذكره الفراء ، وبه قال أبي عبيدة ، قال الشاعر:

أحافرةً على صَلَعٍ وشَيْبِ... معَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وعَارِ

قال قتادة:"أئنا لمبعوثون خلقا جديدا".

قال قتادة:"أي مردودون خَلقا جديدا".

قال أبو عبيدة: أي:"من حيث جئنا، كما قال: رجع فلان في حافرته من حيث جاء وعلى حافرته من حيث جاء".

قال الفراء:"يقال: إلى أمرنا الأول إلى الحياة، والعرب تقول: أتيت فلانا ثم رجعت على حافرتي، أي رجعت إلى حيث جئت. ومن ذلك قول العرب: النقد عند الحافرة. معناه: إذا قال: قد بعتك رجعت عليه بالثمن، وهما في المعنى واحد. وبعضهم: النقد عند الحافر. قال: وسألت عنه بعض العرب، فقال: النقد عند الحافر، يريد: عند حافر الفرس، وكأن هذا المثل جرى في الخيل".

- قال القرطبي: أي: يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي رجع من حيث جاء.

والراجح أن المراد بالحافرة: الخلقة الأولى - هو الأقرب للصواب، فبه قال أكثر المفسرين، وإليه ذهب أهل اللغة.

قال ابن عاشور: والمراد بـ (الحافرة) الحالة القديمة، يعني الحياة.

قوله تعالى: {أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً} [النازعات: ١١].

وفي قوله تعالى: {عِظَامًا نَخِرَةً} [النازعات: ١١]، وجوه:

=

=

أحدها: النخرة: الفانية البالية، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي.
عن قتادة: "{أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا} : تكذيبا بالبعث. {نَاخِرَةً} : بالية".
عن مجاهد: "{عِظَامًا نَخِرَةً} ، قال: يعني: عظاما مرفوتة".
قال أبو عبيدة: "ناخرة ونخرة: سواء، عظم نخر بال".
قال الفراء:""وقد فرق بعض المفسرين بينهما، فقال: «النخرة»: البالية، و «الناخرة»: العظم المجوف الذي تمر فيه الريح فينخر".
الثاني: عفنة، قاله ابن شجرة.
الثالث: خالية مجوفة تدخلها الرياح فتنخر، أي: تصوّت، قاله مجاهد-أيضا- ، وعطاء ، والكلبي.
قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة «نخرة» واختارها أبو عبيد لأن الآثار التي تذكر فيها العظام... وقرأ أبو عمرو وابنه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر «ناخرة» بألف واختارها الفراء ، والطبري ، ومن قرأ «ناخرة»، فإن الناخرة البالية، و «النخرة» التي تنخر الريح فيها.
عن ابن عباس:"أنه قرأ: «ناخرة»".
عن مجاهد، قال: سمعت ابن الزبير، يقول على المنبر: ما بال صبيان يقرءون: «نخرة»، وإنما هي «ناخرة»".
أي بالية متفتتة نخرتها الرمال والرياح، والمعنى: أنرد إلى الحياة بعد أن صرنا عظامًا وهي رميم.
كقوله تعالى عنهم (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا).
وقوله تعالى (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ).
قوله تعالى: {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [النازعات: ١٢]، أي:"قالوا: رجعتنا
=

=

تلك ستكون إذًا خائبة كاذبة".

قال الطبري:"قالوا: تلك: يعنون تلك الرجعة أحياء بعد الممات، إذًا: يعنون الآن، كرّة: يعنون رجعة، خاسرة: يعنون غابنة".

وفي تفسير قوله تعالى: {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [النازعات: ١٢]، وجهان:

أحدهما: باطلة لا يجيء منها شيء، كالخسران، وليست كاسبة، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرنّ، قاله قتادة ، وابن زيد ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل.

عن قتادة: "{إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}، أي: رجعة خاسرة".

قال ابن جريج:"لَئِن خُلقنا خَلْقًا جديدًا لنَرْجِعنّ إلى الخُسران".

قال ابن زيد:"وأيّ كرّة أخسر منها، أُحيوا ثم صاروا إلى النار، فكانت كرّة سوء".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، في قوله: {أإنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافِرَةِ أإذا كُنّا عِظامًا نَخِرَةً}، قال: "لما نزلت هذه الآية، قال كفار قريش: لئن حَيِينا بعد الموت لنَخْسَرن. فنزلت: {تِلْكَ إذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ}".

قال ابن عطية: ذكر الله تعالى عنهم قولهم: (تلك إذًا كرة خاسرة) وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث، وإنكارهم، قالوا: لو كان هذا حقًا، لكانت كرتنا ورجعتنا خاسرة وذلك لهم إذ هي النار.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} [النازعات: ١٣]، أي:"فإنما هي نفخة واحدة".

قال ابن كثير:"أي: فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ في الصور نفخَة البعث، فإذا الأولون

=

=

والآخرون قيامٌ بين يَدَي الربّ ﷻ ينظرون، كما قال: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا} [الإسراء: ٥٢] وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠] وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل: ٧٧]".

وفي قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} [النازعات: ١٣]، وجهان:

أحدهما: فإنما هي صيحة واحدة، ونَفخة تنفخ في الصور، وذلك هو الزجرة. وهذا قول مجاهد ، وابن زيد" ، والربيع بن أنس ، وأبي مالك ، ومقاتل ، وبه قال الطبري.

عن مجاهد: "{زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ}، قال: صيحة".

قال ابن زيد:"الزجرة: النفخة في الصور".

قال مقاتل:"يقول: فإنما هي صيحة واحدة من إسرافيل- عليه السلام- فيسمعونها وهم في بطن الأرض أمواتا لا يثنيها.

وقال أبو مالك، والربيع بن أنس: "زجرة واحدة: هي النفخة الآخرة".

الثاني: أن الزجرة: الغضب، وهو غضب واحد، قاله الحسن.

وقال إبراهيم التيمي: "أشد ما يكون الرب غَضَبًا على خلقه يوم يبعثهم".

أي: فإنما هي أمر من الله مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة وهي نفخة البعث كما قال تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ).

وقال تعالى (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) أي: يسرعون.

=

=

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤].

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤]، على وجوه:

أحدها: أنّ «السّاهرة»: وجه الأرض، قاله ابن عباس، وأبو صالح، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وسهد بن سعد الساعدي، وبه قال

الفراء، وأبو عبيدة، والطبري، وحكاه ابن الجوزي عن اللغويين، والعرب تسمي وجه الأرض ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره، قال أمية بن أبي الصلت:

وفِيها لَحْمُ ساهِرَةٍ وبَحْرٍ... وَمَا فاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقِيمُ

ومنه قول أخي نهم يوم ذي قار لفرسه:

أَقْدِمْ "مِحاجُ" إنها الأساوِرَه... وَلا يَهُولَنَّكَ رِجْلٌ نادِرَهْ

فإِنَّمَا قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَهْ... ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَها فِي الْحَافِرَهْ

مِنْ بَعْدِ ما كُنْتَ عِظاما ناخِرَهْ

قال الفراء:"" {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}: وهو وجه الأرض، كأنها سميت بهذا الاسم، لأن فيها الحيوان: نومهم، وسهرهم".

عن عكرِمة، عن ابن عباس، في قوله: "{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}، قال: على الأرض، قال: فذكر شعرا قاله أُمية بن أبي الصلت، فقال:

عِنْدَنا صَيْدُ بَحْرٍ وصَيْدُ ساهِرَةٍ".

عن ابن عباس: "{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}، يعني: الأرض".

عن سعيد بن جُبير: "{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}، قال: بالأرض".

قال الحسن:"فإذا هم على وجه الأرض".

=

=

قال ابن زيد:"الساهرة: ظهر الأرض فوق ظهرها".
قال أبو عبيدة:"الفلاة ووجه الأرض".
قال عكرمة:"الساهرة: الأرض، أما سمعت: لهم صيد بحر، وصيد ساهرة".
قال سهل بن سعد الساعدي: "أرض بيضاء عفراء كالخبزة من النقي".
وقال الربيع بن أنس:"{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} ويقول الله ﷻ: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: ٤٨]، ويقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه: ١٠٥، ١٠٦]. وقال: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [الكهف: ٤٧]: وبرزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يَهرَاق عليها دم".
قال مقاتل:"يقول بالأرض الأخرى، واسمها: الساهرة، يعني: الأرض الجديدة التي تبسط على هذه الأرض، فيسلها الله- ﷻ- من تحتها كما يسل الثوب الخلق البالي".
عن مجاهد: "{بِالسَّاهِرَةِ}، قال: المكان المستوي".
قال مجاهد: "كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها".
قال قتادة:"لما تباعد البعث في أعين القوم قال الله: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}، يقول: فإذا هم بأعلى الأرض بعد ما كانوا في جوفها".
قال قتادة:"فإذا هم يخرجون من قبورهم فوق الأرض والأرض، الساهرة، قال: فإذا هم يخرجون".
الثاني: أنه اسم مكان من الأرض في البيت المقدس، وهو الصقع الذي بين جبل أريحا وجبل حسّان، يمده الله تعالى كيف يشاء، قاله عثمان بن أبي العاتكة.
عن عثمان بن أبي العاتكة، قوله: "{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}،

=

=

قال: بالصُّقْع الذي بين جبل حسان وجبل أريحاء، يمدّه الله كيف يشاء".
الثالث: أنه أرض الشام. قاله سفيان.
عن سفيان: "{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}، قال: أرض بالشام".
الرابع: أنها جبل إلى جنب بيت المقدس، قاله وهب بن منبه.
الخامس: أنه جهنم، رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
السادس: أنها عرضة القيام لأنها أول مواقف الجزاء، وهم في سهر لا نوم فيه. أفاده الماوردي.
قال ابن كثير:"وهذه أقوال كلها غريبة، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى".
قال القرطبي (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال (فإنما هِي زَجْرة واحدة) ورَوى الضحاك عن ابن عباس قال: نفخة واحدة (فَإِذَا هُم) أي: الخلائق أجمعون (بالساهرة) أي على وجه الأرض، بعد ما كانوا في بطنها، قال الفرّاء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نَوم الحيوان وسهرهم، والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهِرة، بمعنى ذاتِ سَهَر؛ لأنه يُسْهَر فيها خوفًا منها.
- وقال الألوسي: والساهرة قيل وجه الأرض والفلاة، وفي "الكشاف" الأرض البيضاء أي التي لا نبات فيها المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة، أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة.
(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والنازعات غرقا (١) والناشطات نشطا (٢) والسابحات سبحا (٣) فالسابقات سبقا (٤) فالمدبرات أمرا (٥)} [النازعات: ١ - ٥]، فهذه خمسة أمور، وهي صفات الملائكة.
فأقسم - سبحانه - بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال؛ إذ ذلك من أعظم آياته،
=

=

وحذف مفعول النزع والنشط لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به؛ ولأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول كقوله تعالى: {فأما من أعطى واتقى (٥)} [الليل: ٥] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة؛ كقوله تعالى: {توفته رسلنا} [الأنعام: ٦١]، وقوله: {إن الذين توفاهم الملائكة} [النساء: ٩٧].

وأما قوله ﷻ: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم} [السجدة: ١١]:

فإما أن يكون واحدا، وله أعوان.

وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة؛ كقوله تعالى: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه} [التحريم: ١٢]، وقوله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [النحل: ١٨].

و"النزع": هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوس: أن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلا لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

و"الغرق": اسم مصدر أقيم مقامه؛ كالعطاء والكلام أقيم مقام الإعطاء والتكليم.

واختلف الناس: هل "النازعات" متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعديا، وهذا قول: علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس.

وقال ابن مسعود: "هي أنفس الكفار"، وهو قول: قتادة، والسدي، وعطاء عن ابن عباس.

=

=

وعلى هذا فهو فعل لازم، و"غرقا" على هذا معناه: نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة، فهي: السابحات، والمدبرات، والنازعات.

الثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر.

وقال الحسن: ""النازعات" هي: النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب، و"غرقا" هو غروبها"، قال: "تنزع من ها هنا وتغرق ها هنا".

واختاره: الأخفش، وأبو عبيدة.

وقال مجاهد: "هي شدائد الموت وأهواله التي تنزع الأرواح نزعا شديدا".

وقال عطاء، وعكرمة: "هي القسي".

و"النازعات" على هذا القول بمعنى: النشب، أي: ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: "النازعات": اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا، إذا اجتذبه بقوة. ونزع عنه: إذا خلاه وتركه بعد ملابسته. ونزع إليه: إذا ذهب إليه ومال إليه ، وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف: الملائكة؛ لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم، فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، و"النفس الإنسانية" - أيضا - لها هذه القوة، والنجوم - أيضا - تنزع من أفق إلى أفق.

فالنزع: حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم.

والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها، والمنايا

=

=

تنزع النفوس، والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى؛ فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل، وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم:

"النازعات": التي تنزع الأرواح من الأجساد.

و"الناشطات": التي تنشطها، أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر؛ إذا أخرجها، وأنا أنشط لكذا أي: أخف له وأسرع.

و"السابحات": التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء.

فـ"السابقات": التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به، لا تبطئ عنه ولا تتأخر.

فـ"المدبرات": التي تدبر أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها، وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: "أن "النازعات" الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف، و"الناشطات": الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة".

واختار الفراء هذا القول، فقال: "هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر".

قال الواحدي: "إنما اختار ذلك، لما بين "النشط" و"النزع" من الفرق في الشدة واللين، فالنزع: الجذب بشدة، والنشط: الجذب برفق ولين؛ ولأن "الناشطات" هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس

=

=

المؤمنين ناشطة لما أمرت به".

وقيل "السابحات": هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: {وكل في فلك يسبحون (٤٠)} [يس: ٤٠].

وقيل: هي السفن تسبح في الماء.

وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

قلت: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى: جارية وجوار، كما قال تعالى: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢)} [الشورى: ٣٢]، وقال تعالى: {حملناكم في الجارية (١١)} [الحاقة: ١١]، وقال تعالى: {الجوار الكنس (١٦)} [التكوير: ١٦]؛ ولم يسمها "سابحات"، وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله تعالى: {وكل في فلك يسبحون (٤٠)} [يس: ٤٠].

ويدل عليه ذكره "السابقات" بعدها و"المدبرات" بـ "الفاء"، وذكره الثلاثة الأول بـ "الواو"؛ ولأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت، ونشطت، وسبحت، فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته، ولو كانت "السابحات" هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بـ "الفاء"، فتأمله.

قال مسروق، ومقاتل، والكلبي: "{فالسابقات سبقا (٤)}: هم الملائكة".

قال مجاهد، وأبو روق: "سبقت ابن آدم بالخير، والعمل الصالح، والإيمان، والتصديق".

وقال مقاتل: "تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة".

وقال الفراء، والزجاج: "هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذ كانت الشياطين تسترق السمع".

=

=

وهذا القول خطأ لا يخفى فساده؛ إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء، وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله – سبحانه – صان وحيه إلى أنبيائه أن تسترق الشياطين شيئا منه، وعزلهم عن سمعه.

ولو أن قائل هذا القول فسر "السابقات" بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقائه الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يدبر مسرعا لإلقاء ما استرقه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت "السابقات سبقا" بالأنفس السابقات إلى طاعة الله – تعالى – ومرضاته.

وأما "المدبرات أمرا" فأجمعوا على أنها الملائكة، ثم قال مقاتل: "هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله – تعالى – في الأرض، وهم "المقسمات أمرا"".

قال عبد الرحمن بن سابط: "جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بالأمر عليهم".

وقال ابن عباس: "هم الملائكة، وكلهم الله – تعالى – بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار، والنبات، والخسف، والمسخ، والرياح، والسحاب" انتهى.

وقد أخبر النبي ﷺ أن للجبال ملك يختص بشأنها ، وأخبر أن الله –تعالى – وكل

=

=

بالرحم ملكا ، وللرؤيا ملك موكل بها ، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلتها، وأوانيها، وغراسها، وفرشها، ونمارقها، وأرائكها، وللنار ملائكة موكلون بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة، والنار، والموت وأحكام البرزخ؛ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به.

وأما من قال إنها النجوم؛ فليس هذا من أقوال أهل الإسلام، ولم يجعل الله - تعالى - للنجوم تدبير شيء من الخلق، بل هي مدبرة مسخرة، كما قال تعالى: {والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره} [النحل: ١٢]، فالله - سبحانه - هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: "وذكر "السابقات" و"المدبرات" بـ "الفاء"، وما قبلها بـ "الواو"؛ لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما ، كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن، كما تقول: قام فذهب، أوجب "الفاء" أن القيام كان سببا للذهاب، ولو قلت: قام وذهب؛ لم تجعل القيام سببا للذهاب".

واعترض عليه الواحدي، فقال: "هذا غير مطرد في هذه الآية؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير، مع أن "السابقات" ليست الملائكة في قول المفسرين".

قلت: الملائكة داخلون في "السابقات" قطعا؛ وأما اختصاص "السابقات" بالملائكة فهذا محتمل.

وأما قوله: "يبعد أن يكون السبق سببا للتدبير" فليس كما زعم، بل "السبق" المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن "الفاء" دالة على التعقيب، وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ، بخلاف الأقسام الثلاثة الأول، والله أعلم. وسيأتي مزيد بيان لهذا قريبا إن شاء الله تعالى.

=

=

وجواب القسم محذوف - يدل عليه السياق - وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به، دون أن يراد به مقسم عليه بعينه، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به.

لكن هذا الوجه ألطف مسلكا؛ فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما له استغني عن ذكره بذكره، وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه؛ فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف، فإن هذا معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه، فإن إقسامه - سبحانه - بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها - في الحقيقة - إقسام بربوبيته وصفات كماله، فتأمله.

ثم قرر - سبحانه - بعد هذا القسم أمر المعاد، ونبوة موسى ﷺ المستلزمة لنبوة محمد ﷺ، إذ من المحال أن يكون موسى نبيا ومحمد ليس نبيا، مع أن كل ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه.

وقرر - سبحانه - تكليمه لموسى بندائه له بنفسه فقال تعالى: {إذ ناداه ربه} [النازعات: ١٦] فأثبت النداء المستلزم للكلام والتكليم، وفي موضع آخر أثبت "النجاء"، و"النداء" و"النجاء" نوعا التكليم؛ ومحال ثبوت النوع بدون الجنس.

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له: {هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩)} [النازعات: ١٨ - ١٩]؛ ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدها: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام؛ وهو

=

=

ألطف.

ونظيره قول، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لضيفه المكرمين: {ألا تأكلون (٢٧)} [الذاريات: ٢٧]، ولم يقل: كلوا.

الثاني: قوله: {إلى أن تزكى (١٨)}؛ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة. فعرض عليه أمرا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: {تزكى (١٨)} ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: {وأهديك} أي: أكون دليلا لك، وهاديا بين يديك. فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. أي: أكون دليلا لك وهاديا فتتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: أعطيك.

الخامس: قوله: {إلى ربك} فإن في هذا ما يوجب قبول ما دله عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنينا، وصغيرا، وكبيرا، وآتاه الملك. وهذا نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

السادس: قوله: {فتخشى (١٩)} أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته - تعالى - مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: {هل لك} فائدة لطيفة؛ وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعوه إلى حاجته ومصلحته، لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك،

=

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥).

{هَلْ أَتَاك} يَا مُحَمَّد {حَدِيث مُوسَى} عَامِل فِي.

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦).

{إِذْ نَادَاهُ رَبّه بِالْوَادِ الْمُقَدَّس طُوًى} اِسْم الوادي بالتنوين وتركه فقال.

=

وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك.

فقابل هذا بغاية الكفر والعناد، وادعى أنه رب العباد، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السماوات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين.

ثم أقام – سبحانه – حجته على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر، وأعظم، وأعلى، وأرفع؛ وهو خلق السماء وبناؤها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها.

وخلق الأرض، ومدها، وبسطها، وهيأها لما يراد منها، فأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم، فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقا جديدا؟!

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد، والتوحيد، وصدق الرسل؛ كدلالة هذا الدليل المذكور، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا إلى جواب، والله – تعالى – أعلم.

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧).

{اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْن إِنَّهُ طَغَى} تَجَاوَزَ الْحَدّ في الكفر.

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) .

{فَقُلْ هَلْ لَك} أَدْعُوك {إِلَى أَنْ تَزَكَّى} وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ الزَّاي بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِيهَا تَتَطَهَّر مِنْ الشِّرْك بِأَنْ تَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله.

وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩).

{وَأَهْدِيَك إِلَى رَبّك} أَدُلّك عَلَى مَعْرِفَته بِبُرْهَانٍ {فتخشى} فتخافه.

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠).

{فَأَرَاهُ الْآيَة الْكُبْرَى} مِنْ آيَاته السَّبْع وَهِيَ الْيَد أَوْ الْعَصَا.

فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١).

{فَكَذَّبَ} فِرْعَوْن مُوسَى {وَعَصَى} الله تَعَالَى.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢).

{ثُمَّ أَدْبَرَ} عَنْ الْإِيمَان {يَسْعَى} فِي الْأَرْض بِالْفَسَادِ.

فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣).

{فَحَشَرَ} جَمَعَ السَّحَرَة وَجُنْده {فَنَادَى} .

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤).

{فَقَالَ أَنَا رَبّكُمْ الْأَعْلَى} لَا رَبّ فَوْقِي.

فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥).

{فَأَخَذَهُ الله} أَهْلَكَهُ بِالْغَرَقِ {نَكَال} عُقُوبَة {الْآخِرَة} أَيْ هَذِهِ الْكَلِمَة {وَالْأُولَى} أَيْ قَوْله قَبْلهَا مَا عَلِمْت لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي وَكَانَ بَيْنهمَا أَرْبَعُونَ سَنَة.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور {لَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى} الله تعالى[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [النازعات: ١٥].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: هل أتاك يا محمد حديث موسى بن عمران".

قال يحيى:"أي: قد أتاك حديث موسى".

قال القشيري:"سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى- تعالى- سنته فى كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام فى أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام".

قال الواحدي:"هذا استفهام تقرير بمعنى الخبر، أي: وقد أتاك، ونحو هذا قال ابن عباس: يريد وقد أتاك حديث موسى".

قال ابن كثير:"أي: هل سمعت بخبره؟".

ذكر تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وتكذيبه له وعصيانه، بل وادعائه الربوبية، وما حل به من العقوبة تسلية للنبي ﷺ ، وتهديدًا للمشركين.

قال الرازي: اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم (تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسرة) وكان ذلك يشق على محمد ﷺ فذكر قصة موسى علي عليه السلام ، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ .

الثاني: أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعًا وأشد شوكة، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون في تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالًا.

- وهذا الخطاب تشويق للمخاطب السامع للتأمل في هذه القصة.

=

=

- وموسى بن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل.

قوله تعالى: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [النازعات: ١٦].

قال الطبري: يقول:"وهل سمعت خبره حين ناجاه ربه بالواد المقدّس [طُوًى]".

قال ابن كثير:"أي: كلمه نداء".

وفي تفسير قوله تعالى: {بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [النازعات: ١٦]، قولان:

أحدهما: أنه واد بأيلة. وهو قول مبشر بن عبيد.

الثاني: أنه واد بفلسطين. قاله الحسن.

وفي «المقدَّس»، تفسيران:

أحدهما: المبارك، قاله ابن عباس، ومجاهد، ويحيى بن سلام.

قال مجاهد: قُدِّس بُورك مرّتين".

الثاني: المطهر، قاله الحسن، ومقاتل، وبه قال الطبري، وابن كثير.

عن عكرمة:"{بالواد المقدس}، قال: الطاهر".

قال الطبري:"يعني بالمقدّس: المطهر المبارك".

وفي تفسير قوله تعالى: {طُوًى} [النازعات: ١٦]، خمسة أقوال:

أحدها: أنه أسم الوادي المقدس، قاله ابن عباس، والحسن-في رواية-، ومجاهد-في رواية-، وقتادة، وعكرمة، وابن زيد.

قال ابن كثير:"{طُوًى} وهو اسم الوادي على الصحيح".

قال قتادة:"كنا نحدّث أنه قدّس مرّتين، واسم الوادي: طُوًى".

قال ابن زيد:"ذاك الوادي هو طوى، حيث كان موسى، وحيث كان إليه من الله ما كان، قال: وهو نحو الطور".

الثاني: لأنه مر بالوادي فطواه، قاله ابن عباس-أيضا-.

قال ابن عباس:"يعني: الأرض المقدسة، وذلك أنه مر بواديها ليلا فطوي يقال:

=

=

طويت وادي كذا وكذا، والطاوي من الليل، وارتفع إلى أعلى الوادي: وذلك نبي الله موسى عليه السلام".

الثالث: لأنه طوي بالبركة مرتين. قاله الحسن-في رواية أخرى- ، ومجاهد-في رواية أخرى- ، وقتادة-في رواية أخرى-.

قال الحسن:"واد بفلسطين قدس مرتين".

قال مجاهد: قُدِّس بُورك مرّتين".

الرابع: سمي طوى لأن الله تعالى ناداه مرتين. و «طوى» -في كلامهم- بمعنى: مرتين، لأن الثانية إذا أعقبتها الأولى صارت كالمطوية عليها، حكاه الطبري.

الخامس: يعني: طَإِ الوادي بقدمك، قاله ابن عباس-في رواية- ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد-في رواية- ، وعكرمة ، و ابن أبي نجيح.

قال مجاهد:"طأ الأرض بقدمك".

قال سعيد:"طأ الأرض حافيا، كما تدخل الكعبة حافيا، يقول: من بركة الواد".

قال ابن أبي نجيح:"طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا، يقول: من بركة: الوادي".

قال عكرمة:"كي تمس راحة قدميك الأرض الطيبة".

قال الحسن: "كانتا-يعني: نعلي موسى من بقر-، ولكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض، وكان قد قدس مرتين".

قال ابن جُرَيْج: وقيل لمجاهد: زعموا أن نعليه كانتا من جلد حمار أو ميتة، قال: لا ولكنه أمر أن يباشر بقدميه بركة الأرض".

قال وهب:"خرج موسى نحوها، يعني نحو النار، فإذا هي في شجر من العليق، وبعض أهل الكتاب يقول في عوسجة، فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة؛ فلما أراد الرجعة، دنت منه

=

=

ثم كلم من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله تبارك وتعالى: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى}، فخلعها فألقاها".

(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ) أي: حين ناداه ربه ﷻ نداء سمعه موسى وكلمه سبحانه تكليمًا بلا واسطة كما قال تعالى (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا).

قوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [النازعات: ١٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: نادى موسى ربُّه: أن اذهب إلى فرعون {إِنَّهُ} عتا وتجاوز حدّه في العدوان، والتكبر على ربه".

قال ابن كثير:"أي: تجبر وتمرد وعتا".

قال يحيى:"يعني: إنه كفر".

قال الواحدي: أي:"جاوز القدر في العصيان، وذلك أنه خرج في معصيته إلي فتجاوز به معاصي الناس".

عن مجاهد:"{اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، قال: عصى".

وقال عطاء: "عصى على بني إسرائيل".

وقال الكلبي: علا، وتكبر، وكفر بالله".

قال الماتريدي:"الطغيان: هو المجاوزة عن الحدود التي جعلت، كان فرعون قد تعدى، وجاوز الحد في كل شيء، حتى أدعى لنفسه الربوبية، حيث قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]".

واختلف في كلمة: «فِرْعَوْنَ»، على وجهين:

أحدهما: أنه اسم ذلك الملك بعينه.

والثاني: أنه لقب، يطلق على كل ملك من ملوك العمالقة ، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة، وأن اسم «فرعون» موسى: قابوس في قول

=

=

أهل الكتاب.

وقيل أن اسمه: "الوليد بن مصعب بن الريان"، ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

قال محمد بن إسحاق: "لم يكن منهم فرعون أعتى على الله، ولا أعظم قولا، ولا أطول عمرا في ملكه منه، وكان اسمه فيما ذكر لي: الوليد بن مصعب".

وقال السهيلي: "وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر".

عن الحسن، قال: "كان فرعون علجا من همذان".

قال المسعودي: "لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية".

وقال ابن سيده: "وعندي أن «فرعون» هذا العلم أعجمي؛ ولذلك لم يصرف".

وقال الجوهري: "«فرعون»: لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ونكر".

و «الفرعنة»: "الكِبْر والتجبُّر، والفرعنة مصدر فرعون، ويقال: فرعون أيضًا"، وفي الحديث "أخذنا فرعون هذه الأمة"، و «فرعون» في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته.

وقال الطبري، في "تاريخ الأمم والملوك" في سياق حديثه عن نسب موسى بن عمران عليه السلام وأخباره: "وأما ابن إسحاق فإنه قال فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: قبض الله يوسف، وهلك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، وتوارث الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل، وقبر يوسف حين قبض كما ذكر لي في صندوق من مرمر في ناحية من النيل في جوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل تحت أيدي الفراعنة وهم على بقايا دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام،

=

=

متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولًا ولا أطول عمرًا في ملكه منه، وكان اسمه - فيما ذكروا لي - الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلبًا، ولا أسوأ ملكًا لبني إسرائيل منه، يعذبهم فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنَّفهم في أعماله؛ فصِنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية، فسامَهم كما قال الله: {سُوءَ الْعَذَابِ} [البقرة: ٤٩]. وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم لا يريدون فراقه، وقد استنكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحمٍ، من خيار النساء المعدودات، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرًا طويلًا يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم وبلغ موسى عليه السلام الأشد، أُعطِيَ الرسالة".

قال ابن عاشور: "و «فرعون»: علم جنس لملك مصر في القديم، أي: قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط، قيل: أصله في القبطية فاراه، ولعل الهاء فيه مبدلة عن العين، فإن رع اسم الشمس، فمعنى فاراه نور الشمس؛ لأنهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يصلح الناس، نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود، وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام، وهذا الاسم نظير كسرى لملك ملوك الفرس القدماء، وقيصر لملك الروم، ونمروذ لملك كنعان، والنجاشي لملك الحبشة، وتُبَّع لملك ملوك اليمن، وخان لملك الترك، واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه: منفطاح الثاني، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرخين من الإفرنج، وذلك في سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح".

فيمكن القول: أن كلمة «فرعون» ربما قد أصبحت تستخدم استخدامًا شائعًا في العصور الحديثة كلقب للحاكم في مصر القديمة لأسباب ترجع إلى الميول

=

=

العقائدية ومحاولات التفسير التوراتية من زاوية واحدة، على أن التحقيق اللغوي للفظة يظل بعيدًا كل البعد عن حقيقة تلقب الحكام المصريين بهذا اللقب.

قوله تعالى: {فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: ١٨].

قال الطبري:"يقول: فقل له: هل لك إلى أن تتطهَّر من دنس الكفر، وتؤمِن بربك؟".

قال ابن كثير:"أي: قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزكَّى به، أي: تسلم وتطيع".

قال مقاتل:"يقول: هل لك أن تصلح ما قد أفسدت، يقول: وأدعوك لتوحيد الله".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد في قوله: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}، قال: إلى أن تُسلم. قال: والتزكي في القرآن كله: الإسلام، وقرأ قول الله: {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}، قال: من أسلم، وقرأ: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}، قال: يسلم، وقرأ: {وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى}، ألا يسلم".

عن عن عكرمة: قول موسى لفرعون: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}، هل لك إلى أن تقول: لا إله إلا الله".

قال ابن عباس:"إلى أن تقول: لا إله إلا الله".

قال ابن جريج:"إلى أن تُخلِص.

أي: هل لك أن تتطهر من الشرك والكفر بالتوحيد والإيمان.

- قال في التسهيل (هَل لَّكَ إلى أَن تزكى) قيل: أن تتطهر من الكفر والذنوب والعيوب والرذائل.

وقال بعضهم: تزكى تسلم.

=

=

وقيل: تقول لا إله إلا الله، والأول أعم.

قوله تعالى: {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٩].

قال مقاتل:: {وَأَهْدِيَكَ} " إلى عظمته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه موسى: قل لفرعون: هل لك إلى أن أرشدك إلى ما يرضي ربك، وذلك الدين القيم، فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه".

قال ابن كثير:"أي: أدلك إلى عبادة ربك، فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشيا بعدما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير".

قال السمعاني:"أَي: إِذا أصبت الْهِدَايَة حسنت مِنْك".

قال القشيري: "أقرّر لك بالآيات صحّة ما أقول، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يقبل، ويقال: أظهر له كل هذا التلطّف ولكنه في خفيّ سرّه وواجب مكره به أنه صرف قلبه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مراده على مراد ربّه، وألقى في قلبه الامتناع، وترك قبول النّصح.. وأيّ قلب يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ؟ وأيّ كبد تعرف هذا فلا تتشقّق لصعوبة هذا المكر؟".

- قال ابن القيم: ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له (هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى) ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدهما: إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين (ألا تأكلون) ولم يقل كلوا.

الثاني: قوله (إلى أن تزكى) والتزكي والنماء والطهارة والبركة الزيادة، فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله (تزكى) ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه وعلى هذا

=

=

يخاطب الملوك.

الرابع: قوله (وأهديك) أي أكون دليلًا لك وهاديًا بين يديك، فنسب الهداية إليه والتزكي إلى المخاطب، أي أكون دليلًا لك وهاديًا فتزكى أنت كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك.

الخامس: قوله (إلى ربك) فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمه: جنينًا، وصغيرًا، وكبيرًا، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للوالد ألا تطيع أباك الذي رباك.

السادس: قوله (فتخشى) أي إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته لأن من عرف الله خافه ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله (هل لك) فائدة لطيفة وهي أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك.

قوله تعالى: {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [النازعات: ٢٠].

قال الطبري:"فأرى موسى فرعون الآية الكبرى، يعني الدلالة الكبرى، على أنه لله رسول أرسله إليه، فكانت تلك الآية يد موسى إذ أخرجها بيضاء للناظرين، وعصاه إذ تحوّلت ثعبانا مبينا".

قال ابن كثير:"يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا

=

=

واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله".

عن الحسن: "{فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى}، قال: يده وعصاه".

عن مجاهد، وقتادة:"{فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى}، قال: عصاه ويده".

قال قتادة:"رأى يد موسى وعصاه، وهما آيتان".

قال ابن زيد:"العصا والحية".

وقال مقاتل:"يعني: اليد كانت أكبر وأعجب أمرا من العصا".

قال ابن أبي زمنين:"كانت اليد أكبر من العصا".

قال الحسن:"أخرجها كأنها مصباح فعلم موسي أنه قد لقي ربه، ولهذا قال تعالى: {لنريك من آياتنا الكبرى}".

وقال يحيى: يعني: "العصا واليد".

قال الزمخشري:"أرادهما جميعا، إلا أنه جعلهما واحدة، لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها".

قال القرطبي: أراه العلامة العظمى، وهي المعجزة، قال ابن عباس: هي العصا، كما قال تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين).

وإنما كانت هاتان الآيتان من أعظم الآيات التي أرسل الله بها موسى عليه السلام وهما العصا واليد، لأن السحر كان منتشرًا شائعًا آنذاك، فأعطاه الله عز وجل آيات يبطل بها كيد السحرة الذين تصدوا لموسى عليه السلام ودعوته.

قوله تعالى: {فَكَذَّبَ وَعَصَى} [النازعات: ٢١].

قال الطبري:"يقول: فكذّب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وعصاه فيما أمره به من طاعته ربه، وخَشيته إياه".

قال الزمخشري:"{فَكَذَّبَ} بموسى والآية الكبرى، وسماهما ساحرا وسحرا،

=

{وَعَصى} الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر، وأنّ الطاعة قد وجبت عليه".

قال ابن كثير:"أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة. وحاصلُه أنه كَفَر قلبُه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمُهُ بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علمُ القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق والخضوع له".

قال القشيري: "فقال فرعون: حتى أشاور هامان ، فشاوره، فقال له هامان: أبعد ما كنت ربّا تكون مربوبا؟! وبعد ما كنت ملكا تكون مملوكا؟ فكذّب فرعون عند ذلك، وعصى".

(فَكَذَّبَ) أي: كذب وجحد وكفر بقلبه بما جاء به موسى وقال (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ).

(وَعَصَى) أي: أبى أن ينقاد بجوارحه، فكذب الخبر، وعصى الأمر كما قال تعالى عنه (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى).

قوله تعالى: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢].

قال الطبري:"يقول: ثم ولَّى مُعرضا عما دعاه إليه موسى من طاعته ربه، وخشيته وتوحيده. يعمل في معصية الله، وفيما يُسخطه عليه".

قال الثعلبي:"تولى وأعرض عن الإيمان".

قال السمعاني:"أي: أعرض وجعل يسعى في إبطال أمر موسى".

قال ابن كثير:"أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جَمعُهُ السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى، عليه السلام، من المعجزة الباهرة".

عن مجاهد: "{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى}، قال: يعمل بالفساد".

قال الربيع بن أنس:"أدبَر عن الحق، وسعى يَجمع.

قال ابن جريج:"ليس بالشدّ، يَعمل بالفساد والمعاصي".

وقال الزمخشري:"أي: لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا، يسعى: يسرع في مشيته.. أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته".

قال الحسن:"كان رجلا طياشا خفيفا".

قال مالك بن أنس: "وإنما السعي في كتاب الله العمل والفعل، {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩]، يقول الله –

تبارك وتعالى-: {وإذا تَوَلّى سَعى فِي الأَرْضِ} [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: {وأَمّا مَن جاءَكَ يَسْعى وهُوَ يَخْشى} [عبس: ٨ - ٩]، وقال: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى}، وقال: {إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى} [الليل: ٤]. قال مالك: فليس السعي الذي ذَكر الله في كتابه بالسعي على الأقدام، ولا الاشتداد، وإنما عَنى: العمل، والفعل".

أي: ثم أعرض عن الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام ومضى في عمل الفساد، وسعى في رد الحق، فرمى موسى بالسحر وقال (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ) وقال (إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا).

قوله تعالى: {فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢٣]، أي:"فجمع أهل مملكته وناداهم".

قال الطبري:"يقول: فجمع قومه وأتباعه، فنادى فيهم".

قال ابن كثير:"أي: في قومه".

قال الثعلبي:"فجمع السحرة وقومه فَنادى".

قال الزمخشري:"فجمع السحرة، كقوله: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ}. {فَنادى} في المقام الذي اجتمعوا فيه معه. أو أمر مناديا فنادى في الناس بذلك. وقيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة".

قال السمعاني:"الحشر: هو الجمع من كل جهة".

=

قوله تعالى: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، أي:"فقال: أنا ربكم الذي لا ربَّ فوقه".

قال الطبري:"{فَقالَ} لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} الذي كلّ ربّ دوني، وكذب الأحمق".

قال الثعلبي:"يقول ليس ربّ فوقي، وقيل: أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربّها وربكم، وقيل: أراد القادة والسادة".

قال ابن زيد:"صرخ وحشر قومه، فنادى فيهم، فلما اجتمعوا قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى}".

عن السُّدِّيّ، قال: "قال موسى: يا فرعون، هل لك في أنْ أُعطيك شبابك لا تَهرَم، ومُلكك لا يُنزَع منك، وتُرَدّ إليك لذة المناكح والمشارب والمركوب، وإذا مِتّ دخَلتَ الجنة، وتؤمن بي. فوقعتْ في نفسه هذه الكلمات، وهي اللَيِّنات. قال: كما أنتَ حتى يأتي هامان. فلمّا جاء هامان أخبره، فعجَّزه هامان، وقال: تصير تَعبُد بعد إذ كنتَ ربًّا تُعبد؟! فذلك حين خَرج عليهم، فقال لقومه وجَمْعهم: {أنا رَبُّكُمُ الأَعْلى}".

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [النازعات: ٢٥].

وفي تفسير قوله تعالى: {فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [النازعات: ٢٥]، وجوه:

أحدها: أي: عقوبة الدنيا والآخرة. قاله الحسن ، وقتادة ، وبه قال ابن كثير.

قال قتادة: "عذبه الله في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار".

الثاني: عذاب أول عُمرِه وآخره، قاله مجاهد.

وفي لفظ عن مجاهد:"أول أعماله وآخرها". وفي رواية:"عمله للآخرة والأولى".

=

=

وقال الكلبي:"نكال الآخرة من المعصية والأولى".

الثالث: الأولى عصيانه ربه وكفره به، والآخرة قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} . قاله أبو رزين.

قال أبو رزين:"الأولى تكذيبه وعصيانه، والآخرة قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، ثم قرأ: {فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، فهي الكلمة الآخرة".

الرابع: الأولى قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، والآخرة قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وعكرمة ، والشعبي ، وخيثمة الجعفي.

قال الطبري:"فعاقبه الله عقوبة الآخرة من كلمتيه، وهي قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، والأولى قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ".

قال ابن عباس:"أما الأولى فحين قال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ، وأما الآخرة فحين قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ".

قال مجاهد:"هو قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ، وقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، وكان بينهما أربعون سنة".

قال مجاهد:"كان بين قول فرعون: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ، وبين قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، أربعون سنة".

قال مجاهد:"مكث فرعون في قومه بعد ما قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، أربعين سنة".

قال خيثمة الجعفي: كان بين كلمتي فرعون أربعون سنة، قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} ، وقوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ".

قال الضحاك:"أما الأولى فحين قال فرعون: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ،

=

=

وأما الآخرة فحين قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}، فأخذه الله بكلمتيه كلتيهما، فأغرقه في اليم".

عن أبي كُرَيب، قال: "سمعت أبا بكر، وسُئل عن هذا فقال: كان بينهما أربعون سنة، بين قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، وقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}، قال: هما كلمتاه، {فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى}، قيل له: مَن ذكره؟ قال: أبو حصين، فقيل له: عن أبي الضُّحَى، عن ابن عباس؟ قال: نعم".

عن محمد بن كعب القرظي، قال: "لَمّا قال فرعون لقومه: {ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]؛ نشر جبريلُ أجنحةَ العذاب غضبًا لله ﷻ، فأوحى الله ﷻ إليه: أن يا جبريل، إنما يعجِّل بالعقوبة مَن يخاف الفَوْت. قال: فأمهله ﷻ بعد هذه المقالة أربعين عامًا، حتى قال: {أنا ربكم الأعلى}، فذلك قوله ﷻ: {فأخذه الله نكال الآخرة والأولى}: قوله الأول، وقوله الآخر، ثم أغرقه الله ﷻ وجنوده".

الرابع: عذاب الأولى: الإمهال، والآخرة في النار، من قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦] الآية، قاله الربيع.

قال ابن كثير: "أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود: ٩٩]، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ} [القصص: ٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: {نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى}، أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه الأول".

يقال: نكل فلان بفلان، إذا أوقع به عقوبة شديدة تجعله نكالا وعبرة لغيره.

=

=

كما قال تعالى (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا).

وقال تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم).

- قال ابن عاشور: ومعنى النكال: إيقاع أذى شديد على الغير من التشهير بذلك بحيث ينكل، أي يرد ويصرف من يشاهده عن أن يأتي بمثل ما عومل به المنكل به، فهو مشتق من النكول وهو النكوص والهروب.

قال ابن كثير: (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، (ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون).

هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: (نكال الآخرة والأولى) أي: الدنيا والآخرة.

وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه.

والصحيح الذي لا شك فيه الأول. (ابن كثير)

- فيه أن الذنوب والتكذيب سبب للعقوبة والهلاك.

كما قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه).

وقال تعالى (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم).

وقال تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين).

وقال تعالى (فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين).

وقال تعالى (فكذبوه فأهلكناهم).

وقال تعالى (كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم).

وقال تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

=

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧).

{أَأَنْتُمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلف بين المسهلة والأخرى وتركه أي مُنْكِرُو الْبَعْث {أَشَدّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاء} أَشَدّ خَلْقًا {بَنَاهَا} بَيَان لِكَيْفِيَّةِ خَلْقهَا.

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨).

{رَفَعَ سَمْكهَا} تَفْسِير لِكَيْفِيَّةِ الْبِنَاء أَيْ جَعَلَ سَمْتهَا فِي جِهَة الْعُلُوّ رَفِيعًا وَقِيلَ سَمْكهَا سَقْفهَا {فَسَوَّاهَا} جَعَلَهَا مُسْتَوِيَة بِلَا عَيْب.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩).

{وَأَغْطَشَ لَيْلهَا} أَظْلَمَهُ {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} أَبْرَزَ نُور شَمْسهَا وَأُضِيفَ إِلَيْهَا اللَّيْل لِأَنَّهُ ظِلّهَا وَالشَّمْس لأنها سراجها.

وَالْأَرْض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠).

{وَالْأَرْض بَعْد ذَلِكَ دَحَاهَا} بَسَطَهَا وَكَانَتْ مَخْلُوقَة قَبْل السَّمَاء مِنْ غَيْر دَحْو.

=

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات: ٢٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن في العقوبة التي عاقب الله بها فرعون في عاجل الدنيا، وفي أخذه إياه نكال الآخرة والأولى، عظة ومعتبرا لمن يخاف الله ويخشى عقابه".

قال ابن كثير:"أي: لمن يتعظ وينزجر".

قال الحسن البصري: "{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى} لِمَن يَخشى أن يُفعل به ما فُعل بفرعون وقومه فيُؤمن".

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١).

{أَخْرَجَ} حَال بِإِضْمَارِ قَدْ أَيْ مُخْرِجًا {مِنْهَا مَاءَهَا} بِتَفْجِيرِ عُيُونهَا {وَمَرْعَاهَا} مَا تَرْعَاهُ النَّعَم مِنْ الشَّجَر وَالْعُشْب وَمَا يَأْكُلهُ النَّاس مِنْ الْأَقْوَات وَالثِّمَار وَإِطْلَاق الْمَرْعَى عَلَيْهِ اِسْتِعَارَة.

وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢).

{وَالْجِبَال أَرْسَاهَا} أَثْبَتَهَا عَلَى وَجْه الْأَرْض لِتَسْكُن.

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣).

{مَتَاعًا} مَفْعُول لَهُ لِمُقَدَّرٍ أَيْ فَعَلَ ذَلِكَ مُتْعَة أَوْ مَصْدَر أَيْ تَمْتِيعًا {لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} جَمْع نَعَم وَهِيَ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ} [النازعات: ٢٧].

قال الزمخشري:"الخطاب لمنكري البعث".

قل الفراء:"يعني: أهل مكة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمكذّبين بالبعث من قريش، القائلين: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} أأنتم أيها الناس أشد خلقا، أم السماء بناها ربكم، فإن من بنى السماء فرفعها سقفا، هَيِّن عليه خلقكم وخلق أمثالكم، وإحياؤكم بعد مماتكم وليس خلقكم بعد مماتكم بأشدّ من خلق السماء".

قال مقاتل:"يقول: أنتم أشد قوة من السماء؟ لأنه قال: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١]، {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، يقول فما حالكم أنتم، يا بني آدم، وأنتم أضعف من السماء؟".

قال ابن كثير:"يعني: بل السماءُ أشدّ خلقًا منكم، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]، وقال: {أَوَلَيْسَ الَّذِي =

=
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ} [يس: ٨١]".

قوله تعالى: {بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧]، أي:"رفعها فوقكم كالبناء".

قال الطبري: يعني: "رفعها فجعلها للأرض سقفا".

يقول تعالى محتجا على منكري البعث في إعادة الخلق بعد موته (أأنتم) أيها الناس (أشد خلقا أم السماء) يعني: بل السماء أشد منكم.

والمقصود من الآية الكريمة لفت أنظارهم إلى أمر معلوم عندهم بالمشاهدة، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ من خلقهم، ومن كان قادرا على الأبلغ والأعظم كان على ما هو أقل منه- وهو خلقهم وإعادتهم بعد موتهم- أقدر.

كما قال تعالى (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وقال تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج).

وقال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون).

وقال تعالى (أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم).

- قال في التسهيل (أأنتم أشد خلقا أم السمآء) هذا توقيف قصد به الاستدلال على البعث فإن الذي خلق السماء قادر على خلق الأجساد بعد فنائها.

قوله تعالى: {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٨].

قال الطبري: "فسوّى السماء، فلا شيء أرفع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكن جميعها مستوي الارتفاع والامتداد".

قال الزمخشري:"أي: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة
=

=

خمسمائة عام، {فَسَوَّاها} فعدلها مستوية ملساء، ليس فيها تفاوت ولا فطور. أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها، من قولك: سوى فلان أمر فلان".

قال مقاتل: "{سَمْكَهَا}، يعنى: طولها مسيرة خمسمائة عام، {فَسَوَّاهَا}: ليس فيها خلل".

قال ابن كثير:"أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء".

عن ابن عباس: "{رَفَعَ سَمْكَهَا}، يقول: بُنيانها".

قال قتادة:"يقول: رفع بناءها فسوّاها".

قال مجاهد:"رفع بناءها بغير عمد".

أي: رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم (فسواها) أي: جعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور.

- **قال ابن كثير**: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

- **وقال القرطبي**: أي خلقها خلقا مستويا، لا تفاوت فيه، ولا شقوق، ولا فطور.

كما قال تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون).

وقال تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا).

قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء..).

وقال تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات).

وقال تعالى (والسماء ذات الحبك).

قال في التسهيل (رفع سمكها) السمك: غلظ السماء وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها. ومعنى رفعه أنه جعله مسيرة خمسمائة عام، وقيل: السمك السقف.

=

=

قوله تعالى: {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} [النازعات: ٢٩]، أي:"وأظلم ليلها بغروب شمسها".

قال الطبري: **"**أظلم ليل السماء، فأضاف الليل إلى السماء، لأن الليل غروب الشمس، وغروبها وطلوعها فيها، فأضيف إليها لمَّا كان فيها، كما قيل: نجوم الليل، إذ كان فيه الطلوع والغروب".

قل الفراء:"أظلم ليلها".

قال ابن قتيبة:"أي: جعله مظلمًا".

قال أبو عبيدة:"أظلم وكل أغطش لا يبصر".

عن مجاهد، وقتادة:"{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا}، قال: أظلم".

عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعكرمة:"{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا}، يقول: أظلم ليلها".

قال ابن زيد:"الظُّلمة".

قوله تعالى: {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩]، أي:"وأبرز نهارها بشروقها".

قال الطبري:"يقول: وأخرج ضياءها، يعني: أبرز نهارها فأظهره، ونوّر ضحاها".

قل الفراء:"ضوئها ونهارها".

قال أبو عبيدة:"ضوئها بالنهار".

عن الضحاك:"{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}، قال: نهارها".

قال ابن زيد:"ضوء النهار".

عن مجاهد: "{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}: نوّرها".

قال قتادة:"يقول: نوّر ضياءها".

- قال الرازي: وإنما عبر عن النهار بالضحى، لأن الضحى أكمل أجزاء النهار في النور والضوء.

=

=

- **وقال القرطبي**: وأضاف الضحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها.

- فمن أعظم النعم جعل الليل مظلما ليسكن الناس فيه ويستريحوا، والنهار مشرقا منيرا ليتصرف فيه الناس لطلب معاشهم.

قال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب).

وقال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠].

اختلف في قوله «بَعْد»، على وجهين:

أحدهما: مع وتقدير الكلام: والأرض مع ذلك دحاها، لأنها مخلوقة قبل السماء، كما قال جلّ وعزّ: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ} [القلم: ١٣]. قاله مجاهد، والسدي.

عن مجاهد، والسدي: "{وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، قال: مع ذلك دحاها".

قال مجاهد:"والأَرْضَ عِنْدَ ذَلكَ دَحاها".

عن مجاهد، قال: «خلق الله الأرض قبل السماء، فثار من الأرض دخان، ثم خلق السماء بعد» وأما قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] فيقول: مع ذلك دحاها، «ومع»، «وبعد» في كلام العرب سواء، قال ابن عباس: وأما قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ} [النساء: ١٧]، فإن الله كان لم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم قدير، لم يزل كذلك، فما اختلف عليك من القرآن فهو شبه ما ذكرت لك، فإن الله لم ينزل شيئا إلا وقد أصاب به الذي أراد، ولكن الناس لا يعلمون".

=

=

الثاني: أن «بعد» مستعملة على حقيقتها، لأنه خلق الأرض قبل السماء ثم دحاها بعد السماء، قاله عبد الله بن عمرو ، وابن عباس -أيضا- ، وعكرمة ، وبه قال النحاس ، والطبري.

قال النحاس:"هذا القول أولى أن يكون الشيء على بابه".

قال ابن كثير:"الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل".

قال ابن عباس:"وذلك أن الله خَلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك".

قال ابن عباس:"يعني: أن الله خلق السموات والأرض، فلما فرغ من السموات قبل أن يخلق أقوات الأرض فيها بعد خلق السماء، وأرسى الجبال، يعني بذلك: دحْوَها الأقوات، ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار، فذلك قوله: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، ألم تسمع أنه قال: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}".

قال النحاس:"فمن أصحّ ما قيل في هذا وأحسنه ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: خلق الله جلّ وعزّ الأرض قبل السماء فقدّر فيها أقواتها، ولم يدحها، ثم خلق السماء ثم دحا الأرض بعدها".

قال الطبري:"القول الذي ذكرناه عن ابن عباس من أن الله تعالى خلق الأرض، وقدّر فيها أقواتها، ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء، فسوّاهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، لأنه جلّ ثناؤه قال: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، والمعروف من معنى «بَعْد» أنه خلاف معنى «قَبْل»، وليس في دحوِّ الله الأرض بعد تسويته

=

=

السماوات السبع، وإغطاشه ليلها،

وإخراجه ضحاها، ما يوجب أن تكون الأرض خُلقت بعد خلق السموات لأن الدحوّ إنما هو البسط في كلام العرب، والمدّ يقال منه: دحا يدحو دَحْوا، ودَحيْتُ أدْحي دَحْيا، لغتان؛ ومنه قول أُميَّة بن أبي الصلت:

دَارٌ دَحاها ثُمَّ أعْمَرَنا بِها... وَأقامَ بالأُخْرَى الَّتِي هي أمجدُ

وقول أوس بن حجر في نعت غيث:

يَنْفِي الحصَى عن جديد الأرْضِ مُبْتَرِكٌ... كأَنَّه فاحِصٌ أو لاعِبٌ داحِي".

قال ابن قتيبة:"دلّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض".

وفي قوله تعالى: {دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠]، أربعة وجوه:

أحدها: بسطها، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وسفيان ، والسدي. وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، قال أمية بن أبي الصلت:

وبَثَّ الخَلْقَ فِيهَا إذْ دَحاهَا... فَهُمْ قُطَّانُهَا حتَّى التَّنَادِي

قال النحاس:"معنى الدّحو في اللغة البسط، يقال: دحوت أدحو ودحيت أدحي ومن الثاني سمي: دحية".

قال مقاتل:"يقول: بعد بناء السماء، بسطها من تحت الكعبة مسيرة خمسمائة عام".

الثاني: حرثها وشقها، قاله ابن زيد.

عن ابن زيد:"{دَحَاها}، قال: حرثها شقَّها، وقال: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}، وقرأ: {ثُمَّ شَقَقْنَا الأرْضَ شَقًّا...}، حتى بلغ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، وقال حين شقَّها أنْبتَ هذا منها، وقرأ: {وَالأرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}".

الثالث: أي: أودع فيها منافعها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام. وهذا قول ابن عباس.

=

=

عن ابن عباس: {دَحَاهَا} وَدَحْيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}".

الرابع: سوّاها، ومنه قول زيد بن عمرو:

وأَسْلَمْتُ وجهي لمن أَسْلَمتْ... له الأرضُ تحمل صَخْرًا ثِقالا

دحاها فلما اسْتَوتْ شدّها... بأيْدٍ وأرْسَى عليها الجبالا

- إشكال: جاءت آيات تدل على أن خلق الأرض كان قبل السماء كما قال تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات).

وقال تعالى (قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين).

والآية هنا في النازعات تدل على تأخر دحو الأرض، فكيف الجمع؟

ذهب أكثر العلماء إلى أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء، وأما دحوها فمتأخر عنها، فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض أولا غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا، ثم دحا الأرض بعد ذلك، أي: بسطها ومهدها للسكن، بأن أخرج منها الماء والمرعى، وأرساها بالجبال.

قالوا: إن الله قال (والأرض بعد ذلك دحاها) ولم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها، وإنما قال (دحاها) ومعنى الدحو غير معنى الخلق، فالمتأخر دحو الأرض، وهو بسطها وتمهيدها، وليس خلقها وإنشاءها.

وبهذا قال ابن عباس، ورجحه ابن جرير، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي،

=

=

وابن كثير، والسعدي، والقاسمي، والشنقيطي والشوكاني.

قال ابن كثير:... إن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء.

قوله تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: ٣١]، أي:"أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأَنعام".

قال الطبري:"يقول: فجَّر فيها الأنهار وأنبت نَباتها".

قال السمعاني:"أي: أخرج من الأرض الماء لحياة النفوس، والمرعى للأنعام".

عن الضحاك: "{وَمَرْعَاهَا}: ما خلق الله فيها من النبات، و {مَاءَهَا}: ما فجر فيها من الأنهار".

قال القتيبي: "أنظر كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنعام من العشب والشجر والحبّ والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح، لأنّ النار من العيدان والملح من الماء".

قوله تعالى: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات: ٣٢]، أي:"وأثبت فيها الجبال أوتادًا لها".

قال الطبري:"يقول: والجبال أثبتها فيها، وفي الكلام متروك استغني بدلالة الكلام عليه من ذكره، وهو فيها، وذلك أن معنى الكلام: والجبال أرساها فيها".

قال قتادة:"أي: أثبتها لا تَمِيد بأهلها".

قال ابن كثير:"أي: قررها وأثبتها وأكَّدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرءوف بخلقه الرحيم".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:"لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: تخلق عليّ آدم وذرّيته يلقون عليّ نتْنهم، ويعملون عليّ بالخطايا، فأرساها الله، فمنها ما ترون، ومنها ما

=

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤).
{فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّة الْكُبْرَى} النَّفْخَة الثَّانِيَة.
يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥).

=

لا ترون، فكان أوَّل قرار الأرض كلحم الجزور إذا نُحِر يحتلج لحمها".
أي: ثبت الجبال في الأرض، فهي مثبتة للأرض.
كما قال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم).
وقال تعالى (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا).
وقال تعالى (وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا).
قوله تعالى: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات: ٣٣]، أي:"سبحانه كل هذه النعم منفعة لكم ولأنعامكم".
عن ابن عباس:"{مَتاعًا لَكُمْ}، قال: منفعة".
قال الطبري:"أنه خلق هذه الأشياء، وأخرج من الأرض ماءها ومرعاها منفعة لنا ومتاعا إلى حين".
قال الزمخشري:"فعل ذلك تمتيعا لكم {وَلِأَنْعامِكُمْ}، لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم وإلى أنعامهم".
قال ابن كثير:"أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل".
أي: فعل ذلك كله، فأتبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزروع والأشجار، كل ذلك منفعة للعباد وتحقيقا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم.
- و(المتاع) يطلق على ما ينتفع به مدة.

{يَوْم يَتَذَكَّر الْإِنْسَان} بَدَل مِنْ إِذَا {مَا سَعَى} فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْر وَشَرّ.

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦).

{وَبُرِّزَتْ} أُظْهِرَتْ {الْجَحِيم} النَّار الْمُحْرِقَة {لِمَنْ يَرَى} لِكُلِّ رَاءٍ وَجَوَاب إِذَا.

فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧).

{فَأَمَّا مَنْ طَغَى} كَفَرَ.

وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨).

{وَآثَرَ الْحَيَاة الدُّنْيَا} بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَات.

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩).

{فَإِنَّ الْجَحِيم هِيَ الْمَأْوَى} مَأْوَاهُ.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠).

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَام رَبّه} قِيَامه بَيْن يَدَيْهِ {وَنَهَى النَّفْس} الْأَمَّارَة {عَنْ الْهَوَى} الْمُرْدِي باتباع الشهوات.

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١).

{فَإِنَّ الْجَنَّة هِيَ الْمَأْوَى} وَحَاصِل الْجَوَاب فَالْعَاصِي فِي النَّار وَالْمُطِيع فِي الْجَنَّة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢).

{يَسْأَلُونَك} أَيْ كُفَّار مَكَّة {عَنْ السَّاعَة أَيَّانَ مُرْسَاهَا} مَتَى وُقُوعهَا وَقِيَامهَا.

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣).

{فِيمَ} فِي أَيّ شَيْء {أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} أَيْ لَيْسَ عِنْدك عِلْمهَا حَتَّى تَذْكُرهَا.

إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤).

{إِلَى رَبّك مُنْتَهَاهَا} مُنْتَهَى عِلْمهَا لَا يَعْلَمهُ غيره.

إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥).

{إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِر} إِنَّمَا يَنْفَع إِنْذَارك {مَنْ يخشاها} يخافها.

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦).

{كَأَنَّهُمْ يَوْم يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا} فِي قُبُورهمْ {إِلَّا عَشِيَّة أَوْ ضُحَاهَا} عَشِيَّة يَوْم أَوْ بُكْرَته وَصَحَّ إِضَافَة الضُّحَى إِلَى الْعَشِيَّة لِمَا بَيْنهمَا مِنْ الْمُلَابَسَة إِذْ هُمَا طَرَفَا النَّهَار وحسن الإضافة وقوع الكلمة فاصلة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن طارق بن شهاب: أن النبي ﷺ كان لا يزال يذكر من شأن الساعة؛ حتى نزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢)}.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٩٠ رقم ٦٦٥)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨/ رقم ٨٢١٠) من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن طارق به. وهذا سند صحيح، وطارق رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه وهو من صغار الصحابة، ومراسيل الصحابة حجة.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٣): "رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه".

قلنا: قد جاء من غير طريق الطبراني بسند صحيح.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٨٤): "وهذا إسناد جيد قوي".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن مردويه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة؛ حتى أنزل الله عز وجل:
=

=

{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣١)، والبزار في "مسنده" (٣/ ٧٨ رقم ٢٢٧٩ - كشف)، والحاكم (١/ ٥، ٢/ ٥١٣، ٥١٤)، وأبو نعيم في "الحلية" (٧/ ٣١٤)، والخطيب في "تاريخ بغداد" (١١/ ٣٢١)، وإسحاق بن راهويه في "مسنده" -ومن طريقه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ١٥١) من طرق عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة. قال البزار: "لا نعلم رواه هكذا إلا سفيان". وقال أبو نعيم: "لا أعلم رواه عن الزهري غير ابن عيينة". وهذا سند صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال الحاكم في الموضع الأول: "هذا حديث لم يخرج في "الصحيحين" وهو محفوظ على شرطهما معًا؛ وقد احتجا معًا بأحاديث ابن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة".

وقال فى "الموضع الثاني": "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ فإن ابن عيينة كان يرسله بآخره"، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٣): "رواه البزار؛ ورجاله رجال الصحيح".

وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٣) -ومن طريقه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ١٥١) -، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٤٧)، وابن مردويه في "تفسيره" من طريق نعيم بن حماد ثلاثتهم (سعيد بن منصور وعبد الرزاق ونعيم بن حماد) عن ابن عُيينة به مرسلًا لم يذكر عائشة.

قال أبو زرعة؛ كما في "العلل" لابن أبي حاتم (٢/ ٦٨ رقم ١٦٩٣): "الصحيح مرسل بلا عائشة".

=

=

لكن الذين رووه موصولًا أكثر وأثبت في ابن عيينة من غيرهم؛ كالحميدي، والوصل زيادة يجب قبولها، وما أحسن ما قاله الدارقطني في "علله"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ١٥١): "وكان ابن عيينة أسنده مرة وأرسله أخرى"، ولعل إرساله له كان بآخره كما قال الحاكم -والله أعلم-.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة -استهزاء منهم-؟ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢)}؛ يعني: متى مجيئها {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)} ما أنت من علمها يامحمد {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤)}؛ يعنى: منتهى علمها {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥)}؛ يعني: من يخشى القيامة {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}؛ يعني: يرون القيامة {لَمْ يَلْبَثُوا} في الدنيا ولم ينعموا بشيء من نعيمها {إِلَّا عَشِيَّةً} ما بين الظهر إلى غروب الشمس {أَوْ ضُحَاهَا} ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٦)، وقال: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به. وجويبر؛ ضعيف جدًا، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

قال فى "الدر المنثور" (٨/ ٤١٣) بعد زيادة نسبته لابن مردويه: "بسند ضعيف".

* قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤]، أي:"فإذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى وهي النفخة الثانية".

قال الطبري:"فإذا جاءت التي تطم على كلّ هائلة من الأمور، فتغمر ما سواها بعظيم هولها".

قال السعدي:"أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه وكل

=

=

محب عن حبيبه".

قال النحاس:"العرب إذا عظّمت الشيء وصفته بالطامة".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤]، أقوال:

أحدها: أنها النفخة الآخرة، قاله ابن عباس-في رواية الضحاك عنه- ، وهو قول الحسن ، ومقاتل.

قال مقاتل:"هي النفخة الآخرة من بيت المقدس، فذلك الطامة الكبرى، وهي يوم القيامة".

قال زجاج:"إذا جاءت الصيحة التي تَطُم كلَّ شيء، الصيْحة التي يقع معها البعث والحساب والعقاب والعذاب والرحمة".

الثاني: أنها الساعة طمت كل داهية، والساعة أدهى وأمّر، قاله الربيع.

الثالث: أنه اسم من أسماء القيامة، يسمى: الطامة، قاله ابن عباس-أيضا- ، والضحاك.

قال ابن عباس:"من أسماء يوم القيامة عظمه الله، وحذّره عباده".

قال السجستاني:"يعني: القيامة، والطامة: الداهية، لأنها تطم على كل شيء، أي تعلوه وتغطيه".

قال الثعلبي:"أي: القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كلّ هائلة من الأمور فتغمر ما سواها بعظم هولها أي يغلب، والطامة عند العرب الناهية التي لا تستطاع، وإنّما أخرت من قولهم طمّ الفرس طميمها إذا استفرغ جهده الجري".

قال ابن كثير:"سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]".

الرابع: أنها الطامة الكبرى إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، قاله الحسن ، والقاسم بن الوليد ، وهو معنى قول مجاهد.

=

=

الخامس: أنها الطامة الكبرى حين يقال لأهل النار: قوموا إلى النار. قاله عمرو بن قيس الكندي.
عن عمرو بن قيس الكندي: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}، قال: "إذا قيل: اذهبوا به إلى النار".
وقال سفيان: "هي الساعة التي يسلم فيها أهل النار إلى الزبانية".
قال الواحدي:"والطامة: الحادثة التي تطم على ما سواها".
قال الراغب:"الطَّمُّ: البحرُ المَطْمُومُ، يقال له: الطَّمُّ والرَّمُّ، وطَمَّ على كذا، وسمِّيَت القيامةُ طَامَّةً لذلك".
قال المبرد: «الطامة» -عند العرب-: الداهية التي لا تستطاع، أخذت -فيما أحسب- من قولهم: طمَّ الفرسُ طميمًا إذا استفرغ جهده في الجري، و"طم الماء" إذا ملأ النهر كله".
قال الليث: الطَّمُّ: طَمُّ البئر بالتراب، وهو الكَبْس، وطم السيل الرَّكيَّة: إذا دفنها حتى يسوِّيَها، ويقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو: قد طم، ومن ثم قيل: فوق كل طامَّة طامَّة".
- قال ابن عاشور: والطامة: الحادثة، أو الوقعة التي تطم، أي تعلو وتغلب؛ بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها في نوعها، مأخوذ من طم الماء، إذا غمر الأشياء وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا في الأمور المهولة ثم بولغ في تشخيص هولها بأن وصفت بـ (الكبرى) فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال.
قوله تعالى: {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى} [النازعات: ٣٥]، أي:"عندئذ يُعْرَض على الإنسان كل عمله من خير وشر، فيتذكره ويعترف به".
قال الطبري:"يقول: إذا جاءت الطامة يوم يتذكر الإنسان ما عمل في الدنيا من

=

=

خير وشر، وذلك سعيه".

قال ابن كثير:"أي: حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]".

أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ويقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).

قوله تعالى: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى} [النازعات: ٣٦]، أي:"وأُظهرت جهنم لكل مُبْصِر تُرى عِيانًا".

قال الطبري:"يقول: وأظْهِرت الجحيم، وهي نار الله لمن يراها، يقول: لأبصار الناظرين".

قال ابن كثير:"أي: أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا".

قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى} [النازعات: ٣٧]، أي:"فأمَّا مَن تمرد على أمر الله".

قال الطبري:"فأما من عتا على ربه، وعصاه واستكبر عن عبادته".

عن مجاهد، قوله: "{طَغَى}، قال: عصى".

قال مقاتل:"الثابت على الشرك".

قال ابن كثير:"أي: تَمَرّد وعتا".

قال سهل:"أي: جحد حقوق الله وكفر نعمته".

قال ابن عطية:"«طَغى» معناه: تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها".

روي عن يحيى بن أبي كثير، قال: "من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى".

وروى جويبر عن الضحاك قال: قال حذيفة: "أخوف ما أخاف على هذه الأمة

=

=

أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون".

ويروى أنه وجد في الكتب: "إن الله جل ثناؤه قال" لا يؤثر عبد لي دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه وضيعته، ثم لا أبالي في أيها هلك".

قال ابن عاشور: وقدم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا فلما كان مسببا عنه ذكر عقبه مراعاة للترتب الطبيعي.

قوله تعالى: {وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النازعات: ٣٨].

قال الطبري:"يقول: وآثر متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة، وما أعدّ الله فيها لأوليائه، فعمل للدنيا، وسعى لها، وترك العمل للآخرة".

قال ابن كثير:"أي: قدمها على أمر دينه وأخراه".

قال مقاتل:"ولم يخف الله ولا حسابه فأكل الحرام".

قال البيضاوي:"فانهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس".

قال سهل: وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} " اتباعًا في طلب الشهوات ومتابعة المراد، ثم قال: ما طلعت شمس ولا غربت على أحد إلا وهو جاهل، إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته. قيل: ما علامة بغض الدنيا؟ قال: أن تهون عليه المصائب، حتى نفسه وولده، كما قال مسلم بن يسار حين مات ولده: يا بني، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، اللهم إني قد جعلت ثوابك لي عليه له» ، والثاني يهون عليه نعيم الدنيا ولو روحه، والثالث لا يكون شيء أقرب إليه من الله ﷻ، كقول عامر بن عبد القيس: «ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليه مني»".

قال ابن عاشور: والمراد بالحياة الدنيا حظوظها ومنافعها الخاصة بها، أي التي لا تشاركها فيها حظوظ الآخرة، فالكلام على حذف مضاف، تقديره: نعيم الحياة.

- ويفهم من فعل الإيثار أن معه نبذا لنعيم الآخرة.

=

=

فالإنسان مولع بالعاجل وإيثاره على الآجل، مع أن الدنيا على اسمها دنيا، فهي دنيا زمنا ووصفا، أما كونها دنيا زمنا، فلأنها سابقة على الآخرة فهي متقدمة عليها، وأما كونها دنيا ناقصة، فهذا هو الواقع، فإن الدنيا مهما طالت بالإنسان فإن أمدها الفناء، ومنتهاها الفناء.

كما قال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى).

وقال تعالى (وويل للكافرين من عذاب شديد. الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة).

وقال تعالى (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة).

فحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية ولهذا قال ﷺ (أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها. فتهلككم كما أهلكتهم). متفق عليه

قال ﷺ (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها). متفق عليه

وقد ذم الله تعالى الدنيا في القرآن وزهد فيها ورغب في الآخرة في آيات كثيرة.

- وقيل للدنيا العاجلة لسرعة انقضائها وتحولها.

- قوله تعالى (الحياة الدنيا) هي هذه الحياة التي نعيشها التي قبل الآخرة، وسميت لدنيا لسببين:

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قال تعالى (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) وقال تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء)

=

=

رواه الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

قال تعالى مزهدا في الدنيا (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء).رواه الترمذي

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه...).رواه الترمذي

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).رواه مسلم

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).رواه الترمذي

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع). رواه مسلم

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

=

=

قوله تعالى: {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٩]، أي:"فإن مصيره إلى النار".

قال الطبري:"يقول: فإن نار الله التي اسمها الجحيم، هي منزله ومأواه، ومصيره الذي يصير إليه يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم".

قال ابن عطية:"«الْمَأْوى» والمسكن حيث يأوي المرء ويلازم".

عن أبي مالك:"{الجحيم}، قال: ما عظم من النار".

قال ابن عباس: "يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصر".

وقرأ عكرمة وغيره:"لمن ترى"، بالتاء، أي: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد.

أي: فإن مصيره إلى الجحيم، وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} [النازعات: ٤٠].

قال الطبري:"يقول: وأما من خاف مسألة الله إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال النحاس:"أي: مقام الحساب على معاصيه".

قال السمعاني:"أي: قيامه عند ربه للحساب".

قال البيضاوي:"مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد".

قال ابن كثير:"أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، ورَدها إلى طاعة مولاها {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}، أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء".

قال ابن عباس:"يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله، وترك

=

=

معصيته".

قال مجاهد:"هو الرجل يهم بالذنب، فيذكر مقام ربه فينزع".

قال مجاهد:"الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه..".

قال مجاهد:"هو الرجل يهمّ بمعصية الله تعالى، ثم يتركها مخافة الله".

قال إبراهيم:"إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله".

قال قتادة:"إن لله مقاما قد خافه المؤمنون".

قال قتادة:"إن المؤمنين خافوا ذاكم المقام فعملوا له، ودانوا له، وتعبَّدوا بالليل والنهار".

قال مقاتل: نزلت في " مصعب- قتل يوم أحد - وأبا الدوم ابني عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي".

قال الزمخشري:" {مَقامَ رَبِّهِ}: موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ}، ونحوه: {لِمَنْ خافَ مَقامِي}، ويجوز أن يراد بمقام ربه: أن الله قائم عليه، أي: حافظ مهيمن من قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ}، فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل: هو مقحم كما تقول: أخاف جانب فلان، وفعلت هذا لمكانك "، "وقيل: الآيتان نزلتا في أبى عزير بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزير يوم أحد، ووقى رسول الله ﷺ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه".

قوله تعالى: {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠]، أي:"ونهى النفس عن الأهواء الفاسدة".

قال الطبري:"يقول: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه".

قال السمعاني:"أي: عما هواه ويشتهيه على خلاف الشرع".

=

=

قال مقاتل:"يقول: قدر على معصيته فانتهى عنها مخافة حساب ذلك اليوم".

قال الزمخشري:" {وَنَهَى النَّفْسَ} الأمارة بالسوء {عَنِ الْهَوَى} المردي وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير".

قال البيضاوي:"لعلمه بأنه مرد".

قال النحاس:"الْهَوَى: هو الميل إلى ما لا يحسن".

قال ابن عطية:"الْهَوَى: هو شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحمود".

وقال بعض الحكماء: "إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه".

وقال الفضيل: "أفضل الأعمال خلاف الهوى".

قال الراغب:"النهي: الزّجر عن الشيء، فإنه لم يعن أن يقول لنفسه: لا تفعل كذا، بل أراد قمعها عن شهوتها ودفعها عمّا نزعت إليه وهمّت به، وكذا النهي عن المنكر يكون تارة باليد، وتارة باللّسان، وتارة بالقلب".

قال سهل:"لا يسلم من الهوى إلا نبي وبعض الصديقين ليس كلهم، وإنما يسلم من الهوى من ألزم نفسه الأدب، وليس يصفو الأدب إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين، وكذلك الأخلاق. وخرج ابن السماك يومًا إلى أصحابه وقد اجتمعوا إليه فقال لهم: قد كثرت عظاتي لكم، تريدون دوائي لكم، قالوا: نعم. قال: خالفوا أهواءكم".

أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حكم الله فيه، فاستعد لذلك القيام كما قال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم).

وقال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم).

وقال تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار).

=

=

وقال رسول الله ﷺ: (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل).

(ونهى النفس) الأمارة بالسوء.

(عن الهوى) عن اتباع هواها وما تشتهيها من الشهوات المحرمة والشبهات، وألجمها بلجام التقوى.

- أن اتباع الهوى ضلال وسبب للهلاك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: واتباع الهوى في الديانات أعظم من اتباع الهوى في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.

كما قال تعالى (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله).

وقال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم).

وقال تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم).

وقال تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير).

فاتباع الهوى ضلال:

كما قال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله).

وقال ﷺ (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير

=

=

هدى من الله).

ونفس الهوى - هو الحب والبغض الذي في النفس - لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه، كما قال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله).

ويقال سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم كما قال تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) وقال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى).

وينبغي على المكلف أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب، ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه، وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه.

قوله تعالى: {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤١].

قال الطبري:"يقول: فإن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة".

قال السعدي:"{فَإِنَّ الْجَنَّةَ} المشتملة على كل خير وسرور ونعيم {هِيَ الْمَأْوَى} لمن هذا وصفه".

قال البيضاوي:"ليس له سواها مأوى".

أي: فإن الدار التي أعدها الله لأوليائه الصالحين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(هي المأوى) هي مأواه ومنقلبه ومصيره، كما قال تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون).

وقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان).

قال سهل: ترك الهوى مفتاح الجنة؛ لقوله ﷻ (وأما من خاف مقام ربه ونهى

=

=

النفس عن الهوى).

وقال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمان.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يسألك يا محمد هؤلاء المكذّبون بالبعث عن الساعة التي تبعث فيها الموتى من قبورهم متى قيامها وظهورها".

قال الزجاج:"معناه: متى وقوعها وقيامها".

قال الثعلبي: أي:"متى ظهورها وثبوتها".

قال ابن قتيبة:"أي: متى تأتي فتستقرَّ؟ لأن الأشراط تتقدمُها".

قال الزمخشري:"متى إرساؤها، أي: إقامتها، أرادوا: متى يقيمها الله ويثبتها ويكوّنها؟ وقيل أيان منتهاها ومستقرّها، كما أنّ مرسى السفينة مستقرّها، حيث تنتهي إليه".

عن ابن عباس، والربيع: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا}: "متى زمانها".

قال قتادة والسدي: "{مُرْسَاهَا}: قيامها".

قال الفراء:"يقول القائل: إنما الإرساء للسفينة والجبال، وما أشبههن، فكيف وصفت الساعة بالإرساء؟ قلت: هي بمنزلة السفينة إذا كانت جارية فرست، ورسوها قيامها، وليس قيامها كقيام القائم على رجله ونحوه، إنما هو كقولك: قد قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت".

الخطاب للنبي ﷺ، أي: يسألونك عن الساعة، يعني القيامة (أيان مرساها) أي: متى وقوعها ومجيئها.

- قال الرازي: اعلم أن المشركين كانوا يسمعون إثبات القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء

=

=

(أيان مرساها) فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالا، كقوله (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها).

- فالساعة لا يدري متى وقوعها إلا الله تعالى.

قوله تعالى: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣].

عن مجاهد، قوله: "{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}، قال: من ذكر الساعة".

قال السعدي:"أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه".

وفي قوله تعالى: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: فيم هذا السؤال، فإن إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلا على دنوّها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها. أفاده الزمخشري.

الثاني: فيم يسألك المشركون يا محمد عنها ولست ممن يعلمها، وهو معنى قول ابن عباس.

قال الزمخشري:"في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به، يعنى: ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها في شيء".

قال ابن عطية:"نزلت بسبب أن قريشا كانت تلح في البعث عن وقت الساعة التي كان رسول الله ﷺ يخبرهم بها ويتوعدهم بها ويكثر من ذلك".

الثالث: فيم أنت من أن تسأل عنها ولم أخبرك بها متى تجيء. قاله عطاء، والكلبي.

=

=

قال القشيري:"من أين لك علمها ولم نعلمك ذلك".

الرابع: فيم تسأل يا محمد عنها وليس لك السؤال، وهذا معنى قول عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ، وعروة بن الزبير.

قال الطبري:"يقول: في أيّ شيء أنت من ذكر الساعة والبحث عن شأنها".

قال المراغي:"أي: ما هذه الذكرى الدائمة لها، وما هذا الاهتمام الذي جعلك لا تألو جهدا في السؤال عنها؟.. وتلخيص المعنى- لا تشغل نفسك بهذا الأمر، ولا تكلفها عناء البحث عنه، واستكناه أسراره، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه".

قال الزمخشري:"فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها. والمعنى: أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها".

عن عروة بن الزبير ، قال: "لم يزل النبي ﷺ ، يسأل عن الساعة حتى نزلت: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣] فانتهى عن المسألة عنها".

قال ابن قتيبة:"أي: ليس عِلمُ ذلك عندك".

قال النحاس: أي: ليس إليك ذكرها لأنك لم تعرف وقتها".

قال السمعاني:"أي: مالك ومعرفة وقت قيام الساعة؟.. وهو مثل قول القائل لغيره: مالك وهذا الأمر؟ وفيه زجر إياه عن السؤال".

قال الشافعي:"فحجب عن نبيه ﷺ علم الساعة، وكان من جاور ملائكة الله المقربين وأنبياءه المصطفين من عباد الله".

قوله تعالى: {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤]، أي:"بل مرد ذلك إلى الله عَزَّ وَجَلَّ".

أخرج ابن المنذر عن ابن جرير في قوله: "{إلى ربك منتهاها}، قال: علمها".

=

=

قال ابن عباس: "يريد: علم ذلك عندي.

قال الطبري: "يقول: إلى ربك منتهى علمها، أي إليه ينتهي علم الساعة، لا يعلم وقت قيامها غيره".

قال مقاتل: "يقول: منتهى علم ذلك إلى الله- ﷻ-".

قال الزجاج: "أي: منتهى علمها".

قال الزمخشري: "أي: منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه".

قال ابن كثير: "أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مَردها ومَرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ} [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»".

قال السعدي: "أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثا، ينزه الحكيم عنه".

قال السمعاني: "وقيل معناه: أن كل من يسأل عنه يقول: الله أعلم، فيرد علمها إلى الله".

أي: مردها ومرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سواه.

قال تعالى (قل إنما علمها عند ربي).

وقوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة).

- والمراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسميت بذلك لسرعة الحساب

=

=

فيها، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

- والساعة تطلق على ثلاثة معان:

الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان، فمن مات فقد قامت قيامته، لدخوله في عالم الآخرة.

والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم. أي: موتهم، والمراد ساعة المخاطبين.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

- وإذا أطلقت الساعة في القرآن، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يسألونك عن الساعة) وكقوله تعالى (يسألك الناس عن الساعة) وكقوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر).

قوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥]، أي:"وإنما شأنك في أمر الساعة أن تحذر منها مَن يخافها".

قال ابن عباس:"يعني: مَن يخشى القيامة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمحمد: إنما أنت رسول مبعوث بإنذار الساعة من يخاف عقاب الله فيها على إجرامه ولم تكلف علم وقت قيامها، يقول: فدع ما لم تكلف علمَه واعمل بما أمرت به من إنذار من أُمرت بإنذاره".

قال السمعاني:"أي: تنذر بعذاب يوم القيامة من يخشى القيامة".

قال ابن كثير:"أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك".

=

=

قرأ أبو جعفر القارئ وابن محيصن: «مُنْذِرٌ»، بالتنوين، بمعنى: أنه منذر من يخشاها.

عن أبي الزناد عن أبيه أنه سمع عمر بن عبد العزيز، يقرأ: "{أنت} منذرٌ {من يخشاها}".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦]، أي:"كأنهم يوم يرون قيام الساعة لم يلبثوا في الحياة الدنيا؛ لهول الساعة إلا ما بين الظهر إلى غروب الشمس، أو ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: كأن هؤلاء المكذّبين بالساعة، يوم يرون أن الساعة قد قامت من عظيم هولها، لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية يوم، أو ضحى تلك العشية".

قال ابن كثير:"أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم".

قال القشيري:"فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرة ما لبثوا تحت الأرض".

قال المراغي:"أي: إن هذا اليوم الذي لجوا في إنكاره سيقع البتة، ويرونه بأعينهم، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت".

قال الفراء:"يقول القائل: وهل للعشى ضحا؟ إنما الضحى لصدر النهار، فهذا بين ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية أو غداتها، وآتيك الغداة أو عشيتها. تكون العشية في معنى: آخر، والغداة في معنى: أول، أنشدني بعض بنى عقيل:

نَحْنُ صَبَحْنا عامِرًا فِي دَارِها... عَشِيَّةَ الهِلالِ أوْ سِرَارِها

أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية، فهذا أسد من آتيك الغداة أو عشيتها".

عن ابن جريج:"{إلّا عَشِيَّةً} قال: من الدنيا، {أوْ ضُحاها} قال: العَشِيّة".

=

=

عن ابن عباس:" {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} أما عَشِيَّة: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، {أَوْ ضُحَاهَا} ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار".

عن قتادة، قوله: "{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة".

قال الثعلبي:" {لَمْ يَلْبَثُوا} في الدنيا، قيل: في قبورهم، {إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها}".

قال السمعاني:"فإن قيل: كيف يصح هذا الظن، وعندكم أنهم يعذبون في قبورهم؟ والجواب: أنهم يخفتون خفتة بين النفختين، فإذا بعثوا ظنوا ما بينا، لأنهم نسوا العذاب في تلك الخفتة".

قال النحاس:"أي: زال عنهم ما كانوا فيه فلم يفكروا في ما مضى وقلّ عندهم، وكان في هذا معنى التنبيه لمن اغتر بالدنيا وسلامته فيها في أنه سيتركها عن قليل ويذهب عنه ما كان يجد فيها من اللّذة والسرور فكأنه لم يلبث فيها إلا عشيّة أو ضحاها".

قال ابن كثير: يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم.

كما قال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار...) أي: كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم.

وقال تعالى (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين).

ما الجمع بين هذه الآيات وبين الآيات الأخرى التي تدل على أنهم قالوا خلاف ذلك كقوله تعالى (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين) وكقوله تعالى

=

=

(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ما لبثوا غير ساعة)؟
والجواب عن هذا: بما دل عليه القرآن؛ وذلك أن بعضهم يقول: لبثنا يوما أو بعض يوم، وبعضهم يقول: لبثنا ساعة، وبعضهم يقول: لبثنا عشرا. ووجه دلالة القرآن على هذا أنه بين أن أقواهم إدراكا وأرجحهم عقلا وأمثلهم طريقة هو من يقول أن مدة لبثهم يوما وذلك قوله تعالى (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) فدل ذلك على اختلاف أقوالهم في مدة لبثهم والعلم عند الله. [قاله الشنقيطي]
- في الآية التزهيد في الدنيا.
قال ابن القيم: ويكفي في الزهد في الدنيا: قوله تعالى (أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) وقوله (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم).
وقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها).
وقوله (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون).
وقوله (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين).
قوله (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما).
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) (النازعات: ٣٤)، (وقال) في سورة (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) (عبس: ٣٣) والمراد بهما القيامة. يسأل عن وجه افتراق العبارة؟ وهل كان يحسن ورود

=

=

الصاخة هنا والطامة هناك؟

والجواب ن ذلك، والله أعلم: أن الطامة والصاخة وإن أريد بهما في السورتين شئ واحد فإن اسم الطامة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة لأنها من قولهم طم السبل إذا علا وغلب. وأما الصاخة فالصيحة الشديدة من قولهم صخ بأذنيه مثل أصاخ فاستعيرت من أسماء القيامة مجازًا لأن الناس يصيخون لها، فلما كانت الطامة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خص بها أبلغ الصورتين في التخويف والإنذار، وعلى ذلك بنيت سورة النازعات، ألا ترى قوله: (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) (النازعات: ٦ – ٧) ووصف الطامة بالكبرى، وما أتبع به بعد، وابتداء السورة وختامها، فكلها تخويف وترهيب، فناسبها أشد العبارتين موقعًا وأرهبها.

وأما سورة عبس وتولى فلم تبن على ذلك الغرض وإنما بنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وذلك مشهور، ثم ورد قوله: (فإذا جاءت الصاخة) عقب التذكير بقوله: (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) (عبس: ١١) والتحريك للاعتبار بقوله: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) (عبس: ٢٤) إلى قوله: (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (عبس: ٣٢)، ثم اتبع بعد ذكر الصاخة بقوله (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) (عبس: ٣٨ – ٣٩). فسورة "النازعات" على الجملة أشد في التخويف والترهيب فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة في التخويف (والإنذار بحالها، وليست سورة " عبس وتولى "كسورة "النازعات " في التخويف) والترهيب فناسبها إيراد اسم القيامة بالصاخة، إذ ليس في الإرهاب كالطامة فجاء كل على ما يناسب، ولا يناسب عكس الوارد على ما تمهد، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٢).

سورة عبس(١)

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع المفسرين".
وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".
وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.
* آياتها ثنتان وأَربعون فى الحجاز، والكوفة، وواحدة فى البصره، وأَربعون فى الشأم. وكلماتها مائتان وثلاث وثلاثون. وحروفها خمسمائة وثلاث وثلاثون. والمختلف فيها من الآى ثلاث: {وَلأَنْعَامِكُمْ} {طَعَامَهُ} الصّاخَّة. فواصل آياتها (هما) وعلى الميم آية: {وَلأَنْعَامِكُمْ}
* أسماء السورة.
تسمى «سورة عبس» سميت هذه الصورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة «سورة عبس»، ووجه تسميتها لافتتاحها بهذا الوصف البشري وهو عتاب للنبي-ﷺ- على عبوسه في وجه الأعمى، قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١ - ٢].
وتسمى: «سورة السفرة وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن ، ووجه تسميتها، أنها وقعت فيها هذه اللفظة وهي في قوله تعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٥ - ١٦].
وتسمى «سورة الصاخة» سماها بهذا الاسم الخفاجي في حاشيته ، كما ذكرها الألوسي في تفسيره ، والقاسمي ، والبقاعي. ولعل سبب تسميتها بسورة «الصاخة»، لأن هذه اللفظة وردت فيها في قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: ٣٣]، ولم ترد في غيرها من سور القرآن الكريم.
وتسمى «سورة الأعمى» سماها بهذا الاسم ابن الهائم في «التبيان» ، والألوسي في "تفسيره" ، وقال أنها "سميت في غير كتاب سورة الأعمى" ، ولم يفصل في =

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١).

{عَبَسَ} النَّبِيّ كَلَحَ وَجْهه {وَتَوَلَّى} أَعْرَضَ لِأَجْلِ.

أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢).

{أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} عَبْد الله بْن أُمّ مَكْتُوم فَقَطَعَهُ عَمَّا هُوَ مَشْغُول بِهِ مِمَّنْ يَرْجُو إِسْلَامه مِنْ أَشْرَاف قُرَيْش الَّذِينَ هُوَ حَرِيص عَلَى إِسْلَامهمْ وَلَمْ يَدْرِ الْأَعْمَى أَنَّهُ مَشْغُول بِذَلِكَ فَنَادَاهُ عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَك الله فَانْصَرَفَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى

=

كلامه.

وقال ابن عاشور:"في «أحكام ابن العربي» عنونها «سورة ابن أم مكتوم». ولم أر هذا لغيره".

وكل ذلك تسمية بألفاظ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها، وهي أسماء من اجتهاد المفسرين ولم تثبت عن النبي-ﷺ-، في خبر صحيح، كما لم يرد عن الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين- أثر في تسميتها.

* معظم مقصود السّورة: بيان حال الأَعمى، وذكر شرفِ القرآن، والشّكاية من أَبى جهل، وإِنكاره البعث والقيامة، وإِقامة البرهان من حال النبات على البعث، وإِحياءِ الموتى، وشُغُل الخلق فى العَرَصات، وتفاوُت حال أَهل الدّرجات والدّركات، فى قوله: {وُجُوْهٍ} إِلى آخرها.

* المتشابه: قوله: {الصآخة} سبق فى النَّازعات. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٠١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

بَيْته فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ بِمَا نَزَلَ فِي هَـذِهِ السُّورَة فَكَانَ بَعْد ذَلِكَ يَقُول لَهُ إِذَا جَاءَ مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي وَيَبْسُط لَهُ رِدَاءَهُ.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣).

{وَمَا يُدْرِيك} يُعْلِمك {لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} فِيهِ إِدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الزَّاي أَيْ يَتَطَهَّر مِنْ الذُّنُوب بِمَا يَسْمَع مِنْك.

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤).

{أَوْ يُذْكَر} فِيهِ إِدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الذَّال أَيْ يَتَّعِظ {فَتَنْفَعهُ الذِّكْرَى} الْعِظَة الْمَسْمُوعَة مِنْك وَفِي قِرَاءَة بِنَصْبِ تَنْفَعهُ جَوَاب الترجي.

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥).

{أَمَّا مَنْ اِسْتَغْنَى} بِالْمَالِ.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦).

{فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ الصَّاد بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِيهَا تُقْبِل وتتعرض.

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧).

{وَمَا عَلَيْك أَلَّا يَزَّكَّى} يُؤْمِن.

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨).

{وَأَمَّا مَنْ جَاءَك يَسْعَى} حَال مِنْ فَاعِل جاء.

وَهُوَ يَخْشَى (٩).

{وَهُوَ يَخْشَى} الله حَال مِنْ فَاعِل يَسْعَى وهو الأعمى.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠).

{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} فِيهِ حَذْف التَّاء الْأُخْرَى فِي الْأَصْل أَيْ تَتَشَاغَل.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١).

{كَـلَّا} لَا تَفْعَـل مِثْـل ذَلِـكَ {إِنَّهَـا} أَيْ الـسُّورَة أَوْ الْآيَـات {تَـذْكِرَة} عِظَـة لِلْخَلْقِ.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢).

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} حَفِظَ ذَلِكَ فَاتَّعَظَ بِهِ.

فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣).

{فِي صُحُف} خَبَر ثَانٍ لِأَنَّهَا وَمَا قَبْله اِعْتِرَاض {مُكَرَّمَة} عِنْد الله.

مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤).

{مَرْفُوعَة} فِي السَّمَاء {مُطَهَّرَة} مُنَزَّهَة عَنْ مَسّ الشياطين.

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥).

{بِأَيْدِي سَفَرَة} كَتَبَة يَنْسَخُونَهَا مِنْ اللَّوْح الْمَحْفُوظ.

كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦).

{كِرَام بَرَرَة} مُطِيعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُمْ الْمَلَائِكَة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: أُنزلت {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)} في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله! أرشدني، وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين؛ فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: "أترى بما تقول بأسًا؟ "، فيقول: لا؛ ففي هذا أنزل.

أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣٢ رقم ٣٣٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣٢)، وأبو يعلى في "المسند" (٨/ ٢٦١ رقم ٤٨٤٨)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٦٩ - "موارد")، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٧)، =

=

والحاكم (٢/ ٥١٤) من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به. وهذا سند صحيح على شرط الشيخين.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة"، وقال الذهبي: "وهو الصواب".

وقال الحافظ العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" (٤/ ٢٤٤): "رجاله رجال الصحيح".

وقال الترمذي: "هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أنزل {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)} في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة".

أخرجه مالك في "الموطأ" (١/ ٢٠٣ رقم ٨ - رواية يحيي)، و (١/ ١٠٥ رقم ٢٧١ - رواية أبي مصعب الزهري)، والطبري في "جامع البيان" (٣/ ٣٣) عن هشام به مرسلًا.

والحديث صححه العلامى الألباني في "صحيح الترمذي"، و"صحيح الموارد" (١٤٨١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)} جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله عز وجل: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)}؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ١٥٦، ١٥٧) -ومن طريقه أبو يعلى في "المسند" (٥/ ٤٣١، ٤٣٢ رقم ٣١٢٣) -: نا معمر عن قتادة؛ قال: قال لي أنس بن مالك به. وهذا سند صحيح على شرط الشيخين وصرح قتادة بالتحديث.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣٣) من طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد

=

=

بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس؛ قال: فذكر الشطر الأخير منه فقط. وسنده صحيح على شرطهما.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)}؛ قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب -وكان يتصدى لهم كثيرًا ويحرص عليهم أن يؤمنوا-؛ فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله! علمني مما علمك الله؛ فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وعبس في وجهه، وتولى وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ وأخذ ينقلب إلى أهله؛ أمسك الله بعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)}؛ فلما نزل فيه؛ أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه، وقال له: "ما حاجتك؟ هل من شيء؟ "، وإذا ذهب من عنده؛ قال له: "هل لك حاجة في شيء؟ "، وذلك لما أنزل الله: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣٢، ٣٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٠٢)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٦) من طريق العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ في مجلس من ناس من وجوه قريش؛ منهم: أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، فيقول لهم: "أليس حسنًا أن جئت بكذا وكذا؟ "، فيقولون: بلى والله، فجاء ابن أم مكتوم وهو مشتغل بهم فسأله؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله ﷻ: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)

=

=

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)}؛ يعني: ابن أم مكتوم.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٦) ونسبه لابن المنذر وابن مردويه.

وعن قتادة في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)}؛ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف، فأعرض عنه؛ فأنزل الله تعالى عليه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)}؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٣٣)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٤٨) عن معمر وسعيد كلاهما عنه به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد وقد تقدم موصولًا من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: أقبل ابن أم مكتوم وهو أعمى -وهو الذي أنزلت فيه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)} وكان رجلًا من قريش -إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! أنا كما تراني قد كبرت سنين ورق عظمي وذهب بصري ولي قائد لا يلائمني قياده إياي؛ فهل تجد لي من رخصة أصلي في بيتي الصلوات؟ فقال رسول الله ﷺ: "هل تسمع المؤذن من البيت الذي أنت فيه؟ "، قال: نعم يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: "ما أجد لك من رخصة، ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها؛ لأتاها ولو حبوًا على يديه ورجليه".

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨/ ٢٢٤ رقم ٧٨٨٦) من طريق الحسين بن أبي السري العسقلاني ثنا محمد بن شعيب ثني أبو حفص القاص ثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: علي بن يزيد؛ متروك.

=

=

الثانية: عثمان بن أبي العاتكة؛ قال فى "التقريب": "ضعفوه في روايته عن علي بن يزيد الألهاني".

الثالثة: الحسين بن أبي السري؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢/ ٤٣): "رواه الطبراني في "الكبير"؛ وفيه علي بن يزيد الألهاني عن القاسم وقد ضعفهما الجمهور، واختلف في الاحتجاج بهما".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٧) وزاد نسبته لابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: كان النبي ﷺ مستخليًا بصنديد من صناديد قريش وهو يدعوه إلى الله وهو يرجو أن يسلم؛ إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، فلما رآه النبي ﷺ؛ كره مجيئه، وقال فى نفسه: "يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد"؛ فعبس؛ فنزل الوحي: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)} إلى آخر الآيات.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤١٨) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {عبس وتولى (١) أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى}.

قال الصاوي: "إنما أتى بضمائر الغيبة: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} تلطفا به -ﷺ- وإِجلالًا له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة الصعوبة".

قال الزجاج:"نزلت في عبد الله ابن أمِّ مكتوم. كان صار إلى النبي ﷺ والنبي يدعو بعض أشراف قريش إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامه غيره، فتشَاغَل عليه السلام بدعائه عن الإقبال على عبد الله بن أم مكتوم، فأمره الله ألا يتشاغَلَ عن الإقبالِ على أَحَدٍ من المسلمين بغيره".

قال الزمخشري:"وفي ذكر «الأعمى»، كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفا وترؤفا وتقريبا

=

وترحيبا، ولقد تأدّب الناس بأدب الله في هذا تأدبا حسنا، فقد روى عن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ أنّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء".

قال ابن كثير: "ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوما يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديما - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعا ورغبة في هدايته. وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ١ - ٣]".

عن هشام، عن أبيه، قال: "نزلت في ابن أمّ مكتوم: "{عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى}".

عن مجاهد: "{أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى}، قال: رجل من بني فهر، يقال له: ابن أمّ مكتوم".

عن قتادة: "{عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى}: عبد الله بن زائدة، وهو ابن أمّ مكتوم، وجاءه يستقرئه، وهو يناجي أُميَّة بن خلف، رجل من عِلْية قريش، فأعرض عنه نبيّ الله ﷺ، فأنزل الله فيه ما تسمعون: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى}، إلى قوله: {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}، ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ استخلفه بعد ذلك مرّتين على المدينة في غزوتين غزاهما يصلي بأهلها".

قال قتادة: "جاء ابن أمّ مكتوم إلى النبيّ ﷺ وهو يكلم أبيَّ بن خَلَف، فأعرض عنه، فأنزل الله عليه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}، فكان النبيّ ﷺ بعد ذلك يُكرمه قال أنس: فرأيته يوم القادسية عليه درع، ومعه راية سوداء".

عن أنس بن مالك: "أنه رآه يوم القادسية معه راية سوداء، وعليه درع له".

=

قال الضحاك:"تصدّى رسول الله ﷺ لرجل من مشركي قريش كثير المال، ورجا أن يؤمن، وجاء رجل من الأنصار أعمى يقال له: عبد الله بن أمّ مكتوم، فجعل يسأل نبيّ الله ﷺ فكرهه نبيّ الله ﷺ وتولى عنه، وأقبل على الغنيّ، فوعظ الله نبيه، فأكرمه نبيّ الله ﷺ، واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين غزاهما".

قال ابن زيد:"جاء ابن أمّ مكتوم إلى رسول الله ﷺ وقائده يبصر، وهو لا يبصر، قال: ورسول الله ﷺ يشير إلى قائده يكفّ، وابن أمّ مكتوم يدفعه ولا يُبصر؛ قال: حتى عبس رسول الله ﷺ، فعاتبه الله في ذلك، فقال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى...} إلى قوله: {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} قال ابن زيد: كان يقال: لو أن رسول الله ﷺ كَتَمَ من الوحي شيئا، كتم هذا عن نفسه، قال: وكان يتصدّى لهذا الشريف في جاهليته رجاء أن يسلم، وكان عن هذا يتلّهى".

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال:"لو أنّ رسول الله ﷺ كتم شيئًا مِن الوحي كتم هذا عن نفسه".

عن الحكم بن عُتيبة، قال: "ما رُئِي رسولُ الله ﷺ بعد هذه الآية متصديًّا لِغنيٍّ، ولا مُعرِضًا عن فقير".

عن أبي أُمامة، قال: "أقبل ابن أُمّ مكتوم الأعمى، وهو الذي نزل فيه: {عَبَسَ وتَوَلّى أنْ جاءَهُ الأَعْمى}. فقال: يا رسول الله، أنا كما ترى قد كَبِرتْ سِنّي، ورقّ عظمي، وذهب بصري، ولي قائد لا يلائمني قياده إياي؛ فهل تجد لي من رخصة أُصلّي الصلوات في بيتي. قال: «هل تسمع المؤذن؟». قال: نعم. قال: «ما أجد لك مِن رخصة»".

عن كعب بن عُجرة: إنّ الأعمى الذي أنزل الله فيه: {عَبَسَ وتَوَلّى} أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أسمع النداء، ولعلّي لا أجد قائدًا. فقال: «إذا سمعتَ النداء فأجب داعي الله».

=

=

- قال ابن عاشور: العبوس بضم العين: تقطيب الوجه وإظهار الغضب.
- قال الرازي: أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى، هو الرسول ﷺ، وأجمعوا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم.
- قال ابن عاشور: وعبر عن ابن أم مكتوم بـ {الأعمى} ترقيقا للنبيء ﷺ ليكون العتاب ملحوظا فيه أنه لما كان صاحب ضرارة فهو أجدر بالعناية به، لأن مثله يكون سريعا إلى انكسار خاطره.
- قال الشنقيطي (أن جاءه الأعمى) عبر الله تعالى عن هذا الصحابي الجليل الذي هو عبد الله بن أم مكتوم بلقب يكرهه الناس مع أنه قال (ولا تنابزوا بالألقاب).
والجواب: هو ما نبه عليه بعض العلماء من أن السر في التعبير عنه بلفظ الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه.
قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣].
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما يدريك يا محمد لعلّ هذا الأعمى الذي عَبَست في وجهه يتطهَّر من ذنوبه".
عن ابن زيد: "{لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}: يسلم".
قال السدي: "المعنى: لعله يزكى ويذَّكَّر".
قال السعدي: "أي: الأعمى، يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة".
قال الزمخشري: "وأيّ شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى؟ {لَعَلَّهُ} يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم.. وقيل: الضمير في {لَعَلَّهُ} للكافر. يعنى: أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام، أو يتذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول

=

=

الحق، وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن".

الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه (لعله يزكى) يتطهر وتزكو نفسه.

قوله تعالى: {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} [عبس: ٤]، أي:"أو يحصل له المزيد من الاعتبار والازدجار".

قال الطبري:"يقول: أو يتذكَّر فيعتبر فينفعه الاعتبار والاتعاظ".

قال الزمخشري:"أو يتعظ {فَتَنْفَعَهُ} ذكراك، أي: موعظتك، وتكون له لطفا في بعض الطاعات. والمعنى: أنك لا تدرى ما هو مترقب منه، من تزكّ أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك".

قال السعدي:"أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره".

قوله تعالى: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٥ - ٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أما من استغنى بماله فأنت له تتعرّض رجاء أن يُسلِم".

قال الزجاج: {تَصَدَّى}، " أي: أنت تقبل عليه".

=

=

قال أبو عبيدة: أي:"تعرّض له".

قال الزمخشري:"تتعرض بالإقبال عليه، والمصاداة. المعارضة".

قال ابن قتيبة:"تعرَّضُ. يقال: فلان يتَصَدَّى لفلان؛ إذا تعرَّضَ له ليراه".

عن سفيان: "{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى}، قال: نزلت في العباس".

عن مجاهد:"{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى}، قال: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة".

قال أبو مالك:"جاءه عبد الله بن أُمّ مكتوم، فعَبس في وجهه وتولّى، وكان يتصدّى لأُميّة بن خلف؛ فقال الله: {أمّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّى}".

وقرئ: «تَصَّدَّى»، بإدغام التاء، فالمعنى -أيضا-: تتَصَدَّى، إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب المخرجين - مخرج التاء مِنَ الصاد.

- قال ابن عاشور: فالمراد بـ (من استغنى) هنا: من عد نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله لأنه أجاب قول النبي ﷺ له: هل ترى بما أقول بأسا، بقوله: لا والدماء... "كناية عن أنه لا بأس به يريد ولكني غير محتاج إليه"...... وليس المراد بـ (من استغنى) من استغنى بالمال إذ ليس المقام في إيثار صاحب مال على فقير.

وهذا الذي تصدى النبي ﷺ لدعوته وعرض القرآن عليه هو على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين الوليد بن المغيرة المخزومي.

قوله تعالى: {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧]، أي:"وأي شيء عليك ألا يتطهر من كفره؟".

قال الطبري:"يقول: وأي شيء عليك أن لا يتطهَّر من كفره فيُسلم؟".

قال الزجاج:"أي: أيّ شيء عليك أن لا يسلم من تَدْعُوه إلى الإسلام".

قال الزمخشري:"وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغ} [الشورى: ٤٨]".

=

=

أي: وما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، كما قال تعالى (ليس عليك هداهم).

والمعنى: عدم تزكيه ليس محمولا عليك، أي لست مؤاخذا بعدم اهتدائه حتى تزيد من الحرص على ترغيبه في الإيمان ما لم يكلفك الله به، وهذا رفق من الله برسوله ﷺ.

قال ابن عاشور:... ويظهر أن النبي ﷺ رجا من ذلك المجلس أن يسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم فكان دخول ابن أم مكتوم قطعا لسلك الحديث وجعل يقول للنبيء ﷺ يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه ويكثر النداء والإلحاح فظهرت الكراهية في وجه الرسول ﷺ لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٨ - ٩].

قال الطبري:"يقول: وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعيا، وهو يخشى الله ويتقيه".

قال الزمخشري:"{يَسْعى}، يسرع في طلب الخير، {وَهُوَ يَخْشى} الله أو يخشى الكفار، وأذاهم في إتيانك. وقيل: جاء وليس معه قائد، فهو يخشى الكبوة".

أي: وأما من جاءك مقبلا (يسعى) في طلب التطهر والموعظة.

قال ابن عاشور: والسعي: شدة المشي، كني به عن الحرص على اللقاء فهو مقابل لحال من استغنى لأن استغناءه استغناء الممتعض من التصدي له....

والمعنى: أنه جاء طلبا للتزكية لأن يخشى الله من التقصير في الاسترشاد.

قوله تعالى: {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١٠].

قال أبو عبيدة: أي:"تغافل بغيره".

قال الطبري:"يقول: فأنت عنه تعرض، وتشاغل عنه بغيره وتغافل".

=

قال الزجاج: "معناه: تَتَشَاغَلُ، يقال: لَهيت عن الشيء ألهى عنه إذا تشاغلت عنه".

قال النحاس: "أي: تتشاغل، وفعل هذا ﷺ طلبا منه لإسلام المشرك".

قال الزمخشري: "إن قلت: قوله: {فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى}، {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}، كأن فيه اختصاصا؟ قلت، نعم، ومعناه: إنكار التصدي والتلهي عليه، أي: مثلك خصوصا لا ينبغي له أن يتصدى للغنيّ ويتلهى عن الفقير".

قال ابن كثير: ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله أن لا يخص بالإنذار واحدا، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

قوله تعالى: {كَلَّا} [عبس: ١١]، أي: "ليس الأمر كما فعلت -أيها الرسول-".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: "ما الأمر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدّى لمن استغنى".

قال الزمخشري: "{كَلَّا} ردع عن المعاتب عليه، وعن معاودة مثله".

قوله تعالى: {إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١]، أي: "إن هذه السورة موعظة لك ولكل من شاء الاتعاظ".

قال قتادة، والسدي: "يعني: القرآن".

قال الزمخشري: "أي: موعظة يجب الاتعاظ والعمل بموجبها".

قال ابن قتيبة: "يعني: السورة".

قال الطبري: "يقول: إن هذه العظة وهذه السورة تذكرة عظة وعبرة".

قال الزجاج: "يعنى به: هذه الموعظة التي وعظ الله بها النبي عليه السلام".

قال ابن كثير: "أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم

=

من شريفهم ووضيعهم".

قال السعدي:"أي: حقا إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي".

قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢]، أي:"فمن شاء ذكر الله وَأْتَمَّ بوحيه".

قال السعدي:"أي: عمل به، كقوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}".

قال ابن قتيبة:"يعني: القرآن".

قال أبو عبيدة: أي:"فمن شاء ذكره القرآن".

قال الطبري:"يقول: فمن شاء من عباد الله، ذكر تنزيل الله ووحيه".

قال ابن كثير:"أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره. ويحتمل عود الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه".

قال الزمخشري:"أي: كان حافظا له غير ناس، وذكر الضمير لأنّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ".

أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره بقلبه ولسانه وجوارحه فاتعظ بذلك، كما قال تعالى (كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره).

وقيل المعنى: أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته.

قال ابن عاشور: وفي قوله (فمن شاء ذكره) تعريض بأن موعظة القرآن نافعة لكل أحد تجرد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ أن يتعظ.

قوله تعالى: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} [عبس: ١٣].

قال الطبري:"يقول: إنها تذكرة {فِي صُحُفٍ} يعني: في اللوح المحفوظ،

=

=

{مُكَرَّمَةٍ} عند الله".

قال ابن كثير: "أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} أي: معظمة موقرة".

قال الزمخشري: "صفة لـ «تذكرة»، يعنى: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح".

قال النحاس: "قيل: يعني به: اللوح المحفوظ. هذا على تفسير ابن عباس لأن سعيد بن جبير روي عنه في معنى {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس ١٥]، أنهم الملائكة".

أي: هذه السورة أو القصة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن في صحف مكرمة: أي معظمة موقرة.

والصحف جمع صحيفة، والمراد بها الصحف التي بأيدي الملائكة، وهي المستنسخة من اللوح المحفوظ، والمعنى أن هذه الآيات مثبتة في صحف مكرمة معظمة عند الله.

قوله تعالى: {مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} [عبس: ١٤]، أي: "عالية القدر مطهرة من الدنس والزيادة والنقص".

قال الطبري: "وهو المرفوع المطهر عند الله".

قال الزمخشري: "{مَرْفُوعَةٍ} في السماء. أو مرفوعة المقدار، {مُطَهَّرَةٍ}: منزهة عن أيدى الشياطين، لا يمسها إلا أيدى ملائكة مطهرين".

قال ابن كثير: "{مَرْفُوعَةٍ}، أي: عالية القدر، {مُطَهَّرَةٍ}، أي: من الدنس والزيادة والنقص".

عن قتادة: "{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ}، قال: هي عند الله".

(مطهرة) من الدنس والزيادة والنقص.

كما قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

=

=

وقال تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

قوله تعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس: ١٥].

وفي قوله تعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس: ١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «السفرة»: الكتبة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ، وعطاء بن أبي رباح، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال قتادة:"بأيدي كتبة".

قال المفضل: "هو مأخوذ من: سفر يسفر سفرًا، إذا كتب".

قال الثعلبي:"ويقال للورّاق: سفّرا -بلغة العبرانية-".

قال القاسم بن سلام:"كتبة -بلغة كنانة-".

قال الزمخشري:"{سَفَرَةٍ}، كتبة ينتسخون الكتب من اللوح".

قال الزجاج:"«السَّفَرَةُ»: الكتبة، يعني: به الملائكة، واحدهم سَافِر وَسَفَرة مثل كاتب وكتبة، وكافر وكفرة، وَإنما قيل للكتاب سَفَرة، وللكاتب سافِر، لأن مَعْنَاه: أنه يبَيِّن الشيءَ وُيوَضحُه، يقال أَسْفَرَ الصُّبْحُ إذَا أضاء، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وَجْهِهَا، ومنه: سَفَرت بين القوم أي كشفت قلب هذا وقلب هذا لأصلح بينهم".

الثاني: أنهم القّراء من الناس، قال قتادة-أيضا- ، لأنهم يقرؤون الأسفار.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: "السفرة بالنبطية: القراء".

الثالث: أنهم أصحاب النبي -ﷺ-. قاله وهب بن منبه.

روي عن عبد الصمد بن معقل، قال: "سمعت عمّي وهب بن منبّه: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ}، قال: هم أصحاب محمد".

قال أبو حيان:"لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والعلم".

=

=

قال ابن العربي:"لقد كان أصحاب محمد كراما بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها؛ بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم".

عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديد فله أجران».

الرابع: أنهم الملائكة،، قاله ابن عباس-أيضا- ، ومجاهد-أيضا- ، وابن زيد ، لأنهم السفرة بين يدي الله ورسله بالرحمة، كما يقال سَفَر بين القوم إذا بلغ صلاحًا، وبه قال النحاس ، والفراء ، وأنشد الأخير:

وما أَدَعُ السِّفارةَ بين قوْمي... وما أَمْشي بغِشٍ إنْ مَشَيْتُ

وقال البخاري: "سَفَرةٌ: الملائكة. سَفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكةُ إذا نزلت بوَحْي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم".

قال الفراء:"هم الملائكة، واحدهم: سافر، والعرب تقول: سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تبارك وتعالى وتأديبه كالسفير الذي يصلح بين القوم".

وقال ابن زيد:"السَّفَرة: الذين يُحْصون الأعمال".

قال النحاس:"ومعروف في كلام العرب أنه يقال: سفر الرجل بين القوم إذا ترسّل بينهم بالصلح. والملائكة سفرة لأنهم رسل الله تعالى إلى أنبيائه صلوات الله عليهم، وهم أيضا كتبة يكتبون أفعال العباد. فهذا كله غير متناقض إلّا أن وهب بن منبّه قال: السّفرة الكرام البررة: أصحاب محمد ﷺ".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الملائكة الذين يَسْفِرون بين الله ورسله بالوحي. وسفير القوم: الذي يسعى بينهم بالصلح، يقال: سفرت بين القوم: إذا أصلحت بينهم... وإذا وُجِّه التأويل إلى ما قلنا، احتمل

=

=

الوجه الذي قاله القائلون: هم الكَتَبة، والذي قاله القائلون: هم القرّاء لأن الملائكة هي التي تقرأ الكتب، وتَسْفِر بين الله وبين رسله".

قوله تعالى: {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦].

قال ابن كثير: "أي: خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد".

قال الزجاج: "«بَرَرَةٍ»: جمع بارّ".

قال يحيى بن سلام: "{كِرَامٍ}، يعني: مسلمين".

قال مقاتل: "{كِرَامٍ}، يعني: مسلمين، وهم الملائكة، {بَرَرَةٍ}، يعني: مطيعين لله- تعالى- أنقياء أبرار من الذنوب، وكان ينزل إليهم من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، إلى الكتبة من الملائكة، ثم ينزل به جبريل إلى النبي- ﷺ-".

قال السعدي: "{كِرَامٍ} أي: كثيري الخير والبركة، {بَرَرَةٍ} قلوبهم وأعمالهم، وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورا".

وفي معنى {كِرَامٍ} [عبس: ١٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها: كرام على ربهم، قاله الكلبي.

الثاني: كرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها. قاله الحسن.

الثالث: يتكرمون على من باشر زوجته بالستر عليه دفاعا عنه وصيانة له، وهو معنى قول الضحاك".

وفي قوله تعالى {بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦]، وجهان:

=

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧).

{قُتِلَ الْإِنْسَان} لُعِنَ الْكَافِر {مَا أَكْفَرَهُ} اِسْتِفْهَام تَوْبِيخ أَيْ مَا حَمَلَهُ عَلَى الْكُفْر.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨).

{مِنْ أَيّ شَيْء خَلَقَهُ} اِسْتِفْهَام تَقْرِير ثُمَّ بينه فقال.

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩).

{مِنْ نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} عَلَقَة ثُمَّ مُضْغَة إِلَى آخِر خَلْقه.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠).

=

أحدهما: مطيعين، قاله السدي.

قال البغوي:"مطيعين، جمع: بار".

الثاني: متقين مطهرين، قاله ابن شجرة.

أي: خلقهم كريم حسن شريف، كرام في أفعالهم، كرام في أخلاقهم، كرام في خلقتهم.

كما قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين)

وبررة في قلوبهم وأعمالهم، أي: بارين مطيعين لله كما قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

- **قال ابن كثير**: ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

- قال السعدي: وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل القراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

{ثُمَّ السَّبِيل} أَيْ طَرِيق خُرُوجه مِنْ بَطْن أمه {يسره}.

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١).

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} جَعَلَهُ فِي قَبْر يَسْتُرهُ.

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢).

{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ} لِلْبَعْثِ.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣).

{كَلَّا} حَقًّا {لَمَّا يَقْضِ} لَمْ يَفْعَل {مَا أَمَرَهُ} بِهِ رَبّه.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤).

{فَلْيَنْظُرْ الْإِنْسَان} نَظَر اِعْتِبَار {إِلَى طَعَامه} كَيْف قُدِّرَ وَدُبِّرَ لَهُ.

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥).

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء} مِنْ السَّحَاب {صَبًّا}.

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦).

{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْض} بِالنَّبَاتِ {شَقًّا}.

فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧).

{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِير.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨).

{وَعِنَبًا وَقَضْبًا} هُوَ الْقَتّ الرَّطْب.

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩).

{وزيتونا ونخلا}.

وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠).

{وَحَدَائِق غُلْبًا} بَسَاتِين كَثِيرَة الْأَشْجَار.

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١).

{وَفَاكِهَة وَأَبًّا} مَا تَرْعَاهُ الْبَهَائِم وَقِيلَ التِّبْن.

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢).

{مَتَاعًا} مُتْعَة أَوْ تَمْتِيعًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي السُّورَة قَبْلهَا {لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} تَقَدَّمَ فِيهَا أَيْضًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧].

عن مجاهد: "{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}، أي: لعن".

وفي «الإنسان» -ها هنا-، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه إشارة إلى كل كافر، قاله مجاهد، وسفيان، وبه قال الطبري.

قال مجاهد: "ما كان في القرآن «قُتِلَ الإنسانُ» أو «فُعل بالإنسان»، فإنما عنِي به: الكافر".

قال سفيان: "بلغني أنه: الكافر".

قال الطبري: "لعن الإنسان الكافر ما أكفره".

قال ابن كثير: "وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم".

الثاني: أنه أمية بن خلف، قاله الضحاك.

الثالث: أنه عتبة بن أبي لهب حين قال: إني كفرت برب النجم إذا هوى، فقال النبي -ﷺ-: «اللَّهم سلّطْ عليه كلبك»، فأخذه الأسد في طريق الشام، قاله عكرمة، وابن جريج، والكلبي، ومقاتل.

عن عكرمة: "{قُتِلَ الإنْسانُ ما أَكْفَرَهُ}، قال: نزلت في عُتبة بن أبي لهب؛ حين قال: كفرتُ بربّ النَّجم إذا هوى. فدعا عليه النبيُّ ﷺ؛ فأخذه الأسد بطريق الشام".

=

=

وفي قوله تعالى: {مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن «ما» تعجب، وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا قاتله الله ما أحسنه، وأخزاه الله ما أظلمه، والمعنى: أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. ذكره الأخفش.

وروي عن ابن جريج: "{ما أَكْفَرَهُ}، قال: ما أشدّ كفره!". وروي عن الكلبي مثله.

الثاني: أن «ما» الاستفهام، تعني: أي شيء يحمله على الكفر، قاله السدي، ويحيى بن سلام، وحكاه الثعلبي والبغوي عن الكلبي، ومقاتل.

الثالث: ما ألعنه، قاله قتادة.

وفي قوله (ما أكفره) فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: هي تعجب من إفراطه في كفران نعم الله.

القول الثاني: (ما) استفهامية أي: ما الذي حمله على الكفر؟

القول الثالث: ما أشد كفره، ولعل هذا أقربها لقوله قبل (قتل الإنسان).

- قال ابن عاشور: وجملة (ما أكفره) تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد... وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان... ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كما وكيفا، ومتى، لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه ﷺ وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد.... (التفسير)

قوله تعالى: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [عبس: ١٨].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: من أي شيء خلق الإنسان الكافر ربه حتي يتكبر ويتعظم عن طاعة ربه، والإقرار بتوحيده".

=

=

قال الزجاج:"على لفظ الاستفهام، ومعناه: التقرير".
أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى ينكر على ربه؟
قوله تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٩].
قال الطبري:"ثم بيّن جلّ ثناؤه الذي منه خلقه، فقال: {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} أحوالا نطفة تارة، ثم عَلَقة أخرى، ثم مُضغة، إلى أن أتت عليه أحواله وهو في رحم أمه".
قال ابن كثير: {فَقَدَّرَهُ}، " أي: قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد".
عن عكرمة:"{فَقَدَّرَهُ}، قال: قدَّره في رَحِم أمه كيف شاء".
قال مقاتل:"فأعلمه كيف خلقه ليعتبر في خلقه".
عن السدي:"ماء الرجل وماء المرأة إذا اختلطا فهما نطفة".
والنطفة الماء القليل، أي: من ماء قليل، وهو مني الرجل والمرأة.
كما قال تعالى (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين).
وقال تعالى (ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى).
وقال تعالى (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون).
(فقدره) أي: قدر أجله ورزقه وعمله وشقي وسعيد، وأيضا قدر خلقه أطوارا: نطفة ثم علقة ثم مضغة.
كما في حديث ابن مسعود قال ﷺ (... ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد).
- قال الرازي قوله تعالى (فقدره) وفيه وجوه:

=

=

أحدها: قال الفراء: قدره أطوارا نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكرا أو أنثى وسعيدا أو شقيا.

وثانيها: قال الزجاج: المعنى قدره على الاستواء كما قال (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا).

وثالثها: يحتمل أن يكون المراد وقدر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته، ونظيره قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا).

قوله تعالى: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [عبس: ٢٠].

قال الطبري:"ثم يسَّره للسبيل، يعني للطريق".

وفي تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [عبس: ٢٠]، وجهان:

أحدها: خروجه من بطن أمه، قاله ابن عباس ، وأبو صالح ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وسفيان ، والسدي ، وبه قال الطبري.

قال أبو صالح:"سبيل الرحم".

قال قتادة، والسدي:"أخرجه من بطن أمه".

قال قتادة:"خروجه من بطن أمه".

قال ابن عباس:"يعني بذلك: خروجه من بطن أمه يسَّره له".

قال مقاتل:"يعني: هون طريقه في الخروج من بطن أمه".

الثاني: سبيل السعادة والشقاوة، وهو كقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣]. قاله مجاهد ، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد. وبه قال ابن كثير.

قال الحسن: سبيل الخير".

قال مجاهد:" {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} ، قال: هو كقوله: {إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِرًا وإمّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣] الشقاء والسعادة".

=

=

وقال السدي:"يعني: طريق الحق والباطل".

قال ابن زيد:"هداه للإسلام الذي يسَّره له، وأعلمه به، والسبيل سبيل الإسلام".

قال ابن كثير:"وهذا هو الأرجح".

والصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسَّره، لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده.

(ثم السبيل يسره) فيها قولان:

القول الأول: ييسر عليه خروجه من بطن أمه، ورجحه ابن جرير.

وقيل: بين له طريق الخير والشر.

كما قال تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه، وهذا اختاره ابن كثير.

- قال في التسهيل (ثم السبيل يسره) وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: يسر سبيل خروجه من بطن أمه.

والآخر: أنه سبيل الخير والشر لقوله (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا).

والثالث: سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان، والأول أرجح لعطفه على قوله (من نطفة خلقه فقدره).

قوله تعالى: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١].

قال ابن كثير:"أي: إنه بعد خلقه له {أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}، أي: جعله ذا قبر".

قال الطبري:"يقول: ثم قَبَضَ رُوحه، فأماته بعد ذلك، وصيره ذا قبر، والقابر: هو الدافن الميت بيده.. والمقبر: هو الله، الذي أمر عباده أن يقبروه بعد وفاته، فصيره ذا قبر".

=

=

قال الفراء:"جعله مقبورا، ولم يجعله ممن يُلْقَى للسباع والطير، ولا ممن يلقى فِي النواويس، كأن القبر مما أكرم المسلم بِهِ، ولم يقل: فقبره لأنّ القابر هُوَ الدافن بيده، والمُقبِر: الله تبارك وتعالى لأنه صيره ذا قبر، وليس فعله كفعل الآدمي".

قال أبو عبيدة: أي: "أمر بأن يقبر، قالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن: «أقبرنا صالحا. قال: دونكموه»، والذي يدفن بيده هو القابر قال الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتا إلى نَحْرِها... عاشَ وَلمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ".

قال قتادة: «أذل الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء».

أي: ثم بعد أن أحياه ﷻ ما شاء من العمر أماته بقبض روحه.

(فأقبره) أي: جعله ذا قبر، يواري جسده سترا وإكراما له وتشريفا واحتراما، فابن آدم يموت فيقبر، كما قال سبحانه وتعالى (ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء ؟وأمواتا).

- قال الألوسي (ثم أماته فأقبره) أي جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحا على الأرض يستقذره من يراه وتقتسمه السباع والطير إذا ظفرت كسائر الحيوان والمراد من جعله إذا قبر أمره ﷻ بدفنه يقال قبر الميت إذا دفنه بيده.

- وقال السعدي: أي أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات، التي تكون جيفها على وجه الأرض.

- قال ابن عاشور: وفي الآية دليل على أن وجوب دفن أموات الناس بالإقبار دون الحرق بالنار كما يفعل مجوس الهند، ودون الإلقاء لسباع الطير في ساحات

=

=

في الجبال محوطة بجدران دون سقف كما كان يفعله مجوس الفرس وكما كان يفعله أهل الجاهلية بموتى الحروب والغارات في الفيافي إذ لا يواروهم بالتراب.

* الحكمة من دفن الميت.

دفن الميت شرع لعلتين:

الأولى: إرجاع للميت إلى أصل خلقته الأولى، التي يخرج ويبعث منها؛ كما قال تعالى: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥)} [طه: ٥٥].

الثانية: ستر سوءته عن الناس ألا يتأذوا منها، ولا ينظروا إليها، ولا يكره هو أن يكون كذلك لو كان حيا. وسوءته هنا سوءتان:

الأولى: عورة جسمه المحسوسة بالبصر؛ وهي محرمة الكشف والنظر للحي والميت سواء، ويروى في الخبر؛ من حديث علي بن أبي طالب؛ أن النبي ﷺ قال: (لا تبرز فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت)؛ رواه أحمد وأهل السنن.

الثانية: عورته المحسوسة بالشم لنتنها.

فشرع الدفن لستر ما يسوء الناس مه وما يسوءه هو أن يكون منه ومن غيره ذلك.

* وضع الميت في البحر: ومن لم يجد ترابا يدفن فيه الميت؛ كمن كان في سفينة في البحر ولم يجد أرضا يدفن فيها وطال سيره وخشي نتن الجسد وفساده، جاز له أن يغسله ويكفنه كما يصنع به لو كان في بلده ثم يرمي به في البحر، ولا يجوز لهم الاستعجال برميه حتى يخشى عليه تمزق الجسد وشدة النتن، فقد مات أبو طلحة الأنصاري في البحر، فانتظروا فيه سبعة أيام حتى بلغوا جزيرة فدفنوه ولم يتغير؛ كما رواه ابن حبان وأبو يعلى.

ويفضل أن يوضع فيه ثقل حتى يصل إلى القاع حتى لا يطفو على سطح الماء،

=

=

وإنما ينزل إلى قاعه فيجتمع عليه تراب البحر فيدفنه.

وبعض فقهاء الشافعية استحب أن يكون بين لوحين ليطفو؛ فربما رماه البحر إلى شاطئ، فيراه الناس فيدفنونه؛ وهذا اجتهاد يحكمه الحال وقرب المكان، والله أعلم.

وكذلك من كان في البلدان الجليدية التي لا تراب فيها وتعذر ذلك، جاز دفنه في الجليد كما يدفن في التراب، والدفن في الجليد أولى من الرمي في البحر.

والماء بدل عن التراب في الدفن، كما أن التراب بدل عن الماء في الطهارة، والله أعلم.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ} [عبس: ٢٢].

قال الطبري: "يقول: ثم إذا شاء الله أنشره بعد مماته وأحياه، يقال: أنشر الله الميت بمعنى: أحياه، ونشر الميت بمعنى حيي هو بنفسه".

قال ابن كثير: "أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠]، {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا} [البقرة: ٢٥٩]".

قال أبو عبيدة: {أَنْشَرَهُ}: أحياه، وأنشر الميت: حيي نفسه. قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا... يا عجبا للميّت الناشر".

قال الفراء: "أنشر الله الموتى فنشروا إذا حيوا.. وسمعت بعض بني الحارث يقول: «كان به جرب فنشر»، أي: عاد وحيي".

عن قتادة في قوله: "{لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٠]، أي: بعثا ولا حسابا".

عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: "يأكل الترابُ كلَّ شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبه، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: "مثل حبة خردل منه ينشئون".

قال عكرمة: "إذا اختلف الناسُ في حرفٍ فانظر نظرةً مِن القرآن، فقِسْ عليه، ولا

=

=

تَقسْ القرآن على الشِّعر ولا غيره، مثل قوله جلّ وعلا: {وانظر إلى العظام كيف ننشزها} [البقرة: ٢٥٩]، {إذا شاء أنشره} [عبس: ٢٢]، {يومهم الذي فيه يصعقون} تصديق: {فصعق من في السموات ومن في الأرض} [الزمر: ٦٨]".

أي: ثم متى شاء ﷻ بعثه وأحياه بعد موته للحساب والجزاء.

كما قال تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون).

فالنشور يطلق على البعث كما في الحديث (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور).

قوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣].

قال عطاء عن ابن عباس: {كَلَّا}: "يريد لا يؤمن الكافر أن الله يبعثه".

وروي عن الحسن:"{كَلَّا}، قال: أي: حقا لم يقض". وفي رواية:"حتما".

وفي قوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها: المعنى: {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}، أي: بعثه، {كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}، أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجَدُ منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم. قاله ابن كثير.

وفي هذا المعنى روي عن وهب بن مُنَبّه قال: "قال عُزَير، عليه السلام: قال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطنُ الأرض، وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق وتمت هذه القبورُ التي مَدّ الله لها، انقطعت الدنيا ومات من عليها، ولفظت الأرض ما في جوفها، وأخرجت القبورُ ما فيها".

قال ابن كثير:"وهذا شبيه بما قلنا من معنى الآية".

الثاني: أنه الكافر لم يفعل ما أمر به من الطاعة والإيمان، وبه قال يحيى بن سلام، والطبري.

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدّى حقّ الله عليه، في نفسه وماله، لم يؤدّ ما فرض عليه من الفرائض ربُّه".

الثالث: أنه على العموم في المسلم والكافر.

قال مجاهد: "لا يقضي أحد أبدًا ما افتُرِض عليه.- وقال الحارث-: كلّ ما افترض عليه". وروي عن قتادة نحوه.

وقال ابن عباس:"لما يقض ما أمره لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم".

قال الماوردي:"ويحتمل وجه حمله على العموم أن الكافر لا يقضيه عمرًا، والمؤمن لا يقضيه شهرًا".

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤].

قال ابن كثير:"فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عَظَاما بالية وترابا متمزقا".

وفي قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: إلى طعامه الذي يأكله وتحيا نفسه به، من أي: شيء كان، قاله مجاهد ، وبه قال يحيى بن سلام ، والطبري.

عن مجاهد، قوله: "{فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} : آية لهم".

قال مجاهد: "{فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} : إلى مأكله ومشربه".

قال الطبري:"فلينظر هذا الإنسان الكافر المُنكر توحيد الله إلى طعامه كيف دبَّره".

قال الزجاج:"أي: فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه وطعام جميع الحيوان الذي جعله الله سببًا لحياتِهِمْ".

الثاني: ما يخرج منه أي شيء كان؟ ثم كيف صار بعد حفظ الحياة وموت

=

=

الجسد.

قال الحسن: " {فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} : ملك يثني رقبة ابن آدم إذا جلس على الخلاء لينظر ما يخرج منه".

عن ابن الوليد قال: "سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر إلى ما يخرج منه، قال: يأتيه الملك فيقول انظر إلى ما بخلت به إلى ما صار؟".

عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مطعم ابن آدم جعل مثلا للدنيا وان قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير»".

روي عن الضحاك بن سفيان الكلابي: "إن النبي ﷺ قال له: «يا ضحاك ما طعامك؟» قال: يا رسول الله اللحم واللبن، قال: «ثم يصير إلى ماذا؟» قال: إلى ما قد علمت. قال: «قال الله سبحانه وتعالى: ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا»".

ويحتمل إغراؤه بالنظر إلى وجهين:

أحدهما: ليعلم أنه محل الأقذار فلا يطغى.

الثاني: ليستدل على استحالة الأجسام فلا ينسى.

أي: فلينظر الإنسان إلى طعامه، ويتأمل فيه، من أين هو، ما هي أسبابه ومراحله، ليعلم أن وراء ذلك خالقا عظيما ومدبرا حكيما.

- قال القرطبي: وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد.

كما قال تعالى (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير).

قوله تعالى: {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [عبس: ٢٥].

قال الطبري:"يقول: أنا أنزلنا الغيث من السماء إنزالا وصببناه عليها صبا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: أنزلناه من السماء على الأرض".

عن ابن عباس:"{إنا صببنا الماء صبا} قال: المطر".

قوله تعالى: {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [عبس: ٢٦]، أي:"ثم شققناها بما أخرجنا منها من نبات شتى".

قال الطبري:"يقول: ثم فتقنا الأرض فصدّعناها بالنبات".

قال ابن كثير:"أي: أسكناه فيها فدخل في تُخُومها وتَخَلَّل في أجزاء الحب المودعَ فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض".

عن ابن عباس:"{ثم شققنا الأرض شقا} عن النبات".

أي: ثم شققنا الأرض للنبات (شقا) كثيرا فنبت ونما وظهر على وجه الأرض.

قوله تعالى: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [عبس: ٢٧ - ٢٨].

قال الطبري:" {حَبًّا}، حبّ الزرع، وهو كلّ ما أخرجته الأرض من الحبوب كالحنطة والشعير، وغير ذلك {وَعِنَبًا}: وكرم عنب. {وَقَضْبًا}: الرطبة، وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب".

قال الزمخشري:"الحب: كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما. والقضب: الرطبة، والمقضاب: أرضه، سمى بمصدر قضبه إذا قطعه، لأنه يقضب مرّة بعد مرّة".

قال ابن كثير:"فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف والقضب هو: الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. ويقال لها: القَتّ أيضا".

عن ابن عباس، قوله: "{وَقَضْبا}، يقول: الفِصفِصة".

قال قتادة:"القضب: الفصافص".

قال الضحاك:""يعني: الرطبة".

قال أبو جعفر -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "الفِصفصة: الرَّطبة".

=

=

قال الحسن:"القضب: العَلَف".

(فأنبتنا فيها حبا) هذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها.

(وعنبا) يأكلونه طريا وجافا، وهو من أفضل وأنفع الفواكه، ولهذا خصه بالذكر من بين الفواكه.

كما قال تعالى (إن للمتقين مفازا. حدائق وأعنابا) مع الفرق الشاسع بين عنب الجنة وعنب الدنيا.

(وقضبا) القضب: هو العلف الذي تأكله الدواب من القت وغيره.

قوله تعالى: {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا} [عبس: ٢٩].

قال الطبري:" {وَزَيْتُونًا}: وهو الزيتون الذي منه الزيت".

قال ابن كثير:" {وَزَيْتُونًا}، وهو معروف، وهو أدْمٌ وعصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به. {وَنَخْلا}، يؤكل بلحا بسرا، ورطبا، وتمرا، ونيئا، ومطبوخا، ويعتصر منه رُبٌّ وخل".

و الزيتون من أفضل الأشجار وأكثرها بركة يؤكل ثمرها، ويتخذ زيتها أدما، ويستشفى به.

(ونخلا) يؤكل ثمرها بسرا ورطبا وتمرا، وهي من أفضل وأبرك الأشجار، وقد قال ﷺ (إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن.... هي النخلة).

قوله تعالى: {وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [عبس: ٣٠].

قال الطبري:" {وَحَدَائِقَ}: الحديقة البستان المحوّط عليه. وقوله: {غُلْبا}، يعني: غلاظا، أي: أشجارا في بساتين غلاظ".

وروي عن مجاهد: {وَحَدَائِقَ غُلْبًا}، قال: طيبة".

واختلف في معنى «الحدائق»، على ثلاثة أقوال

أحدها: أنها ما التفّ واجتمع، قاله ابن عباس.

=

=

قال مقاتل:"يعني: الشجر الملتف الشجرة التي يدخل بعضها في جوف بعض".

قال الزجاج:"«حدائق»: واحدتها: حديقة، وهي البساتين، والشجر الملتف".

الثاني: أنه نبت الشجر كله. رواه عصام عن أبيه.

وعن ابن عباس:"{وَحَدَائِقَ غُلْبًا}، قال: الشجر يستظلّ به في الجنة".

الثالث: أنه ما أحيط عليه من النخل والشجر، وما لم يحط عليه فليس بحديقة. حكاه أبو صالح.

وفي معنى: «الغُلب»، أقوال:

أحدها: أن الغُلب: الطوال. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس: "{وَحَدَائِقَ غُلْبًا}، يقول: طوالا".

الثاني: أن «الغُلب»: النخل الكرام. قاله قتادة.

الثالث: أن «الغلب»: عظام النخل العظيمة الجذع، والغلب من الرجال: العظام الرقاب، يقال: هو أغلب الرقبة: عظيمها. وهذا قول عكرمة، وابن زيد.

وعن عكرمة: "{حَدَائِقَ غُلْبًا}، قال: عظام الأوساط". وفي لفظ «غلاظ الأوساط».

قال عكرمة:"غلاظ الرقاب، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب.

قال أبو عبيدة:"يقال: نخلة وشجرة غلباء. إذا كانت غليظة".

قال الزجاج:"{غُلْبًا}، معناه: مُتَكاثِفَة عِظام".

قال الزمخشري:"يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء، فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها، كما تقول: حديقة ضخمة، وأن يجعل شجرها غلبا، أي: عظاما غلاظا. والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستعير".

قال الطبري:"«الغلب»: جمع: أغلب، وهو الغليظ الرقبة من الرجال؛ ومنه قول

=

=

الفرزدق:

عَوَى فأثارَ أغْلَبَ ضَيْغَميًّا... فَوَيْل ابْنِ المَراغَةِ ما اسْتثارَا".

وأطلق على الحديقة حديقة لإحداقها بمن فيها، فلا يكاد يرى.

قال ابن عاشور: وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف، ولأنها تجمع أصنافا من الأشجار.

قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٣١].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَأَبًّا} [عبس: ٣١]، وجوه:

أحدها: أن «الأبّ»: ما تأكله البهائم من العشب والنبات، و «الفاكهة»: ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وبه قال أبو عبيدة، والزجاج، والطبري، قال الشاعر في مدح النبي -ﷺ-:

لَهُ دَعْوةٌ مَيْمُونةٌ رِيحُهَا الصَّبا... بِهَا يُنْبِتُ اللهُ الحَصِيدةَ والأَبَّا

عن ابن عباس، قال: "عدّ سبعا جعل رزقه في سبعة، وجعله من سبعة، وقال في آخر ذلك: الأبّ: ما أنبتت الأرض مما لا يأكل الناس".

قال ابن عباس:"الأبّ: نبت الأرض مما تأكله الدوابّ، ولا يأكله الناس".

قال ابن عباس:"الأب: ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس".

قال ابن عباس:"الأب: الحشيش للبهائم".

قال ابن عباس:"الأبّ: الكلأ والمرعى كله".

قال الحسن:"الأبّ: العشب".

عن الحسن: "{وَفاكِهَةً}، قال: ما يأكل ابن آدم". " «الأبّ»: ما تأكل الأنعام".

عن مجاهد: "{وَفاكِهَةً}، قال: ما أكل الناس". " «الأبّ»: ما أكلت الأنعام".

قال مجاهد:"الأبّ: المرعى".

=

=

قال قتادة:"أما الفاكهة فلكم"."أما «الأبّ»: فلأنعامكم، نعم من الله متظاهرة".
قال ابن زيد:"الفاكهة لنا". " {وأَبًّا}: هو ما تأكله الدواب".
قال ابن زيد:"الأبّ: لأنعامنا، والأبّ: ما ترعى. وقرأ: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}".
عن الضحاك:"{وأبًّا}، يعني: المرعى". وفي رواية:"الأبّ: هو التِّبْن".
عطاء بن أبي رباح، قال: "كلّ شيء يَنبتُ على ظهر الأرض فهو الأبّ".
قال عكرمة:"الأبّ: ما تأكل الدوابُّ".
قال أبو مالك:"الأبّ: الكلأ".
قال الزجاج:"الأب: جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشيةُ، وذكر الله ﷻ من آياته ما يدل على وحدانيته في إنشاء ما يغذو جميع الحيوان".
قال أبو عبيدة:"وأما الأبّ: كل مرعى للهوام".
الثاني: أن «الأب»: كل شيء ينبت على وجه الأرض، قاله الضحاك.
الثالث: أن «الأب»: الثمار الرطبة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
الخامس: أن «الأب»: التبن خاصة، وهو يحكي عن ابن عباس -أيضًا- ، قال الشاعر:
فما لَهم مَرْتعٌ للسّوا... م والأبُّ عندهم يُقْدَرُ
السادس: أن رطب الثمار هو الفاكهة، ويابسها الأبّ. حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.
السابع: أن الأبّ ما أخلف مثل أصله كالحبوب، والفاكهة ما لم يخلف مثل أصله من الشجر. أفاده الماوردي.
قال ابن عطية:"في اللفظة غرابة، وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-".
عن إبراهيم التيمي:"إن أبا بكر سئل عن قوله: {وَفاكِهَةً وَأَبًّا}، فقال: أي سماء

=

=

تظلّني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم".

روي عن أنس، قال: "قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}، فلما أتى على هذه الآية: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، قال: قد عرفنا الفاكهة. فما الأبّ؟ قال: لعمرك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلف".

عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدثه أنه سمع عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: "قال الله: {وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، كلّ هذا قد علمناه، فما الأبّ؟ ثم ضرب بيده، ثم قال: لعمرك إن هذا لهو التكلف، واتبعوا ما يتبين لكم في هذا الكتاب، قال عمر: وما يتبين فعليكم به، وما لا فدعوه".

قال الماوردي: "وهذا مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم فهم كنبات الزرع بعد دثوره، وتضمن امتنانًا عليهم بما أنعم".

قوله تعالى: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس: ٣٢].

قال الطبري:"يقول: أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس، ومنفعة تتمتعون بها، وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم، وأصل الأنعام الإبل، ثم تستعمل في كلّ راعية".

قال ابن كثير:"أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة".

قال الحسن:"متاعا لكم الفاكهة، ولأنعامكم العشب".

قال الزجاج:"{مَتَاعًا} منصوب، مصدر مؤكد لقوله: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا} الأشياء التي ذكرت، لأن إنباته هذه الأشياء قد أمتع بها الخلق من الناس وجميع الحيوان".

قال الحسن:"{مَتَاعًا لَكُمْ}: الفاكهة، {وَلِأَنْعَامِكُمْ}: العشب".

** تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الجنائز.

* أفتوا بأن الصبر على المصيبة واجب.

=

=

* وأفتوا بأن المصائب من الأمراض والعاهات والأحزان سبب في حط خطايا الذنوب وتكفير السيئات إذا وفق صباحها للصبر.
* واختار أصحاب الفضيلة عدم مشروعية تلقين الميت بعد الدفن ولا قبله بل هو بدعة وكل بدعه ضلالة والأحاديث الواردة في ذلك غير صحيحة.
* وأفتوا بمشروعية تلقين المحتضر قبل خروج روحه ليكون آخر كلامه (لا إله إلا الله).
* وأفتوا بأن تشييع الجنازة بالصوت كقول (وحدوه) أو (اذكروا الله) ونحو ذلك من البدع والمحدثات التي لا أصل لها.
* وأفتوا بتحريم وطء القبر والجلوس عليه.
* وأجاز أصحاب الفضيلة قطع شجر المقبرة إذا ادعت الحاجة لذلك.
* وأفتوا بوجوب تسديد ديون الميت قيل قسمة التركة.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن حديث: "نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه " محمول على من ترك مالًا يقضى منه دينه ، أما من لا مال له يقضى منه فيرجى ألا يتناوله هذا الحديث ، وكذلك من بيت النية الحسنة بالأداء عند الاستدانة ومات لم يتمكن من الأداء لحديث: "ومن أخذها يريد أداءها أدى الله عنه".
* وأفتوا بأن الديون المؤجلة التي لم يحل وقت سدادها لا يلزم تعجيل سدادها.
* وأفتوا بأن المرأة بسبب الولادة فإن لها حكم الشهادة في الآخرة.
* وذكروا بأن السنة في حق بمن كان عند المحتضر أن يوجه إلى القبلة وأن يغمض عينيه إذا تحقق وفاته وأن يدعو له بخير.
* وأفتوا بأن مؤن التجهيز من حقوق المتعلقة بالتركة.
* وأفتوا بأن نصب السرادقات للمعزين وصنع الطعام لهم منم المحرمات بل

=

=

السنة أن يصنع الجيران الطعام لأهل الميت.

* وذكر أصحاب الفضيلة بأن المسلم إذا مات فإنه يشرع شد لحييه ونزع ثيابه وتسجيته بثوب ونحوه ، والإسراع في تجهيزه ، ابتداء بغسله الغسل الشرعي فيغسل يديه ثم ينجيه ثم يوضؤه وضوء الصلاة ثم يغسل رأسه ولحيته بماء وسدر أو نحوه من صابون أو أشتان ، ثم يفيض المرء على شقه الأيمن ثم الأيسر ثم يغسله كذلك مرة ثانية وثالثة وإن لم ينق زاد إلى خمس أو سبع ويجعل في الغسلة الأخيرة كافورًا إن تيسر ، ويجعل الطيب بعد في مغابنه ومواضع سجوده وإن طيبه كله فحسن ، وإن اكتفى بغسلة واحدة جاز ذلك والمرأة يضفر رأسها ثلاثة قرون وتجعل من ورائها ، ثم يكفن في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ، يدرج فيها إدراجًا ويجوز أن يكفن في قميص أو إزار ولفافة فقط ، والمرأة تكفن في خمسة أثواب ، في درع ومقنعة وإزار ولفافين وإن كفنت في لفافة واحد جاز.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن صفة صلاة الجنازة كما يلي: أن يكبر الإحرام ويقرأ الفاتحة ، ثم يكبر ويصلي على النبي ﷺ ، ثم يكبر ويدعوا للميت والأفضل أن يكون بالدعاء المأثور وهو " اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده، اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعفوا عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرا من أهله وأدخله الجنة وقه فتنة القبر وعذاب النار " ثم يكبر الرابعة ويسلم تسليمة واحدة عن يميه.

* وأفتوا بأن اللحد أفضل ن الشق إلا إذا تعذر فيشق له.

=

=

* وأفتوا باستحباب وقوف الحاضرين بعد الدفن عند القبر قليلًا ليستغفروا للميت ويدعون له.

* وأفتوا بتحريم إقامة المآتم.

* وأفتوا بجواز صلاة الجنازة على القبر إما شهرين من دفنه.

* وأفتوا بأن المسلم لا يدفن في مقابر النصارى ولا غيرهم من الكفرة.

* وأفتوا بأن أسنان الذهب على الميت تخلع قبل تكفينه إن لم يكن ثمة ضرر.

* وأفتوا بأن الميت عند تغسيله لا بد أن يوضع على سرير مرتفع لئلا يعلق به شيء من الأذى.

* وأفتوا بأن تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه فرض كفاية.

* وأفتوا بأنه لا يحضر الميت عند تغسيله إلا الغاسل ومن يحتاجه في الإعانة فقط.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للغاسل أن يمس عورة الميت إلا لضرورة

* وأفتوا بعدم جواز كشف وجه الميت في القبر ذكرا كان أو أنثى لعدم الدليل.

* وأفتوا بأنه ليس من السنة وضع شيء في طينة القبر بعد خلطه بالماء عند رأس الميت ، بل ذلك من البدع.

* وأفتوا بجواز تغسيل الرجل لزوجته فقط ، وأما غيرها من الإناث فلا يجوز إلا الطفلة الصغيرة التي ماتت دون سبع سنوات.

* وأفتوا بأن المرأة إذا ماتت بين رجال ليس فيهم زوجها فإنها تيمم فقط.

* وأفتوا بأنه يجوز للزوجة أن تغسل زوجها.

* وأفتوا بأن الولد لا يجوز له تغسيل أمه وإن كانت كبيرة في السن.

* وأفتوا بجواز تولي الزوج دفن زوجته.

* وأفتوا بأن الحائض يجوز لها تغسيل من مات من النساء.

=

=

* وأفتوا بأن من مات من الصغار قبل ختانه فإنه لا يشرع ختانه بعد موته.

* وأفتوا بجواز تقبيل الميت قبل دفنه.

* وذكروا أن كل ميت تعذر غسله فإنه ييمم.

* واختار أصحاب الفضيلة عدم جواز تأخير الدفن لانتظار أحد من الناس.

* وأجازوا تأخير الدفن لضرورة أمنية ونحوها.

* واختار أصحاب الفضيلة أن الشهيد في المعركة لا يغسل ولا يصلى عليه.

* واختار أصحاب الفضيلة أن المقتول ظلما يغسل ويصلى عليه.

* ورجا أصحاب الفضيلة لمن مات بحادث سيارة أن يكون شهيدًا لأنه قريب من صاحب الهدم.

* وأفتوا عند اختلاط أموات المسلمين بموتى الكفار أن يغسل الجميع ويكفنون ويصلى عليهم بنية المسلمين منهم.

* وأفتوا بأن اجتماع الناس للدعاء للميت في غير صلاة لا يجوز.

* وأفتوا بأن عباد الأضرحة ودعاة الأموات لا يغسلون ولا يكفنون ولا يصلى عليهم.

* وأفتوا بمشروعية رفع اليدين مع تكبيرات الجنازة.

* وأفتوا بأن صلاة الجنازة يتحلل منها بتسليمة واحدة عن يمينه، وهذا هو الذي تتابع العمل عليه من الصحابة والتابعين ولم يعرف بينهم خلاف في ذلك.

* وأفتوا بوجوب المسارعة في قضاء الدين عن الميت فإن تعذر الوفاء فلا يكون ذلك مانعا من الصلاة عليه.

* وأفتوا بجواز الصلاة على الجنازة داخل المقبرة.

* وأفتوا بجواز الصلاة على جنازتين إحداهما حاضرة والأخرى غائبة، فيصلي بنيتهما.

=

=

* وأفتوا بأنه يصلى على قاتل نفسه إلا أنه ينبغي للسلطان وأهل العلم والدين أن يتخلفوا عن الصلاة عليه زجرًا للعامة عن فعله.
* واعتمد أصحاب الفضيلة ما تقرر عند أهل السنة من أن مرتكب الكبيرة لا يكفر بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وهو في الآخرة تحت المشيئة.
* وأفتى أصحاب الفضيلة بجواز الدفن ليلًا إلا إذا كان في ذلك إخلال بحقوق الميت من الصلاة عليه أو إساءة كفنه أو دفنه.
* وأفتوا بأن ما فات من صلاة الجنازة يقضى على صفته ويكون ما يدركه المأموم مع إمامه أول صلاته ، فإذا أدركه في الثالثة فتكون هي الأولى في حقه وهكذا وليحرص على قضاء ما فاته قبل رفع الجنازة.
* وأفتوا بأنه لا يجوز أن يدفن مسلم قبل الصلاة عليه.
* وأفتوا بجواز دعاء الأقارب والجيران وأهل الدين من أهل البلد للصلاة على الجنازة.
* وأفتوا بجواز صلاة الجنازة في أوقات النهي لأنها من ذوات الأسباب.
* وأفتوا بأن السقط إذا نفخ فيه الروح فإنه يغسل ويصلى عليه ، ويسمى ويدفن وذلك يكون بعد أربعة أشهر من حمله ، وأما قبل ذلك فلا يغسل ولا يصلى عليه.
* وأفتوا بأن أطفال المسلمين إذا ماتوا وهم صغار أنهم يعاملون معاملة آبائهم ، فمن كان أبواه مسلمين عومل معاملة المسلمين ومن كان أبواه كافرين عومل معاملة الكفار.
* واختار أصحاب الفضيلة أن أطفال الكفار في الآخرة أمرهم إلى الله تعالى ، فالله أعلم بما كانوا عاملين ، وأما أطفال المسلمين فهم مع آبائهم في الجنة.
* وأفتوا بأن تارك الصلاة إذا مات مصرا فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه.
=

=

* وأفتوا بأن شارب الدخان والخمر وولد الزنا يصلى عليهم لأنهم من جملة المسلمين.

* وأفتوا بأن من مات في حد أو قصاص فإنه يصلى عليه.

* واختار أصحاب الفضيلة أن الحدود كفارات للذنوب التي أقيمت من أجلها.

* وأفتوا بجواز صلاة المرأة على الجنازة وتكون صفوفهن خلف الرجال.

* واختار أصحاب الفضيلة جواز الصلاة على الغائب إذا كان له شأن في الإسلام.

* وأفتوا بأن حمل الجنازة فرض كفاية.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه لا يعلم دليل على مشروعية كشف وجه الميت في القبر.

* واختار أصحاب الفضيلة وجوب قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة.

* وأفتوا بوجوب الصلاة على النبي ﷺ بعد التكبيرة الثانية، وبوجوب الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن السنة هي تعميق القبر تعميقًا يمنع خروج الريح ومن حفر السباع له، أي بقدر قامة تقريبًا.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن المستحب في دفن الميت أن يدخل رأسه من الجهة التي ستكون فيها رجلا من القبر إن تيسر ذلك، ثم يسل سلا حتى يتم وضعه في لحده، ويوضع الميت في اللحد على جنبه الأيمن مستقبلا القبلة بوجهه ويوضع تحت رأسه شيء مرتفع، لبنة أو حجر أو تراب، ويدنى ممن الجدار القبلي من القبر لئلا ينقلب على وجهه ويسند بشيء من وراء ظهره لئلا ينقلب إلى خلفه وينصب عليه اللبن من خلفه نصبا ويسد ما بين اللبن من خلل بالطين لئلا يصل إليه التراب ويقول من يدخله بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ.

=

=

* وذكروا أن السنة تغطية الميت كله من وجهه إلى قدميه.
* ورأى أصحاب الفضيلة أن الدفن في التابوت أو الصندوق مخالف للسنة وفيه تشبه بالكفار والمترفين من أهل الدنيا. لكن إن هناك حاجة وضرورة فلا بأس.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن الميت إذا لم يبق منه إلا بعضه فإنه يصلى على هذا البعض.
* وأجاز أصحاب الفضيلة إرسال الجثة إلى بلدة صاحبها إذا طالب أهله بذلك وكانت هذه المطالبة قبل الدفن ، ورأوا في موضع آخر أن الأفضل أن يدفن كل ميت في البلد الذي مات فيه.
* وأجاز أصحاب الفضيلة قبر اثنين وأكثر في قبر واحد إذا كثر الأموات وقل من يدفنهم وخيف عليهم التلف ، ويقدم أفضلهم دينا إلى القبلة.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن قراءة القرآن عند القبر بعد الدفن أو قبله من البدع.
* وذكروا أن السنة نصب اللبن على اللحد فإن لم يوجد فيكتفى بالحجر أو الخشب فإن لم يوجد فيهال التراب عليه ولا بأس.
* وأجاز أصحاب الفضيلة سد اللحد بألواح الأسمنت.
* وأفتوا بعدم جواز استعمال في تشميس روث الماشية وإن كانت من المقابر القديمة لما في ذلك من إهانة الميت.
* وأفتوا بحرمة البناء على القبور وأوجبوا إزالة ما بني عليها.
* وأفتوا بأن ما يقطعه الإنسان من شعر أو ظفر يجوز دفنه وإن ألقاها فلا بأس.
* وأفتوا بأن العضد المقطوع من الحي بأي سبب لا يغسل ولا يصلى عليه ولكن يلف في خرقة ويدفن في المقبرة أو في أرض طيبة بعيدة عن الامتهان.
* وأفتوا بأن لا يجوز دفن المسلم في مقابر الكفار ولا أن يدفن الكافر في مقابر المسلمين.

=

=

* وأفتوا بأنه لا يجوز أن يجعل للكفار مقبرة خاصة في الجزيرة العربية لدفن موتاهم ولا دفن ما بتر منهم ، بل الميت منهم في الجزيرة تسلم جثته إلى أهله في بلده فإن لم يتيسر ذلك دفن في الصحراء بعيدًا عن الناس وأما تخصيص مقبرة لهم فلا.

* وأفتوا بأن من مات تاركًا للصلاة فإنه لا يدفن في مقابر المسلمين لأنه مرتد خارج عن الملة.

* وأفتوا بأنه إذا وجد من يشيع الكافر بعد موته فإنه لا يجوز للمسلم المشاركة في ذلك ، ولا تجوز مجاملتهم ولا مداهنتهم في ذلك ، وأما إذا لم يوجد منهم من يدفنه دفنه المسلمون.

* وأفتوا بأن من مات وهو يذبح للقبور ويتوسل بأهلها وينذر لها ويستغيث بأصحابها فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين.

* وأفتوا بعدم جواز الدعاء جماعيًا للميت بعد الدفن لعدم النقل ، وإنما يدعو كل واحد منهم بمفرده.

* وذكروا أن الدعاء الشرعي ينفع الميت بإجماع المسلمين.

* وأفتوا ببدعية رفع الصوت بالتكبير والتهليل أثناء الخروج بالجنازة لعدم النقل والعبادات توقيفية.

* وأفتوا بأن رفع الصوت بقول (وحدوه) أو قول (لا إله إلا الله) عند تشييعها من البدع أيضًا لعدم النقل.

* وأفتوا بأن تقسيم الصدقات عن الميت في المقبرة من البدع لعم النقل.

* وأفتوا بأن الأذان بعد وضع الميت في لحده من البدع لعدم النقل.

* وأفتوا بجواز الترحم والدعاء لقاتل نفسه.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن تقييد الدعاء للميت بالولد في قوله " أو ولد صالح

=

يدعو له " أنه لا مفهوم له ، فالميت ينتفع بالدعاء المشروع مطلقًا من ولده أو غيره.

* وأفتوا بأن ذبح الغنم أو البقر أو الإبل أو الطير ونحوه لميت عند الموت أو في يوم معين كاليوم السابع أو الأربعين من وفاته بدعة.

* وذكروا أن صدقة الحي عن الميت تشرع بإطلاق أي من غير تحديد زمان معين أو مكان معين.

* وأفتوا بجواز الحي عن الميت إن كان الحي قد حج عن نفسه.

* وأفتوا بأن الصدقة الواحد إذا قصد بها عدة أوات نفعهم ذلك.

* وأفتوا بجواز التضحية عن الميت.

* وذكروا بأن لا دليل يدل على أن الميت لا يعلم بمن أحسن إليه بدعاء أو صدقة وهو غيبي وأمور الغيب مبناها على التوقيف.

* وأفتوا بأن قراءة سورة الإخلاص أو الفاتحة أو غيرها في بيت الميت أو مكان وفاته بعد ثلاثة أيام ، أنه لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة ولا من فعل الصحابة ولا من فعل أحد من الأئمة.

* وأفتوا بعدم جواز استئجار من يقرأ القرآن على قبر الميت أو على روحه لأنه لم ينقل والعبادات توقيفية ولأن الاستئجار على نفس التلاوة لا يجوز. حتى وإن أوصى الميت بذلك.

* وأفتوا بأن حديث: "اقرؤوا على موتاكم يس " حديث ضعيف ، وعلى تقدير صحته فإن المقصود به القراءة عليه حال الاحتضار وقبل خروج الروح.

* وأفتوا بعدم جواز قراءة القرآن للميت ، وأنه إن فعل فإن ثوابها لا يصل إليه وأن ذلك الفعل من البدع لعدم النقل.

* وأفتوا بأن الزيارة الشرعية للقبور لا يشرع فيها قراءة شيء من القرآن.

=

* وذكر أصحاب الفضيلة بأن الزيادة الشرعية هي ما كان المقصود منها تذكر الآخرة والدعاء للأموات.

* والقاعدة عند أصحاب الفضيلة فيما يصل للميت من عمل الحي هي التوقيف على الدليل ، فإنهم قالوا: "الصحيح من أقوال العلماء أن فعل القرب من حي لميت مسلم لا يجوز إلا في حدود ما ورد الشرع بفعله مثل الدعاء له والاستغفار والحج والعمرة والصدقة عنه والضحية وصوم الواجب عمن مات وعليه صوم واجب " أهـ.

* وأفتوا بأن صنع أهل الميت الطعام للمشيعين بدعة لا يجوز عملها بل هي من أمور الجاهلية.

* وأبطل أصحاب الفضيلة دعوى أن قبر الميت مظلم حتى يطعم أهله الطعام وتصدقون عنه. وجعلوا القول به رجما من الغيب.

* وأفتوا بأن قراءة القرآن بالدوران في مجلس الجنازة بدعوى إسقاط الذنوب والصلوات الفائتة عن الميت بدعة لا أصل له.

* وأفتوا بأن رفع المعزي يديه إلى منكبيه وقوله (الفاتحة) وقراءة المعزين معه ذلك كل ذلك من البدع التي لا أصل لها.

* وأفتوا بأن الاجتماع في اليوم الثالث عند أهل الميت وقراءة القرآن وإهداء ثوابه للميت لا يجوز ، بل هو من البدع.

* وأفتوا بأن قراءة التهليل أو التسبيح أو أي شيء من الأدعية على الحصى ألف مرة ووضعه بعد ذلك في قبر الميت من البدع التي لا أصل لها.

* وأفتوا بأن قبر المرأة كقبر الرجل ولا دليل على الفريق بينهما.

* وأفتوا بحرمة الكتابة على القبور.

* وأفتوا بأن الذكرى في اليوم الخامس عشر أو الأربعين أو السنوية بعد دفن

=

=

الميت كل ذلك من البدع التي لا أصل لها.

* وأفتوا بأنه لا يجوز إهداء الثواب للرسول ﷺ لا ختم القرآن ولا غيره لعدم نقل ذلك عن السلف من الصحابة والتابعين والعبادات توقيفية.

* وأفتوا بأن حديث " لا يأتي على الميت أشد من الليلة الأولى فارحموا **أمواتكم بالصدقة... إلخ " أنه حديث موضوع.**

* وأفتوا بعدم مشروعية إهداء ثواب الصلاة للأموات لعدم النقل.

* وأفتوا بأن تخصيص زيارة القبور بيوم معين كالجمعة والعيد ليس له أصل من السنة ولم يثبت في الشرع بالنقل الصحيح أن الأرواح ترد لأصحابها يوم الجمعة أو أيام الأعياد.

* وأفتوا بأنه لا يصلى عن الميت ما تركه في حياته عمدا كان تركه لها أو بعذر.

* وأفتوا بأن صيام الولي عن الميت ما فاته من رمضان جائز وهو من الإحسان للميت.

* وأفتوا بأن من مات ولم يحج فإنه يحج عنه من تركته قبل قسمتها ، وإن تطوع أحد بالحج عنه فحسن بشرط أن يكون النائب قد حج عن نفسه.

* وأفتوا بأن الإقامة عند القبر من جملة المحدثات والبدع.

* وأفتوا بأن وضع الطين عند رأس الميت وفخذيه وكعبيه لا أصل له بل هو من المحدثات والبدع.

* وأفتوا بعدم جواز وضع كتاب مع الميت لأي غرض كان ، بل هذا من المحدثات والبدع.

* وأفتوا بعدم جواز بناء خيمة بجوار القبر لقراءة القرآن فيها.

* وأفتوا ببدعية الوقوف عند القبر أو غيره من الصمت تحية لشهداء أو الوجهاء أو تشريفا وتكريما لأرواحهم وحدادا عليهم وتنكيس الأعلام ، بل لا يتفق هذا

=

=

مع آداب التوحيد ولا إخلاص التعظيم لله تعالى وهو تشبه بالكفار.

* وأفتوا بأن حمل زوجة المتوفى والطواف بها على قبر زوجها بدعة لا أصل له.

* وأفتوا بأن وضع الحناء مع الميت في قبره بدعة لا أصل لها.

* وأفتوا بأن اتخاذ القبور أماكن للأكل والشرب بدعة لا تجوز.

* وأفتوا بأن وضع الورد على قبور الأموات من البدع والمحدثات.

* وأفتوا بحرمة تعليق صور ذوات الأرواح، سواء الأحياء أو الأموات.

* والأصل المتقرر عند أصحاب الفضيلة عدم سماع الأموات لكلام الأحياء إلا فيما ورد به النص.

* وأفتوا بحرمة بناء القباب على القبور.

* وأفتوا بأن إقامة المآتم والجلوس فيها لأجل التعزية بدعة.

* وأفتوا بأن النوم على الأرض وترك الأقارب والجيران والطيب أربعين يوما أو أياما من أجل وفاة أحد كل ذلك من المحدثات والبدع.

* وأفتوا بأنه لا دليل يدل على أن خفة الجنازة دليل على صلاح صاحبها ولا أن ثقلها دليل على فسق صاحبها.

* واختار أصحاب الفضيلة عدم جواز تلقين الميت بعد موته بل هو من البدع.

* واستحب أصحاب الفضيلة الوقوف عند القبر للدعاء والاستغفار للميت كل بمفرده.

* وأفتوا بحرمة نقل الميت من قبره إلى قبر آخر إلا لضرورة تقتضي ذلك شرعًا.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن زيارة القبور في حق الرجال دون النساء. في الصحيح من قولي العلماء.

* وأفتوا بأن زيارة القبور من العبادات التي لا تشترط لها الطهارة.

* وأفتوا بحرمة شدة الرحال للقبور.

=

=

* وأفتوا بحرمة زيارة المرأة للقبور مطلقًا حتى قبر النبي ﷺ.
* وذكروا أن حديث: "فزوروها " خطاب للرجال فقط وأما النساء فإنهن لا يدخلن في ذلك لتخصيصهن بأحاديث لعن زائرات القبور.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن بكاء النساء بصوت مرتفع نوع من النياحة.
* وأفتوا بحرمة تزيين القبور بالرخام ونحوه.
* وأفتوا بحرمة سكن أقالب الميت عند قبر ميتهم عدة أيام أو أسابيع.
* وذكروا أنه شق الجيوب ولطم الخدود من كبائر الذنوب.
* وأفتوا ببدعية ذبح ذبيحة على روح الميت بعد مضي أربعين يومًا من وفاته لعم النقل.
* وأفتوا بأن توزيع الخبز واللحم والتمر في المقبرة من البدع المنكرة.
* وأفتوا بحرمة اتخاذ القبور عيدًا.
* وأفتوا بحرمة التبرك بتراب القبر لأنه لا دليل عليه ولأنه وسيلة للشرك.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن السنة لمن زار القبور أن يقول: (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وأتاكم ما توعدون غدًا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين أسأل الله لنا ولكم العافية) اهـ.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن دعاء الأموات والاستعانة بهم من الشرك الأكبر المخرج عن الملة بالكلية.
* وأفتوا بأن حديث: "من زار قبر والديه أو أحدهما كل جمعة غفر له وكتب بارًا " بأنه حديث ضعيف جدًا.
* وأفتوا بسنية زيارة المسجد النبوي لكن لا شأن لها بالحج بل هي سنة مستقلة.
* وأفتوا بمشروعية السلام على النبي ﷺ وصاحبه لمن زار المسجد النبوي ،
=

=

ولا يجوز التمسح بالقبر ولا الدعاء عنده حماية لجناب التوحيد

* وأفتوا بثبوت حديث: "كسر عظم الميت كسره حيًا".

* وذكر أصحاب الفضيلة أن جسد المسلم له حرمة حيًا أو ميتًا.

* وأفتوا بمشروعية خلع النعل إذا أراد المشي بين القبور ، لكن إذا دعت الحاجة للبسهما كالاحتماء من الرمضاء والشوك فلا بأس بذلك.

* وأفتوا بحرمة سب الأموات لأنهم قد أفضوا لما قدموا.

* وأفتوا بحرمة مرور المواشي بين القبور لأنه امتهان للأموات وانتهاك لحرمتهم.

* وأفتوا بحرمة تجصيص القبور.

* وأفتوا بحرمة بناء المسكن الخاص في المقابر لأنها أرض وقفية للدفن فقط.

* وأفتوا بسنية التعزية ولكن لا تكون بذبح بقر أو غنم ونحوهما ، وإنما تكون بكلمات طيبة تعين على الصبر والرضاء بالقدر

* وأفتوا بمشروعية خروج المرأة للتعزية إذا التزمت بآداب الحجاب ولم يكن في خروجها محذور شرعي.

* وأفتوا بمشروعية تعزية الكافر إذا كان فيها مصلحة ونفع للمسلمين أو كان يقصد بها ترغيبهم في الإسلام.

* وأفتوا بسنية صنع الجيران أو الأقارب الطعام لأهل الميت لأنه قد أتاهم ما يشغلهم وأما الاجتماع عند أهل الميت وصنعة الطعام منهم فإنه لا يجوز لأنه نوع نياحة.

* وأفتوا بجواز التعزية قبل الدفن وبعده وليس لها حد ولا مكان محدود.

* وأفتوا بأن حديث: "لا عزاء في المقابر " لا أصل له.

* وأفتوا بحرمة إسراج القبور.

=

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣).

{فإذا جاءت الصاخة} النفخة الثانية.

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤).

{يوم يفر المرء من أخيه}.

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥).

=

* وأفتوا بعدم جواز قول: "المرحوم " للميت؛ لأنه جزم بأمر غيبي ولكن يقال: "رحمه الله "؛ لأنه دعاء له بالرحمة.

* وأفتوا بجواز الإعلام عن وفاة الميت بين أقاربه وجيرانه لكن لا على وجه يشبه النعي المنهي عنه.

* وأفتوا بأنه لا يجوز وضع لوحة في المسجد للإعلان عن الوفاة.

* وأفتوا بأن تأبين الميت ورثاءه على الطريقة الموجودة اليوم من الاجتماع لذلك والغلو في الثناء عليه لا يجوز.

* وأفتوا بأنه ليس في مقدور أحد من البشر أن يتلقى عن الله مباشرة إلا الأنبياء وإلا الرؤيا الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له وإلا الفراسة الصادقة فإنها نوع من الإلهام.

* وأفتوا بأن الرؤى المنامية والفراسة من غير الرسل لا تعتبر أصلا في التشريع.

* وأفتوا بعدم جواز إجابة الدعوة لحضور الولائم التي تقام في العزاء لأنها من البدع إلا لمن يستطيع الإنكار.

* وأفتوا بحرمة النياحة.

* وأفتوا بجواز البكاء على الميت بكاء لا نياحة فيه ولا ندب الميت بتعداد محاسنه والغلو في مدحه ، والله ربنا أعلى وأعلم.

{وأمه وأبيه}.

وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦).

{وَصَاحِبَته} زَوْجَته {وَبَنِيهِ} يَوْم بَدَل مِنْ إِذَا وجوابها دل عليها.

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧).

{لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمئِذٍ شَأْن يُغْنِيه} حَال يَشْغَلهُ عَنْ شَأْن غَيْره أَيْ اِشْتَغَلَ كُلّ واحد بنفسه.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨).

{وُجُوه يَوْمئِذٍ مُسْفِرَة} مُضِيئَة.

ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩).

{ضَاحِكَة مُسْتَبْشِرَة} فَرِحَة وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠).

{وَوُجُوه يَوْمئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَة} غُبَار.

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١).

{تَرْهَقهَا} تَغْشَاهَا {قَتَرَة} ظُلْمَة وَسَوَاد.

أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢).

{أُولَئِكَ} أَهْل هَذِهِ الْحَالَة {هُمْ الْكَفَرَة الْفَجَرَة} أي الجامعون بين الكفر والفجور[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم: أنحشر عراة؟! قال: "نعم"، قالت: واسوأتاه؛ فأنزل الله تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ =

=

.{(٣٧)}

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٧) من طريق محمد بن أحمد بن سنان حدثنا إبراهيم بن هراسة حدثنا عائذ بن شريح الكندي عن أنس به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: إبراهيم بن هراسة؛ متروك الحديث، وكذبه أبو عبيد.

الثانية: عائذ بن شريح؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: ٣٣].

في قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: ٣٣]، وجهان:

أحدهما: أنها النفخة الثانية التي يصيخ الخلق لاستماعها، قاله الحسن ، ومنه قول الشاعر:

يُصِيخُ للنَبأَة أَسْماعه... إصاخَةَ الناشدِ للمُنْشِد

قال القرطبي:"لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما امتن به عليهم. والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصخ الأسماع: أي: تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء".

وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي استمع إليه، ومنه الحديث: «ما على الأرض من دابة إلا وهى تصبح يوم الجمعة مصيخة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس» .. قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأول.. وأصل الكلمة في اللغة: الصك الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر: إذا صكه قال الراجز:

يا جارتي هل لك أن تجالدي... جلادة كالصك بالجلامد

=

=

ومن هذا الباب قول العرب: صختهم الصاخة وباتتهم البائتة، وهي الداهية".

قال ابن العربي: "الصاخة التي تورث الصمم، وإنها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة".

قال الخليل:"الصاخة: صيحة تصخ الآذان فتصمها، ويقال: هي الأمر العظيم، يقال: رماه الله بصاخة، أي: بداهية وأمر عظيم. والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير، أي: يطعن فيه".

قال السعدي:"تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال"

الثاني: أنه اسم من أسماء القيامة، لإصاخة الخلق إليها من الفزع، قاله ابن عباس ، وبه قال ابن قتيبة.

قال الزجاج: {الصَّاخَّةُ} " التي تكون عليها القيامةُ، تصِخُّ الأسماع، أي: تُصِمُّها فلا يسمع إلا ما يدعى فيه لإحيائها".

قال ابن عباس:"هذا من أسماء يوم القيامة عظَّمه الله، وحذّره عباده".

قال الطبري:"ذُكر أنها اسم من أسماء القيامة، وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخ فلان لصوت فلان: إذا استمع له، إلا أن هذا يقال منه: هو مُصِيخ له، ولعلّ الصوت هو الصاخّ، فإن يكن ذلك كذلك، فينبغي أن يكون قبل ذلك لنفخة الصور".

قال السمعاني:"هِيَ اسْم من أَسمَاء يَوْم الْقِيَامَة، وَقيل: الصاخة الصاكة، يُقَال: صخ فلَانا إِذا صَكه، وَقيل: إِن الصاخة صَيْحَة إِسْرَافيل تصك الأسماع، وَعَن بَعضهم: أَن الصاخة مَا يصخ لَهُ كل شَيْء أَي: ينصت يُقَال: رجل أصخ أَي أَصمّ".

وسميت القيامة بالصاخة لأنها تصخ الآذان بصيحتها وأهوالها، وتنزعج لها

=

=

الأفئدة يومئذ، مما يرى من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

قال القرطبي: والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصخ الأسماع: أي تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٦]، أي:"يوم يفرُّ المرء لهول ذلك اليوم من أخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه".

قال ابن كثير:"أي: يراهم، ويفر منهم، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل".

قال مقاتل:"يعني لا يلتفت إليه وأمه وأبيه وامرأته وبنيه".

قال يحيى بن سلام:"الفرار يعني الإعراض، يعني: يعرض ولا يلتفت".

وعن سهل بن عبد الله في قوله تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، قال:"هابيل من قابيل، وسيدنا محمد ﷺ من عمه، وإبراهيم من أبيه، ولوط عليه السلام من امرأته، ونوح من ولده".

وفي فراره منهم ثلاثة وجوه:

أحدها: حذرًا من مطالبتهم إياه للتبعات التي بينه وبينهم. قاله الطبري.

قال الطبري:"يقول: فإذا جاءت الصاخة في هذا اليوم الذي يفرّ فيه المرء من أخيه {وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}، وزوجته التي كانت زوجته في الدنيا، {وَبَنِيهِ}، حذرا من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التَّبعات والمظالم".

الثاني: حتى لا يروا عذابه وما ينزل به. حكاه الطبري.

قال النحاس:"قيل: يفرّون لأن بعضهم يستحي من بعض فيكره أن يرى ما ينزل به من الفضيحة".

الثالث: لاشتغاله بنفسه، كما قال تعالى بعده: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

=

=

يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧]، أي: يشغله عن غيره. قاله قتادة ، وابن زيد.

قال ابن كثير:"أي: هو في شُغُل شاغل عن غيره".

قال ابن زيد:"شأن قد شغله عن صاحبه".

قال قتادة:"أفضى إلى كلّ إنسان ما يشغله عن الناس".

قال قتادة: "الأحب فالأحبَ، والأقرب فالأقربَ، من هول ذلك اليوم".

قال قتادة:"ليس شيءٌ أشدَّ على الإنسان يوم القيامة مِن أن يرى مَن يعرفه؛ مخافة أن يكون يطلبه بمظلمة. ثم قرأ: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أَخِيهِ} الآية".

عن قتادة:"{يوم يفر المرء من أخيه} قال: يفر هابيل من قابيل، {وأمه وأبيه} يفر النبيُّ ﷺ مِن أُمِّه، وإبراهيم عليه السلام مِن أبيه، {وصاحبته وبنيه} قالوا: لوط عليه السلام مِن صاحبته، ونوح عليه السلام مِن ابنه".

قال الحسن:"إنّ أول مَن يفرّ يوم القيامة من أبيه إبراهيم، وأول مَن يفرّ من أُمّه إبراهيم، وأول مَن يفرّ من ابنه نوح، وأول مَن يفرّ مِن أخيه هابيل، وأول مَن يفرّ مِن صاحبته نوح ولوط. وتلا هذه الآية: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أَخِيهِ وأُمِّهِ وأَبِيهِ وصاحِبَتِهِ وبَنِيهِ}، فيَرَوْن أنّ هذه الآية نزلت فيهم".

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة مواطن لا يسأل فيها أحد أحدا: إذا وضعت الموازين حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وإذا تطايرت الكتب حتى يعلم أيأخذ كتابه بيمينه أم بشماله، وعند الصراط حتى يعلم أيجوز الصراط أم لا يجوز".

قال عكرمة: "يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أيّ بعل كنتُ لك؟ فتقول: نعم البعل كنتَ! وتثنى بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها لي لعلي أنجو مما ترين. فتقول له: ما أيسر ما طلبتَ، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقي ابنه

=

=

فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنتُ لك؟ فيثني بخير. فيقولُ له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}".

وفي الحديث الصحيح – في أمر الشفاعة –: أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليومَ إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني. ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}".

ويفر منهم لأمور ثلاثة:

أولا: (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

ثانيا: ولعدم مطالبته له بحقوقه: يا رب لي حق عند هذا.

الثالث: وخوف الفضيحة فقد كان مستورا أمام إخوانه في الدنيا، وفضح في الآخرة فيخشى أن يرى.

قال في التسهيل (يوم يفر المرء من أخيه...) وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه. وقيل: إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات والأول أرجح وأظهر، لقوله (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أي هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب، حتى لا يسعه ذكر غيره، وانظر قول الأنبياء عليهم السلام، يومئذ: نفسي نفسي.

- وقال القرطبي (يوم يفر المرء من أخيه) لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أي يشغله عن غيره.

وقيل: إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التبعات.

=

=

وقيل: لئلا يروا ما هو فيه من الشدة.

وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا.

- قال الرازي: يقول الأخ: ما واسيتني بمالك، والأبوان يقولان قصرت في برنا، والصاحبة تقول أطعمتني الحرام، وفعلت وصنعت، والبنون يقولون: ما علمتنا وما أرشدتنا... والمراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة.

(وأمه وأبيه) يهرب من أقرب الناس إليه وأحبهم إليه أمه وأبيه من شدة الكرب وعظم الخطب.

(وصاحبته) أي: ويهرب من زوجته الحبيبة رفيقة عمره، وسكنه الذي يسكن إليه في الدنيا والتي يحفظها ويصونها، ولا يسمح لأعين الآخرين أن تنظر إليها في الدنيا.

(وبنيه) أي: ويهرب من أبنائه الذين هم فلذة كبده وثمرة فؤاده.

قوله تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧]، أي:"لكل واحد منهم يومئذٍ أمر يشغله ويمنعه من الانشغال بغيره".

قال السعدي:"أي: قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء"

قال ابن قتيبة:"أي: يَصرفُه ويَصدُّه عن قرابته. ومنه يقال: اعْنِ عني وجهَك: أي اصرفْه. واعْنِ عن السَّفيهِ".

قال مقاتل:"يعني: إذا وكل بكل إنسان ما يشغله عن هؤلاء الأقرباء".

قال الفراء:"أي: يشغله عن قرابته".

قال سهل:"يشغله عن الناس كافة، إلا عن نفسه".

قال قتادة:"أفضى إلى كلِّ إنسان ما يَشغله عن الناس".

=

=

وقد قرأ بعض القراء: «يعنيه»، وهي شاذة.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا» قال: فقالت زوجته: يا رسول الله أويرى بعضنا عورة بعض؟ قال: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه أو قال: «ما أشغله عن النظر».

عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: "يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا". فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال: "{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}".

عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: "يبعث الناس حفاة عراة غُرلا قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان". فقلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: "قد شُغل الناس، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}".

قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ} [عبس: ٣٨]، أي:"وجوه أهل النعيم في ذلك اليوم مستنيرة".

قال مقاتل:"يعني: فرحة بهجة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وجوه يومئذ مشرقة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين الذين قد رضي الله عنهم، يقال: أسفر وجه فلان: إذا حَسُن، ومنه أسفر الصبح: إذا أضاء، وكلّ مضيء فهو مسفر".

قال ابن كثير:"أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة".

عن ابن عباس: "{مُسْفِرَةٌ}، يقول: مشرقة".

قال الضحاك:"فَرِحة". وروي عن السدي مثله.

قال عطاء الخُراسانيّ:"مِن طول ما اغْبَرَّتْ في سبيل الله".

=

=

قال ابن زيد:"هؤلاء أهل الجنة".

قوله تعالى: {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [عبس: ٣٩]، أي:"مسرورة فرحة".

قال الطبري:"يقول: ضاحكة من السرور بما أعطاها الله من النعيم والكرامة، {مُسْتَبْشِرَةٌ} لما ترجو من الزيادة".

قال مقاتل:"لما أعطيت من الخير والكرامة".

قوله تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} [عبس: ٤٠]، أي:"ووجوه أهل الجحيم مظلمة مسودَّة".

قال السمعاني:"أي: كسوف وسواد".

قال مقاتل:"يعنى: السواد كقوله: {سَنَسِمُهُ} [القلم: ١٦] بالسواد {عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم: ١٦]".

من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: «قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافر العرق، ثم تقع الغبرة على وجوههم، فهو قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} ».

قوله تعالى: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس: ٤١]، أي:"تغشاها ذلَّة".

وفي تفسير قوله تعالى: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس: ٤١]، وجوه:

أحدها: تغشاها ذلة وشدة، قاله ابن عباس.

الثاني: خزي، قال مجاهد.

الثالث: سواد الوجوه، قاله ابن عباس-أيضا- ، وبه قال عطاء ، والزجاج.

قال الزجاج:"أي: غَبَرَةٌ يعلوها سواد كالدخَان".

قال ابن كثير:"أي: يعلوها ويغشاها قترة، أي: سواد".

قال السعدي:"فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها"

=

=

عن عطاء الخرساني: "{وُجُوه يَوْمئِذٍ مسفرة} لكثرة ما أغبرت في الدنيا بالحق. وقوله: {ووجوه يَوْمئِذٍ عَلَيْهَا غبرة} من كثرة ما ضحكت في الباطل".

و قال ابن أبي ليلى: "هو بعد نظرهم إلى ربهم ﷻ".

الرابع: غبار، قاله السدي ، وابن زيد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، وبه قال الطبري ، قال الأخطل:

يعلو القناطر يبنيها ويهدمها... مسوّما فوقه الرايات والقتر

وقال الفرزدق:

مُتَوَّجٌ بِرِداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ... مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرَا

قال ابن زيد:"هذه وجوه أهل النار؛ قال: والقَتَرة من الغَبَرة، قال: وهما واحد، قال: فأما في الدنيا فإن القترة: ما ارتفع، فلحق بالسماء، ورفعته الريح، تسميه العرب القترة، وما كان أسفل في الأرض فهو الغبرة".

قال الطبري:" {وَوُجُوهٌ}: وهي وجوه الكفار يومئذ عليها غبرة. ذُكر أن البهائم التي يصيرها الله ترابا يومئذ بعد القضاء بينها، يحوّل ذلك التراب غَبَرة في وجوه أهل الكفر {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}، يقول: يغشى تلك الوجوه قَتَرة، وهي الغَبَرة".

الخامس: كسوف الوجه، قاله الكلبي ، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: يغشاها الكسوف، وهي الظلمة".

وجميع الأقوال السابقة قريبة من بعض، كما قال الثعلبي: أي: "ظلمة وكآبة وكسوف وسواد".

قال السمعاني:"أي: تعلوها الكآبة والحزن، وقيل: هو في معنى قوله تعالى: {وَتَسْوَدُّ وُجُوه} [آل عمران: ١٠٦]".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس: ٤٢]، أي:"أولئك الموصوفون بسواد الوجوه هم الذين كفروا بنعم الله وكذَّبوا بآياته، وتجرؤوا على محارمه

=

سورة التكوير(١)

=

بالفجور والطغيان".

قال السمعاني:"يعني: أَصْحَاب الْوُجُوه هم الَّذين كفرُوا بِاللَّه وفجروا".

قال ابن كثير:"أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: {وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: ٢٧]".

قال السعدي:"أي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا على محارمه"

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم يوم القيامة هم الكفرة بالله، كانوا في الدنيا الفجرة في دينهم، لا يبالون ما أتوا به من معاصي الله، وركبوا من محارمه، فجزاهم الله بسوء أعمالهم ما أخبر به عباده".

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المتأولين".

وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.

وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".

* آياتها تسع وعشرون فى عدّ الجميع، وثمان فى عدّ أَبى جعفر، أَسقط أَبو جعفر {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} وكلماتها مائة وأَربعون. وحروفها خمسمائة وثلاث وثلاثون. فواصل آياتها (تسنَّم).

* أسماء السورة:

تسمى «سورة التكوير» أكثر التفاسير يسمونها «سورة التكوير» ، وكذلك تسميتها في المصاحف وهو اختصار لمدلول «كورت»، ولم يعدها في «الإتقان» مع السور التي لها أكثر من اسم.

=

=

وتسمى «سورة إذا الشمس كورت» وردت هذه التسمية عند النبي -ﷺ- ، والصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- ، وبهذا الاسم عنون لها الطبري في "تفسيره" ، كما ترجم لها البخاري في "صحيحه" ، والترمذي في "جامعه" ، والحاكم في "مستدركه" ، وسميت بهذا الاسم تسمية لها بأول آية افتتحت بها السورة، وهي قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير: ١].

وتسمى «سورة كورت»: وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن ، وتسمى «سورة كورت» تسمية بحكاية لفظ وقع فيها.

* مقصود السّورة: بيان أَحوال القيامة، وأَهوالِها، وذِكر القَسَم بأَنَّ جبريل أَمين على الوحى، مكِينٌ عند ربّه، وأَنَّ محمّدًا ﷺ لأمتَّهم ولا بخيل بقول الحقّ، وبيان حقيقة المشيئة والإِرادة فى قوله: {إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله رَبُّ العالمين} .

* المتشابهات: قوله: {وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ} ، وفى الانفطار: {وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ} ؛ لأَنَّ معنى {سُجِّرَتْ} عند أَكثر المفسّرين: أُوقدت، فصارت نارًا، من قولهم: سجّرت التنورّة. وقيل: بحار جهنَّم تُملأُ حميمًا، فيعذَّبُ بها أَهلُ النَّار. فخُصّت هذه السّورة بسُجّرت؛ موافقةً لقوله تعالى {سُعِّرَتْ} ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار، وفى الانفطار وافق قوله: {وَإِذَا الكواكب انتثرت} أَى تساقطت {وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ} أَى سالت مياهها ففاضت على وجه الأَرض، {وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ} : قلبت وأُثيرت. وهذه أَشياءُ كلّها زالت [عن] أَماكِنها، فلاقت كلُّ واحدة قرائنَها.

قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ} ، وفى الانفطار {قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} ، لأَنَّ ما فى هذه السّورة متَّصل بقوله: {وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ} فقرأَها أَربابها، فعلمت ما أَحضرت، وفى الانفطار متَّصل بقوله: {وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ} والقبور كانت فى الدنيا فتتذكر ما قدّمت فى الدّنيا، وما أَخَّرت فى العُقْبى، وكلّ خاتمة لائقة

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١).

{إِذَا الشَّمْس كُوِّرَتْ} لُفِّفَتْ وَذُهِبَ بِنُورِهَا.

وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢).

{وَإِذَا النُّجُوم انْكَدَرَتْ} انْقَضَّتْ وَتَسَاقَطَتْ عَلَى الْأَرْض.

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣).

{وَإِذَا الْجِبَال سُيِّرَتْ} ذُهِبَ بِهَا عَنْ وَجْه الْأَرْض فَصَارَتْ هَبَاء مُنْبَثًّا.

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤).

{وَإِذَا الْعِشَار} النُّوق الْحَوَامِل {عُطِّلَتْ} تُرِكَتْ بِلَا رَاعٍ أَوْ بِلَا حَلْب لِمَا دَهَاهُمْ مِنْ الْأَمْر وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَال أَعْجَب إِلَيْهِمْ منها.

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥).

{وَإِذَا الْوُحُوش حُشِرَتْ} جُمِعَتْ بَعْد الْبَعْث لِيَقْتَصّ لِبَعْضٍ مِنْ بَعْض ثُمَّ تَصِير تُرَابًا.

وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦).

{وَإِذَا الْبِحَار سُجِّرَتْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد أُوقِدَتْ فَصَارَتْ نارا.

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧).

=

بمكانها. وهذه السّورة من أوّلها إلى آخرها شرط وجزاء، وقسم وجواب. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٠٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وإذا النفوس زوجت} قرنت بأجسادها.

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨).

{وإذا الموؤودة} الْجَارِيَة تُدْفَن حَيَّة خَوْف الْعَار وَالْحَاجَة {سُئِلَتْ} تبكيتا لقاتلها.

بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩).

{بِأَيِّ ذَنْب قُتِلَتْ} وَقُرِئَ بِكَسْرِ التَّاء حِكَايَة لِمَا تُخَاطَب بِهِ وَجَوَابهَا أَنْ تَقُول قُتِلْت بلا ذنب.

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠).

{وَإِذَا الصُّحُف} صُحُف الْأَعْمَال {نُشِرَتْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد فتحت وبسطت.

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١).

{وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ} نُزِعَتْ عَنْ أَمَاكِنهَا كَمَا يُنْزَع الْجِلْد عَنْ الشَّاة.

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢).

{وَإِذَا الْجَحِيم} النَّار {سُعِّرَتْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد أُجِّجَتْ.

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣).

{وَإِذَا الْجَنَّة أُزْلِفَتْ} قُرِّبَتْ لِأَهْلِهَا لِيَدْخُلُوهَا وَجَوَاب إِذَا أَوَّل السُّورَة وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤).

{عَلِمَتْ نَفْس} كُلّ نَفْس وَقْت هَذِهِ الْمَذْكُورَات وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {مَا

أَحْضَرَتْ} مِنْ خَيْر وشر(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير: ١].
في هذه الآية وجوه من التفسير:
أحدها: يعني: أظلمت، قاله ابن عباس، وأبيّ بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الفراء.
عن ابن عباس: "{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}، يقول: أظلمت".
قال مجاهد:"تكور حتى يذهب ضوءها فلا يبقى لها ضوء".
قال قتادة:"ذهب ضوءها فلا ضوء لها".
قال الضحاك:"أما تكوير الشمس: فذهابها".
عن أبي العالية، قال: ثني أبيّ بن كعب، قال: "ستّ آيات قبل يوم القيامة: بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحرّكت واضطربت واحترقت، وفزِعت الجنّ إلى الإنس، والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش، وماجوا بعضهم في بعض، {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}، قال: اختلطت، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}، قال: أهملها أهلها، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} - قال: قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تأجج؛ قال: فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم".
الثاني: يعني: ذهبت. رواه عطية عن ابن عباس.
وقال مجاهد:"اضمحلت وذهبت".
الثالث: غُوِّرَت، روي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن الأنباري.
=

=

وهو بالفارسية: «كور تكور» ، قاله سعيد بن جبير.

وقال سعيد بن جبير:"كوّرت: «كورا»، بالفارسية".

قال ابن الجوزي:"وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: هو بالفارسيّة: «كور بور»".

الرابع: أنها تكوّر مثل العمامة، فتلفُّ وتمحى، قاله أبو عبيد.

قال أبو عبيدة:"مثل تكوير العمامة، تلفّ فتمحى".

قال الزجاج:"معنى: {كُوِّرَتْ}، جمع ضوءها ولُفَّتْ كما تلف العمامة، يقال: كرتُ العِمَامَةَ على رأسِي أكوِّرُها، وكوَّرْتُها أكوِّرهاَ إذا لَفَفْتَها".

قال ابن عطية:"«تكوير الشمس»: هو أن تدار ويذهب بها إلى حيث شاء الله كما يدار كور العمامة، وعبر المفسرون عن ذلك بعبارات".

قال النحاس:"يقال: كوّر الشيء وكبّر الشيء، إذا لفّ ورمي به، وفي الحديث: «نعوذ بك من الحور بعد الكون» ، أي: من الرجوع بعد أن كان أمرنا ملتئما، ويروى: «بعد الكور»".

الخامس: نُكِّست، قاله أبو صالح.

السادس: رُمِي بها. وهو قول الربيع بن خُثَيم.

وروي عن أبي صالح-أيضا- قال:"أُلقيت".

عن شيخ من بَجِيلة، عن ابن عباس:"{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحا دبورًا فتضرمها نارا".

عن ابن يزيد بن أبي مريم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال في قول الله: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: "كورت في جهنم".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: "الشمس والقمر يكوران يوم القيامة".

=

=

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: "إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة". فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: أحسبه قال: وما ذنبهما".

عن يزيد الرقاشي، حدثنا أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "الشمس والقمر ثوران عقيران في النار".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندنا: أن يقال: {كُوِّرَتْ}، كما قال الله جل ثناؤه، والتكوير في كلام العرب: جمع بعض الشيء إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، ولفها، وكذلك قوله: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}، إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فَرُمِي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوءها فعلى التأويل الذي تأوّلناه وبيَّناه لكلا القولين اللَّذين ذكرت عن أهل التأويل وجه صحيح، وذلك أنها إذا كُوِّرت ورُمي بها، ذهب ضوءها".

قوله تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ٢]،

في هذه الآية وجوه من التفسير:

أحدها: تناثرت، قاله الربيع بن خيثم ، ومجاهد ، وأبو صالح.

قال ابن كثير:"أي: انتثرت، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ٢]، وأصل الانكدار: الانصباب".

الثاني: تغيرت فلم يبق لها ضوء، قاله ابن عباس.

الثالث: تساقطت وتهافتت، قاله قتادة ، ومنه قول العجاج:

أبصَرَ خرْبان فضاء فانكَدَرْ... تَقضِّيَ البازي إذا البازي كَسَر

وقال ابن زيد:"رُمِي بها من السماء إلى الأرض".

أي: تغيرت وتناثرت في أفلاكها وتساقطت من السماء، فذهب نورها.

=

=

كما قال تعالى (وإذا الكواكب انتثرت). وقال تعالى (فإذا النجوم طمست).
والأصل في الانكدار الانصباب، قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم إذا جاؤوا أرسالا فانصبوا عليهم.
قوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير: ٣].
قال الطبري:"يقول: وإذا الجبال سيرها الله، فكانت سرابا، وهباء منبثا".
قال ابن كثير:"أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا".
عن مجاهد: "{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}، قال: ذهبت".
عن الربيع بن خُثَيْم، " {وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ}، قال: سارَتْ".
كما قال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا).
وقال تعالى (وتسير الجبال سيرا)، وهذا أول حال تمر بها الجبال في ذلك اليوم.
قوله تعالى: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}.
في تفسير هذه الآية أقوال:
أحدها: أن «العشار»: جمع «عشراء»، وهي الناقة إذا صار لحملها عشرة أشهر، وهي أنفس أموالهم عندهم، وهذا قول أبيّ بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والربيع خثيم، ومقاتل، والأصمعي، والفراء، وأبي عبيدة، والزجاج، وحكاه القرطبي عن الأكثرين، ومنه قول الأعشى:
هُوَ الواهِبُ المِئَةَ المُصْطفاةَ،... إمَّا مِخاضًا وإمَّا عِشَارا
فتعطل العشار لاشتغالهم بأنفسهم من شدة خوفهم.
قال الأصمعي: "العشراء: النّاقة إذا أتى عليها من حملها عشرة أشهر".
وقال أبو عبيدة: "الناقة إذا أتى عليها من حملها ستة أشهر إلى أن تضع وبعد ذلك وهم يتفقدونها وتعزّ عليهم".
قال الفراء:"العشار: لقح الإبل عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم".

=

=

قال الزجاج:" {الْعِشَارُ} : النوق الحوامل التي في بطونها أولاها، والواحِدَةُ عُشَراء، وإنما قيل لها عشار لأنها إذَا أتت عليها عَشَرةُ أَشهُرٍ - وهي تضع إذا وضعت لِتَمام في سنة - فَهِيَ عُشَراء، أحسن ما يكون في الحملُ، فليس يعطلها أهلها إلا في حال القيامة، وخوطبت العرب بأمر العِشار لأن مالها وَعَيْشَها أكثرهُ من الإِبل".

عن مجاهد: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}، قال: عشار الإبل".

قال مجاهد:"العشار: هي الإبل عطلها أربابها".

قال قتادة:"عشار الإبل سيبت".

قال قتادة:"سيبها أهلوها أتاهم ما شغلهم عنها، فلم تصر ولم تحلب، ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها".

قال مقاتل:"يعني: وإذا النوق الحوامل أهملت، يعني: الناقة الحاملة نسيها أربابها، وذلك أنه ليس شيء أحب إلى الأعراب من الناقة الحاملة، يقول: أهملها أربابها للأمر الذي عاينوه".

وعن الليث بن سعد-من طريق ابن وهب- قال: "كان بعض مَن مضى يقول في قول الله: {وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ} : العِشار: اللقاح عُطِّلتْ".

وفي «عطلت» وجهان من التفسير:

أحدهما: أُهملت، قاله أبيّ بن كعب. وهو معنى قول عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك.

عن أبيّ بن كعب: "{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}، قال: إذا أهملها أهلها".

قال مجاهد:"سُيِّبت: تُرِكت". وروي عن قتادة نحوه.

وقال الضحاك:"يقول: لا راعي لها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا هذه الحوامل التي يَتَنافس أهلها فيها

=

=
أُهملت فتركت، من شدة الهول النازل بهم فكيف بغيرها؟!".
الثاني: لم تحلب ولم تدر، قاله الحسن ، والربيع بن خثيم ، ويحيى بن سلام.
قال الربيع:"خلا منها أهلها لم تُحْلَب ولم تُصرّ". وفي لفظ:"لم تحلب ولم تصر، وتخلَّى منها أربابها".
قال الحسن:"سيبها أهلها فلم تصر، ولم تحلب، ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها".
قال السمعاني:"الْمعْنَى: أَن كل إِنْسَان يشْتَغل بِنَفسِهِ عَن كل شَيْء، وَإِن كَانَ عَزِيزًا عِنْده".
قال ابن كثير:"المعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل - وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وَصَلت في حملها إلى الشهر العاشر - واحدها: عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها".
قال الرازي:"الغرض من ذلك ذهاب الأموال وبطلان الأملاك، واشتغال الناس بأنفسهم كما قال: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقال: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ٩٤]".
القول الثاني: أن «العشار»:السحاب، تعطلت عما فيها من الماء، فلا تمطر. حكاه الماوردي.
قال ابن كثير:"وقد قيل في العشار: إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض، لخراب الدنيا".
الثالث: أنها الأرض التي يعشر زرعها فتصير للواحد عُشرًا، تعطل فلا تزرع.
=

=

أفاده الماوردي.

وقرأت في "ياقوتة الصراط" لغلام ثعلب:"{وَإِذا العشار عطلت} أَي: الدور مات أهلها، فتعطلت".

وليس شيء أحب إلى العرب من النوق الحوامل، وخوطب العرب بأمر العشار لأن أكثر مالها وعيشها من الإبل، والغرض من ذلك ذهاب الأموال وبطلان الأملاك، واشتغال الناس بأنفسهم كما قال (يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم) وقال (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة).

قوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥].

قال الواحدي:"كل شيء من دواب الأرض مما لا يستأنس فهو وَحْشٌ، والجمع: وحوش".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن حشرها: إحياؤها يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض. قاله ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي، مقاتل، وحكاه الواحدي عن أكثر المفسرين.

قال ابن عباس:"تحشر الوحوش كلها حَتَّى الذُّبَابُ يُحْشَرُ للقصاص".

قال أُبيّ بن كعب:"اختلطت، فصارت بين الناس".

قال ابن فورك:"أي: تغيرت الأمور حتى صارت الوحوش التي تشرد تجتمع مع الناس".

قال قتادة:"هذه الخلائق موافية يوم القيامة، فيقضي الله فيها ما يشاء".

قال السدي:"حشرت إلى القيامة للقضاء، فيقتص للجمّاء من القرناء".

وفي رواية عن الربيع خيثم:"أتى عليها أمر الله".

قال الزجاج:"قيل: تحشر الوحوش كلها حَتَّى الذُّبَابُ يُحْشَرُ للقصاص".

=

=

قال النحاس:"حشرت يوم القيامة ليعوّضها الله مما لحقها من الألم في الدنيا".

قال ابن أبي زمنين:"جمعت؛ ليقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني ترابا".

قال القشيري:"أحييت، وجمعت في القيامة ليقتصّ لبعضها من بعض فيقتصّ للجمّاء من القرناء، وهذا على جهة ضرب المثل إذ لا تكليف عليها".

الثاني: أن حشرها: بموتها، قاله ابن عباس-أيضا- ، وعكرمة.

قال ابن عباس:"حَشْرُ البهائم: موتها، وحشر كل شيء: الموت، غير الجنّ والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى حشرت: جمعت، فأميتت، لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع، ومنه قول الله: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً}، يعني: مجموعة. وقوله: {فَحَشَرَ فَنَادَى}، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله، لا على الأنكر المجهول".

قال تاج القراء:"الغريب: تحشر في الدنيا، فتجتمع الوحوش المتعادية فلا يضر بعضها بعضًا لهول ذلك اليوم، العجيب: قول من قال: القصاص ساقط عنها، وإنما تحشر للتعويض عما نالها من الآلام والشدائد، ثم تصير ترابًا. ومنهم من قال: يخلق الله لها رياضا فترعى فيها. ومنهم من قال: ما كان في لقائها أو صوتها أنس يدخل الجنة، ويفنى ما سواها".

أي: جمعت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى أنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، ثم يقال لها: كوني ترابا.

- وفي هذا إثبات حشر البهائم. وقد دل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ- قوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت).

ب- وقوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

=

=

ج- وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها) متفق عليه.

ه- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابا، فتكون ترابا، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا).

و- قوله ﷺ (لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) رواه مسلم. للشاة الجلحاء: وهي الجماء التي لا قرن لها.

ز- قال النووي: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، قال الله تعالى (وإذا الوحوش حشرت) وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره.

ح- البهائم لا حساب عليها حساب حسنات وسيئات وإنما يجري بينها القصاص، والحكمة: ليظهر عدل الله حتى في البهائم.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦].

في هذه الآية وجوه من التفسير:

أحدها: يبست، قاله الحسن ، وقتادة.

قال قتادة:"غار ماؤها فذهب".

وعن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحسين، في هذا الحرف:"{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، قال: يبست".

=

=

الثاني: فاضت، قاله الربيع بن خيثم ، والحسن.

الثالث: ملئت، أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت، قاله أبو الحجاج ، والكلبي.

قال ابن أبي زمنين:"«سجرت» حقيقته: ملئت، فيفضي بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا".

عن الكلبي، في قوله: "{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، قال: مُلئت، ألا ترى أنه قال: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}".

قال النحاس:"معروف في اللغة أن يقال: سجرت الشيء، ملأته. كما قال:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّريّ وَصَدَّعا... مَسْجُورَةٌ مُتَجاوِرًا قُلامُها

وقال: إذا شاء طالَعَ مَسْجُورَةً... تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّاسَمَا

أي: مملوءة".

قال أبو عبيدة:"{الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}: بعضه في بعض من الماء". ثم استشهد بالبيت السابق للنّمر بن تولب.

الرابع: فُجِّرت فصارت بحرًا واحدًا، قاله الضحاك.

قال الفراء:"أفضى بعضها إلى بعض، فصارت بحرا واحدا".

الخامس: فتحت وسيرت كما سيرت الجبال، قاله السدي.

السادس: هو حمرة مائها حتى تصير كالدم، مأخوذ من قولهم: عين سجراء، أي: حمراء. حكاه الماوردي.

وقال العلاء بن بدر: "إنما سمي: البحر المسجور، لأنه لا يشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة".

السابع: جُعَلِتْ مياهها نيرانًا بها يعذَب أهل النَّارِ. حكاه الزجاج.

قال النحاس:"وقيل: هذه بحار في جهنم إذا كان يوم القيامة. سجّرت أي: ملئت

=

=

بأنواع العذاب".

الثامن: يعني: أوقدت فانقلبت نارًا، قاله عليّ رضي الله عنه ، وابن عباس ، وأُبي بن كعب ، وعكرمة ،ومجاهد ، وسفيان ، وابن زيد ، وشمر بن عطية ، ووهب بن منبه.

عن سفيان: "{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، قال: أوقدت".

قال مجاهد:"يقول: أوقدت".

قال ابن عباس:"كوّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، فيبعث عليها ريحا دبورا، فتنفخه حتى يصير نارا، فذلك قوله: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}".

قال ابن عباس:"تسجر حتى تصير نارا".

قال أبيّ بن كعب:"قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي تأجج نارا".

عن سعيد بن المسيب، قال: "قال عليّ رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ فقال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقا: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، مخففة".

عن شمر بن عطية، قوله: "{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، قال: بمنزلة التنور المسجور {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، مثله".

قال ابن زيد:"إنها توقد يوم القيامة، زعموا ذلك التسجير في كلام العرب".

عن بن سليمان أبو سليمان النفاط - شيخٌ صَالِح يُشبهُ مالكَ بن أنس - عن معاوية بن سعيد قال: "إن هذا البحر بركة - يعني بحر الرُّوم - وسط الأرض، والأنهار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر".

وفي سنن أبي داود: "لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر نارا، وتحت النار بحرا" الحديث.

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: مُلئت حتى فاضت، فانفجرت وسالت كما وصفها الله به في الموضع الآخر، فقال: "وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ " والعرب تقول للنهر أو للرَّكيّ المملوء: ماء مسجور؛ ومنه قول لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّرِيّ وَصَدَّعا... مَسْجُورَةً مُتَجاوِرًا قُلامُها

ويعني بالمسجورة: المملوءة ماء".

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف «سجرت»، إخبارًا عن حالها مرة واحدة، وقرأ الباقون بالتشديد، إخبارًا عن حالها في تكرار ذلك منها مرة بعد أخرى.

قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧].

وفي تفسير هذه الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أُلحِقَ كلُّ إنسان بشكله، وقُرِنَ بين الضُّرَباءِ والأمثال. وهذا قول عمر بن الخطاب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع بن خثيم. واختاره الطبري ، وابن كثير.

قال ابن قتيبة:"قُرنتْ بأشكالها في الجنة والنار".

قال ابن عطية:"وفي الآية على هذا حض على خليل الخبر، فقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «المرء مع من أحب» ، وقال: «فلينظر أحدكم من يخالل» ، وقال الله تعالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف: ٦٧]".

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:"يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار".

عن سماك، عن النعمان بن بشير، عن النبيّ ﷺ، والنعمان عن عمرو قال: "{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} ، قال: الضرباء كلّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك أن الله يقول: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ

=

الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، قال: هم الضرباء".

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:"أُلحِقَ كلُّ إنسان بشكله، وقُرِنَ بين الضُّرَباءِ والأمثال". وفي لفظ:"هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة، وقال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، قال: ضرباءَهم".

قال النعمان بن بشير: "سمعت عمر بن الخطاب وهو يخطب، قال: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}، ثم قال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}، قال: أزواج في الجنة، وأزواج في النار".

عن ابن عباس، قوله: "{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}، قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة".

قال الحسن:"ألحق كلّ امرئ بشيعته".

قال قتادة:"لحق كلُّ إنسان بشيعته، اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى".

قال مجاهد:"الأمثال من الناس جُمِع بينهم".

قال الربيع بن خثيم:"يحشر المرء مع صاحب عمله". وفي لفظ:"يجيء المرء مع صاحب عمله".

الثاني: أن الأرواح ردّت إلى الأجساد فزوّجت بها، أي: جعلت لها زوجا. قاله ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري.

قال عكرمة:"الأرواح ترجع إلى الأجساد". وفي لفظ:"ردّت الأرواح في الأجساد".

قال الشعبيّ:"زوّجت الأجساد فردّت الأرواح في الأجساد".

=

روي عن أبي العالية في قوله: "{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}، قال: سيأتي أوّلها والناس ينظرون، وسيأتي آخرها إذا النفوس زوّجت".

روي سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاما، فينبت منه كل خلق بلي، من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض. قد نبتوا، ثم تُرسَل الأرواح فتزوج الأجساد، فذلك قول الله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}".

الثالث: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين. قاله عطاء، ومقاتل، وحكاه القرطبي في "التذكرة".

قال مقاتل:"أزوجت أنفس المؤمنين مع الحور العين، وأزوجت أنفس الكافرين مع الشياطين يعني ابن آدم وشيطانه مقرونا في السلسلة الواحدة زوجان، نظيرها في سورة الصافات قوله- ﷻ-: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُم} [الصافات: ٢٢]، يعنى: قرناءهم".

قال سهل:"قيل: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وزوجت نفوس الكفار بالشياطين، قد قرن بين الكافر والشيطان في سلسلة واحدة. وفي الآية تحذير من قرناء السوء. قرن بين نفس الطبع ونفس الروح، فامتزجا في نعيم الجنة، كما كانا في الدنيا مؤتلفين على إدامة الذكر وإقامة الشكر".

قال الطبري:"وأولى التأويلين في ذلك بالصحة، الذي تأوّله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للعلة التي اعتلّ بها، وذلك قول الله تعالى ذكره: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}، وقوله: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، وذلك لا شكّ الأمثال والأشكال في الخير والشرّ، وكذلك قوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} بالقرناء والأمثال في الخير والشرّ".

=

=

قال في التسهيل (وإذا النفوس زوجت) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن التزويج بمعنى التنويع لأن الأزواج هي الأنواع، فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن.

والثاني: زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين.

والثالث: زوجت الأرواح والأجساد أي ردت إليها عند البعث، والأول هو الأرجح، لأنه روي عن النبي ﷺ وعن عمر بن الخطاب وابن عباس.

(فائدة) قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/ ١١٣١): قرأ قارئ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)} وفي الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية وسير الجبال، ودك الأرض وفطر السماء، ونثر النجوم وكور الشمس؟.

فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر، والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها.

فأراد أن يعلمهم بأن الكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وبيان القدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم، وأن معبوديهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت = ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم، فكم لله تعالى من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية، وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها

=

=

لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين ا.هـ

قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: ٨].

قال ابن قتيبة:" {الْمَوْءُودَةُ} البنت تُدْفَنُ حيَّةً".

قال الماوردي:"كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت امرأته بنتًا دفنها حية، إما خوفًا من السبي والاسترقاق، وإما خشية الفقر والإملاق، وكان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه حتى افتخر الفرزدق، فقال:

ومِنَّا الذي مَنَعَ الوائِداتِ... فأحْيا الوَئِيدَ فلم تُوأَدِ

وسميت «موءودة»، للثقل الذي عليها من التراب، ومنه قوله تعالى: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يثقله، وقال متمم بن نويرة:

وموءودةٍ مقبورة في مفازةٍ... بآمتها موسودة لم تُمهّدِ".

يروى أنّ أول قبيلة وأدت من العرب ربيعة، حيث أن بنتا لأمير لهم وقعت أسيرة في أيدي قبيلة أغارت عليها، فلما عقد الصلح، لم تشأ البنت العودة إلى بيت أبيها، واختارت بيت آسرها، فغضب وسن لقومه الوأد، وقلدته بقية العرب. ويذكر أن الوأد كان مستعملًا في قبائل العرب قاطبة فكان يستعمله واحد، ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم، فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الإسلام.

واختلف هل «الْمَوْءُودَةُ»، هي السائلة أو المسئولة، على قولين:

أحدهما: -وهو قول الأكثرين- أنها هي المسئولة: {بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}، فتقول: لا ذنب لي، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره.

قال صاحب التسهيل: "«الموءودة»:هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية، من كراهته لها أو غيرته عليها، فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت؟ على وجه التوبيخ".

=

=

قال ابن كثير:"«الموءودة»: هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديدا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟!".

الثاني: أنها هي السائلة لقاتلها لم قتلت، فلا يكون له عذر، قاله ابن عباس ، وكان يقرأ: «وإذا الموءودة سألَتْ».

قال مقاتل:"سئل قاتلها بأي ذنب قتلها وهي حية لم تذنب قط".

عن مسلم، في قوله: "«وَإِذَا المَوْءُودَةُ سألَتْ»، قال: طلبت بدمائها".

قال أبو الضحى:"«وَإِذَا المَوْءُودَةُ سألَتْ»: سألت قَتَلَتها".

قال الحسن:"{بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} أراد الله أن يُوَبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتلتْ بغير ذنب".

عن قتادة: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ}، هي في بعض القراءات: «سألَتْ بِأيّ ذَنْب قُتلَتْ»، لا بذنب، كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم".

قال الربيع بن خقيم:"كانت العرب من أفعل الناس لذلك".

قال ابن زيد في قوله: "{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ}، قال: البنات التي كانت طوائف العرب يقتلونهنّ، وقرأ: {بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}".

عن قتادة، قال: "جاء قيس بن عاصم التميمي إلى النبيّ ﷺ فقال: إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية، قال: «فأعْتِقْ عَنْ كُلّ وَاحِدَةٍ بَدَنَةً»".

عن عمر بن الخطاب في قوله: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ [بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}، قال: "جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: "أعتق عن كل واحدة منهن رقبة". قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل؟ قال: "فانحر عن كل واحدة منهن بدنة".

عن خليفة بن حُصَين قال: "قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا

=

=

رسول الله، إني وأدتُ اثنتي عشرة ابنَة لي في الجاهلية - أو: ثلاث عشرة - قال: "أعتق عددهن نَسِما". قال: فأعتق عددهن نسما، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين. قال علي بن أبي طالب: فكنا نريحها، ونسميها القيسية".

عن عائشة، عن جُدَامة بنت وهب - أخت عكاشة - قالت:"حضرتُ رسولَ الله ﷺ في ناس وهو يقول: "لقد هممت أن أنهى عن الغيلَة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا". ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: "ذلك الوأد الخفي، وهو الموءودة سئلت".

عن سلمة بن يزيد الجُعْفي قال: انطلقتُ أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، إن أمنا مليكة كانت تَصل الرحم وتقري الضيف، وتفعل وتفعل هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئا؟ قال: "لا". قلنا: فإنها كانت وأدت أختا لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعُها شيئا؟ قال: "الوائدةُ والموءودةُ في النار، إلا أن يدركَ الوائدةَ الإسلامُ، فيعفو الله عنها".

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "الوائدة والموءودة في النار".

عن حسناء ابنة معاوية الصُّرَيمية، عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: "النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والموءودة في الجنة".

عن عكرمة قال: قال ابن عباس: "أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله ﷻ: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}، قال ابن عباس: هي المدفونة".

قال الشَّافِعِي -رَحِمَهُ اللهُ-: "كان بعض العرب تقتل الإناث من ولدها صغارًا خوف العَيلَةِ عليهم، والعار بهم، فلما نهى الله عز ذكره عن ذلك من أولاد المشركين دل

=

=

على تثبيت النهي عن قتل أطفال المشركين في دار الحرب، وكذلك دلت عليه السنة مع ما دل عليه الكتاب، من تحريم القتل بغير حق".

أي: وإذا سأل الله البنت المدفونة وهي على قيد الحياة: ما الجريمة التي فعلتها حتى يدفنك أهلك، فيقتلونك بهذا الدفن، وهذا فيه تبكيت لقاتلها، وتهويل للموقف الذي يسأل فيه المجني عليه، فما ظنك بما يلاقيه الجاني لهذه الجناية البشعة؟

- **قال ابن كثير**: الموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ليكون ذلك تهديدا لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟

وقال الشيخ السعدي: فتسأل [بأي ذنب قتلت] ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها.

- وقد كان أهل الجاهلية يدفنون البنت وهي حية مخافة الفقر والعار كما قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون).

وقال تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين).

قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا صحف أعمال العباد نُشرت لهم بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات".

قال مقاتل:"وذلك أن المرء إذا مات طويت صحيفته، فإذا كان يوم القيامة نشرت للجن والإنس فيعطون كتبهم، فتعطيهم الحفظة منشورا بأيمانهم وشمائلهم".

قال الزجاج:"نشرت الصحف وأعطى كل إنسان كتابه بيمينه أو بشماله على قدر

=

=

عمله".

قال قتادة:"صحيفتك يا ابن آدم تملى ما فيها، ثم تُطوى، ثم تُنشر عليك يوم القيامة".

قال ابن جريج:"إذا مات الإنسان طُويتْ صحيفته، ثم تُنشر يوم القيامة، فيُحاسب بما فيها".

أي: الصحف المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر؛ نشرت وفرقت على أهلها، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

- قال القرطبي: قوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) أي فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول (مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها).

كما قال تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).

وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا).

وقال تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا).

وقال تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه)

وقال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابا يسيرا. وينقلب إلى أهله مسرورا. وأما من أوتي كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيرا).

=

=

قوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} [التكوير: ١١].

قال الفراء:"نزعت وطويت".

قال السمعاني:"أي: قلعت، وقيل: نزعت".

قال ابن أبي زمنين:"يقال: كشطت السقف، أي: قلعته، فكأن المعنى: قلعت فطويت".

قال ابن قتيبة:"أي: نزعتْ فطويتْ كما يقشطُ الغِطاءُ عن الشيء".

وحكي الماوردي عن الضحاك:"يعني: ذهبت، وعن السدي: كسفت، وعن يحيي بن سلام:"طويت، كما قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [الأنبياء: ١٠٤]،الآية".

قراءة عبد الله: «قشطت» بالقاف، وهما لغتان.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [التكوير: ١٢]، أي:"وإذا النار أوقدت فأضرِمت".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [التكوير: ١٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أحميت، قاله السدي.

الثاني: أُوقدت، قاله معمر عن قتادة.

قال مقاتل:"يعنى: أوقدت لأعدائه".

قال ابن أبي زمنين:"وهي توقد منذ خلقت السموات والأرض في الستة الأيام".

قال الزجاج:"أوقدت مرة بعد مرة".

الثالث: سعّرها غضب الله وخطايا بني آدم، قاله سعيد عن قتادة.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [التكوير: ١٣]، أي:"وإذا الجنة دار النعيم قُرِّبت من أهلها المتقين".

قال أبو عبيدة:"أدنيت".

=

=

قال الفراء:"قربت".

قال ابن أبي زمنين:"قربت من أهلها يوم القيامة".

قال مقاتل:"يعني: قربت لأوليائه".

قال الزجاج:"أي: قربت من المتقين".

عن قتادة: "{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}، قال: قربت".

عن الربيع بن خُثَيْم: "{وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}، قال: قُرِّبتْ، إلى هنا انتهى الحديث، فريق في الجنة وفريق في السعير".

أي: قربت إلى أهلها المتقون.

كما قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين).

وقال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد).

وقال تعالى (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم).

وقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين).

قوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} [التكوير: ١٤].

قال مقاتل:"يعني: علمت ما عملت فاستيقنت من خير أو شر تجزى به كل هذا يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: علمت نفس عند ذلك ما أحضرت من خير، فتصير به إلى الجنة، أو شرّ فتصير به إلى النار، يقول: يتبين له عند ذاك ما كان جاهلا به، وما الذي كان فيه صلاحه من غيره".

قال القشيري:"أيقنت كل نفس أن ما اجتهدت فيه لا يصلح لذلك المشهد، وأن من أكرم بخلع الفضل نجا، ومن قرن بجزاء أعماله خاب".

قال الزجاج:"أي: إذا كانت هذه الأشياء التي هي في يوم القيامة، علمت في ذلك

=

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥).

{فلا أقسم} لا زائدة {بالخنس}.

الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦).

{الجوار الْكُنَّس} هِيَ النُّجُوم الْخَمْسَة زُحَل وَالْمُشْتَرَى وَالْمَرِّيخ وَالزُّهَرَة

=

الوقت كل نفس ما أَحْضَرَتْ، أَي مِنْ عَمَل، فأثيبت عَلَى قَدْرِ عَمَلِها".

قال النحاس:"قيل: معناه: ما وجدته حاضرا، كما تقول: أحمدت فلانا، أي: أصبته محمودا".

عن قتادة: "{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}: من عمل".

قال القشيري:"هو جواب لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة".

قال عمر بن الخطاب: «لهذا جرى الحديث».

قال ابن كثير:"قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]".

وقال الحسن: "{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير: ١] قسم وقع على قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} [التكوير: ١٤].

أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها.

كما قال تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا).

وقال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا).

وقال تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا).

وَعُطَارِد تَخْنُس بِضَمِّ النُّون أَيْ تَرْجِع فِي مَجْرَاهَا وَرَاءَهَا بَيْنَمَا نَرَى النَّجْم فِي آخِر الْبُرْج إِذْ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى أَوَّله وتكنس النُّون تَدْخُل فِي كِنَاسهَا أَيْ تَغِيب فِي الْمَوَاضِع الَّتِي تَغِيب فِيهَا.

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧).

{وَاللَّيْل إِذَا عَسْعَسَ} أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ أَوْ أَدْبَرَ.

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨).

{وَالصُّبْح إِذَا تَنَفَّسَ} اِمْتَدَّ حَتَّى يَصِير نَهَارًا بينا.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩).

{إِنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {لَقَوْل رَسُول كَرِيم} عَلَى الله تَعَالَى وَهُوَ جِبْرِيل أُضِيفَ إِلَيْهِ لِنُزُولِهِ به.

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠).

{ذِي قُوَّة} أَيْ شَدِيد الْقُوَى {عِنْد ذِي الْعَرْش} أَيْ الله تَعَالَى {مَكِين} ذِي مَكَانَة مُتَعَلِّق بِهِ عِنْد.

مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١).

{مُطَاع ثَمَّ} تُطِيعهُ الْمَلَائِكَة فِي السَّمَاوَات {أَمِين} على الوحي.

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢).

{وَمَا صَاحِبكُمْ} مُحَمَّد ﷺ عُطِفَ عَلَى إِنَّهُ إِلَى آخِر الْمُقْسَم عَلَيْهِ {بِمَجْنُونٍ} كَمَا زَعَمْتُمْ.

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣).

{وَلَقَدْ رَآهُ} رَأَى مُحَمَّد ﷺ جِبْرِيل عَلَى صُورَته الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا {بِالْأُفُقِ الْمُبِين} الْبَيِّن وَهُوَ الْأَعْلَى بِنَاحِيَةِ الْمَشْرِق.

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) .

{وَمَا هُوَ} مُحَمَّد ﷺ {عَلَى الْغَيْب} مَا غَابَ مِنْ الْوَحْي وَخَبَر السماء {بظنين} أَيْ بِمُتَّهَمٍ وَفِي قِرَاءَة بِالضَّادِ أَيْ بِبَخِيلٍ فَيَنْتَقِص شَيْئًا مِنْهُ.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥).

{وَمَا هُوَ} أَيْ الْقُرْآن {بِقَوْلِ شَيْطَان} مُسْتَرِق السَّمْع {رَجِيم} مَرْجُوم.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦).

{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} فَبِأَيِّ طَرِيق تَسْلُكُونَ فِي إِنْكَاركُمْ الْقُرْآن وَإِعْرَاضكُمْ عَنْهُ.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧).

{إِنْ} مَا {هُوَ إِلَّا ذِكْر} عِظَة {لِلْعَالَمِينَ} الإنس والجن.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨).

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ} بَدَل مِنْ الْعَالَمِينَ بِإِعَادَةِ الجار {أن يستقيم} باتباع الحق.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

{وما تشاؤون} الِاسْتِقَامَة عَلَى الْحَقّ {إِلَّا أَنْ يَشَاء الله رب العالمين} الخلائق استقامتكم عليه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: لما أنزل الله ﷻ على رسوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)}؛ قالوا: الأمر إلينا؛ إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم؛ فأنزل الله ﷻ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)}.

أخرجه الفريابي في "القدر" (ص ٢٣٤، ٢٣٥ رقم ٤٢٣) -ومن طريقه البيهقي في "القدر" (ص ٣٢٨) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ٢٢٧) من طريق بقية عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي =

=

هريرة به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ بقية بن الوليد مدلس وقد عنعن.

وأخرجه الفريابي (٤٢٤)، والبيهقي (ص ٣٢٨) من طريق محمد بن مصفى ثنا بقية ثني عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة.

وهذا منقطع؛ لأن زيد بن أسلم لم يسمع من أبي هريرة.

وعن سليمان بن موسى؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)}؛ قال أبو جهل: الأمر إلينا؛ إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم؛ فأنزل الله ﷻ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٥٣، ٥٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٨)، و"الوسيط" (٤/ ٤٣٢)، وابن بطة في "الإبانة" (رقم ١٨٩٧). وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن القاسم بن مخيمرة؛ قال: لما نزلت: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)}؛ قال أبو جهل: أرى الأمر إلينا، قال: فنزلت: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٥٣) عن ابن المبارك عن الأوزاعي عن سليمان بن موسى عن القاسم بن مخيمرة به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [التكوير: ١٥ - ١٦]، أي:"فأقسم بالنجوم المختفية أنوارها نهارًا، الجارية والمستترة في أبراجها".

قال الزجاج:"المعنى: فأقسم، و «لَا» مؤكدة".

قال النحاس:"«لا» زائدة للتوكيد، أي: فأقسم بالخنس".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [التكوير: ١٥ - ١٦]، أقوال:

=

=

أحدها: أنها النجوم على الإطلاق، قاله علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وبكر بن عبد الله المزني ، والسدي ، وابن زيد ، وبه قال أبو عبيدة.

قال مجاهد:"هي النجوم".

قال قتادة:"هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار".

قال الحسن:"هي النجوم تخنس بالنهار، و {الْجِوَارِ الْكُنَّسِ} : سيرهنّ إذا غبن".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :"هي النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل".

وفي لفظ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:"النجوم".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :"هل تدرون ما الخنس؟ هي النجوم تجري بالليل، وتخنس بالنهار".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :"يعني النجوم تكنس بالنهار، وتبدو بالليل".

قال ابن عباس:"الخنس: نجوم تجري، يقطعن المجرة كما يقطع الفرس".

قال ابن زيد:"الخنس والجواري الكنس: النجوم الخنس، إنها تخنس تتأخر عن مطلعها، هي تتأخر كلّ عام لها في كلّ عام تأخر عن تعجيل ذلك الطلوع تخنس عنه. والكنس: تكنس بالنهار فلا تُرَى. قال: والجواري تجري بعد، فهذا الخنس الجواري الكنس".

قال الواحدي:"أكثر المفسرين على أن المراد بها النجوم".

قال ابن الجوزي:"الأكثرون على أنها النجوم".

قال الزجاج:"الخنس: -ههنا- أكثر التفسير يعنى بها: النجوم، لأنها تَخْنِس، أَي: تَغِيبُ، لأن مَعَنى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٧ - ١٧]. وَمَعَنَى «الخُنَس»، و «الكُنْس» في النجوم أنها تطلع جارية، وكذلك تخْنسُ، أي تغيب، وكذلك تكنس تدخل في كناسها، أي تغيب في المواضع التي تغيب

=

=

فيها".

الثاني: أنها خمسة أنجم تَخْنُس بالنهار فلا تُرى، وهي: زُحَل، وعُطَارد، والمشتري، والمرّيخ. فتستتر في بيوتها كما تكنس الظباء في المغار، قاله عليّ ، وبه قال مقاتل ، والفراء ، وابن قتيبة.

قال مقاتل:"هي خمس من الكواكب، بهرام، والزهرة، وزحل، والبرجهس يعني: المشترى، وعطارد، والخنس: التي خنست بالنهار فلا ترى، وظهرت بالليل فترى".

قال الفراء:"هي النجوم الخمسة تخنس في مجراها، ترجع وتكنس: تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس. والخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشترى".

قال ابن قتيبة:"النجوم الخمسة الكبار؛ لأنها تَخْنِس – أي: ترجع في مجراها – وتَكْنِسُ –أي: تستتر – كما تكنس الظِّباء في المَغارِ؛ وهو: الكِناسُ".

قال علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:"هي الكواكب".

قال علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:"هي الكواكب، تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى".

قال عبد الله:"هي النجوم الدراريّ، التي تجري تستقبل المشرق".

وفي تخصيصها بالذكر وجهان:

أحدهما: لأنها لا تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني.

الثاني: لأنها تقطع المجرة، قاله ابن عباس.

القول الثالث: أن «الخنس»: بقر الوحش، قاله ابن مسعود ، وعمر بن شرحبيل ، وابن عباس–أيضا– ، وسعيد بن جبير ، وجابر بن زيد ، وإبراهيم النخعي ، وابن وهب.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:"{الْجَوَارِي الْكُنَّسِ} قال: البقر الوحش،

=

=

تكنس إلى الظل".

عن عبد الله بن مسعود:"أنه قال لأبي ميسرة: ما الجواري الكنس؟ قال: فقال بقر الوحش، قال: فقال: وأنا أرى ذلك".

عن عمرو ابن شرحبيل، قال: "قال ابن مسعود: يا عمرو ما الجواري الكنس، أو ما تراها؟ قال عمرو: أراها البقر، قال عبد الله: وأنا أراها البقر".

عن أبي ميسرة، عن عبد الله، في قوله: "{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}: قال: بقر الوحش".

عن إبراهيم، قوله: "{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}، قال: هي بقر الوحش".

عن الحجاج بن المنذر، قال: سألت أبا الشَعثاء جابر بن زيد عن {الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}، قال: هي البقر إذا كَنَست كوانسها". قال ابن وهب: "يريد بالكنس إذا انفرت من الذباب".

قال عبد الله بن وهب: "هي البقر إذا فرّت من الذئاب، فذلك الذي أراد بقوله: كنست كوانسها".

عن مغيرة، قال: "سُئل مجاهد ونحن عند إبراهيم، عن قوله: {الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}، قال: لا أدري، فانتهره إبراهيم وقال: لِمَ لا تدري؟ فقال: إنهم يروُون عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكنا نسمع أنها البقر، فقال إبراهيم: هي البقر، الجواري الكنس: حِجَرة بقر الوحش التي تأوي إليها، والخنس الجوارى: البقر".

عن المغيرة، قال: سُئل مجاهد عن الجواري الكنس قال: لا أدري يزعمون أنها البقر؛ قال: فقال إبراهيم: ما لا تدري هي البقر، قال: يذكرون عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها النجوم، قال: يكذبون على عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ".

عن مغيرة، عن إبراهيم ومجاهد:"أنهما تذاكرا هذه الآية: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}، فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها ما سمعت، قال: فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئا، وناس يقولون: إنها النجوم، قال: فقال إبراهيم: إنهم يكذبون

=

=

على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا كما رَوَوْا عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه ضمَّن الأسفل الأعلى، والأعلى الأسفل".

الرابع: أنها الظباء، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير، والضحاك، قال أوس بن حَجَر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أنزلَ مُزْنَةً... وعُفْرُ الظِّباءِ في الكِناسِ تَقَمَّعُ

قال الزجاج:"وقيل: الخنس -ههنا- يعني: بَقَر الْوَحْشِ وظباء الوحش، ومعنى خُنس جمع خَانِسٍ والظباء خنسٌ والبَقَر خُنسٌ. والخَنسُ قِصَرُ الأنف وتأخره عَنِ الفَمِ، وإذا كان للبقر أو كان للظباء فمعنى الكنس أي: التي تكنس، أي: تدخل الكِنَاسَ وهو الغصن من أَغْصَانِ الشجَر".

قال النحاس:"إذا كان التقدير: فأقسم بربّ الخنس، فالمعنى واحد إلا أن القول الأول أجلها وأعرفها، وإنما يقال لبقر الوحش والظباء: خنّس، الواحد: أخنس، وخنساء. كما قال:

خنساء ضيّعت الغرير فلم ترم... عرض الشّقائق طرفها ويغامها

وواحد الخنس: خانس. والجمع: خنس وخناس".

قال الطبري:"أولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بأشياء تخنس أحيانا: أي تغيب، وتجري أحيانا وتكنس أخرى، وكنوسها: أن تأوي في مكانسها، والمكانس عند العرب: هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء، واحدها: مَكْنِس وكناس.. وغير مُنكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء، فالصواب أن يُعَمّ بذلك كلّ ما كانت صفته الخنوس أحيانا والجري أخرى، والكنوس بآنات على ما وصف جلّ ثناؤه من صفتها".

=

قولـه تعـالى: {وَاللَّيْـلِ إِذَا عَـسْعَسَ} [التكـوير: ١٧]، أي:"والليـل إذا أقبـل بظلامه".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: ١٧]، وجوه:

أحدها: أي: أظلم، قاله الحسن ، وعطية ، قال الشاعر:

حتى إذ ما لَيْلُهُنَّ عَسْعَسا... رَكِبْنَ مِن حَدِّ الظّلام حِنْدسًا

عن الحسن:"{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} ، قال: إذا غَشِيَ الناسَ".

عن عطية:"{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} ، قال: أشار بيده إلى المغرب".

قال الفراء:"وكان بعض أصحابنا يزعم أن «عسعس»: دنا من أوله وأظلم، وكان أبو البلاد النحوي ينشد فيه:

عسعس حتى لو يشاء أدنا... كان له من ضوئه مقبس

يريد: إذ دنا".

الثاني: إذا أدبر، قاله علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، زيد بن أسلم ، وابنه عبدالرحمن.

قـال الفـراء:"اجتمـع المفـسرون: علـى أن معنـى «عـسعس»: أدبـر". قـال النحاس:"وهذا غلط. روى مجاهد عن ابن عباس «إذا عسعس»: إذا أدبر..".

قال ابن زيد:"عسعس: تولى، وقال: تنفس الصبح من هاهنا، وأشار إلى المشرق طلاع الفجر".

عـن عبـد الـرحمن بـن زيـد بـن أسـلم عـن أبيـه: {وَاللَّيْـلِ إِذَا عَـسْعَسَ} ، قـال: إذا ذهب".

عـن أبـي ظَبيـان، قـال: "كنـت أتبـع علـيّ بـن أبـي طالـب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، وهـو خـارج نحـو المشرق، فاستقبل الفجر، فقرأ هذه الآية: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} ".

عن أبي عبد الرحمن، قال: "خـرج علـيّ عَلَيْهِالسَّلَامُ ممـا يلـي بـاب الـسوق، وقـد طلـع

=

الصبح أو الفجر، فقرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}، أين السائل عن الوتر، نعم ساعة الوتر هذه".

الثالث: إذا أقبل، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل ، وبه قال أبو عبيدة.

عن مجاهد: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، قال: إقباله، ويقال: إدباره".

قال مقاتل:"يعنى: إذا أظلم.

قال السجستاني:"عسعس «الليل»: أقبل ظلامه. ويقال: أدبر ظلامه، وهو من الأضداد".

قال الطبري:"الصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر، وذلك لقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}، فدلّ بذلك على أن القسم بالليل مدبرًا، وبالنهار مقبلا والعرب تقول: عسعس الليل، وسَعْسَع الليل: إذا أدبر، ولم يبق منه إلا اليسير؛ ومن ذلك قول رُؤْبة بن العجاج:

يا هِنْدُ ما أَسْرَعَ ما تَسَعْسَعا... وَلَوْ رَجا تَبْعَ الصِّبا تَتَبَّعا

فهذه لغة من قال: سعسع؛ وأما لغة من قال: عسعس، فقول علقمة بن قُرْط:

حتى إذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسا... وانْجابَ عَنْها لَيْلُها وَعَسْعَسا

يعني: أدبر".

قال الماوردي: "وأصله العس وهو الامتلاء، ومنه قيل للقدح الكبير عس لامتلائه بما فيه، فانطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وانطلق على ظلامه لاستكمال امتلائه".

عن عمرو بن حريث قال: "سمعت النبي ﷺ قرأ في الصبح: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني: يقرأ في الصبح: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}".

قوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٨]، أي:"والصبح إذا ظهر ضياؤه".

=

=

قال الطبري:"يقول: وضوء النهار إذا أقبل وتبين".

عن قتادة: "{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}: إذا أضاء وأقبل".

قال مقاتل:"يعني: إذا أضاء لونه".

عن سعيد: "{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}، قال: إذا نشأ".

قال ابن عباس:"إذا بدا النهار حين طلوع الفجر".

قال الفراء:"إذا ارتفع النهار، فهو تنفس الصبح".

قال الزجاج:"إذا امتدَّ حَتَى يصيرَ نَهَارًا بيِّنًا".

وإقسامه تعالى بهذه المخلوقات العظيمة، لما فيها من الدلالة على بديع حكمته تعالى وعظيم قدرته.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [التكوير: ١٩].

قال الزجاج:"هذا جواب القسم، يعنى: أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام".

قال مقاتل:"فأقسم الله- تعالى- بهؤلاء الآيات أن هذا القرآن، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} على الله، يعني: جبريل- عليه السلام-، هو علم محمدا- صلى الله عليه وسلم-".

وفي «الرسول الكريم»، قولان:

أحدهما: جبريل-عليه السلام-، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك.

قال الطبري:"إن هذا القرآن لتنزيل رسول كريم؛ يعني: جبريل، نزله على محمد بن عبد الله".

الثاني: النبي -صلى الله عليه وسلم-، قاله ابن عيسى.

قال الماوردي:"فإن كان المراد به جبريل فمعناه قول رسول لله كريم عن رب العالمين، لأن أصل القول الذي هو القرآن ليس من الرسول، إنما الرسول فيه مبلغ على الوجه الأول، ومبلغ إليه على الوجه الثاني".

وهذا جواب القسم، والمعنى: إن القرآن تبليغ جبريل أشرف الملائكة.

=

=

- فالضمير في قوله (إنه) يعود إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر في السورة لأنه معلوم معهود.

- المراد بالرسول هنا جبريل عليه السلام كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) فأضافه عز وجل إلى جبريل عليه السلام لأنه هو الواسطة بين الله وبين الرسول ﷺ ، كما أضافه إلى النبي ﷺ في قوله في سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)

(كريم) أي: شريف حسن الأخلاق والصفات، جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير.

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (نه لقول رسول كريم) ظاهر هذه الآية يتوهم منه الجاهل أن القرآن كلام جبريل مع أن الآيات القرآنية مصرحة بكثرة بأنه كلام الله كقوله (فأجره حتى يسمع كلام الله) وكقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير).

والجواب واضح من نفس الآية لأن الإيهام الحاصل من قوله (إنه لقول) يدفعه ذكر الرسول لأنه يدل على أن الكلام لغيره لكنه أرسل بتبليغه فمعنى قوله رسول أي تبليغه عمن أرسله من غير زيادة ولا نقص.

قوله تعالى: {ذِي قُوَّةٍ} [التكوير: ٢٠]، أي:"ذِي قوة في تنفيذ ما يؤمر به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ذي قوّة، يعني: جبرائيل على ما كلف من أمر غير عاجز".

قال الزجاج:"قيل إنه من قوة جبريل ﷺ أنه قَلَبَ مَدِينة قوم لُوطٍ بِقَوَادِمِ جناحه وهي قرى أربع".

قال القشيري:"وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوط وقلبها".

قوله تعالى: {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: ٢٠]، أي:"صاحبِ مكانة رفيعة

=

=

عند الله".

قال الطبري:"يقول: هو مكين عند ربّ العرش العظيم".

قال القشيري:"«مَكِينٍ» من المكانة".

قال مقاتل:"جبريل- عليه السلام- يقول: وهو وجيه عند الله- عز وجل-".

قال ابن كثير:"أي: له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة".

قال ابن عطية:"وذكر الله تعالى نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيها على عظم ملكوته".

أي: هو قوة عظيمة في بطشه وفعله (علمه شديد القوى. ذو مرة).

قوله تعالى: {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ٢١].

قال الطبري:"عني جبريل صلى الله عليه وسلم، مطاع في السماء تطيعه الملائكة، أمين عند الله على وحيه ورسالته وغير ذلك مما ائتمنه عليه".

قال ابن عطية:"أي: مقبول القول مصدق بقوله مؤتمن على ما يرسل به، ويؤدي من وحي وامتثال أمر".

قال ابن كثير:"أي: له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى".

عن أبي صالح: "{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}، قال: جبريل عليه السلام، أمين على أن يدخل سبعين سرادقا من نور بغير إذن". وفي رواية:"أمين على سبعين حجابًا يدخلها بغير إذن".

قال ميمون بن مِهْران في قوله: "{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}، قال: ذاكم جبريل -عليه السلام-".

عن قتادة قوله: "{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ}، مطاع عند الله، {ثَمَّ أَمِينٍ}".

قال قتادة:"{مُطَاعٍ ثَمَّ}، أي: في السموات". يعني: "ليس هو من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، مُعتَنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة".

=

=

قال ابن عباس:"يعني: جبريل".

قال الضحاك: {مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} "يعني: جبريل عليه السلام".

قال الحسن:"أمر الله أهل السماء بطاعة جبريل، كما أمر أهل الأرض أن يطيعوا محمدا".

قال النحاس:"أي: مطاع في السموات، {أَمِينٍ} على وحي الله جلّ وعزّ ورسالاته، فهذا التمام".

قال مقاتل:"يسمى أمينا لما استودعه- عز وجل- من أمره في خلقه".

قال السمعاني:"في التفسير أن الملائكة يطيعونه فيما يأمرهم به. وقد قيل: إن معناه أنه قال: لرضوان خازن الجنان ليلة المعراج: افتح الباب لمحمد ففتحه. وقال لمالك خازن النار: افتح اللباب لمحمد ففتحه، وقيل في معنى «الأمانة:، أنه يرفع سبعين سرادقا من غير استئذان. وقيل: يلج سبعين حجابا من نور من غير استئذان".

- قال ابن الجوزي: فمن طاعة الملائكة له: أنه أمر خازن الجنة ليلة المعراج حتى فتحها لمحمد ﷺ فدخلها ورأى ما فيها، وأمر خازن جهنم ففتح له عنها حتى نظر إليها.

(أمين) أي: ذو أمانة عظيمة على ما أؤتمن عليه من الوحي.

- **قال ابن كثير**: وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا ﷺ (وما صاحبكم بمجنون).

- قال ابن عاشور: والأمين الذي يحفظ ما عهد له به حتى يؤديه دون نقص ولا تغيير.

- قال ابن القيم: وصف الله رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن

=

=

تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوا وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

قوله تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير: ٢٢]، أي:"وما محمد الذي تعرفونه بمجنون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما صاحبكم أيها الناس محمد بمجنون فيتكلم عن جنة، ويهذي هذيان المجانين {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}".

قال النحاس:"أي: ليس خطابه ولا بيانه ولا فعله فعل مجنون".

قال مقاتل:"يعني: النبي- ﷺ- وذلك أن كفار مكة قالوا: إن محمدا مجنون، وإنما تقوله من تلقاء نفسه".

عن أبي صالح:"{وما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}، قال: محمد ﷺ".

قال ميمون بن مهران: "{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}، قال: ذاكم محمد ﷺ".

قال الزجاج:"هذا أيضًا جواب القسم، المعنى فأقسم بهذه الأشياء أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام، وأقسم بهذه الأشياء {مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}، يعني به: النبي ﷺ لأنهم قالوا: (يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}. فقال: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}. وقال في هذا الموضع {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}".

أي: ليس بمختل العقل كما تزعمون، وهم - وإن تفوهوا بهذا وزعموه - فهم يعلمون أنه ليس بمجنون، وهم كاذبون، ولهذا قال (وما صاحبكم) أي: الذي تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته وكمال عقله، كما قال تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون).

قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير: ٢٣]، أي:"ولقد رأى محمد ﷺ جبريل الذي يأتيه بالرسالة على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها في

=

=

الأفق العظيم من ناحية المشرق بـ «مكة»، وهي الرؤية الأولى الواقعة بـ «غار حراء»".

وفي الذي رآه قولان:

أحدهما: أنه رأى ربه بالأفق المبين، قاله الحسن ، وهو معنى قول ابن مسعود.

قال الماتريدي:"أي: عظمته وسلطانه من وجه لا يقع به تشابه، وخص بالأفق؛ لأنه من الأفق تنزل البركات وتنزل الملائكة وأنواع الخير كلها، والمراد من ذلك الأماكن كلها".

وعن عباد بن منصور قال: "سألت عكرمة: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: ١١]، فقال: عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن، فقال: رأى جلاله وعظمته ورداءه".

وروي عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ قال: قلنا يا نبيّ الله: هل رأيت ربك؟ قال: "لَمْ أَرَهُ بعَيْني، ورأيتُهُ بفُؤَادي مَرَّتَيْن"، ثم تلا: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}".

عن أبي ذر قال: "رآه بقلبه، ولم يره بعينه".

عن عطاء، عن ابن عباس، قال: «رآه بقلبه».

قال ابن كثير:"ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة، رضي الله عنهم ، وقولُ البغوي في تفسيره: «وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس ، والحسنُ ، وعكرمة ». فيه نظر، والله أعلم".

الثاني: رأى جبريل بالأفق المبين على صورته التي هو عليها. قالته أم المؤمنين عائشة ، وابن مسعود ، مجاهد ، وقتادة ، وعامر ، وأبو الأحوص ، وابن زيد.

قلت: والذي عليه جمهور المفسرين، ورجحه الطبري ، وابن عطية ، وابن كثير أن الذي رآه النبي -ﷺ- هو جبريل.

=

=

قال ابن عطية:"أجمع المفسرون على أن قوله: {وَما صاحِبُكُم}، يراد به محمد ﷺ، والضمير في {رَآهُ}: جبريل عليه السلام، وهذه الرؤية التي كانت بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض. وقيل هذه الرؤيا التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء، وسمى ذلك الموضع أفقا مجازا، وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه، ووصف الأفق ب الْمُبِينِ، لأنه كان بالشرق من حيث تطلع الشمس".

قال الماتريدي:"ذكر أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام أن يراه على صورته، فقال له جبريل عليه السلام: "إن الأرض لا تسعني، ولكن إذا صليت الفجر، فانظر إلى أفق السماء؛ فهنالك تراني "، ففعل فرآه على صورته، ثم دنا منه، فكان قاب قوسين أو أدنى، فذكر الأفق؛ لأن الشيء من البعد لا يتهيأ أن يرى من أقطار الأرض؛ لذلك خصت الأفق؛ إذ كذلك تقع رؤية ما بعد".

عن مسروق، عن عائشة، أن عائشة قالت: يا أبا عائشة من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله؛ قال: وكنت متكئا، فجلست، فقلت: يا أمّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، أرأيت قول الله: {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأفُقِ الْمُبِينِ}، قال: إنما هو جبريل رآه مرّة على خلقه وصورته التي خلق عليها، ورآه مرة أخرى حين هبط من السماء إلى الأرض سادّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض، قالت: أنا أوّل من سأل النبيّ ﷺ عن هذه الآية، قال "هو جبريل عليه السلام".

قال الطبري:" {ولقد رآه}، أي: محمدٌ رأى جبريل ﷺ في صورته بالناحية التي تبين الأشياء، فترى من قبَلها، وذلك من ناحية مطلع الشمس من قِبَل المشرق".

قال ابن كثير:"يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح {بِالأفُقِ الْمُبِينِ}، أي: البين،

=

=

وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ٥ - ١٠]، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره. والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل، عليه السلام. والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة "النجم"، وقد نزلت بعد سورة الإسراء".

عن ابن مسعود: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ}، قال: "رأى جبريل له خمسمائة جناح، قد سد الأفق".

قال ابن مسعود:"رأى جبريل في وبر رجليه كالدرّ، مثل القطر على البقل".

قال ابن زيد:"رأى جبريل بالأفق المبين".

عن مجاهد: "{بِالأُفُقِ الْمُبِينِ}: الأعلى. قال: بالأفق من نحو: «أجياد»".

قال مجاهد:"رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه ثياب خضر قد سد الأفق".

قال قتادة:"أي: جبريل له خمسمائة جناح، قد سد الأفق".

قال قتادة:"كنا نحدَّث أن الأفق حيث تطلع الشمس".

قال قتادة:"كنا نحدَّث أنه الأفق الذي يجيء منه النهار".

قال أبو الأحوص: "رأى جبريل له ستّ مئة جناح في صورته".

عن عامر، قال: "ما رأى جبريل النبيّ ﷺ في صورته إلا مرّة واحدة، وكان يأتيه في صورة رجل يقال له: دَحْية، فأتاه يوم رآه في صورته قد سدّ الأفق كله، عليه سندس أخضر معلق الدّر، فذلك قول الله: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ}، وذُكر أن هذه الآية في «إذا الشمس كوّرت»: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} في جبريل، إلى قوله:

=

=

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}، يعني: النبيّ ﷺ".

فالمقصود بهذه الرؤية: رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام لأول مرة، على الهيئة التي خلقه الله عليها، عند ما كان الرسول ﷺ يتعبد في غار حراء، وكان ﷺ قد سأل جبريل أن يريه نفسه، على الهيئة التي خلقه الله تعالى عليها.

والأفق: هو الفضاء الواسع الذي يبدو للعين ما بين السماء والأرض.

والمبين: وصف للأفق، أي: بالأفق الواضح البين، الذي لا تشتبه معه المرئيات.

والمعنى: ووالله لقد رأى صاحبكم محمد ﷺ جبريل، بصورته التي خلقه الله عليها، بالأفق الواضح البين، الذي لا تلتبس فيه المرئيات، ولا مجال فيه للأوهام والتخيلات.

والمقصود من الآية الكريمة الرد على المشركين الذين كانوا إذا أخبرهم الرسول ﷺ بأنه رأى جبريل. كذبوه واستهزءوا به، وتأكيد أن هذه الرؤية كانت حقيقة واقعة، لا مجال معها للتشكيك أو اللبس.... (الوسيط).

قال ابن عاشور: (المبين) وصف الأفق، أي للأفق الواضح البين، والمقصود من هذا الوصف نعت الأفق الذي تراءى منه جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بأنه أفق واضح بين لا تشتبه فيه المرئيات ولا يتخيل فيه الخيال، وجعلت تلك الصفة علامة على أن المرئي ملك وليس بخيال لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلونها على الأرض تابعة لهم على ما تعودوه من وقت الصحة، وقد وصف النبي ﷺ الملك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنه على كرسي جالس بين السماء والأرض.

قوله تعالى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [التكوير: ٢٤]، أي:"وما محمد ﷺ ببخيل في تبليغ الوحي".

عن عامر: "{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}، يعني: النبيّ ﷺ".

=

=

قرأ بـ «الظاء» ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وفيه وجهان:

أحدهما: وما محمد على القرآن بمتهم أن يأتي بما لم ينزل عليه، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وإبراهيم ، وبه قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة.

قال الزمخشري: أي: "وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحى إليه وغير ذلك {بِضَنِينٍ} بمتهم، من «الظنة» وهي: التهمة".

عن الضحاك عن ابن عباس، أنه قرأ: «بظَنينٍ»، قال: ليس بمتهم".

عن ابن عباس، قوله: "«وَما هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ»، يقول: ليس بمتهم على ما جاء به، وليس يظنّ بما أوتي".

عن أبي المعلَّى، عن سعيد بن جُبير:"أنه كان يقرأ هذا الحرف: «وَما هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ»، فقلت لسعيد بن جُبير: ما الظنين؟ قال: ليس بمتهم".

عن إبراهيم: «وَما هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ»، قال: بمتهم".

عن الضحاك: "{بِظَنِينٍ}، قال: ليس على ما أنزل الله بمتهم".

عن زِرّ: «وَما هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ» قال: الغَيب: القرآن. وفي قراءتنا «بِظَنِينٍ»: متهم".

الثاني: بضعيف عن تأديته، قاله الفراء.

قال الفراء:"العرب تقول للرجل الضعيف أو الشيء القليل: هو ظنون. سمعت بعض قضاعة يقول: ربما دلك على الرأي الظنون، يريد: الضعيف من الرجال".

وقرأ الباقون بـ «الضاد»، وفيه وجهان:

أحدهما: وما هو بمتهم أن يؤدي ما لم يؤمر به. حكاه الماوردي.

الثاني: وما هو ببخيل أن يعلِّم كما تعلّم. قاله مجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم ، وسفيان ، وابن زيد.

قال ابن قتيبة:"«وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بظَنِينٍ»؛ أي: بمُتَّهَم على ما يُخبِر به عن الله

=

=

ﷺ. ومن قرأ: {بِضَنِينٍ}؛ أراد: ببخيل. أي: ليس ببخيل عليكم؛ يُعلِّم ما غاب عنكم: مما ينفعُكم".

عن عاصم، عن زِرّ:"{وَما هوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ}، قال: «الظَّنين»: المتهم. وفي قراءتكم: {بِضَنِينٍ} و «الضنين»: البخيل، والغيب: القرآن".

عن إبراهيم، وسفيان: "{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}: ببخيل".

عن مجاهد: "{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}، قال: ما يضنّ عليكم بما يعلم".

عن الزهري:"{وما هُوَ عَلى الغَيْبِ بِضَنِينٍ}، قال: لا يَضِنُّ بما أُوحي إليه".

قال قتادة:"إن هذا القرآن غيب، فأعطاه الله محمدا، فبذله وعلَّمه ودعا إليه، والله ما ضنّ به رسول الله ﷺ".

قال ابن زيد:"الغيب: القرآن، لم يضنّ به على أحد من الناس أدّاه وبلَّغه، بعث الله به الروح الأمين جبريل إلى رسول الله ﷺ، فأدّى جبريل ما استودعه الله إلى محمد، وأدّى محمد ما استودعه الله وجبريل إلى العباد، ليس أحد منهم ضَنَّ، ولا كَتَم، ولا تَخَرَّص".

قال ابن كثير:"القراءتان كلاهما متواتر، ومعناه صحيح".

قال سفيان بن عيينة: "تفسير «ضنين» و «ظنين» سواء، ويقول: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر، والظنين: المُتّهم، والضنين: البخيل".

قال الزمخشري: وإتقان الفصل بين الضاد والظاء: واجب. ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ، فإنّ أكثر العجم لا يفرّقون بين الحرفين، وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه، وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول

=

=

الثنايا العليا، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء. ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى

والاشتقاق والتركيب، فإن قلت: فإن وضع المصلى أحد الحرفين مكان صاحبه. قلت: هو كواضع الذال مكان الجيم، والثاء مكان الشين، لأن التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما".

أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي.

- قال الآلوسي: وما هو» أي: رسول الله ﷺ «على الغيب» أي: على ما يخبر به من الوحي إليه وغيره من الغيوب «بضنين» من الضن- بكسر الضاد وفتحها- بمعنى البخل، أي: ببخيل، أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التعليم والتبليغ، ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم، على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون غيرهم على ما يزعمون معرفته إلا بإعطائهم حلوانا.

- وقرأ (بظنين) أي: وما محمد على ما أنزل عليه من الوحي بمتهم بالكذب، بل هو صادق أمين، كما كان يلقب بين قومه بالأمين.

- قال في التسهيل: من قرأ بالضاد فمعناه بخيل؛ أي لا يبخل بأداء ما ألقي إليه من الغيب، وهو الوحي، ومن قرأ بالظاء فمعناه متهم؛ أي لا يتهم على الوحي، بل هو أمين عليه. ورجح بعضهم هذه القراءة بأن الكفار لم ينسبوا محمدا ﷺ إلى البخل بالوحي بل اتهموه فنفى عنه ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [التكوير: ٢٥]، أي:"وما هذا القرآن

=

=

بقول شيطان رجيم، مطرود من رحمة الله، ولكنه كلام الله ووحيه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون مطرود، ولكنه كلام الله ووحيه".

قال الزمخشري: أي: بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة".

قال ابن كثير: "أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له. كما قال: {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [الشعراء: ٢١٠ – ٢١٢]".

قال الكلبي: "يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش".

قال السمعاني: "قال: هذا لأنهم كانوا يقولون أن محمدا يقول ما يقول عن الشيطان".

قال مقاتل: "وذلك أن كفار مكة قالوا إنما يجيء به الري، وهو الشيطان واسمه الري فيلقيه على لسان محمد– ﷺ–".

قال قتادة: "«الرجيم»، الملعون". وروي عن ابن جريج مثله.

عن عكرمة، قال: "إنما سمي الشيطان لأنه تشيطن".

أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، توحيه شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له.

– والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا).

– رجيم: صفة للشيطان، فالرجيم فعيل بمعنى مفعول أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله.

=

=

والرجم أصله الرمي بالحجارة، والشيطان مرجوم بالقول وبالفعل:
بالقول: بالسب والشتم والذم ويلحق به كل قول قبيح.
وبالفعل: أن رجمه الله؛ أي طرده وأبعده من رحمته، ويرجم بالشهب كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب).
وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس. قال ابن كثير: والأول أشهر وأصح. [تفسير ابن كثير]
قوله تعالى: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} [التكوير: ٢٦]، أي:"فأين تذهب بكم عقولكم في التكذيب بالقرآن بعد هذه الحجج القاطعة؟".
قال سهل:"عن كتابه بعد البيان الذي أتاكم".
قال قتادة:"يقول: فأين تعدلون عن كتابي وطاعتي".
قال الزجاج:"معناه: فأيَّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينتُ لَكُم".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأين تذهبون عن هذا القرآن وتعدلون عنه".
قال مقاتل:"يعني: أين تعجلون عن كتابي وأمري لقولهم إن محمدا مجنون".
قال السمعاني:"أي: أين تذهبون عن هذا الحق الذي ظهر بدلائله؟".
قال ابن فورك: أي:"عن الحق الذي قد ظهر أمره وبدت أعلامه إلى الضلال الذي فيه البوار والهلاك، وهو استبطاءا لهم في القعود عن اتباع النبي ﷺ والعمل بما يوجبه القرآن".
قال ابن كثير:"أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ، كما قال الصديق، رضي الله عنه، لوفد بني

=

=

حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذهَب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ، أي: من إله".

قال الزمخشري: "{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافا أو ذهابا في بنيات الطريق: أين تذهب، مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل".

ذكر الفرّاء:"أن المعنى: «فإلى أين تذهبون»، وحذفت «إلى» كما يقال: ذهبت الشام وذهبت إلى الشام، وانطلقت إلى السوق وانطلقت السّوق، وخرجت الشام وإلى الشام، وحكى الكسائي: انطلق به الغور، والتقدير عنده: إلى الغور فحذفت «إلى»، ثم قال: وأنشدني بعض بني عقيل:

تَصِيحُ بِنا حَنِيفةُ إذْ رأتْنا... وأيَّ الأرْضِ تَذْهَبُ للصَّياح

يريد: إلى أي الأرض تذهب واستجازوا في هؤلاء الأحرف إلقاء «إلى»، لكثرة استعمالهم إياها".

أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم هذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقا من عند الله.

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٧]، أي:"ما هو إلا موعظة من الله لجميع الناس".

قال مقاتل:"يعني: ما في القرآن إلا تذكرة وتفكر للعالمين".

قال السمعاني:"أي: تذكرة وعظة للعالمين".

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: {إنْ} هذا القرآن، إلا تذكرة وعظة للعالمين من الجنّ والإنس".

قال ابن كثير:"أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون".

=

=

قال سهل:"ذكر هذا خصوص لمن كان من العالمين عالمًا بالذكر منقادًا للشريعة".

عن ابن عباس:"{إلا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ}: موعظة للمؤمنين".

عن أبي العالية:"قال الإنس عالم والجن عالم، وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض والأرض أربع زوايا ففي كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته تبارك وتعالى".

(إن هو إلا ذكر للعالمين) (إن) نافية بمعنى (ما) لأنها جاءت بعدها (إلا): أي ما هو - يعني القرآن الكريم - إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجن.

كما قال تعالى (وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين).

وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين).

وقال تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين).

- قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره، ذكر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

- وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وسمي القرآن ذكرا:

أولا: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانيا: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

ثالثا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

=

=

رابعا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)

خامسا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: ٢٨]، أي:"لمن شاء منكم أن يستقيم على الحق والإيمان".

قال الطبري:"فجعل ذلك تعالى ذكره ذكرا لمن شاء من العالمين أن يستقيم، ولم يجعله ذكرا لجميعهم، ومعنى الكلام: إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم على سبيل الحقّ فيتبعه، ويؤمن به".

قال الزجاج:"أي: الاستقامة واضحة لكم، فمن شاء أخذ في طريق الحقِّ والقصد وهو الإيمان باللهِ ﷻ ورسوله".

قال ابن كثير:"أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاةٌ له وهداية، ولا هداية فيما سواه".

عن مجاهد: "{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}، قال: يتبع الحقّ".

قال ابن أبي زمنين: أي:"على أمر الله والتذكرة".

قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]، أي:"وما تشاؤون الاستقامة، ولا تقدرون على ذلك، إلا بمشيئة الله رب الخلائق أجمعين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما تشاءون أيها الناس الاستقامة على الحقّ، إلا أن يشاء الله ذلك".

قال ابن كثير:"أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ﷻ رب العالمين".

قال سهل:"ولا تصح لكم تلك الاستقامة في الأصل والفرع إلا بمشيئتي السابقة

=

=

فيكم".

قال جعفر بن جبير بن فرقد: "سمعت رجلا سأل الحسن عن قول الله سبحانه وتعالى: {وَما تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ}، فقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها".

قال وهب بن منبّه: "الكتب التي أنزلها الله سبحانه على الأنبياء بضع وتسعون كتابا، قرأت منها بضعا وثمانين كتابا، فوجدت فيها: «من جعل لنفسه شيئا من المشيئة فقد كفر»".

قال الواسطي: "أعجزك في جميع أوصافك، فلا تشاء إلّا مشيئته، ولا تعمل إلّا بقوته، ولا تطيع إلّا بفضله، ولا تعصي إلّا بخذلانه، فماذا يبقى لك؟ وماذا تفتخر من أفعالك وليس من فعلك شيء؟".

قال ابن الجوزي:"زعم بعض ناقلي التفسير أنّ قوله ﷻ: {لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} وقوله ﷻ في «عبس: {فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢]، وقوله ﷻ في سورة «الإنسان» وفي سورة «المزمل»: {فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا} [الإنسان: ٢٩، المزمل: ١٩] كله منسوخ بقوله ﷻ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [التكوير: ٢٩]، ولا أرى هذا القول صحيحًا، لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ. فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنّسخ وجه".

فليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله ناتج لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

(رب العالمين) أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

- العالمين: جمع عالم:

قيل: مأخوذ من العلامة، لأنهم علم على خالقهم وصانعهم، وهذا هو الصحيح.

=

=

فإن هذا الخلق في كل فرد منه، وفي كل جزء منه، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك.

قال الشاعر:

فواعجبا كيف يعصى الإله... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية... تدل على أنه واحد

قال تعالى (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال: إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير.

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول.

وقيل: مأخوذ من العلم، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه - سبحانه - {بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨)} [التكوير: ١٥ - ١٨].

أقسم - سبحانه - بالنجوم في أحوالها الثلاثة؛ في: طلوعها، وجريانها، وغروبها. هذا قول: علي، وابن عباس، وعامة المفسرين، وهو الصواب.

و"الخنس": جمع خانس، والخنوس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان "خناسا" لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة: "فانخنست منه".

و"الكنس": جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي: في بيته. ومنه: تكنست المرأة؛ إذا دخلت في هودجها. ومنه: كنست الظباء؛ إذا أوت إلى أكناسها.

=

=

و"الجواري": جمع جارية، كـ "غاشية" وغواش.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل".

وهذا قول: مقاتل ، وعطاء، وقتادة، وغيرهم. قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها.

ومعنى "تخنس" - على هذا القول -: تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها.

وفيه قول آخر؛ وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها المشرقية ، فإن لها حركتين: حركة بفلكها، وحركة بنفسها، فخنوسها: حركتها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، وهي "السيارة"، وهذا قول الفراء.

وفيه قول ثالث؛ وهو أن خنوسها وكنوسها: اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب - أقسم - سبحانه - بها في أحوالها كلها، ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن "الخنوس" هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لم يزل مختفيا: أنه قد خنس.

فذكر - سبحانه - جريانها وغروبها صريحا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم: طلوعها، وغروبها، وظهورها، واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بـ "الظباء"، و"بقر الوحش" بالظاهر؛ لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: أن اشتراك أهل الأرض في معرفتها بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن "البقر" و"الظباء" ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقا، بل

=

=

لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء.

قال الواحدي: "هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة، وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس". ومنه سميت "الخنساء"؛ لخنس أنفها.

ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقر والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

الخامس: أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوان في أكنته التي يأوي فيها ، ولا أظهر منه حتى يعين للقسم.

السادس: أنه لو كان جمعا للظباء لقال: الخنس - بالتسكين -؛ لأنه جمع: أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به جمع (بقرة خنساء) لكان على وزن "فعل" - أيضا - كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على "فعل" - بالتشديد - استحال أن يكون جمع الواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعا لـ "خانس"، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها.

السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب - تعالى - بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم - سبحانه - من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية.

ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله؛ وهو: القرآن.

ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي: السماء، وشمسها، وقمرها، ونجومها.

=

=

ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو: الليالي العشر.

وإذا أراد - سبحانه - أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله ﷻ: {فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩)} [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، وقوله: {الذكر والأنثى (٣)} [الليل: ٣] في قراءة رسول الله ﷺ، ونحو ذلك.

الثامن: أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد.

وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم فقال: "هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش".

التاسع: أنه لو أراد ذلك - سبحانه - لبينه ، وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري: السفن؛ قال: {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢)} [الشورى: ٣٢]، وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء، وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

العاشر: أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين، وزينة للسماء، ورجوم للشياطين، وبين المقسم عليه وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان = أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن ، والله أعلم.

فصل: واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟

فالأكثرون على أن "عسعس" بمعنى: ولى، وذهب، وأدبر. هذا قول: علي، وابن عباس وأصحابه.

وقال الحسن: "أقبل بظلامه"، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل، وإقبال النهار، فقوله ﷻ: {والصبح إذا تنفس (١٨)} [التكوير: ١٨] مقابل لـ "الليل إذا

=

=

عسعس".

قالوا: ولهذا أقسم - تعالى - بالليل {إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢)} [الليل: ١ - ٢]، وبالضحى.

قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: {كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤)} [المدثر: ٣٢ - ٣٤]؛ فأقسم - سبحانه - بإدبار الليل، وإسفار الصبح؛ وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح.

قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمن طويل، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ.

فذكر - سبحانه - حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله؛ يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وهذا هو القول. والله أعلم.

فصل: ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه وهو "القرآن"، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو - ها هنا -: جبريل - قطعا -؛ لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به.

وأما "الرسول الكريم" في "الحاقة" فهو محمد ﷺ؛ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم أعداؤه أنه قوله؛ فقال تعالى: {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢)} [الحاقة: ٤١، ٤٢].

فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ

=

=

"الرسول" يدل على ذلك، فإن "الرسول" هو الذي يبلغ كلام من أرسله، وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدا - صلى الله عليهما وسلم -، وأن كلا منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغا، وقول الله الذي تكلم به حقا. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله - تعالى - متكلما بالقرآن - وهو كلامه حقا - في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل.

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين.

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوا وجلالة؛ تولى الله - سبحانه - بنفسه تزكيته:

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ: كريما، ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرم. والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ: كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى، وعلم، ومعرفة، وإيمان، وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه "ذو قوة"، كما قال في موضع آخر: {علمه شديد القوى (٥)} [النجم: ٥]، وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئا، وأن يزيدوا فيه

=

=

أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومموادد له، وناصر، كما قال تعالى: {وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤)} [التحريم: ٤]، ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه = فهو المهدي المنصور، والله هاديه وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين على فعله، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة، أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله ، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويا أمينا معظما ذا مكانة عنده، مطاعا في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات.

وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم، القوي، المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

وقوله ﷻ: {عند ذي العرش مكين (٢٠)} [التكوير: ٢٠] أي: له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه.

وفي قوله: {عند ذي العرش} إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريبا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: {مطاع ثم} إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ.

=

=

وفيه إشارة - أيضا - إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه.

وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفه بـ "الأمانة": إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه، فقال تعالى: {وما صاحبكم بمجنون (٢٢)} [التكوير: ٢٢]، وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدهم: إنه العقل الفعال، وإنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان! وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعا.

وأما رؤيته لربه - تعالى - فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق، وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك.

فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب - تعالى - أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف

=

=

ثبوتها عليها ألبتة.

ثم نزه رسوليه كليهما - أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: {وما هو على الغيب بضنين (٢٤)} [التكوير: ٢٤]، فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين:

١ - أدائها من غير كتمان.

٢ - وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان.

والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل، فإن "الضنين": البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن (بخلت به أبخل) ومعناه.

ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سالني لضنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس ببخيل بما أنزل الله عز وجل".

وقال مجاهد: "لا يضن عليهم بما يعلم".

وأجمع المفسرون على أن الغيب - ها هنا -: القرآن، والوحي.

وقال الفراء: "يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم".

وهذا معنى حسن جدا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: "المعنى: يأتيه الغيب فيبينه، ويخبر به، ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا".

وفيه معنى آخر؛ وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض

=

=

ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب؛ واثقا به، مقيما عليه، مبديا له - في كل مجمع - ومعيدا، مناديا به على صدقه، مستجلبا به لأعدائه = من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ "بظنين" - بالظاء - فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيدا، بمعنى: اتهمته، وليس من "الظن" الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشد أبو عبيدة:

أما وكتاب الله لا عن شناءة ... هجرت، ولكن المحب ظنين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة، ثم قال: {وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}، ثم قال: {وما هو} أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبو عبيد قراءة "الظاء"؛ لمعنيين:

أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولى من نفي البخل.

الثاني: أنه قال: {على الغيب} ، ولو كان المراد البخل لقال: بالغيب؛ لأنه يقال: فلان ضنين بكذا، وقلما يقال: على كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي من الأمانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين.

ويرجحه - أيضا - أنه - سبحانه - نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب، فإن ذلك لو كان كذبا: فإما أن يكون منه، أو ممن علمه.

وإن كان منه: فإما أن يكون تعمده، أو لم يتعمده.

=

=

فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم – ضد الأمين –، وإن كان عن غير تعمد فهو المجنون.

فنفى – سبحانه – عن رسوله ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم التزكية، فلهذا قال سبحانه: {وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥)} أي: ليس بتعليم الشيطان، ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى: {وما تنزلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغي لهم وما يستطيعون (٢١١)} [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، فنفى فعلهم، وانبغاءه منهم، وقدرتهم عليه.

وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل؛ يعلم علما لا يماري فيه ولا يشك – بل علما ضروريا، كسائر الضروريات – منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر.

ولهذا وبخ – سبحانه – من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين، فقال تعالى: {فأين تذهبون (٢٦)}، قال أبو إسحاق: "المعنى: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟".

قلت: هذا من أحسن الإلزام وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: أيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟! قال تعالى: {فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)} [المرسلات: ٥٠]، وقال تعالى: {فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٦)} [الجاثية: ٦]، فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدل، وأين المذهب؟!

ونظير هذا قوله سبحانه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم (٢٢)} [محمد: ٢٢]، أي: إن أعرضتم عن الإيمان

بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض بالشرك، والمعاصي،

=

=

وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله تعالى: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج (٥)} [ق: ٥]، لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئا إلا كان باطلا، ولا يفعلون شيئا إلا كان ضائعا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق المستقيم في قوله وفعله، وهو بمنزلة من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله تعالى: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم} [القصص: ٥٠]، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: {فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون} [يونس: ٣٢].

فصل: ثم أخبر - تعالى - عن "القرآن" بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر: تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر: لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق ، وفي موضع آخر: ذكر مبارك ، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع يتبين المراد من كونه ذكرا عاما وخاصا، وكونه ذا ذكر، فإنه:

يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم.

ويذكرهم بالمبدأ والمعاد.

ويذكرهم بالرب - تعالى - وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وحقوقه على عباده.

ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها، وآفاتها، وما تكمل به.

ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إلى ربهم، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسا

=

=

واحدا.

ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها.

ويذكرهم بأسه، وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله.

ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر - سبحانه - عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال تعالى: {خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (٦٣)} [البقرة: ٦٣]، وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذكرا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه "ذو الذكر"؛ فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، وفيه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

وقوله سبحانه: {لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨)} [التكوير: ٢٨] بدل من "العالمين"، وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرا لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه، ولا بد من هذا؛ فتأمله.

وقوله تعالى: {لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨)} رد على "الجبرية" القائلين بأن العبد لا مشيئة له، و أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببا فيه.

وقوله ﷻ: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} [التكوير: ٢٩] رد على "القدرية" القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله ﷻ،

=

=

بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله ﷻ بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله تعالى.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.

فإن قال الجبري: هو - سبحانه - لم يقل إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك.

وقال القدري: قوله ﷻ: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} المشيئة مختلفة، فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره له به، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب: أن هذا من تحريف الطائفتين: -

أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بلونه، وشكله، وسائر أعراضه التي لا تأثير لها في الفعل، فإن نسبة جميع أعراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادته عندك، والاقتران حاصل بجميع أعراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟

وهل سوى الله - سبحانه - في فطر الناس، أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أعراض الحي إذ كان - عندك - إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدرى فتحريفه أشد؛ لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى: وما تشاؤون إلا أن يأمر الله! وهذا باطل قطعا، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله تعالى: {ولو شاء ربك ما فعلوه} [الأنعام: ١١٢]، وقوله: {ولو شاء الله ما اقتتلوا} [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} [السجدة: ١٣]، وقوله: {أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا} [الرعد: ٣١]، ونظائر ذلك؛ مما لا يصح فيه

=

=

حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح؛ أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فما لم يشأ لم يكن ألبتة، كما أن ما شاء كان ولا بد.

ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه عليه؛ وهو أن مشيئة الله - سبحانه - تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد.

فتعلقها بفعله - سبحانه - هو أن يشاء من نفسه إعانة عبده، وتوفيقه، وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله، فإنه - سبحانه - قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله؛ لأنه لم يشأ من نفسه - سبحانه - إعانته عليه، وتوفيقه له.

وقد دل على هذا وهذا قوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)} [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالى: {وما يذكرون إلا أن يشاء الله} [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات: الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب.

ولكل منهما عبودية تختص بها:

فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي.

وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: {رب العالمين (٢٩)} ينتظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق.

=

=

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) (التكوير: ٦)، وفي سورة: (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) (الإنفطار: ٣)، يسأل عن اختصاص الأولى بقوله: "سجرت" والثانية بقوله "فجرت"؟ والجواب عن ذلك - والله أعلم - أن قوله: "سجرت" معناه ملئت، من قولك سجرت التنور إذا ملائته بالحطب، وقرئ مخففًا ومثقلًا والمعنى واحد، والمراد اجتماع مياهها وأما قوله: "فجرت" فتح بعضها واختلط العذب بالمالح فصار بحرًا واحدًا بزوال البرزخ الحاجز بينهما، وكل من الإخبارين (يؤدي معنى غير المعنى الآخر، فإن الامتلاء غير الانفجار، ثم كل من الإخبارين) مناط بالآخر لما بينهما من الشبه، ولهذا جرى كلام أكثر المفسرين على تفسير كل واحد من اللفظين بما يحرز المجموع من معنييهما، وتفاصيل ذلك على ما ذكرته مما يقتضى التباين لا الترادف، والإخبار بكل واحد منهما مقصود معتمد لكمال المراد.

وإنما خصت سورة الإنفطار بلفظ الإنفجار ليناسب مطلع السورة وافتتاحها، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح والمالح إلى العذب وبعضها إلى بعض انفطار ناسب انشقاق السماء وانفطارها. فانفطار السماء، وانفجار البحار، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه. وحشر الوحوش وتزويج النفوس، وتسجير البحار، هذا كله اجتماع وائتلاف يناسب بعضه بعضًا، كما أن انفطار السماء، وانتثار الكوكب، وتفجر البحار، وبعثرة القبور، يناسب بعض ذلك بعضًا، فالتحام هذه الجمل في السورتين أبين التحام وأوضحه ملاءمة وتناسبًا. فورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية (منها) قوله تعالى: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير: ١٤)، وفي سورة الإنفطار: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (الانفطار: ٥)، (للسائل أن

=

=

يسأل عن موجب الاختلاف مع اتحاد المقصود في السورتين)؟
والجواب عن ذلك (والله أعلم) أن المعنى في الآيتين واحد، إذ الذي تحضره كل نفس هو الذي قدمت من عملها وأخرت، إلا أن كلا من الموضوعين في السورتين خص بما يناسبه.
أما الآية الأولى فإنه لما انحصر فيها وفيما قبلها من أول قوله: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (التكوير: ١) إلى آخر قوله: (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) (التكوير: ١٣) الأهوال، من لدن ابتداء نفخة الصعق، إلى انتهاء تلك المقامات بتسعير الجحيم، وإزلاف الجنة، وهو عبارة عن إدنائها لداخلها، وجئ بتلك الإخبارات منسوقة بالواو المقتضية الجمع حتى كأن تلك المقامات قد عبر (عنها) بلفظ واحد وتحصلت حاضرة للتصور الذهني، ناسب ذلك تقدير الأعمال المترتب عليها الجزاء حاضرة والعبارة عنها بما يحصل ذلك، فقيل: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير: ١٤)، وكأن قد قيل: إذا حضرت هذه الأهوال مدركة للعيان حضرت أعمالكم بالتذكير لها ومطالعتها مكتوبة محصورة في الصحف التى لا تغادر صغير ولا كبيرة إلا محصاة فيها، يبين هذا قوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى) (النازعات: ٣٤ - ٣٥) وقوله تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) (الكهف ٤٩).
أما الآية الثانية فإنه لما كان قوله: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير: ١٤) غير مفصح باستيفاء أعمال الخلائق جئ بهذه الآية بعدها مشيرة إلى الحصر بما أشير إليه من ضبط طرفي أعمال المكلفين فقيل: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير: ١٤) من متقدم عملها ومتأخرة، واقتضى التناسب تقدم الإحضار حيث ذكر، وتأخير ذكر التقديم والتأخير حيث ذكر، واتصل كل بما يشاكله ويلائمه، ولا يمكن سواه، إذ التعريف بالإحضار والحصر بذكر ما قدم وما أخر مقصود،

=

سورة الانفطار(١)

=

معتمد، إما أن يذكر ذلك على الاستيفاء في كل من السورتين من غير تفصيل، وذلك تكرار من غير داع ولا مسوغ له، وأما أن يذكر مفصلًا على غير ما ورد وذلك غير مناسب، فلم يبق إلا وروده على أتم الملائمة والمناسبة، وهذا على رعي ترتيب القرآن على ما تقرر عليه، فعرفت الآيتان بإحصاء الأعمال المحضرة ما تقدم منها وما تأخر أي ما عمله المكلف في أول عمره وبدء تكليفه وفي آخر عمره وختم عمله كما أخبر تعالى من قوله كما أخبر تعالى من قول المجرمين: (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (الكهف: ٤٩) فقدم ذكر إحضارها أولا ليناسب به ما تقدم، وآخر ذكر إحصائها ليعلم بالحصر والإستيفاء، وجاء كل على ما يناسب، والله سبحانه أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٣-٥٠٤).

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.

وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".

* آياتها تسع عشرة. وكلماتها مائة. وحروفها ثلاثمائة وتسعَ عشرة. فواصل آياته (مَكِنه). على الهاءِ آخِرُ السّورة.

* أسماء السورة:

تسمى «سورة الانفطار» سميت هذه السورة «سورة الانفطار» في المصاحف ومعظم التفاسير ، ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها بقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١].

وتسمى «إذا السماء انفطرت» وسميت في بعض التفاسير: «سورة إذا السماء

=

بسم الله الرحمن الرحيم(1)

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١).

{إِذَا السَّمَاء اِنْفَطَرَتْ} اِنْشَقَّتْ.

وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢).

{وَإِذَا الْكَوَاكِب اِنْتَثَرَتْ} اِنْقَضَّتْ وَتَسَاقَطَتْ.

وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣).

{وَإِذَا الْبِحَار فُجِّرَتْ} فُتِحَ بَعْضهَا فِي بَعْض فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا وَاخْتَلَطَ الْعَذْب بِالْمِلْحِ.

=

انفطرت» ، ولم يعدها صاحب «الإتقان» مع السور ذات أكثر من اسم وهو «الانفطار»، ووجه التسمية وقوع جملة: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١] في أولها فعرفت بها.

وسميت في قليل من التفاسير «سورة انفطرت» ، وقيل: تسمى «سورة المنفطرة» ، أي: السماء المنفطرة.

* معظم مقصود السّورة: الخبر عن حال السّماءِ ونجومها فى آخر الزَّمان، وبيان غَفْلَة الإنسان، وذكر الملائكة الموكَّلين بما يصدر من اللسان والأَركان، وبيان إِيجاد الحقِّ - تعالى - الحكم يوم يُحشر الإِنس والجان.

* وسبق ما فيها من المتشابه. وقوله: {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين} تكرار أَفاد التعظيم ليوم الدّين. وقيل: أَحدهما للمؤمنين، والثَّانى للكافرين. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٠٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤).

{وَإِذَا الْقُبُور بُعْثِرَتْ} قُلِبَ تُرَابهَا وَبُعِثَ مَوْتَاهَا وَجَوَاب إِذَا وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥).

{عَلِمَتْ نَفْس} أَيْ كُلّ نَفْس وَقْت هَذِهِ الْمَذْكُورَات وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {مَا قَدَّمَتْ} مِنْ الْأَعْمَال {و} مَا {أَخَّرَتْ} مِنْهَا فَلَمْ تَعْمَلهُ.

يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦).

{يَا أَيّهَا الْإِنْسَان} الْكَافِر {مَا غَرَّك بِرَبِّك الْكَرِيم} حَتَّى عَصَيْته.

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧).

{الَّذِي خَلَقَك} بَعْد أَنْ لَمْ تَكُنْ {فَسَوَّاك} جَعَلَك مُسْتَوِي الْخِلْقَة سَالِم الْأَعْضَاء {فَعَدَلَك} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد جَعَلَك مُعْتَدِل الْخَلْق مُتَنَاسِب الْأَعْضَاء لَيْسَتْ يَد أَوْ رِجْل أَطْوَل مِنْ الْأُخْرَى.

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨).

{فِي أَيّ صُورَة مَا} صِلَة {شَاءَ رَكَّبَك}.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩).

{كَلَّا} رَدْع عَنْ الِاغْتِرَار بِكَرَمِ الله تَعَالَى {بَلْ تُكَذِّبُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {بِالدِّينِ} بِالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَال.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠).

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} مِنْ الْمَلَائِكَة لِأَعْمَالِكُمْ.

كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١).

{كِرَامًا} عَلَى الله {كَاتِبِينَ} لَهَا.

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢).

{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} جَمِيعه[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: أنزلت {يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)} في أُبيّ بن خلف.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٧) ونسبه لابن أبي حاتم، وذكره في "الدر المنثور" (٨/ ٤٣٩) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١]، أي:"إذا السماء انشقت، واختلَّ نظامها".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١]، وجهان:

أحدهما: انشقت. قاله السدي، والفراء، والزجاج، والطبري، وابن كثير.

عن السدي:"{إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ}، قال: انشقّتْ".

قال الزجاج:"أي: انشقت، تتشقق السماء يومَ القيامة بالغمام، كما قال ﷻ".

قال ابن الجوزي:"انفطارها: انشقاقها".

الثاني: سقطت. حكاه الماوردي، وأنشد قول الشاعر:

كانوا سعودًا سماءَ الناس فانفطرت... فأصبح الشمل لم ترفع له عُمُد

والصحيح القول الأول، لأن معنى «الفطر» -لغة- «الشق». والله أعلم.

أي: انشقت كقوله تعالى (السماء منفطر به كان وعده مفعولا) وقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا).

قوله تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ٢]، أي:"وإذا الكواكب تساقطت".

قال مقاتل:"يعني: تساقطت".

قال الطبري:"وإذا كواكبها انتثرت منها فتساقطت".

=

=

قال الزجاج: "أي: تَساقطت وتهافتت".

قوله تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} [الانفطار: ٣]، أي:"وإذا البحار فجَّر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} [الانفطار: ٣]، أربعة وجوه:

أحدها: ذهب ماؤها ويبست. قاله الحسن.

قال الحسن:"فجر بعضها في بعض فذهب بعضها".

الثاني: ملئت. راه معمر عن الكلبي.

الثالث: فاضت. رواه منذر الثوري عن الربيع بن خثيم.

الرابع: خلطت فصارت بحرًا واحدًا، وهذا معنى قول ابن عباس.

قال الطبري: "فجَّر بعضها في بعض، فملأ جميعها".

قال: "وهو سبعة أبحر فتصير بحرًا واحدًا".

الخامس: فُجِّر عذبها في مالحها، ومالحها في عذبها، قاله قتادة ، ومقاتل ، والزجاج.

قال مقاتل:"يعني: العذب والمالح {فجرت} بعضها في جوف بعض، فصارت البحار بحرا واحدا، فامتلأت".

قال الزجاج: "فُجِّرَ العَذْبُ إلى المالح".

قال الألوسي: (وإذا البحار فجرت) فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من البرزخ واختلط العذب بالإجاج وصارت بحرا واحدا.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} [الانفطار: ٤]، أي:"وإذا القبور قُلِبت ببعث مَن كان فيها".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} [الانفطار: ٤]، قولان:

القول الأول: أي: قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء. كقولك: بعثرت المتاع،

=

=

قلبته ظهرا لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه، و «البحثرة»، و «البعثرة»: إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره. ثم -هاهنا- وجهان:

أحدهما: أن القبور تبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء، كما قال تعالى: {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة: ٢]. وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة ، والمبرد ، وابن قتيبة ، والزجاج ، واختاره البغوي ، وكثير من العلماء.

قال الراغب:"أي: قلب ترابها وأثير ما فيها".

قال البغوي:"أي: قلبت، فأخرج ما فيها".

قال الزمخشري:"بعثر وبحثر بمعنى، وهما مركبان من البعث والبحث مع «راء» مضمومة إليهما. والمعنى: بحثت وأخرج موتاها. وقيل: لـ «براءة»: «المبعثرة» ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين".

قال أبو عبيدة:"{بُعْثِرَتْ} : أثيرت، يقول الرجل للرجل: بعثرت حوضي، جعلت أسفله أعلاه".

قال ابن قتيبة:"قُلبتْ وأُخرج ما فيها. يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ إذا جعلت أسفله أعلاه".

قال ابن منظور:"بعثر: بعثرت الشيء فرَقه، وبعثر التراب والمتاع: قلبه".

وقال الليث: "بعثر يبعثر بعثرة: إذا قلب التراب".

قال الزجاج:"يعني: بحثرت، أي: قلب ترابها وبعث الموتى الذين فيها".

قال ابن فورك:"بحثرت، إذا جعل أسفله أعلاه، وقلب باطنه إلى ظاهره".

قال السجستاني:"أي: القبور، أي بحثرت وأثيرت، أي: قلبت وأخرج ما فيها".

والوجه الثاني: أنها تبعثر لإخراج ما في بطنها من الذهب والفضة، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها، ثم يكون بعد

=

=

ذلك خروج الموتى. وهذا اختيار الفراء.

قال الفراء: "خرج ما في بطنها من الذهب والفضة، وخرج الموتى بعد ذلك، وهو من أشراط الساعة: «أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها» ، من ذهبها وفضتها".

ومن المعروف أن النبي -ﷺ- قال: «يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل عليه الناس، حتى يقتل من كل عشرة تسعة، ويبقى واحد».

قال القفال: "يجوز أن يكون ما ذكره الله تعالى من هذه الأشياء قبل قيام الساعة، ويجوز أن يكون بعد قيام الساعة".

قال القشيري:"أي: قلب ترابها، وبعث الموتى الذين فيها، وأخرج ما فيها من كنوز وموتى".

وردّ النحاس على هذا الوجه، وقال:"تأوّله الفرّاء على أنّ الأرض بحثرت فألقت ما فيها من الكنوز والموتى، واحتجّ الحديث «تلقي الأرض أفلاذ كبدها». وهذا غلط وليس في القرآن وإذا الأرض وفيه خصوص القبور، «وتلقي أفلاذ كبدها» لا اختلاف بين أهل العلم أنه في آخر الزمان وليس هو يوم القيامة".

قال الفخر الرازي:"القول الأول أقرب، لأن دلالة القبور على الأول أتم".

القول الثاني: بحثرت، وذلك عند البعث بحثت عن الموتى فأخرجوا من القبور، وهذا قول ابن عباس ، والكلبي ، ومقاتل.

عن ابن عباس: "{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}، يقول: بُحِثَت".

قال مقاتل:"يعني: بحثت عن من فيها من الموتى".

وحكي الماوردي عن السدي:"حركت للبعث". أي: القبور.

وعن السدي -أيضا-: ""تُبَعثر: تُحرّك فيخرج من فيها".

قال الماتريدي:"أي: بعث مَن فيها، وتقذف القبور مَن فيها".

أي: تبعثر بأن أخرج ما فيها من الأموات وحشروا للموقف.

=

=

كما قال تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها).

ومعنى (بعثرت) انقلب باطنها ظاهرها، والبعثرة: الانقلاب، يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض.

قوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار: ٥]، أي:"حينئذ تعلم كلُّ نفس جميع أعمالها، ما تقدَّم منها، وما تأخر، وجوزيت بها".

وفي قوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار: ٥]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: علمت كلّ نفس ما قدّمت لذلك اليوم من عمل صالح ينفعه، وأخرت وراءه من شيء سنَّه فعمل به. قاله ابن مسعود، والقُرَظي، وبه قال الطبري. وحكاه النحاس عن ابن عباس.

قال النحاس:"وهو أولى، وبه يقول أصحاب الحديث، وينكره بعض أهل الأهواء".

قال الزجاج: "وقيل: {وَأخرَتْ} سَنَّتْ من سُنةٍ عُمِل بها بعدها".

قال ابن مسعود:"{مَا قَدَّمَتْ} من خير، {وَأَخَّرَتْ} من سنة صالحة يعلم بها بعده، فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، أو سنة سيئة يعمل بها بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا".

الثاني: ما قدّمت من الفرائض التي أدتها، وما أَخَّرت من الفرائض التي ضيعتها. قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد، وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:" {مَا قَدَّمَتْ}: من عَمَلٍ أمرت به وما. {أَخَّرَتْ} منه فلم تعلمه".

عن عكرمة: "{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ}، قال: ما افترض عليها، {وَأَخَّرَتْ}، قال: مما افترض عليها".

=

=

قال قتادة:"ما قدّمت من خير، وأخَّرت من حق الله عليها لم تعمل به".

قال قتادة:"ما قدمت من طاعة الله وما أخرت من حق الله".

قال ابن عباس:"تعلم ما قدّمت من طاعة الله، وما أخرت مما أُمِرَت به من حقّ الله عليه لم تعمل به".

قال ابن زيد:"ما قدّمت: عملت، وما أخرت: تركت وضيَّعت، وأخرت من العمل الصالح الذي دعاها الله إليه".

الثالث: ما قدّمت من خير أو شرّ، وأخَّرت من خير أو شرّ. وهذا معنى قول إبراهيم التيمي.

عن العوّام، عن إبراهيم التيمي، قال: "ذكروا عنده هذه الآية: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}، قال: أنا مما أَخَّرَ الحجاج".

قال الطبري:"وإنما اخترنا القول، لأن كلّ ما عمل العبد من خير أو شرّ فهو مما قدّمه، وأن ما ضيَّع من حقّ الله عليه وفرّط فيه فلم يعمله، فهو مما قد قدّم من شرّ، وليس ذلك مما أَخَّر من العمل، لأن العمل هو ما عمله. فأما ما لم يعمله فإنما هو سيئة قدّمها، فلذلك قلنا: ما أخر: هو ما سنه من سنة حسنة وسيئة، مما إذا عمل به العامل، كان له مثل أجر العامل بها أو وزره".

قال الفراء:"وهذا جواب: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١] "، لأنه خبر.

قال ابن كثير:"أي: إذا كان هذا حَصَل هذا".

وجعلها الحسن قَسَمًا وقعت على قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار: ٥]، الآية.

قال الماوردي: "والأظهر ما عليه الجماعة من أنه خبر وليس بقسم".

أي إذا حصل هذا ينكشف الغطاء ويزول ما كان خفيا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران.

=

=

ومثل هذه الآية قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت).

وقوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا).

وقوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا).

وقوله تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر).

قال السعدي: هناك يعض الظالم على يديه، إذا رأى ما قبضت يداه وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وهناك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

والمقصود من هذا الإخبار الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة، أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم، فلم يقصر فيه وما أخر فقصر فيه.

عن نافع: أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته.

قال عدي: ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها.

قال ابن المسيب: ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة.

قال أيضا: من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة.

وقال: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد.

والأعمش سبعين سنة لم تفته تكبيرة الإحرام.

وقال ربيعة بن يزيد: ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضا أو مسافرا.

قال الذهبي في السير: كان عامر بن عبد قيس يصلي من طلوع الشمس إلى العصر فينصرف وقد انتفخت ساقاه فيقول: يا أمارة السوء إنما خلقت للعبادة.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]، أي:"يا أيها

=

=

الإنسان المنكر للبعث، ما الذي جعلك تغتَرُّ بربك الجواد كثير الخير الحقيق بالشكر والطاعة".

قال ابن كثير:"هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب؛ حيث قال: {الْكَرِيمِ} حتى يقول قائلهم: غره كرمه. بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم - أي: العظيم - حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ماذا أجبتَ المرسلين؟»".

قال الزجاج:"أي: ما خدعك وَسَوَّلَ لكَ حتى أضعت ما وجب عليك".

قال يحيى بن سلام:"تفسير «كريم»: يتجاوز ويصفح".

قال ابن قتيبة:"الكريم: الشريف الفاضل".

عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز اسمه كريم يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها».

ثم قال البيهقي:"قال الحليمي في معنى «الحليم»: إنه الذي لا يحبس إنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقي البر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلا عن أن يدعوه كما يقيها الناسك الذي يسأله، وربما شغلته العبادة عن المسألة، قال أبو سليمان: هو ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، وإنما الحليم هو الصفوح مع القدرة، المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة ومنها «الكريم» قال الله جل ثناؤه: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]".

وفي المخاطب بقوله قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ} [الانفطار: ٦]، أقوال:

أحدها: أنه خاطب به جميع الناس. ابن زيد، وبه قال ابن قتيبة.

=

=

قال ابن قتيبة:"لم يرد الله في هذا الخطاب إنسانا بعينه، وإنما خاطب به جميع الناس كما قال: {يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا} [الانشقاق: ٦]، كما يقول القائل: يا أيها الرجل، وكلّكم ذلك الرجل".

عن ابن زيد قال: "الطاغوت: الشيطان هو -هاهنا- واحد، وهي جماعة، مثل قوله: {يا أيها الإنسان ما غرك}، قال: هي للناس كلهم، الذين قال لهم الناس إنما هو واحد".

روي عن محمد بن شعيب، عن محمد بن صهيب:"أنه سأل بعض علماء أهل الجزيرة بأرمينية عن قول الله ﷻ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]. فأخبره عن بعض علماء الجزيرة أنه كان يقول: "هذه خاصة ولم يعم، كقوله: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [الأنعام: ٢٢]، {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام: ١٣٠] قال: فهذه خاصة، وقد قال: جميعا". قال ابن شعيب: "فلقيت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فسألته عن قول الله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وأخبرته بقول ابن صهيب عن الجزري، فقال: "هو كذلك إن الله ربما ذكر الواحد وهو لجميع الناس، وربما ذكر الناس وهو واحد، يقول الله ﷻ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} [آل عمران: ١٧٣] وإنما قال لهم ذلك رجل واحد، وقال: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]، فهذا لجميع الناس".

الثاني: أنه إشارة إلى كل كافر. قاله أيفع بن عبد الكلاعي، وبه قال الطبري.

قال الطبري:"يا أيها الإنسان الكافر، أيّ شيء غرّك بربك الكريم".

عن أيفع بن عبد الكلاعي: "أنه قال في قوله: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم} [هود: ٥٦]، قال: فيأخذ بنواصي عباده، فيلين

=

=

للمؤمن حتى يكون لهم ألين من الوالد بولده، ويقال للكافر: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]".

الثالث: أنه أبي بن خلف، قاله عكرمة.

الرابع: أنه أبو الأشد بن كلدة بن أسد الجمحي، قاله ابن عباس ، ومقاتل.

قال مقاتل:"نزلت في أبي الأشدين، اسمه أسيد بن كلدة، وكان أعور شديد البطش، فقال: لئن أخذت بحلقة من باب الجنة ليدخلنها بشر كثير، ثم قتل يوم فتح مكة".

قال الماتريدي:"قيل: نزلت الآية في شأن كلدة؛ حيث ضرب النبي ﷺ ؛ فلم يعاقبه الله – تعالى – فأسلم حمزة حمية لقومه؛ فَهَمَّ كلدة أن يضربه ثانية؛ فنزلت الآية: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}، حيث لم يهلكك عند تناولك رسول الله ﷺ".

وفي الذي غرَّه قولان:

أحدهما: عدوه الشيطان، قاله قتادة ، ومقاتل ، وبه قال الطبري.

قال الطبري:"غرّ الإنسانَ به عدوُّه المسلَّط عليه".

عن قتادة: "{مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} شيء ما غرّ ابن آدم هذا العدوّ الشيطان".

الثاني: جهله، وهو قول عمر بن الخطاب ، وعمر بن ذر ، وربيع بن خثيم ، ورواه أبو بردة عن أبي موسى ، ورفعه صالح بن مسمار.

عن عمر بن الخطاب:"أنه قرأ هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]، فقال: غرَّه والله جهلُهُ".

عن يحيى البكاء:"سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} قال ابن عمر: غره – والله – جهله".

روي عن سفيان، قال: "سمع عمر بن ذر، رجلا يقول: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ

=

=

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦]، فقال عمر: الجهل".

عن صالح بن مسمار، قال: "بلغنا أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦] فقال: «جهله».

عن أبي بردة، قال: "كان أبو موسى إذا قرأ: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦] قال: يعني الجهل، وإذا قرأ: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [الكهف: ٥٠] بكى".

وقال سهل بن عبد الله في الآية:"أي: ما غرك بدونه فقطعك عنه مع لطفه وكرمه. قيل له: ما القاطع؟ قال: العبد لله والله لعبده، وليس شيء أقرب إليه من قلب المؤمن، فإذا حضر الغير فيه فهو الحجاب، ومن نظر إلى الله بقلبه بَعُدَ عن كل شيء دونه، ومن طلب مرضاته أرضاه بحلمه، ومن أسلم إلى الله تعالى قلبه تولى جوارحه فاستقامت، وإنما شهدت قلوبهم على قدر ما حفظوا من الجوارح.

ثم قال: ألزموا قلوبكم، نحن مخلوقون وخالقنا معنا، ولا تملوا من أعمالكم، فإن الله شاهدكم حيثما كنتم، وأنزلوا به حاجاتكم، وموتوا على بابه، وقولوا: نحن جهال وعالمنا معنا، ونحن ضعفاء ومقوينا معنا، ونحن عاجزون وقادرنا معنا، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء.

قال عمر بن واصل تلميذ سهل: إذا قرأ هذه الآية، قال: غرني الجهل بترك العصمة منك".

وقال الكلاباذي:"روي عن بعض الصحابة، أو من دونه من الكبار، أنه قرأ: {ما غرك بربك الكريم} [الانفطار: ٦]، قال: غرني عفوك يا سيدي. وقال آخر: غرتني نفسي الأمارة بالسوء، وخدعني بالأمل العدو. وقال آخر: غرني حلمك عني. فكل هذه أعذار للمؤمنين فيما كان منهم من زلاتهم، ودلالة على الله تعالى بإقالة عثراته، وينعشه عند سقطاته إذا علق له، واعتذر إليه، وأنه لا يهلك على ربه

=

=

الكريم إلا لسلفه اللئيم".

وروى أبو وائل عن ابن مسعود، قال: "ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله سبحانه وتعالى به يوم القيامة فيقول: يا ابن آدم ما غرّك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟".

وقيل للفضيل بن عياض: "لو أقامك الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بين يديه فقال: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول غرني: سُتُورك المُرخاة".

وقال: مقاتل: "غرّه عفو الله حين لم يعجّل عليه بالعقوبة".

وتلا نصر بن مغلس هذه الآية فقال: "غرّه رفق الله به".

عن حماد بن بكر يحكي، عن بعضهم أنه قال: "لو سألني عن هذا ربي، لقلت: غرّني حلمك".

وقال يحيى بن معاذ: "لو أقامني الله سبحانه بين يديه فقال: ما غرّك بي؟ قلت: غرّني بك برّك بي سابقا وآنفا".

وقال أبو بكر الوراق: "لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرّني كرم الكريم".

، قال منصور بن عمار:"لو قيل: ما غرّك بي؟ قلت: يا رب ما غرّني إلّا ما علمته من فضلك على عبادك وصفحك عنهم".

قال الثعلبي:"قال بعض أهل الإشارة: "إنّما قال: بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ دون سائر أسمائه وصفاته لأنه كان لفتة الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم".

قال ذو النون المصري: "كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر".

- قال الشوكاني: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) هذا خطاب الكفار: أي: ما الذي غرك، وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك، وجعلك عاقلا فاهما، ورزقك وأنعم عليك بنعمه

=

=

التي لا تقدر على جحد شيء منها.

- ذكر المفسرون في سبب هذا الاغترار أقوال:

أحدها: سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له.

وثانيها: قال الحسن: غره حمقه وجهله.

وثالثها: قال مقاتل: غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه في أول أمره، وقيل: للفضيل بن عياض: إذا أقامك الله يوم القيامة، وقال لك (ما غرك بربك الكريم) ماذا تقول؟ قال: أقول غرتني ستورك المرخاة.

قال ابن عاشور: وكذلك إجراء وصف الكريم دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة.

قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [الانفطار: ٧]، أي:"أليس هو الذي خلقك فسوَّى خلقك، فجعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال".

قال الزجاج:"أي: خلقك في أحسن تقويم".

قال ابن كثير:"أي: جعلك سَويا معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال".

قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [الانفطار: ٧]، في «فَعَدَلَكَ» وجهان من القراءة:

إحداهما: «فَعَدَّلَكَ» بالتشديد ، أي: قومك وجعلك معتدل الخلق والأعضاء. وهو اختيار الفراء ، وابن قتيبة ، وأبي عبيد ، لقوله سبحانه {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤].

قال الفراء:"من قرأ: «فعدلك» مشددة، فإنه أراد- والله أعلم: جعلك معتدلا معدل الخلق، وهو أعجب الوجهين إلي، وأجودهما في العربية لأنك تقول: في

=

=

أي صورة ما شاء ركبك، فتجعل - في - للتركيب أقوى

في العربية من أن يكون في للعدل، لأنك تقول: عدلتك إلى كذا وكذا، وصرفتك إلى كذا وكذا، أجود من أن تقول: عدلتك فيه، وصرفتك فيه".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ «فسواك فعدلك»، مثقل".

قال ابن قتيبة:" {فَعَدَّلَكَ} قَوَّم خَلْقك".

القراءة الثانية: «فعدلك» بالتخفيف ، أي: صرفك وأمالك إلى ما شاء من حسن وقبيح وقبح وصحة وسقم. حكاه الفراء، ، والنحاس ، والثعلبي.

قال الفراء:"من قرأها بالتخفيف فوجهه -والله أعلم-: فصرفك إلى أي صورة شاء إما: حسن، أو قبيح، أو طويل، أو قصير".

قال الأخفش:" {فَعَدَلَكَ} ، أي: كذا خلقك، و «عَدَلَكَ» أي: عدل بعضك ببعضك فجعلك مستويا معتدلا".

وقال مقاتل:" {فَعَدَلَكَ} ، يعني: فقومك".

وقال عطاء: "جعلك قائما معتدلا".

وقال النحاس:"معنى «عدلك» -في اللغة-: خلقك معتدلا لا يزيد رجل على رجل، وكذا سائر خلقك. وقد يكون «عدّلك»: تكثير «عدلك»، فيكونان بمعنى واحد. كما قال ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا... وعدلنا مثل بدر فاعتدل

أي: قتلنا منهم مثل من قتلوا منا".

قال الماتريدي-في الآية:"فيه ذكر قوته وسلطانه حيث قدر على تسويته في تلك الظلمات الثلاث التي لا ينتهي إليها تدبير البشر، ولا يجري عليها سلطانهم؛ ليهابوه ويحذروا مخالفته. وفيه ذكر حكمته وعلمه؛ ليعلموا أنهم لم يخلقوا عبثا ولا سدى؛ لأن الذي بلغت حكمته ما ذكر من إنشائه في تلك الظلمات الثلاث

=

=

من وجوه لا يعرفها الخلق، لا يجوز أن يخرج خلقه عبثا باطلا؛ بل خلقهم ليأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم الرسل، وينزل عليهم الكتب؛ فيلزمهم اتباعها، ويعاقبهم إذا أعرضوا عنها، وتركوا اتباعها".

عن ابن المسيب، قال: "كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال، قال: «آمنت بالذي خلقك فسواك فعدلك»".

عن عبد الرحمن بن حرملة، قال: "انصرفت مع سعيد بن المسيب من المسجد، فقلنا: هذا الهلال يا أبا محمد، فلما انصرف قال: «آمنت بالذي خلقك فسواك فعدلك» ثم التفت إلي فقال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال هكذا".

عن سعيد بن عبيد قال: "رأيت سعيد بن جبير وهو يؤمهم في رمضان يردد هذه الآية: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ} [غافر: ٧١]، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ} [الانفطار: ٧]، يرددها مرتين أو ثلاثا".

عن بُسْر بن جحَاش القرشي: "أن رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: "قال اللَه ﷻ: ابن آدم أنَّى تُعجِزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سَوّيتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ، فجَمَعت ومَنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدقُ، وأنَّى أوانُ الصدقة".

اعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم: أولها: الخلق، وهو قوله (الذي خلقك) ولا شك أنه كرم وجود لأن الوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، وهو الذي قال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم).

- والخلق: الإيجاد على مقدار مقصود.

(فسواك) أي جعلك مستوي الخلقة متناسب الأعضاء كما قال تعالى (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا).

=

=

- قال ابن عاشور: والتسوية: جعل الشيء سويا، أي قويما سليما، ومن التسوية جعل قواه ومنافعه الذاتية متعادلة غير متفاوتة في آثار قيامها بوظائفها بحيث إذا اختل بعضها تطرق الخلل إلى البقية فنشأ نقص في الإدراك أو الإحساس أو نشأ انحراف المزاج أو ألم فيه، فالتسوية جامعة لهذا المعنى العظيم.

- وقال الرازي: قوله (فسواك) أي جعلك سويا سالم الأعضاء تسمع وتبصر، ونظيره قوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) قال ذو النون: سواك أي سخر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخرا لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرك بالإيمان، وشرفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا.

(فعدلك) أي: جعلك معتدل الخلقة منتصب القامة في أحسن الهيئات والأشكال.

قال ابن عاشور: والتعديل: التناسب بين أجزاء البدن مثل تناسب اليدين، والرجلين، والعينين، وصورة الوجه، فلا تفاوت بين متزاوجها، ولا بشاعة في مجموعها.

قوله تعالى: {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٨]، أي:"في أيِّ صورة شاءها خلقك؟".

وفي تفسير قوله تعالى: {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٨]، وجوه:

أحدها: من حسن أو قبح أو طول أو قصر أو ذكر أو أنثى. ذكره الفراء ، والزجاج ، وابن قتيبة ، وحكاه الماوردي عن ابن عيسى.

قال ابن قتيبة:"فأراد أنه صوّرهم وعدّلهم، في أيّ صورة شاء ركّبهم: من حسن وقبح، وبياض، وسواد، وأدمة وحمرة. ونحوه قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ} [الروم: ٢٢]".

=

=

الثاني: في أي صورة من صور الخلق ركبك حتى صرت على صورتك التي أنت عليها أيها الإنسان، لا يشبهك شيء من الحيوان، ولو شاء ركبك في غير صورة الإنسان. وهذا قول عكرمة ، وأبي صالح ،إسماعيل بن أبي خالد ، ومقاتل.
عن أبي صالح: "{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} ، قال: خنزيرا أو حمارا". وفي رواية:"إن شاء حمارًا، وإن شاء خنزيرًا، وإن شاء فرسًا، وإن شاء إنسانًا".
قال إسماعيل:"إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار".
قال عكرمة:"إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير".
الثالث: ما شاء ركبك من شبه أم أو أب أو خال أو عم، قاله مجاهد.
قال مجاهد:"أي: شبه شاء صورك، شبه الأب أو الأم أو الخال أو العم".
قال ابن أبي نجيح: "في صورة عم في صورة أب، في صورة بعض القرابات تشبيها".
ويدل على صحة هذا ما روى موسى بن علي بن رباح اللخمي عن أبيه عن جده:"أن النبيّ ﷺ قال له: "ما وُلِدَ لَك؟ " قال: يا رسول الله ما عسَى أن يولد لي، إما غلام، وإما جارية، قال: "فَمَن يُشْبِهُ؟ " قال: يا رسول الله من عسى أن يشبه؟ إما أباه، وإما أمه؛ فقال النبيّ ﷺ عندها: "مَهْ، لا تَقُولَنَّ هَكَذَا، إنَّ النُّطْفَةَ إذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَحْضَرَ اللهُ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَها وَبَينَ آدَمَ، أما قَرأْتَ هَذِهِ الآيَةَ فِي كتاب الله: {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} ، قال: سَلَكَكَ".
قال ابن كثير:"وهذا الحديث لو صح لكان فيصلا في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت؛ لأن "مُطَهَّر بن الهيثم" قال فيه أبو سعيد بن يونس: كان متروك الحديث. وقال ابن حبان: يُرْوى عن موسى بن علي وغيره ما لا يُشبهُ حَديثَ الأثبات. ولكن في الصحيحين عن أبي هُرَيرة: «أن رَجُلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي وَلَدت غُلامًا أسودَ؟. قال: "هل لك من إبل؟". قال: نعم. قال: "فما

=

=

ألوانها؟ " قال: حُمر. قال: "فهل فيها من أورَق؟ " قال: نعم. قال: "فأنى أتاها ذلك؟ " قال: عسى أن يكون نزعة عِرْق. قال: "وهذا عسى أن يكون نزعة عرق»".

قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} [الانفطار: ٩]، أي:"ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله مُحِقون، بل تكذِّبون بيوم الحساب والجزاء".

(كلا) للردع والزجر والوعيد والتهديد.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ليس الأمر أيها الكافرون كما تقولون من أنكم على الحقّ في عبادتكم غير الله، ولكنكم تكذّبون بالثواب والعقاب، والجزاء والحساب".

قال الزجاج:"أي: بل تكذبون بأنكم تبعثون وتدانون، أي: تجازون بأعمالكم".

قال ابن كثير:"أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب".

قال ابن عطية:"رد على سائر أقوالهم ورد عنها بقوله: {كَلَّا}، ثم أثبت لهم تكذيبهم بالدين، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار.. و «الدين» هنا يحتمل أن يريد الشرع، ويحتمل أن يريد الجزاء والحساب".

قال الزمخشري:"«الدين»: هو الجزاء. أو دين الإسلام. فلا تصدّقون ثوابا ولا عقابا وهو شر من الطمع المنكر".

عن مجاهد: "{بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}، قال: بالحساب". وفي لفظ:"بيوم الحساب".

عن قتادة: "{بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}، قال: يوم شدّة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم".

=

=

وقرأ جمهور الناس: «تكذبون» بالتاء من فوق، وقرأ الحسن وأبو جعفر: «يكذبون» بالياء.

و (بل) للإضراب الانتقالي، أي: مع هذا الخلق والإعداد والإمداد (تكذبون بالدين) أي: تكذبون وتنكرون الدين وهو الجزاء والبعث والحساب.

وسمي يوم الدين لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي: يجازون بها ويحاسبون عليها.

والدين في القرآن يطلق على معنيين:

الأول: بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى (مالك يوم الدين).

وكما قال تعالى (إنا لمدينون) أي: لمجزيون.

وكما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أي: جزاء أعمالهم.

وقال تعالى (فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين) أي: غير مجزيين بأعمالكم ومحاسبين عليها.

وقال تعالى (وإن الدين لواقع) أي: إن الجزاء على الأعمال لواقع حقيقة.

والثاني: العمل، كما في قوله تعالى (لكم دينكم ولي الدين) وقوله (ورضيت لكم الإسلام دينا).

قوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: ١٠ - ١١]، أي:"وإن عليكم لملائكة رقباء، كرامًا على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم".

قال الطبري:"يقول: وإن عليكم رُقَباء حافظين يحفظون أعمالكم، ويُحْصونها عليكم، كراما على الله كاتبين يكتبون أعمالكم".

قال ابن كثير:"يعني: وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم".

قال الزجاج:"أعلمهم ﷻ أن أعمالهم محفوظة".

=

=

قال الزمخشري:" {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ}، تحقيق لما يكذبون به من الجزاء، يعنى أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها. وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم: تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه، ويجازى به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة. وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين".

قال ابن عطية:"«الحافظون»: هم الملائكة الذين يكتبون أعمال ابن آدم، وقد وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام".

عن ابن علية، قال: "قال بعض أصحابنا، عن أيوب [السختياني]، في قوله: "{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ}، قال: يكتبون ما تقولون وما تَعْنُون".

عن يعلى بن عبيد، قال: "دخلنا على محمد بن سُوقة، فقال: أحدِّثكم بحديث لعله ينفعكم، فإنه قد نفعني، قال: قال لنا عطاء بن أبي رباح: يا ابن أخي، إنّ مَن كان قبلكم كان يكره فضول الكلام، ما عدا كتابَ الله تعالى أن تقرأه، أو أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لابدّ لك منها، أتنكرون أنّ {عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِرامًا كاتِبِينَ}، وأنّ {عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧ - ١٨]؟! أما يستحيي أحدكم لو نشر صحيفته التي أملى صدرَ نهاره، وأكثر ما فيها ليس مِن أمر دينه، ولا دنياه!".

أي: وإن عليكم لحافظين من الملائكة يحفظونكم ويحصون أعمالكم.

كما قال الله سبحانه: (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله).

ويحفظون عليك أعمالك ويحصونها عليك.

- قال الماوردي: (وإن عليكم لحافظين) يعني الملائكة، يحفظ كل إنسان ملكان، أحدهما عن يمينه يكتب الخير، والآخر عن شماله يكتب الشر.

=

=

(كراما) أي: ذوي أخلاق كريمة، وصفات حميدة.

لماذا أتي بصفة الكرام للملائكة؟ لأن الكريم يستحيا منه.

(كاتبين) أي: يكتبون جميع أعمالكم وأقوالكم، فاحذروا واستحيوا منهم.

قال تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

وقال تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة).

قوله تعالى: {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٢]، أي:"يعملون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم، لتجازوا به يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: يعلم هؤلاء الحافظون ما تفعلون من خير أو شرّ، يحصون ذلك عليكم".

قال الزجاج:"فيكتبونه عليهم".

قال ابن عطية:"{يَعْلَمُونَ} ما يفعل ابن آدم لمشاهدتهم حاله".

قال الحسن: {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} من الظاهر دون الباطن".

وقال ابن فورك": وقيل: هو على الكل والله تعالى يعلمهم ذلك".

ويذكر عن سفيان:"أن العبد إذا عمل سيئة مما لا ترى ولا تسمع، مثل الخواطر المستصحبة ونحوها أن الملك يجد ريح تلك الخطرة الخفية بإدراك قد خلقه الله لهم".

أي: يعلمون فعلكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وجميع أحوالكم بما أعلمهم الله وأقدرهم عليه.

- قال ابن عاشور: وأجري على الملائكة الموكلين بإحصاء أعمالهم أربعة أوصاف هي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعلمه الناس، وابتدئ منها بوصف الحفظ لأنه الغرض الذي سبق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء

=

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣).

{إِنَّ الْأَبْرَار} الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيمَانهمْ {لَفِي نعيم} جنة.

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤).

{وَإِنَّ الْفُجَّار} الْكُفَّار {لَفِي جَحِيم} نَار مُحْرِقَة.

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥).

{يَصْلَوْنَهَا} يَدْخُلُونَهَا وَيُقَاسُونَ حَرّهَا {يَوْم الدِّين} الْجَزَاء.

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦).

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} بِمُخْرَجِينَ.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا يَوْم الدِّين}.

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨).

{ثُمَّ مَا أَدْرَاك مَا يَوْم الدِّين} تَعْظِيم لِشَأْنِهِ.

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩).

{يَوْم} بِالرَّفْعِ أَيْ هُوَ يَوْم {لَا تَمْلِك نَفْس لِنَفْسٍ شَيْئًا} مِنْ الْمَنْفَعَة {وَالْأَمْر يَوْمئِذٍ لِلَّهِ} لَا أَمْر لِغَيْرِهِ فِيهِ أَيْ لَمْ يُمَكِّن أَحَدًا مِنْ التَّوَسُّط فِيهِ بِخِلَافِ الدُّنْيَا[1].

=

وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين.

- قال النسفي: وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣].

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: إن الذين برّوا بأداء فرائض الله، واجتنابِ معاصيه

=

=

لفي نعيم الجنان ينعمون فيها".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي".

قال ابن عطية:"«الأبرار»: جمع بر وهو الذي قد اطرد بره عموما فيرونه في طاعته إياه، وبر أبويه وبر الناس في دفع ضره عنهم وجلب ما استطاع الخير إليهم، وبر الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد شيئا منها عبثا ولغير منفعة مباحة".

قال القشيري:"«الْأَبْرارَ»: هم المؤمنون اليوم في نعمة العصمة، وغداهم في الكرامة والنعمة" .. "قيل: البرّ: الذي لا يضمر الشّرّ، ولا يؤذى الذّرّ".

قال سهل:"نعيم الخاص من عباده، وهم الأبرار، لقاؤه ومشاهدته، كما كان نعيمهم في الدنيا مشاهدته وقربه.

قال النحاس:"أي: الذين برّوا بطاعة الله واجتناب معاصيه".

قال الثعلبي:"يعني: الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله واجتناب معاصيه".

عن الحسن: "الْأَبْرارَ: هم الذين لا يؤذون الذرّ "

قال السمعاني:"ظاهر المعنى أن «الأبرار»: المطيعون".

عن عيسى بن يونس قال:"قال محارب:"إنما سموا الأبرار، لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أنا لولدك عليك حقا كذلك لولدك عليك".

قال سهل: "الأبرار: الذين تخلقوا بخلق من أخلاق العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة".

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم المدني: "ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله؛ فإنّك تعلم ما لك عند الله. قال: فأين أجد في كتاب الله؟ قال: عند قوله: {إنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وإنَّ الفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ}. قال

=

سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: {قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]".

قال ابن عاشور: وإنما سمي التقي برا لأنه بر ربه، أي صدقه ووفى له بما عهد له من الأمر بالتقوى.

وقد قال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملآئكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

(لفي نعيم) نعيم معنوي: وهو نعيم القلب، ونعيم حسي: وهو نعيم البدن في جنات النعيم.

قال ابن القيم: (ولا تحسب أن قوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم) مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم.

وهل النعيم إلا نعيم القلب؟؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟؟

وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟).

قوله تعالى: {وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٤]، أي:"وإن الفُجَّار الذين قَصَّروا في حقوق الله وحقوق عباده لفي جحيم".

قال الطبري: يقول:"{وَإِنَّ الْفُجَّارَ} الذين كفروا بربهم {لَفِي جَحِيمٍ}".

عن أبي مالك:"{الجحيم}، قال: ما عظم من النار".

قال ابن كثير:"ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب".

قال ابن عطية:"«الفجار»: الكفار، و «يصلون»، معناه: يباشرون حرّها بأبدانهم،

=

وَيَوْمَ الدِّينِ هو يوم الجزاء".

قال القشيري:"«الْفُجَّارَ»: اليوم في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشّرك الموجب للفرقة، وغدا في النار على وجه التخليد والتأييد".

روي عن الضحاك بن موسى، قال: "مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أياما، فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحدا، من أصحاب النبي ﷺ؟ فقالوا له: أبو حازم. فأرسل إليه، فلما دخل عليه، قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال: أبو حازم يا أمير المؤمنين، وأي جفاء رأيت مني؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني، قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك، قال: فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري، فقال: أصاب الشيخ وأخطأت، قال: سليمان يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: «لأنكم أخربتم الآخرة، وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب»، قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم غدا على الله؟ قال: «أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه»، فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: «اعرض عملك على كتاب الله»، قال: وأي مكان أجده؟ قال: {إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم} [الانفطار: ١٤]، قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال: أبو حازم «رحمة الله قريب من المحسنين»، قال له سليمان: يا أبا حازم، فأي عباد الله أكرم؟ قال: «أولو المروءة والنهى»، قال له سليمان: يا أبا حازم، فأي الأعمال أفضل؟ قال أبو حازم: «أداء الفرائض مع اجتناب المحارم»، قال سليمان: فأي الدعاء أسمع؟ قال أبو حازم: «دعاء المحسن إليه للمحسن»، قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «للسائل البائس، وجهد المقل ليس فيها من ولا أذى»، قال: فأي القول أعدل؟ قال: «قول الحق عند من تخافه أو ترجوه»، قال: فأي المؤمنين

=

=

أكيس؟ قال: «رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها»، قال: فأي المؤمنين أحمق؟ قال: «رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره»، قال له سليمان: أصبت، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين، أو تعفيني؟ قال له سليمان: لا، ولكن نصيحة تلقيها إلي، قال: يا أمير المؤمنين، «إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين، ولا رضا لهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها، فلو شعرت ما قالوه، وما قيل لهم؟» فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: «كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه». قال له سليمان: فكيف لنا أن نصلح؟ قال: «تدعون الصلف، وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية»، قال له سليمان: كيف لنا بالمأخذ به؟ قال أبو حازم: «تأخذه من حله، وتضعه في أهله»، قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا، فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: «أعوذ بالله»، قال له سليمان: ولم ذاك؟ قال: «أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا، فيذيقني الله ضعف الحياة، وضعف الممات»، قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك؟ قال: «تنجيني من النار، وتدخلني الجنة»، قال سليمان: ليس ذاك إلي، قال أبو حازم: «فما لي إليك حاجة غيرها»، قال: فادع لي، قال أبو حازم: «اللهم إن كان سليمان وليك، فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك، فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى»، قال له سليمان: قط، قال أبو حازم: «قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينفعني أن أرمي عن قوس ليس لها وتر؟» قال له سليمان: أوصني. قال: "سأوصيك وأوجز: عظم ربك ونزهه، أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك". فلما خرج من عنده، بعث إليه بمائة دينار، وكتب إليه: أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير. قال: فردها عليه وكتب إليه: «يا أمير المؤمنين،

=

=

أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلا، أو ردي عليك بذلا، وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟».

- قال ابن عاشور: والفاجر: المتصف بالفجور وهو ضد البرور، والمراد بـ (الفجار) هنا: المشركون، لأنهم الذين لا يغيبون عن النار طرفة عين وذلك هو الخلود، ونحن أهل السنة لا نعتقد الخلود في النار لغير الكافر.

(لفي جحيم) اسم من النار، سميت بذلك لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها.

قوله تعالى: {يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ} [الانفطار: ١٥].

قال الطبري: يقول: "يَصْلَى هؤلاء الفجار الجحيم يوم القيامة، يوم يُدان العباد بالأعمال، فيُجازَوْنَ بها".

قال الزجاج: أي: "يوم الجزاء وهو يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة".

عن ابن عباس، قوله: "{يَوْمَ الدينِ}، من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله، وحذَّره عباده".

عن مجاهد: {يَوْمَ الدِّينِ}، قال: "يوم الحساب".

قال قتادة: "يوم تدان فيه الناس بأعمالهم".

أي: يدخلونها ويغمرون فيها ويقاسون حرها من كل جهة ومن كل جانب.

قال ابن عاشور: وصلي النار: مس حرها للجسم.

(يوم الدين) أي: يوم الجزاء يوم القيامة، وسمي يوم الدين لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي: يجازون بها ويحاسبون عليها.

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} [الانفطار: ١٦]، أي:"وما هم عن عذاب جهنم بغائبين لا بخروج ولا بموت".

قال مقاتل:"يعني: الفجار محضرون الجحيم لا يغيبون عنها".

=

=

قال الفراء:"يقول: إذا دخلوها فليسوا بمخرجين منها".

قال الطبري: يقول:"وما هؤلاء الفجار من الجحيم بخارجين أبدا، فغائبين عنها، ولكنهم فيها مخلَّدون ماكثون، وكذلك الأبرار في النعيم، وذلك نحو قوله: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِين}".

قال ابن كثير:"أي: لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوما واحدا".

قال ابن عطية:"قال بعض المتأولين: هذا تأكد في الإخبار عن أنهم يصلونها، وأنهم لا يمكنهم الغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: {وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ} في البرزخ، كأنه تعالى لما أخبر عن صليهم إياها يوم الدين وذلك أنهم يرون مقاعدهم من النار غدوة وعشية فهم مشاهدون لها".

(وما هم عنها بغائبين) أي: أنهم مقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون عنها أبدا.

كما قال تعالى في سورة النساء، قال تعالى (ولا ليهديهم سبيلا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا).

وفي سورة الأحزاب، قال تعالى (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا).

وفي سورة الجن، قال تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا).

وقيل: أنهم لابد وأنهم سيردون عليها.

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أدراك يا محمد، أيّ وما أشعرك ما يوم الدين؟ يقول: أيُّ شيء يوم الحساب والمجازاة، معظما شأنه جلّ ذكره، بقيله ذلك.. {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}، يقول: ثم أيّ شيء أشعرك يوم المجازاة والحساب يا محمد، تعظيما لأمره".

=

=

قال ابن كثير:"قوله: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله: {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}".

عن قتادة، قوله: "{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}، تعظيما ليوم القيامة، يوم تدان فيه الناس بأعمالهم".

قال الزجاج: "فكرر ذكر اليوم تعظيمًا لشأنه".

قال البيضاوي:"تعجيب وتفخيم لشأن الـ «يوم»، أي: كنه أمره بحيث لا تدركه دراية دار".

وقال النحاس:"قيل: ليس هذا تكريرا. والمعنى: وما أدراك ما في يوم الدين من العذاب والنكال للفجار، ثم ما أدراك ما في يوم الدين من النعيم للأبرار".

قال الشوكاني: ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال (وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين) أي: يوم الجزاء، والحساب، وكرره تعظيما لقدره، وتفخيما لشأنه، وتهويلا لأمره، كما في قوله (القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة) (الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة) والمعنى: أي شيء جعلك داريا ما يوم الدين.

قوله تعالى: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا} [الانفطار: ١٩]، أي:"يوم الحساب لا يقدر أحد على نفع أحد".

قال الطبري: "يقول: ذلك اليوم، يوم لا تُغني نفس عن نفس شيئا، فتدفع عنها بليَّة نزلت بها، ولا تنفعها بنافعة، وقد كانت في الدنيا تحميها، وتدفع عنها من بغاها سوءا، فبطل ذلك يومئذ، لأن الأمر صار لله الذي لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، واضمحلت هنالك الممالك، وذهبت الرياسات، وحصل الملك للملك الجبار".

قال ابن كثير:"أي: لا يقدر واحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن

=

=

يأذن الله لمن يشاء ويرضى".

قال النسفي:"أي: لا تستطيع دفعًا عنها ولا نفعًا لها بوجه وإنما تملك الشفاعة بالإذن".

قال الواسطي: "في قوله: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا} [الانفطار: ١٩]، إشارة إلى فناء غير الله تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه".

وفي الحديث:"يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا يا معشر بنى قصى أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا إن لك رحما وسأبلها ببلالها".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يَوْم»، برفع الميم ردّا على «اليوم» الأول، وقراءة غيرهم بالنصب أي: «في يوم».

قوله تعالى: {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩]، أي:"والأمر في ذلك اليوم لله وحده الذي لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، ولا ينازعه أحد".

قال البيضاوي:"تقرير لشدة هوله وفخامة أمره إجمالا".

قال الطبري: "يقول: والأمر كله يوم الدين لله دون سائر خلقه، ليس لأحد من خلقه معه يومئذ أمر ولا نهي".

قال مقاتل:"يعني: لا يملك الأمر يومئذ أحد غيره، وحده".

قال السمعاني:"أي: الأمر يوم القيامة لله ليس لأحد معه أمر".

قال القاسمي:"أي: أمر الملك الظاهر، ونفوذ القضاء القاهر، يومئذ لله وحده.

=

=

لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات".

قال ابن فورك:"لأنه في ذلك اليوم لم يملك الله فيه أحدا شيئا، كما ملكهم في دار الدنيا، ووجه آخر وهو أنه لا يملك في ذلك اليوم أن يجازي أحدا إلا بالحق بأمر الله".

قال ابن كثير:"كقوله {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]، وكقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان: ٢٦]، وكقوله {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]".

قال الرازي:"هو وعيد عظيم من حيث إنه عرفهم أنه لا يغني عنهم إلا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء".

قال قتادة:"والأمر والله اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد".

قال قتادة:"ليس ثم أحد يومئذ يقضي شيئا، ولا يصنع شيئا إلا ربّ العالمين".

- قال ابن عاشور: ومعنى (لا تملك نفس لنفس شيئا) لا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى، أي لنفعها.

(والأمر يومئذ لله) لا ينازعه فيه أحد.

كما قال (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم).

وقوله تعالى (الملك يومئذ لله يحكم بينهم).

وقال سبحانه (الملك يومئذ الحق للرحمن).

- فالأمر والملك يوم القيامة لله تعالى كما قال تعالى (مالك يوم الدين).

- تخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي

=

سورة المطففين[1]

=

أحد هنالك شيئا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا).

(١) السّورة مكيّة كلها، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وابن زبير، والضّحّاك، ويحيى بن سلام.

عن ابن عباس قال: "نزلت سورة «المطففين» بمكة". وروي عن ابن الزبير مثله.

وعن ابن عباس قال: "آخر ما أنزل بمكة سورة «المطففين»".

قال ابن عطية:"هي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبما هو في كل أمة لا سيما مع كفرهم".

الثاني: مدنيّة، قاله ابن عباس -في الأصح عنه-، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والسدي، ومقاتل، إلّا أنّ ابن عباس، وقتادة قالا: "فيها ثمان آيات مكيّة، من قوله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٢٩]، إلى آخرها".

وقال مقاتل: "فيها آية مكيّة، وهي قوله ﷻ: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطففين: ١٣]".

الثالث: أنها نزلت بين مكّة، والمدينة، قاله جابر بن زيد، وابن السّائب.

وذكر هبة الله بن سلامة المفسّر أنها:"نزلت في الهجرة بين مكة والمدينة نصفها يقارب مكة ونصفها يقارب المدينة".

* آياتها ستّ وثلاثون. وكلماتها مائة وتسع. وحروفها أربعمائة وثلاثون. وفواصل آياتها (من).

=

=

* أسماء السورة:

تسمى سورة «سورة المطففين» سميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف «سورة المطففين» اختصارا، ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها بقوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١].

وتسمى سورة «ويل للمطففين» سميت هذه السورة في كتب السنة وفي بعض التفاسير «سورة ويل للمطففين»، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، ووجه تسميتها لافتتاح السورة بهذه الجملة: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١].

وتسمى سورة «التطفيف» عنون بها بعض العلماء والمفسرين، كأبي عمرو الداني، وعبدالقاهر الجرجاني، والسخاوي، وابن الهائم، وغيرهم. وهذه التسمية من مرتبط بموضوع السورة، لأن «التطفيف»: "تنقيص يجور به صاحبه من كيل أو وزن" (١٠)، وقد حذرت السورة من التطفيف في الكيل والوزن.

* معظم مقصود السّورة: تمام الكيل والميزان، والاحترازُ عن البَخْس والنُّقصان، وذكر السّجّين لأَهل العصيان، وذكر العِلِّيّين لأَهل الإِيمان، ودَلال المؤمنين والمطيعين فى نعيم الجنان، وذُلّ العصيان فى عذاب النِّيران، ومكافأَتهم على وَفْق الجُرْم (والكفران فى قوله {هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} .

* فيها من المتشابه قوله: {كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ} وبعده: {كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ} التقدير فيها: إِنَّ كتاب الفجّار لكتاب مرقوم فى سجّين، وإِنَّ كتاب الأَبرار لكتاب مرقوم فى عليّين. ثمّ ختم الأَوّل بقوله: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}، لأَنه فى حقِّ الكفَّار، وختم الثَّانى بقوله: {يَشْهَدُهُ المقربون} فختم كلّ واحد بما لا يصلح سواه مكانه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١).

{وَيْل} كَلِمَة عَذَاب أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّم {للمطففين}.

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢).

{الَّذِينَ إِذَا اِكْتَالُوا عَلَى} أَيْ مِنْ {النَّاس يستوفون} الكيل.

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣).

{وَإِذَا كَالُوهُمْ} أَيْ كَالُوا لَهُمْ {أَوْ وَزَنُوهُمْ} أَيْ وَزَنُوا لَهُمْ {يُخْسِرُونَ} يُنْقِصُونَ الْكَيْل أَوْ الوزن.

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤).

{أَلَا} اِسْتِفْهَام تَوْبِيخ {يَظُنّ} يَتَيَقَّن {أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مبعوثون}.

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥).

{لِيَوْم عَظِيم} أَيْ فِيهِ وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة.

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦).

{يَوْم} بَدَل مِنْ مَحَلّ لِيَوْمٍ فَنَاصِبه مَبْعُوثُونَ {يَقُوم النَّاس} مِنْ قُبُورهمْ {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} الْخَلَائِق لِأَجْلِ أَمْره وَحِسَابه وَجَزَائِهِ(٢).

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة فكانوا من أخبث الناس كيلاً؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١)}؛ فحسنوا الكيل بعد ذلك.

أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٥٤)، وفي تفسيره (٢/ ٥٠٢ رقم ٦٧٤)، وابن =

=

ماجة (٢٢٢٣)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٥٨)، وابن حبان (٤٩١٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٩٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٣)، والبغوي في معالم التنزيل (٨/ ٣٦١)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢)، وفي الشعب (٤/ ٣٢٧) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٩٦): إسناده صحيح، وقال تلميذه البوصيري في مصباح الزجاجة: إسناده حسن لأن محمد بن عقيل وعلي بن الحسين مختلف فيهما وباقي رجال الأسناد ثقات، وقال السيوطي في لباب النقول (ص ٢٢٨) وكذا في الدر المنثور (٨/ ٤٤١): سنده صحيح، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١٧٦٠)، وأورده العلامة الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ١٧٠)، وحسنه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٥٠٣).

* قوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١].

عن ابن عباس، قال: "لما قدم نبي الله ﷺ المدينة، فكانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله ﷻ: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١]، فحسنوا الكيل بعد ذلك".

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَيْلٌ} [المطففين: ٤]، على أقوال:

أحدها: أنه العذاب، قاله ابن عباس ، والفراء.

عن ابن عباس: «فويل»، يقول: فالعذاب عليهم".

وحكي الماوردي: أنه أشق العذاب".

الثاني: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض ، وشقيق.

الثالث: أنه التقبيح، وهو قول الأصمعي ، ومنه قوله تعالى: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]، ومنه قول الشاعر:

كسا اللؤم سهما خضرة في جلودها... فويل لسهم من سرابيلها الخُضْرِ

=

=

الرابع: أنه الحزن، قاله المفضل ، وابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الخامس: أنه الخزي والهوان. حكاه الماوردي.

السادس: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول أبي سعيد الخدري ، وعطاء بن يسار ، ومقاتل.

قال مقاتل:"الويل واد في جهنم بعده مسيرة سبعين سنة، فيه تسعون ألف شعب، في كل شعب سبعون ألف شق، في كل شق سبعون ألف مغار، في كل مغار سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف تابوت من حديد، وفي التابوت سبعون ألف شجرة، فى كل شجرة سبعون ألف غصن من نار، في كل غصن سبعون ألف ثمرة، في كل ثمرة دودة طولها سبعون ذراعا، تحت كل شجرة سبعون ألف ثعبان «وسبعون ألف عقرب، فأما الثعابين فطولهن مسيرة شهر في الغلظ مثل الجبال، وأنيابها مثل النخل، وعقاربها مثل البغال الدهم لها ثلاثمائة وستون فقار، في كل فقار قلة سم".

السابع: أنه جبل في النار، وهو قول عثمان بن عفان.

الثامن: أن «الويل»: كلمة تقال لكل من هو في عذاب وهلكة. قاله الزجاج.

قال القشيري:"«وَيْلٌ»: الويل كلمة تذكر عند وقوع البلاء، فيقال: ويل لك، وويل عليك!".

وقيل: "هي كلمة تقال لمن وقع في هلكة يستحقها، وأصله: الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومنه قوله تعالى: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ} [الكهف: ٤٩].

=

=

قال سيبويه: «ويح» كلمة زجر لمن أشرف على هلكة، و «ويل» لمن وقع فيها.
وحكي الماوردي:"أنه النداء بالخسار والهلاك، وقد تستعمله العرب في الحرب والسلب".
التاسع: أنه باب من أبواب جهنم. حكاه الزهراوي.
العاشر: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.
الحادي عشر: أن «ويل»: كلمة وعيد. قاله الكوكباني.
وهي: الويل والويلة، وهما الهلكة، والجمع: الويلات، قال الشاعر:
لَهُ الوَيْلُ إنْ أَمْسَى وَلا أُمُّ هَاشِمٍ... قرِيبٌ وَلا البَسباسَةُ ابنةُ يَشكُرَا
وقال أيضا:
ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ... فَقَالَتْ: لَكَ الوَيْلاَتُ!، إنَّكَ مُرْجِلِي
وحكي الماوردي:"أن أصله: ويْ لفلان، أي: الجور لفلان، ثم كثر استعمال الحرفين فوصلا بلام الإضافة".
نستنتج مما سبق بأن «الْوَيْلُ»: هو الْهَلَاكُ والحزن والعذاب والهوان في اللغة، وقيل: هو وادٍ في جهنم من عصارة أهل النار، والله أعلم.
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم في أسفلها للذين يُطَففون، يعني: للذين ينقصون الناس، ويبخسونهم حقوقهم في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصل ذلك من الشيء الطفيف، وهو القليل النزر، والمطفِّف: المقلِّل حقّ صاحب الحقّ عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن؛ ومنه قيل للقوم الذي يكونون سواء في حسبة أو عدد: هم سواء كطَفّ الصاع، يعني بذلك: كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء".
قال أبو عبيدة:"المطفّف: الذي لا يوفى على الناس من الناس".

=

=

قال ابن فورك:"التطفيف: تنقيص يجور به صاحبه من كيل أو وزن".

قال الزجاج:"«المطففون»: الذين ينقصون المكيال والميزان".

قال الزمخشري:"التطفيف: البخس في الكيل والوزن، لأنّ ما يبخس شيء طفيف حقير".

قال ابن كثير:"المراد بـ «التطفيف» -هاهنا-: البَخْس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قَضَاهم".

قال عكرمة: "أشهد أن كلّ كيال ووزّان في النار، فقيل له في ذلك، فقال: إنه ليس منهم أحد يزن كما يتزن ولا يكيل كما يكتال، وقد قال الله: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}".

عن وهْب بن مُنَبِّه، قال: "تَرْكُكَ المكافأَةَ تطفيفٌ؛ قال الله: {ويْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}".

عن عبد الله، قال: "قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}، حتى بلغ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}".

عن هلال بن طلق قال: "بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئةً وأوفاه كيلا؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}".

عن سلمان الفارسي، قال: "الصلاة مكيال، فمن أوفى أوفى الله، وقد علمتم ما قال الله في الكيل: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١]".

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خمس بخمس» قالوا: يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

=

=

قال مالك بن دينار: "دخلت على جار لي وقد نزل به الموت، فجعل يقول: جبلين من نار جبلين من نار، قال: قلت: ما تقول أتهجر؟ قال: يا أبا يحيى كان لي مكيالان، كنت أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر، قال: فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، فقال: يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر إزداد عظما فمات في وجعه".

عن الأصمعي قال: "قال لي إعرابي: لا تلتمس الحوائج ممن مروءته في رؤس المكاييل والسن الموازين".

وروى عبد خير:"أن عليّا مرّ على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فكفا الميزان، ثم قال: أقم الوزن بالقسط، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت".

وقال نافع:"كان ابن عمر يمرّ بالبائع فيقول: اتّق الله وأوف الكيل والوزن، فإن المطفّفين يوقفون يوم القيامة حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم".

قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} [المطففين: ٢].

قال الطبري: يقول:"الذين إذا اكتالوا من الناس ما لهم قبلهم من حقّ، يستوفون لأنفسهم فيكتالونه منهم وافيا".

قال الزجاج:"المعنى: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عَلَيْهم الكيل، وكذلك إذا اتَّزَنُوا استوفوا الوزن".

قال القشيري:"يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا".

قال ابن كثير:"أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد".

قال ابن فورك:"الاكتيال: الأمر بالكيل ونظيره الاتزان، وهو الأخذ بالوزن، والاستيفاء: الأخذ بالوفاء، وهو طلب الوفاء، والوفاء تمام مقدار الحق".

أي: إذا اكتالوا لأنفسهم وتقاضوا من الناس (يستوفون) يأخذون حقهم تاما وافيا.

=

=

قال الفراء: ({اكتالوا على الناس} [المطففين:٢] يريد اكتالوا من الناس، وهما تعتقبان - على ومن - في هذا الموضع؛ لأنه حق عليه، فإذا قال: اكتلت عليك فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قال: اكتلت منك، فهو كقولك: استوفيت منك).

وقال ابن الجوزي: (قوله تعالى: {الذين إذا اكتالوا على الناس} [المطففين:٢] أي: من الناس فـ[على] بمعنى [من] في قول المفسرين واللغويين).

ومما يحسن التنبيه عليه عند هذه الآية:

أنه إذا كان الأصل في اللغة أن يقال: اكتلت من فلان، ولا يقال: اكتلت على فلان، فما وجه استخدام [على] مكان [من] في هذا الموضع؟.

فأقول: الجواب من وجوه:

الأول: أن [على] و [من] يتعاقبان كما قال الفراء وغيره، فهما بمعنى واحد، ويجوز استخدام أحدهما مكان الآخر؛ ليكون في ذلك تنبيه لأمر آخر، كما سيأتي.

الثاني: لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا فيه إضرار بهم وتحامل عليهم أقيمت [على] مقام [من] الدالة على ذلك، أي: على الاستعلاء وما يحمله من المعاني كالظلم والتعدي ونحوها.

قال أبو السعود: (وتبديل كلمة [على] بـ[من] لتضمين الاكتيال معنى: الاستيلاء).

الثالث: أن يكون ذلك للدلالة على أن اكتيالهم: لما لهم على الناس؛ لأن استخدام [من] في هذا المقام يوهم معنى آخر، وهو أنهم يكتالون للناس ما ليس لهم.

قال البيضاوي: (أي: إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل

=

[على] بـ[من] للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس).

الرابع: أن يكون [على] متعلق بـ {يستوفون} [المطففين:٢] من باب تقديم المفعول على الفعل.

قال الزمخشري: (ويجوز أن يتعلق على بـ {يستوفون} [المطففين:٢] ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصة). والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين: ٣].

قال الطبري:"يقول: وإذا هم كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصونهم".

قال الزجاج:"أي: إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم يخسرون، أي ينقصون في الكيل والوزن".

قال القشيري:"وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلّى ذلك ف: الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء فمن لم يرض لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف".

قال ابن كثير:"أي: ينقصون.. وقد أمر الله – تعالى – بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [الإسراء: ٣٥]، وقال: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢]، وقال: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٩]. وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان".

أي: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم (يخسرون) أي: يبخسون الكيل والوزن وينقصونه ويعطون الناس حقهم ناقصا، فجمعوا بين الشح في طلب حقهم كاملا بلا مسامحة، والبخل بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيل والوزن لغيرهم.

=

- قال في التفسير الوسيط: والمعنى: هلاك شديد، وعذاب أليم، للمطففين، وهم الذين يبخسون حقوق الناس في حالتي الكيل والوزن وما يشبههما، ومن مظاهر ذلك أنهم إذا اشتروا من الناس شيئا حرصوا على أن يأخذوا حقوقهم منهم كاملة غير منقوصة، وإذا باعوا لهم شيئا، عن طريق الكيل أو الوزن أو ما يشبههما يخسرون أي: ينقصون في الكيل أو الوزن.

يقال: خسر فلان الميزان وأخسره، إذا نقصه، ولم يتمه كما يقتضيه العدل والقسط.

والتعبير بقوله (يستوفون) و (يخسرون) يدل على حرصهم الشديد فيما يتعلق بحقوقهم. وإهمالهم الشنيع لحقوق غيرهم، إذ استيفاء الشيء، أخذه وافيا تاما، فالسين والتاء فيه للمبالغة، وأما يخسرون فمعناه إيقاع الخسارة على الغير في حالتي الكيل والوزن وما يشبههما.

- في قوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) قد يقال: إنه لا عيب على من أخذ حقه وافيا؟ فيقال: إن الوعيد في الآيات على المجموع، فهم في حال الأخذ يستوفون، وفي حال الإعطاء يبخسون وينقصون، فهؤلاء متوعدون بالعذاب العظيم.

- في هذا وجوب العدل فيما له وما عليه في الكيل والوزن وغير ذلك.

كما قال تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط)

وقال تعالى (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا).

وذكر الله عن شعيب أنه قال لقومه (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم). وأهلكهم الله ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

=

=

- قال السعدي: وإذا كان هذا وعيدا على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان فالذي يأخذ أموالهم قهرا وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين.

وإنما توعد الله المطففين بهذا الوعد الشديد لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحة.

فائدة: قال بعض العلماء: سورتان في القرآن بدأتا بالويل: ويل للمطففين، وويل لكل همزة لمزة.

الأولى في أموال الناس.

والثانية في أعراض الناس.

قوله تعالى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} [المطففين: ٤].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ألا يظنّ هؤلاء المطففون الناس في مكاييلهم وموازينهم أنهم مبعوثون من قبورهم بعد مماتهم".

قال الزجاج: "أي: إنهم لو ظنوا أنهم يبعثون ما نَقصوا في الكيل والوزن".

قال القشيري: "أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم محاسبون غدا، وأنهم مطالبون بحقوق الناس؟".

قال السمعاني: "أي: ألا يستيقنوا أولئك أنهم مبعوثون.. وقيل في قوله: {ألا يظن} يعني: أنهم لا يعملون عمل من يظن أنهم مبعوثون".

قال ابن كثير: "أي: أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَي من يعلم السرائر والضمائر".

قال الزمخشري: " {أَلَا يَظُنُّ} إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة".

عن الفضيل: "بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة".

=

=

عن قتادة: "أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك".

عن غيلان أبي عبد الله، يقول: "سمعتُ الحسن يقول، وتلا هذه الآية: {ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم}: إنّ القوم -واللهِ- لو ظنُّوا ذلك لَقاربوا العدل".

وعن عبد الملك بن مروان: "أن أعرابيا قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين: أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن".

وقوله (ألا يظن أولئك) (ألا) الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: ألا يتيقن أولئك المطففون.

- قال القرطبي: قوله تعالى (ألا يظن أولئك) إنكار وتعجب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم، ولا يخمنون تخمينا (أنهم مبعوثون) مسؤولون عما يفعلون.

والظن هنا بمعنى اليقين؛ أي ألا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن.

وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط (ليوم عظيم) شأنه، وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: {لِيَوْمٍ عَظِيمٍ} [المطففين: ٦]،

قال الطبري: أي:"ليوم عظيم شأنه: هائل أمره، فظيع هوله".

قال الزجاج:"يعنى: يوم القيامة".

قال السمعاني:"هو يوم القيامة. سماه عظيما لعظم ما فيه وشدته".

قال ابن كثير: أي: "في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه

=

=

أدخل نارا حامية؟".

قال الزمخشري: "وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة «الظن»، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته بـ «رب العالمين»: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل".

- وصف يوم القيامة بـ (عظيم) باعتبار عظمة ما يقع فيه من الأهوال.

كما قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد).

قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦].

قال ابن كثير: "أي: يقومون حفاة عراة غُرلا في موقف صعب حَرِج ضيق ضنَك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله - ما تَعْجِزُ القوى والحواس عنه.. وفي حديث: أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون. وقيل: يقومون ثلاثمائة سنة. وقيل: يقومون أربعين ألف سنة. ويقضى بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة، كما في صحيح مسلم عن أبي هُرَيرة مرفوعا: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»".

قال الطبري: "ذُكر أن الناس يقومون لربّ العالمين يوم القيامة حتى يلجمهم العرق، فبعض يقول: مقدار ثلثمائة عام، وبعض يقول: مقدار أربعين عاما".

عن قتادة: "{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: ذُكر لنا أن كعبا كان يقول: يقومون ثلثمائة سنة".

قال قتادة: "كان كعب يقول: يقومون مقدار ثلثمائة سنة".

قال: قتادة: "وحدثنا العلاء بن زياد العدويّ، قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر

=

=

على المومن حتى يكون كإحدى صلاته المكتوبة".

عن ابن عمر: "{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: يقومون مئة سنة".

عن عبد الله بن مسعود، في قوله: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: "يمكثون أربعين عاما رافعي رءوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد، قد ألجم العرق كلّ برّ وفاجر، قال: فينادي مناد: أليس عدلا من ربكم أن خلقكم ثم صوّركم، ثم رزقكم، ثم توليتم غيره أن يولي كلّ عبد منكم ما تولى في الدنيا؟ قالوا: بلى، ثم ذكر الحديث بطوله".

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} يَوْمَ الْقِيامَةِ، حتى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ إلى أنصَافِ أُذُنَيْهِ فِي رَشْحِهِ".

عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ، في قوله: "{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: يقوم أحدكم في رشحه إلى أنصاف أذنيه". وفي رواية: "يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه".

عن نافع، قال: "قال ابن عمر: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، حتى يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه".

عن المقداد – يعني ابن الأسود الكندي – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا كان يومُ القيامة أدنِيَت الشمس من العباد، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العَرق كقَدْر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه، ومنهم من يلجمه إلجاما".

عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: "تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يُعرَقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من

=

=

يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق".

عن عقبة بن عامر، قال: سمعتُ رسول ﷺ يقول: "تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقِبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العَجُز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه". وضرب بيده إشارة.

عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشرا، ويحمد عشرا، ويسبح عشرا، ويستغفر عشرا، ويقول: "اللهم اغفر لي واهدني، وارزقني وعافني". ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة".

قال سهل: أخبرني محمد بن سوار أنه حج سنة من السنين فرأى أيوب السّختياني قد ابتدأ بأول القرآن مصليا، وإذا بناحية منه رجل من أهل البصرة مستقبل الكعبة قد ابتدأ بسورة: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١]، وهو يردد قوله تعالى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} [المطففين: ٤]، قال: فبلغ أيوب السختياني إلى ثلثي القرآن وذلك الرجل يردد هذه الآية، فلما كان عند السحر بلغ أيوب «الفيل»، وانتهى الرجل إلى قوله: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦]، وغشي عليه، فتقدمنا إلى الرجل فوجدناه ميتا".

أي: يقومون حفاة عراة غرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه، قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون). وقال تعالى (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون).

- قال الرازي: واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعا من التهديد:

=

=

فقال أولا: (ويل للمطففين) وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء.
ثم قال ثانيا: (ألا يظن أولئك) وهو استفهام بمعنى الإنكار.
ثم قال ثالثا (ليوم عظيم) والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة.
ثم قال رابعا: (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وفيه نوعان من التهديد:
أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار.
والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربا للعالمين.
- بعض أحوال الناس عند قيامهم لرب العالمين:
قال ﷺ (يوم يقوم الناس لرب العالمين حين يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه). متفق عليه.
وقال ﷺ (يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده). متفق عليه
وعن أنس أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة).
وقال ﷺ (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم).
- قوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قيام الناس ليوم القيامة للحساب وحشرهم ليوم المعاد على أشكال وأصناف، فمنهم من يحشر أعمى وأبكم وأصم كما قال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا).
ومنهم من يحشر مثل النملة في صورة الرجل، كما قال عليه الصلاة والسلام (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صورة الرجال يطؤهم الناس بأقدامهم).

=

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧).

{كَلَّا} حَقًّا {إِنَّ كِتَاب الْفُجَّار} أَيْ كِتَاب أَعْمَال الْكُفَّار {لَفِي سِجِّين} قِيلَ هُوَ كِتَاب جَامِع لِأَعْمَالِ الشَّيَاطِين وَالْكَفَرَة وَقِيلَ هُوَ مَكَان أَسْفَل الْأَرْض السَّابِعَة وَهُوَ مَحَلّ إِبْلِيس وَجُنُوده.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨).

{وَمَا أَدْرَاك مَا سِجِّين} مَا كِتَاب سِجِّين.

كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩).

{كتاب مرقوم} مختوم.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠).

{ويل يومئذ للمكذبين}.

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١).

{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين} الْجَزَاء بَدَل أَوْ بيان للمكذبين.

=

ومنهم من يحشر معقودا عند إسته لواء -وهو الغادر- مكتوب على هذا العلم واللواء: هذه غدرة فلان بن فلان؛ أي: التي غدر فيها.

ومنهم من يحشر وحية تطوق رقبته وهو مانع الزكاة.

ومنهم من يحشر ملبيا قائلا: لبيك اللهم لبيك وهم الذين ماتوا في الحج.

ومنهم من يحشر أغر محجلا؛ أي: أبيض اليدين والجبهة من آثار الوضوء.

ومنهم من يحشر وجروحه تنزف دما لونها لون الدم وريحها ريح المسك وهم الشهداء.

- سمي يوم القيامة بذلك من أجل قيام الناس من قبورهم.

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢).

{وَمَا يُكَذِّب بِهِ إِلَّا كُلّ مُعْتَدٍ} مُتَجَاوِز الْحَدّ {أَثِيم} صِيغَة مُبَالَغَة.

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣).

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتنَا} الْقُرْآن {قَالَ أَسَاطِير الْأَوَّلِينَ} الْحِكَايَات الَّتِي سُطِّرَتْ قَدِيمًا جَمْعَ أُسْطُورَة بِالضَّمِّ أَوْ إِسْطَارَة بِالْكَسْرِ.

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤).

{كَلَّا} رَدْع وَزَجْر لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ {بَلْ رَانَ} غَلَبَ {عَلَى قُلُوبهمْ} فَغَشِيَهَا {مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} مِنْ الْمَعَاصِي فَهُوَ كَالصَّدَأِ.

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥).

{كَلَّا} حَقًّا {إِنَّهُمْ عَنْ رَبّهمْ يَوْمئِذٍ} يَوْم القيامة {لمحجوبون} فلا يرونه.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦).

{ثم إنهم لصالو الْجَحِيم} لَدَاخِلُو النَّار الْمُحْرِقَة.

ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧).

{ثُمَّ يُقَال} لَهُمْ {هَذَا} أَيْ الْعَذَاب {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}(١).

---

(١) قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} [المطففين: ٧].

أما «كلا»، ففيه وجهان:

أحدهما: أي: حقًا. قاله الحسن ، وبه قال ابن كثير.

الثاني: أن «كَلَّا» للزجر والتنبيه.

قال الزجاج:"«كَلَّا»: رَدعٌ وتنبيه، المعنى ليس الأمر على ما هم عليه، فليرتدعوا عَنْ ذَلِك".

قال الطبري:"أي: ليس الأمر كما يظنّ هؤلاء الكفار، أنهم غير مبعوثين ولا =

=

معذّبين".

قال مقاتل:"هي وعيد، مثل ما يقول الإنسان: والله، يحلف بربه، والله- ﷻ- لا يقول والله، ولكنه يقول: «كلا»".

وأما «سجّين»، ففيه أقوال:

أحدها: أن المعنى: في حساب. حكاه الزجاج.

الثاني: إن كتابهم لفي سفال، قاله الحسن.

قال خصيف: "انطلقت أنا ومجاهد إلى محمد بن كعب نسأله عن قول الله ﷻ: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين} [المطففين: ٧]، قال: «قد رقم الله على الفجار ما هم عاملون في «سجين»، فهو أسفل، والفجار منتهون إلى ما قد رقم الله عليهم».

الثالث: لفي خسار وضلال، قاله عكرمة. والمعنى: أنه أراد بطلان أعمالهم وذهابها بلا محمدة ولا ثواب وهذا سائغ مستفيض في كلام الناس، يقولون لمن خمل ذكره وسقط قدره قد لزق بالحضيض.

الرابع: هو جبّ في جهنم، روى أبو هريرة عن النبي -ﷺ- أنه قال: «الفَلَقُ جُبّ فِي جَهَنَّمَ مُغَطًّى، وأما سِجِّينٌ فمَفْتُوحٌ».

قال ابن كثير:"غريب منكر لا يصح".

الخامس: أن «سجّين» تحت خدّ إبليس، قاله كعب الأحبار ، وسعيد بن جبير.

عن شمر، قال: "جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال له ابن عباس: حدِّثني عن قول الله: {إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ...} الآية، قال كعب: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ويُهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها، فتهبط فتدخل تحت سبع أرضين، حتى ينتهي بها إلى «سجين»، وهو خدّ إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس، رَقّ

=

=

فيرقم ويختم ويوضع تحت خدّ إبليس بمعرفتها الهلاك إلى يوم القيامة".

وقال وهب: "هي آخر سلطان إبليس".

وقال مقاتل:"يعني: أعمال المشركين مكتوبة مختومة بالشر، موضوعة تحت الأرض السفلى، تحت خد إبليس، لأنه أطاعه، وعصى ربه".

السادس: أنه حجر أسود تحت الأرض تكتب فيه أرواح الكفار، حكاه يحيى بن سلام.

السابع: لفي حبس ضيق شديد، وهو «فعّيل»، من: السجن. وفيه مبالغة، كما يقال: فسّيق وشرّيب. قاله الأخفش ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، وعليّ بن عيسى ، واختاره ابن كثير ، يقال: ضَربٌ سِجِّينٌ، أي: شديدٌ ، قال ابن مقبل:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

قال ابن قتيبة:"فِعِّيل؛ من: سَجَنت".

قال الزجاج:"زعم أهل اللغة أن «سِجِّينَ»: فِعِّيل، من: السجْنِ، المعنى: كتابهم في حبس، جعل ذلك دَلالة على خساسة مَنْزِلَتِهِم".

قال ابن كثير:"أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين - فعيل من السَّجن، وهو الضيق - كما يقال: فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير، ونحو ذلك.. والصحيح أن "سجينا" مأخوذ من السَّجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [التين]: ٥، ٦]. وقال هاهنا: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ} وهو يجمع الضيق والسفول،

=

=

كما قال: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان: ١٣]".

الثامن: أن «سجين»: الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفّار وأعمالهم، قاله ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ومغيث بن سميّ، ورواه البراء بن عازب مرفوعًا، وبه قال الطبري، والنحاس، وروي فيما معناه عن كعب الأحبار.

عن مغيث بن سميّ، قال: "{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}، قال: الأرض السفلى، قال: إبليس مُوثَق بالحديد والسلاسل في الأرض السفلى".

عن قتادة: "{سِجِّينٍ}: الأرض السابعة". وفي لفظ: "{فِي سِجِّينٍ}: قال: في أسفل الأرض السابعة". وفي لفظ: "الأرض السابعة السفلي".

قال ابن عباس: "«سجين»: أسفل الأرضين".

قال ابن عباس: "أعمالهم في كتاب في الأرض السفلى".

قال الضحاك: "يقول: في الأرض السفلى".

قال ابن جريج: "بلغني: أنّ {سِجِّين} الأرض السُّفلى".

عن فرقد: "{كَلّا إنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِي سِجِّين}، قال: الأرض السابعة".

قال مجاهد: "عملهم في الأرض السابعة لا يصعد".

وقال مجاهد: "«سجين»: صخرة تحت الأرض السابعة، تقلب فيجعل تحتها كتاب الكافر".

قال قتادة: "ذُكر أن عبد الله بن عمرو كان يقول: هي الأرض السفلى فيها أرواح الكفار، وأعمالهم أعمال السوء".

عن هلال بن يساف، قال: "كنا جلوسا إلى كعب أنا وربيع بن خيثم وخالد بن عُرْعرة، ورهط من أصحابنا، فأقبل ابن عباس، فجلس إلى جنب كعب، فقال: يا

=

=

كعب أخبرني عن سِجِّين، فقال كعب: أما «سجِّين»: فإنها الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس".

وعن ابن وهب، قال: "وحدّثني عمارة بن عيسى عن يونس بن يزيد عمّن حدّثه عن ابن عباس أنه قال لكعب الأحبار: أخبرني عن «سجّين» و «عليّين»، فقال كعب: والذي نفسي بيده لأخبرنّك عنها إلّا بما أجد في كتاب الله المنزل، أما سجّين فإنّها شجرة سوداء تحت الأرضين السبع مكتوب فيها كلّ اسم شيطان، فإذا قبضت نفس الكافر عرج بها إلى السماء فغلقت أبواب السماء دونها، ثم رمى بها إلى سجين فذلك سجين، وأما عليّيون فإنّه إذا قبضت نفس المسلم عرج بها إلى السماء وفتحت لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى العرش، قال: فيخرج كفّ من العرش فيكتب له نزله وكرامته فذلك عليّون".

وقال عطاء الخراساني: "هي الأرض السفلى وفيها إبليس وذريته".

وقال الكلبي: "هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السموات منها، يجعل كتاب الفجار تحتها".

وقال ابن زيد:"يقال سجين: الأرض السافلة، وسجين: بالسماء الدنيا".

قال النحاس:"وأولى ما قيل في «سجين»، ما صحّ عن رسول الله ﷺ-... عن زاذان عن البراء عن النبي ﷺ قال: «إنّ العبد الكافر أو الفاجر إذا مات صعد بروحه إلى السّماء الدنيا، فيقول الله جلّ وعزّ: اكتبوا كتابه في سِجِّينٍ». قال: وهي الأرض السفلى".

- قال الرازي: فالأكثرون على أنه الأرض السابعة السفلى، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وقتادة.

- كتاب بمعنى مكتوب، و (الفجار) جمع فاجر، وهم الكفرة أصحاب الفجور المكذبون بالبعث.

=

=

(لفي سجين) (سجين) مأخوذ من السجن وهو الحبس والتضييق، أي: إن مصيرهم ومأواهم مكان ضيق ضنك مظلم موحش، في أسفل النار في الأرض السفلى.

كما قال تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين).

وقال تعالى (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا).

وفي حديث البراء الطويل في قبض روح الكافر (اكتبوا كتابه في سجين).

قال ابن عاشور: قوله تعالى (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) وهو تعريض بالتهديد للمطففين بأن يكون عملهم موجبا كتبه في كتاب الفجار.

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ} [المطففين: ٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأيّ شيء أدراك يا محمد، أيّ شيء ذلك الكتاب".

قال الزجاج:"أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت وَلَا قَوْمُك".

قال ابن كثير:"أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم وعذاب أليم".

قال ابن عطية:"تعظيم لأمر هذا السجين وتعجب منه، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام، أي: هذا مما لم يكن يعرفه قبل الوحي".

(وما أدراك ما سجين) تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما سجين، ضيق عظيم، وعذابه أليم.

قوله تعالى: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} [المطففين: ٩]، أي: وهو ما كتب لهم المصير إليه، مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه ولا يُنقص".

قال السمعاني:"أي: كتاب الفجار، وقال بعضهم:: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} يرجع إلى «السجين»، والأصح الأول".

قال البغوي:" {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} ليس هذا تفسير «السجين»، بل هو بيان الكتاب

=

=

المذكور في قوله: {إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ} [المطففين: ٧]، أي: هو كتاب مرقوم".

وفي قوله تعالى: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} [المطففين: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «المرقوم»: المكتوب، قاله الحسن، وقتادة، وأبو مالك، وابن زيد، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، والطبري، ومنه قول أوس بن حجر:

سأُرقُمُ بالماء القُرَاحِ إليكُمُ... على بُعدِكُم إن كان في الماء راقم

أي: سَأكتب.

عن قتادة:"{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}، قال: كتاب مكتوب".

ومنه: {الرَّقِيم}:"لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف".

قال الثعلبي: أي:"مكتوب مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به".

الثاني: أنه مختوم، وهو قول الضحاك.

قال القاسم بن سلام: أي:"مختوم بلغة حمير".

الثالث: رُقِم له بَشَرٌ لا يزاد فيهم أحد، ولا ينقص منهم أحد، قاله محمد بن كعب، وقتادة.

قال قتادة:"رقم لهم بشرٌّ".

قال المراغي: أي:"كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه لا خير فيه".

قال ابن كثير:"قوله: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} ليس تفسيرا لقوله: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ} وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد".

قال ابن عطية:"{مَرْقُومٌ}: معناه: مكتوب، رقم لهم بشر، ثم أثبته تعالى لِلْمُكَذِّبِينَ بيوم الحساب والدين بالويل".

قال الليث: "{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}: قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط، والتاجر

=

=

يَرْقُم ثَوبَه بِسَمته".

قال في التفسير الوسيط (كتاب مرقوم) خبر لمبتدأ محذوف يعود إلى «كتاب الفجار» والمرقوم: المكتوب كتابة واضحة بينة تشبه الخط. الظاهر في الثوب المنسوج. يقال: رقم فلان الكتاب، إذا جعل له رقما، أي: علامة يعرف بها.

أي: وهو- أي: كتاب الفجار- كتاب بين الكتابة، يفهم صاحبه ما فيه فهما واضحا لا خفاء معه ولا التباس. فقوله: كتاب مرقوم بيان وتفسير لكتاب الفجار، وهو ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة.

- قال في التسهيل (كتاب مرقوم) أي: مسطور بين الكتابين وهو كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين والكفار.

- **قال ابن كثير**: وليس تفسيرا لقوله تعالى (وما أدراك ما سجين) وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد.

قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المطففين: ١٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويل يومئذ للمكذبين بهذه الآيات".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المطففين: ١١]، أي:"الذين يكذبون بوقوع يوم الجزاء".

قال الطبري:"يقول: الذين يكذبون بيوم الحساب والمجازاة".

قال ابن كثير:"أي: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره".

قال القشيري:"ويل للذين لا يصدّقون بيوم الدين".

قال ابن زيد:"أهل الشرك يكذّبون بالدين، وقرأ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ...} إلى آخر الآية".

قال الزمخشري:" {الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ}: مما وصف به للذم لا للبيان، كقولك فعل

=

=

ذلك فلان الفاسق الخبيث".

عن قتادة: {يَوْمِ الدِّينِ}، قال: "يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم".

وقال مجاهد: "يوم الحساب".

أي: الذين يكذبون بيوم القيامة الذي يدان فيه الناس بأعمالهم ويعتقدون استحالة وقوعه ولا يصدقون به.

قال ابن القيم: وسمى الله تعالى يوم القيامة (يوم الدين) لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

قوله تعالى: {وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [المطففين: ١٢].

قال الطبري: يقول:"وما يُكذّبُ بيوم الدين {إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ} اعتدى على الله في قوله، فخالف أمره {أثِيمٍ} بربه".

قال ابن كثير:"أي: معتد في أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح والأثيم في أقواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر".

قال مقاتل:"يقول: «معتد» بربه حيث شك في نعمته، وتعبد غيره، فهو المعتدى، «أثيم»: قلبه".

قال القشيري:"وما يكذّب به إلا كل مجاوز للحدّ الذي وضع له".

قال الحسن بن واقد: "أي: معتد في قوله، أثيم عند ربّه".

عن قتادة: "{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، قال الله: {وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}، أي: بيوم الدين، إلا كلّ معتد في قوله، أثيم بربه".

- قال ابن عاشور: لأنهم اعتدوا على الله بالإشراك، وعلى رسله بالتكذيب، واعتدوا على دلائل الحق فلم ينظروا فيها أو لم يعملوا بها.

- وقال رَحِمَهُ اللهُ: فالتكذيب بيوم الجزاء هو منشأ الإقدام على السيئات والجرائم، ولذلك أعقبه بقوله: (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال

=

=

أساطير الأولين) أي أن تكذيبهم به جهل بحكمة الله تعالى في خلق الناس وتكليفهم إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم.
فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح وناهية عن الفساد.
ورتب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة، كل على حسب عمله: فلو أهمل الخالق تقويم مخلوقاته وأهمل جزاء الصالحين والمفسدين، لم يكن ذلك من حكمة الخلق، قال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق).

قوله تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطففين: ١٣].

قال الطبري: يقول:"إذا قُرئ عليه حججنا وأدلتنا التي بيَّنَاها في كتابنا الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ، قال: هذا ما سطَّره الأوّلون فكتبوه، من الأحاديث والأخبار".

قال ابن كثير:"أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} [النحل: ٢٤]، وقال: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا} [الفرقان: ٥]".

قال القشيري:"إذا يتلى عليه القرآن كفر به".

قال مقاتل:"يعني به: كتاب الأولين، مثل كتاب رستم واسفندباز، نزلت هذه الآية في النضر ابن الحارث «بن علقمة قدم الحيرة» فكتب حديث رستم واسفندباز، فلما قدم، قال: ما يحدثكم محمد؟ قالوا: حدثنا عن القرون الأولى. قال: وأنا أحدثكم بمثل ما يحدثكم به محمد أيضا. فأنزل الله- ﷻ- وفيه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} [لقمان: ٦]، فذلك قوله: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطففين:
=

=

١٣]".

عن السدي، قوله: {إن هذا إلا أساطير الأولين} : أساجيع الأولين".

عن قتادة، قوله: "{أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم". وروي عن الضحاك نحو ذلك.

- قال ابن عاشور: والأساطير: جمع أسطورة وهي القصة، والأكثر أن يراد القصة المخترعة التي لم تقع.

كما قال تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا).

وقال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين).

وقال تعالى (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين).

قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤].

قال الطبري: "كَلا، ما ذلك كذلك، ولكنه غلب على قلوبهم وغَمَرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها".

قال الزمخشري:" {كَلَّا} ردع للمعتدى الأثيم عن قوله، {رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ}: ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها: وهو أن يصر على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه".

قال القشيري:"أي: غطّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصي".

قال ابن كثير:"الرين: يعتري قلوبَ الكافرين، والغيم: للأبرار، والغين: للمقربين".

قال أبو عبيدة:"غلب على قلبه، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميّت، قال أبو زبيد:

ثم لما رآه رانت به الخم... ر وألّا ترينه بأنقاء".

=

=

عن ابن عباس: "{كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، يقول: يطبع".

قال ابن عباس:"طبع على قلوبهم ما كسبوا".

قال عطاء:"غشيت على قلوبهم فهوت بها، فلا يفزعون، ولا يتحاشون".

عن الحسن: "قرأ: {كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، قال: الذنب على الذنب حتى يموت قلبه". وفي لفظ:"هو الذنب حتى يموت القلب". ولفظ:"الذنب على الذنب حتى يَعمى القلب فيموت".

عن قتادة: "{كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}: أعمال السوء، أي والله ذنب على ذنب، وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسودّ".

قال قتادة:"هذا الذنب على الذنب، حتى يَرِين على القلب فيسودّ".

قال ابن زيد:"غلب على قلوبهم ذُنُوبهم، فَلا يخْلُص إليها معها خير".

عن مجاهد: "{بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، قال: الخطايا حتى غمرته".

قال مجاهد:"انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته".

قال مجاهد:"العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع، حتى تغشى القلب".

عن مجاهد، قال: القلب مثل الكفّ، فإذا أذنب الذنب قبض أصبعا، حتى يقبض أصابعه كلها، وإن أصحابنا يرون أنه الران". وفي لفظ: "القلب مثل الكفّ، وإذا أذنب انقبض وقبض أصبعه، فإذا أذنب انقبض حتى ينقبض كله، ثم يطبع عليه، فكانوا يرون أن ذلك هو الران: {كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}".

قال مجاهد:"الران: الطبع يطبع القلب مثل الراحة، فيذنب الذنب فيصير هكذا، وعقد سفيان الخنصر، ثم يذنب الذنب فيصير هكذا، وقَبض سفيان كفه، فيطبع عليه".

عن الأعمش، قال: "أرانا مجاهد بيده، قال: كانوا يرون القلب في مثل هذا يعني:

=

=

الكفّ، فإذا أذنب العبد ذنبا ضم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا فإذا أذنب ضمّ أصبعا أخرى، فإذا أذنب ضمّ أصبعا أخرى، حتى ضمّ أصابعه كلها، ثم يطبع عليه بطابع، قال مجاهد: وكانوا يرون أن ذلك الرَّيْن".

قال مجاهد:"الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب عليه. قال مجاهد: وهي مثل الآية التي في سورة البقرة: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}".

عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إذَا أذنَبَ العَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَة سَوْدَاءُ، فإنْ تابَ صُقِلَ مِنْها، فإنْ عادَ عادَتْ حتى تَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ، فذلكَ الرَّانُ الَّذي قَالَ الله: {كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ المُؤْمَنَ إذَا أذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فإن تابَ وَنزعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَتْ قَلْبَهُ، فإنْ زَادَ زَادَتْ حتى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلكَ الرَّانُ الَّذي قال الله: {كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون}".

- الرين: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

- قال القرطبي: كذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب.

قال ابن القيم في شفاء العليل: وأما الران فقد قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}، قال أبو عبيدة: "غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به".

ومن هذا حديث أسيفع جهينة، وقول عمر: "فأصبح قد رين به"، أي غلب عليه، وأحاط به الرين.

وقال أبو معاذ النحوي: "الرين: أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب".

=

=

وقال الفراء: "كثرت الذنوب والمعاصي منهم، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها".

وقال أبو إسحاق: "ران: غطى، يقال: ران على قلبه الذنب، يرين رينا، أي: غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب، ومثله الغين".

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين ألطف شيء يكون وأرقه، قال رسول الله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"، وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب، وأكثفها.

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي كسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره ا.هـ

- قوله تعالى (ما كانوا يكسبون) أي: الذي كانوا يكسبون من الذنوب المتراكم بعضها على بعض، فصارت هذه الذنوب حجابا بينهم وبين قلوبهم، وبينهم وبين خالقهم وربهم.

فالمعصية سبب للطبع على القلب، وسبب للمعصية بعدها، وسبب لعمى البصائر.

قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم).

قال التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

كان بعض السلف يقول: اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك.

نظر بعض العباد إلى صبي، فتأمل محاسنه، فأتي في منامه وقيل له: لتجدن غبها بعد أربعين سنة.

وسفيان بن عيينة حرم فهم القرآن لأنه قبل الصرة من الوالي.

قال بعض السلف: إني لأعصي الله، فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

=

=

المعاصي تضييع الأعمار يجد غبها يوم يقول (يا ليتني قدمت لحياتي).

قال ابن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب... وخير لنفسك عصيانها

المعاصي سبب لكل بلاء كما قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وقال ﷺ (وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء).

وسبب لزوال النعم كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير).

وقال بعض السلف (ما نزل بلاء إلا بذنب).

قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها... فإن المعاصي تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد... فرب العباد سريع النقم

وسافر بقلبك بين الورى... لتبصر آثار من قد ظلم

قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، أي:"ليس الأمر كما زعم الكفار، بل إنهم يوم القيامة عن رؤية ربهم -جل وعلا- لمحجوبون".

قال الطبري: يقول:"ما الأمر كما يقول هؤلاء المكذّبون بيوم الدين، من أن لهم عند الله زُلْفة، إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون، فلا يرونه، ولا يرون شيئا من كرامته يصل إليهم".

قال الزمخشري:"كونهم محجوبين عنه: تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا

=

=

الأدنياء المهانون عندهم. قال:

إِذَا اعْتَرَوْا بَابَ ذِي عُبِّيَّةٍ رُجِبُوا ... وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَرْجُوبٍ وَمَحْجُوبِ".

قال الزجاج:"في هذه الآية دليل على أن الله يُرَى في الآخرة، لولا ذلك لما كان في هذه الآية فائدة، ولا [خسَّت] منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن الله ﷻ وقال تعالى في المؤمنين: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. فأعلم الله ﷻ أن المؤمنين ينظرون إلى الله، وأن الكفارَ يُحْجَبُونَ عَنْه".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، وجوه من التفسير:

أحدهما: معنى ذلك: إنهم محجوبون عن كرامته. قاله قتادة.

قال قتادة:"هو لا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم".

الثاني: إنهم محجوبون عن رؤية ربهم. قاله الحسن.

قال الحسن:"«يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون كلّ يوم غُدْوة وعشية»، -قال الراوي-أو كلاما هذا معناه".

قال ابن كثير:"أي: لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم أنهم عن رؤيته محجوبون. ويُحتمل أن يكون مرادًا به الحجاب عن كرامته، وأن يكون مرادًا به الحجاب عن ذلك كله، ولا دلالة في الآية تدلّ على أنه مراد بذلك الحجاب عن معنى منه دون معنى، ولا خبر به عن رسول الله ﷺ قامت حجته. فالصواب أن يقال: هم محجوبون عن رؤيته، وعن كرامته إذ كان الخبر عاما، لا دلالة على خصوصه".

قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: "في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ

=

=

يومئذ".

قال ابن كثير:"الذي قاله الإمام الشافعي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عَزَّوَجَلَّ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عَرَصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة".

عن الربيع بن صبيح وعبد الواحد بن زيد قالا: "قال الحسن: لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربّهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا".

وقال يحيى بن سليمان بن نضلة: يسئل مالك بن أنس عن هذه الآية قال: "لها حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه".

قال الربيع بن سليمان: "كنت ذات يوم عند الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قول الله سبحانه: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}، فكتب فيه: لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا، فقلت له: أوتدين بهذا يا سيدي؟ فقال: والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أن يرى ربّه في المعاد لما عبده في الدنيا".

وروي عن ابن أبي مليكة:"أنه كان يقول في هذه الآية: {إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}، قال: المنان والمختال والذي يقتطع أموال الناس بيمينه بالباطل".

- قال ابن تيمية: عذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات.

- وقال ابن القيم: فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب بها أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه.

=

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨).

{كَلَّا} حَقًّا {إِنَّ كِتَاب الْأَبْرَار} أَيْ كِتَاب أَعْمَال الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي

=

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ} [المطففين: ١٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثم إنهم لوَارِدُو الجحيم، فمشويُّون فيها".

قال الزجاج:"ثم بعد حجبهم عن الله يدخلِون النار وَلاَ يخرجُونَ عنها خَالِدِين فيها".

قال النسفي:"ثم بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلون النار".

قال ابن كثير:"أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران".

عن أبي مالك:"{الجحيم}، قال: ما عظم من النار".

- قال القرطبي: أي ملازموها، ومحترفون فيها غير خارجين منها (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) كلما خبت زدناهم سعيرا).

قوله تعالى: {ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المطففين: ١٧].

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ثم يقال لهؤلاء المكذّبين بيوم الدين: هذا العذاب الذي أنتم فيه اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تخبرون أنكم ذائقوه، فتكذّبون به، وتنكرونه، فذوقوه الآن، فقد صَلَيْتُم به".

قال الزجاج:"أي: كنتم تكذبون بالبعث والجنة والنَّار".

قال ابن كثير:"أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير".

عن عبد الله بن المبارك: "{ثُمَّ يُقالُ هَذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، قال: بالرؤية".

أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير، كنتم تقولون لا بعث ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب.

- وهذا القول من العذاب المعنوي المنصب على القلوب.

إِيمَانهمْ {لَفِي عِلِّيِّينَ} قِيلَ هُوَ كِتَاب جَامِع لِأَعْمَالِ الْخَيْر مِنْ الْمَلَائِكَة وَمُؤْمِنِي الثَّقَلَيْنِ وَقِيلَ هُوَ مَكَان فِي السَّمَاء السَّابِعَة تَحْت الْعَرْش.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا عِلِّيُّونَ} مَا كِتَاب عليين، هو

كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠).

{كِتَاب مَرْقُوم} مَخْتُوم.

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١).

{يَشْهَدهُ الْمُقَرَّبُونَ} مِنْ الْمَلَائِكَة.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢).

{إِنَّ الْأَبْرَار لَفِي نَعِيم} جَنَّة.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣).

{عَلَى الْأَرَائِك} السُّرَر فِي الْحِجَال {يَنْظُرُونَ} مَا أُعْطُوا مِنْ النَّعِيم.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤).

{تَعْرِف فِي وُجُوههمْ نَضْرَة النَّعِيم} بَهْجَة التَّنَعُّم وحسنه.

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥).

{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيق} خَمْر خَالِصَة مِنْ الدَّنَس {مَخْتُوم} عَلَى إِنَائِهَا لَا يَفُكّ خَتْمه غَيْرهمْ.

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦).

{خِتَامه مِسْك} أَيْ آخِر شُرْبه تَفُوح مِنْهُ رَائِحَة الْمِسْك {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ} فَلْيَرْغَبُوا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى طَاعَة الله.

وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧).

{وَمِزَاجه} أَيْ مَا يُمْزَج بِهِ {مِنْ تَسْنِيم} فسر بقوله.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨).

{عَيْنًا} فَنَصَبَهُ بِأَمْدَحَ مُقَدَّرًا {يَشْرَب بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} مِنْهَا أَوْ ضَمَّنَ يَشْرَب مَعْنَى يَلْتَذّ[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين: ١٧].

قال ابن كثير: "يقول تعالى: حقا {إِنَّ كِتَابَ الأبْرَارِ} وهم بخلاف الفجار، {لَفِي عِلِّيِّينَ}، أي: مصيرهم إلى عليين، وهو بخلاف سجين".

قال الزمخشري: "{كَلَّا}: ردع عن التكذيب. و «كتاب الأبرار»: ما كتب من أعمالهم. و «عليون»: علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع «عليّ» فعيل من العلو كسجين من السجن، سمى بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون، تكريما له وتعظيما".

قال الطبري: "الأبرار: جمع برّ، وهم الذين برّوا الله بأداء فرائضه، واجتناب محارمه".

وقال الحسن: "الأبرار: هم الذين لا يؤذون الذرّ".

روي هشام، عن شيخ، عن الحسن، قال: "سُئل عن الأبرار، قال: الذين لا يؤذون الذرّ".

قال السمعاني: "ظاهر المعنى أن «الأبرار»: المطيعون".

وفي تفسير «عِلِّيِّينَ»، أقوال:

أحدها: أن «عِلِّيِّينَ»: الجنة، قاله ابن عباس.

الثاني: السماء السابعة العليا، قاله ابن عباس-أيضا- ، وكعب ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك-في رواية- ، ورواه أُسامة بن زيد عن أبيه.

=

=

قال الضحاك:"في السماء عند الله".

قال كعب: "هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين".

قال محمد بن كعب:"رقم على الأبرار ما هم عاملون في «عليين»، وهم فوق، فهم منتهون إلى ما قد رقم الله عليهم».

الثالث: قائمة العرش اليمنى، قاله كعب ، وقتادة.

قال قتادة:"عليون: قائمة العرش اليمنى".

قال قتادة:"فوق السماء السابعة، عند قائمة العرش اليمنى".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن كعبًا كان يقول: هي قائمة العرش اليمنى".

عن شمر بن عطية، قال: "جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فسأله، فقال: حدثْنِي عن قول الله: {إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ...} الآية، فقال كعب: إن الروح المؤمنة إذا قُبِضت، صُعد بها، فَفُتحت لها أبواب السماء، وتلقَّتها الملائكة بالبُشرَى، ثم عَرَجُوا معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لها من عند العرش فيُرقَم رَقّ، ثم يختم بمعرفتها النجاة بحساب يوم القيامة، وتشهد الملائكة المقرّبون".

الرابع: يعني أعمالُهُم في كتاب عند الله في السماء. قاله ابن عباس -أيضا-.

الخامس: يعني: في علو وصعود إلى الله تعالى، قاله الحسن.

السادس: سدرة المنتهى، قاله الضحاك -في رواية أخرى-.

قال الضحاك:"إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء، فتنطلق معه المقرّبون إلى السماء الثانية، قال الأجلح: قلت: وما المقرّبون؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية، فتنطلق معه المقرّبون إلى السماء الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، حتى تنتهي به إلى سِدْرَة المنتهى. قال الأجلح: قلت للضحاك: لِمَ تُسمَّى سِدْرَة المنتهى؟ قال: لأنه يَنْتَهِي إليها كلّ شيء من أمر الله،

=

=

لا يعدوها، فتقول: ربّ عبدك فلان، وهو أعلم به منهم، فيبعث الله إليهم بصَكّ مختوم يؤمِّنه من العذاب، فذلك قول الله: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون}".

وقال سهل:"«الكتاب» ظاهره في الآيتين جميعًا أعمال الخير والشر، وباطنه أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين، تجمع أرواح المؤمنين عند سدرة المنتهى، في حواصل طير خضر ترتع في الجنة إلى يوم القيامة، مرقوم

بالرضا والرضوان، وتجمع أرواح الكفار في سجّين تحت الأرض السفلى، تحت خد إبليس لعنه الله، مرقوم بالعداوة والبغضاء".

قال ابن كثير:"والظاهر: أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن كتاب الأبرار في عليين؛ والعليون: جمع معناه: شيء فوق شيء، وعلوّ فوق علوّ، وارتفاع بعد ارتفاع، فلذلك جُمعت بالياء والنون.. ومن ذلك قولهم للرجال والنساء: عشرون وثلاثون. فإذا كان ذلك كالذي ذكرنا، فبين أنّ قوله: {لَفِي عِلِّيِّينَ} معناه: في علوّ وارتفاع في سماء فوق سماء، وعلوّ فوق علوّ وجائز أن يكون ذلك إلى السماء السابعة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى قائمة العرش، ولا خبر يقطع العذر بأنه معنيّ به بعض ذلك دون بعض. والصواب أن يقال في ذلك، كما قال جلّ ثناؤه: إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاع إلى حدّ قد علم الله جلّ وعزّ منتهاه، ولا علم عندنا بغايته، غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك"

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ} [المطففين: ١٩]، أي:"وما أدراك -أيها الرسول- ما هذه المراتب العالية؟".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مُعَجِّبه من عليين: وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما عليون".

قال ابن كثير:"معظما أمره ومفخما شأنه".

قوله تعالى: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ} [المطففين: ٢٠]، أي:"كتاب الأبرار مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه ولا يُنقص".

قال الطبري أي: مكتوب بأمان من الله إياه من النار يوم القيامة، والفوز بالجنة".

عن قتادة: "{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}، رقم".

قال شمر بتت عطية:"إذا عرج بروح المؤمن استقبله الملائكة المقربون في السماء الدنيا فيشيعونه من السماء العليا ثم رقم على روحه ثم قرأ: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠)} [المطففين: ١٩ - ٢٠]".

قال ابن فورك:"أي: مرقوم بما تقر به أعينهم وتوجب سرورهم بما فيه من إثبات حسناتهم المتعينة منهم، وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار لأنه بما يسوؤهم ويسخن أعينهم".

قوله تعالى: {يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ٢١]، أي:"يَطَّلِع عليه المقربون من ملائكة كل سماء".

قال الطبري: "يقول: يشهد ذلك الكتاب المكتوب بأمان الله للبَرّ من عباده من النار، وفوزه بالجنة، المقرّبون من ملائكته من كلّ سماء من السموات السبع".

عن ابن زيد:"{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}، قال: الملائكة".

عن ابن عباس: "{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}، قال: كلّ أهل السماء".

عن قتادة: "{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}، من ملائكة الله".

قال الضحاك:"يشهده مقرّبو أهل كلّ سماء".

قال ابن جريج:"هم مُقرَّبو أهلِ كلِّ سماء، إذا مرَّ بهم عملُ المؤمن شيّعه مُقرَّبو

=

=

كلِّ أهل سماء حتى ينتهي العمل إلى السماء السابعة، فيشهدون حتى يُثبت في السماء السابعة".

قال ابن القيم في حادي الأرواح: الباب الخامس عشر في توقيع الجنة، ومنشورها الذي يوقع به لأصحابها بعد الموت، وعند دخولها

قال الله تعالى: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (١٨) وما أدراك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١)} فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم، تحقيقا لكونه مكتوبا كتابة حقيقية، وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار = تنويها بكتاب الأبرار، وما وقع لهم به، وإشهارا له، وإظهارا بين خواص خلقه، كما تكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء، وخواص أهل المملكة تنويها باسم المكتوب له، وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى، وملائكته على عبده.

وروى الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان، وأبو عوانة الإسفرايني في صحيحيهما من حديث المنهال، عن زاذان عن البراء ابن عازب ﵁ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ على القبر وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له ، فقال: "أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات، ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا؛ تنزلت إليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم كفن وحنوط ، فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك

=

=

وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها -يعني على ملأ من الملائكة- إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان. بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، ويشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها؛ حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، قال: فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، وتخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه

=

الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث ، فيقولون: فلان ابن فلان. بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى سماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط} [الأعراف: ٤٠]. فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى. وتطرح روحه طرحا، ثم قرأ رسول الله: {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق (٣١)} [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء، أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة". ا.هـ

قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [المطففين: ٢٢]، أي:"إن أهل الصدق والطاعة لفي الجنة يتنعمون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الأبرار الذين بَرّوا باتقاء الله وأداء فرائضه، لفي نعيم دائم، لا يزول يوم القيامة، وذلك نعيمهم في الجنان".

قال ابن كثير: "أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم".

قوله تعالى: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: ٢٣]، أي:"على الأسرَّة ينظرون إلى ربهم، وإلى ما أعدَّ لهم من خيرات".

=

قال الطبري: أي:"على السرر في الحجال من اللؤلؤ والياقوت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم، والحَبْرة في الجنان".

عن ابن عباس: "{الأَرَائِكِ}، السُّررُ في الحَجال".

عن مجاهد: "{عَلَى الأَرَائِكِ}، قال: من اللؤلؤ والياقوت".

قال الزمخشري: "الْأَرائِكِ الأسرة في الحجال، {يَنْظُرُونَ} إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه من مناظر الجنة، وإلى ما أولاهم الله من النعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يعذبون في النار، وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك".

قال ابن كثير: "{الأَرَائِكِ}، وهي: السرر تحت الحِجَال، {يَنْظُرُونَ} قيل: معناه: ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل: معناه {عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} إلى الله عز وجل. وهذا مقابله لما وُصف به أولئك الفجار: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفى سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين»".

- قال الرازي: قوله تعالى (على الأرائك ينظرون) ففيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ينظرون إلى أنواع نعمهم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها.

والثاني: قال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون في النار.

والثالث: إذا اشتهوا شيئا نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشيء في الحال.

واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد وهو المنظور إليه، فوجب حمل اللفظ على الكل، ويخطر ببالي تفسير رابع: وهو أشرف من الكل

=

=

وهو أنهم ينظرون إلى ربهم ويتأكد هذا التأويل بما إنه قال بعد هذه الآية (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ما قال: (وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة) ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات، وما هو إلا رؤية الله تعالى.

قوله تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: تعرف في الأبرار الذين وصف الله صفتهم {نضرة النعيم}، يعني: حُسنه وبريقه وتلألؤه".

قال ابن كثير: "أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدِّعة والرياسة؛ مما هم فيه من النعيم العظيم".

قال الزمخشري: أي: "بهجة التنعم وماءه ورونقه، كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه".

أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترافة والحشمة والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم.

- قال السعدي: فإن توالي اللذات والمسرات، والأفراح يكسب الوجه نورا وحسنا وبهجة.

- قال الرازي: المعنى إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة بسبب ما ترى في وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ثم في تلك القرائن قولان:

أحدهما: أنه ما يشاهد في وجوههم من الضحك والاستبشار، على ما قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة).

والثاني: قال عطاء إن الله تعالى يزيد في وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يصفه واصف، وتفسير النضرة: قد سبق عند قوله (ناضرة).

قوله تعالى: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ} [المطففين: ٢٥]، أي: "يُسْقَون من

=

=

خمر صافية محكم إناؤها".

قال الطبري:"يقول: يُسقى هؤلاء الأبرار من خمر صرف لا غشّ فيها".

قال ابن كثير: "}، أي: يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر".

قال أبو عبيدة:"«الرحيق»: الذي ليس فيه غشّ، رحيق معرّق من مسك أو خمر، {مَخْتُومٍ}: له ختام. عاقبة ريح".

عن ابن مسعود:"«الرحيق» الخمر، و «المختوم» يجدون عاقبتها طعم المسك".

عن ابن مسعود وابن عباس، ومجاهد:"يعني: بالرحيق: الخمر".

عن الحسن، وقتادة: "{رَحِيقٍ}، قال: هو الخمر".

عن مجاهد: "{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ}، قال: خمر".

عن ابن عباس:"{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ}، قال: من الخمر".

قال ابن زيد:"الرحيق المختوم: الخمر، قال حسان:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عَلَيْهِمُ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ".

عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري - أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ - قال: "أيما مؤمن سقى مؤمنا شربة على ظمأ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عُري، كساه الله من خُضر الجنة".

- قال الماوردي: (يسقون من رحيق مختوم)... أنه الخمر في قول الجمهور.

- قال الخازن: (يسقون من رحيق) يعني الخمر الصافية الطيبة البيضاء (مختوم) يعني ختم على ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار.

قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ} [المطففين: ٢٦]، أي:"آخره رائحة مسك".

وفي قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ} وجوه:

=

=

أحدها: مِزاجه وخِلطه مِسك، قاله ابن مسعود ، وعلقمة.

قال علقمة:"طعمه وريحه مسك".

قال ابن مسعود:"ليس بخاتم، ولكن خلط".

قال ابن مسعود:"أما إنه ليس بالخاتم الذي يختم، أما سمعتم المرأة من نسائكم تقول: طيب كذا وكذا خلطه مسك".

عن ابن مسعود: "{مختوم}، قال: ممزوج، {خِتَامُهُ مِسْكٌ}، قال: طعمه وريحه".

الثاني: أن آخر شرابهم يُخْتم بمسك يجعل فيه، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"الخمر خُتِمَ بالمسك".

عن ابن عباس: {مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ}، قال: ختم بالمسك".

قال ابن عباس:"طيَّب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها حتى تختم المسك".

وقال الضحاك:"طيَّب الله لهم الخمر، فوجدوا فيها في آخر شيء منها ريح المسك".

الثالث: عاقبته مسك، ويكون ختامه آخره، كما قال الشاعر:

صرف ترقرق في الناجود ناطلها... بالفُلْفُلِ الجَوْنِ والرُّمَّانِ مَخْتوم

وهذا قول الحسن ، وإبراهيم ، وقتادة.

قال قتادة:"عاقبته مسك قوم تُمزَج لهم بالكافور، وتختم بالمسك".

قال أبو عبيدة:"عاقبته".

عن أبي الدرداء: "{خِتَامُهُ مِسْكٌ}، فالشراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها".

=

=

الرابع: طينه مسك. قاله مجاهد، وابن زيد.

قال ابن زيد:"ختامه عند الله مسك، وختامها اليوم في الدنيا طين".

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد:"{خِتَامُهُ مِسْكٌ} قال: طيبه مسك".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: آخره وعاقبته مسك: أي هي طيبة الريح، إن ريحها في آخر شربهم يختم لها بريح المسك، وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصحة؛ لأنه لا وجه للختم في كلام العرب إلا الطبع والفراغ، كقولهم: ختم فلان القرآن: إذا أتى على آخره، فإذا كان لا وجه للطبع على شراب أهل الجنة، يفهم إذا كان شرابهم جاريًا، جري الماء في الأنهار، ولم يكن معتقًا في الدنان فيطين عليها وتختم، تعين أن الصحيح من ذلك الوجه الآخر وهو العاقبة والمشروب آخرًا، وهو الذي ختم به الشراب. وأما الختم بمعنى: المزج، فلا نعلمه مسموعًا من كلام العرب".

قوله تعالى: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦]، أي:"وفي ذلك النعيم المقيم فليتسابق المتسابقون".

قال مجاهد: "فليعمل العاملون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفي هذا النعيم الذي وصف جل ثناؤه أنه أعطى هؤلاء الأبرار في القيامة، فليتنافس المتنافسون. والتنافس: أن يَنفِس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه، وهو مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، وتطلبه وتشتهيه، وكان معناه في ذلك. فليجدّ الناس فيه، وإليه فليستبقوا في طلبه، ولتحرص عليه نفوسهم".

قال ابن عطية:"التنافس في الشيء: المغالاة فيه، وأن يتبعه كل واحد نفسه، فكأن نفسيهما يتباريان فيه، وقيل هو من قولك شيء نفسي، فكان هذا يعظمه ثم يعظمه الآخر ويستبقان إليه".

=

=

قال الزمخشري: أي:"فليرتغب المرتغبون".

قال ابن كثير:"أي: وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون. كقوله: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات: ٦١]".

قيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما في الكأس، انختم ذلك بخاتم المسك.

وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار.

- قال في التسهيل: والمختوم فسره الله بأن ختامه مسك، وقرئ ختامه بألف بعد التاء، وخاتمه بألف بعد الخاء وبفتح التاء وكسرها وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها أنه من الختم على الشيء، بمعنى جعل الطابع عليه، فالمعنى أنه ختم على فم الإناء الذي هو فيه بالمسك، كما يختم على أفواه آنية الدنيا بالطين إذا قصد حفظها، وصيانتها.

الثاني أنه من ختم الشيء أي تمامه، فمعناه: خاتم شربه مسك أي يجد الشارب عند آخر شربه رائحة المسك ولذته.

الثالث أن معناه مزاجه مسك أي مزج الشراب بالمسك، وهذا خارج عن اشتقاق اللفظ.

- جاء في التفسير الوسيط: والرحيق: اسم للخمر الطيبة الصافية الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل.

والمختوم: أي المسدود الذي لم تمسه يد قبل أيدى هؤلاء الأبرار.

- وقد جاءت آيات كثيرة تحث على التنافس على العمل الصالح والمسابقة إليه:

قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم).

وقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم).

=

=

وقال تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون).

وقال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وقال تعالى (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون).

- قال ابن القيم: والمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادا وحرصا، وهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر... كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل حض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه).

إلى أن قال: (والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده).

- قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.

- وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

- وقال بعض السلف: لو أن رجلا سمع بأحد أطوع لله منه، كان ينبغي له أن يحزنه ذلك.

- وقال غيره: لو أن رجلا سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب.

- قال رجل لمالك بن دينار: رأيت في المنام مناديا ينادي: أيها الناس! الرحيل الرحيل، فما رأيت أحدا يرتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالك وغشي عليه.

- وقال عمر بن عبد العزيز في حجة حجها عند دفع الناس من عرفة: ليس السابق اليوم من سبق به بعيره، إنما السابق من غفر له.

قوله تعالى: {وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ} [المطففين: ٢٧].

في هذه الآية وجوه:

=

=

أحدها: من ماء يتنزل عليهم من معال. قاله مجاهد، والضحاك، والكلبي، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج، والطبري.

عن مجاهد: "{تَسْنِيمٍ}، قال: تسنيم: يعلو".

قال مجاهد:"تسنيم عليهم من فوق دورهم".

قال الضحاك:"عين تتسنّم من أعلى الجنة ليس في الجنة عين أشرف منها".

عن الكلبيّ: "{تَسْنِيمٍ}، قال: تسنيم ينصبّ عليهم من فوقهم، وهو شراب المقرّبين".

وحكي الماوردي عن الضحاك:"أن التسنيم الماء".

قال الزجاج:"تأتيهم من علو عينًا تنسم عليهم من الغرف".

قال الطبري: المعنى: "ومزاجه من ماء ينزل عليهم من فوقهم فينحدر عليهم".

قال الزمخشري: "لأنها تأتيهم من فوق، على ما روى أنها تجرى في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم".

قال ابن كثير:"أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه".

قال النحاس:"يقال: تسنّمت الماء أتسنّمه تسنيما إذا أجريته من موضع عال، وقبر مسنم أي مرتفع، ومن هذا سنام البعير".

قال ابن قتيبة:"وأصل هذا من: «سَنَام البعير»، ومنه: «تَسنيمُ القُبورِ». وهذا أعجبُ إليَّ؛ لقولِ الْمُسيَّب بن عَلَس في وصف امرأة:

كَأَنَّ بِرِيقَتِهَا - لِلْمِزَا... جِ مِن ثَلْجِ تَسْنِيمَ شِيبَتْ - عُقَارَا

أراد: كأن بريقتها عُقَارًا شِيبتْ للمزاجِ من ثلج تسنيمَ؛ يريد جبلا".

الثاني: أنها عين في الجنة يشربها المقرّبون، وتمزج لأصحاب اليمين، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وأبو صالح، ومالك بن الحارث ـ وقتادة.

=

=

عن مسروق:"{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}، قال: عين في الجنة يشربها المقرّبون صرفا، وتمزج لأصحاب اليمين".

قال ابن مسعود:"يشربه المقرّبون صرفا، ويمزج لأصحاب اليمين".

قال ابن عباس:"عينًا من ماء الجنة تُمزج به الخمر".

قال ابن عباس:"صرفًا، ويمزج فيها لمن دونهم".

قال ابن عباس:"عين يشرب بها المقرّبون، ويمزج فيها لمن دونهم".

قال مسروق:"عين في الجنة يشربها المقرّبون صرفا، وتمزج لأصحاب اليمين".

عن مالك بن الحارث، في قوله: "{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}، قال: في الجنة عين يشرب منها المقرّبون صرفا، وتمزج لسائر أهل الجنة".

قال أبو صالح:"هو أشرف شراب في الجنة. هو للمقرّبين صرف، وهو لأهل الجنة مزاج".

قال قتادة:"شراب شريف، عين في الجنة يشربها المقرّبون صرفا، وتمزج لسائر أهل الجنة".

قال ابن زيد:"بلغنا أنها عين تخرج من تحت العرش، وهي مزاج هذه الخمر، يعني: مزاج الرحيق".

قال الضحاك:"شراب اسمه: «تسنيم»، وهو من أشرف الشراب".

قال عطاء بن أبي رباح:"التسنيم: اسم العين التي يُمزج بها الخمر.

وقال حذيفة بن اليمان:"تسنيم عين في عدْن، وعدْن دار الرحمن وأهل عدْن جيرانه".

الثالث: أنها خفايا أخفاها الله لأهل الجنة، ليس لها شبه في الدنيا ولا يعرف مثلها. قاله الحسن.

عن الحسن: "{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}، قال: خفايا أخفاها الله لأهل الجنة".

=

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩).

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا} كَأَبِي جَهْل وَنَحْوه {كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا} كَعَمَّارٍ وَبِلَال وَنَحْوهمَا {يَضْحَكُونَ} استهزاء بهم.

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠).

{وَإِذَا مَرُّوا} أَيْ الْمُؤْمِنُونَ {بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} يُشِير الْمُجْرِمُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ

=

قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ٢٨].

قال الطبري: أي:"ومزاج الرحيق من عين تُسَنَّم عليهم من فوقهم، فتنصبّ عليهم {يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} من الله صرفا، وتمزج لأهل الجنة".

قال ابن كثير:"أي: يشربها المقربون صِرْفًا، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجًا".

عن مسروق:"{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}، قال: يشرب بها المقرّبون صِرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين".

عن مالك بن الحارث:"{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}، قال: عينا في الجنة يشرب بها المقربون صرفا، ويمزج لسائر أهل الجنة".

- قال في التسهيل: تسنيم اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار.

- قوله تعالى (يشرب بها) أي: يشربون منها ويرتوون، ولهذا قال (بها) ولم يقل (منها) فضمن (يشرب) معنى (يروى) فعدي بالباء.

وقيل: إن الباء بمعنى (من) ويكون المعنى: عينا يشرب منها...

والمعنى: أن هذه العين المسماة (تسنيم) والتي نبعها وشرابها أفضل وأعلى شراب أهل الجنة يشرب منها صرفا بلا خلط المقربون ويرتوون منها، بينما تمزج مزجا للأبرار وهم أصحاب اليمين بالرحيق.

بِالْجَفْنِ وَالْحَاجِب اِسْتِهْزَاء.

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١).

{وإذا انقلبوا} رجعوا {إلى أهلهم انقلبوا فاكهين} وَفِي قِرَاءَة فَكِهِينَ مُعْجَبِينَ بِذِكْرِهِمْ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢).

{وَإِذَا رَأَوْهُمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} لِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣).

قال تعالى {وَمَا أُرْسِلُوا} أَيْ الْكُفَّار {عَلَيْهِمْ} عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {حَافِظِينَ} لَهُمْ أَوْ لِأَعْمَالِهِمْ حَتَّى يُدْرُوهُمْ إِلَى مصالحهم.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤).

{فَالْيَوْم} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الكفار يضحكون}.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥).

{عَلَى الْأَرَائِك} فِي الْجَنَّة {يَنْظُرُونَ} مِنْ مَنَازِلهمْ إِلَى الْكُفَّار وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ كَمَا ضَحِكَ الْكُفَّار مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا.

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦).

{هَلْ ثُوِّبَ} جُوزِيَ {الْكُفَّار مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} نعم[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٢٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين اكتسبوا المآثم، فكفروا بالله في الدنيا، =

=

كانوا فيها من الذين أقرّوا بوحدانية الله، وصدّقوا به {يضحكون}، استهزاء منهم بهم".

قال ابن كثير: "أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم".

قال النحاس: "{الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، أي: اكتسبوا الإثم. يقال: جرم وأجرم إذا اكتسب إلا أنّ الأكثر في اكتساب الإثم أجرم وفي غيره جرم".

قال الزجاج: "هؤلاء جماعة من كفار قرَيش كان يَمُرُّ بِهِمْ من قَدُمَ إسلامُه مع النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره - رحمهم الله فيعيرونَهُمْ بالإسلام على وجه السخْرِية مِنْهمْ".

قال الزمخشري: "هم مشركو مكة: أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم: كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزؤن بهم. وقيل: جاء على ابن أبى طالب رضى الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه، فنزلت قبل أن يصل علىّ إلى رسول الله ﷺ".

عن قتادة، قوله: "{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} في الدنيا، يقولون: والله إن هؤلاء لكذَبة وما هم على شيء استهزاء بهم".

يخبر تعالى عن المجرمين كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم.

- قوله تعالى (أجرموا) المراد بهم المشركون من أهل مكة وخاصة صناديدهم.

- قال ابن عاشور: والإجرام: ارتكاب الجرم وهو الإثم العظيم، وأعظم الإجرام الشرك بالله.

قوله تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [المطففين: ٣٠].

=

=

قال الطبري:"وكان هؤلاء الذين أجرموا إذا مرّ الذين آمنوا بهم يتغامزون؛ يقول: كان بعضهم يغمز بعضا بالمؤمن، استهزاء به وسخرية".

قال ابن كثير:"وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم".

قال الزمخشري: "يغمز بعضهم بعضا، ويشيرون بأعينهم".

أي: وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم.

قوله تعالى (يتغامزون) قيل: يغمز بعضهم بعضا، ويشيرون بأعينهم، وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال غمزه: أي عابه، وما في فلان غمزة أي عيب.

قوله تعالى: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [المطففين: ٣١].

قال الطبري:"يقول: وكان هؤلاء المجرمون إذا انصرفوا إلى أهلهم من مجالسهم انصرفوا ناعمين معجَبين".

قال ابن كثير:"أي: إذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم".

قال مقاتل:"يعنى: عبد الله بن نتيل، يعنى: إذا رجعوا إلى قومهم رجعوا معجبين بما هم عليه من الضلالة بما فعلوا بعلي وأصحابه- رحمهم الله-".

عن ابن عباس:"{فَكِهِينَ}: ملتذين بذكرهم والسخرية منهم".

قال الزجاج:"معجبيين بما هم فيه يَتَفَكَّهوَنَ بذكرهم".

قال الزمخشري: "{فَكِهِينَ}: ملتذين بذكرهم والسخرية منهم".

قال السعدي: أي:"ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ} صباحًا أو مساء {انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} أي: مسرورين مغتبطين، وهذا من أعظم ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد

=

حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرأوا على القول عليه بلا علم".

قال ابن زيد:"انقلب ناعما، قال: هذا في الدنيا، ثم أعقب النار في الآخرة".

أي: وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم.

- قال الشوكاني: (وإذا انقلبوا) أي: الكفار (إلى أهلهم) من مجالسهم (انقلبوا فاكهين) أي: معجبين بما هم فيه متلذذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين، والطعن فيهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم.

- قال ابن عاشور: والمعنى وإذا رجع الذين أجرموا إلى بيوتهم وخلصوا مع أهلهم تحدثوا أحاديث الفكاهة معهم بذكر المؤمنين وذمهم.

- قال السعدي: وهذا أشد ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة، مع الأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم أهل السعادة.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: ٣٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المجرمون المؤمنين قالوا لهم: إن هؤلاء لضالون عن محجة الحقّ، وسبيل القصد".

قال الزمخشري: "أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال".

قال ابن كثير:"أي: لكونهم على غير دينهم".

أي: وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لتائهون عن الحق والصواب وليسوا على هدى.

- قال الشوكاني (وإذا رأوهم) أي: إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان (قالوا إن هؤلاء لضالون) في اتباعهم محمدا، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم

=

الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، والأول أولى.

- قال السعدي: وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرؤا على القول عليه بلا علم.

قوله تعالى: {وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} [المطففين: ٣٣].

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وما بعث هؤلاء الكفار القائلون للمؤمنين {إن هؤلاء لضالون} حافظين عليهم أعمالهم. يقول: إنما كُلِّفوا الإيمان بالله، والعمل بطاعته، ولم يُجعلوا رُقباء على غيرهم يحفظون عليهم أعمالهم ويتفقدونها".

قال السعدي:"أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم".

قال الزمخشري: "{وَما أُرْسِلُوا} على المسلمين {حافِظِينَ} موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم، وهداتهكم بهم. أو هو من جملة قول الكفار، وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إنّ هؤلاء لضالون، وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكارا لصدّهم إياهم عن الشرك، ودعائهم إلى الإسلام، وجدّهم في ذلك".

قال ابن كثير:"أي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي

=

=

جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١]".

أي: وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟.

كما قال تعالى (اخسئوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون).

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)} [المطففين: ٣٤]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {فَالْيَوْمَ} وذلك يوم القيامة {الَّذِينَ آمَنُوا} بالله في الدنيا {مِنَ الْكُفَّارِ} فيها {يَضْحَكُونَ}".

قال ابن كثير:" {فَالْيَوْمَ} يعني: يوم القيامة {الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}، أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك".

قال السعدي:"حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة".

قال الزمخشري: "أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر. ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه.. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: اخرجوا إليها، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم، يفعل ذلك بهم مرارا، فيضحك المؤمنون منهم".

قال كعب:"إن بين أهل الجنة، وأهل النار كُوى، لا يشاء رجل من أهل الجنة النظر إلى عدوه من أهل النار إلا فعل".

قال الحسن: "{فاليَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفّارِ يَضْحَكُونَ} هذه -واللهِ- الدُّولة الكريمة التي أدال الله المؤمنين على المشركين في الآخرة، فهم يضحكون منهم، وهم مُتّكئون على فُرُشهم ينظرون كيف يُعذَّبون، كما كان الكفار يضحكون

=

منهم في الدنيا، والجنة في السماء".

عن أبي صالح، في قول الله -جل وعز-:" {اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: ١٥]، قال: يُقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، ويُفتح لهم أبواب النار. فإذا رأوها قد فُتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على... فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلِّقَتْ دونهم، فذلك قول الله ﷻ: {اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}... منهم المؤمنون حين غُلِّقَتْ دونهم، فذلك قوله: {فاليَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفّارِ يَضْحَكُونَ عَلى الأَرائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الكُفّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ}".

فالجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فكما ضحك المجرمون والكفار من المؤمنين في الدنيا فإن المؤمنين يضحكون منهم يوم القيامة جزاء وفاقا.

قال الشوكاني: (فاليوم الذين ءامنوا) المراد باليوم: اليوم الآخر (من الكفار يضحكون) والمعنى: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا.

قوله تعالى: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: ٣٥].

قال الطبري:"يقول: على سررهم التي في الحجال ينظرون إليهم وهم في الجنة، والكفار في النار يعذّبون".

قال ابن كثير:" {عَلَى الأرَائِكِ يَنْظُرُونَ}، أي: إلى الله ﷻ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته".

قال السعدي:" {عَلَى الأرَائِكِ} وهي السرر المزينة، {يُنْظَرُونَ} إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم".

قال الزمخشري: وهم على الأرائك آمنون".

قال ابن عباس:"يعني: السُّرر المرفوعة عليها الحِجال".

قال الضحاك:"كان ابن عباس يقول: السور بين أهل الجنة والنار، فيفتح لأهل الجنة أبواب، فينظرون وهم على السُّرر إلى أهل النار كيف يعذّبون، فيضحكون منهم، ويكون ذلك مما أقرّ الله به أعينهم، كيف ينتقم الله منهم".

قال سفيان:"يُجاء بالكفار حتى ينظروا إلى أهل الجنة في الجنة، على سرر، فحين ينظرون إليهم تغلق دونهم الأبواب، ويضحك أهل الجنة منهم، فهو قوله: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن كعبا كان يقول: إن بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدّو كان له في الدنيا، اطلع من بعض الكوى، قال الله جل ثناؤه: {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ}، أي: في وسط النار، وذُكر لنا أنه رأى جماجم القوم تغلي".

قال كعب: إن بين أهل الجنة وبين أهل النار كوى، لا يشاء رجل من أهل الجنة أن ينظر إلى غيره من أهل النار إلا فعل".

قوله تعالى: {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: ٣٦]، أي:"هل جوزي الكفار من جنس أعمالهم، جزاءً وفاق ما كانوا يفعلونه في الدنيا من الشرور والآثام؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هل أثيب الكفار وجُزُوا ثواب ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين من سخريتهم منهم، وضحكهم بهم بضحك المؤمنين منهم في الآخرة، والمؤمنون على الأرائك ينظرون، وهم في النار يعذّبون".

قال ابن كثير:"أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله".

سورة الانشقاق(١)

=

قال الزجاج:"أي: هل جُوزُوا بِسُخْرِيَتهمْ بالمؤمِنينَ في الدنيا".

قال السعدي:"أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال".

عن مجاهد: "{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، قال: جزي".

عن سفيان: "{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، حين كانوا يسخرون".

ويقرأ: «هَثُّوِّبَ»، بإدغام اللام في الثاء.

أي: إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

(هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

- قال الشيخ السعدي: نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون عدلا من الله وحكمة والله عليم حكيم.

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بلا خلاف بين المتأولين".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبأدي: السّورة مكِّيّة.

وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".

* آياتها ثلاث وعشرون عند الشَّامي والبصريّ، وخمس عند الباقين. وكلماتها مائة وسبع. وحروفها أَربعمائة وثلاث وثلاثون. والمختلف فيها اثنان {بِيَمِيْنِهِ} {وَرَآءَ ظَهْرِهِ}. فواصل آياتها (قهرتمان) على الرّاءِ {يَحُوْر} وعلى الميم

=

=

{أَلِيْم}.

* أسماء السورة:

تسمى سورة «الانشقاق» سماها المفسرون وكتاب المصاحف «سورة الانشقاق» باعتبار المعنى، كما سميت السورة السابقة «سورة التطفيف».

وتسمى سورة «إذا السماء انشقت» سميت في زمن الصحابة: «سورة إذا السماء انشقت» ، لافتتاحها بقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، ففي «الموطأ» عن أبي سلمة: «أن أبا هريرة قرأ بهم إذا السماء انشقت فسجد فيها فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها». فضمير «فيها» عائد إلى إذا السماء انشقت [الانشقاق: ١] بتأويل السورة، وبذلك عنونها البخاري ، والترمذي ، وكذلك وردت في بعض كتب التفسير ، وعلوم القرآن.

ثانيا:- أسمها الاجتهادي: «سورة انشقت»:

وسميت «سورة انشقت» اختصارا، وردت هذه التسمية عند بعض المفسرين.

قال الفيروزآبادي:"وتسمى سورة «انشقت»، وسورة الانشقاق؛ لافتتاحها".

وقال ابن عاشور:"وذكرها الجعبري في «نظمه» في تعداد المكي والمدني بلفظ «كدح» فيحتمل أنه عنى أنه اسم للسورة ولم أقف على ذلك لغيره".

* مقصود السّورة: بيانُ حال الأَرض والسّماءِ فى طاعة الخالِق - تعالى - وإِخراج الأَموات للبعث، والاشتغال بالبِرّ والإِحسان، وبيان سهولة الحساب للمطيعين، والإِخبار عن فَرَحهم وسرورهم بنعيم الجنان، وبكاء العاصين والكافرين، وويلهم بالثبوت فى دَرَكات النيران، والقَسَم بتشقُّق القمر، واطِّلاع الحقّ على الإِسرار والإِعلان، وجزاء المطيعين من غير امتنان، فى قوله: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}.

* متشابه سورة انشقت: قوله: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} مرتين، لأَن الأَول متصل

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١).

{إذا السماء انشقت}.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢).

{وَأَذِنَتْ} سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي الِانْشِقَاق {لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} أَيْ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَسْمَع وَتُطِيع.

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣).

{وَإِذَا الْأَرْض مُدَّتْ} زِيدَ فِي سَعَتهَا كَمَا يُمَدّ الْأَدِيم وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهَا بِنَاء وَلَا جبل.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤).

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا} مِنْ الْمَوْتَى إِلَى ظَاهِرهَا {وتخلت} عنه.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥).

{وَأَذِنَتْ} سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي ذَلِكَ {لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} وَذَلِكَ كُلّه يَكُون يَوْم الْقِيَامَة وَجَوَاب إِذَا وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا مَحْذُوف دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْده تَقْدِيره لَقِيَ الْإِنْسَان عَمَله

=

بالسماءِ، والثانى متصل بالأَرض. ومعنى أَذِنت: سمعت وانقادت، وحق لها أَن تسمع وتطيع، وإِذا اتصل واحد بغير ما اتصل به الآخر لا يكون تكرارا.

قوله: {بَلِ الذين كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} وفى البروج {فِى تَكْذِيبٍ} راعى فواصل الآى، مع صحة اللفظ وجودة المعنى. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٠٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦).

{يَا أَيّهَا الْإِنْسَان إِنَّك كَادِح} جَاهِد فِي عَمَلك {إِلَى} لِقَاء {رَبّك} وَهُوَ الْمَوْت {كَدْحًا فَمُلَاقِيه} أَيْ مُلَاقٍ عَمَلك الْمَذْكُور مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ يَوْم الْقِيَامَة.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧).

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابه} كِتَاب عَمَله {بِيَمِينِهِ} هو المؤمن.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨).

{فَسَوْفَ يُحَاسَب حِسَابًا يَسِيرًا} هُوَ عَرْض عَمَله عَلَيْهِ كَمَا فِي حَدِيث الصَّحِيحَيْنِ وَفِيهِ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَاب هَلَكَ وَبَعْد الْعَرْض يُتَجَاوَز عَنْهُ.

وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩).

{وَيَنْقَلِب إِلَى أَهْله} فِي الْجَنَّة {مَسْرُورًا} بِذَلِكَ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠).

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابه وَرَاء ظَهْره} هُوَ الْكَافِر تُغَلّ يُمْنَاهُ إِلَى عُنُقه وَتُجْعَل يُسْرَاهُ وَرَاء ظَهْره فَيَأْخُذ بِهَا كِتَابه.

فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١).

{فَسَوْفَ يَدْعُو} عِنْد رُؤْيَته مَا فِيهِ {ثُبُورًا} يُنَادِي هَلَاكه بِقَوْلِهِ يَا ثُبُورَاه.

وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢).

{وَيَصْلَى سَعِيرًا} يَدْخُل النَّار الشَّدِيدَة وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الْيَاء وَفَتْح الصَّاد وَاللَّام الْمُشَدَّدَة.

إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣).

{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْله} عَشِيرَته فِي الدُّنْيَا {مسرورا} بطرا باتباعه هواه.

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤).

{إِنَّهُ ظَنَّ إنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أَنَّهُ {لَنْ يَحُور} يَرْجِع إلَى ربه.

بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥).

{بَلَى} يَرْجِع إلَيْهِ {إنَّ رَبّه كَانَ بِهِ بَصِيرًا} عَالِمًا بِرُجُوعِهِ إلَيْهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١].

قال الفراء:"تشقق بالغمام".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إذا السماء تصدّعت وتقطَّعت فكانت أبوابًا".

قال الزجاج:"تنشق يوم القيامة بالغمام".

قال ابن عطية:"هذه أوصاف يوم القيامة، و «انشقاق السماء»: هو تفطيرها لهول يوم القيامة، كما قال: {وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ} [الحاقة: ١٦]".

قال السعدي:"أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها".

أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: "تنشق السماء من المجرة".

قال مقاتل:"فإنها تنشق حتى يرى طرفاها، ثم ترى خلقا باليا، وذلك أن أخوين من بني أمية «أحدهما اسمه عبد الله بن عبد الأسد، والآخر اسمه الأسود ابن عبد الأسد. أحدهما مؤمن بالله واسمه عبد الله، وأما الآخر فاسمه الأسود وهو الكافر، فقال لأخيه عبد الله: آمنت بمحمد؟ قال: نعم. قال: ويحك إن محمدا يزعم، إذا متنا

وكنا ترابا، فإنا لمبعوثون في الآخرة، ويزعم أن الدنيا تنقطع، فأخبرني ما حال الأرض يومئذ فأنزل الله- ﷻ-: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]..".

أي: تصدعت وانفطرت وانفرجت إيذانا بقيام الساعة.

كما قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان).

=

=

وقال تعالى (إذا السماء انفطرت).

وقال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا).

قوله تعالى: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} [الانشقاق: ٢].

قال الفراء: أي:"سمعت".

قال الزجاج:"أي سمعت، يقال: أذنت للشيء آذن إذَا سَمِعت".

قال أبو عبيدة:"أذنت: استمعت، قال رؤبة:

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا".

قال الطبري:"يقول: وَسَمِعَت السموات في تصدّعها وتشققها لربها وأطاعت له في أمره إياها، والعرب تقول: أذن لك في هذا الأمر أذنًا بمعنى: استمع لك".

قال القشيري:"أي: قابلت أمر ربّها بالسمع والطاعة".

قال ابن كثير:"أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق".

قال السعدي:"أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه".

قال السمعاني:"وأما استماع السماء فيجوز أن يكون على الحقيقة، ويجوز أن يكون استماعها انقيادها لما تؤمر به، والله أعلم".

عن ابن عباس:"{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، قال: سمعت لربها".

عن مجاهد: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، قال: سمعت". وفي لفظ:"سمعت لربها وأطاعت".

قال سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك:"سمعت وأطاعت".

قال الزمخشري:"أذن له: استمع له. ومنه قوله عليه السلام: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن». وقول جحاف بن حكيم:

إِذِنْتُ لَكُمْ لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ

والمعنى: أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد

=

=

عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع، كقوله أَتَيْنا طائِعِين".

قوله تعالى: {وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ٢]، أي:"وحُقَّ للسماء أن تنقاد لأمره تعالى".

وفي قوله تعالى: {وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ٢]، وجهان:

أحدهما: أطاعت، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة ، الضحاك.

عن سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك:"{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}: سمعت وأطاعت".

الثاني: معناه: حق لها أن تفعل ذلك، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير-أيضا- ، والأخفش ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، ومنه قول كثيّر:

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا... وَحُقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتِ

قال سعيد بن جبير:"وحُقّ لها".

قال ابن عباس:"حُقِّقَت لطاعة ربها". وفي لفظ:"حققت بالطاعة".

قال الطبري يقول: وحقق الله عليها الاستماع بالانشقاق والانتهاء إلى طاعته في ذلك".

قال ابن كثير:"أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يغالب، بل قد قهر كلّ شيء وذل له كل شيء".

قال السعدي:"وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه".

قال النحاس:"حقيقة هذا أن المعنى حقّق الله جلّ وعزّ عليها فانقادت إلى أمره وانشقت أي تصدّعت فصارت أبوابا".

أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة.

=

=

معنى (أذنت) استمعت. يقال: أذن له، بمعنى استمع له بإصغاء تام- وبابه طرب- وفي الحديث الصحيح: ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن.
(وحقت) أي: وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قهر كل شيء وذل له كل شيء.
قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).
وقال تعالى (سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون).
قوله تعالى: {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} [الانشقاق: ٣]، أي:"وإذا الأرض بُسطت وَوُسِّعت، ودكت جبالها في ذلك اليوم".
عن مجاهد، قوله: "{مُدَّتْ}، قال: يوم القيامة".
وفي قوله تعالى: {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} [الانشقاق: ٣]، وجهان من التفسير:
أحدهما: أن البيت كان قبل الأرض بألفي عام، فمدت الأرض من تحته.
قال ابن عباس:"وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت".
قال عبد الله بن عمرو:"خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، ومنه دُحيت الأرض".
الثاني: أنها أرض القيامة، قاله مجاهد.
قال الماوردي:"القول الثاني أشبه بسياق الكلام".
وفي قوله تعالى: {مُدَّتْ} [الانشقاق: ٣]، وجهان:
أحدهما: سويت، فدكّت الجبال ويبست البحار، قاله السدي ، ويحيى بن سلام.
قال يحيى بن سلام:"يعني سويت، قد حلَّ ماء على ظهرها في بطنها".
الثاني: بسطت، قاله الضحاك ، وقال الفراء ، والطبري.
عن ابن عباس: "مدّت مدّ الأديم العكاظي".

=

=

قال الفراء:"بسطت ومددت كما يمدد الأديم العكاظي".
قال الطبري:"وإذا الأرض بُسِطَتْ، فزيدت في سعتها".
قال ابن كثير:"أي: بُسطت وفرشت وَوُسِّعَت".
وقال الزجاج:"أزيلت عَنْ هَيْئَتِهَا وَبُدِّلت".
قال ابن أبي زمنين:"تمد مد الأديم، وهذا إذا بدلت بأرض بيضاء، كأنها فضة لم يعمل عليها خطيئة".
قال ابن فورك:"بسطت باندكاك جبالها وأكمامها حتى تصير كالصفيحة الملسى، وهذا من أشراط الساعة وجلائل الأمور التي تكون فيها".
قال السمعاني:"لا يبقى عليها جبل ولا شيء إلا دخل في جوفها".
قال السعدي:"أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا".
قال الزمخشري:"{مُدَّتْ}: من مدّ الشيء فامتدّ: وهو أن تزال جبالها وآكامها وكل أمت فيها، حتى تمتدّ وتنبسط ويستوي ظهرها، كما قال تعالى: {قاعًا صَفْصَفًا لا تَرى فِيها عِوَجًا وَلا أَمْتًا}".
- قال في التسهيل: أي زال ما عليها من الجبال حتى صارت مستوية.
- وقال ابن عاشور: ومد الأرض: بسطها، وظاهر هذا أنها يزال ما عليها من جبال كما يمد الأديم فتزول انثناءاته كما قال تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا).
ومن معاني المد أن يكون ناشئا عن اتساع مساحة ظاهرها بتشققها بالزلازل وبروز أجزاء من باطنها إلى سطحها.
قوله تعالى: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [الانشقاق: ٤]، أي:"وقذفت ما في بطنها

=

=

من الأموات، وتخلَّتْ عنهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [الانشقاق: ٤]، وجهان:

أحدهما: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت عمن على ظهرها من الأحياء، قاله ابن جبير ، ومجاهد ، وبه قال الطبري.

قال الطبري:"وألقت الأرض ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها وتخلَّتْ منهم إلى الله".

قال مجاهد:"أخرجت ما فيها من الموتى". وفي لفظ:"أخرجت ما فيها من الموتى وتخلت منهم".

الثاني: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها، وهو قول قتادة ، وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:"ألقت ما فيها من الموتى والكنوز".

قال قتادة:"ألقت أثقالها وكنوزها، وتخلت منهما".

قال قتادة:"أخرجت أثقالها وما فيها".

قال الثعلبي:"أخرجت ما فِيها من الموتى والكنوز وخلت فليس في باطنها شيء".

قال السمعاني:"أي: وألقت ما في جوفها، من الكنوز والموتى فخلى جوفها، ويقال: ألقت بما استودعت، وتخلت عما استحفظت، وكأنها ألقت ما على ظهرها، وتخلت عما في جوفها".

قال السعدي:"فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون".

أي: ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت عنهم.

=

=

كما قال تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها).

وقال تعالى (وإذا القبور بعثرت).

وقال تعالى (وبعثر ما في القبور).

وقال تعالى (ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياءا وأمواتا).

وذلك بعد نفخ الصور كما قال تعالى (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون).

- قال الرازي: وأما قوله: (وتخلت) فالمعنى وخلت غاية الخلو حتى لم يبق في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرم الكريم، وترحم الرحيم.

وقيل: أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم.

قوله تعالى: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ٥]، أي:"وانقادت لربها فيما أمرها به، وحُقَّ لها أن تنقاد لأمره".

قال الطبري:"يقول: وسمعت الأرض في إلقائها ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها أحياء، أمر ربها وأطاعت، وحقَّقها الله للاستماع لأمره في ذلك، والانتهاء إلى طاعته".

وفي جواب الشرط في قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} [الانشقاق: ٣]، أربعة أقوال:

أحدها: أنه محذوف الجواب وتقديره: إذا السماء انشقت رأى الإنسان ما قدّم من خير وشر. قاله الفراء، والزجاج، والطبري.

قال الزجاج:"وجواب {إذا} يدل عليه: {فَمُلاَقِيهِ}، المعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإِنْسَانُ عَمَلَهُ".

الثاني: أن جوابه: {كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا} [الانشقاق: ٦]،. قاله الأخفش.

=

=

الثالث: معناه: أذكر إذا السماء انشقت. حكاه النحاس.

الرابع: أن جواب: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، قوله: {وَأَذِنَتْ} [الانشقاق: ٢]. ومثله قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣]. حكاه الفراء.

وقال النحاس:"وقيل: المعنى: اذكروا إذا السّماء انشقّت، فعلى هذا لا تحتاج إلى جواب أي: اذكر خبر ذلك الوقت".

قال الزمخشري:"حذف جواب {إذا} ليذهب المقدّر كل مذهب. أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار. وقيل: جوابها ما دلّ عليه: {فَمُلاقِيهِ}، أي: إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه. ومعناه: إذا انشقت بالغمام، كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ}".

قال ابن عاشور: والمعنى: وهي محقوقة بأن تأذن لربها لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سمكها واشتد خلقها وطال زمان رتقها فما ذلك كله إلا من تقدير الله لها، فهو الذي إذا شاء أزالها.

واعلم أن الله لم يسق هذه الأخبار لمجرد الإخبار، بل الغاية إعلام العباد بما هم صائرون إليه ترغيبا وترهيبا، ليأخذوا بأسباب النجاة من العذاب والفوز بعظيم الثواب.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق: ٦]

يا أيها الإنسان إنك ساعٍ إلى الله، وعامل أعمالا من خير أو شر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فيجازيك بعملك بفضله أو عدله. أن لن يرجع.

أحدهما: إنك عامل لربك عملا فملاقيه. وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد.

قال ابن عباس:"يقول: تعمل عملا تلقى الله به خيرًا كان أو شرًّا".

=

=

قال قتادة:"عامل له عملا".

قال ابن زيد:"عامل إلى ربك عملا، {كدحا}: العمل".

قال قتادة:"إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوّة إلا بالله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يأيُّها الإنسان إنك عامل إلى ربك عملا فملاقيه به خيرًا كان عملك ذلك أو شرًا، يقول: فليكن عملك مما يُنجيك من سُخْطه، ويوجب لك رضاه، ولا يكن مما يُسخطه عليك فتهلك".

الثاني: إنك ساعٍ إلى ربك سعيًا فملاقيه، قاله يحيى بن سلام، ومقاتل، والزجاج. ومنه قول الشاعر:

ومَضَتْ بشاشةُ كلِّ عَيْشٍ صالحٍ... وَبقيتُ أكْدَحُ للحياةِ وأَنْصَبُ

أي: أعمل للحياة.

وقول الآخر:

ما الدَّهْرُ إلا تارَتانِ فَمِنْهُما... أموتُ وأُخْرَى أبْتَغي العَيْش أَكْدحُ

أي: وتارة أسعى في طلبه العيش وأدأب.

وقيل: «فملاقيه»: فملاق ربك. وقيل: فملاق عملك.

قال الزجاج:"الكدح -في اللغة-: السعي والدأب في العمل في باب الدنيا وباب الآخرة".

قال السمعاني:"الكدح: هو السعي بتعب ونصب".

قال السعدي:"أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعدل إن كنت شقيًا".

قال ابن كثير:"أي: ساع إلى ربك سعيا، وعامل عملا {فَمُلاقِيهِ} ثم إنك ستلقى

=

=

ما عملتَ من خير أو شر، ويشهد له ما رواه أبوة داود الطيالسي... عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» .. ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: {رَبِّكَ}، أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك. وعلى هذا فكلا القولين متلازم".

قال الرازي (يا أيها الإنسان) ففيه قولان:

القول الأول: أن المراد جنس الناس كما يقال: أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، فكذا ههنا.

والقول الثاني: أن المراد منه رجل بعينه، وههنا فيه قولان:

الأول: أن المراد به محمد ﷺ؛ والمعنى أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله وإرشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار، فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده.

والثاني: قال ابن عباس: هو أبي بن خلف، وكدحه جده واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرسول عليه السلام، والإصرار على الكفر، والأقرب أنه محمول على الجنس لأنه أكثر فائدة، ولأن قوله (فأما من أوتي كتابه بيمينه) (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) كالنوعين له، وذلك لا يتم إلا إذا كان جنسا.

(إنك كادح إلى ربك كدحا) الكدح: السعي والعمل، والمعنى: أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر.

(فملاقيه) أي: حتى تنتهي إلى الله كما قال تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) وقال تعالى (إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم).

فملاقيه: قيل: تلاقي ما عملت من خير أو شر. كما قال ﷺ (قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما

=

=

شئت فإنك ملاقيه).

وقيل: أي فملاقي ربك فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك.

وهذا أرجح، لأن ذكر لقاء العبد لربه كثير في القرآن.

كقوله تعالى (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت).

وقوله تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها).

وعن عدي بن حاتم. قال: قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه.

قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الانشقاق: ٧].

قال الطبري: "فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه".

قال السعدي: "وهم أهل السعادة".

أي: فأما من أعطي كتاب عمله بيده اليمنى تكريما له، وهو المؤمن.

- قال ابن عاشور: وإنما جاءت هذه الآية على اعتبار تقسيم الناس يومئذ بين أتقياء ومشركين.

والكتاب: صحيفة الأعمال، وجعل إيتاؤه إياه بيمينه شعارا للسعادة لما هو متعارف من أن اليد اليمنى تتناول الأشياء الزكية وهذا في غريزة البشر نشأ عن كون الجانب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل الذي يتعلق العزم بعمله فارتكز في النفوس أن البركة في الجانب الأيمن حتى سموا البركة والسعادة يمنا، ووسموا ضدها بالشؤم فكانت بركة اليمين مما وضعه الله تعالى في أصل فطر الناس.

- في الآية فضل اليد اليمنى في الآخرة وتلقي الكتب بها، وأما فضلها في الدنيا:

=

=

فقد قال النبي ﷺ: (لا يعطي أحدكم إلا بيمينه ولا يأخذ إلا بيمينه).
وقال ﷺ (لا يمسن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح من الخلاء بيمينه).
وقال عليه السلام (لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها)، فاليد اليمنى مفضلة، وقد قال النبي ﷺ (الأيمنون الأيمنون) فكل ما هو على اليمين له فضل، وقد شرب النبي ﷺ ماء ثم ناول فضله من عن يمينه، وكان يحب التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله.
قوله تعالى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨].
وفي تفسير قوله تعالى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨]، ثلاثة أقوال:
أحدها: يجازى على الحسنات ويتجاوز له عن السيئات، قاله الحسن ، وابن زيد.
قال الطبري:"بأن ينظر في أعماله، فيغفر له سيئها، ويُجازى على حُسنها".
قال ابن زيد:"الحساب اليسير: الذي يغفر ذنوبه، ويتقبَّل حسناته، ويسير الحساب الذي يعفى عنه، وقرأ: {وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}، وقرأ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}".
الثاني: ما رواه صفوان بن سليم عن عائشة قالت: «سمعت النبيّ ﷺ يقول: "اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا" قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: "أن يُنْظَرَ فِي سَيِّئَاتِهِ فَيُتَجَاوَزُ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ"».
الثالث: أنه العرض، روى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها - أنها قالت: «من نُوقش الحساب، أو من حوسب عذّب، قال: ثم قالت: إنما الحساب اليسير: عَرْض على الله وهو يراهم».

=

قال السعدي:"وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم»".

قال ابن كثير:"أي: سهلا بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جَميعُ دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة".

قال الطبري:"إن قال قائل: وكيف قيل: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ}، والمحاسبة لا تكون إلا من اثنين، والله القائم بأعمالهم ولا أحد له قِبَل ربه طَلِبة فيحاسبه؟ قيل: إن ذلك تقرير من الله للعبد بذنوبه، وإقرار من العبد بها وبما أحصاه كتاب عمله، فذلك المحاسبة على ما وصفنا، ولذلك قيل: يحاسب".

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا هَلَكَ" قالت: فقلت: يا رسول الله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}، فقال: "ذَلِكَ الْعَرْضُ، لَيْس أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا هَلَكَ".

قال القشيري:"أي حسابا لا مشقّة فيه. ويقال: «حِسابًا يَسِيرًا» أي يسمعه كلامه- سبحانه- بلا واسطة، فيخفّف سماع خطابه ما في الحساب من عناء، ويقال: «حِسابًا يَسِيرًا»: لا يذكّره ذنوبه. ويقال: يقول: ألم أفعل كذا؟ وألم أفعل كذا؟ يعدّ عليه إحسانه.. ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يذكّره عصيانه".

(فسوف يحاسب حسابا يسيرا) أي: سهلا بلا تعسير، أي لا يحقق عليه جميع أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك.

- قال الرازي: والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه.

=

- قال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله، فهو الحساب اليسير.

- وقال السعدي: وهو العرض اليسير على الله فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك اليوم.

قوله تعالى: {وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: ٩].

قال الطبري:"يقول: وينصرف هذا المحاسَبُ حسابًا يسيرًا إلى أهله في الجنة مسرورًا".

قال ابن كثير:"أي: فرحان مغتبطا بما أعطاه الله ﷻ".

قال قتادة:"إلى أهْلٍ أعدّ الله لهم الجنة".

قال السعدي:"لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب".

أي يرجع إلى أهله في الجنة [مسرورا] أي فرحا مغتبطا بما أعطاه الله ﷻ، كما قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية).

- قوله تعالى (وينقلب إلى أهله) اختلف في المراد بالأهل هنا؟

قيل: أي من حور العين اللواتي أعدهن الله سبحانه وتعالى للمؤمن.

وقيل: أي إلى ذويه من أهل الصلاح الذين سبقوه في الجنان، فإنه من المعلوم أن دخول الجنة على مراحل، فهناك قوم يسبقون إلى الجنان، وقوم يتأخرون.

كما قال النبي ﷺ (إن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام).

وكما قال سبحانه (والسابقون السابقون. أولئك المقربون).

=

=

وكما قال النبي ﷺ (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة) فدل ذلك على أن دخول الجنان على مراحل.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق: ١٠].

قال السعدي:"أي: بشماله من خلفه".

قال الطبري:"أما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جلَّ ثناؤه أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم".

قال ابن كثير:"أي: بشماله من وراء ظهره، تُثْنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك".

عن مجاهد:" {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}، قال: يجعل يده من وراء ظهره".

قال الفراء:"يقال: إن إيمانهم تغل إلى أعناقهم، وتكون شمائلهم وراء ظهورهم".

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) أي: بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك إهانة له، كما قال تعالى (وأما من أوتي كتابه بشماله).

- قال تعالى في سورة الحاقة (وأما من أوتي كتابه بشماله) ولم يذكر الظهر، وهنا قال (وراء ظهره)، فاختلف العلماء في الجمع:

فقيل: لا منافاة بين الآيتين، فالكافر يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره.

وبهذا قال جمع من السلف وجمهور المفسرين، كالطبري، والبغوي، والبيضاوي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي واستظهره الشنقيطي.

=

=

وقيل: بعضهم يعطى كتابه بشماله، وبعضهم من وراء ظهره، وذهب إلى هذا المسلك الرازي في تفسيره.

وقيل: أن الكافر يتحول وجهه في قفاه، فيقرأ كتابه كذلك، حكاه الرازي عن قوم.

قال الشيخ الشنقيطي: قوله تعالى (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) الآية، هذه الآية الكريمة تدل على أن من لم يعط كتابه بيمينه أنه يعطاه وراء ظهره وقد جاءت آية يفهم منها أنه يؤتاه بشماله وهي قوله تعال (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني)، والجواب ظاهر وهو أنه لا منافاة بين أخذه بشماله وإيتائه وراء ظهره؛ لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا} [الانشقاق: ١١].

قال الطبري:"يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثبوراه، واويلاه، وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه".

قال ابن قتيبة:"أي: بالثبور، وهو: الهلكة".

قال ابن كثير:"أي: خسارا وهلاكا".

قال الضحاك:"يدعو بالهلاك".

قال مقاتل:"يدعو بالويل".

قال السعدي:"من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها".

قال الفراء:"الثبور: أن يقول: وا ثبوراه، وا ويلاه، والعرب تقول: فلان يدعو لهفة «٨» إذا قال: وا لهفاه".

أي: فسوف ينادي بالثبور والهلاك والخسار كما قال تعالى (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. يا ليتها كانت القاضية).

=

=

- والمعنى أنه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم أنه من أهل النار فيقول: واثبوراه.
- والثبور: الهلاك وسوء الحال وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس.
قوله تعالى: {وَيَصْلَى سَعِيرًا} [الانشقاق: ١٢].
قال مقاتل:"ويدخل النار".
قال الطبري:"يَصْلونها ويَرِدونها، فيحترقون فيها".
قال السعدي:"أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها".
وقرئ «وَيُصَلَّى»، بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أن الله يصليهم تصلية بعد تصلية، وإنضاجة بعد إنضاجة، كما قال تعالى: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}.
(ويصلى سعيرا) أي: تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها.
قال تعالى (ونصله جهنم وساءت مصيرا).
وقال تعالى (وسيصلون سعيرا).
وقال تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى).
قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: ١٣].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنه كان في أهله في الدنيا مسرورا لما فيه من خلافه أمرَ الله، وركوبه معاصيه".
قال ابن كثير:"أي: فرحا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل".
قال السعدي:"لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه".
عن قتادة: "{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}، أي: في الدنيا".
قال ابن فورك:"بمعاصي الله".

=

=

قال ابن عطاء:"لنفسه متابعا ساعيا".

قال مقاتل:"يقول: في قومه كريما، فيذله الله- ﷻ- يوم القيامة".

(إنه كان في أهله مسرورا) أي: لا يخطر البعث على باله، ولا يفكر في العواقب ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل.

- قال الرازي: يحتمل: أنه كان في أهله مسرورا أي منعما مستريحا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد مقدما على المعاصي آمنا من الحساب والثواب والعقاب لا يخاف الله ولا يرجوه فأبدله الله بذلك السرور الفاني غما باقيا لا ينقطع، وكان المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه متقيا من المعاصي غير آمن من العذاب ولم يكن في دنياه مسرورا في أهله فجعله الله في الآخرة مسرورا فأبدله الله تعالى بالغم الفاني سرورا دائما لا ينفذ.

الثاني: أن قوله (إنه كان في أهله مسرورا) كقوله (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أي متنعمين في الدنيا معجبين بما هو عليه من الكفر فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى أنه كان في أهله مسرورا بما هم عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث يضحك ممن آمن به وصدق بالحساب، وقد قال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

- قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه فقال (إنه كان في أهله مسرورا).

- قال ابن عاشور: والانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي جيء منه، وقد تقدم قريبا في سورة المطففين.

والأهل: العشيرة من زوجة وأبناء وقرابة.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ} [الانشقاق: ١٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنّ هذا الذي أُوتي كتابه وراء ظهره يوم القيامة، ظنّ في الدنيا أن لن يرجع إلينا، ولن يُبعث بعد مماته، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم؛ لأنه لم يكن يرجو ثوابًا، ولم يكن يخشى عقابًا، يقال منه: حار فلان عن هذا الأمر: إذا رجع عنه، ومنه الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ» ، يعني بذلك: من الرجُوع إلى الكفر، بعد الإيمان".

عن ابن عباس: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، يقول: يُبعث".

وقال ابن عباس: "كنت لا أدري ما معنى «يحور»، حتى سمعت إعرابية تدعوا بنية لها فتقول: حوري حوري. أي: أرجعي".

عن سفيان: "{ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، قال: يرجع".

قال مجاهد:"أن لا يرجع إلينا".

قال ابن زيد:"أن لن ينقلب".

قال قتادة:"أن لا مَعَادَ له ولا رجعة". وفي لفظ:"أن لن ينقلب: يقول: أن لن يبعث".

قال ابن كثير:"أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته.. و «الحَوْرُ»: هو الرجوع".

أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته.

والظن يطلق كثيرا بمعنى اليقين.

كما في قوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا).

وقال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون).

=

=

والحور: هو الرجوع، ومنه قوله ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور) يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

قوله تعالى: {بَلَى} [الانشقاق: ١٥].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: بلى لَيَحُورَنَّ وَلَيَرْجِعَنّ إلى ربه حيا كما كان قبل مماته".

قال ابن كثير:"يعني: بلى سيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: ١٥]، أي:"إن ربه كان به بصيرًا عليمًا بحاله من يوم خلقه إلى أن بعثه".

قال الطبري: يقول:"إن ربّ هذا الذي ظن أن لن يحور، كان به بصيرا، إذ هو في الدنيا بما كان يعمل فيها من المعاصي، وما إليه يصير أمره في الآخرة، عالم بذلك كلِّه".

قال السمعاني:"أي: عالما".

قال ابن كثير:"أي: عليما خبيرا".

قال البغوي:"من يوم خلقه إلى أن بعثه".

قال السعدي:"فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب".

قال الزمخشري:"وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه، فلا بدّ أن يرجعه ويجازيه عليها".

(بلى) أي: بلى سيرجع إلى ربه ويقف بين يديه كما قال تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين).

(إن ربه كان به بصيرا) أي: إن ربه كان به بصيرا في الدنيا خبيرا بأعماله، محصيا

=

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦).

{فَلَا أُقْسِم} لَا زَائِدَة {بِالشَّفَقِ} هُوَ الْحُمْرَة فِي الْأُفُق بَعْد غُرُوب الشَّمْس.

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧).

{وَاللَّيْل وَمَا وَسَقَ} جَمَعَ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ الدَّوَابّ وَغَيْرهَا.

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨).

{وَالْقَمَر إِذَا اِتَّسَقَ} اِجْتَمَعَ وَتَمَّ نُوره وَذَلِكَ فِي اللَّيَالِي الْبِيض.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩).

{لَتَرْكَبُنَّ} أَيّهَا النَّاس أَصْله تَرْكَبُونَنَّ حُذِفَتْ نُون الرَّفْع لِتَوَالِي الْأَمْثَال وَالْوَاو لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ {طَبَقًا عَنْ طَبَق} حَالًا بَعْد حَال وَهُوَ الْمَوْت ثُمَّ الْحَيَاة وَمَا بَعْدهَا مِنْ أَحْوَال الْقِيَامَة.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠).

{فَمَا لَهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {لَا يُؤْمِنُونَ} أَيْ أَيّ مَانِع مِنْ الْإِيمَان أَوْ أَيّ حُجَّة لَهُمْ فِي تَرْكه مَعَ وُجُود بَرَاهِينه.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١).

{و} مالهم {إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآن لَا يَسْجُدُونَ} يَخْضَعُونَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لِإِعْجَازِهِ.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢).

{بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} بِالْبَعْثِ وَغَيْره.

وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣).

=

لها، وسيحاسبه عليها في الآخرة.

{وَاللهُ أَعْلَم بِمَا يُوعُونَ} يَجْمَعُونَ فِي صُحُفهمْ مِنْ الْكُفْر وَالتَّكْذِيب وَأَعْمَال السُّوء.

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤).

{فَبَشِّرْهُمْ} أَخْبِرْهُمْ {بِعَذَابٍ أَلِيم} مُؤْلِم.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥).

{إلا} لكن {الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أَجْر غَيْر مَمْنُون} غَيْر مَقْطُوع وَلَا مَنْقُوص ولا يمن به عليه[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ} [الانشقاق: ١٦].

قال ابن عطية:"«لا» زائدة، والتقدير فأقسم، وقيل: «لا» راد على أقوال الكفار وابتداء القول أُقْسِمُ، وقسم الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها، وتعريضها للعبرة، إذ القسم بها منبه منها".

قال ابن قتيبة:"زيدت «لا» في الكلام على نية الرّد على المكذبين، كما تقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول. لو قلت: والله ما ذاك كما تقول، لكان جائزا، غير أن إدخالك «لا» في الكلام أوّلا، أبلغ في الرّد".

وفي المراد «بالشّفق» -هاهنا-، ستة أقوال:

أحدها: أنه الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس.

وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ، قال: «وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب ما لم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة، فإنها تطلع بين قرني شيطان».

وهذا قول عمر ، وابنه ، وابن مسعود ، وعبادة بن الصامت ، وابن الزبير ، وجابر =

=

بن عبد الله ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأنس ، وأبي قتادة، الأنصاري ، وابن المسيّب ، وابن جبير ، وطاوس ، ومكحول ، وعبد الله بن دينار ، ومالك ، والأوزاعي ، وأبي يوسف ، والشافعي ، وأبي ثور ، ومقاتل ، والفراء ، وأبي عبيد ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن قتيبة ، والزجاج. وحكاه الثعلبي عن الأكثرين.

قال الفراء:"سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق، وكأن أحمر، فهذا شاهد للحمرة".

قال الخليل بن أحمد: "الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الأخير فإذا ذهب قيل: غاب الشفق".

وقال الجوهري: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة".

الثاني: أنه النهار. رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

عن مجاهد: "{فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}، قال: النهار". وفي لفظ: "النهار كله".

الثالث: الشمس. قاله مجاهد -أيضا-.

الرابع: أنه ما بقي من النهار، قاله عكرمة.

الخامس: السواد الذي يكون بعد ذهاب البياض، قاله أبو جعفر بن محمّد بن علي.

السادس: أنه البياض، قاله أبو هريرة ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو حنيفة.

وقيل: "أنّ البياض لا يغيب أصلا، قال الخليل: صعدت منارة اسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب".

قال الثعلبي:"الاختيار القول الأول لإجماع العبادلة عليه، ولأن الشواهد في كلام العرب وأشعارهم تشهد له، قال الشاعر:

قُمْ يا غُلامُ أعنِّي غَيْرَ محتشم... على الزَّمانِ بكأسٍ حَشوُهَا شَفَقُ".

=

=

قال السعدي: أقسم الله في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل.

فالشفق: هو الحمرة بعد غروب الشمس، وقد قال ﷺ (ووقت المغرب ما لم يغب الشفق) رواه مسلم.

قال الخازن: وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، وهو مذهب عامة العلماء.

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} [الانشقاق: ١٧].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} [الانشقاق: ١٧]، وجوه:

أحدها: أي: وما جمع وضم، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، والفراء ، وابن قتيبة ، وأنشدوا:

إنَّ لنا قَلائصَاً حَقَائِقا... مُسْتَوْسِقَاتٍ لو يَجِدْنَ سَائِقَا

عن ابن عباس:"{وَمَا وَسَقَ}، يقول: وما جمع". وفي رواية: "وما دخل فيه".

قال عكرمة:"وما جمع فيه من دوابه وحياته وعقاربه".

قال مجاهد:"وما جمع، يقول: ما آوى فيه من دابة".

عن مجاهد: "{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}: وما لفّ". وفي لفظ:"ما لُفّ عليه".

قال مجاهد:"وما أظلم عليه، وما أدخل فيه".

عن قتادة، وسعيد بن جبير: "{وَمَا وَسَقَ}، قال: وما جمع".

قال قتادة:"وما جمع من نجم أو دابة".

قال عكرمة:"ما حاز إذا جاء الليل".

قال ابن زيد:"وما جمع مجتمع فيه الأشياء التي يجمعها الله التي تأوي إليه، وأشياء تكون في الليل لا تكون في النهار ما جمع مما فيه ما يأوي إليه، فهو مما جمع".

=

=

قال الزجاج: "معنى «وسق»: جمع وضم".

قال ابن قتيبة: "أي: جَمع وحَمل. ومنه: «الوَسْقُ»، وهو: الحَمْل".

قال الثعلبي: "منه قيل للطعام المجتمع الكبير: وسق، وهو ستون صاعا، وطعام موسّق أي مجموع في غرارة ووعاء".

قال الطبري: "والليل وما جمع مما سكن وهدأ فيه من ذي روح كان يطير، أو يَدِب نهارًا، يقال منه: وسَقْتُه أسِقُه وَسْقا، ومنه طعام موسُوق، وهو المجموع في غرائر أو وعاء، ومنه الوَسْق، وهو الطعام المجتمع الكثير مما يُكال أو يوزن، يقال: هو ستون صاعًا، وبه جاء الخبر عن رسول الله ﷺ".

الثاني: وما ساق، لأن ظلمة الليل تسوق كل شيء إلى مأواه، قاله عكرمة ، والضحاك ، وهو مروي عن ابن عباس -أيضا-.

قال الضحاك: "ما ساق معه من ظلمة إذا أقبل".

قال ابن عباس: "يعني: وما ساق الليل من شيء جمعه النجوم، ويقال: والليل وما جمع".

الثالث: وما عمل فيه، قاله سعيد بن جبير ، وقال الشاعر:

فيَوْمًا ترانا صالِحِيْنَ وتارةً... تقومُ بنا كالواسِقِ المُتَلَبِّبِ

أي: كالعامل.

وقال ابن أبي زمنين: "وما جمع مما عمل فيه الخلق من خير أو شر".

قال ابن كثير: "ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلا لليل وما وسق".

قوله تعالى: {وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ} [الانشقاق: ١٨].

وفي قوله تعالى: {وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ} [الانشقاق: ١٨]، وجهان من التفسير:

أحدهما: إذا استوى، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ،

=

=

وقتادة ، وابن زيد.

وقال ابن عباس:"إذا اجتمع واستوى".

وقال الحسن:"إذا اجتمع، إذا امتلأ".

عن سعيد بن جبير:"{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}، قال: لثلاث عَشْرة".

قال الضحاك " إذا اجتمع فاستوى".

قال الضحاك: "ليلة أربع عشرة هي ليلة السواء.

وقال الفراء:"اتساقه: امتلاؤه ثلاث عشرة إلى ست عشرة، فيهن اتساقه".

قال ابن قتيبة:"أي: امتلأ في الليالي البيض".

قال الزجاج:"اجتمع واستوى ليلة ثلاث عشرة وأربعة عشرة".

وقال الفراء:"يريد: اجتمع".

وقال أبو عبيدة:"إذا تمّ".

قال مقاتل:"في ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، فهن البيض، فهو يستوي في الشهر ثلاث ليال يشتد ضوءه، ويجتمع من «ثلاث عشرة".

الثالث: والقمر إذا استدار، قاله قتادة.

(والليل وما وسق) معطوف على ما قبله، فهو من جملة المقسم و (ما) موصولة، أي: والذي وسق، أي: والذي ضم وجمع وحوى من نجم ودواب ووحوش وهوام وظلمة وغير ذلك.

قال الخازن: (والليل وما وسق) أي جمع وضم ما كان منتشرا بالنهار من الخلق والدواب والهوام وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه.

(والقمر إذا اتسق) أي: إذا اجتمع واستوى، أي أنه تكامل نوره وأبدر.

- قال السعدي: أي امتلأ نورا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع.

- جاء في التفسير الوسيط: أي: أقسم بالحمرة التي تظهر في الأفق الغربي، بعد

=

=

غروب الشمس، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله- تعالى- وبالقمر إذا ما اجتمع نوره، واكتمل ضياؤه، وصار بدرا متلألئا.

قوله تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} [الانشقاق: ١٩].

قال النحاس:"وأكثر أهل التفسير يقول: المخاطبة للنبي ﷺ، ومنهم من يقول المخاطبة لجميع الناس".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} [الانشقاق: ١٩]، وجوه:

أحدها: حالًا بعد حال، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، عكرمة ، ومجاهد ، ومرّة الطّيِّب ، والضحاك ، والشعبي ، ومسروق ، وأبو صالح. ومنه قول كعب بن زهير:

كَذلِك الْمَرْءُ: إنْ يُنْسَأْ لَهُ أَجَلٌ... يَرْكَبْ عَلَى طَبَقٍ من بَعدِه طَبَقُ

قال الماتريدي:"جائِز أن يصرف إلى دار الآخرة، فكأنه قال: لتركبن حال الآخرة بعد حال الدنيا؛ فيكون فيه تصريح القول على إيجاب البعث. ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، فينتقل إلى حال المضغة بعد كونه

مضغة، وإلى حال العلقة، وإلى حال الطفولة، إلى أن يبلغ أشده، فلا يزال يركب حالة بعد حالة؛ فيكون في تنقله من حال إلى حال إبانة أنه لم يرد من إنشائه أن تتغير عليه الأحوال فقط، بل أريد به العاقبة التي بها صار إنشاء الخلق حكمة لا عبثا؛ فيكون قوله: {لَتَرْكَبُنَّ} منصرفا إلى كل إنسان في نفسه خاصة، لا على الاقتصار على شخص واحد، ومنهم من قال: إنما أراد بهذا الخطاب رسول الله ﷺ ، وهذا فيه بشارة له بإسلام قومه، وإجابتهم له؛ فيقول: إنهم سيطيعونك ويصيرون لك أنصارا بعد صدهم الناس عن الإيمان وجفوتهم إياك".

قال مجاهد:"لَتَرْكَبُنَّ الأمور حالا بعد حال".

=

=

وروي عن مجاهد، أن ابن عباس كان يقرأ: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»، يعني: نبيكم -ﷺ- حالا بعد حال".

وروي البخاري عن ابن عباس:"{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} حالا بعد حال - قال هذا نبيكم ﷺ".

وقال ابن عباس:"{لَتَرْكَبُنَّ} من الأمور يا محمد حالا بعد حال".

عن الشعبي: "{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} يا محمد حالا بعد حال".

قال الزجاج:"أي: حالا بعد حال حتى يصير إلى الله ﷻ، من إحياء وإماتة وبعث".

قال مقاتل:"يقول: حالا بعد حال يقول خلقا من نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم صارت العلقة مضغة، ثم صارت إنسانا ميتا، في بطن أمه، حتى نفخ فيه الروح، ثم صار إنسانا حيا، ثم أخرجه الله- تعالى- من

بطن أمه، فكان طفلا، ثم يبلغ أشده، ثم شاخ وكبر، ثم مات ولبث في قبره حتى صار ترابا، ثم أنشأه الله- ﷻ- بعد ذلك يوم القيامة".

وحكي ابن كثير عن الحسن:"{طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} يقول: حالا بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسَقَما بعد صحة".

قال الليث: "السموات طباق، وكل واحد من الطباق طبقة، وقد يُذَكر طبق - قال- والطبقة: الحال، يقال: كان فلان من الدنيا على طبقات شتى؛ أي: حالات".

وقال ابن الأعرابي: "الطبق: الحال على اختلافها".

قال الزمخشري:"الطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه. ومنه قيل للغطاء الطبق. وإطباق الثرى: ما تطابق منه، ثم قيل للحال المطابقة

=

=

لغيرها: طبق. ومنه قوله عز وعلا: {طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}، أي: حالا بعد حال: كل واحدة مطابقة لأختها في الشدّة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. ومنه: طبق الظهر لفقاره الواحدة: طبقة، على معنى: لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض. وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها".

الثاني: سماء بعد سماء، قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو العالية، والشعبي.

قال ابن مسعود:"سماء فوق سماء".

قال الشعبي:"«لَتَرْكَبَنَّ» يا محمد سماء بعد سماء".

عن مسروق: "«لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»، قال: أنت يا محمد سماء عن سماء".

قال الزجاج:"وقرئت: «لَتَرْكَبَنَّ»، أي: لتركبن يا محمد طبقا عن طبق من أطباق السماء".

قال ابن كثير:"يعنون ليلة الإسراء".

قال الماتريدي:"ومن قال: «لَتَرْكَبَنَّ» سماء بعد سماء، فيقول: ذلك ليلة أسري به، والتأويل الأول أقرب؛ لأن موقع القسم في قوله: {لَتَرْكَبُنَّ}، والإسراء لم يكن يعرفه قومه حتى يكون في ذكره دفع الاشتباه عن أُولَئِكَ القوم، فأما ظهور الإسلام وعلو النبي على أعدائه فمما يشاهده الناس؛ فيتحقق في الآخرة ما أخبر النبي عليه السلام عن الغيب؛ فيكون تأكيدا لرسالته؛ فلذلك قلنا: إن الحمل على المعنى الأول أحق".

الثالث: أمرًا بعد أمر. قاله مجاهد.

عن مجاهد، «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»، قال: أمرًا بعد أمر".

وحكي الماوردي عن الحسن:"أمرًا بعد أمر، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرًا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقمًا بعد صحة".

=

=

عن مجاهد: "{لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ}، قال: أمرًا بعد أمر".

الرابع: منزلا بعد منزل. قاله ابن عباس.

وفي رواية عن الحسن:"منزلا عن منزل، وحالا بعد حال".

قال الضحاك:"منزلا بعد منزل، وحالا بعد حال".

وقال قتادة:"حالا بعد حال، ومنزلا عن منزل".

وحكي الماوردي عن سعيد بن جبير:"منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا مرتفعين في الدنيا فاتضعوا في الآخرة".

قال ابن عباس:"منزلا بعد منزل".

الخامس: أي: لتركبنّ سنة الأولين وسنة من كان قبلكم من الأولين. قاله أبو عبيدة.

قال الواحدي:"يعني: في التكذيب والاختلاق على النبي -ﷺ-".

وحكي الماوردي عن السدي: "عملًا بعد عمل، يعمل الآخر عمل الأول".

وحكي ابن كثير عن السدي:"{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل".

قال ابن كثير:"كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، حَذْو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه". قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟»". وهذا محتمل".

السادس: الآخرة بعد الأولى، قاله ابن زيد.

السابع: شدة بعد شدة، حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدة، وقد روى معناه جابر مرفوعًا.

وحكي الواحدي عن عطاء: "يريد شدة بعد شدة، يعني: شدائد القيامة".

وحكي ابن الجوزي عن ابن عباس:"أنه الشدائد، والأهوال، ثم الموت، ثم

=

=

البعث، ثم العرض".

قال الفراء:"العرب تقول: وقع في بنات طبق، إذا وقع في الأمر الشديد".

عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة مما خُلِقَ له؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه، اكتب أجله، اكتب أثره، اكتب شقيا أو سعيدًا، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله إليه مَلَكا آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يرتفع ذلك الملك، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حَضَره الموتُ ارتفع ذانك الملكان، وجاءه ملك الموت فقبض روحه، فإذا دخل قبره رَدَّ الروح في جسده، ثم ارتفع ملك الموت، وجاءه مَلَكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فانتشطا كتابا معقودا في عنقه، ثم حضرا معه: واحدٌ سائقا وآخر شهيدا"، ثم قال الله ﷻ: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [ق: ٢٢]، قال رسول الله ﷺ

: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} قال: "حالا بعد حال". ثم قال النبي ﷺ: "إن قدامكم لأمرا عظيما لا تَقدرُونه، فاستعينوا بالله العظيم». قال ابن أبي حاتم: "هذا حديث منكر".

قال ابن كثير:"هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح".

الثامن: أي: في كل عشرين سنة تحدثون أمرا لم تكونوا عليه. قاله مكحول.

قال مكحول:"في كل عشرين عاما تحدثون أمرا لم تكونوا عليه".

قال الثعلبي:"وهذا أدلّ دليل على حدث العالم وإثبات الصانع، قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة وغدا أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه".

وقيل لأبي بكر الوراق: "ما الدليل على أنّ لهذا العالم صانع فقال: تحويل الحالات وعجز القوة وضعف الأركان وقهر المنّة وفسخ العزيمة".

=

روي عن عبد الرحمن الأرزياني، قال: "دخل أبو الفم علي بن محمد بن زيد العلوي بطبرستان عائدا فأنشأ يقول:

إني اعتللت ولا كانت بك العلل... وهكذا الدّهر فيه الصاب والعسل

إنّ الذي لا تحل الحادثات به... ولا يغير فيه الله لا الرجل".

التاسع: أنها السماء تغبرّ وتحمرّ وتَشَقَّق. رواه إبراهيم عن ابن مسعود.

قال ابن مسعود:"هي السماء تَشَقَّق، ثم تحمرّ، ثم تنفطر".

وعن مرّة عن ابن مسعود:"السماء، مرّة كالدِّهان، ومرّة تَشَقَّق".

وروي إبراهيم عن ابن مسعود:"السماء حالا بعد حال، ومنزلة بعد منزلة". وفي لفظ:"هي السماء تغير لونًا بعد لون".

قال الطبري:"الصواب من التأويل قول من قال «لَتَرْكَبَنَّ» أنت يا محمد حالا بعد حال، وأمرًا بعد أمر من الشدائد. والمراد بذلك -وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ موجهًا- جميع الناس، أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالا، وإنما قلنا: عُنِي بذلك ما ذكرنا أن الكلام قبل قوله: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» جرى بخطاب الجميع، وكذلك بعده، فكان أشبه أن يكون ذلك نظير ما قبله وما بعده، وقوله: {طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} من قول العرب: وقع فلان في بنات طبق: إذا وقع في أمر شديد".

قراءة العالمة: {لَتَرْكَبُنَّ}، بالتاء، وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة أنهم يركبون أحوال الشدّة حالا بعد حال. وقد ذكر بعضهم أنه قرأ ذلك بالياء وبضم الباء، على وجه الخبر عن الناس كافة، أنهم يفعلون ذلك.

وهذا جواب القسم، قال ابن عباس: حالا بعد حال. قال هذا نبيكم.

- قال الشيخ السعدي: أي أطوارا متعددة وأحوالا متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليدا وطفلا ومميزا، ثم يجري عليه قلم

=

التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

- وقال ابن القيم في تحفة المودود: قوله تعالى (لتركبن طبقا عن طبق) أي حالا بعد حال، فأول أطباق الإنسان كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم مولودا ثم رضيعا ثم فطميا ثم صحيحا أو مريضا غنيا أو فقيرا معافى أو مبتلى إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت ثم يبعث ثم يوقف بين يدي الله تعالى ثم يصير إلى الجنة أو النار، فالمعنى لتركبن حالا بعد حال ومنزلا بعد منزل وأمرا بعد أمر.

قال سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى.

وقال عطاء: شدة بعد شدة.

والطبق والطبقة: الحال. ولهذا يقال: كان فلان على طبقات شتى.

قال عمرو بن العاص: لقد كنت على طبقات ثلاث، أي أحوال ثلاث.

قال ابن الأعرابي: الطبق: الحال على اختلافها. ا.هـ

- قال الماوردي: قوله تعالى (لتركبن طبقا عن طبق)

الأول: حالا بعد حال، فطيما بعد رضيع وشيخا بعد شاب.

الثاني: أمرا بعد أمر، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقما بعد صحة، قاله الحسن.

الثالث: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا مرتفعين في الدنيا فاتضعوا في الآخرة.

=

=

رابعا: عملا بعد عمل، يعمل الآخر عمل الأول.
خامسا: الآخرة بعد الأولى.
سادسا: شدة بعد شدة، حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدة.
• في قوله تعالى (لتركبن طبقا عن طبق) قراءتان: القراءة الأولى: (لتركبن) بالفتح، والقراءة الثانية (لتركبن) بالضم.
وقول من قال (لتركبن) قال فريق من العلماء: إن المخاطب بهذه الآية هو النبي عليه السلام، فالمعنى لتركبن يا محمد حالا بعد حال، ولتتغيرن بك الأمور حالا بعد حال، وللعلماء في هذه -الحال بعد الحال- جملة أقوال:
القول الأول: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء -وهذا في المعراج- وتنتقل من سماء، إلى سماء واستدل لهذا القول بقوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) فسماء بعد سماء، يعني: طبقا عن طبق.
القول الثاني: (لتركبن طبقا عن طبق) يا محمد! لتتغيرن أحوالك من حال إلى حال فأنت في حال مستضعف، وفي حال قوي، في حال فقير، وفي حال غني، كما قال الله سبحانه وتعالى (ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى) فتغيرت أحوالك يا محمد.
والقول الثالث: (لتركبن طبقا عن طبق)، أي: لتعلون منزلة بعد منزلة وشرفا بعد شرف وقربة إلى الله سبحانه وتعالى بعد قربة.
قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الانشقاق: ٢٠].
قال مقاتل: أي:"بالبعث".
قال القشيري:"أي: فما لكفّار أمّتك لا يصدّقون.. وقد ظهرت البراهين؟".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فما لهؤلاء المشركين لا يصدّقون بتوحيد الله،

=

=

ولا يقرّون بالبعث بعد الموت، وقد أقسم لهم ربهم بأنهم راكبون طبقًا عن طبق مع ما قد عاينوا من حججه بحقيقة توحيده".

قال ابن كثير: "أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟".

قال ابن زيد، في قوله: "{فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}، قال: بهذا الحديث، وبهذا الأمر".

قوله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢١].

قال مقاتل: أي: "بالبعث".

قال القشيري: "أي: فما لكفّار أمّتك لا يصدّقون.. وقد ظهرت البراهين؟".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فما لهؤلاء المشركين لا يصدّقون بتوحيد الله، ولا يقرّون بالبعث بعد الموت، وقد أقسم لهم ربهم بأنهم راكبون طبقًا عن طبق مع ما قد عاينوا من حججه بحقيقة توحيده".

قال ابن كثير: "أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟".

قال ابن زيد، في قوله: "{فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}، قال: بهذا الحديث، وبهذا الأمر".

قال قتادة: "لا يتواضعون ويخضعون".

وقال عكرمة: "لا يباشرون بجباههم المصلى".

وقال محمد بن كعب ، والكلبي: "لا يصلون".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإذا قُرئ عليهم كتاب ربهم لا يخضعون ولا يستكينون".

قال ابن كثير: أي: "وما لهم إذا قرأت عليهم آيات الرحمن وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون إعظاما وإكرامًا واحتراما؟".

قال السعدي: "أي: لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه".

قال الثعلبي: "لا يخضعون ولا يستكينون له".

قال النحاس: "أهل التفسير على أن المعنى: لا يخضعون ولا يذلّون بالانتهاء إلى

=

=

طاعة الله جلّ وعزّ".

أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه.

وقيل: لا يصلون.

وهذا الموضع ثبت أن النبي ﷺ سجد فيه، فعن أبي هريرة قال (سجدنا مع رسول الله ﷺ في (إذا السماء انشقت) و (اقرأ باسم ربك الذي خلق) رواه مسلم.

قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} [الانشقاق: ٢٢].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: بل الذين كفروا يكذبون بآيات الله وتنزيله".

قال ابن كثير: "أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق".

قال السعدي: "أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عنادًا، لا حيلة فيه".

أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، فهذا هو سبب عدم إيمانهم وعدم سجودهم.

قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الانشقاق: ٢٣].

في قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الانشقاق: ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: بما يُسِرون في قلوبهم، قاله ابن عباس ، وقتادة.

عن قتادة: "{يُوعُونَ} ، قال: في صدورهم".

قال ابن قتيبة: "أي: يَجمعون في صدورهم وقلوبهم، يقال: أوعيت المتاع؛ [إذا جعلته في الوعاء".

قال الزجاج: "أي: بما يحملون في قلوبهم، يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ووعيت العلم".

قال النحاس: "من: أوعى الشيء إذا جمعه، ووعى حفظه".

قال الفراء: "الإيعاء: ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والإثم".

=

=

الثاني: بما يكتمون من أفعالهم، قاله مجاهد.

الثالث: بما يجمعون من سيئاتهم، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه. وهو معنى قول ابن زيد.

قال مقاتل: "بما يجمعون عليه من الإثم والفسوق".

قال ابن زيد:"المرءُ يُوعِي متاعه وماله هذا في هذا، وهذا في هذا، هكذا يعرف الله ما يوعون من الأعمال، والأعمال السيئة مما تُوعيه قلوبهم، ويجتمع فيها من هذه الأعمال الخير والشر، فالقلوب وعاء هذه الأعمال كلها، الخير والشرّ، يعلم ما يسرّون وما يعلنون، ولقد وَعَى لكم ما لا يدري أحد ما هو من القرآن وغير ذلك، فاتقوا الله وإياكم أن تدخلوا على مكارم هذه الأعمال بعض هذه الخبث ما يفسدها".

قال الطبري: المعنى" والله أعلم بما تُوعيه صدور هؤلاء المشركين من التكذيب بكتاب الله ورسوله".

قال السعدي:"أي: بما يعملونه وينوونه سرًا، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم".

أي: بما يعملونه وينوونه سرا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم، فهو سبحانه يعلم ما يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله.

قال ابن عاشور: وأصل معنى الإيعاء: جعل الشيء وعاء والوعاء بكسر الواو الظرف لأنه يجمع فيه، ثم شاع إطلاقه على جمع الأشياء لئلا تفوت فصار مشعرا بالتقتير، ومنه قوله تعالى (وجمع فأوعى) وفي الحديث (لا توعي فيوعي الله عليك) واستعمل في هذه الآية في الإخفاء لأن الإيعاء يستلزم الإخفاء فهو هنا مجاز مرسل.

=

=

قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الانشقاق: ٢٤].

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: فبشر يا محمد هؤلاء المكذّبين بآيات الله بعذاب أليم لهم عند الله موجع".

قال ابن كثير:"أي: فأخبرهم - يا محمد - بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذابا أليما".

قال الزجاج:"المعنى: اجعل بدل البشارة للمؤمنين بالجنة والرحمة والرضوان، للكفار العذاب الأليم".

قال السعدي:"وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًا، فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله" ، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم.

قال بعض العلماء: ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار.

كما قال تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم).

وقال تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم).

وقال تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم).

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الانشقاق: ٢٥].

قال الطبري:"يقول: إلا الذين تابوا منهم وصدّقوا، وأقرّوا بتوحيده، ونبوّة نبيه محمد ﷺ، وبالبعث بعد الممات، وأدَّوا فرائض الله، واجتنبوا ركوب ما حرّم الله عليهم ركوبه".

=

=

قال ابن كثير:"هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا - أي: بقلوبهم - وعملوا الصالحات بجوارحهم".

قال السعدي:"ومن الناس فريق هداهم الله، فآمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فآمنوا وعملوا الصالحات".

عن زيد بن أسلم:" {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

قال الحسن: "من أدى الفراض فقد استكمل الإيمان، ومن لم يؤد الفرائض فلم يستكمل الإيمان".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [الانشقاق: ٢٥]، أي:"لهم أجر في الآخرة غير مقطوع ولا منقوص".

قال ابن كثير:" {لَهُمْ أَجْرٌ}، أي: في الدار الآخرة {غَيْرُ مَمْنُونٍ}".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [الانشقاق: ٢٥]، وجوه:

أحدها: غير محسوب، قاله مجاهد ،وإبراهيم النخعي ، ويحيى بن سلام.

الثاني: غير منقوص، قاله ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا... يعطي بذلك ممنونا ولا ترقا

الثالث: أجر بغير عمل. قاله الضحاك.

الرابع: غير مقطوع، قاله ابن عباس ، والفراء ، وابن قتيبة.

=

=

قال السمعاني:"وهو المعروف".

قال السعدي:"أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

قال الفراء:"والعرب تقول: ضعفت منتي عن السفر، ويقال للضعيف: المنين، وهذا من ذلك".

قال أبو عبيدة:"ويجئ أيضا «مَمْنُونٍ»: مقطوع، والحبل المقطوع: ممنون.

قال الزجاج:"قال أهل اللغة: «غير ممنون»: غير مقطوع، يقال: منيت الحبل. إذا قطعته".

الخامس: ليس فيه منّ. أي: لا يمتن به عليهم أحد - سوى الله - منة تكدر النعمة عليهم. قاله أبو عبيدة ، والزجاج ، والنحاس.

وروي عن الحسن قال:"غير ممنون عليهم مِن أذًى".

وحكي الماوردي:"غير مكدّر بالمن والأذى،-وقال-" وهو معنى قول الحسن.

قال ابن كثير:"وقال بعضهم: {غَيْرُ مَمْنُونٍ} عليهم، وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما سرمدًا، والحمد لله وحده أبدا؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]".

قال الطبري: أي: "يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ثواب غير محسوب ولا منقوص".

- قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه.

(لهم أجر) أي: ثواب.

=

=

- وسمي الثواب أجرا تشبيها له بأجرة الأجير، لأن الله بكرمه وفضله تكفل بهذا الثواب وأوجبه على نفسه.

(غير ممنون) أي غير مقطوع، بل هو أجر دائم مستمر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى (عطاء غير مجذوذ).وقال تعالى (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين).

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه - تعالى - {بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨)} [الانشقاق: ١٦ - ١٨]، فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل:

أحدها: "الشفق"؛ وهو في اللغة: الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع.

قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: "الشفق"؛ الحمرة في السماء.

وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء، ومنه قولهم: شيء شفق: لا تماسك له لرقته، ومنه "الشفقة" وهي: الرقة، وأشفق عليه: إذا رق له، وأهل اللغة يقولون: "الشفق" بقية ضوء الشمس وحمرتها.

ولهذا كان الصحيح أن "الشفق" الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدا لوقت المغرب، فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته، ويطول لبثه، ويكون حاصلا مع بعد الشمس عن الأفق.

ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "الشفق: الحمرة".

والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا احمر، حكاه الفراء.

وكذلك قال الكلبي: "الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب".

وكذلك قال مقاتل: "هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة".

=

وقال عكرمة: "هو بقية النهار"؛ وهذا يحتمل أن يريد به أن تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار.
وقال مجاهد: "هو النهار كله". وهذا ضعيف جدا، وكأنه لما رآه قابله بـ "الليل وما وسق"، ظن أنه النهار، وهذا ليس بلازم.
الثاني: قسمه بالليل وما وسق، أي: وما ضم، وحوى، وجمع.
والليل آية، وما ضمه وحواه آية أخرى. والقمر آية، واتساقه آية أخرى.
و"الشفق" يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى، فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق، فإدبار النهار آية، وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما للآخر آية، والشفق الذي هو متضمن للأمرين آية.
والليل آية، وما حواه آية، والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه - وهو امتلاؤه نورا - آية، ثم أخذه في النقص آية. وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله.
ولهذا شرع عند إقبال الليل وإدبار النهار ذكر الرب - تعالى - بصلاة المغرب، وفي الحديث: "اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك، وحضور صلواتك". كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار.
ولهذا يقسم - سبحانه - بهذين الوقتين كقوله ﷻ: {والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤)} [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وهو يقابل إقسامه بـ "الشفق"، ونظير إقسامه بالليل {إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨)} [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عند كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم

=

أثره = شرع - سبحانه - في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد، {أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير (١٩)} [العنكبوت: ١٩].

فصل: وقوله تعالى: {لتركبن طبقا عن طبق (١٩)} [الانشقاق: ١٩]؛ الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، و"لتركبن" وما بعده مستأنف.

وقرئ "لتركبن" بضم "الباء" للجمع، و"لتركبن" بفتحها.

فمن فتحها؛ فالخطاب عنده للإنسان، أي: لتركبن أيها الإنسان.

وقيل: هو للنبي ﷺ خاصة.

وقيل: ليست "الباء" للخطاب، ولكنها للغيبة، أي: لتركبن السماء طبقا بعد طبق.

ومن ضمها؛ فالخطاب للجماعة ليس إلا.

فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى: لتركبن السماء حالا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله - تعالى - من الانشقاق، والانفطار، والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، ومورانها، وتفتحها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ودل على السماء ذكر الشفق والقمر، وعلى هذا فيكون قسما على المعاد، وتغير العالم.

=

=

ومن قال: الخطاب للنبي ﷺ؛ فله ثلاثة معان:

لتركبن سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس – في رواية مجاهد –، وقول مسروق، والشعبي؛ قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسماوات: السبع الطباق.

والمعنى الثاني: لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله تعالى.

والمعنى الثالث: لتركبن حالا بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه الله إياه.

ومن قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس، فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالا بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لتصيرن الأمور حالا بعد حال".

وقيل: لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حيا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقا آخر وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق الموت وشأنه، ثم ركوبه طبق ما بعده في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقا عديدة، لا يزال يتنقل فيها حالا بعد حال إلى دار القرار، فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله – سبحانه – بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيد قراءة الضم ، وقال: "المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ؛ فإنه

=

=

ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه وشماله، ثم ذكر بعدها قوله: {فما لهم لا يؤمنون (٢٠)}، فذكر كونهم طبقا بعد طبق".
قال الواحدي: "وهذا قول أكثر المفسرين، قالوا: لتركبن حالا بعد حال، ومنزلا بعد منزل، وأمرا بعد أمر".
قال سعيد بن جبير، وابن زيد: "لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى".
وقال عطاء: "شدة بعد شدة".
وقال أبو عبيدة: "لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل".
وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير الله - سبحانه - العالم، وتصريفه له كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له، ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولا حي، ولا مريد ، ولا حكيم، ولا عليم، فكلاهما في الامتناع سواء.
فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد، ولهذا عقب ذلك بقوله: {فما لهم لا يؤمنون (٢٠)}؛ إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام.
وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك بأفصح عبارة، وأبينها، وأجزلها، وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة، غاية الحق بغاية البيان والفصاحة.
{بل الذين كفروا يكذبون (٢٢)} ولا يصدقون بالحق جحودا وعنادا، والله أعلم
=

=

بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله، {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)}.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله فيها: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) (الإنشقاق: ٢)، وتكرر ذلك بعد لا سؤال فيه لأن كل واحد من الإخبارين معقب به غير ما أعقب به الآخر، فالأول إخبار عن السماء في طاعتها وانقيادها، والآخر إخبار عن الأرض بمثل ذلك، وإن كل واحدة منهما سمعت وانقادت، انفطرت السماء وتشققت وانتثرت نجومها، وأزيلت الجبال عن الأرض فامتدت وألقت ما تحمله من الأموات وغير ذلك مما استودعته من المعادن والكنوز وتخلت عنها سامعة مطيعة، وإن كان الإخبار الأول عن السماء والآخر عن الأرض فلا تكرار.

آية ثانية منها قوله (تعالى): (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) (الإنشقاق: ٢٢ - ٢٣)، وفي سورة البروج: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) (البروج: ١٩ - ٢٠)، للسائل أن يسأل عن اختصاص الأول بقوله: "يكذبون " بلفظ المضارع والثانية بقوله: (في تكذيب) بلفظ المصدر مع اتحاد المعنى المقصود؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخراوي كله لم يقع بعد وهم مكذبون بجميعه، فجئ هنا باللفظ المقول على الاستقبال - وإن كان يصلح للحال - ليطابق الإخبار، لأنه عما يأتى ولم يقع بعد، فجئ بما يطابقه في استقباله. فأما آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) (البروج: ١٧ - ١٨)، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل: (في تكذيب)،

=

=

وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم وأن ذلك شأنهم أبدًا فيما أخبرهم به وفيما يدعوهم إليه وينهاهم عنه، ولفظ المصدر أعطى لما قصد من هذا من لفظ المضارع، فجيء في كل من الآيتين بما يناسب.

الفهرس

